قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الإسلام والشرق السلافي
الشمال البروتستنتي

ترجمة

فؤاد أندراوس

الجزء الثالث من المجلد العاشر

(٤١)

جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
تونس

دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع
DAR AL JIL - EDITEUR DISTRIBUTEUR
بيروت

دار الجيل : ص.ب ٨٧٣٧ - ت : ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس : ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي : دار جيلاب - بيروت - لبنان

المجلد العاشر

الجزء الثالث

الكتاب الرابع

الاسلام والشرق السلافى

١٧١٥ - ١٧٩٦

الفصل السادس عشر

الإسلام

١٧١٥ – ١٧٩٦

١ – الأتراك

حوصرت المسيحية فى القرن الثامن عشر بين فولتير ومحمد (صلى الله عليه وسلم) بين حركة التنوير والإسلام . فمع أن العالم الإسلامى كان قدفقد سطوته الحربية منذ رد سوبيسكى الترك عن فيينا عام ١٦٨٣ ، إلا أنه ظل مسيطراً على المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر وشبه جزيرة العرب وفلسطين وسوريا وفارس وآسيا الصغرى والقرم وجنوبى روسيا وبسارابيا وملدافيا وولاشيا (رومانيا) وبلغاريا والصرب (يوغسلافيا) والجبل الأسود والبوسنة ودلماشيا واليونان وكريت وجزر الارخبيل وتركيا .وهذه الأقطار كلها – باستثناء فارس – كانت جزءا من امبراطورية الأتراك العثمانيين المترامية الأطراف. فعلى الساحل الدلماشى بلغوا الادرياتيك وواجهوا الولايات البابوية ، وعلى البوسفور تسلطوا على المنفذ البحرى الوحيد من البحر الأسود ، وكان فى مقدورهم أن يقفوا سداً منيعاً بين الروس والبحر المتوسط متى شاءوا .

فإذا عبرنا الأقاليم المجرية إلى بلاد المسلمين لم نلحظ للوهلة الأولى فرقاً يذكر بين المدنيتين المسيحية والإسلامية . فهنا أيضا كان فقراء المسلمين السذج الأتقياء يفلحون الأرض تحت إمرة سادتهم الأغـــنياء الأذكياء المتشككين . ولكن المشهد الاقتصادى يتغير فيما وراء البوسفور : فلايكاد المزروع من الأقاليم يبلغ ١٥٪ ، أما الباقى فصحراء أو جبال لاتتيح غير

التعدين أو الرعي ، هناك كان الإنسان الذى يتميز به الإقليم هو البدوى الذى أسود لونه وتحمص جلده من الشمس ، وتدثر على نحو معقد اتقاء للرمال والقيظ. أما المدن الساحلية أو المتفرقة هنا وهناك كانت حافلة بالتجارة والحرف اليدوية ، ولكن الحياة بدت أكثر دعة واسترخاء مما كانت فى المراكز المسيحية ، فالنساء يلزمن بيوتهن أو يسرن فى وقار شديد تحت أحمالهن ووراء خمرهن ، والرجال يمشون الهوينا فى الشوارع . وكان جل الصناعة يدوياً ، وورشة الصانع ملحقاً يتصدر بيته ، وكان يدخن غليونه ويتجاذب الحديث مع غيره أثناء العمل ، وأحياناً يشارك زبوناً قهوته .

ويمكن القول بوجه عام إن التركى العادى كان قانعاً غاية القناعة بمدنيته ، حتى لقد ظل قروناً لايطيق أى تغيير ذى بال . وكانت التقاليد هنا كما كانت فى التعاليم الكاثوليكية مقدسة قداسة التنزيل . أما الدين فكان أعظم قوة وانتشارا فى الأقطار الإسلامية مما كان فى العالم المسيحى ، والقرآن هو الشريعة والديانة معاً ، وفقهاء الإسلام شراح الشريعة الرسميون . وكان الحج إلى مكة المكرمة يقود كل عام درامته المثيرة فوق رمال الصحراء وعلى الطرق المتربة . أما فى الطبقات العليا فإن البدع العقلانية التى طلع بها معتزلة القرن الثامن الميلادى ، والتى واصلها الشعراء والفلاسفة المسلمون طوال عصر الإيمان ، لقيت قبولا واسعاً مستوراً . كتبت الليدى مارى ورتلى مانتاجيو من الاستانة فى ١٧١٩ تقول :

« إن الأفندية (أى الطبقة المتعلمة) .. ليسوا أكثر إيماناً بالوحى الذى أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) منهم بعصمة البابا . ويصرحون بالربوبية بينهم وبين من يثقون بهم ولايتكلمون على شريعتهم (أى ماعلميه القرآن الكريم) إلا بوصفها مؤسسة سياسية ، تصلح الآن لأن يتقيد بها العقلاء من الناس وإن كانت أصلا من عمل رجال السياسة والمتحمسين من رجال الدين » (١) .

وانقسم الإسلام بين مذهبى السنة والشيعة كما انقسمت مسيحية الغرب

بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ثم قام مذهب جديد فى القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب ، أحد شيوخ نجد — وهو الهضبة الوسطى التى نعرفها اليوم بالعربية السعودية . وكان الوهابيون من الإسلام أشبه بالبيورتان من المسيحية : استنكروا التعبد للأولياء ، وهدموا أضرحة المشايخ والشهداء ، واستهجنوا لبس الحرير والتدخين ، ودافعوا عن حق كل فرد فى أن يفسر القرآن لنفسه[٢] . وقد شاعت الخرافات فى جميع المذاهب على السواء ، ولقى دجاجلة الدين كما لقيت المعجزات الكاذبة التصديق السريع ، وكان جل المسلمين يعدون مملكة السحر عالما حقيقيا كعالم الرمال والشمس الذى يكتنفهم [٣] .

أما التعليم فهيمن عليه رجال الدين الذين آمنوا بأن أضمن سبيل لتكوين المواطنين الصالحين أو الأتباع الأوفياء للقبيلة هى ترويض الخلق لا تحرير الفكر . وكان رجال الدين قد انتصروا فى معركتهم مع العلماء والفلاسفة والمؤرخين الذين ازدهروا أيام الإسلام الوسيط ، فانتكس الفلك إلى التنجيم ، والكيمياء إلى الخيمياء ، والطب إلى السحر ، والتاريخ إلى الأساطير . ولكن فى كثير من المسلمين حلت الحكمة الصامتة محل التعليم والتفقه فى المعرفة . وكما قال داوتى الحكيم البليغ : « إن العرب والترك ، الذين كتبهم هى وجوه الرجال ... والذين شروحهم وتفاسيرهم هى الأقوال المأثورة السائرة ومئات الأمثال الحكيمة القديمة السائدة فى عالم الشرق ، هؤلاء قريبون من إدراك الحقائق الإنسانية . إنهم شيوخ راسخون فى الحكمة وهم لا يزالون شبابا ، ولا ينسون بعد ذلك إلا القليل مما تعلموا [٤] » . وقد أكد ورتلى مونتجيو فى خطاب كتبه عام ١٧١٧ لأديسون أن « الرجال ذوى الشأن من الأتراك يبدون فى أحاديثهم مهذبين لا يقلون تحضرا عن أى رجال التقيت بهم فى فى إيطاليا » [٥] ، أجل فالحكمة ليس لها وطن .

ولقد كان عالم الإسلام على الدوام غنيا بالشعراء . ذلك أن الصحارى الرهيبة ، والسماء المحيطة ، والنجوم المنتشرة إلى مالا نهاية فى الليالى الصافية ، كل أولئك حرك الخيال كما حرك الإيمان الدينى بالإحساس بما فى الكون من

أسرار ملغزة ، وأضفى دم الشباب المضطرم بالرغبة المكبوتة على مفاتن النساء تصورا مثاليا ، تلك المفاتن التى زدنها إغراء فى ذكاء وحكمة باحتجابهن وحيائهن . وفى عام ١٧٧٤ نشر السير وليم جونس كتابه « شروح على الشعر العربى » الذى كشف للعقول اليقظة فى غربى أوربا عن حب المسلمين للشعر وما ينطوى عليه من رقة وعاطفة مشبوبة . أما أعظم فحول الشعراء العثمانيين فى القرن الثامن عشر فهو نديم ، الذى تغنى بشعره أيام السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ — ٣٠) :

إيه أيها الحب الحائر ، إن قلبى وروحى ضاعا هباء
وفرغ منى الصبر وذهب الجلد
ذات مرة كشفت عن صدرها البديع ،
فإذا الراحة والسلام يهربان من صدرى . . .
لها خال فى خدها وثنى ، وضفائر وثنية ، وعيون وثنية ...
أقسم أن دنيا جمالها القاسى بأسرها وثنية خالصة .
ولقد وعدتنى بقبلات على نحرها ، وبقبلات على صدرها ،
ولكن ويلى فقد حنثت الوثنية بوعدها السابق .
يا للرشاقة المحببة التى أبرزت بها غدائرها من تحت طربوشها ،
كل مخلوق أبصرها تأمل حسنها مشدوها لتوه .
يا قاسية القلب ، لأجلك يبكى الرجال وينوحون يأسا ،
ان قدك الرقيق لزكى من كل شذى وأبهج من كل لون ،
فليت شعرى هل أرضعتك وردة عطرة من ثديها .
وأنك لتقبلين أيتها الحلوة وفى إحدى يديك وردة وفى الأخرى كأس .
فلا أدرى أى الثلاثة آخذ — الوردة أم الكأس أم أنت .

لكأن نبعاً متدفقاً تفجر من نهر الحياة :

حين طلعت على بذلك القد اللدن البديع [٦] .

وكان على النساء الإفادة ما استطعن من قدودهن اللدنة الرشيقة ، فمتى ذبلت محاسنهن جر عليهن الزمن ذيول النسيان فى زوايا الحـريم . وكان لفظ « الحريم » هذا لا يقصر على أزواج الرجل وسراريه ، بل ينسحب على كل إناث بيته . وقد ظل الحجاب مضروباً عليهن فى القرن الثامن عشر ، وكان يسمح لهن بالخروج من الدار ، ولـكن (بعد ١٧٥٤) كان عليهن إذا خرجن أن يخفين كل عضو فيهن إلا عيونهن الساحرة ، ولا يدخل جناحهن غير الأب ، أو الأخ ، أو الزوج ، أو الإبن . وحتى بعد الموت كان المفروض أن يتصل هذا الفصل بين الجنسين فى الدار الآخرة . فالمؤمنات لهن جنتهن غير جنة الرجال ، والمؤمنون يمضون إلى فردوس آخر ترفه فيـه عنهم حور من الجنة أبكار متجددات الشباب . وكانت خيانة المرأة لزوجها تعاقب عقاباً صارماً ويندر حدوثها ، وكان العربى يحلف بـ « شرف حريمه » كأغلظ الأيمان [٧] . وروت الليدى مارى أن النساء التركيات اللاتى سمح لها بلقائهن لم تضقن بالحجاب الذى عزلهن عن الرجال . وقد رأت بعضهن يعدلن فى جمال الوجه وحسن القـد ورفاهة الطبع « أشهر حساننا الإنجليزيات [٨] » . فلما أذن لها بدخول أحد الحمامات العامة الكثيرة ، تبين لها أن النساء يمكن أن يكن جميلات حتى لو تجردن من الثياب . وقد أفتتنت على الأخص بنساء الطبقة الراقية فى حمام بأدرنة . دعونها لخلع ملابسها والاستحمام معهن ، فاعتذرت . « ولما اشتد إلحاحهن على اضطررت فى النهاية إلى أن أفتح قيمصى وأريهن مشدى (الكورسيه) ، فأقنعهن هذا تماماً إذ رأيت أنهن اعتقدن أنى حبيسة بقيود تلك الآلة بحيث لا أقوى على فتحها ، وقد عزون هذه الحيلة لتدبير زوجى . وعلقت إحـداهن قائلة « أنظرن كم يقسو الأزواج الإنجليز على نسائهن المساكين [٩] » .

وكان الأتراك فخورين بحماماتهم العامة ، يرون أنفسهم على العموم شعبا

أنظف من النصارى الكفار . وكان الكثيرون من أفراد الطبقتين العليا والوسطى يختلفون إلى الحمام التركى مرتين فى الأسبوع ، وأكثر منهم يختلفون مرة فى الأسبوع . هناك يجلسون فى غرفة ملئت بخارا حتى يتصببوا عرقا ، ثم يأتى عامل فيدعك كل مفصل فى أجسامهم ويدلك لحمهم ويكيسه بقطعة من القماش الخشن ثم يغسله . لا عجب إذن إن لم نسمع الكثير عن روماتيزم المفاصل فى تركيا . على أن أمراضا أخرى تفشت بينهم لاسيما الرمد ، فالرمال والذباب كانت تنقل العدوى إلى العيون . ولكن الأتراك كما أسلفنا علموا أوربا التطعيم ضد الجدرى .

ولم يخامرهم شك فى أن مدنيتهم تفوق مدنية الاقطار المسيحية . صحيح أنهم سلموا بأن الرق كان أوسع انتشارا فى بلاد المسلمين ، ولكنهم لم يروا فرقا حقيقيا بين الارقاء فى تركيا والاقنان (Serfs) أو الخدم (Servants) فى العالم المسيحى ، وقد اتفقت معهم فى الرأى الليدى مارى واصل اللفظ . وكانوا لا يقلون عنا غلوا فى حب الأزهار والعناية بها ، فكانت لهم مثلنا مباريات مجموعة فى تربية زهرة الطوليب ؛ كما شهدت الآستانة فى عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ — ٣٠) ؛ ويبدو أن الأتراك هم الذين أدخلوا إلى أوربا المسيحية بطريق البندقية وفيينا والأراضى الواطئة أزهار الطوليب والياقوتية (Hyacinth) الشرقية وحوزان الحدائق (ranunculus) كما أدخلوا أشجار القسطل (أبى فروة) — والميموزا [١٠] .

أما الفن فى تركيا فكان الآن فى اضمحلال شأنه فى معظم الأقطار المسيحية .واعتبر الأتراك أنفسهم أرقى فى صناعات الفخار والنسيج والأبسطة والزخرفة وحتى فى المعمار . فقد ورثوا عن آبائهم كيف يضفون على التصوير التجريدى منطقاً وتواصلا ودلالة . وفاخروا ببهاء القاشانى الذى صنعوه (كما يرى على نافورة أحمد الثالث فى الآستانة)، وببريق قرميدهم الذى لا ينطفىء ، وبصلابة منسوجاتهم ورقتها » وبتألق أبسطتهم ومتانتها . واشتهرت الأناضول والقوقاز فى هذه الحقبة بوبرهما اللامع وتصميم السجاد الهندسى الدقيق ، لاسيما سجاجيد الصلاة التى توجه أعمدتها وأقواسها المدببة

المصلى الراكع صوب المحراب الذى يشير فى كل مسجد إلى قبلة مكة المكرمة . كذلك فضل الأتراك جوامعهم ذات القباب والقرميد والمآذن على أبراج الكتدرائيات القوطية وعقودها وفخامتها الكابية . وشيدوا حتى فى هذه الحقبة المضمحلة المساجد العظيمة فى نورى — عثمانية (١٧٤٨) ولا ليلى — يامسى (١٧٦٥) ، وحاكى أحمد الثالث طراز الحمراء فى القصر الذى شيده فى عام ١٧٢٩ . أما الآستانة فلعلها كانت أروع العواصم الأوربية ، كما كانت أوسعها رقعة برغم شوارعها المتشابكة وأحيائها الفقيرة الكثيرة الضجيج ، وكان سكانها البالغون مليونين من الأنفس (١١) مثلى سكان لندن ، وثلاثة أمثال سكان باريس ، وثمانية أمثال سكان روما(١٢). وحين أطلت الليدى مارى على المدينة والميناء من قصر السفير البريطانى ، خيل إليها أنهما « ربما يؤلفان معاً أبهى مشهد فى العالم » (١٣) .

على عرش هذه الإمبراطورية العثمانية ، من الفرات إلى الأطلنطى ، تربع سلاطين عصر الاضمحلال . ولقد نظرنا فى موضع آخر من هذا الكتاب (١٤) فى أسباب ذلك الاضمحلال : وهى انتقال تجارة غربى أوربا التى تقصد آسيا ، إذ أصبحت تدور حول أفريقيا بحراً بدلا من طريقها البرى الذى كان يخترق مصر أو غربى آسيا ؛ وتخريب قنوات الرى أو إهمالها ؛ وتوسع الامبراطورية وامتدادها إلى مسافات مترامية لاتتيح لها الحكم المركزى الفعال وما ترتب على ذلك من استقلال الباشوات ونزوع الولايات إلى الانفصال ؛ وتدهورت الحكومة المركزية لتفشى الرشوة والعجز والكسل ، وتمرد الانكشارية المرة تلو المرة على النظام الصارم الذى كان له الفضل فيما بلغوا من قسوة وتسلط القدرية والجمود على الحياة والفكر ، وتراخى السلاطين الذين استطابوا خدور النساء وآثروها على ساحات الوغى .

وقد استهل أحمد الثالث حكمه بسماحة للإنكشارية بأن يملوا عليه اختياره لكبير وزرائه (الصدر الأعظم) . وهذا الوزير هو الذى قبل رشوة بلغت ٢٣٠٫٠٠٠ روبل بعد أن قاد ٢٠٠٫٠٠٠ تركى ضد ٣٨٫٠٠٠ جندى من جيش بطرس الأكبر عند نهر بروت ، لقاء سماحه للقيصر المحاصر

بالفرار (٢١ يوليو ١٧١١) . وحدث أن حرضت البندقية أهل الجبل الأسود على الثورة على تركيا ، فأعلنت هذه الحرب عليها (١٧١٥) وأتمت فتح كريت واليونان . فلما أن تدخلت النمسا ، أعلنت تركيا الحرب عليها (١٧١٦) ، ولكن أوجين أمير سافوا هزم الترك فى بترفارداين وأكره السلطان بمقتضى معاهدة بساروفتز (١٧١٨) على الجلاء عن المجر ، والنزول عن بلغراد وأجزاء من ولاشيا للنمسا ، وتسليم البندقية حصونا فى ألمانيا ودلماشيا . ولم تسفر المحاولات التى بذلتها تركيا لتعويض هذه الخسائر بالغارات تشنها على فارس الا عن المزيد من النكسات والهزائم ، وقد قتل الغوغاء بقيادة عامل حمام الوزير إبراهيم باشا وأكرهوا أحمد على التنازل عن العرش (١٧٣٠) .

وجدد ابن أخيه محمود الأول (١٧٣٠ — ٥٤) الصراع مع الغرب ليفرض بالحرب تدفق الضرائب وتعاليم الدين ، وانتزع جيش تركى أوخاكوف وكلبورون من الروسيا ، وأسترد جيش آخر بلغراد من النمسا . غير أن أضمحلال تركيا عاود سيرته الأولى فى عهد مصطفى الثالث (١٧٥٧ — ٧٤) . ففى ١٧٦٢ أعلنت بلغاريا استقلالها . وفى ١٧٦٩ خاضت تركيا الحرب مع الروسيا منعاً لانتشار سلطان الروسيا فى بولندا . وهكذا بدأ ذلك الصراع الطويل الذى أنزلت فيه جيوش كاترين الكبرى هزائم ساحقة بالأتراك . فلما مات مصطفى أبرم أخوه عبد الحميد الأول (١٧٧٤—٨٩) معاهدة مذلة تسمى قجوق قينارجى (١٧٧٤) ، قضت على النفوذ التركى فى بولندا وجنوبى روسيا ومالدافيا وولاشيا ، وعلى هيمنة الأتراك على البحر الأسود . وجدد عبد الحميد الحرب فى ١٧٨٧ ، فهزم هزائم منكرة ، ومات كمدا . وكان على تركيا أن تنتظر حتى يجىء كمال باشا (أتاتورك) لينهى قرنين من الفرضى ويجعل منها دولة حديثة .

٢ — الإسلام فى أفريقيا

بعد أن فتح العثمانيون مصر (١٥١٧) أنابوا عنهم فى حكمها الباشوات والولاة . وسمحوا للمماليك الذين كانوا يحكمون مصر منذ ١٢٥٠ بالاحتفاظ

بساطتهم المحلية بكوات على السنجقيات الاثنتى عشرة التى قسمت إليها البلاد . وبينما كان الباشوات يبددون عافيتهم فى البذخ والترف ، درب البكوات جنودهم على الولاء لأشخاصهم . وسرعان ما تحدوا سلطة الولاء المكروهين. وكان أكثر هؤلاء الحكام المحليين إقداما هو على بك [الكبير] ، الذى كان فى طفولته قد بيع عبدا . ففى ١٧٦٦ خلع الباشا وفى ١٧٦٩ أعلن استقلال مصر . وانتشى بخمرة النصر فقاد جنده المماليك ليفتح جزيرة العرب ، واستولى على مكة . واتخذ لقب سلطان مصر وخاقان البحرين (الأحمر والمتوسط) . وفى ١٧٧١ أوفد « أبا الذهب» على رأس ثلاثين ألف مقاتل لفتح الشام . ففتحها ، ولكنه تحالف مع الباب العالى ، وقاد جيشه عائدا إلى مصر . وفر على بك إلى عكا ، وجند جيشا آخر . والتقى بقوات أبى الذهب والأتراك . وقاتل حتى أثخن بالجراح فعجز عن المضى فى القتال ، ووقع فى الأسر . ثم قضى نحبه بعد أسبوع (١٧٧٣) . وعادت مصر ولاية عثمانية من جديد .

ودون ذبذبات السلطة ونشوات القتل هذه استطاعت مراكب التجارة وقوافلها ، واجتهاد الحرفيين ، وفيضان النيل السنوى ، وعرق الفلاحين فى التربة الطميية الخصبة ، استطاعت كلها أن تبقى فى مصر على اقتصاد لم يجن ثماره غير قلة حبتها الطبيعة أو الظروف بالكفاية أو المنصب . وأنتج جهد الحقول والبحار محصولها طعاما للمدن وخصوصا الأسكندرية التى كانت من أعظم الثغور ، والقاهرة التى كانت من أكثر العواصم سكانا فى عالم القرن الثامن عشر . وكانت الشوارع ضيقة لتحجب الشمس ، وقد زينت بالمشربيات والشرفات التى يستطيع الحريم اختلاس النظر منها إلى الحياة من تحتهن . وكانت الشوارع الكبيرة تعج بالحرف التى تحدت تطفل رأس المال أو إنتاج الآلات . وكانت كل صناعة فى أقطار الإسلام فنا ، وحلت الجودة محل الكم . فصنع الفقراء التحف والطرف للأغنياء ولكنهم لم يبيعوهم قط أباءهم وعزة نفوسهم .

وقام فى القاهرة ثلاثمائة مسجد تدعم فقراءها بالرجاء ، وتزين

المدينة بالقباب الضخمة والأروقة المعمدة الظليلة والمآذن الشامخة . وكان أحدها وهو الجامع الأزهر جامعة الإسلام الأولى ، يؤمه من الطلاب ألفان أو ثلاثة من أقصى بقاع الأرض ، من ماليزيا شرقاً إلى المغرب غربا ، ليتعلموا لغة القرآن وعلوم البلاغة والتوحيد والأخلاق والشريعة ، وكان خريجو الجامعة يؤلفون جماعة العلماء ، ومنهم يختار المعلمون والقضاة . لقد كان نظاما وضع لسنية صارمة في الدين والأخلاق والسياسة .

وهكذا لم يكد يطرأ على الأخلاق أى تغيير من قرن إلى قرن. وكانت سن بلوغ الأحداث متقدمة عنها فى الأقطار الشمالية ، فتزوج كثير من البنات فى الثانية أو الثالثة عشرة ، وبعضهن فى العاشرة ، وبقاء الفتاة بغير زواج إلى السادسة عشرة كان عاراً . ولم يقدر على تعدد الزوجات الذى أباحته الشريعة الإسلامية إلا أغنياء القوم . أما الزوج الذى تخونه زوجته فلم يكن من حقه الشرعى أن يقتل هـــذه الزوجة المجرمة فحسب ، بل كان يلقى التشجيع من الرأى العام (١٥) . وكان الفكر الإســـلامى ، كالمسيحى ، يعتبر المرأة مصدراً رئيسياً للشر ، لا يمكن السيطرة عليه إلا بإخضاعها اخضاعا صارماً . وكان الأطفال ينشأون على نظام الحريم ، فيتعلمون أن يحبوا أمهم وأن يخشوا أباهم ويجلوه ، وكانوا كلهم تقريباً يتعلمون ضبط النفس وحسن الأدب (١٦) . وساد حسن السلوك جميع الطبقات ، مع شىء من يسر الحركة ورشاقتها ، لعله أخذ عن النساء اللائى ربما أكتسبنه من حمل الأثقال على رءوسهن . وكان المناخ مانعاً من العجـــلة مشجعا على الكسل ؟

ولم يمنع تعدد الزوجات البغاء ، ففى استطاعة البغايا توفير الاثارة التى أخمدها طول الألفة . وتخصصت غوانى مصر فى الرقصات الفاجرة ، وبعض الآثار القديمة تكشف عن قدم هذا الاغراء . وكانت كل مدينة كبرى تخصص للبغايا حيا يمارسن فيه حرفتهن دون خوف من عقاب القانون . وكانت النساء اللائى يحذقن الراقصات الفاجرة ، شأنهن فى جميع الحضارات ،

يستأجرن لهز أجسادهن أمام محافل الذكور ، وفى بعض الحالات كانت النسوة أيضاً يستمتعن بمشاهدة هذا الرقص (١٧) .

أما الموسيقى فكانت تخدم الحب والحرب ، فهى تستفز المهاجمين وتهدىء المهزومين . وكان الموسيقيون المحترفون من الجنسين يؤتى بهم للترفيه . كتب إدوارد لين فى ١٨٣٣ يقول « سمعت فى القاهرة أعظم الموسيقين شهرة وأطربنى أغانيهم أكثر من أى موسيقى أخرى أستمتعت بها فى حياتى (١٨) . وكانت الآلة المفضلة هى « الكمنجة » ، وهى ضرب من الفيولا النحيلة ، ولها وتران من شعر الخيل على صندوق مصمت مصنوع من جوزة هند شقت بين وسطها ورأسها وغطيت بقشر سمك مشدود(*) . وكان العازف يتربع ويسند طرف الآلة المدبب على الأرض ، ويضرب أوتارها بقوس من شعر الحصان وخشب الدردار . أو قد يقعد العازف وفى حجره قانون كبير وينقر الأوتار بريشة من القرن ملصقة بسبابتيه . وتحول العود القديم الآن إلى شكل الجيتار . فإذا أضفت نايا ، وماندولينا ، وطمبورينا ، أكتمل لك أوركسترا يروق الذوق المتحضر ، خيراً من تلك الموسيقى البدائية التى تهيج اليوم المحافل الغربية .

أما « دول البربر » أى البلاد التى زعموا أنها « بربرية » أو همجية — وهى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش — فقد دخلت التاريخ فى القرن الثامن عشر أولا بفضل بطولات قراصنتها أو اغتيال « باياتها » أو « داياتها » وقد احتفظت هذه الحكومات باستقلالها الفعلى بارسالها « الهدايا » بين الحين والحين إلى السلاطين بالآستانة . وكان قوت الشعب يأتى أكثره من الزراعة أو القرصنة ، وكانت الفدية التى تؤدى عن الأسرى النصارى جزءا هاماً من الدخل القومى : غير أن قباطنة القراصنة كان أكثرهم نصارى (١٩) . أما الفنون فظلت محتفظة بوجود قلق ، ولكن البنائين المغاربة احتفظوا بقدر من المهارة أتاح لهم أن يزركشوا بالقرميد الأزرق والأخضر المتألق « باب منصور » الفخم الذى أضيف فى ١٧٣٢ بوابة بقصر مولاى إسماعيل وجامعه الضخم

(*) الوصف ينطبق على الربابة لا على الكمنجة (المترجم) .

الذى ابتناه فى القرن السابع عشر فى مكناس ، وكانت آنئذ مقر سلاطين مراكش . أما مولاى اسماعيل هذا فقد أقر النظام فى حكمه الذى امتد خمسة وخمسين عاماً (١٦٧٢ — ١٧٢٧) وأنجب مئات الأبناء، ورأى فى منجزاته مايبرر طلب يد ابنة للويس الرابع عشر يضمها إلى حريمه[٢٠] . ويصعب علينا أن نسيغ أساليب حياة شديدة التباين عن أساليب حياتنا ، ولكن قد يعيننا على ذلك أن نتذكر ملاحظة قالها رحالة مغربى عند عودته من زيارة إلى أوربا « يالها من متعة أن يعود المرء إلى الحضارة » [٢١] .

٣ — الإسلام فى فارس (١٧٢٢ — ٨٩)

ولو سئل رجل فارسى فى هذه الحقبة لأعرب عن شعور بالراحة شبيه بهذا عند عودته إلى وطنه بعد مقامه حقبة فى الأقطار المسيحية أو حتى فى أقطار العثمانيين المسلمين . فالفارسى المتعلم حتى سقوط الدولة الصفوية (١٧٣٦) فى أغلب الظن كان يضع المدنية الإيرانية فى مرتبة أعلى من أى حضارة معاصرة ، ربما باستثناء الصينية . وكان يستنكر النصرانية باعتبارها انتكاسا إلى الشرك الشائع بين العوام . ولعله كان يسلم بتفوق بلاد النصارى فى العلوم والتجارة والحرب ، ولكنه كان يؤثر الفنون على العلوم ، والحرف اليدوية على الصناعة المميكنة .

كان القرن الثامن عشر قرنا أليما على فارس . فأنى لإيران وقد غزاها الأفغانيون من الجنوب الشرقى ، ولاحقتها غارات قناصة العبيد من الأزبك فى الشمال الشرقى ، وهاجمتها غارات السلب والنهب الروسية فى الشمال ، واجتاحتها المرة بعد المرة الجيوش التركية فى الغرب ، وأفقرها طغيان نادر شاه ملكها المحب للأبهة وتعسفه فى جمع الضرائب ، ومزق أوصالها الصراع الوحشى بين الأسر المتناحرة طمعاً فى العرش الفارسى — نقول أنى وكيف تستطيع إيران وقد ابتليت بهذا الاضطراب كله أن تواصل التقاليد العظمى للأدب والفن الفارسيين .

وكان البلد الذى نسميه الآن أفغانستان فى القرن السادس عشر تتقاسمه

ثلاث حكومات : كابول الخاضعة للحكم الهندى ، وبلخ الخاضعة للأزبك ، وهراة وقندهار الخاضعتان للفرس . وفى ١٧٠٦ — ٨ ثار أفغانيو قندهار بقيادة مير (أمير) فايز وطردوا الفرس . وغزا ابنه مير محمود فارس ، وخلع الحاكم الصفوى حسينا ، ونصب نفسه شاها . وقد دعم الدين سلاحه ، لأن الأفغانيين كانوا يتبعون المذهب السنى ، ويكفرون الفرس المتشيعين . وقتل محمود فى سورة غضب ثلاثة آلاف من حرس حسين وثلاثمائة من أشراف الفرس ، ونحو مائتى طفل أشتبه فى أنهم استنكروا قتل آبائهم . وبعد راحة طويلة قتل محمود فى يوم واحد (٧ فبراير ١٧٢٥) جميع الأحياء من أفراد الأسرة المالكة خلا حسينا واثنين من أبنائه الصغار . ثم التاث عقل محمود ، فقتله وهو لا يزال فى السابعة والعشرين ابن عمه أشرف (٢٢ أبريل ١٧٢٥) الذى نادى بنفسه شاها . وهكذا بدأ سفك الدماء الذى هد كيان فارس فى ذلك القرن .

واستنجد طهماسب بن حسين بروسيا وتركيا ، فاستجابت بالاتفاق على اقتسام فارس فيما بينهما (١٧٢٥) . ودخل جيش تركى فارس واستولى على همدان وقزوين والمراغة ، ولكن هزمه أشرف قرب كرمانشاه . وكان الجنود الأتراك يفتقرون إلى الحماسة ، فقد تساءلوا أى سبب يدعوهم لمقاتلة الأفغانيين ، وهم أخوة لهم سنيون على شاكلتهم ، ليردوا الصفويين الشيعيين الزنادقة إلى الحكم . وتصالح الأتراك مع أشرف ولكنهم احتفظوا بالأقاليم التى فتحوها (١٧٢٧) .

وبدا أن أشرف قد غدا الآن فى أمان ، ولكن ما مضى عليه عام حتى تحدى سلطانه المغصوب الدخيل ظهور رجل فارسى مغمور أنقض على العدو فى بضع سنين ، فحقق انتصارات من أروع وأفظع ما سجله تاريخ الحروب قاطبة . وقد ولد هذا المقاتل واسمه نادر قيلى (أى عبد الله) فى خيمة بشمال شرقى إيران (١٦٨٦) وكان يعين أباه على رعى ما يملكان من قطعان الغنم والماعز ، ولم يتح له من التعليم غير ما لقنته الحياة الشاقة المحفوفة

بالمخاطر . فلما بلغ الثامنة عشرة وخاف أباه كبيراً لأسرته اختطفه هـو وأمه المغيرون الأزبك وحملوهما إلى خيوة حيث باعوهما عبيداً . وماتت الأم فى ذل الأسر ، ولكن نادراً هرب وأصبح زعيما لعصابة لصوص ، واستولى على كالات ونيشابور ومشهد ، وأعان ولاءه وولاء هذه المدن للشاه طهماسب ، وتعهد بطرد الأفغانيين من فارس ورد عرش فارس إلى طهماسب . وقد أنجز هذا كله فى حملات متلاحقة (١٧٢٩ — ٣٠) ورد طهماسب إلى عرشه ، فعين نادراً سلطاناً على خراسان وسيستان وكرمان ومازندران .

وما لبث القائد المظفر أن شرع فى استرداد الأقاليم التى استولت عليها تركيا . فاستطاع بهزيمة الترك هزيمة فاصلة فى همدان (١٧٣١) أن يخضع العراق وأزربيجان لحكم الفرس . ثم نمى إليه نبأ تمرد فى خراسان ، فرفع الحصار عن أروان وزحف ألفاً وأربعمائة ميل عبر العراق وإيران ليحاصر هراة ، وهو زحف يتضاءل بالقياس اليه الزحف الشهير الذى عبر فيه فردريك الأكبر ألمانيا مراراً فى حرب السنين السبع . ونزل طهماسب بشخصه أثناء ذلك الى ساحة القتال ضد الترك فخسر كل ما كسبه نادر ، ونزل عن جورجيا وأرمينيا لتركيا نظير تعهد الترك بمساعدته ضد روسيا (١٧٣٢) . فأسرع نادر قافلا من الشرق وأنهى المعاهدة ، وخلع طهماسب وسجنه ، وأجلس على العرش غلاما لطهماسب لم يجاوز عمره ستة أشهر باسم الشاه عباس الثالث ، ونادى بنفسه وصيا على الصبى ، وأرسل إلى تركيا إعلاناً بالحرب :

ثم زحف على الترك بجيش عدته ثمانون ألف مقاتل جندهم بالإقناع أو بالإرهاب . وعلى مقربة من سامراء التقى بجيش عرمـرم من الترك يقودهم توبال عثمان من محفته لبتر ساقيه . وأطاقت النار مرتين على جوادى نادر أسفله ، وفر حامل علمه ظنا منه أنه قتل ، وأنقلبت عليه فرقة عربية كان يعتمد على معونتها ، وهكذا كانت هزيمة الفرس هزيمة نكراء ماحقة (١٨ يوليو ١٧٣٣) . ولكنه لم فلول جيشه فى همدان ، وجند آلافاً

جددا ، وسلحهم وأطعمهم ، ثم كر على الترك وبطش بهم في ليلان في مذبحة رهيبة لقي فيها توبال عثمان حتفه . ثم أندلعت ثورة أخرى في جنوب غربي فارس ، فشق نادر طريقه من الغرب إلى الشرق ، وهزم الزعيم المتمرد فأنتحر . وفي عودته عبر فارس والعراق ، ألتقى بثمانين ألف تركى في بغاوند (١٧٣٥) ، وهزمهم هزيمة نكراء أكرهت تركيا على إبرام صلح نزلت بمقتضاه لفارس عن تفليس وجونده وأروان .

لم ينس نادر أن بطرس الأكبر هاجم فارس في ١٧٢٢ — ٢٣ ، واستولى على أقاليم جيلان وأستراباد ومازندران على بحر قزوين ، وعلى مدينتي دربند وباكو . وكانت روسيا قد ردت الأقاليم الثلاثة لفارس (١٧٣٢) لأنشغالها في جهات أخرى . فهدد نادر الآن (١٧٣٥) بالتحالف مع تركيا ضد روسيا أن لم تنسحب من دربند وباكو . وعليه سلمت إليه المدينتان ، ودخل نادر أصفهان دخول الفاتح الظافر الذى أعاد بناء قوة فارس . فلما مات الصبي عباس الثالث (١٧٣٦) مختتما بموته ملك الصفويين ، جمع نادر بين الواقع والمظهر ، وارتقى العرش باسم نادر شاه .

وكان يؤمن بأن الخلافات الدينية بين تركيا وفارس تعمل على نشوب الحروب المتكررة ، لذلك أعلن أن فارس ستتخلى منذ الآن عن بدعة التشيع وترتضى السنية مذهبا لها . فلما أدان زعيم الشيعة هذه الخطوة شنقه نادر بكل هدوء مستطاع . ثم صادر أوقاف قزوين الدينية ليفى بنفقات جيشه لإن فارس على حد قوله مدينة لجيشها أكثر مما هى مدينة لدينها (٢٢) . ثم إذ شعر بالحنين إلى الحرب ، فأشرك معه في الملك ابنه رضا قلى ، ثم قاد جيشا من ١٠٠٫٠٠٠ مقاتل ليفتح به أفغانستان والهند .

وضرب الحصار عاما كاملا حول قندهار . فلما استسلمت له (١٧٣٨) كان كريما رحيما مع المدافعين عنها ، حتى أن جيشا من الأفغانيين أنضوى تحت لوائه وظل وفياً له إلى يوم مماته . ثم زحف على كابول مفتاح ممر

خيبر ، وهناك أعانته الغنائم التى ظفر بها على رفع الروح المعنوية فى جيشه. وكان محمد شاه ، إمبراطور الهند المغولى ، يأبى أن يصدق إمكان غزو الفرس للهند ، وكان أحد ولاته قد قتل مبعوث نادر إليه ، فعبر نادر جبال الهملايا ، وأستولى على بشاور ، وعبر السند ، وزحف على دلهى حتى لم يعد بينه وبينها سوى ستين ميلا قبل أن يهب جيش محمد لمقاومته والتقى الجيشان الهائلان على بطاح كرنال (١٧٣٩) ، وأعتمد الهنود على فيلتهم ، أما الفرس فقد هاجموا هذه الحيوانات الصبورة بكرات النار ، فانقلبت الفيلة هاربة وأشاعت الفوضى فى جيش الهنـــود ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وأسر عدد زاد على القتلى ، ويروى نادر أن محمد شاه جاءه يلتمس الرأفة « أمام حضرتنا السماوية». (٢٣) وفرض عليـــه القائد المنتصر تسليم دلهى وكل ثروتها القابلة للنقل تقريبا ، والتى تقـــدر بـ ٨٧,٥٠٠,٠٠٠ جنيه ، بما فيها عرش الطاووس الأشهر ، الذى كان قد صنع (١٦٢٨ — ٣٥) لشاه جيهان فى أوج سطوة المغول . وقتل بعض جنود نادر فى شغب أحدثه الأهالى ، فانتقم بالسماح لجيشه بذبح ١٠٠,٠٠٠ من الوطنيين فى سبع ساعات . واعتذر عن هذه الفعلة بتزويج إبنه نصرالله من إبنة محمد . ثم زحف قافلا إلى فارس لايعوقه عائق بعـــد أن أثبت أنه أعظم الفاتحين قاطبة منذ تيمور لنك .

وكان قدره المقدور أنه لو سرح جيشه فربما يعيث فسادا فى الأرض ويشق عليه عصا الطاعة ، ولو أبقى عليه جيشا عاملا فلزام عليه أن يكسوه ويطعمه ، وكانت النتيجة التى خلص إليها أن الحرب أرخص له من السـلم إذا استطاع خوضها على ساحة غريبة . فمن ترى يكون هدفه الآن ؟ وتذكر غارات الأزبك على شمال شرقى فارس ، وكيف باعوه عبدا ، وكيف ماتت أمه فى رقها . وإذن ففى ١٧٤٠ قاد جيشه زاحفا على أزبكستان ، ولم يكن لأمير بخارى لا القوة ولا الميل للوقوف فى وجه نادر ، ومن ثم فقد أذعن ، وأدى تعويضا ضخما ، ووافق أن يكون نهر سيحون كما كان فى القدم الحد بين أزبكستان وفارس . وكان خان خيوه قدأعدم مبعوث نادر ،

فقتل نادر هـــذا الخان ، وأطلق سراح آلاف من العبيد الفرس والروس (١٧٤٠) .

كان نادر بكل شخصيته مقاتلا استغرقت الحرب عقله كله، فلم يعد فيه ذرة من الرغبة فى الحكم والإدارة . وبات السلام عنده عبئا ثقيلا لا يطيقه . وجعلته الغنائم والأسلاب إنسانا جشعا بخيلا بدلا من أن يكون جواداً كريماً . فحين ملأت خزائنه كنوز الهند أعلن تأجيل دفع الضرائب فى فارس ثلاث سنين ، ثم عدل عن رأيه وأمر بجمع الأموال كما كانت تجمع من قبل ، وأفقر جباته فارس كما لو كانت بلدا مغلوبا . ثم خامرته الظنون بأن ابنه يتآمر على خلعه ، فأمر بأن تفقأ عيناه . وقال له ابنه رضا قلى « إنك لم تفقأ عينى بل عينى فارس » (٢٤) . وبدأ الفرس يمقتون منقذهم كما تعلم الروس من قبلهم أن يمقتوا بطرس الأكبر . وأثار الزعماء الدينيون عليه بغض أمة طعنت فى إيمانها الدينى . فحاول أن يخمد التمرد المتعاظم بإعدام المتمردين بالجملة ، حتى لقد بنى أهراما من جماجم ضحاياه . وفى ٢٠ يونيو ١٧٤٧ اقتحم خيمته أربعة رجال من حرسه وهجموا عليه ، فقتل اثنين منهم ، ولكن الآخرين صرعاه . وتنفست فارس كلها الصعداء ،

وهوت من بعده البلاد إلى درك من الفوضى أسوأ مما ترددت فيه أيام سيطرة الأفغانيين . فطالب نفر من خانات الاقاليم بالعرش ، وتلا ذلك مباراة فى التقتيل والاغتيال . وقنع أحمد خان بتأسيس مملـــكة أفغانستان الحديثة . أما شاه رخ — الرجل الوسيم اللطيف الرحيم — فقد سملت عيناه بعد اعتلائه العرش بقليل ، فتقهقر ليحكم خراسان حتى ١٧٩٦ . وخرج كريم خان منتصرا من الصراع ، وأسس الاسرة الزندية (١٧٥٠) التى احتفظت بسلطانها حتى ١٧٩٤ . واختار كريم شيراز عاصمة لملكه ، وزينها بالمبانى الجميلة ،وساد جنوبى فارس تسعة وعشرين عاما من نظام وسلام لابأس بهما . فلما مات جعل التطاحن على السلطة يتخذ من جديد صورة الحرب الاهلية ، وعادت الفوضى تضرب أطنابها من جديد .

اختتمت فارس آخر مراحلها الفنية العظمى بسقوط الدولة الصفوية على

يد الافغانيين ، فلم تجملها بعد ذلك غير بعض الآثار الفنية الصغيرة . وقد وصف اللورد كرزن مدرسة الشاه حسين (١٧١٤) بأصفهان — وكانت كلية لتدريب الدارسين والمحامين — بأنها « من أفخم الاطلال فى فارس » [٢٥]. وتعجب السير برسى سايكس من « قرميدها البديع ... ورسومها المخرمة الجميلة » [٢٦]. وكان صناع القرميد لا يزالون أمهر صناعه فى العالم بأسره ، بيد أن افتقار الطبقات العليا نتيجة للحروب الطويلة قضى على سوق المهارة والتفوق وأكره الخزافين على الهبوط بفنهم إلى مستوى الصناعة . وصنعت أغلفة الكتب الفاخرة من الورق المعجن المصقول . وأنتج النساجون أقمشة مقصبة ومطرزة غاية فى الرهافة . وظلت السجاجيد الفارسية تنسج للمحظوظين من شعوب كثيرة رغم أنها شهدت آخر أمجادها فى عهد الشاه عباس الاول . وفى يوشاجان ، وهراة ، وكرمان ، وشيراز على الاخص ، كان النساجون ينتجون سجاجيد « لا يقلل من روعتها فى عين الناظر إلا مقارنتها بأسلافها الكلاسيكية » [٢٧].

أما الشعر الفارسى فقد حطم الفتح الافغانى قلبه ، وتركه أخرس أو كالأخرس طوال حقبة العبودية التالية لهذا الفتح . وحوالى ١٧٥٠ صنف لطف على بك أدار — قاموسا بسير الشعراء الفرس ، اختتم بستين من معاصريه. ومع هذه الوفرة الظاهرة فإنه أسف على ما رآه مجاعة فى الكتاب المجيدين فى عصره ، وعزا ذلك إلى الفوضى والفقر السائدين ، « واللذين استشريا بحيث لم يعد لإنسان رغبة فى قراءة الشعر فضلا عن قرضه » [٢٨]. ونسوق هنا تجربة نموذجية للشيخ على خازن ، الذى نظم أربعة دواوين من الشعر ، ولكنه أمسك فى حصار الأفغانيين لأصفهان ، ومات كل أهل بيته فى الحصار ، وظل هو على قيد الحياة ، ثم أفاق من محنته ، وهرب من أنقاض المدينة التى كانت رائعة الجمال يوما ما ، وأنفق الأعوام الثلاثة والثلاثين الباقية من أجله فى الهند . وقد خلد فى « مذاكراته » (١٧٤٢) ذكرى مائة شاعر فارسى فى جيله ، وأعظمهم فى رأيه سيد أحمد هاتف الأصفهانى ، ولعل أكثر قصائده ظفرا بالثناء تلك التى أكد فيها بوجد المتصوفة إيمانه بالله رغم الشك والدمار :

« فى الكنيسة قلت لفاتنة نصرانية ،
يامن يقع القلب فى فخك أسيرا ،
أنت التى يتعلق كل طرف شعرة من شعرى بسدى منطقتك !
إلى متى تضلين الطريق إلى واحدنية الله ؟
إلى متى تفرضين على الآله الواحد عار التثليث ؟
كيف يتأتى أن تدعى الإله الحق الواحد أبا وإبنا وروح القدس؟
فافتر ثغرها الجميل وقالت لى والضحك الحلو يتدفق منها :
إن كنت تعرف سر الآله الواحد فلا ترمنى بسبة الـــكفر !
فى ثلاث مرايا يشرق الجمال الأبدى بشعاع من وجهه الساطع .
وبينما نحن فى حديثنا هذا أنبعثت هذه الأنشـــودة بجوارنا من جرس الـــكنيسة :

« إنه إله واحد ولا إله سواه ؟
لا إله إلا الله وحـــده ....
فى قلب كل ذرة تشقينها ترين شمسا فى الوسط .
أن أنت بذلت لله كل ما تملكين ، فلا حسب كافرا
أن أصابك مثقال ذرة من الخسران ...
سوف تعبرين الصراط الضيق وتبصرين الملكوت الرحب ،
ملكوت الإله الذى لا يحـــده مكان. . . .
وسوف تسمعين ما لم تسمعه أذن ، وترين ما لم تره عين ،
حتى يأتوا بك إلى مكان لاتبصرين فيه من الدنيا وأهلها غير واحد أحد
إلى هذا الواحد ستبذلين الحب من قلبك وروحـــك ،
حتى ترى بعين اليقين فى جلاء لا خفاء فيه .
أنه إله واحـــد ولا إله سواه ،
لا إله إلا الله وحـــده » (٢٩)

الفصل السابع عشر

فاصل روسى

١٧٢٥ — ١٧٦٢

١ — العمل والحكم

كتب فريدريك الأكبر حوالى عام ١٧٧٦ يقول : « من بين جيران بروسيا أجمعين تستحق روسيا أعظم الاهتمام لأنها أخطرهم ، فهى قوية وقريبة : وسيضطر حكام بروسيا القادمون كما اضطررت أنا للسعى إلى صداقة هؤلاء الهمج » [١] .

وعلينا دائما ونحن نفكر فى روسيا أن نتذكر حجمها . كانت فى عهد كاترين الثانية تضم أستونيا وليفونيا وفنلنده (بعضها) ، وروسيا الأوربية ، وشمالى القوقاز ، وسيبريا . وقد اتسعت رقعتها من ٦٨٧٠٠٠ر إلى ٩١٣٠٠٠ر كيلو متر مربع فى القرن الثامن عشر ، وزاد سكانها من ثلاثة عشر مليونا فى ١٧٢٢ إلى ستة وثلاثين مليونا فى ١٧٩٠ [٢] . وفى ١٧٤٧ قدر فولتير سكان فرنسا أو ألمانيا بأنهم يزيدون قليلا على سكان روسيا ، ولكنه لاحظ أن روسيا تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة أى من الدولتين . وسيقوم الزمن والأصلاب الروسية بملء تلك المساحات الشاسعة .

وفى عام ١٧٢٢ كان ٩٧ر٧ ٪ من سكان روسيا ريفيين ، وظلت نسبتهم ٩٦ر٤ ٪ فى ١٧٩٠ ، فقد كان التصنيع يسير ببطء شديد . وفى ١٧٦٢ كان كل الشعب إلا عشرة فى المائة منه فلاحين ، وكان ٥٢ر٤ ٪ من هؤلاء أقنانا [٣] ، ونصف الأرض يمتلكه نحو ١٠٠٠٠٠ر من النبلاء ، ومعظم ما بقى منها تملكه الدولة أو الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، وبعضها

يملكه فلاحون شبه أحرار ما زالوا يلتزمون بأداء الخدمات وبالطاعة للسادة المحليين . وكانت ثروة المالك تحسب بعدد أقنانه ، من ذلك أن الكونت بيتر خيريميتييف بلغت ثروته ٠٠٠ر١٤٠ قن [٤] . وكان الأقنان الذين تمتلكهم الكنيسة وعددهم ٠٠٠ر٩٩٢ أهم جزء فى ثروتها ، وكان ٠٠٠ر٨٠٠ر٢ قن يفلحون أراضى التاج فى ١٧٦٢ [٥] .

وكان الشريف يتكفل بالقيادة العسكرية والتنظيم الاقتصادى ، وهو عادة معفى من الخدمة العسكرية ولكنه كثيرا ما تطوع بها أملا فى الحظوة عند الحكومة . وكان له حقوق محاكمة أقنانه ، وله أن يعاقبهم ، أو يبيعهم أو ينفيهم إلى سيبيريا . على أنه كان عادة يسمح لفلاحيه بإدارة شئونهم بواسطة مجلس قريتهم أو « المير » وكان القانون يلزمه بإمداد أقنانه بالبزار وبإعالتهم فى فترات القحط . وقد ينال القن حريته بشرائها من مالكه أو بالانخراط فى سلك الجيش ، ولـكن هذا مشروط برضى المالك . وكان للفلاحين الأحرار حق شراء الأقنان وامتلاكهم ، وكان بعض هؤلاء الأحرار ويلقبون « كولاكى » (أى القبضات) ، يهيمنون على الشئون القروية ، ويقرضون المال بالربا ، ويبزون السادة الإقطاعيين استغلالا وصرامة [٦] . وكان السيد والقن كلاهما متين السلالة ، صلب العود ، قوى الذراع واليد ، عكفا معا على تذليل التربة ، واضطلعا معا بعبء ترويض فصول السنة . وكانت المشاق أحيانا فوق مايطيق البشر ، بحيث نسمع مرارا باقنان يهجرون مزارعهم فى أعداد كبيرة ويختفون فى بولنده أو الأورال أو القوقاز ، وكان الالوف منهم يلقون حتفهم فى الطريق ، والالوف يتصيدهم الجند ويقبضون عليهم . وبين الحين والحين يهب الفلاحون فى ثورة مسلحة على سادتهم وعلى الحكومة ، وتنشب بينهم وبين الجيش معارك يستميتون فيها فى الدفاع عن أنفسهم ، ولكن الهزيمة تلاحقهم دائما ، فيزحف الاحياء منهم قافلين إلى واجباتهم — إلى أخصاب النساء بذريتهم ، والتربة بدمائهم .

وقد درب بعض الاقنان على الفنون والحرف ، فكانوا يمدون سادتهم بكل احتياجاتهم تقريبا . ويروى الـكونت سيجور فى معرض حديثه عن

حفل أقيم لكاترين الثانية أن الشاعر الذى نظم الاوبرا والمؤلف الذى ألف موسيقاها ، والمعمارى الذى بنى قاعة الاستماع ، والنقاش الذى زخرفها ، وممثلى المسرحية وممثلاتها ، والراقصين والراقصات فى الباليه ، والموسيقيين فى الأوركسترا — كل أولئك كانوا أقنانا للكونت خريمتييف [٧] . وكان الفلاحون يصنعون فى الشتاء الطويل الملابس والأدوات التى سيحتاجون إليها فى السنة المقبلة . وكانت الصناعة فى المدن بطيئة التطور ، من جهة لأن كل بيت كان ورشة ، ومن جهة أخرى لأن صعوبات النقل كانت عادة تضيق السوق فلا تجاوز الجهات المجاورة للمنتج . وشجعت الحكومة المشروعات الصناعية بتقديمها الاحتكارات للمحظوظين ، وأحيانا بتزويدهم برأس المـال ، وقد وافقت على أن يشارك الاشراف فى الصناعة والتجارة . وظهرت رأسمالية مبتدئة فى صناعات التعدين والميتالورجيا والعتاد الحربى ، وفى إنتاج المصانع للمنسوجات والخشب المنشور والسكر والزجاج . وسمح لـ « مقاولين » بشراء الاقنان لتزويد مصانعهم بالعمال ، على أن هؤلاء « الفلاحين المملوكين » لم يكونوا مربوطين بالمالك بل بالمشروع ، وألزمهم مرسوم حكومى صدر فى ١٧٣٦ ، هم وذريتهم ، بالبقاء فى مصانعهم حتى يؤذن لهم رسميا بتركها . وكانوا فى حالات كثيرة يعيشون فى معسكرات منفصلين عن أسرهم فى الغالب الأعم [٨] .

أما ساعات العمل فتتفاوت بين أحدى عشرة وخمس عشرة فى اليوم للرجال ، تتخللها ساعة للغداء ، وأما الأجور فتتراوح بين أربعة روبلات وثمانية فى اليوم للرجال ، وبين روبلين وثلاثة للنساء . ولكن بعض أرباب العمل تكفلوا بإطعام عمالهم وإسكانهم ودفع الضرائب عنهم . وبعـــد عام ١٧٣٤ إزداد تشغيل العمال « الأحرار » — أى غير الأقنان — فى المصانع لأنه أتاح مزيدا من الحوافز للعمال وحقق مزيدا من الربح لرب العمل . وكان العمل من الرخص بحيث لا يشجع اختراع الآلات أو استخدامها ، ولكن فى عام ١٧٤٨ أستخدم بولزونوف آلة بخارية فى مصانع الحديد التى يمتلكها بالأورال . [٩]

وبدأت طبقة وسطى صغيرة عديمة الحول سياسيا تتشكل ببطء بين طبقتي النبلاء والفلاحين . ففي عام ١٧٢٥ كان نحو ثلاثة في المائة من السكان تجارا : أصحاب متاجر في القرى والمدن والأسواق ، ومستوردين للشاي والحرير من الصين والسكر والبن والتوابل والعقاقير من وراء البحار ، وللمنسوجات الفاخرة والخزف والورق من غربي أوربا ، ومصدرين للخشب والتربنتينة والقار وشحم الحيوان والكتان والقنب . وكانت القوافل تسافر إلى الصين بطريق سيبيريا أو بحر قزوين ، والسفن تقلع من ريجا وريفل ونارفا وسانت بطرسبرج . ولعل الأنهار والقنوات كانت تنقل من التجارة أكثر مما تنقله الطرق البرية أو البحرية .

وكانت موسكو تقع في قلب تلك التجارة الداخلية ، وكانت من الناحية المادية أكبر مدن أوربا ، إذ أن بها شوارع طويلة عريضة ، و٤٨٤ كنيسة ومائة قصر ، وآلاف الأكواخ والزرائب ، وسكان بلغوا ٢٧٧,٥٣٥ في ١٧٨٠ [١٠] ، والفرنسيون والألمان واليونان والإيطاليون والانجليز والهولنديون والأسيويون يتحدثون لغاتهم ويعبدون آلهتهم كما يشاءون . وكانت سانت بطرسبرج قلعة للحكومة . ومعقلا لأرستقراطية متفرنسة ، ومركزا للأدب والفن ، أما موسكو فكانت قطب الديانة والتجارة ، وتتسم بحياة نصف شرقية لم تخلع عنها طابعها الوسيط ، وبوطنية سلافية مشربة بالغيرة والإخلاص . هاتان كانتا البؤرتين المتنافستين اللتين تدور حولهما المدنية الروسية ، حينا تمزق الشعب شطرين كالخلية المنقسمة ، وحينا نحيله مركبا متوترا سيصبح قبل ختام القرن مبعث الرعب لأوربا والحكم الفيصل في مصيرها .

وكان محالا على شعب أضناه ووحشه صراعه مع الطبيعة ، وأعوزته أسباب الاتصال أو الأمن على الحياة ، وأفتقر أشد الافتقار إلى فرص التعليم وإلى الوقت الذي يفكر فيه — نقول إن شعبا كهذا كان محالا عليه أن يحظى بامتيازات الديمقراطية ومخاطرها ، اللهم إلا في القرى المعزولة . ولم يكن بد من الاقطاعية في صورة من صورها ، ومن ضرب عن النظام

الملكى فى الحكم المركزى . وكان من الأمور التى لابد من توقعهـا أن تتعرض الملكية للانقلابات المتكررة ، تقوم بها أحزاب النبلاء المهيمنين على إمدادهم العسكرية للحكومة ، وأن تسعى الملكية إلى الحكم المطلق ، وأن تعتمد على الدين معوانا لجنودها وشرطتها وقضاتها على صيانة الاستقرار الاجتماعى والسلام الداخلى .

وكان الفساد عقبة كؤودا سـدت كل مسالك الادارة . وحتى النبلاء الأثرياء الملتفون حول العرش كان من السهل أجتذابهم بـ « الهدايا ».يقول كاستيرا الذى كان معاصرا تقريبا لهذه الحقبة « أن كان هنـاك عاصم الروس من التملق ، فإنه مامن أحد منهم يستطيع مقاومة أغراء الذهب[١١]» . وكان النبلاء يهيمنون على حرس القصر ، ذلك الحرس المعز المذل ، الذى يقيم الملوك ويخلعهم ، ويؤلفون طبقة مميزة من الضباط فى الجيش ، ويملأون مجلس الشيوخ الذى كان يشرع القوانين فى عهـد البزابيث ، ويرأسون الوزارات (الكوليجيا) التى تهيمن على العلاقات الخارجية ، والمحاكم ، والصناعة ، والتجارة ، والمالية ، ويعينون الـكتبة الذين يواصلون السير على النظام البيروقراطى ، ويوجهون إختيار الحاكم للمحافظين ، الذين يديرون الـ « جوبرنيات » أى المحافظات التى انقسمت إليها الامبرطورية ويختارون (بعد ١٧٦١) « الفويفوديين » الذين يحكمون الأقاليم . وكان مكتب الرقيب المالى المؤلف أكثره من رجال الطبقة الوسطى يبسط ظله على جميع فروع الحـكومة ، وهو مكتب مخابرات إتحـادى ، مخول له أن يكشف ويعاقب الإختلاس ، ولكنه ألفى نفسـه محبطاً رغم استخدامه المخبرين على نطاق واسع . فلو أن الملك رفت كل موظف مذنب بالرشوة والفساد لتوقف دولاب الدولة . وكان فى جباة الضرائب من الفهم للمال مالا يبقى لخزانة الدولة مما يجمعون أكثر من ثلثـه .[١٢]

٢ — الدين والثقافة

كان للدين سلطان كبير فى روسيا . لأن الفقر كان مدقعاً ، ولأن تجار الأمل وجدوا مشترين كثيرين . واقتصرت الشكوكية على طبقة عليا

تقرأ الفرنسية، وكان للماسونية أتباع كثيرون فى هذه الطبقة[١٣] . أما سكان الريف وأكثر سكان المدن فكانوا يحيون فى عالم فوق طبيعى قوامه التدين الذى يشيع فيه الخوف ، يتخيلون الشياطين محيطة بهم، ويرسمون الصليب مراراً وتكراراً فى اليوم ، ويتضرعون للقديسين بالتشفع لهم ، ويتعبدون لرفاتهم ، يرهبون المعجزات ، ويرتعدون فرقاً من النذر ، ويخرون سجداً أمام الصور المقدسة ، ويولولون بترانيم كئيبة تنطلق من صدور جهيرة . وكان للكنائس أجراس ضخمة قوية ، وقد أقام بوريس جودونوف جرساً منها بلغ وزنه ٠٠٠ر٨٨٢ رطل ، ولكن الأمبراطورة أنا إيفانوفينا بزته فى هذا الميدان، إذ صب لها جرس يزن ٠٠٠ر٤٣٢ رطل[١٤]. وعمرت الكنائس بالمصلين، وكانت الطقوس هنا أكثر مهابة ووقاراً والصلوات أكثر حماسة ووجدا منها فى روما البابوية نصف الوثنية . أما القساوسة الروس — وكل منهم يلقب بالبابا — فكانت لهم لحى وشعر مرسل وأردية قاتمة تصل إلى أقدامهم (لأن مظهر السيقان يتعارض مع الكرامة والوقار) . وقلما كانوا يختلطون بالنبلاء أو البلاط بل يعيشون فى بساطة متواضعة، متبتلين فى أديرتهم أو متزوجين فى دورهم . وكان رؤساء الأديرة يحكمون الرهبان ، والرئيسات يحكمن الراهبات ؛ وكان الكهنة غير الرهبان يخضعون للأساقفة ، وهؤلاء لرؤساء الأساقفة ، وهؤلاء للمطارنة الإقليميين ، وهؤلاء للبطريرك فى موسكو ؛ والكنيسة بجملتها تعترف برئيس الدولة رأساً لها. وخارج الكنيسة عشرات من الملل والنحل تتنافس فى التصوف والتقوى والكراهية .

وأفاد الدين فى بث ناموس أخلاقى حقق بالجهد خلق النظام وسط الدوافع القوية التى طبع عليها شعب بدائى . واتخذ نبلاء البلاط أخلاق الأرستقراطية الفرنسية وعاداتها ولغتها ، وكانت زيجاتهم صفقات عقارية خفف من عبثها العشاق والخليلات . وكان نساء القصر أرقى تعليما من رجاله ، ولكنهن قد يتفجرن فى لحظات الغضب بألفاظ حامية وعنف قاتل . أما عامة الشعب فكانت لغتهم سوقية غليظة ، وكثر بينهم العنف ، وكانت القسوة تتفق وقوة البدن وصفاقة الجلد . وكان كل إنسان يقامر ويسكر حسب طاقته ،

ويسرق حسب منصبه[١٥] ، ولكن الكل كانوا محسنين ، وبزت الأكواخ القصور فى كرم الضيافة . وكانت الوحشية والكرم صفتين شائعتين فى المجتمع كله .

أما اللباس فيختلف من أزياء باريس العصرية فى البلاط إلى القلانس من الفراء وجلد الغنم والقفازات الصفيقة التى يرتديها الفلاحون ، ومن جوارب النبلاء الطويلة الحريرية إلى الأربطة الصوفية التى تحتوى سيقان الأقنان وأقدامهم . وفى الصيف قد يستحم عامة الناس عراة فى الأنهار متجاهلين الجنس . وكانت الحمامات الروسية كالتركية عنيفة ولكنها محبوبة . وفيما خلا هذا كان الاهتمام بالنظافة الصحية عارضاً ، وحفظ الصحة العامة بدائيا . وكان النبـــلاء يحلقون لحاهم ، أما عامة الشعب فيطلقونها رغم مراسيم بطرس الأكبر .

وكان فى كل بيت تقريباً بالالايكا (جيتار) ، وكان فى سانت بطرسبرج على عهـــد اليزابيث وكاترين الثانية أوبرا مجلوبة من إيطاليا وفرنسا . وإليها وفد مشاهير المؤلفين والقـادة الموسيقيين ، وأبرع مغنى العصر وعازفيه . وكان المـال ينفق بسخاء على تعليم الموسيقى ، وقد أثبت صوابه وفائدته بتفجر العبقرية الموسيقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكان أصحاب الأصوات المبشرة من الذكور يرسلون من جميـع أصقاع روسيا إلى الكنائس الكبرى لتدريبهم . ولما كانت الطقوس الكنسية اليونانية لا تبيح استعمال الآلات فى الكورس ، فإن الأصوات كانت حرة طليقة ، فحققت من أعماق الانسجام والتناغم ما لم يكن له نظير فى أى بلد آخر فى العالم ، وغنى الصبيان أدوار السوبرانو ، ولكن المرتلين بأصوات الباص (العميقة الخفيفة) هم الذين أذهلوا كثيرين من الأجانب بمدى الخفض فى أصواتهم وباتساع شعورهم من همسات الرقة والحنان إلى موجات القوة الحنجرية .

فمن تراهم مؤلفو هذه الموسيقى المؤثرة لفرق الترتيل الروسية ، أكثرهم رهبان مغمورين لم تقرع الأجراس لموتهم ولم تشتهر أسماؤهم . ويبرز

من بينهم راهبان فى القرن الثامن عشر . أولهما سوزونوفتش بيريزوفسكى الصبى الأوكرانى الذى وهب صوتاً كأنما خلق ليتعبد لله . وأوفدته كاترين الثانية إلى إيطاليا على نفقة الدولة ليحصل أفضل التعليم الموسيقى ، وعاش سنوات فى بولونيا ، وتعلم التأليف الموسيقى على البادرى مارتينى . فلما عاد إلى روسيا كتب موسيقى دينية جمعت بين القوة الروسية والرشاقة الإيطالية . وقوبلت جهوده لإصلاح ترتيل الكورس بالمقاومة من أنصار القديم ، فبات فريسة لاكتئاب مرضى ، وقتل نفسه غير مجاوز الثانية والثلاثين (١٧٧٧) [١٦] . أما الثانى ، وهو أشهر منه ، فاسمه دمترى بورتنيانسكى ، الذى أدخل وهو لا يزال طفلا فى السابعة كورس كنيسة البلاط ، وناطت الإمبراطورة اليزابيث جالوبى بتعليمه ، فلما عاد جالوبى إلى إيطاليا أوفدت كاترين الثانية دمترى معه إلى البندقية ومنها انتقل إلى يد البادرى مارتينى ثم إلى روما ونابلى ، حيث ألف موسيقى على الطريقة الإيطالية . وفى ١٧٧٩ عاد إلى روسيا ، وسرعان ما عين مديرا لكورس كنيسة البلاط ، وقد احتفظ بمنصبه هذا حتى مماته (١٨٢٥) . وقد ألف لفرقة الترتيل قداسا يونانيا ، وموسيقات فى أربعة وثمانية أقسام لخمسة وخمسين مزمورا . وتدريبه للفرقة يرجع له أكثر الفضل فى بلوغها مكانة من التفوق جعلتها إحدى عجائب العالم الموسيقى . وفى ١٩٠١ احتفلت سانت بطرسبرج بذكرى ميلاده المائة والخمسين بمظاهر الأبهة والفخامة .

أما الفن الروسى فقد سيطر عليه التأثير الفرنسى ، ولكن الشخصية القائدة فيه كان إيطاليا يدعى فرانشيسكو (أوبارتولوميو) راستريللى . وكان بطرس الأكبر قد استقدم أبلى كارلو إلى روسيا (١٧١٥) ، فصب بالبرونز تمثالا لبطرس ممتطيا صهوة جواد ، وآخر بالحجم الطبيعى للإمبراطورة أنا أيفانوفنا . وورث الابن طراز لويس الخامس عشر الذى جلبه كارلو من فرنسا ، وأضاف إليه بعض ما استوحاه من روائع الباروك التى صنعها بلتازار نويمان وفيشر فون أرلاخ فى ألمانيا والنمساء ، وقد طوع هذه التأثيرات لحاجات روسيا وطرزها الفنية بانسجام فائق حتى أصبح المعمارى المقرب للقيصرة اليزابيث . ويكاد يكون كل بناء روسي ذى خطر

مشيد من ١٧٤١ إلى ١٧٦٣ مصمماً بيده أو بيد معاونيه . فعلى ضفة نيفا اليسرى أقام (١٧٣٢ — ٥٤) « القصر الشتوى » الذى أحرق فى ١٨٣٧ ولكن أعيد بناؤه طبقاً لتصميمه الأصلى فيما يظن : كتلة هائلة من النوافذ والعمد فى ثلاث طبقات ، تعلوها التماثيل والشرفات المفرجة ؛ وكان أقرب منه إلى ذوق اليزابث قصر زاركوى سيلو (أى قرية القيصر) ، المشيد على ربوة تبعد خمسة عشر ميلا جنوبى سانت بطرسبرج . وعلى يساره بنى كنيسة ، وفى داخل القصر كان سلم فخم يؤدى إلى قاعة كبرى تضيئها نوافذ ضخمة بالنهار وست وخمسون ثريا بالليل ؛ وفى الطرف الأبعد قاعة العرش وأجنحة الأمبراطورة ، ثم حجرة صينية تقدم فروض الاجلال التى درج القرن الثامن عشر على تقديمها للفن الصينى . وهناك « حجرة الكهرمان » المكسوة بألواح من الكهرمان والتى أهداها فردريك وليم الأول بديلا لخمسة وخمسين من رماة القنابل اليدوية الفارعى الاجسام ، وقاعة للصور تضم بعض المجموعات الأمبراطورية . أما داخل القصر فأكثره بزخرفة روكوكية ، وصفها رحالة إنجليزى بأنها « مزيج من الهمجية والفخامة »(١٧). وقد أزيلت بأمر كاترين الثانية زخارف الواجهة الذهبية ، فقد كانت كاترين بسيطة نقية فى ذوقها .

وكان الأدب أبطأ تطوراً من الفن . فقد افتقد التشجيع لندرة القراء ، وقيدت رقابة الكنيسة والدولة حرية التعبير ، ولم تكن اللغة الروسية قد صقلت ذاتها نحواً ولفظاً بحيث ترقى إلى مستوى الأداة الأدبية . ومع ذلك فحتى قبل تولى اليزابيث العرش (١٧٤٢ (ترك ثلاثة من الكتاب بصماتهم على صفحة التاريخ . وأولهم فازيلى تاتيشيف — كان صاحب نشاط وفكر ، رحالة مؤرخاً ، دبلوماسياً وفيلسوفاً ، يحب روسيا ولكنه يفتح عقله فى تشوق للتطورات الاقتصادية والفكرية فى الغرب . وكان واحداً من ذلك النفر من الشباب الذين أوفدهم بطرس إلى الخارج بغية إخصاب روسيا فكرياً . وقد عاد بأفكار خطرة : فقد قرأ الأصول أو الخلاصات لكتب

بيكون وديكارت ولوك وجروتيوس وبيل ، وذبل إيمانه السنى ، فلم يؤيد الدين إلا بوصفه معواناً على الحكم[١٨] . وقد خدم بطرس فى حملات حربية خطرة . وأصبح حاكماً لأستراخان ، واتهم بالاختلاس . [١٩] واجتمع له من جولاته ذخيرة من المعلومات الجغرافية والعرقية والتاريخية انتفع بها فى كتابة « تاريخ روسيا » . وقد أغضب هذا الكتاب رجال الدين ، ولم يجرؤ أحد على طبعه حتى السنوات السمحة الأولى من حكم كاترين الثانية (١٧٦٨ — ١٧٧٤) .

وواصل ثانى هؤلاء الكتاب الثلاثة — وهو الأمير أنطيوخ كانتمير — التمرد على اللاهوت . كان ابناً لحاكم (هوسبودار) ملدافى ، وجىء به إلى روسيا فى عامه الثالث ، وتعلم الحديث بست لغات ، وخدم فى السفارات الروسية فى لندن وباريس ، والتقى بمونتسكيو وموبرتوى ، فلما عاد كتب نقداً لاذعاً لأولئك الغلاة من الوطنيين الداعين للجامعة السلافية ، المعارضين لتلويث الحياة الروسية بالأفكار الغربية . وإلى القارىء طرفاً من قصيدته « إلى عقلى » :

« أيها العقل الفج ، ياثمرة الدراسات الحديثة ، أمسك ، ولا تدفع القلم فى يدى ... ما أكثر الطرق السهلة المؤدية فى زماننا هذا إلى أسباب التشريف ، ولكن أقل الطرق تقبلا هو الطريق الذى خططته الأخوات الحافيات التسع (ربات الفنون) ... عليك أن تكد وتكدح هناك ، وبينما تشقى أنت يتجنبك الناس كأنك الوباء ويتهكمون عليك ، ويبغضونك ... ... «أن الذى يكب على الكتب ينقلب كافراً » ، هكذا يدمدم كريتو متذمراً فى يده مسبحته... ويريدنى أن أرى مبلغ الخطر فى بذرة المعرفة التى تلقى بيننا : إن أطفالنا ..... مما يفزع الكنيسة ، بدأوا يقرأون الكتاب المقدس ، وهم يناقشون كل شىء ويريدون معرفة العلة لكل شىء ، ولا يضعون فى رجال الدين إلا أقل الثقة . . . إنهم لا يوقدون الشمع أمام الصور ، ولا يحفظون المواسم والأعياد ...

« أيها العقل ، نصيحتى لك أن تصبح أشد صمماً من قطعة زلابية ،

ولا تشك لأنك مغمور ... وإذا كانت الحكمة المنعمة قد علمتك شيئاً، ... فلا تشرحه لغيرك » [٢٠] .

وزاد كانتيمير من إساءاته بترجمته كتاب فولتنيل « أحاديث حول تعدد العوالم » ، وقد أدين الكتاب لأنه كوبرنيقى ، مهرطق ، مجدف ، ولكن كانتيمير أحبط مابيته له مضطهدوه، فقد مات وهو فى السادسة والثلاثين (١٧٤٤) . ولم تجد هجائياته ناشراً يقدم على نشرها حتى عام ١٧٦٢ .

وفى عهد القيصرة اليزابيث بدأ الأدب الروسى يؤكد ذاته شيئاً أكثر من مجرد كونه صدى للأدب الفرنسى . وقد شعر ثالث هؤلاء الكتاب ، وهو ميخائيل لومونوزف ، بالتأثير الألمانى لا الفرنسى ، وكان قد درس فى ماربورج وفرايبورج ، ثم تزوج فتاة ألمانية ، وجلب معها إلى سانت بطرسبرج حملا ثقيلا من العلم . وأصبح سبع الأكاديمية المبرز فى كل شىء حتى فى الشراب[٢١] . ورفض أن يتخصص ، فكان عالماً فى المعادن ، وجيولوجياً ، وكيمائياً ، وكهربائياً ، وفلكياً ، واقتصادياً، وجغرافياً، ومؤرخاً، وفيلولوجياً، وخطيباً . وقد لقبه بوشكن « أول جامعة روسية » [٢٢] وفى غمار هذا كله كان يقرض الشعر :

وكان منافسه الأكبر على ثناء الطبقة المفكرة هو ألكسيس سوماروكوف الذى نشر ديواناً من القصائد الغنائية من نظمه ونظم لومونوسوف ليظهر أنه أشعر منه (وكان الفرق بينهما طفيفاً) . أما مفخرة سوماروكوف الحقيقية فهى انشاؤه مسرحاً قومياً روسيا (١٧٥٦) ألف له تمثيليات رددت صدى تمثيليات راسين وفولتير . وقد ألزمت اليزابيث حاشيتها بالحضور ، وكانوا لا يدفعون أجرا عن دخول المسرح ، فشكا سوماروكوف من أن راتب الخمسة آلاف روبل الذى يتقاضاه فى العام لا يقيم أوده ، ولا يعين مسرحه على الحياة . « أن ما كان الناس يشهدونه فى أثينا يوما وما يشهدونه اليوم فى باريس ، يشهدونه كذلك فى روسيا بفضل اهتمامى . . . وفى ألمانيا لم يوفق حشد من الشعراء لما وفقت إلى صنعه بجهودى أنا وحدى » [٢٣] .

وفى ١٧٦٠ أعيا من هذه الجهود المضنية فشد رحاله إلى موسكو ، ولكن ميله للشجار ما لبث أن أورثه الفقر هناك . فناشد كاترين الثانية أن تبعث به إلى الخارج على نفقة الدولة ، وأكد لها أنه « لو وصف أوربا قلم كقلمى ، لما كفاه ٣٠٠,٠٠٠ روبل »[٢٤] واحتملته كاترين فى صبر حتى مات صريع الشراب (١٧٧٧) .

ولنبعث الآن شيئاً من الإشراق فى هذه الصفحات بقصة غرام بطلتها أميرة إسمها ناتاليا بوريسوفنا دولجوروكايا ، وكانت إبنة الكونت والمشير بوريس خريميتيف ، رفيق سلاح بطرس الأكبر . فنى ربيعها الخامس عشر (١٧٢٩) يوم كانت « باهرة الجمال ومن كبار الوارثات فى روسيا »[٢٥] خطبت لفاسيلى لوكيش دولجوروكى ، أقرب المقربين للقيصر بطرس الثانى . وقبل أن يتاح عقد القران مات بطرس ، فنفى خلفه فاسيل إلى سيبريا ، وأصرت ناتاليا على أن تتزوجه وتتبعه إلى المنفى . وعاشت معه ثمانية أعوام فى تبولساك ، وولدت له طفلين . وفى عام ١٧٣٩ أعدم ، وبعد أن قضت فى المنفى ثلاثة أعوام أخرى سمح لها بالعودة إلى روسيا الأوربية فأكملت تعليم أبنائها ، ثم دخلت ديرا فى كييف . هناك ، واستجابة لرجاء ولدها ميخائيل ، كتبت « مذكراتها » (١٧٦٨) التى نشرها حفيدها الشاعر الأمير إيفان ميخايلوفيتش دولجوروكى فى ١٨١٠ . وقد أحيا ذكراها ثلاثة شعراء روس ، وهى محل إجلال روسيا باعتبارها نموذجا للكثيرات من النساء الروسيات اللاتى شرفن الثورة ببطولتهن ووفائهن .

والخلاصة أن الحضارة الروسية فى جملتها كانت مزيجا من الإنضباط الحتمى والاستغلال القاسى ، ومن التدين والعنف ، ومن الصلاة والتجديف ، ومن الموسيقى والتبذل ، ومن الوفاء والقسوة ، ومن الخضوع الذليل والبسالة التى لا تقهر . ولم يستطيع القوم أن يكتسبوا فضائل السلم لأنه كان لزاما عليهم أن يخوضوا ، خلال فصول شتاء مديدة ، وليالى قارسة البرد طويلة ، حربا مريرة مع الرياح القطبية التى تكتسح سهولهم المتجمدة دون ما حاجز يعوقها . إنهم لم يعرفوا قط النهضة الأوربية ولا الإصلاح

البروتستنتى ، ومن ثم كانوا — إلا فى عاصمتهم المتكلفة — لا يزالون أسرى قيود العصر الوسيط . وكانوا يعزون أنفسهم بكبرياء العرق ويقين الايمان ، دون أن يبلغ ذلك بعد مبلغ النزعة القومية الأقليمية ، إنما كان إقتناعاً ضارياً بأنه بينما كان الغرب يورد نفسه موارد الهلاك بالعلم والثروة والوثنية والكفر ، أقامت « روسيا المقدسة » وفية لمسيحية آباء الكنيسة الأولين ، أقرب الأمم إلى قلب المسيح وأحبها إليه ، وإليها سيؤول حكم العالم وافتداؤه ، يوما ما .

٣ — السياسة الروسيــة

١٧٢٥ — ٤١

ليس تاريخ روسيا فيما بين بطرس الأكبر واليزابث بتروفنا إلا سجلا كئيبا محيراً من الدسائس وثورات القصر . فهذه الحقبة تتيح لنا — إن كان لحقبة ما أن تتيح — ونحن مطمئنون — أن نوفر فى الحيز والوقت. ومع ذلك فلا مناص من ذكر بعض عناصر هذا الخليط إن أردنا أن نفهم مركز كاترين الكبرى وخلقها وسلوكها .

كان الوريث الطبيعى للعرش عام ١٧٢٥ بيوتر ألكسيفتش ، صبى العاشرة وابن الكسيس (وألكسيس هو الابن القتيل لبطرس الأكبر) ، ولكن أرملة بطرس التى لم تعرف القراءة والكتابة أقنعت حرس القصر (بدفعها رواتبهم التى طال تخلفها) بأنه عينها خلفاً له ، وبفضل تأييدهم أعلنت (٧ فبراير ١٧٢٥) توليها العرش بإسم كاترين الأولى ، إمبراطورة أقليم روسيا كلها . ولكن كاترين الصغرى هذه انغمست بعــد ذلك فى الشراب والفسق . وكانت تحب الخمر حتى تغيب عن وعيها كل مساء ، وتمضى إلى فراشها عادة فى الخامسة صباحا ، وقد تركت زمام الحكم لعشيقها السابق الأمير الكسندر دانيلوفتش منشيكوف ومعه مجلس أعلى ،— واضطلع الكونت أندراى أوسترمان ، الألمانى المولد ، بالشئون الخارجية ووجه روسيا إلى مصادقة ألمانيا والنمسا ومعاداة فرنسا . وعملا بمخططات

بطرس الأكبر ، زوجت كاترين إبنتها آنا بتروفنا لكارل فريدرش ، دوق هولشتين — جوتورب ، وذهب العروسان ليعيشا فى كيل ، حيث ولدت آنا الغلام الذى صار فيما بعد بطرس الثالث . أما كاترين نفسها ، فقد ماتت فى ٦ مايو ١٧٢٧ شهيدة لذاتها ، بعد أن عينت خلفا لها الصبي بيوتر الكسيفيتش الذى اغتصب عرشه من قبل .

ولم يكن بطرس الثانى هذا يتجاوز الثانية عشرة ، فظل منشيكوف يواصل الحكم ، واستغل سلطاته فى الإثراء تحسبا للمستقبل . فهب لفيف من النبـــلاء بزعامة الأخوين إيفان وفاسيلى لوكيتش دولجوروكى فأطاحوا بمنشيكوف ونفوه إلى سيبيريا حيث مات فى ١٧٢٩ . ولم يمض عام حتى لقى بطرس الثانى حتفه بالجدرى ، وانتهى بموته صلب الذكور فى أسرة رومانوف . هذا الحادث المؤسف هو الذى أتاح لروسيا أن تحكمها على مدى ستة وستين عاما ثلاث نساء ضارعن ، أو فقن ، أكثر معاصريهن من الملوك كفاءة تنفيذية وآثارا سياسية ، وسبقنهم جميعا — باستثناء لويس الخامس عشر — فى مضمار العربدة الجنسية .

أما أولى هؤلاء القيصرات فهى آنا إيفانوفنا ، ابنة إيفان الكسيفيتش البالغـــة خمسة وثلاثين عاما ، وأبوها كان الأخ الأبله لبطرس الأكبر . وقد اختارها المجلس الأعلى لأنها اكتسبت سمعة واقية بالوداعة والطاعة . ووضع المجلس الذى كان يهيمن عليه آل دولجوروكى وجولتسين «شروطا» بعثوا بها إلى آنا وهى فى كورلاند ، لابد من قبولها لتثبيتها على العرش . فوقعت على الشروط (٢٨ يناير ١٧٣٠) . ولكن لا الجيش ولا الاكليروس أرادوا إحلال الاولجركية محل الأوتقراطية . لذلك انطلق وفد من حرس القصر للقاء آنا ، والتمس منها أن تتقلد زمام السلطة المطلقة . فاستوحت الشجاعة من أسلحتهم ، ومزقت « الشروط » على مرأى من الحاشية .

وكانت آنا عديمة الثقـــة بالنبلاء الروس ، فاستقدمت من كورلاند الألمان الذين كانوا يمتعونها هناك . فأصبح إرنست فون بورن ، أو بيرون

عشيقها السابق رئيسا للحكومة ، ورد أوسترمان لرياسة الشئون الخارجية ، وأعاد الكونت خريستوف فون مونيش تنظيم الجيش ، وساعد لوفنفولدى وكورف ، وكيزرلنج ، على تطعيم نظام الحكم الجديد ببعض الكفاية الألمانية . فجمعت الضرائب بصرامة يقظة ، ووسع التعليم وأدخلت عليه التحسينات ، وهيء للدولة جهاز مدرب من الموظفين المدنيين . وبمثل هذه الفاعلية سجنت الحكومة الجديدة أو نفت أو أعدمت الدولجوروكيين والجولتسينيين .

وعاشت آنا عيشة منتظمة نسبيا ، بعد أن قنعت بعشيقين (بيرون ولوفنفولدى) . فكانت تستيقظ فى الثامنة ، وتخصص ثلاث ساعات لشئون الحكم ، وتبتسم ابتسامة الرضى ، إذ يبسط رجالها الألمان سلطان روسيا . فغزا جيش يقوده مونيش بولنده ، وخلع ملكها ستانسلاس لسكزنسكى — الخاضع لتوجيه الفرنسيين . وأجلس على عرشه أوغسطس الثالث السكسونى ، واتخذ أول خطوة على طريق ربط بولنده بالروسيا . وردت فرنسا بأن حرضت تركيا على أن تهاجم روسيا ، ولكن السلطان تردد لانشغاله على جبهته الفارسية ، فرأت روسيا الفرصة مواتية لإعلان الحرب على تركيا ، وهكذا بدأت (١٧٣٥) ستون سنة من صراع السيادة على البحر الأسود . وشرح دبلوماسيو آنا الموقف فقالوا إن الاتراك ، أو من يلوذ بهم فى جنوبى روسيا ، فى يدهم مخارج الأنهار الخمسة الكبرى — دنيستر ، وبوج ، ودنيبر ، ودون ، وكوبان — التى كانت أهم مسالك التجارة الروسية المتجهة جنوبا ، وأن القبائل الإسلامية نصف الهمجية التى سكنت الاحواض الدنيا لهذه الانهار هى خطر دائم يتهدد مسيحيى روسيا ، وأن الشواطىء الشمالية للبحر الاسود جزء طبيعى وضرورى من روسيا ، وأن شعبا عظيما ناميا كالشعب الروسى يجب ألا يحال بعد اليوم بينه وبين الوصول إلى البحر الأسود والبحر المتوسط دون معوق ، وقدظلت هذهالحجج الأنشودة المتكررة التى ظلت تتغنى بها روسيا طوال ما بقى من القرن وما بعده .

أما أول الأهداف فكان القرم ، شبه الجزيرة الذى يقوم معقلا تركيا

على الجبهة الشمالية للبحر الاسود . وكان الاستيلاء على شبه الجزيرة تلك هو الغاية التى استهدفتها حملة مونيش عام ١٧٣٦ . وكان أعدى أعدائه فى هذه الحملة المسافات المترامية والمرض ... ذلك أنه كان عليه أن يعبر ٣٣٠ ميلا من القفار والبرارى التى لاتستطيع بلدة واحدة من بلادها أن تقدم الطعام أو الدواء لجيش عدته ٥٧,٠٠٠ مقاتل ، وكان لزاماً أن ترافقهم ثمانون ألف عربة فى طابور طويل معرض فى أى نقطة أو لحظة لهجوم قبائل التتار عليه . واستطاع مونيش بفضل قيادته الماهرة أن يستولى فى تسعة وعشرين يوما على بريكوب ، وكوسلوف ، وبخشيسراى (عاصمة القرم) ، ولكن فى ذلك الشهر تفشت الدوسنطاريا وغيرها من الأمراض فى جيشه فأحدثت من الشقاء والتمرد بين رجاله ما أكرهه على التخلى عن فتوحه والتقهقر إلى أوكرانيا ، واستولى أثناء ذلك قائد آخر من قواد آنا على آزوف المشرفة على مصب نهر دون .

وكر مونيش على الجنوب فى أبريل ١٧٣٧ بسبعين ألف مقاتل ، واستولى على أوخاكوف ، قرب مصب نهر بوج . وفى يونيو انضمت إليه النمسا فى مهاجمة الترك ، ولكن حملتها باءت بفشل ذريع ألجأها إلى إبرام صلح منفرد ، أما روسيا التى تركت فجأة لتواجه الجيش التركى برمته ، والتى كانت تتوقع حربا مع السويد ، فقد وقعت (١٨ سبتمبر ١٧٣٩) صلحا رد إلى الأتراك تقريبا كل ما كسبه الروس فى حملات ثلاث . واحتفل بالمعاهدة فى سانت بطرسبرج على أنها إنتصار باهر لم يكلف أكثر من مائة ألف قتيل .

وعاشت آنا سنة بعد الحرب . وقبيل موتها عينت وريثا للعرش ، إيفان السادس ، الغلام الذى لم يتجاوز عمره ثمانية أسابيع : وهو ابن بنت أختها آنا ليوبولدوفنا الألمانية المولد وأنطون أولريش أمير برنزويك . وأوصت أن يكون بيرون وصيا على إيفان حتى يبلغ السابعة عشرة . ولكن مونيش وأوسترمان كانا الآن قد نالهما من بيرون ما يكفى . فانضما إلى أولريش وليوبولدوفنا ونفوه إلى سيبيريا (٩ نوفمبر ١٧٤٠) . وأصبحت

آ نا ليوبولدوفنا وصية ، ومونيش « الوزير الأول » . وخشي السفيران الفرنسي والسويدى أن يسيطر التيوتون على روسيا سيطرة كاملة . فمولا ثورة يقوم بها الأشراف الروس . واختار الثوار سراً مرشحاللعرش اليزافيتا بتروفنا إبنة بطرس الأكبر وكاترين الأولى .

وكانت اليزابث ، كما سندعوها هنا ، فى الثانية والثلاثين من عمرها ، ولكنها فى أوج حسنها وشجاعتها ونشاطها ، تحب الألعاب الرياضية والتدريب العنيف ، ولكنها أيضاً ولوعة بمتع الغرام ، وقد رفهت عن سلسلة من العشاق ، ولم تظفر بقدر يذكر من التعليم ، وكانت تكتب الروسية بصعوبة وتتكلم الفرنسية بطلاقة . ويبدو أن فكرة تشريفها العرش لم تخطر لها ببال إلى أن نحتها آ نا ليوبولدوفنا وأوسترمان جانبا مؤثرين عليها الأجانب . فلما أمرت الوصية فرق سانت بطرسبرج بالرحيل إلى فنلندة ، وتذمر الجند لأنهم سيواجهون حرب شقاء ، اغتنمت اليزابث الفرصة . فلبست الزى العسكرى ، وقصدت ثكنات الجند فى الساعة الثانية من صباح ٦ ديسمبر ١٧٤١ ،وناشدتهم أن يناصروها ، ثم ركبت مركبة الجليد الى القصر الشتوى على رأس فوج من الجيش وأيقظت الوصية ، وزجت بها هى والقيصر الطفل فى السجن . فلما استيقظت المدينة وجدت أن لها حاكماً جديداً ، إمبراطورة روسية خالصة ، وابنـــة لبطرس العظيم . واغتبطت روسيا وفرنسا بهذا الحدث .

٤ — اليزابث بتروفنا

١٧٤١ — ٦٢

من العسير فهم هذه المرأة خلال ضباب الزمن والأهواء . وحين لقيتها كاترين الثانية فى ١٧٤٤ « راعها منها جمالها وجلال سلوكها . . ومع أنها كانت بادينة جداً ، فإن بدانتها لم تنل قط من حسنها أو تجعل حركتها ثقيلة مضطربة . . . رغم ارتدائها طوقاً هائلا لتنورتها حين تكتمل زينتها[٢٦] » . وكانت تبطن الشكوكية إلى شفا الإلحاد[٢٧] ، وتظهر الغيرة

على الديانة التقليـــدية . وقد لاحظ مراقب فرنسى « ميلهـــا السافر للشراب »[٢٨] ، ولكن علينا أن نتذكر أن روسيا بلداً بارداً وأن الفودكا تدفىء شاربها . وقد رفضت أن تتزوج مخافة أن يبدد الزوج قوتها ويضاعف من أسباب الخلاف والخصومة . ويزعم البعض أنها تزوجت سراً الكسيس رازموفسكى ، فإذا كان الأمر كذلك فإنه لم يكن سوى الأول بين أقران عديدين . وكان فيها غرور وخيلاء ، وولع بالحلى والملابس المبهرجه ، ولها خمسة عشر ألف ثوب، وأكوام من الجوارب، و ٢٥٠٠ حذاء[٢٩] ، وقد استعملت بعضها قذائف أثناء النقاش ، وكان فى استطاعتها أن توبخ خدمها وحاشيتها بلغة السوقة ، وقد صدقت على بعض العقوبات القاسية ، ولكنها كانت فى سريرتها رحيمة الفؤاد[٣٠] . ألغت عقوبة الإعدام إلا على جريمة الخيانة (١٧٤٤) ، ولم تسمح بالتعذيب إلا فى أخطر المحاكمات ؛ أما عقوبة الجلد فقد بقيت نافذة ، ولكن اليزابث كانت تشعر أنه لابد من إيجاد وسيلة لتثبيط المجرمين الذين جعلوا الطرق العامة وشوارع المدن غير مأمونة فى الليل ، وقد جمعت فى طبعها بين القلق والكسل ، ووهبت ذكاء فطرياً حاداً ، وأعطت وطنها خير حكومة سمحت بها حالة التعليم والأخلاق والعادات والاقتصاد الروسى .

وبعد أن نفت أوسترمان ومونش إلى سيبيريا ، أعادت مجلس الشيوخ إلى سلطة القيادة الإدارية ، ووكلت الشئون الخارجية إلى ألكسى بتروفيتش بستوزيف — ريومين . وقد وصفته كاترين الثانية بأنه « دساس كبير ، سيئ الظن بالناس ، حازم جرىء فى مبادئه ، عدولا يعرف الصفح ، ولكنه صديق صدوق لأصدقائه »[٣١] . وكان مشغوفا بالمال كما يشغف به عادة من يعرفون أن سمو المنصب قد يفضى إلى السقوط ، وحين حاولت انجلترة أن ترشوه قدرت أن نزاهته تكلف ١٠٠٫٠٠٠ كراون[٣٢] . ولا علم لنا إن كانت الصفقة قد تمت ، ولكن بستوزيف وقف بوجه عام فى صف انجلترة ولكن هذا كان ردا طبيعيا على تأييد فرنسا للسويد وتركيا ضد روسيا . وقد عرض فردريك الأكبر هو الآخر على بستوزيف ١٠٠٫٠٠٠ كراون إن ألف بين روسيا وبروسيا ، ولكن العرض رفض[٣٣] . وبدلا منه

ألف بستوزيف بين روسيا والنمسا (١٧٤٥) وانجلترة (١٧٥٥). فلما أتبعت انجلترة هذا بتحالف مع بروسيا (١٦ يناير ١٧٥٦) تهدم بناء الأحلاف الذى أقامه بستوزيف، وأهملت الزابث بعدها الأخذ بنصائحه، وربطت وزارة جديدة روسيا بحلف فرنسى — نمساوى كان «نقضا للأحلاف» السابقة: وكانت رحى حرب السنين السبع دائرة.

وقد رأينا فى موضع سابق من هذا الكتاب — وما أبعد الشقة بيننا وبينه — كيف هزم القائد الروسى أبراكسين البروسيين فى جروس بيجرزدورف (١٧٥٧)، ثم سحب جيشه إلى بولندة. وأقنع سفيرا فرنسا والنمسا الزابث بأن بستورزيف كان قد أمر بتقهقر ابراكسين وأنه يتآمر لخلعهما. فأمرت بالقبض على المستشار والقائد جميعا (١٧٥٨). ومات ابراكسين فى السجن، وأنكر بستورزيف التهمتين، وقد برأت ساحته المعلومات التى أنيط عنها اللثام فيما بعد. وأراد خصومه أن يعذبوه ليعترف، ولكن الزابث كفتهم. وحل ميخائيل فورونستوف محل بستوزيف مستشارا.

وفى غمار حفلات البلاط الراقصة، وموائد قماره ودسائسه وغيراته وأحقاده، كانت الزابث تشجع معاونيها على دفع المدنية الروسية قدما. ففتح محسوبها الشاب ايفان شوفالوف جامعة فى موسكو، وأسس المدارس الابتدائية والثانوية، وأوفد الطلاب فى بعثات للخارج للدراسات العليا فى الطب، واستقدم المعماريين والمثالين والمصورين الفرنسيين لأكاديمية الفنون (Akademia Iskustv) التى أقامها فى العاصمة (١٧٥٨). وقد تبادل الرسائل مع فولتير، وأغراه بتأليف «تاريخ الإمبراطورية الروسية فى عهد بطرس الأكبر» (١٧٥٧). أما أخوه بيوتر شوفالوف فقد أعان الاقتصاد بإلغاء المكوس على التجارة الداخلية. على أن الزابث سمحت أثناء ذلك للتعصب الدينى بأن يزداد إرضاء لدعاة الجامعة السلافية. فأغلقت بعض المساجد فى أقاليم التتار، ونفت ٣٥٫٠٠٠ يهوديا.

وكان أكبر مآثرها انتصار جيوشها وقوادها المرة بعد المرة على فردريك

الثانى ، ووقفهم الزحف البروسى ، وأشرافهم على سحقه لولا أن هد تدهور صحتها من قدرتها على حمل التحالف الفرنسى النمساوى الروسى على التماسك كتب السفير البريطانى فى تاريخ مبكر (١٧٥٥) يقول : « لقد ساءت صحة الإمبراطورية وأصيبت ببصق الدم والنهج ، وبالسعال المستمر ، وبالأرجل المتورمة . وبالماء فى رئتيها ، ومع ذلك فقد رقصت « منويتا معى » .(٣٤)
وراحت الآن تدفع ثمنا باهظا لإيثارها حياة الفسق على الزواج . وإذ كانت بغير خلف ، فقد طالما بحثت عن شخص من دم ملكى يستطيع التصدى لمشاكل روسيا الخارجية والداخليـــة ، فوقع اختيارها — وهو اختيار لا يمكن تفسيره — على كارل فريدرش أولرش ، ابن اختها آنا بتروفنا وكارل فريدرش ، دوق هولشتين — جوتورب . وكانت هذه أكبر غلطة اقترفتها فى حكمها ، ولكنها كفرت عنها باختيارها لشريكة حياته .

٥ — بطرس وكاترين

١٧٤٣ - ٦١

ولد بيوتر فيودوروفتش ، كما أعادت اليزابث تسمية وريثها ، بمدينة كيل فى ١٧٢٨ . وكان بوصفه حفيدا لبطرس الأكبر ولشارل الثانى عشر كليهما صالحا لارتقاء العرشين الروسى والسويدى . وقد ألزم البيت لضعف صحته حتى بلغ السابعة ، ثم اختير بتغيير فجائى للانضمام إلى حرس هولشتين ونشىء على حياة الجندية . وأصبح رقيبا فى التاسعة ، وكان يسير شامخ الرأس فى العروض الميدانية ، وتعلم لغة ضباط الجيش وأخلاقهم . وحين ناهز الحادية عشرة عين له مرب ألمانى نشأه على الإيمان اللوثرى بصورة لا تنسى ، وأسرف فى تأديبه إسرافا أصابه بالعصاب . وإذ أرهبه هذا المربى بعنفه ، فقد انطوى على الجبن والتكتم ، ولاذ بالمكر والخداع ، (٣٥) وبات « دائم النزق والعناد وحب الشجار » (٣٦) . ولعل روسو كان مستشهدا به مثالا يوضح الزعم بأن الإنسان خير بالفطرة ولكن البيئة السيئة هى التى تفسده ، ذلك أن بطرس كان رقيق الفؤاد ، يتمنى أن يسلك المسلك الحق ، كما سنرى من

مراسيمه الملكية ، ولكن دمره ما فرض عليه من القيام بأدوار لا تناسبه . وحين التقت به كاترين الثانية وهو فى الحادية عشرة وصفته بأنه « وسيم الطلعة حسن السلوك مجامل » وقالت « أنها لم تشعر بأى نفور من فكرة الزواج به » . (٣٧)

وفى ١٧٤٣ أمرت اليزابث بأن يؤتى به إلى روسيا ، وخلعت عليه لقب الغراندوق ، ويبدو أنها أدخلته فى المذهب الأرثوذكسى ، وحاولت تدريبه على شئون الحكم . ولكنها « وقفت مشدوهة » لفقر تعليمه واهتزاز شخصيته وفى سانت بطرسبرج أضاف السكر عيبا إلى عيوبه الأخرى ، وراود الأمل اليزابث بأن هذا الفتى الغريب قد يتاح له ، إذا زوج بامرأة صحيحة البدن ذكية الفؤاد ، أن ينجب قبل وفاة اليزابث قيصرا كفؤا لروسيا فى مستقبل أيامه. وبهذه الروح المجردة من التعصب العرقى ، والتى اتسمت بها الاستقراطيات الأوروبية حتى أثناء قيام الدول القومية ، اتجهت اليزابث ببصرها خارج روسيا ، فوقع اختيارها على أميرة مغمورة من إحدى الإمارات الألمانية الصغرى . وكان فريدريك الثانى الماكر قد أوصى بهذا الاختيار أملا فى أن يظفر بقيصرة ألمانية صديقة فى روسيا التى أصبحت الآن مبعث خوف لألمانيا.

وعند هذه النقطة تواجهنا مذكرات كاترين الكبرى ، وهى مذكرات لا يتطرق الشك إلى صحة نسبتها إليها ، لم تطبع حتى عام ١٨٥٩ ، ولكن المخطوطة الفرنسية التى كتبتها كاترين بخط يدها محفوظة بدار المحفوظات القومية فى موسكو فهل هى جديرة بالثقة ؟ إن القصة التى ترويها هذه المذكرات تؤيدها على العموم مصادر أخرى . (٣٨) وعيبها ليس الكذب بل التحيز فهى قصة أجادت روايتها بذكاء وحيوية ، ولكنها فى بعضها دفاع عن خلعها زوجها ، وعن احتمالها نبأ قتله بمثل ما احتملته به من رباطة جأش .

وقد ولدت فى شتتن بيومرانيا فى ٢١ ابريل ١٧٢٩ وسميت عند تعميدها صوفيا أوجستا فردريكا بأسماء ثلاث عمات لها . أما أمها فكانت يوهانا اليزابث أميرة هولشتين — جوتورب ، ومن طريقها كانت كاترين ابنـة

خالة بطرس . أما أبوها فكان كرستيان أوجست ، أمير انهالت — تسربست فى وسط ألمانيا ، واللواء فى جيش فردريك . وقد خاب أمل أبويها لولادة بنت لا ولد ، وحزنت الأم كأنها أسقطت جنينا . أما كاترين فقد كفرت عن أنوثتها باتخاذها فحولة القادة العسكريين وحنكة الأباطرة الحاكمين ، بينما ظلت طوال ذلك أكثر العشيقات فى أوربا طلابا وأقربهن منالا .

كانت تشكو ألوانا من أمراض الطفولة ، ومنها مرض اشتد عليها حتى خلفها تبدو للناظرين كأنها ستظل مشوهة ما بقى لها من العمر « فى عمودها الفقرى تعرج » و « وكتفها اليمنى أعلى كثيرا من اليسرى » ، وأصبحت الآن « تتخذ شكل حرف Z » فحبسها جلاد المدينة السابق ، الذى تخصص فى علاج انخلاع المفاصل ، فى مشد (كورسيه) « لم أكن أخلعه قط نهارا ولا ليلا إلا حين أغير ملابسى الداخلية ، و وبعد ثمانية عشر شهرا بدأت أبدى علامات على استقامة عودى » . (٣٩) ولكثرة ما تردد فى سمعها أنها دميمة ، صممت على أن تنمى ذكاءها بديلا عن الجمال ، فكانت مثالا آخر من أمثلة النقص الذى يشعر به صاحبه فيحفزه إلى قدرات تعويضية . واختفت دمامتها حين لف البلوغ أعضاءها فاستدارت . وكانت رغم هذه الخطوب ذات « طبع رضى » وفيها من الفرح الفطرى « ما استلزم ضبطه » . (٤٠)

تلقت تعليمها على مهذبين نخص منهم بالذكر قسيسا لوثريا كان يلقى عنتا من أسئلتها . مرة سألته « أليس من الظلم أن يحكم على تيطس ، وماركوس أوريليوس ، وجميع عظماء العالم القديم بالهلاك الأبدى رغم فضلهم ، لأنهم لم يعرفوا شيئا عن رؤيا يوحنا اللاهوتى ؟ » وكانت تحسن الجدل إلى حد حمل معلمها على أن يعتزم جلدها لولا تدخل إحدى المربيات. وقد أرادت بصفة خاصة أن تعرف شكل تلك الهيولى التى سبقت الخليقة كما ورد فى سفر التكوين . « ولكن إجاباته لم تبد قط مقنعة » و « فقد كلانا أعصابه » ، وزاد انزعاجه بإصرارها على أن يفسر لها « بالضبط معنى الختان » (٤١) وكان معلموها الآخرون ومربيها فرنسيين ، لذلك أتقنت

الفرنسية ، فقرأت كورنيي ، وراسين ، وموليير ، وكان واضحا أنها مهيأة لقراءة فولتير . وهكذا أصبحت من أفضل نساء عصرها تعليما .

وانتهى نبأ هذه الأميرة الذكية إلى الإمبراطورة اليزابث ، وكانت تواقة إلى فتاة قد تمنح بطرس الذكاء بالتناضح . ففى أول يناير ١٧٤٤ وصلت إلى أم صوفيا دعوة للحضور معها فى زيارة للبلاط الروسى . وتردد الوالدان ، فقد بدت لهما روسيا بلداً قلقاً بدائياً إلى حد خطر ، أما صوفيا التى حدست أن زواجها من الفرندوق قيد البحث فقد التمست الجواب بقبول الدعوة . وعليه ففى ١٢ يناير بدأوا الرحلة الطويلة الشاقة عبر برلين وشتتن وبروسيا الشرقية وريجا وسانت بطرسبرج إلى موسكو . وفى برلين استضافهم فردريك ، وأعجبته صوفيا ، « وراح يسألنى ألف سؤال ويتكلم على الأوبرا والكوميديا والشعر والرقص ، وباختصار كل شىء يمكن أن يخطر ببال إنسان يتحدث إلى فتاة فى الرابعة عشرة[٤٢] » وفى شتتن « ودعنى أبى ، وكانت آخر مرة رأيته فيها ، وقد بكيت بكاء مراً » . وبلغت الأم وابنتها موسكو فى ٩ فبراير فى حاشية مترفة ، بعد رحلة فى مركبة جليد امتدت اثنتين وخمسين ساعة من سانت بطرسبرج .

وفى ذات المساء التقت ببطرس ثانى مرة ، وقد وقع من نفسها هذه المرة أيضاً موقعاً طيباً ، إلى أن أسر لها أنه لوثرى صميم ، وأنه يحب إحدى الوصيفات فى البلاط[٤٣] . ولاحظت أن الروس يكرهون لهجته وعاداته الألمانية ، أما هى فقد عولت على تعلم الروسية والتمكن منها ، وعلى قبول المذهب الأرثوذكسى بحذافيره وشعرت بشىء « أكثر قليلا من عدم المبالاة نحو بطرس ، ولكن « لم أكن غير مبالية بالتاج الروسى » . وعينوا لها ثلاثة مدرسين — للغة ، وللدين ،وللرقصات الروسية . وقد شقت على نفسها فى الدرس — فنهضت مرة فى منتصف الليل للاستذكار — حتى ألزمت الفراش لإصابتها بذات الجنب ، « وظللت أتذبذب بين الحياة والموت سبعة وعشرين يوماً ، فصدت خلالها ست عشرة مرة ، أحياناً أربع مرات فى اليوم »[٤٤] . وفقدت أمها حظوتها فى البلاط لأنها طلبت استدعاء قسيس

لوثرى . أما صوفيا فقد كسبت قلوباً كثيرة بطلبها قسيساً يونانياً . وأخيراً ، فى ٢١ أبريل ، استطاعت أن تظهر أمام الناس . «كنت هزيلة كأننى هيكل عظمى . . . فى وجهى وقسماتى غضون ، وشعرى ساقط ، ولونى غاية فى الشحرب »(٤٥) وأرسلت لها الأمبراطورة ملء قدر من « الروج » .

وفى ٢٨ يونيو جازت صوفيا ، فى خشوع مؤثر ، مراسم دخولها فى المذهب الأرثوذكسى . وأضيف الآن إلى أسمائها إسمان هما إكاترينا ألكسيفنا ؛ ومن ثم أصبحت منذ الآن تدعى كاترين . وفى صباح الغد ، وفى الكتدرائية الكبرى ، « أوسبنسكى سوبور» ، خطبت رسمياً للغرندوق بطرس . وابتهج كل من رآها بتواضعها اللبق ، وحتى بطرس بدأ يحبها . وبعد أربعة عشر شهراً من التدريب تزوجا فى ٢١ أغسطس ١٧٤٥ فى سانت بطرسبرج . وفى ١٠ أكتوبر رحلت أم كاترين قاصدة أرض الوطن .

وكان بطرس الآن فى السابعة عشرة ، وزوجته فى السادسة عشرة . كانت جميلة ،وكان قبيحاً لأنه أصيب بالجدرى فى سنة خطبتهما . وكانت من الناحية الفكرية شرهة يقظة ، أما هو فيقول سولوفيف إنه « بدت عليه كل أمارات التخلف العقلى ، وكان أشبه بطفل كبير »(٤٦) : يلهو بالدمى والعرائس والعساكر اللعب ، ويولع بالكلاب حتى أنه يحتفظ بعدد منها فى شقته ، ولم تعرف كاترين أيهما شر من الآخر ،نباحها أم رائحتها المنتنة(٤٧). ولم يحسن الموقف بالعزف على كمانه . وازداد ميله للشراب ؛ « و منذ ١٧٥٣ كان يثمل بالشراب كل يوم تقريباً » (٤٨) وكثيراً ما كانت الإمبراطورة اليزابث توبخه على نقائصه ، ولكنها لم تضعف القدوة إلى الوصية . وكان الذى يزعجها أكثر هو كرهه السافر لروسيا التى سماها « بلداً لعيناً » (٤٩)، واحتقاره للكنيسة الأرثوذكسية وقساوستها ، وأهم من هذا كله عبادته لفردريك الأكبر ، حتى أثناء اشتباك روسيا وبروسيا فى حرب طاحنة ، وأحاط نفسه بـ « حرس هولشتينى» من الجند كلهم تقريباً ألمان ، وفى بيت لهوه بأورانينباوم كان يلبس إتباعه الزى الألمانى ، ويدربهم على الطريقة البروسية . وحين هرم القائدان الروسيان فرمور وسالتيكوف

البروسيين عام ١٧٥٩ أمسكا عن متابعة إنتصاراتهما مخافة أن يغضبا بطرس [٥٠] الذى قد يصبح قيصراً فى أية لحظة .

وكاد زواجهما أن يصبح صراعا بين ثقافتين ، لأن كاترين كانت تسعى إلى المزيد من التعليم بدراسة الأدب الفرنسي . ويبدو أمراً لايصدق أن تقرأ هذه الشابة خلال سنيها التعسة وهى غراندوقة أفلاطون وبلوتارخ وتاسيتوس وبيل وفولتير وديدرو ومونتسكيو الذى قالت عن كتابه « روح القوانين » إنه ينبغي أن يكون « كتاب صلوات يومية لكل ملك سليم الإدراك » [٥١] ولا بد أن كتبا كهذه أتت على البقية الباقية من معتقدات كاترين الدينية — رغم أنها واصلت دون توان مراعاتها للطقوس الأرثوذكسية وأعطتها هذه الكتب ذلك المفهوم عن « الاستبداد المستنير » الذى تشربه فردريك من فولتير قبل ذلك بجيل .

وخلال ذلك (إن صدقنا روايتها المباشرة) « لم يصـــل زواجى بالغراندوق إلى نقطة الاكتمال » [٥٢] وفى رأى كاستيرا الذى كتب فى ١٨٠٠ سيرة لكاترين تنبيء باطلاع حسن كما تتسم بالعداء لها ، أن « بطرس كان يشكو عيباً بدا رغم سهولة إزالته أشد قسوة ، ولم يستطع عنف حبه ولا محاولاته المتكررة أن يحققا نقطة الاكتمال فى زواجه . » [٥٣] وهذه الحالة لها نظير لافت للنظر ، هى حالة لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت . وربما كان النفور الذى انتهت كاترين إلى الإحساس به نحو بطرس خلال خطبتهما الطويلة قد وضح له وأورثه العنة النفسية . وسرعان ما اتجه إلى نساء أخريات ، واتخذ الخليلة تلو الخليلة ممن راودهن الأمل فى الحلول محل الغراندوقة كاترين . وفى روايتها أن سنوات الزواج الأولى هذه كانت سنوات شقاء وتعاسة لها . وذات يوم (فيم يروى هوراس ولبول) ، حين سألتها الإمبراطورة لم يثمر زواجها ، أجابت بأنه ينبغي ألا ينتظر أى ثمر له . وكان هذا فى الواقع إعلاناً لعجز زوجها . وأجابت إليزابث بأن الدولة تطالب بالخلف ، وتركت للغراندوقة مهمة الحصول على هذا الخلف

بمساعدة من تشاء . وكانت ثمرة طاعتها والدا وبنتا . »[٥٤] وقد بينت مدام ماريا تشوجلوكوفا ، التي عينتها إليزابث وصيفة لكاترين ، للغراندوقة (فيما روته هذه) أن هناك استثناءات هامة لقاعـــدة الوفاء الزوجي ، ووعدتها بأن تكتم السر إذا اتخذت كاترين عشيقا ،[٥٥] و (« لا ريب فى أن هذا الاقتراح المخجل لم يأت من الوصيفة بل من الامبراطورة ذاتها[٥٦] ». وعلينا أن ننظر إلى هذه الأمور فى منظور بلاط روسى طال إلفه للمكات عديدات العشاق ، وبلاط فرنسى تعود على ملوك متعددى العشيقات ، وبلاط سكسونى — بولندى ضم مائة وخمسين طفلا أنجبهم أوغسطس الثالث .

فهل اقتدت كاترين بهذه المثل إلى درجة الإفراط ؟ بعد ولايتها العرش ، نعم . أما قبلها فيبدو أنها إقتصرت فى قصد رواق على ثلاثة عشاق — أولهم — بعد زواجها بنحو ست سنوات — سرجى سالتيكوف ، الضابط الشاب المفعم حيوية . وتشرح كاترين استجابتها لحبه فتقول :

« إن جاز لى توخى الصراحة . . . . قلت إننى كنت أجمع بين عقل الرجل ومزاجه ، وبين مفاتن المرأة الجديرة بأن تحب . وأرجو الصفح عن هذا الوصف ، الذى يبرره صدقه . . . فلقد كنت جذابة ، ومن ثم كان نصف الطريق إلى الأغراء قد قطع فعلا ، ومن الانسانية الخالصة فى مثل هذه المواقف ألا يقف الإنسان فى منتصف الطريق .... فالمـــرء لايستطيع أن يمسك بقلبه فى يده ، يحبسه أو يطلقه ، يشد عليه قبضته أو يرخيها كما يشاء . »[٥٧]

وفى ١٧٥١ حملت ولكنها أسقطت حملها ، وتكررت هذه التجربة المؤلمة فى ١٧٥٣ . وفى ١٧٥٤ ولدت الطفل الذى صار فيما بعد الإمبراطور بولس الأول . واغتبطت اليزابث ، وأهدت كاترين ١٠٠٠٠٠ روبل ، وأرسلت سالتيكوف ليبزوى انزواءاً مأمونا فى استكهولم ودرسدن ، حيث كان « عابثا مستهترا مع جميع النساء اللاتى قابلهن »[٥٨] كما تروى كاترين .

أما بطرس فازداد سكرا ، واتخذ مزيدا من الخليلات ، واستقر أخيرا على اليزافينا فورونتسوفا ، ابنة أخي المستشار الجديد . وكانت كاترين تتشاجر معه ، وتسخر منه ومن أصدقائه علانية . [٥٩] وفي ١٧٥٦ قبلت ملاطفة فتى بولندي وسيم في الرابعة والعشرين يدعى الكونت ستانسلاس بونياتوفسكي ، قدم إلى سانت بطرسبرج ملحقا للسير هانبري — ولمز ، السفير البريطاني . وتصفها سيرة ستانسلاس الذاتية في سنة ١٧٥٥ :

«كانت تناهز الخامسة والعشرين . .. في تلك اللحظة بالذات التي هي أجمل اللحظات للنساء الجميلات . كان لها شعر فاحم ، وبشرة بيضاء ناصعة وأهداب سوداء طويلة ، وأنف إغريقي ، وفم كأنه خلق للقبلات ، ويدان وذراعان غاية في الحسن ، وقد نحيل يغلب فيه الطول على القصر ، ومشية غاية في النشاط ملؤها المهابة رغم هذا . وكان رنين صوتها مبهجاً ، وضحكتها مرحة كطبعها » [٦٠].

فلما حدق النظر فيها « نسي أن هناك قطرا اسمه سيبيريا . » وكان هذا الغرام أعمق ماشعرت به من غراماتها الكثيرة ، وغراماته هو ، فقد ظل قلبها مع يونياتوفسكي بعد أن اتخذت عشاقاً آخرين بزمن طويل ، أما هو فلم يفق قط تماماً من افتتانه بها ، مهما أنزلت به سياساتها من آلام موجعة. وحين ذهبت لتقيم مع بطرس في أورانيفباوم ، خاطر ستانسلاس بحياته بزيارتها سرا هناك . وكشف أمره ، وأصدر بطرس أوامره بشنقه . غير أن كاترين تشفعت لبطرس بخليلته التي هدأت ثائرة الغراندوق بعد أن ألانتها هدية من كاترين . وأخيراً ، وفي نوبة من الود ، لم يكتف بطرس بالصفح عن يونياتوفسكي ، بل دعا كاترين للانضمام إلى عشيقها، ودخل معهما ومع اليزافيتا فورونتسوفا في « معيشة رباعية » لطيفة تخللتها عشاءات مرحة اشتركوا فيها جميعاً [٦١] .

وفي ٩ ديسمبر ١٧٥٨ ولدت كاترين بنتا . واعتقد أفراد الحاشية عموماً أن أباها هو بونياتوفسكي [٦٢] ولكن بطرس نسب الفضل لنفسه ،

وتقبل التهانى ، ونظم المهرجانات احتفالا بهذا الانجاز [٦٣] ، ولكن الطفلة ماتت بعد أربعة أشهر. واستدعى بونياتوفسكى إلى بولندة بأمر الامبراطورة، وحرمت كاترين العشق هنيهة ، ولكنها افتتنت بمغامرات الحب والحرب التى خاضها جريجورى جريجوريفتش أورلوف ، ياور بيوتر شوفالوف . وكان أورلوف قد كسب لنفسه حسن السمعة بثباته فى موقعه فى معركة زورندورف رغم جروحه الثلاثة . وكان له بنية الرجل الرياضى و « وجه ملاك » [٦٤] ، ولكنه لم يعرف من المناقب إلا الظفر بالسلطة والنساء بأى وسيلة متاحة . وكان لشوفالوف خليلة هى الأميرة إلينا كوراكين ، وكانت من أجمل حسان القصر وأكثرهن تحللا ، فاجتذبها أورلوف وظفر بها من رئيسه ، وأقسم شوفالوف أنه قاتله ، ولكنه مات قبل أن ينفذ فيه وعيده . وأعجبت كاترين بشجاعة أورلوف ، ولاحظت أن له أربعة أخوة فى الحرس كلهم قوى فارع الطول ، وقالت فى نفسها إن هؤلاء الخمسة سيفيدون إذا طرأ طارىء . وعليه رتبت لقاء مع جريجورى ، ثم ثانيا ، فثالثاً ، وسرعان ما أزاحت كوراكين واحتلت مكانها . ولم يحل يوليو ١٧٦١ حتى كانت حاملا ، وفى أبريل ١٧٦٢ ولدت ابنا لأورلوف ، وأحيط الحدث بما أمكن من تكتم ، وربى الغلام باسم الكسيس بوبرينسكى .

وفى ديسمبر ١٧٦١ وضح أن الامبراطورة بادئة مرضها الأخير ، وبذلت محاولات لإشراك كاترين فى مؤامرة تستهدف منع بطرس من ارتقاء العرش ، وقد أنذرت بأن بطرس إن أصبح قيصرا سينحيها جانباً ويجعل اليزافيتا فورونتسوفا زوجته ومليكته ، ولكن كاترين رفضت الاشتراك فى المؤامرة . وفى ٥ يناير ١٧٦٢ (حسب التقويم الجديد) ماتت الامبراطورة اليزابث ، وارتقى العرش بطرس دون معارضة سافرة .

٦ — بطرس الثالث

١٧٦٢

وقد أدهش الجميع بسماحة قراراته ، فالود الفطرى الذى حجبه ضباب العادات الفظة الغبية تكشف الآن فى نوبة من العرفان لتقلده السلطة بسلام ،

فصفح عن أعدائه ، واستبقى معظم وزراء البزابث ، وحاول أن يتلطف مع كاترين . فخصص لها فى القصر جناحا مريحا فى طرف منه ، وسكن هو جناحا فى الطرف الآخر . وخصص لخليلته الغرف الوسطى ، وكان هذا بالطبع إهانة بالغة ، ولكن كاترين ابتهجت فى دخيلة نفسها بسكناها على مبعدة منه . وزودها بمخصصات سخية ، ودفع ديونها الباهظة دون تحقيق فى أصلها . (٦٥) وفى الحفـــلات الرسمية كان يسوى بينها وبينه فى المكان وأحيانا يقدمها على نفسه . (٦٦)

ثم أعاد من المنفى الرجال والنساء الذين نفاهم الحكام السابقون إلى سيبيريا فعاد الآن مونيش وقد بلغ الثانية والثمانين ليرحب به اثنان وثلاثون حفيدا ، ورده بطرس إلى رتبة المشير ، وأقسم مونيش ليخدمنه إلى النهاية ، وقد بر بقسمه . وأحل الإمبراطور السعيد النبلاء من الالتزام الذى فرضه عليهم بطرس الأكبر ، وهو أن يعطوا الدولة سنين كثيرة من حياتهم ، فاقترحوا أن يصنعوا له تمثالا من الذهب ، ولكنه أمرهم أن يستعملوا هذا الذهب استعمالا أرشد . (٦٧) وألغى مرسوم أصدره بطرس فى ٢١ فبراير بالشرطة السرية التى أبغضها الناس جميعا ، وحرم الاعتقال للتهم السياسية حتى يراجعها مجلس الشيوخ ويقرها . وفى ٢٥ يونيو أصـــدر بطرس مرسوما بأن يعفى مقترف الزنا من التعنيف الرسمى منذ الآن ، «فحتى المسيح لم يدن (الزانية) فى ذلك الأمر » . (٦٨) وابتهجت الحاشية ، وسر التجار لتخفيض رسوم التصدير ، وخفض ثمن الملح ، وأبطل شراء الأقنان لتشغيلهم فى المصانع أما « قدامى المؤمنين » الذين هربوا من روسيا اتقاء اضطهادهم فى عهد البزابث فقد دعوا للعودة والتمتع بالحرية الدينية . ولكن رجال الدين أثارت سخطهم الشديد مراسيم ١٦ فبراير و ٢١ مارس التى أممت جميع أراضى الـــكنيسة وجعلت جميع القساوسة الأرثوذكس موظفين حكوميين ذوى رواتب . وحرر الأقنان العاملون على ضياع النبلاء أن يحرروا هم أيضا سريعا . ووسط هذه الإصلاحات كلها — التى أشار بها عليه مختلف الوزراء — راح بطرس يشرب حتى يثمل .

أما أغرب قراراته الذى أسعده أيما سعادة ، فهو إنهاؤه الحرب مع بروسيا . وكان حتى قبل ولايته العرش قد فعل الكثير ليساعد فردريك ، فأوصل سرا الخطط الحربية التى وضعها مجلس البزابث ، وراح الآن يفاخر بعمله هذا (٦٩) وفى ٥ مايو ربط الروسيا ببروسيا فى تحالف دفاعى هجومى. وأصدر تعليماته إلى قائد القوات الروسية المحاربة مع الجيش النمساوى أن يضعها فى خدمة « سيدى الملك » (٧٠) ثم ارتدى بزة عسكرية بروسية ، وأمر الجنود المحليين بأن يحذوا حذوه ، ثم أدخل الضبط والربط البروسيين فى الجيش ، ونظم التدريبات العسكرية كل يوم لحاشيته ، وأجبر كل ذكر فى الحاشية على المشاركة فيها دون مراعاة للسن أو النقرس (٧١) . وقدم « حرس هولشتين » الخاص به على أفواج العاصمة المعتدة بمكانتها .

ولم يكن الجيش الروسى كارها للسلم ، ولكن أذهله هجر روسيا لحلفائها الفرنسيين والنمساويين فى عجلة ، وتخليها عن جميع الأقاليم التى ظفرت بها من بروسيا خلال الحرب . وأفزعه أن يذيع بطرس عزمه على تجريد جيش روسى على الدنمرك لاسترداد دوقية شلزفج التى أخذتها الدنمرك من أدواق هولشتين ، ومنهم أبو بطرس . وأبان الجنود فى غير لبس إنهم سيرفضون خوض حرب كهذه ، فلما طلب بطرس إلى كيريل رازوموفسكى أن يزحف بجيش على الدنمرك أجابه القائد « ياصاحب الجلالة يجب أولا أن تعطينى جيشا آخر يكره جيشى على الزحف . » (٧٢)

وفجأة وجد بطرس نفسه مكروها رغم إصلاحاته الجريئة الممتازة ، كرهه الجيش خائنا لوطنه ، وكرهه الإكليروس لوثريا أو شرا من اللوثرى ، وطالب الأقنان الذين لم يعتقوا بالحرية فى تذمر وصخب ، وسخر منه البلاط ووصفه رجلا أحمق مأفونا . وفوق هذا كله حامت حوله شبهة عامة فى أنه ينوى تطليق كاترين والزواج من خليلته . (٧٣) « أن هذه الشابة » (كما يروى كاستيرا) « العاطل من أى موهبة خطاب أو كلام ، المتغطرسة فى غباوة .. استطاعت بدهائها أن تحصل من القيصر — تارة بتملقه ، وتارة بتأنيبه ، وتارة حتى بضربه — على تجديد للعهد الذى قطعه لها ... وهو

أن يتزوجها ويبوئها عرش روسيا بدلا من كاترين (٧٤) ولما لعبت برأسه السلطة والخمر عنف فى معاملة كاترين ، حتى لقد رماها علانية بالحماقة . (٧٥) كتب البارون دبروترى إلى شوازيل يقول : «إن الإمبراطورة (كاترين) فى وضع شديد القسوة ، وهى تعامل بمنتهى الاحتقار . . . ولن يدهشنى أنا العليم بشجاعتها وعنفها إن دفعها هذا إلى نوع من الشطط . . . ولا يألو بعض أصدقائها جهداً فى تهدئتها ، ولكنهم لا يترددون فى المخاطرة بكل شيء فى سبيلها أن اقتضى الأمر » (٧٦) .

وكانت سانت بطرسبرج وأرباضها حافلة بأنصار كاترين . أحبها الجيش والحاشية وجماهير الشعب . وكان أخلص أصدقائها فى هذه الأيام العصيبة ، بعد وصيفاتها وجريجورى أورلوف ، أميرة داشكوفا « إيكاترينا رومانوفنا » . ولم تكن هذه السيدة الجريئة المغامرة تتجاوز التاسعة عشرة ، ولكنها كانت ذات مكانة مرموقة فى القصر لأنها ابنة أخى المستشار فورونتسوف وأخت خليلة بطرس . وكان بطرس فى سذاجته أو بين كؤوس الخمر قد كشف لها عن نيته فى خلع كاترين وإحلال اليزافيتا فورونتسوفا محلها على العرش . (٧٧) ونقلت داشكوفا النبأ إلى كاترين ، — ورجتها أن تشترك فى مؤامرة لتنحية بطرس . ولكن كاترين كانت قد دبرت فعلا مؤامرة مع نيكيتا بانين ، مربى ولدها بولس ، وكيريل رازوموفسكى ، هتمان (زعيم) أوكرانيا ، ونيقولا كورف رئيس الشرطة ، والأخوين أورلوف ، و ب . ب باسيك ، وهو ضابط فى فوج محلى .

وفى ١٤ يونيو أصدر بطرس أمره بالقبض على كاترين ، ثم ألغى الأمر ، ولكنه أمرها بالاعتكاف فى بيترهوف ، على اثنى عشر ميلا غربى العاصمة . أما بطرس نفسه فخلا بعشيقته فى أورانينباوم . وترك تعليمات بأن يعد الجيش نفسه للإبحار إلى الدنمرك ، ووعد بأن يلحق به فى يوليو . وفى ٢٧ يونيو قبض على الملازم باسيك لالقائه خطباً تحط من قدر الإمبراطور . وخشى جريجورى وألكسى أورلوف أن يكرة بالتعذيب على الاعتراف بالمؤامرة ، فتقرر التصرف فوراً . وعليه ففى الثامن والعشرين ركب ألكسى

فى عجلة قاصداً بيترهوف ، وأيقظ كاترين، وأقنعها بأن تعود معه راكبة إلى سانت بطرسبرج. وفى طريقهما توقفا عند ثكنات فوج اسماعيلوفسكى، واستدعى الجند على قرع الطبول ، وناشدتهم كاترين أن ينقذوها من تهديدات الأمبراطور، فأقسموا على حمايتها، « واندفعوا ليقبلوا يدى وقدمى ، وهدب ثوبى ، وهم يدعوننى مخلصتهم » (فى رواية كاترين ليونيا فوفسكى[٧٨] — لأنهم علموا أنها لن ترسلهم إلى الدنمرك . ومضت إلى كتدرائية كازن فى حراسة فوجين والأخوين أورلوف ، وهناك نودى بها حاكماً مطلقاً لروسيا . ولحقت بها فرقه بريوبرازنسكى هناك ، وتوسل رجالها إليها « أن — تغفر لنا أننا آخر من جاء »[٧٩] ثم انضم إلى صفوفهم حرس الخيالة ، وصحبها أربعة عشر ألف جندى إلى القصر الشتوى ؛ وهناك أعلن مجمع الكنيسة ، ومجلس الشيوخ رسمياً خلع بطرس وتولية كاترين . واحتج بعض ذوى المقامات الرفيعة ، ولكن الجيش أرهبهم ، فأقسموا يمين الولاء للإمبراطورة .

وارتدت زى نقيب فى حرس الخيالة ، وركبت على رأس جندها إلى بيترهوف . وكان بطرس قد ذهب إلى هناك صبيحة ذلك اليوم ليراها ، فلما علم بالثورة فر إلى كرونستات . وعرض عليه مونيش أن يصحبه إلى بومرانيا ويجند جيشاً ليرده إلى العرش ، ولكن بطرس عاد إلى أورانيينباوم وهو عاجز عن اتخاذ القرار . فلما اقتربت قوات كاترين أنفق يوماً فى التماس حل وسط ، ثم وقع على اعتزاله العرش فى ٢٩ يونيو (حسب التقويم القديم) ؛ قال فردريك : « لقد سمح بأن يطاح به كما يسمح طفل بأن يرسل إلى فراشه »[٨٠]. وسجن فى روبشا ، على خمسة عشر ميلا من سانت بطرسبرج . والتمس من كاترين أن تسمح له بالاحتفاظ بخادمه الزنجى ، وكلبه الصغير ، وكمانه ، وخليلته . فأجيبت طلباته كلها إلا آخرها . ونفيت اليزافيتا فورونتسوفا إلى موسكو : ثم اختفت من صحائف التاريخ إلى الأبد .

الفصل الثامن عشر

كاترين الكبرى

١٧٦٢ — ١٧٩٦

١ — الحاكمة المطلقة

انتصرت كاترين ، ولكنها كانت عرضة لكل المخاطر التى ينطوى عليها التغيير الفوضوى . فلكى تكافىء الجنود الذين حرسوها فى سعيها الى السلطة أمرت حانات العاصمة بأن تقدم لهم الجعة والفودكا مجاناً ، وكانت النتيجة السكر انتشار بينهم انتشاراً كاد يقوض الأساس الحربى لقوتها . ففى منتصف ليلة ٢٩ — ٣٠ يونيو ، بينما كانت كاترين مستغرقة فى أول نوم لها خلال ثمان وأربعين ساعة ، أيقظها ضابط وقال لها ، « إن رجالنا مخمورون جدا . وقد صرح فيهم فارس من الهوصار « إلى السلاح ! أن ثلاثين ألف بروسى قادمون لاختطاف أمنا (كاترين) ! فتقلدوا سلاحهم وهم قادمون ليطمئنوا عليك » . وارتدت كاترين ثيابها ، وخرجت ، ونفت إشاعة قدوم البروسيين ، وأقنعت محاربيها بالمضى إلى فراشهم (١) .

ثم عرضها ابنها بولس للخطر . وقد بلغ السنة الثامنة من عمره وذلك أن بنين ، واشرافا كثيرين ، ومعظم الاكليروس ، أحسوا أن الشرعية تقتضى تتويج بولس إمبراطورا وتعيين كاترين وصية عليه ، ولكنها خشيت أن إجراء كهذا يلقى بالحكم فى أيدى أولجركيه ارستقراطية ستسعى إلى خلعها أو التسلط عليها . وأعلنت رسميا أن بولس وارث للعرش ، ولكن مؤيديه واصلوا إثارة المشاعر ، وشب الابن على كراهية أمه لأنها سلبته حقه فى التاج .

وحين ذاع نبأ الانقلاب فى أرجاء روسيا تبين أن الرأى العام خارج العاصمة مناوئ لكاترين . ذلك أن العاصمة عرفت عيوب بطرس مباشرة، وأجمعت عموماً على عدم أهليته للحكم ، أما الشعب الروسى خارج سانت بطرسبرج فقد عرفه من التدابير السمحة التى أضفت على حكومته شيئاً من السمو . فجماهير موسكو ، البعيدة بعداً لا يسمح لها بالإحساس بفتنة كاترين ، ظلت معارضة فى عناد اتوليها العرش . وحين أصطحبت كاترين بولس إلى موسكو (معقل التقاليد السنية) صفق له أهلها بحرارة ، أما كاترين فكان لقاؤهم لها فاتراً ، وندد كثير من أفواج الجيش فى الأقاليم بجنوذ بطرسبرج غاصبين للسلطة القومية .

ولا علم لنا إن كان العطف الواسع على بطرس هو أحد العوامل فى موته. ذلك أن القيصر المخلوع الذى تحطمت روحه راح يرسل الإلتماسات الذليلة لزوجته ويقول لها « ارحمينى وأعطينى سلواى الوحيدة » — يعنى خليلته — ويرجوها أن تسمح له بالعودة إلى أقاربه فى هولشتين . ولكنه بدلا من أن يتلقى هذا العزاء حبس فى حجرة واحدة وفرضت عليه رقابة دائمة . وكان الكسي أورلوف ، رئيس حراسة ، يلعب الورق معه ويقرضه النقود . [٢] وفى ٦ يوليو ١٩٦٢ (حسب التقويم الجديد) ، ركب ألكسي فى عجلة إلى سانت بطرسبرج وأنبأ كاترين بأن بطرس تشاجر معه ومع غيره من الأتباع ومات فى العراك الذى أفضت إليه المشاجرة . أما عن كيفية موته، فالتاريخ لا يعرف غير الشائعات التى لم تثبت صحة واحدة منها : قيل إنه سمم أو خنق[٣]، وإنه ضرب حتى مات[٤]، وإنه مات إثر «إلتهاب الأمعاء والسكتة الدماغية»[٥] وينتهى آخر من أرخ لهذه الحقبة إلى أن «تفاصيل القتل لم يمط عنها قط اللثام تماماً ، والدور الذى لعبته فيه كاترين يظل غير مؤكد . » [٦] ومن غير المحتمل أن تكون كاترين قد أمرت بهذه الفعلة ،[٧] ولكنها لم تعاقب أحداً على إرتكابها ، وأخفتها عن الجماهير يوما ، وقضت يومين فى بكاء ظاهر ، ثم سلمت بالأمر الواقع . وقد أدانتها أوربا كلها تقريبا بالقتل ، أما فردريك الأكبر الذى خسر الكثير بخلع بطرس فقد برأ ساحتها ، « كانت الإمبراطورة جاهلة تماما بهذه الجريمة ، وقد سمعت بها فى يأس

لم تصطنعه ، لأنها توقعت بحق ذلك الحكم الذى يصدره عليها اليوم كل إنسان . » [٨] ووافق فولتير فردريك . أما بولس ابن كاترين ، فبعد أن قرأ الأوراق الخاصة التى خلفتها أمه عند وفاتها ، خلص إلى أن ألكسى قتل بطرس دون أى أمر أو طلب من كاترين . [٩]

وخلقت الحادثة مشاكل لكاترين كما حلت مشاكل أخرى : فقدأوحت بسلسلة متعاقبة من المؤامرات لخلعها ، وتركتها فى انزعاج متصل وخطر داهم وسط فوضى الحكم التى اكتنفتها . كتبت عن هذه الحقبة فيما بعد فقالت : « ظل مجلس الشيوخ متبلدا يصم أذنيه عن شئون الدولة . وبلغت كراسى التشريع درجة من الفساد والتفسخ كادت تطمس معالمها . » [١٠] وكانت روسيا قد خرجت لتوها من حرب انتصرت فيها ولكنها كلفتها ثمنا فادحا ، فكانت الخزانة مدينة بثلاثة عشر مليون روبل ، وتشكو عجزا بلغ سبعة ملايين روبل فى العام ، وأفتضح حال المالية من رفض كبار المصرفيين الهولنديين إقراض المال لروسيا . وتأخرت رواتب الجند شهوراً كثيرة . وبلغ من سوء نظام الجيش أن كاترين خشيت أن يغزو تتار جنوبى روسيا إقليم أوكرانيا فى أية لحظة . أما البلاط فقد اضطرب بالمؤامرات وأضدادها ، وبالخوف من فقدان مناصب الكسب أو السلطة ، أو الأمل فى الظفر بها . وبعد سقوط بطرس بقليل ذهب السفير البروسى إلى أنه « من المؤكد أن حكم الإمبراطورة كاترين لن يكون أكثر من فاصل قصير فى تاريخ العالم » [١١] . وكان هذا من قبيل التمنى ، لأن فردريك حزن على موت حليفه العابد لشخصه . وأخذت كاترين تلغى الأوامر التى أصـــدرها بطرس لمساعدة فردريك .

وحاولت الإمبراطورة أن تهدىء معارضة رجال الدين بتأجيل تنفيذ المرسوم الذى أصدره بطرس بتأميم أراضى الكنيسة ، ثم ادفأت صـــدور أنصارها بما خلعته عليهم من مكافآت سخية : فنفحت جريجورى أورلوف بخمسين ألف روبل ، وفتح الطريق أمامه إلى الفراش الملكى . وأعيد بستوزيف من منفاه ، ورد إلى حياة مريحة ولكن دون أن يرد إلى منصبه .

ثم ترفقت بمن عارضوها من قبل . وقدم مونيش فروض الطاعة والولاء فصفحت عنه فورا وعينته حاكما على استونيا ولفونيا ، وربما أعانتها هذه التدابير على الثبات فوق عرشها المهتز ، ولكن أهم العوامل التى كانت عونا لها هى شجاعتها وذكاؤها . ذلك أن سبعة عشر عاما قضتها زوجةمهملة لوريث العرش علمتها رغم حيويتها الشابة قدرا من الصبر والحكمة وضبط النفس وخداع الحكم . وقررت الآن ، فى تحد لنصيحة بانين ، وارتياب فى ولاء مجلس الشيوخ ونزاهته وكفايته،أن تركز الحكم كله فى شخصها ، وأن تواجه ملوك أوربا المستبدين — باستبدادية تنافس جمع فردريك بين العسكرية والفلسفة . ولم تتخذ لها زوجا . وإذا كان النبلاء يسيطرون على مجالس الشيوخ ، فقد كان الخيار بين أوتقراطية الملكة والاستبدادية المجزأة للسادة الاقطاعيين ، وهو بالضبط الخيار الذى واجهه ريشليو فى فرنسا القرن السابع عشر .

وأحاطت كاترين نفسها بالكفاءة من الرجال ، واكتسبت ولاءهم ، بل حبهم فى كثير من الحالات ، ألزمتهم للعمل الشاق ، ولكنها أجزلت لهم العطاء ، ولعلها غالت فى مكافآتهم ؛ فقد أصبح بهاء بلاطها وبذخه عبئا كبيرا على مواردها . وكان بلاطا غير متجانس ، مؤصلا فى البربرية ومصقولا بالثقافة الفرنسية ، ومحكوما بامرأة ألمانية تفوق مساعديها تعليماً وذكاءً . وقد أثمرت مكافآتها السخية للخدمات الاستثنائية المنافسة دون أن تكبح جماح الفساد . فكان الكثيرون من بطانتها يأخذون الرشا من الحكومات الأجنبية ، واتخذ بعضهم موقف الحياد بقبول الرشا من طرفين متعارضين . وفى ١٧٦٢ أذاعت كاترين على الأمة إعترافا غير عادى ، فقالت :

« أننا نعده واجباً أساسياً وضرورياً أن نعلن للشعب، بحسرة صادقة، أننا سمعنا منذ زمن مديد ، وأننا الآن نرى فى أفعال ظاهرة للعيان ، إلى أى درجة استشرى الفساد فى امبراطوريتنا ، بحيث لا يكاد يوجد منصب فى الحكومة . . . . لا تعدو فيه على العدالة عدوى هذا الوباء . فإذا طلب

إنسان وظيفة كان عليه أن يدفع ثمنها ، وإذا شاء إنسان أن يدفع عن نفسه شر الافتراء ، فبالمال ، وإذا أراد أن يتهم جاره زورا وبهتانا ففي استطاعته بالهدايا أن يضمن نجاح خططه الشريرة » (١٢) .

وكان بعض المؤامرات التي تكاثرت من حولها يستهدف إحلال إيفان السادس محلها . وكان قد قضى الآن رهين السجن إحدى وعشرين سنة بعد أن خلعه انقلاب ديسمبر ١٧٤١ . وفي سبتمبر ١٧٦٢ أفصح فولتير عن خوفه من أن « ايفان قد يطيح بمن أحسنت إلينا » (١٣) ، وكتب يقول : « أخشى أن تقتل إمبراطورتنا العزيزة . » (١٤) فزارت كاترين إيفان ، ووجدته « إنساناً مهملا مهجورا تردى في العته نتيجة السجن سنين طويلة » (١٥) ثم تركت لحراسه أوامر بأنه لو بذلت أية محاولة لم تصرح بها هي نفسها للافراج عنه ، فعليهم أن يقتلوا إيفان خيرا من أن يسلموه . وفي منتصف ليلة ٥–٦ يوليو ١٧٦٤ ظهر ضابط في الجيش يدعى فاسيلي ميروفتش على باب السجن يحمل ورقة فحواها أنها أمر من مجلس الشيوخ بتسليم إيفان له . ثم مضى يعينه بعض من الجند وطرق باب الزنزانة التي كان حارسان ينامان فيها مع إيفان ، وطالب بالدخول . فلما رفض طلبه أمر بإحضار مدفع لتحطيم الباب . فلما سمع الحارسان الأمر قتلا إيفان . وقبض على ميروفتش وأعلنت وثيقة عثر عليها في جيبه أن كاترين خلعت ، وإن إيفان السادس أصبح منذ الآن قيصرا لروسيا . ورفض عند محاكمته أن يفضي بأسماء شركائه . وكان جزاؤه الإعدام . واتهم الرأي العام عموما كاترين بقتل إيفان . (١٦)

واتصلت المؤامرات . ففي ١٧٦٨ أكد ضابط يدعى تشوجلوكوف أنه موكل من الله بالإنتقام لمقتل بطرس الثالث ، فتسلح بخنجر طويل ، ووجد طريقه إلى القصر الملكي ، واختبأ عند منعطف دهليز ألفت كاترين أن تمر فيه . وسمع جريجوري أورلوف بخبر المؤامرة ، فقبض على تشوجلوكوف ، الذي اعترف مفاخراً بأنه ينوي قتل الامبراطورة ، وكان جزاؤه ، النفي إلى سيبيريا .

٢ — العاشقة

أحاط بكاترين نبلاء لا تستطيع أن تثق بهم ، ولاحقتها الدسائس التى أحدثت الاضطراب فى الادارة ، لذلك اخترعت ضرباً جديدا من الحكم جعلت فيه عشاقها المتعاقبين كبار إدارى الحكومة . فكان كل عشيق خلال صعود نجمه كبير وزرائها ، وأضافت شخصها إلى مكافأة المنصب ، ولكنها اقتضت كفاءة الخدمة نظير ذلك . كتب ماسون (وهو واحد من أعداء كاترين الفرنسيين الكثيرين) يقول « لم تكن وظيفة واحدة من وظائف الحكومة كلها لا تؤدى فيها الواجبات بمنتهى التدقيق . . وربما لم يكن هناك أى منصب لم تبد فيه الامبراطورة اختيارا وتمييزا أكثر من غيره . وفى اعتقادى أنه لم تقع حالة تبين فيها أن المنصب شغله شخص غير كفء له . »[١٧] ومن الخطأ أن نكون فكرتنا عن كاترين أنها امرأة فاجرة منغمسة فى اللذات ، فقد راعت جميع مظاهر اللياقة ، ولم تسمح لنفسها قط بالدخول فى أحاديث نابية ، ولاسمحت بها فى حضرتها .[١٨] وقد بذلت لمعظم عشاقها الود الوفى — ولبعضهم الود الرقيق ، ورسائلها إلى بوتمكين تنم على إخلاص يكاد يكون صبيانياً ، وقد أصابها موت لانسكوى بحزن مدمر .

وكانت تستعين بالفن والعلم معاً فى مهمة اختيار صاحب الحظوة الجديد . فهى تنشد رجالا يجمعون بين القدرة السياسية والجسدية ، كانت تدعو المرشح لتناول العشاء ، وتختبر عاداته وعقله ، فإذا جاز هذا الإمتحان الدقيق فحصه بأمرها طبيب القصر ، فإذا خرج من هذا الاختبار سليما عينته ياورا لها ، وأعطته راتباً مغرياً ، وسمحت له بمعاشرتها . وإذ كانت مجردة تماماً من الإيمان الدينى ، فانها لم تسمح لأى من الأخلاقيات المسيحية بأن تتدخل فى طريقتها الفذة فى اختيار الوزراء . وقد وضحت الأمر لنقولا سالتيكوف فقالت : «إننى أخدم الامبراطورة بتربيتى الشبان الأكفاء»[١٩] وكانت الخزانة تتكلف غاليـــاً فى مكافأة هؤلاء المحظوظين — وإن كانت التكلفة على الأرجح أقل كثيراً مما كانت تنفقه فرنسا على خليـــلات لويس

الخامس عشر ومحظياته . وفي تقدير كاستيرا أن الاخوة الخمسة أورلوف تسلموا سبعة عشر مليون روبل ، وبوتمكين خمسين مليوناً ، ولانسكوى ٧,٢٦٠,٠٠٠ . وقد ارتدت بعض هذه النفقة إلى روسيا في صورة الخدمة الفعالة . فقد أضاف بوتمكين مثلا ، وهو أكثر عشاقها حظوة وتدليلا ، أقاليم درت على الامبراطورية الربح الوفير .

ولكن لم كانت تغير وتبدل في عشاقها بهذه الكثرة ، حتى انها اتخذت منهم واحداً وعشرين في أربعين سنة ؟ لأن بعضهم أخفق في واجب أو أكثر من واجباتهم المزدوجة ، وبعضهم تبين عدم وفائه : وبعضهم مست الحاجة إليه في مواقع بعيدة . من ذلك أن أحدهم ، ويدعى ريمسكى كورساكوف ، فاجأته في مسكنها بين ذراعى وصيفة شرفها ، فاكتفت كاترين بطرده ، وتركها آخر يدعى مامونوف لأنه آثر عليها رفيقة أكثر شباباً ، وأقالته الامبراطورة دون أن تنتقم منه . [20] يقول ماسون ، «من الخصائص الشديدة الغرابة في خلق كاترين أن أحداً من المقربين إليها لم يجلب على رأسه كرهها أو انتقامها ، وإن أساء إليها العديدون منهم ، ولم يكن تركهم مناصبهم بسببها . ولم ير الناس قط أحـــدهم ينزل به العقاب . . . وفي هذا تبدو كاترين أسمى من جميع النساء . » [21]

بعد تولى كاترين العرش احتفظ جريجورى أورلوف بمكانته المرموقة عشر سنوات ، وقد أطرته كاترين في حب فقالت :

« إن للكونت جريجورى عقل النسر ، فأنا لم ألق في حياتي رجلا أوتي فهما أدق وألطف لأي أمر يضطلع به أو حتى يقترح عليه ... ونزاهته تعصمـــه من أي تهجم عليه . . . ومن أسف أن التعليم لم يتح له أي فرصة لصقل سجاياه ومواهبه ، وهي في الحق فائقة ، ولكن حياته العشوائية تركتها كالأرض المراحة . » [22]

ثم كتبت في موضع آخر ، أن هـــذا الرجل كان خليقا بأن يظل « عشيقها وأثيرها » إلى النهاية لولا أنه كان أول من مل صاحبه . » [23]

وقد جاهد جريجورى لتحرير الأقنان ، واقترح تحرير المسيحيين من ربقة العثمانيين ، وأحسن البلاء فى الحروب ، وأغضب الحاشية بكبريائه وغطرسته وراغ من ذراعى كاترين . وقد أقصى فى ١٧٧٢ إلى حيث الثراء والدعة فى ضياعه . أما أخوه الكسي فقد أصبح أمير البحر الأول ، وقاد الأسطول الروسى إلى النصر على الأتراك ، وظل محتفظا بالحظوة طوال العهد ، وعمر حتى قاد أفواجه ضد نابليون .

وحل محل جريجورى فى حظوته فتى فائق الحسن مغمور يدعى الكسيس فاسيلتشيك ، دسه حزب من أحزاب البلاط على كاترين ليصرف فكرها عن أورلوف المنفى ، ولكنها وجدته غير كفء لا فى السياسة ولا فى غير السياسة ، فأحلت مكانه (١٧٧٤) جريجورى ألكسندروفتش بوتمكين ، وكان ضابطاً فى حرس الخيالة ، الذين ارتدت زيهم (١٧٦٢) لتقودهم ضد بطرس ، فلما لاحظ بوتمكين أن سيفها تنقصه الشرابة التى يعتز بلبسها الحرس ، انتزع شرابته من مقبض سيفه وركب فى جرأة خارج صفوف الجيش ، وقدم لها هذا الوسام ، فقبلته ، وأغتفرت له جرأته ، وأعجبت بوجهه الوسيم وجسمه المفتول . وكان أبوه — وهو كولونيل متقاعد من صغار النبلاء — قد قرر أن يكون ابنه قسيساً ، وتلقى بوتمكين قدرا لا يستهان به من التعليم فى التاريخ والدراسات الكلاسيكية واللاهوت ، وأثبت تفوقه فى جامعة موسكو . ولكنه وجد حياة الجيش أنسب لمزاجه الجموح الخصب الخيال من المدرسة اللاهوتية. وقد سحره بالطبع ما اجتمع لكاترين من جمال وسلطان ، فقال عنها إنها إذا دخلت حجرة مظلمة أنارتها»[٢٤] .

وفى حرب ١٧٦٨ قاد فوج خيـــالته ببسالة مستهترة حملت كاترين على أن تبعث إليه بإطراء شخصى . فلما عاد إلى سانت بطرسبرج أكلته الغيرة من الإخوة أورلوف وفاسيلتشيك . وتشـــاجر مع الأخوة أورلوف ، وفى معركة معهم فقد إحدى عينيه [٢٥] . ولكى يخرج الأمبراطورة من عقاله — أو يدخل نفسه فى عقالها — ترك البلاط ، واعتزل فى ضاحية ، ودرس اللاهوت ، وأطلق شعره ولحيته ، وأعلن أنه سيترهب ، فرق له قلب كاترين ، وبعثت إليه تقول أنها تقدره تقديراً

تقديراً كبيراً ، ودعته ليعود . فحلق لحيته ، وهذب شعره ، وارتدى بزته العسكرية ، وظهر فى البلاط ، واهتز طرباً لبسمات الأمبراطورة . وحين افتقدت كاترين الكفاية فى فاسيلتشيك فتحت ذراعيها لبوتمكين ، وكان يومها فى الرابعة والعشرين ، فى أوج عنفوانه وفتنته . وسرعان ما هامت به هيامه بها ، وراحت تحبوه بوصلها ، وتغدق عليه الروبلات ، والأراضى ، والأقنان ، وحين كان يغيب كانت ترسل إليه رسائل غرامية بريئة من مظهر الجلالة .

« ما أعجب حالى ! كل شيء اعتدت أن أسخر منه وقع لى الآن ، لأن حبى لك أعمانى . فالعواطف التى ظننتها بلهاء مفرطة غير طبيعية أمارسها أنا نفسى الآن . انى لا أقوى على ابعاد عينى الغبيتين عنك . . . .

«لا نستطيع الإلتقاء إلا خلال الأيام الثلاثة القادمة ، فبعدها يحل أول أسبوع فى الصوم الكبير ، المخصص للصلاة والصيام . وسيكون اللقاء إثماً كبيراً . أن مجرد التفكير فى هذا البعد يبكينى»[٢٦]

وعرض عليها الزواج ، ويعتقد بعض المؤرخين أنهما تزوجا سراً ، وفى خطابات عدة تدعوه «زوجى الحبيب» وتتكلم عن نفسها فتقول «زوجتك»[٢٧] ، رغم أننا يجب ألا نستخلص الحقيقة أبداً من مجرد الألفاظ ويبدو أنه ملها ، ربما لهيامها الجموح به ؛ وتبين أن صوت المغامرة أقوى لديه من الدعوة للهجوم على قلعة فرغ من فتحها . وقد ظل نفوذه عليها عظيماً حتى أن معظم المقربين الذين خلفوه لم يخلفوه إلا بعد الحصول على موافقته .

وهذا ما حدث لبيوتر زافودوفسكى ، الذى استدفأ فى خدرها من ١٧٧٦ إلى ١٧٧٧ ، ولسيمون زوريتش (١٧٧٧ — ١٧٧٨) ، ولإيفان رمسكى — كورساكوف (١٧٧٨ — ١٧٨٠) . ولم تشعر بغرام يملك عليها لبها مرة أخرى إلا حين اتخذت ألكسيس لانسكوى (١٧٨٠) عشيقاً . فهذا الفتى لم يكن وسيماً كيساً مثقفاً فحسب ، بل كان صاحب حس شعرى

مرهف وحب إنسانى للخير ، وصديقاً ذكياً للآداب والفنون . « لقد بدا أن الجميع يشاركون الملكة فى ولعها به » [٢٨] . وفجأة أصيب بآلام لاتطاق فى الأمعاء ، واشتبهت الحاشية فى أن يكون بوتمكين قد دس له السم ، ثم مات رغم كل جهود الأطباء ورعاية كاترين المخلصة ، ولفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعيها . وقضت ثلاثة أيام فى عزلة وحزن . ونحن نسمع المرأة من خلف الحاكمة — والقلب من خلف التاريخ — فى رسالة كتبتها فى ٢ يوليو ١٧٨٤ .

« خيل إلى أننى هالكة بعد هذه الخسارة التى لاتعوض . . . لقد عللت نفسى بأنه سيكون العون لى فى شيخوختى . كان مجاملا ، وتعلم الكثير ، واكتسب كل ميولى . . . كان فتى أقوم على تربيته ، وكان شاكراً ، رقيقاً ، طيباً » . . . ان لانسكوى لم يعد له وجود . . وباتت حجرتى وكراً فارغاً بعد أن كانت تفيض إشراقاً وبهجة ، ولا قدرة لى إلا على جر نفسى إليها كأننى طيف من الأطياف . . لا أستطيع النظر إلى وجه إنسان دون أن يختنق صوتى . . . لا أستطيع أن أذوق النوم ولا الطعام . . ولست أدرى ماذا يكون مصيرى» [٢٩] .

وظلت عاماً تحرم نفسها من العشاق ، وأخيراً استسلمت لألكسيس إرمولوف (١٧٨٥ — ١٧٨٦) ، الذى ساء بوتمكين كثيراً فاستعيض عنه سريعاً بالكسيس مامونوف . ولكن سرعان مازهد ألكسيس فى خليلته ذات السبعة والخمسين ، واستأذن فى الزواج من الأميرة شرباتوف ، واحتفلت كاترين بالعروسين فى زفاف رسمى بالبلاط ، ثم صرفتهما محملين بالهدايا (١٧٨٩) [٣٠] . وآخر القائمة هو بلاتون زوبوف (٨٩ — ١٧٩٦) وكان ملازماً فى حرس الخيالة ، مفتول العضل دمث الطباع . وكانت كاترين شاكرة له خدماته ، فاضطلعت بالإشراف على تعليمه ، وانتهت بمعاملته معاملة الأم لابنها . وقد لازمها حتى مماتها .

٣ — الفيلسوفة

بين الحب والحرب ، وسياسة الدولة والدبلوماسية ، وجدت هذه المرأة المدهشة وقتاً للفلسفة . وقد تكرن فكرة عن سمو المكانة التى بلغتها جماعة

« الفلاسفة »الفرنسيين حين نرى أكفأ حاكمين من حكام القرن الثامن عشر يعتزان بتبادل الرسائل معهم ويتنافسان على الظفر بثنائهم .

وكانت كاترين قبل ولايتها العرش بزمن طويل تستطيب أسلوب فولتير وفكاهته الذكية وعباراته المجردة من التوقير ، وتحلم بأن تكون ذلك الحاكم « المستبد المستنير » الذى راود أحلامه . ولا بد أنها أعجبت بديدرو أيضاً ، لأنها فى سبتمبر ١٧٦٢ عرضت أن تطبع الموسوعة فى سانت بطرسبرج إذا أمعنت الحكومة الفرنسية فى حظرها . ولم يبق من الرسائل التى كتبتها لفولتير قبل ١٧٦٥ إلا واحدة ، وقد ردت على أبيات أرسلها لها فى أكتوبر ١٧٦٣ :

« لأول مرة آسف على أننى لست شاعرة ، وأن يكون ردى على أبياتك بالضرورة نثراً لا شعراً . ولكنى أود أن أقول لك اننى منذ ١٧٤٦ مدينة بأعظم الفضل لك . فقبل تلك الحقبة لم أكن أقرأ شيئاً غير الروايات ، ولكن حدث أن وقعت كتبك فى يدى مصادفة ، وبعدها لم أكف عن قراءتها ، ولا رغبت فى قراءة كتب أقل جودة فى الكتابة أو أقل تثقيفاً . . . وهكذا لا أفتأ أعود إلى خالق ذوقى عودتى إلى أعمق أسباب تسليتى ، وأؤكد لك يا سيدى أننى إن كنت قد حصلت أى معرفة فالفضل فيها لك . وأنا الآن أقرأ مقالك « فى التاريخ العام » ، وبودى لو حفظت كل صفحة منه عن ظهر قلب »(٣١) .

وظلت كاترين طيلة حياتها ، أو حتى مماتهم ، تراسل فولتير وديدرو ودالمبير ومدام جوفران وجريم وكثيرين غيرهم من وجوه الفرنسيين . وأسهمت فى المال الذى جمعه فولتير لقضية كالاس وسيرفانس وقد أسلفنا القول أنها أمرت باستيراد شحنات كبيرة من الساعات من فرنيه ، ومن الجوارب التى صنعها عمال فولتير ، وأحياناً فولتير نفسه (ان جاز لنا أن نصدق الثعلب العجوز) . وكان من بواعث فخره أن الرؤوس المتوجة أغدقت عليه أسباب التكريم ، وقد كافأ كاترين بأن أصبح مندوبها الصحفى فى فرنسا . وقد برأ ساحتها من الاشتراك فى جريمة قتل بطرس الثالث ، وكتب يقول « أعلم أن

كاترين تلومها بعض الشائعات التافهة حول زوجها ، ولكن هذه أمور عائلية لا شأن لى بها »[٣٢] . وناشد أصحابه أن يؤيدوه فى الدفاع عن كاترين ، فكتب إلى دارجنتال يقول :

« هناك صنيع آخر أرجو أن تسديه إلى ، وهو يخص كاترين . يجب أن ندعم سمعتها فى باريس بين أفاضل القوم ووجهاؤهم ... وعندى أسباب قوية للاعتقاد بأن الدوقين براسلان وشوازيل لايعتبرانها أكثر نساء العالم نقاء ضمير ، ومع ذلك فأنا عليم . . . بأنه لم يكن لها يد فى موت زوجها السكير . . ثم إنه كان أكبر أحمق تربع على عرش . . . ونحن مدينون بالفضل لكاترين لأنها أوتيت الشجاعة لخلع زوجها ، وهى تسوس ملكها بحكمة واعتزاز ، وينبغى أن نبارك رأساً متوجاً ينشر التسامح الدينى فى أرجاء ١٣٥ درجة طولية . . . إذن أرجوك أن تذكر كاترين بخير كثير[٣٣] .

أما مدام دو دفان فقد رأت أن تبرئة الأمبراطورة هذه مخزية جداً ، كذلك أدانتها مدام دشوازيل وهوراس ولبول[٣٤] . وما كان يتوقع من براسلان وشوازيل اللذين يوجهان علاقات فرنسا الخارجية أن يعجبا بإمبراطورة تعارض النفوذ الفرنسى فى بولنده وتتحداه فى تركيا . وكانت الشكوك تساور فولتير ذاته بين حين وحين . فلما سمع بمصرع إيفان السادس ، سلم فى حزن بـ « أن علينا أن نخفف قليلا من غلوائنا فى التحمس » لكاترين[٣٥] . ولكنه ما لبث أن أطرى برنامجها التشريعى ، ورعايتها للفنون ، وحملتها لنشر الحرية الدينية فى بولنده . وخلع عليها الآن (١٨ مايو ١٧٦٧) لقب « سميراميس الشمال » . وحين خاضت الحرب ضد تركيا قطع هجومه على الكنيسة الكاثوليكية l'imfame ليمتدح حملتها الصليبية لإنقاذ المسيحيين من المسلمين .

أما ديدرو فقد استهواه بالمثل ذلك الجمال المتربع على العرش ، وكان له فى ذلك مبررات قوية . ذلك أن كاترين سمعت أنه ينوى بيع مكتبته ليجمع مهراً لابنته ، فأصدرت تعليماتها لوكيلها الباريسي بأن يشتريها بأى ثمن يطلبه ديدرو ، فطلب ستة عشر ألف جنيه وقبضها . ثم رجت ديدرو أن يحتفظ

بالكتب حتى مماته ، وأن يكون حارسها على المكتبة نظير راتب قدره ألف جنيه فى العام ، وزادت بأن دفعت راتبه مقدماً عن خمسة وعشرين عاماً . وأصبح ديدرو بين عشية وضحاها رجلا غنياً ومحامياً يدافع عن كاترين . فلما دعته لزيارتها لم يستطع أن يرفض . قال « يجب أن يرى الإنسان امرأة كهذه ولو مرة فى العمر »[٣٦] .

وبعد أن دبر شئون المال لزوجته وابنته خرج وهو فى الستين (٣ يونيو ١٧٧٣) فى الرحلة الطويلة الشاقة إلى سانت بطرسبرج . ولبث شهرين فى لاهاى يرشف حلاوة الشهرة على مهل ، ثم واصل الرحلة بطريق درسدن وليبزج ، وحرص على أن يتجنب برلين وفردريك الذى كان قد أبدى عنه بعض الملاحظات الشائكة . وأصيب مرتين خلال الرحلة بالمغص إصابة عنيفة ، ثم وصل إلى سانت بطرسبرج فى التاسع من أكتوبر ، واستقبلته كاترين فى العاشر منه . كتب يقول « ليس هناك من يعرف خيراً منها فن رفع الكلفة عن محدثيها »[٣٧]. ودعته للتكلم فى صراحة ، « كما يتكلم رجل لرجل ». ففعل ، وأومأ إيماءاته على عادته ، وأكد نقاطه بصفع فخذى الإمبراطورة . كتبت كاترين لمدام جوفران تقول « ان ديدرو هذا رجل غريب الأطوار . فأنا أخرج من لقاءاتى معه بفخذين مرضوضتين سوداوين تماماً . وقد اضطررت إلى وضع منضدة بيننا وقاية لنفسى ولإعضائى »[٣٨] .

وقد حاول فترة أن يلعب دور الدبلوماسى كما حاول فولتير مع فردريك ، وأن يصرف روسيا عن تحالفها مع النمسا وبروسيا إلى تحالف مع فرنسا [٣٩] ؛ ولكنها سرعان ما صرفته إلى موضوعات أقرب إلى صناعته . وأخبرها فى شىء من التفصيل كيف يمكن أن تحول روسيا إلى بلد مثالى ، واستمعت إليه جذلة ، ولكنها ظلت على تشككها . وقد استعادت فيما بعد هذه الأحاديث فى رسالة كتبتها للكونت لوى — فليب دسيجور . قالت :

« تحدثت معه كثيراً ومراراً ، ولكن بفضول أكثر من الفائدة . ولو صدقته لانقلب كل شىء فى مملكتى ، فالتشريع والإدارة والمالية — كلها

كانت تنقلب رأساً على عقب لتفسح مجالا لنظريات غير عملية . . . ثم قلت له فى صراحة : « يا مسيو ديدرو ، لقد أصغيت بمنتهى اللذة لكل ما أوحى به فكرك اللماح . . أن المرء ، بكل مبادئك السامية ، قد يؤلف كتباً رائعة ، ولكنه يخسر فى تجارته . . . أنك تشتغل على الورق ، الذى يتحمل كل شيء . . أما أنا ، الامبراطورة المسكينة ، فأشتغل على جلد البشر ، وهو جلد سريع التهيج حساس على نحو مختلف» . . . وبعدها قصر كلامه على الأدب [٤٠] . وحين وقعت على مذكرات كان قد كتبها « بتعليمات صاحبة الجلالة الامبراطورة . . . لوضع القوانين » وصفتها (بعد وفاته) بأنها «محض هذيان ، لاأثر فيه لمعرفة بالحقائق ولا لتدبير ولا لنظر ثاقب» [٤١] . ومع ذلك استمتعت بحديثه المفعم حيوية ، وكانت تبادله الأحاديث كل يوم تقريباً خلال مقامه الطويل (*) .

وبعد أن أنفق ديدرو خمسة أشهر من البهجة الغامرة فى صحبتها ، والتعب فى بلاطها ، نوى الرحيل إلى أرض الوطن . فأمرت كاترين بصنع عربة خاصة له يستطيع أن يتكىء فيها مستريحاً . وسألته أى الهدايا ترسلها إليه فقال لاشىء ، ولكنه ذكرها بأنها لم تف بوعدها أن ترد له نفقات رحلته ، وقد قدرها بألف وخمسمائة روبل ، فنفحته بثلاثة آلاف وبخاتم ثمين ، وعينت ضابطاً ليرافقه حتى لاهاى . فلما عاد إلى باريس أثنى عليها ثناء الشكر والعرفان.

ولم تحاول كاترين الاتصال بروسو ، الذى كان نقيضها إلى حد مؤلم فى الطبع والأفكار ، ولكنهـــا صادقت جريم ، لأنها عرفت أن صحيفته « الرسائل الأدبية » تصل إلى أيدى الأوربيين ذوى النفوذ . واتخذ أول خطوة بعرضه (١٧٦٤) أن يوافيها برسائله الدورية ، فوافقت ونقدته ألفا وخمسمائة روبل فى السنة . وقد رآها أول مرة حين ذهب إلى سانت بطرسبرج (١٧٧٣) فى بطانة أمير هسى — دار مشتات لحضور زفاف أخت الأمير إلى الغراندوق بولس . وقد وجدته كاترين أكثر واقعية من ديدرو ، مطلعاً إطلاعاً مفيداً

(*) لعل القصة التى زعمت أن أويلر أربك ديدور أمام الحاشية الروسية ببرهان جبرى رهمى على وجود الله قصة مشكوك فى صحتها (٤٢) .

جداً على جميع مناحي ذلك العالم الباريسى الذى سحرها بأدبه وفلسفته وفنه ونسائه وصالوناته . ودعته «للدردشة » معها كل يوم تقريباً خلال شتاء ١٧٧٣ — ١٧٧٤ وقد كتبت إلى فولتير عن هذه اللقاءات : « ان حديث السيد جريم يمتعنى ، ولكن الأشياء التى نود أن نتبادل الكلام فيها من الكثرة بحيث اتسمت لقاءاتنا إلى الآن بالحماسة أكثر من اتسامها بالنظام أو التتابع » وفى حرارة هذه الأحاديث كان عليها المرة بعد المرة أن تذكر نفسها بأن عليها (على حد قولها) أن تعود إلى « أكل العيش » أكل عيشها بالالتفات إلى مهمة الحكم [٤٣] . وعاد جريم إلى باريس يطفح تحمساً لكاترين « غذاء روحى ، وعزاء قلبى ، وفخر عقلى ، وبهجة روسيا ، وأمل أوربا» [٤٤] . وعاد إلى زيارة بطرسبرج فى ١٧٧٦ ، وكان يلقاها كل يوم تقريباً على مدى عام . ورجته أن يمكث ويشرف على التنظيم الجديد للتعليم فى روسيا ، ولكنه حن إلى باريس ومدام ريبنيه . ولم تكن كاترين بالمرأة الغيور ، فلما سمعت أن مدام ريبنيه تعانى أزمة مالية بعثت إليها بطريق رقيق غير مباشر ما يكفى لتلبية حاجاتها [٤٥] . ومنذ ١٧٧٧ قام جريم بمهمة الوكيل لكاترين فى فرنسا فى المشتريات الفنية والمهام السرية . ودامت صداقته لها إلى النهاية دون أن يكدر صفوها مكدر .

ماذا كانت نتائج هذا الغزل بين الأوتقراطية والفلسفة ؟ أما من حيث مصادقتها للفلاسفة بوصفهم وكلاؤها الصحفيين فى فرنسا ، فالأثر السياسى كان صفراً ؛ فالسياسة الفرنسية ، ومن ثم المؤرخون الفرنسيون ، ظلوا خصوماً ألداء لبلد كروسيا يحبط الأهداف الفرنسية فى أوربا الشرقية . ولكن إعجابها بأبطال التنوير الفرنسى كان مخلصاً ، لأنه بدأ قبل تقلدها السلطة بزمن طويل ، ولو كان تظاهراً وادعاء لما ثبت للمواجهات الطويلة مع ديدرو وجريم . وقد أعان اتصالها بالفكر الفرنسى على صبغ روسيا المتعلمة بالصبغة الأوربية ، وعلى تعديل الرأى الغربى الذى رأى فى روسيا وحشاً هائلا جباراً . وقد اقتدى روس كثيرون بكاترين ، وراسلوا الكتاب الفرنسيين ، وشعروا بتأثير الثقافة والعادات والفنون الفرنسية . وزار باريس عدد متزايد من الروس ، ومع أن كثيرين منهم أنفقوا وقتهم فى المغامرات

الجنسية ، إلا أن الكثيرين اختلفوا إلى الصالونات والمتاحف والبلاط ، وقرأوا الأدب والفلسفة الفرنسيين ، وجلبوا معهم أفكاراً شاركت فى الإعداد لتفجر الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر .

٤ — الحاكمة القديرة

لايتطرق إلينا الشك فى صدق نيات كاترين فى مطلع حكمها .

فقد وجدت هذه القرارات فى نسخة « تليماك » التى كانت تقرؤها :

« عليك بدراسة الإنسان ، وبتعلم استخدام الرجال بغير الاستسلام لهم دون تحفظ . وابحثى عن الكفاية الأصيله وأن وجدت فى أقصى الأرض ، لأنها تكون عادة متواضعة متوارية .

ولا تسمحى لنفسك بأن تصبحى فريسة للمتملقين ، أفهميهم أنك لا تعبأين بالمديح ولا بالتذلل والخنوع . وضعى ثقتك فى أولئك الذين لديهم الشجاعة للاعتراض على آرائك . . . والذين تهمهم سمعتك أكثر مما يهمهم رضاءك .

« كونى مؤدبة ، رحيمة ، منفتحة ، عطوفاً ، متحررة العقل . ولا تدعى سمو مكانتاك يمنعك من النزول فى تلطف إلى صغار الناس ، ووضع نفسك فى موضعهم . واحرصى على ألا يضعف هذا اللطف من سلطانك أو ينتقص من احترامهم لك . . . وانبذى كل تصنع وافتعال . ولا تسمحى للعالم أن يلوثك إلى الحد الذى يفقدك مبادىء الشرف والفضيلة القديمة .

اقسم بالسماء أن أطبع هذه الكلمات على صفحة قلبى »[٤٦] .

وكانت تدأب على الإحاطة بدقائق كل موضوع تتناوله ، وقد كتبت تعليمات مفصلة عن مئات المواضع من تدريب الجيش والعمليات الصناعية إلى زينة حاشيتها وإخراج الأوبرات والتمثيليات . قال أحد كتاب سيرتها الأولين وكان من أقلهم تعاطفاً :

« ان الطموح لم يطفىء فى روح كاترين تذوقاً حاراً للذة ، ولكنها كانت تعرف كيف تنبذ اللذة ، وتنتقل إلى الاضطلاع بأكثر الواجبات خطراً ، وإلى الممارسة التى لا تكل لشئون الحكم . فتحضر جميع مداولات المجلس ، وتقرأ رسائل سفرائها ، وتملى ، أو تشير ... بالردود التى يرد بها . ولا تكل لوزرائها سوى تفاصيل العمل ، ولا تفتأ تراقب تنفيذه »(٤٧) .

واستحالت أو كادت مهمة حكم رقعة ملكها الشاسعة لكثرة القوانين الموجودة (عشرة آلاف) . وتنوعها ، وتناقضاتها ، وفوضاها . وإذ راودها الأمل فى أن تؤدى لروسيا ما أداه من قبل جستنيان للدولة الرومانية ، وفى أن تدعم سلطتها ، فإنها دعت إلى موسكو فى ١٤ ديسمبر ١٧٦٦ موظفين إداريين وخبراء قانونيين من كل ركن من أركان الامبراطورية ، ليقوموا بمراجعة دقيقة شاملة وجمع وتنسيق للقانون الروسى . واستعداداً لمجيئهم أعدت بشخصها تعليمات « Nakaz » تصف المبادئ التى ينبغى أن يشكل على أساسها القانون الجديد . وقد عكست هذه المبادىء قراءتها لمونتسكيو وبكاريا وبلاكستون وفولتير . واستهلت تعليماتها بالتصريح بأنه يتعين التفكير فى روسيا على أنها دولة أوربية . ينبغى أن يكون لها دستور قائم على «مبادىء أوربية» . وليس معنى هذا فى مفهومها « حكومة دستورية» تخضع الملك لهيئة تشريعية يختارها الشعب . فمستوى التعليم فى روسيا لن يسمح حتى بحق انتخاب محدود كالموجود آنئذ فى بريطانيا . إنما يعنى حكومة يحكم فيها الحاكم طبقاً للقانون ، وإن كان هو فى نهاية الأمر المصدر الوحيد للقانون . وقد أيدت كاترين النظام الإقطاعى . أعنى نظام الولاء والخدمات المتبادلة بين الفلاح والمقطع (التابع) وبين المقطع والسيد الإقطاعى ، وبين السيد والملك . باعتباره نظاماً لاغنى عنه للاستقرار الإقتصادى والسياسى والحربى فى روسيا عام ١٧٦٦ (وهى بلد الجماعات التى تكاد تنعزل بعضها عن بعض ، وعن مركز الحكومة ، نتيجة لصعوبات الاتصال والنقل) ، ولكنها ألحت على ضرورة تعريف وتحديد حقوق السادة على أقنانهم قانوناً ، وعلى السماح للأقنان بتملك الأملاك ، وعلى نقل محاكمة الأقنان وعقابهم من السيد الإقطاعى إلى قاضى عمومى يسأل أمام محكمة إقليمية مسئولة أمام الملك(٤٨) . وينبغى إن تكون جميع المحاكمات

علنية ، وأن يبطل استخدام التعذيب ، وأن تلغى عقوبة الإعدام قانوناً وواقعاً. أما العبادة الدينية فينبغي أن تكون حرة ، «فالتعصب هو أضر الكبائر بين هذه الكثرة من مختلف العقائد» (٤٩) . ثم قدمت هذه التعليمات قبل طبعها إلى مستشاريها ، فنبهوها إلى أن أي تغيير فجائي من الأحوال المألوفة سيدفع بالروسيا إلى مهاوى الفوضى ؛ وقد سمحت لهم بتعديل مقترحاتها ، لا سيما ما استهدف عتق الأرقاء تدريجياً (٥٠) .

وقد دفعت هذه التعليمات التي نشرت في هولندة في ١٧٦٧ صفوة المفكرين الأوربيين إلى الثناء الحماسي عليها ، حتى بعد أن عدلت على هذا النحو . وأرسلت الامبراطورة نسخة منها رأساً إلى فولتير ، الذى قدم فروض احترامه المعهودة : «سيدتى ، تلقيت البارحة ضماناً من ضمانات خلودك — هو مجموعة قوانينك في ترجمة ألمانية . وقد شرعت اليوم في ترجمتها إلى الفرنسية . وسوف تظهر في الصينية ، وفي كل لسان ، وسوف تكون انجيلا للبشر أجمعين (٥١) . وأضاف في رسائل تالية : « إن المشرعين يحتلون مكان الصدارة في هيكل المجد ، أما الفاتحون فيأتون من بعدهم . . . انى أعد (التعليمات) أجل آثار هذا القرن » (٥٢) . ومنعت الحكومة الفرنسية بيع (التعليمات) في فرنسا .

وقدمت «التعليمات» المعدلة إلى «لجنة صياغة القانون الجديد» التي اجتمعت في ١٠ أغسطس ١٧٦٧ . وكانت تتألف من ٥٦٤ عضواً تنتخبهم جماعات شتى : ١٦١ من النبلاء و ٢٠٨ من المدن ، ٧٩ من الفلاحين الأحرار ، و ٥٤ من القوزاق ، و ٣٤ من القبائل غير الروسية (مسيحيين أو غير مسيحيين) و ٢٨ من الحكومة . ولم يمثل الاكليروس بصفتهم طبقة ، ولم يمثل الأقنان اطلاقاً . وكانت اللجنة من بعض وجوهها نظير لمجلس طبقات الأمة الفرنسى الذى تقرر أن يجتمع في باريس في ١٧٨٩ ، وقد أتى المندوبون للحكومة بقوائم احتوت المظالم ومقترحات الإصلاح من دوائرهم على نحو ما سيفعل مندوبو ذلك المجلس الأشهر . ورفعت هذه الوثائق إلى الامبراطورة فأتاحت لها ولمساعديها مسحاً قيماً لحالة المملكة .

ولم تخول اللجنة سلطة اصدار القوانين ، بل تقديم المشورة للامبراطورة عن حالة كل طبقة أو اقليم وحاجاته وتقديم الاقتراحات للتشريع . وكفلت للمندوبين حرية الكلام وعدم المساس بأشخاصهم . واقترح بعضهم عتق جميع الأقنان وطلب بعضهم مزيداً من التوسع فى حق امتلاك الأقنان . وفى ديسمبر ١٧٦٧ استراحت اللجنة ، وفى فبراير ١٧٦٨ انتقلت إلى سانت بطرسبرج . وبلغ مجموع الجلسات التى عقدتها ٢٠٣ ؛ وفى ١٨ ديسمبر أجلت إلى أجل غير مسمى لأن نشوب الحرب ضد تركيا استدعى وجود مندوبين كثيرين فى الجبهة . ووكلت مهمة صياغة التشريع المقترح إلى لجان فرعية . ظل بعضها يجتمع حتى ١٧٧٥ ، ولكن لم توضع مجموعة قوانين . ولم تسوء كاترين تماماً هذه النتيجة غير الحاسمة ، فقالت «إن اللجنة . . . أعطتنى النور والمعرفة عن جميع الامبراطورية ، وأنا الآن على بينة مما يلزم ، وأعرف بم ينبغى أن أهتم . وقد فصلت اللجنة جميع أقسام القانون ، ووزعت الشئون تحت رؤوس مواضيع ، وكنت خليقة بأن أفعل أكثر من هذا لولا الحرب مع تركيا ، واكننا أدخلنا وحدة لم نعهدها إلى الآن فى مبادىء النقاش وطرائقه »[٥٣] . وقد أظهرت كاترين للنبلاء فى الوقت نفسه مبلغ عرض القاعدة التى ترتكز عليها سلطاتها . واقترحت اللجنة قبل انفضاضها أن تخلع عليها لقب «الكبرى» ، فرفضت ، ولكنها وافقت على أن تلقب «أم الوطن» .

وأصبحت اثنتان من توصيات كاترين قانوناً : إلغاء التعذيب واقرار التسامح الدينى . وقد توسع فى هذا التسامح : فسمح القانون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية بأن تنافس اليونانية الأرثوذكسية . وحمى اليسوعيين حتى بعد أن حل البابا كلمنت الرابع عشر طائفتهم (١٧٧٣) ، وأذن التتار الفولجا بأن يعيدوا بناء مساجدهم . وسمحت كاترين لليهود بدخول روسيا ، ولكنها أخضعتهم لضرائب خاصة ، وقصرت إقامتهم على مناطق معينة (ربما تعقيباً لسلامتهم) . ثم تركت الراسكولنيكيين — المنشقين الدينيين — أحراراً فى ممارسة شعائرهم دون عائق ، وكتبت إلى فولتير تقول «صحيح أن عندنا متعصبين يحرقون أنفسهم لأنهم لم يعودوا مضطهدين من الغير ، ولكن لو حذا حذوهم المتعصبون فى الدول الأخرى لما نجم عن ذلك ضرر يذكر»[٥٤] .

وأبهج جماعة الفلاسفة بصفة خاصة إخضاع كاترين الكنيسة الروسية للدولة . وشكا بعضهم من أنها لاتزال تحضر الخدمات الدينية (وكذلك كان يفعل فولتير) ، وأدرك أكبرهم سنا أن حضورها أمر لاغنى عنه للاحتفاظ بولاء الشعب . وقد حولت بمرسوم أصدرته فى ٢٦ فبراير ١٧٦٤ جميع أراضى الكنيسة ملكاً للدولة . وبدأت الدولة منذ الآن تدفع رواتب رجال الدين الأرثوذكس — وبهذا ضمنت تأييدهم للحكومة . وأغلق الكثير من أديرة الرهبان والراهبات ، ومنع الباقى منها من قبول أكثر من عدد معلوم من المترهبين الجدد ، ورفعت السن القانونية لنذر الرهبنة . واستخدمت الموارد الفائضة من المؤسسات الكنسية فى إنشاء المدارس والملاجىء والمستشفيات (٥٥).

وعارض رجال الدين والنبلاء التوسع فى التعليم الشعبي مخافة أن يفضى انتشار المعرفة بين الجماهير إلى الهرطقة والكفر والتحزب ، وأن يعرض النظام الإجتماعى للخطر . هنا بدأت كاترين — كما بدأت فى غيره — بتطلعات تحررية . فلجأت إلى جريم :

« أصغوا إلى لحظة يا أصدقائى الفلاسفة : ستكونون لطافاً ظرافاً إذا تفضلتم برسم خطة للشباب ، من ألف باء إلى الجامعة . . . ليس عندى — أنا التى لم أدرس فى باريس ولم أعش فيها — معرفة بهذا الأمر ولا بصر به . . انني مهتمة جداً بفكرة إنشاء جامعة وإدارتها ، ومدرسة ثانوية (جمنازيوم) وأخرى أولية . . . وإلى أن تستجيبوا لطلبى سأنقب فى « الموسوعة » عما أنشده وبالتأكيد سأستخرج منها ما أنشده » (٥٦) .

وقد أثرت فيها أثناء ذلك الحماسة البيداجوجية التى أبداها إيفان بتسكى ، الذى جاب السويد وألمانيا وهولنده وإيطاليا وفرنسا ، واختلف إلى صالون مدام جوفران ودرس الموسوعة والتقى بروسو . فى ١٧٦٣ أنشأت فى موسكو مدرسة القطاء ، خرجت فى ١٧٩٦ أربعين ألف طالب ، وفى ١٧٦٤ فتحت مدرسة للبنين فى سانت بطرسبرج ، وفى ١٧٦٥ أخرى للبنات ، وفى ١٧٦٤

حول دير سمولنى إلى معهد سمولنى لبنات النبلاء — وهذا صدى لمعهد مدام دمانتنون « سان سير » ، وكانت كاترين أول حاكم روسى يفعل شيئاً لتعليم النساء . ولما فت فى عضدها افتقارها إلى المعلمين المؤهلين ، بعثت الطلاب الروس لدراسة التربية فى انجلتره وألمانيا والنمسا وإيطاليا ، وأنشئت مدرسة للمعلمين فى ١٧٨٦ .

وقد أعجبتها اصلاحات يوزف الثانى التعليمية فى النمسا ، فطلبت إليه أن يعيرها شخصاً خبيراً بنظامه ، فأرسل إليها تيودور يانكوفش الذى وضع لها خطة نشرتها باسم «قانون المدارس الشعبية» (٥ أغسطس ١٧٨٦) . وأنشئت مدرسة أولية فى أهم بلدة فى كل اقليم ، ومدرسة ثانوية فى كل مدينة كبرى من مدن ست وعشرين مقاطعة ، وفتحت هذه المدارس لجميع الأطفال أيا كانت طبقتهم ، ولم يسمح فيها بالعقاب البدنى ؛ وكانت الدولة تمدها بالمدرسين والكتب المدرسية . بيد أن المشروع أحبطه إلى حد كبير عزوف الآباء عن ارسال أبنائهم إلى المدارس بدلا من استخدامهم للشغل فى البيت . وخلال السنوات العشر التى انقضت منذ تأسيس «المدارس الشعبية» حتى وفاة كاترين ، زاد عددها ببطء من أربعين إلى ٣١٦ مدرسة ، وعدد المعلمين من ١٣٦ إلى ٧٤٤ ، وعدد التلاميذ من ٤,٣٩٨ إلى ١٧,٣٤١ . وفى عام ١٧٩٦ كانت روسيا لا تزال شديدة التخلف عن الغرب فى ميدان التعليم الشعبى .

أما التعليم العالى فكان متاحاً على نطاق ضيق فى جامعة موسكو وفى المعاهد أو الأكاديميات الخاصة ، وأنشئت مدرسة تجارية فى ١٧٧٢ ، وأكاديمية للمناجم فى ١٧٧٣ . ووسعت أكاديمية العلوم القديمة وزودت بالمال الوافر . وفى ١٧٨٣ ، بناء على إلحاح الأميرة داشكوفا ، وتحت رآستها ، أنشئت أكاديمية روسية لتحسين اللغة ، وتشجيع الأدب ، ودراسة التاريخ ، فأصدرت المترجمات ، ونشرت الدوريات ، وصنفت قاموساً صدر فى ستة أجزاء بين ١٧٨٩ ، ١٧٩٩ .

وقد روعت كاترين نسبة الوفيات العالية فى روسيا ، وبدائية وسائل

حفظ الصحة العامة والنظافة الشخصية ، فاستقدمت الأطباء الأجانب ، وأسست كلية للصيدلة فى موسكو ، ودبرت المال لإنتاج الأدوات الجراحية . وفتحت فى موسكو ثلاثة مستشفيات جديدة وملجأ ومستشفى للأمراض العقلية وفى سانت بطرسبرج ثلاثة مستشفيات جديدة بما فيها « مستشفى سرى » للأمراض التناسلية [٥٧] . وفى ١٧٦٨ أدخلت لروسيا التطعيم ضد الجدرى ، وهدأت مخاوف الشعب بوضعها شخصها وهى فى الأربعين ليجرى عليها العلاج كثانى شخص فى روسيا ، وما لبثت كاترين أن كتبت لفولتير تقول «إن الذين طعموا هنا فى شهر واحد أكثر ممن طعموا بفيينا فى سنة » [٥٨] . (وفى ١٧٧٢ دخل التطعيم نابلى لأول مرة ، وفى ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر بالجدرى غير مطعم) .

٥ — الاقتصادية

من القوانين الأساسية التى أصدرتها كاترين قانون (١٧٦٥) قضى بأجراء مسح لجميع أراضى روسيا . وقد قوبلت هذه العملية بمقاومة شديدة من الملاك . وحين اختتم العهد كانت قد شملت عشرين إقليماً من خمسين ، ولكنها لم تستكمل حتى منتصف القرن التاسع عشر . وبينما كان المسح جارياً أدركت الامبراطورة فى وضوح مثبط للهمم كيف يعتمد اقتصاد روسيا على تنظيم الزراعة بواسطة نظام قوامه السادة والأقنان . وفى ١٧٦٦ أعلنت عن جائزة من ألف دوقاتية تمنح لافضل مقال عن تحرير الأقنان . وفاز بالجائزة بياردى دلابيه إكس لا شابل ، الذى رأى أن « العالم كله يطالب الملوك بتحرير الفلاحين» وتنبأ بأن الإنتاج الزراعى سيزداد زيادة هائلة « إذا ملك الفلاحون الأرض التى يزرعونها » [٥٩] . غير أن الملاك الأشراف حذروا كاترين من أن الفلاح سيهجر القرى إلى المدن ان لم يربط بالأرض وبسيده الإقطاعى ، أوسيهاجر من قرية إلى قرية فى لامبالاة أكثر ، فيخلق بذلك الفوضى ، ويمزق الاقتصاد ، ويعوق تجنيد أبناء الفلاحين الأشداء للجيش أو الأسطول .

ومضت القيصرة الحائرة فى مشروعها على حذر ، فالنبلاء يملكون المال

والسلاح اللذين يستطيعان الإطاحة بها ، وهم فى هذه المحاولة يستطيعون الاعتماد على تأييد الأكليروس الذين ساءهم فقدان أراضيهم وأقنانهم . وخافت من الخلل الذى قد تحدثه هجرة جماعية من الفلاحين المحررين إلى مدن غير مستعدة لإسكانهم أو إطعامهم أو تشغيلهم . على أنها قامت بخطوات نحو عتق الأقنان . فجددت مرسوم بطرس الثالث الذى حرم شراء الأقنان لتشغيلهم فى المصانع ، وفرضت على أرباب العمل أن يدفعوا أجور عمالهم نقداً وأن يراعوا ظروف العمل التى يقررها موظفوا المدينة أو « المير »[٦٠] ؛ ولكن حتى مع هذا ظل وضع الأقنان الصناعيين وضع العبودية القاسية المذهلة . وحرمت كاترين القنية فى المدن التى أنشأتها [٦١] ، ثم عتقت الأقنان المشتغلين على الأراضى التى أخذت من الكنيسة نظير دفعهم رسماً صغيراً [٦٢] ، على أن هذه التحسينات طغت عليها منحها المتكررة من أراضى الدولة لمن أخلصوا لها الخدمة كالقواد أو رجال الدولة أو العشاق ، وعلى هذا النحو أصبح أكثر من ٨٠٠,٠٠٠ من الفلاحين الأحرار أقناناً . وارتفعت نسبة الأقنان فى سكان الريف من ٥٢,٤٪ فى بداية العهد إلى ٥٥,٥٪ فى ختامه ، وزاد عدد الأقنان من ٧,٦٧٠٠,٠٠٠إلى٢٠,٠٠٠,٠٠٠[٦٣] . ثم أكملت كاترين استسلامها للنبلاء بـ «خطابات الامتياز للنبلاء » (١٧٨٥) : فقد أكدت فيها من جديد إعفاءهم من ضريبة الرؤوس ، والعقوبة البدنية ، والخدمة العسكرية ، وحقهم فى ألا نحاكموا إلا أمام أمرائهم ، وفى استخراج المعادن من أرضهم ، وفى امتلاك المشروعات الصناعية ، وفى السفر إلى خارج البلاد كما يشاءون . وقد حظرت على الملاك أن يكونوا طغاة أو قساة ، ولكنها أبطلت مفعول هذا الحظر بمنع الأقنان من أن يرسلوا إليها شكاواهم .

ولجأ الفلاحون بعد أن أخمد صوتهم على هذا النحو إلى الفرار أو التمرد أو الاغتيال . وقد قتل ثلاثون من السادة الإقطاعيين بأيدى فلاحيهم بين عامى ١٧٦٠ و ١٧٦٩ ؛ واندلعت خمسون فتنة بينهم فيما بين عامى ١٧٦٢ و ١٧٧٣ [٦٤] . وكانت هذه الفتن تخمد سريعاً حتى قام زعيم ثائر عرف كيف يحول السخط نظاماً ، وأسلحة الفلاحين انتصارات . ذلك أن إمليان بوجاشيف كان قوزاقياً من إقليم الدون ، حارب فى صفوف الروس ضد

البروسيين والأتراك ، ثم طلب تسريحه ، ولكن طلبه رفض ، ففر من الجيش ، وقبض عليه ، فعاود الفرار ، وارتضى حياة طريد القانون . وفى نوفمبر ١٧٧٢ ، بعد أن شجعه الرهبان الساخطون ، أعلن أنه بطرس الثالث الناجى بأعجوبة من كل المحاولات التى بذلت لقتله . وجذب الفلاحين وقطاع الطرق للانضواء تحت لوائه ، حتى أحس بأن ساعده اشتد ، فهجر بعصيان الغاصبة كاترين (سبتمبر ١٧٧٣) . وتوافد عليه قوزاق الأورال والفولجا والدون ؛ وآلاف الرجال الذين حكم عليهم بالسخرة فى مناجم الأورال ومصاهر المعادن ؛ وفئات «المؤمنين القدامى» التواقين إلى الإطاحة بالكنيسة الأرثوذكسية ؛ وقبائل التتار والقرغيز والبشكير المحلية الذين لم ينسوا اكراه البزابث لهم على الدخول فى المسيحية ؛ ثم أقنان آبقون من سادتهم ، ومساجين هربوا من السجون : هؤلاء تقاطروا على لواء بوجاشيف حتى اجتمع له عشرون ألف رجل تحت إمرته . فزحفوا ظافرين من مدينة إلى مدينة ، وهزموا القوات التى سيرها ضدهم الحكام المحليون ، واستولوا على مدن هامة مثل قازان وساراتوف ؛ ثم صادروا المؤن ، وقتلوا الملاك ، وأكرهوا الفلاحين المعارضين على الانضمام إليهم ، وزحفوا مصعدين فى حوض الفولجا صوب موسكو . وأعلن بوجاشيف أنه لن يرتقى هو العرش هناك ، بل سيبوئه الغراندوق بولس . ولكنه — بمزاح رهيب على الأرجح — لقب زوجته الفلاحة بالملكة ، وكبار ضباطه بأسماء ضباط كاترين : الكونت أورلوف ، والكونت بانين ، والكونت فورونشوف .

وسخرت كاترين أول الأمر من هذا «المركيز بوجاشيف» ، ولكنها حين علمت أن العصاة استولوا على قازان ، جردت قوة كبيرة تحت إمرة الجنرال بيوتر ايفانوفتش بانين لإخماد الفتنة . وخف النبلاء لنجدتها بعد أن أدركوا أن الخطر يتهدد هيكل الإقطاع بأسره ، وسرعان ما انضم الجنرال الكسندر فاسيليفتش سوفوروف إلى بانين بفرسانه الذين أصبحوا أحراراً فى التحرك بعد عقد الصلح مع الأتراك ؛ وأوقع الخلل فى صفوف العصاة التقاؤهم بجنود مدربين تحت قيادة ضباطهم الأمبراطوريين ، فتقهقهروا من موقع إلى آخر ، واستنفدوا مؤنهم ، وبدأوا يتضورون جوعاً . وأعتقل بعض

زعمائهم — الطامعين فى الخبز والعفو — بوجاشيف وسلموه للمنتصرين . فجىء به إلى موسكو فى قفص من حديد ، وحوكم فى الكرملين ، وقطع رأسه ومزق جسده أرباعاً ، وعرض رأسه على عمود فى أربعة أقسام من المدينة ليكون « عبرة لغيره » ثم أعدم خمسة من ضباطه ، وجلد غيرهم على هذا الجانب من الموت ، ونفوا إلى سيبيريا . وكان من نتائج الفتنة دعم التحالف بين الامبراطورة والنبلاء .

على أنها تحدت النبلاء شيئاً ما بتأييدها لنمو طبقة قوامها رجال المال والأعمال . ذلك أن اقتناعها ببراهين الفزيوقراطيين دعاها لإقرار حرية التجارة فى المحاصيل الزراعية (١٧٦٢) ، ثم فى كل شىء ، وأنهت (١٧٣٥) الاحتكارات المعتمدة من الحكومة بإصدارها قراراً يبيح لكل إنسان حرية الاضطلاع بأى مشروع صناعى وتنفيذه . وقد أخر نمو الطبقة الوسطى غلبة الصناعة التى تقوم فى الأكواخ والعزب ، ومشاركة النبلاء فى المغامرات الصناعية والتجارية . وزادت المصانع من ٩٨٤ إلى ٣,١٦١ فى عهد كاترين ، ولكن هذه كان أكثرها ورشاً صغيرة لاتستخدم من الصناع إلا القليلين . وزاد سكان المدن من ٣٢٨,٠٠٠ فى عام ١٧٢٤ إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ فى عام ١٧٩٦ — ومع ذلك لم يزل أقل من أربعة فى المائة من مجموع السكان [٦٥] .

ولم تأل الامبراطورة الكثيرة الشراغل جهداً فى النهوض بالتجارة دون أن تلقى إلا التأييد الضنين من حاشيتها النبيلة . لقد كانت الطرق غاية فى السوء ، ولكن الأنهار كثيرة ، وقد ربطتها القنوات فى شبكة مفيدة . وفى عهد كاترين بدىء شق قناة بين الفولجا والنيفا لربط البلطيق ببحر قزوين ، وقد خططت لقناة أخرى تصل بحر قزوين بالبحر الأسود [٦٦] . وظفرت بالتفاوض أو بالحرب بحرية مرور التجارة الروسية دون معوق فى البحر الأسود ومنه إلى البحر المتوسط . ثم حثت دبلوماسييها على عقد المعاهدات التجارية مع انجلتره (١٧٦٦) وبولنده (١٧٧٥) والدنمرك (١٧٨٢) وتركيا (١٧٨٣) والنمسا (١٧٨٥) وفرنسا (١٧٨٧) . ونمت التجارة الخارجية من ٢١,٠٠٠,٠٠٠ روبل عام ١٧٦٢ إلى ٩٦,٠٠٠,٠٠٠ عام ١٧٩٦ [٦٧] .

فى هذه الأرقام يجب أن نحسب حساب تضخم العملة الذى تدفع به الحكومات نفقات حروبها . وقد اقترضت كاترين من داخل البلاد وخارجها ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل لتمويل حملاتها على تركيا ، وأصدرت نقوداً ورقية تجاوزت كثيراً أى غطاء من الذهب . وفقد الروبل أثناء حكمها ٣٢٪ من قيمته. وفى هذه الفترة ذاتها ، ورغم زيادة الإيرادات من ٢١٥,٠٠٠,٠٠٠ (٦٨). وأكثر هذا الدين نجم عن الحروب التى كسرت شوكة تركيا ، ومدت حدود روسيا إلى البحر الأسود .

٦ — المحاربة

بدأت كاترين بأهداف سلمية كما يبدأ كل فيلسوف : فأعلنت أن مشاكل الامبراطورية الداخلية ستستغرق اهتمامها ، وأنها ستتجنب كل صراع مع الدول الأجنبية إذا لم يتحرش بها أحد . فثبتت صلح بطرس الثالث مع بروسيا ، وأنهت حربه مع الدنمرك . وفى ١٧٦٢ رفضت الإغراء بفتح كورلاند أو التدخل فى بولنده ، وقالت «عندى ما يكفى من البشر الذين على إسعادهم ، ولن يزيدنى رفاهية ذلك الركن الصغير من أركان الأرض» (٦٩). ثم خفضت الجيش ، وأهملت ترسانات السلاح ، وسعت إلى التفاوض مع تركيا لإبرام معاهدة للصلح الدائم .

ولكنها كانت كلما درست الخريطة وجدت عيباً فى حدود روسيا . ففى الشرق كانت الامبراطورية محمية جيداً بجبال الأورال وبحر قزوين وضعف الصين . وفى الشمال تحميها الثلوج . أما فى الغرب فالسويد مستولية على جزء من فنلنده ، قد يتوقع منه الهجوم فى أى لحظة يشنه شعب مافتئ يسوؤه ما غصبه منه بطرس الأكبر ؛ وكانت بولنده وبروسيا تسدان الطريق إلى «أوروبا» والاصطباغ بحضارتها . أما فى الجنوب فقد سد التتار ، الخاضعون لخان مسلم يسيطر عليه الترك ، الطريق إلى البحر الأسود . فأى إجهاضات للتاريخ أعطت روسيا جغرافية كهذه ، وحدوداً شاذة كهذه ؟ وهمس فى أذنها القائد القديم مونيش ، والقائد الجديد جريجورى أورلوف ، بأن الوضع يكون معقولا أكثر لو كان البحر الأسود هو الحد الجنوبى ، وبأنه يكون

جميلا رائعاً لو استطاعت روسيا الاستيلاء على الآستانه والتسلط على البوسفور. أما نيكيتا بانين ، وزير خارجيتها من ١٧٦٣ إلى ١٧٨٠ ، فقد فكر فى طرق لإعلاء نفوذ روسيا فى بولنده ومنع هذا البلد الأعزل من الوقوع فى براثن بروسيا .

وتأثرت كاترين بحججهم ، وأخذت تتحرق شوقاً لأن تبوئ وطنها الثانى مكاناً فى السياسة يتفق ومكانها على الخريطة . فلم ينقض عام على تقلدها السلطة حتى انطلقت إلى سياسة خارجية لاترضى فى طموحها بأقل من جعل روسيا الدولة المحورية على القارة . كتبت إلى الكونت كيزرلنج ، سفيرها فى وارسو تقول «أقول لك ان هدفى أن أرتبط بروابط الصداقة مع جميع الدول ، فى تحالف مسلح ، حتى أستطيع على الدوام أن أقف فى صف المظلوم ، وبهذا أصبح الحكم لأوربا (٧٠) .

وأتت عليها فترات كانت فيها قاب قوسين من هدفها هذا . وآية ذلك أنها سحبت روسيا من حرب السنين السبع فإنها فى الوقع حسمت ذلك الصراع الذى شمل القارة كلها لصالح فردريك . وفى عام ١٧٦٤ أبرمت مع فردريك معاهدة كانت نذيراً بتقطيع أوصال بولنده . ثم استغلت حاجة الدنمرك إلى تأييد روسيا لها ضد السويد لتهيمن على سياسة الدنمركيين الخارجية . وفى عام ١٧٧٩ كانت حكماً بين فردريك ويوزف فى معاهدة تشن ، وأصبحت حامية الدستور الأمبراطورى الألمانى . وفى ١٧٨٠ ربطت الدنمرك والسويد وبروسيا والنمسا والبرتغال بالروسيا فى « عصبة حياد مسلح » لحماية السفن المحايدة فى الحرب الدائرة بين انجلتره ومستعمراتها الأمريكية ، فتقرر ألا تتعرض السفن المحايدة للهجوم من أى من الطرفين المحاربين ما لم تحمل ذخائر حربية ؛ وأن الحصار لكى يكون شرعياً ولكى يحترم يجب أن يكون حقيقياً لا مجرد إعلان على الورق .

وقبل أن قلبت الأحلاف ذلك القلب الثانى بزمن طويل بدأ الصراع الطاحن على التسلط على البحر الأسود . وقد نشأت أول حروب كاترين

التركية نتيجة ثانوية غريبة لغزوها لبولنده . ذلك أنها كانت قد أرسلت هناك جيشاً لإعانة غير الكاثوليك فى كفاحهم لنيل حقوق متساوية مع الأغلبية الكاثوليكية ؛ وحمل الكاثوليك سفيراً بابوياً على أن يفهم تركيا أن فرصتها حانت لتهاجم روسيا ؛ وأيدت فرنسا الاقتراح ، وحرضت السويد وخان القرم على الانضمام للهجوم (٧١) . وحزن فولتير على امبراطورته التى أحدق بها الخطر . وكتب إليها يقول «إن تجنيد سفير بابوى للأتراك فى حربه الصليبية عليك لموضوع جـديد برواية هزلية إيطالية عنوانها « مصطفى الحليف الفاضل للبابا ! » ، فالموقف كاد يغريه بأن يكون مسيحياً . لا بل انه فى خطاب أرسله إلى كاترين فى نوفمبر ١٧٦٨ اقترح عليها حرباً مقدسة على الكفار .

« إنك تكرهين البولنديين على أن يكونوا متسامحين سعداء على الرغم من سفير البابا ، ويبدو أنك تاقين من المسلمين عنفا . فإذا شنوا عليك الحرب فربما تبلورت فكرة بطرس الأكبر فى جعل الآستانة عاصمة للأمبراطورية الروسية . . . وفى ظنى أنه لو قدر على الأتراك أن يطردوا من أوربا يوماً فسيكون هذا على أيدى الروس . . . فليس يكفى إذلالهم ؛ بل يجب ردهم إلى موطنهم إلى الأبد (٧٢) .

ورفضت السويد أن تشارك فى الهجوم على روسيا ، ولكن تتار القرم اجتاحوا مستعمرة «الصرب الجديدة» الروسية ، الحديثة ، (يناير ١٧٦٩) . وزحف جيش تركى عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل صوب بودوليا لينضم إلى جيش الاتحاد البولندى . ورفضت كاترين أن تسحب قواتها من بولنده . وجردت ثلاثين ألف مقاتل يقودهم ألكسندر جولتسين وبيوتر روميانتسيف لهزيمة التتار ورد الترك ؛ فلما قيل لها إن عدد هؤلاء الترك هائل أجابت « إن الرومان لم يكونوا يعبأون بكثرة أعدائهم ، إنما كانوا يسألون ، أين هم ؟ » (٧٣) . ورد التتار على أعقابهم ، واستولى الروس على آزوف وتاجانروج شمالى الدون ؛ وهزم سبعة عشر ألف روسى ١٥٠,٠٠٠ تركى فى كاجول (١٧٧٠) وتقدم روميانتسيف حتى بلغ بوخارست ، حيث استقباله السكان الأرثوذكس

بمظاهر الفرح والتهليل . وفى ١٧٧١ اجتاح فاسيلى ميخايلوفتش دولجوروكى القوم وقضى على الحكم التركى هناك .

وأكثر حتى من هذا إثارة للعجب والأعجاب جرأة الكسي أورلف ، الذى قاد أسطولا روسياً مخر به عباب المانش ، والأطلنطى ، والبحر المتوسط ، وهزم الأسطول التركى تجاه خيوس ، وأباده فى خزمى (يوليو ١٧٧٠) ؛ غير أن الضرر الذى لحق بمراكبه كان فادحاً فلم يتح له مواصلة انتصاراته .

على أن أحداثاً أخرى لم تبعث مثل هذه البهجة فى فؤاد كاترين . من ذلك أن طاعوناً تفشى فى الجيش الروسى على طول الدانوب ثم ارتد إلى موسكو حيث كان يحصد ألف روح كل يوم فى صيف ١٧٧٠. وكانت عليمة بأن فردريك ينظر باستنكار إلى امتداد ملكها وسلطانها ؛ وأن يوزف الثانى يزعجه تقدم روسيا إلى حدود النمسا فى البلقان ؛ وأن فرنسا لاتترك حجراً لاتقلبه دعماً لحليفتها تركيا ؛ وأن انجلتره ستقاوم بشدة تسلط روسيا على البوسفور ؛ وان السويد إنما تتربص بها الدوائر . فدعت كاترين الترك إلى مؤتمر ، فحضروا ، ولكنهم حرنوا لأصرارها على استقلال القرم ؛ وفى ١٧٧٣ استؤنفت الحرب .

وفى يناير ١٧٧٤ مات مصطفى الثالث ؛ وقرر خلفه أن تركيا قد بلغت من الفوضى والإرهاق حداً يهدد وجودها كدولة أوربية . فاعترفت تركيا بمقتضى صلح كجوك قينارجى (فى رومانيا) ٢١ يوليو ١٧٧٤ باستقلال القرم (التى ظلت تحت حكم التتار) ، ونزلت لروسيا عن آزوف ، وكرش ، وينيكالى ، وكلبورون (على مصب دنيبر) . وفتحت البحر الأسود والبوسفور والدردنيل للمراكب الروسية ، ودفعت لروسيا تعويض حرب قدره ٤,٥٠٠,٠٠٠ روبل ، ومنحت العفو للمسيحيين الذين شاركوا فى ثورات على حكامهم الأتراك ، واعترفت بحق روسيا فى حماية المسيحيين فى تركيا . وكان هذا فى جملته من أميز المعاهدات التى أبرمتها روسيا فى تاريخها (٧٤) . فقد غدت روسيا الآن من دول البحر الأسود ؛ وتركت

القرم وغيرها من أقاليم التتار فى جنوبى روسيا مفتوحة أمام الغزو الروسى المبكر ، واستطاعت الامبراطورة الشاكة أن تظهر بمظهر المدافعة عن الإيمـان . وراحت كاترين — بعد أن أسكرها النصر — تحلم بتحرير اليونان — أعنى بفتحها ، وبتتويج حفيدها قسطنطين فى الآستانة رأسا لأمبراطورية جديدة . وأبهجت فؤاد فولتير الشائخ برؤى الألعاب الأولمبية وقد ردت إلى مجدها التليد ؛ فكتبت إليه تقول «سوف تجعل ممثلين يونانيين يمثلون التراجيديات اليونانية القديمة فى مسرح (ديوينسيوس) بأثينا » . فلما تذكرت الجيوش والخزانة التى استنفدت أضافت : «على أن أمارس الاعتدال ، وأقول إن السلم خير من أروع حروب الدنيا »(٧٥) .

وأخذت الآن تحل محل فردريك كأشهر ملوك أوربا ، وتعجب الناس جميعاً من سعيها الحثيث لتحقيق أهدافها ، ومن الامتداد المرعب لسلطانها ، وسافر يوزف الثانى امبراطور النمسا ، الذى طالما انحنى لعبقرية فردريك ، إلى موجيليف ، ومنها أكمل الرحلة الطويلة إلى سانت بطرسبرج ليلتقى بالقيصرة ويسعى إلى التحالف معها . وفى مايو ١٧٨١ أبرمت مع يوزف ميثاقاً للعمل الموحد فى بولنده وضد تركيا .

وكان بوتمكين فى غضون هذا يبنى لنفسه الشهرة فى الجنوب . ذلك أنه نظم وسلح وأطعم جيشاً جديداً عدته ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وبنى أسطولا للبحر الأسود ، له موانئ فى سباستبول وأودسا وترسانة فى خرسون ، واستعمر أقطار روسيا الجنوبية ذات المستوطنات الضئيلة ، وأسس المدن والقرى ، وأقام المصانع ، وزود المستعمرين بالماشية والآلات والبزار — وكل هذا ليوفر قواعد للتموين فى حملة حربية تضيف القرم إلى تاج كاترين ، وربما ليظفر بتاج لنفسه . وتشاجر تتار القرم وانقسموا ، فألان بوتمكين زعماءهم بالرشا ، فلما غزا شبه الجزيرة فى النهاية (ديسمبر ١٧٨٢) لم يلق من المقاومة إلا أقلها ؛ وفى ٨ أبريل ١٧٨٣ ، ورغم احتياجات تركيا عديمة الجدوى ، ابتلعت مملكة الروس القرم . ورقى بوتمكين مشيراً ، ورئيساً للكلية الحربية ، وأميراً لطورس ، وحاكماً عاماً للقرم . ونفحته الأمبراطورة فوق هذا كله

بمكافأة من ١٠٠,٠٠٠ روبل ، أنفقها بوتمكين على الحليلات والشراب والطعام .

ورأت كاترين هى أيضاً ان الوقت قد حان لشيء من الاسترخاء . فجمعت بين اللهو والعمل بترتيبها «رحلة ملكية» فخمة على اليابس والماء تفتش خلالها على فتوحها وتترك انطباعاً قوياً فى نفوس هذه الأقاليم — وأوربا كلها — بثراء بلاطها وأبهته . وفى ٢ يناير ١٧٨٧ ، غادرت القصر الشتوى مدثرة بفرائها وشرعت فى رحلتها الطويلة فى « برلينيه» أى مركبة مقفلة من الكبر بحيث تحتوى — فضلا عن شخصها الذى اتسعت أبعاده الآن — عشيقها مامونوف صاحب الحظوة آنئذ ، وكبيرة وصيفاتها ، وكلباً صغيراً ، ومكتبة صغيرة . وتبعتها أربع عشرة عربة و ١٧٠ مركبة جليد ، تحمل سفراء النمسا ، وبريطانيا ، وفرنسا — كوبنتزل ، وفتزهربرت ، والكونت سيجور — مضافاً إليهم الأمير دلين وجيش من الموظفين والبطانة والموسيقيين والخدم . وكان بوتمكين قد سبقها بأيام ليعد لها الطريق ، وليضيئه بمئات المشاعل ، وليرتب لكل ليلة وجباتها وأماكن لنوم الجميع . وكان الموكب إذا مر بمدينة كبرى استراح يوماً أو يومين ريثما تلتقى القيصرة بوجوه المدينة ، وتستعرض أحوالها ، وتوجه أسئلتها ، وتوزع اللوم أو المكافأة . وبدت كل مدينة على الطريق فى أحسن مظهر عملا بتحذيرات بوتمكين وتعليماته ، فاغتسلت وتزينت كما لم تفعل قط من قبل ، سعيدة ولو ليوم واحد فى حياتها .

وفى كييف أشرف بوتمكين على نقل البلاط المتنقل إلى سبع وثمانين سفينة كان قد أعدها وزينها . وعليها أبحر الركب الامبراطورى هابطاً الدنيبر . وعلى طول النهر شاهدت كاترين «القرى البوتمكينية» التى هيأها أمير طورس الأريب وجلاها ليدخل السرور إلى قلبها ، وربما ليترك فى نفوس الدبلوماسيين انطباعاً قوياً عن ثراء روسيا . وبعض هذا الثراء ارتجله بوتمكين ، وبعضه كان حقيقياً . « أما أنه شيد القرى الكاذبة على الضفتين ، ودرب الفلاحين ليخلقوا وهماً بما هم عليه من تقدم ، فذلك من شطحات خيال دبلوماسى سكسونى » (٧٦) . فقد قام الأمير دلين بعدة رحلات

على الشاطئ ليستكشف ما وراء الواجهة ، فقال إنه رغم أن بوتمكين لجأ إلى بعض الحيلة ، فإنه (أى دلين) راعته «المنشآت الفخمة وهى بعد فى مهدها ، والمصانع النامية ، والقرى ذات الشوارع المنتظمة التى تحفها الأشجار» (٧٧) . ولعل كاترين نفسها لم تنخدع ، ولكنها ربما استنتجت كما استنتج سيجور ، أنه حتى لو كان نصف ثراء تلك المدن ونظافتها مظهراً زائلا ، فإن حقيقة وجود سباستبول فعلا — المدينة والقلاع والميناء ، وكلها بنى على شواطئ القرم فى عامين — هذه الحقيقة كفت لجعل بوتمكين جديراً بالثناء . وقد وصفه الأمير دلين الذى كان يعرف تقريباً كل إنسان ذى شأن فى أوربا بأنه «أعجب رجل التقيت به فى حياتى» (٧٨) .

وفى كانيوف جاء ستانسلاس بونياتوفسكى ملك بولنده ، ليقدم فروض الولاء للمرأة التى منحته حبها وعرشه . وفى موقع أبعد على الدنيبر الأدنى ، عند كايداكى ، انضم يوزف الثانى إلى الموكب الذى اتخذ طريقه من ثم برا إلى خرسون فالقرم . هنالك داعبت الأمبراطورة ، والأمبراطور ، والحاكم العام ، أحلامهم بطرد الترك من أوربا ، فحلمت كاترين بالاستيلاء على الآستانة ، ويوزف بابتلاع البلقان ، وبوتمكين بتولى عرش داشيا (رومانيا) . ونصحت انجلتره وبروسيا السلطان عبد الحميد بأن يوجه ضربته إلى الروس فى غفلة منهم قبل أن يستكملوا استعداداتهم الحربية (٧٩) . وكان فى وقاحة السفير الروسى فى الآستانة ما هيأ لتركيا حافزاً إضافياً ، فحبسه السلطان ، وأعلن الجهاد ، وطالب برد القرم ثمناً للصلح . وفى أغسطس ١٧٨٧ عبر الجيش التركى الرئيسى الدانوب وزحف على أوكرانيا .

لقد تعجل بوتمكين فى الإعلان عن فرحه ؛ ذلك أن روسيا لم تكن مستعدة بعد للامتحان النهائى ؛ لذلك نصح الامبراطورة بالتخلى عن القرم . ولكنها وبخته على جبنه الذى لم تعهده فيه ، ثم أمرته هو وسوفوروف وروميا نتسيف أن يعدوا كل القوات المتاحة لهم وينطلقوا للقاء الغزاة ؛ أما هى فقد انسحبت إلى سانت بطرسبرج . ودحر سوفروف الترك فى كلبورون ، وحاصر بوتمكين أوشاكوف المشرفة على منافذ دنيبر وبوج . وبينما كان الجهاد والحرب

الصليبية يواجه أحدهما الآخر فى جنوبى روسيا ، قررت السويد أن الفرصة واتتها أخيراً لاسترداد ما فقدت من أقاليم . فجدد جوستاف الثالث حلفاً قديماً مع الترك بعد أن شجعته انجلترة وبروسيا [٨١] ، وطالب كاترين برد فنلنده وكاريليا للسويد ، والقرم لتركيا . وقد نفصل الحديث عن هذه الحرب فى موضع لاحق ، أما الآن فحسبنا أن نقول إن أسطولا سويدياً أنزل بالروس فى البلطيق هزيمة فاصلة فى ٩ يوليو ١٧٩٩ ، وكان قصف المدفعية السويدية يسمع من القصر الشتوى ؛ وفكرت كاترين فى إخلاء عاصمتها . على أن مفوضيها ما لبثوا أن اقنعوا السويد بأن تبرم الصلح (١٥ أغسطس ١٧٩٠) .

وغدت كاترين الآن حرة فى تركيز قوات ضد الترك ، وانضمت النمسا إلى روسيا فى الحرب . وأنهى بوتمكين حصار أوشاكوف بأن أمر رجاله بالهجوم مهما كان الثمن . وكلف النصر الروس ثمانية آلاف قتيل ، وختمت المعركة الضارية بمذبحة أتت على الضحايا دون تمييز (١٧ ديسمبر ١٧٨٨) وتقدم بوتمكين ليستولى على بندر ، واستولى النمساويون على بلغراد ، ودحر سوفروف الأتراك فى رمنيك (٢٢ سبتمبر ١٧٨٩) . وبدا أن تركيا مقضى عليها بالفناء .

على أن الدول الغربية أحست أن الموقف يدعو إلى العمل الموحد ضد كاترين أن أريد ألا يقع البوسفور — ذلك المعقل الاستراتيجى — فى يدها فتصبح روسيا السيد المتسلط على أوربا . وبعد موت فردريك الأكبر (١٧٨٩) رأى خليفته فردريك وليم الثانى فى فزع تحرك روسيا صوب الآستانة ، وتحرك النمسا فى البلقان ؛ وبين روسيا والنمسا وهما بهذه القوة الجديدة ستبيت بروسيا تحت رحمتهما . وعليه ففى ٣١ يناير ١٧٩٠ ربط حكومته مع الباب العالى فى ميثاق ألزمه بأن يعلن الحرب على روسيا والنمسا جميعاً فى الربيع ، وبألا يضع السلاح إلا إذا ردت لتركيا كل أقاليمها التى خسرتها .

وبدا أن المد السياسى يتحول ضد كاترين . فقد أضعف قوة يوزف الثانى نشوب الثورة فى الأراضى الواطئة النمساوية وانتشار الفوضى فى المجر ؛ ثم مات فى ٢٠ فبراير ١٧٩٠ ، وأبرم خلفه هدنة مع الأتراك . وحثت

انجلترە وبروسيا كاترين مرة أخرى على عقد الصلح على أساس الاحتفاظ بكل الأراضى التى تم الاستيلاء عليها فى الحرب ؛ ولكنها أبت ؛ ذلك أن استيلاءها على أوشاكوف كان قد فتح الطريق أمام روسيا إلى البحر الأسود ، فهى لاتريد أن تتخلى عن هذا الكسب الحيوى . ثم إن قوادها كانوا يسيرون من نصر إلى نصر ، وتوجوا انتصاراتهم باستيلاء سوفوروف وبوتمكين على مدينة اسماعيل (٢٢ ديسمبر ١٧٩٠) ؛ وقد خسر الروس فى سبيل الاستيلاء على هذا المعقل التركى الواقع على الدانوب عشرة آلاف مقاتل ، وخسر الترك ثلاثين ألفاً . وبعد هذه الوليمة الدموية انتكس بوتمكين الذى انهكته الحرب إلى ضرب من الكسل المترف والسفاح المخزمى مع بنات أخيه ؛ وفى ١٥ أكتوبر ١٧٩١ مات على طريق قريب من ياسى . وأغمى على كاترين ثلاث مرات فى اليوم الذى سمعت فيه بنبأ موته .

وفى مارس ١٧٩١ اقترح وليم بت الابن على البرلمان إرسال إنذار نهائى إلى روسيا يطالبها بأن ترد لتركيا كل الأقاليم التى استولت عليها فى الحرب الراهنة ، واقترح إرسال أسطول بريطانى إلى البلطيق نذيراً بالحرب . ولم تجب كاترين ، أما البرلمان فقد ثنى بت عن إنفاذ مشروعه حين سمع التجار البريطانيون يتحسرون على ضياع تجارتهم مع روسيا . وأما تركيا فقد كفت عن الصراع بعد أن أنهكتها الحرب ، فوقعت فى جاسى (٩ يناير ١٧٩٢) معاهدة ثبتت سيطرة روسيا على القرم وحوضى دنيبر وبوج . وهكذا لم تصل كاترين إلى الآستانة ، ولكنها بلغت ذروة حياتها كأقوى حاكم فى أوربا ، وألمع امرأة فى قرنها .

٧ — المرأة

أكانت امرأة ، أم هولة ؟ رأينا أنها فى مستهل حكمها كانت فاتنة الجسد ، وفى عام ١٧٨٠ كانت قد سمنت ، ولكن هذه السمنة لم تفعل بها شيئاً إلا إضافة الثقل إلى العظمة . وقد وصفها الأمير داين (الذى كان من أوائل من لقبوها «الكبرى» (٨٤) وصفاً مهذباً فقال :

«كانت فى ١٧٨٠ لاتزال حسنة الصورة ، وفى استطاعة الناظر إليها ن يستنتج أنها كانت فيما مضى رائعة الجمال أكثر منها وسيمة . ولم يكن بالمرء حاجة إلى فراسة ليقرأ على جبينها ، كما يقرأ فى كتاب ، العبقرية والعدالة والشجاعة والعمق ورباطة الجأش ولطف الطبع والهدوء والتصميم . وقد اكتسبت صدرها الجميل على حساب خصرها الذى كان يوماً ما شديد النحول ؛ ولكن الناس عادة يسمنون فى روسيا . . . ولم يلحظ المرء قط أنها قصيرة القامة» (٨٢) .

وقد صورها كاستيرا فى كتابته عنها عقب موتها بأنها كانت ترتدى ثوباً أخضر فى احتشام . «كان شعرها المبدر ببودرة خفيفة ، يطفو على كتفيها ، وتعلوه قلنسوة صغيرة مرصعة بالماس . وفى سنيها الأخيرة ألفت أن تستعمل قدراً كبيراً من الروج ، لأنها كانت لاتزال تطمع فى ألا تسمح لآثار الزمن أن تبدو على وجهها ، ومن المحتمل أن هذا الطموح وحده هو الذى دعاها للعيش بمنتهى الاعتدال » (٨٣) .

كانت مغرورة ، واعية فى غير مواربة بثقافتها وسلطتها . قال يوزوف الثانى لكاونتز « إن الغرورمعبودها ، وقدأفسدها الحظ وثقافتها المسرفة »(٨٤) . وفى رأى فردريك الأكبر أن كاترين لوكانت تراسل الله لادعت لنفسها مرتبة مساوية له على الأقل (٨٥) . ومع ذلك كانت تتحدث إلى ديدرو كما يتحدث « رجل إلى رجل » ، ورجت فالكونيه أن يسقط من حديثه لها عبارات المجاملة . وكانت (باستثناء بعض جرائم القتل المحتملة ومذابح الحرب المبررة) لاتقل لطفاً وأنساً عن تشارلز الثانى ملك انجلتره أو هنرى الرابع ملك فرنسا . وفى كل يوم كانت تلقى من نوافذها الخبز لآلاف الطيور التى تجيئها بانتظام لتطعم (٨٦) . وفى سنوات ملكها الأخيرة كانت تطلق العنان بين الحين والحين لنوبات غضب لاتليق بصاحبة السلطان المطلق ، ولكنها حرصت على ألا تصدر أمراً أو توقع ورقة وهى فى هذه النوبات البركانية ، وسرعان ما أخذت تشعر بالخجل من هذه التفجرات ، وأخذت

نفسها بالتحكم فى أعصابها . أما عن شجاعتها فقد نبذت أوربا كل شك فيها .

كانت شهوانية بلا مراء ولا مبالاة ، ولكن غرامياتها لاتؤذينا بشىء بقدر ما تؤذينا « حديقة ظباء » لويس الخامس عشر . وقد درجت على ما درج عليه كل حكام زمانها فأخضعت الأخلاق للسياسة ، وأخمدت المشاعر الشخصية إذا عرقلت توسيع رقعة دولتها . وحيث انعدم مثل هذا الصراع كان لها كل حنان المرأة ورقتها ، تحب الأطفال ، وتلاعبهم وتمرح معهم ، وتعلمهم ، ونصنع لهم اللعب . وكانت فى رحلاتها تحرص دائماً على أن يطعم السائقون والخدم كما ينبغى أن يطعموا(٨٧) . وبين الأوراق التى وجدت على منضدتها بعد موتها قبرية كتبتها لنفسها ، «كانت نغفر فى يسر ، ولاتبغض أحداً ، وإذا كانت متسامحة ، متفهمة ، ذات طبع مرح ، فقد أوتيت روحاً جمهورية وقلباً عطوفاً» (٨٨) .

ولم تكن عطوفاً على ولدها البكر ، من جهة لأن بولس أخذ منها بعد ولادته بقليل ، وقام على تربيته بانين وغيره تحت اشراف اليزابت ؛ ومن جهة لأن المؤامرات التى دبرت لخلعها كانت أحياناً تنوى جعله إمبراطوراً تحت الوصاية ؛ ومن جهة لأن بولس طالما خامره الظن بأن أمه قاتلة بطرس ؛ كذلك لأن بولس « كان يطيل التفكير دائماً فى سرقة حقوقه فى خلافة أبيه الافتراضية على العرش» . ولكن كاترين تعلقت بابنى بولس الساحرين ألكسندر وقسطنطين ، وأشرفت بشخصها على تعليمهما ، وحاولت إبعادهما عن تأثير أبيهما ، وبيتت أن يرث تاجها ألكسندر لابولس (٨٩) . أمابولس الذى سعد بزواجه الثانى فكان ينظر فى اشمئزاز واضح إلى سلسلة العشاق الذين أمتعوا أمه واستنزفوا موارد الدولة .

أما من الناحية العقلية فقد بزت كاترين كل عشاقها . كانت ترضى جشعهم ، ولكن ندر أن سمحت لهم بتقرير سياستها . وقد أحسنت استيعاب الأدب الفرنسى إلى حد أتاح لها مراسلة أقطابه كما يراسل الواحد من جماعة

الفلاسفة صاحبه ؛ لا بل إن خطاباتها لفولتير كانت تنافس خطاباته لها فطنة وتمييزاً ، وتضارعها رشاقة وخفة دم . وكانت رسائلها كثيرة العدد كثرة رسائل فولتير مع أنها كتبتها خلال فواصل دسائس القصر ، والثورات الداخلية ، والدبلوماسية الحرجة ، والحروب التي غيرت خرائط الدول . وكان حديثها يجعل ديدرو دائم التنبه والاستعداد ، ويحرك مشاعر جريم إلى حد الانتشاء . «كان على المرء في تلك اللحظات أن يرى هذا الرأس الفذ الذي هو مزاج من العبقرية والحسن حتى يكون فكرة عن النار التي تحركها ، والسهام التي تطلقها ، والهجمات التي تلاحق . . . الهجمة منها الهجمة . . . ولو كان في طاقتي أن أدون هذه الأحاديث كلمة كلمة لأتيح للدنيا كلها قطعة نفيسه وربما فريدة في تاريخ العقل البشرى [٩٠] . على أنه كان يشوب هذا السيل الدافق من أفكارها اضطراب وعدم استقرار سريعان ؛ فكانت تندفع بأسرع مما ينبغي في مشاريع لم تمعن التفكير فيها ، وكانت أحياناً يهزمها إلحاح الأحداث وكثرة الواجبات . ولكن النتيجة حتى مع هذا كانت هائلة » .

ويبدو أمراً لايصدق أن تجد كاترين في حياة اضطربت بمثل هذه الأحداث المثيرة سياسية كانت أم حربية وقتاً تكتب فيه قصائد الشعر ، والأخبار التاريخية والمذكرات ، والتمثيليات ، ونصوص الأوبرات ، ومقالات المجلات ، وحكايات الجن ، ورسالة علمية عن سيبيريا ، وتاريخاً للأباطرة الرومان ، ومذكرات مستفيضة عن «تاريخ روسيا» وفي ١٧٦٩ — ١٧٧٠ رأست تحرير مجلة هجائية دون أن تعلن عن اسمها ، وكانت هي أهم محرريها . ومن صورها الأدبية صورة وصفت منافقاً في الدين يحضر القداس يومياً ، ويشعل الشموع أمام الصور المقدسة ، ويتمتم بالصلوات في فترات متقطعة ، ولكنه يغش التجار ، ويفترى على الجيران ، ويضرب الخدم ، ويندد بالرذيلة الفاشية ويتحسر على الأيام الخالية الطيبة [٩١] . أما حكاية الجن التي كتبتها كاترين ، واسمها «الأمير خلور» فتحكى عن شاب خاض مغامرات خطرة بحثاً عن وردة خرافية بلا شوك ، ليكشف في النهاية أنه ليس هناك وردة كهذه إلا الفضيلة ؛ وقد أصبحت هذه القصة من عيون القصص في الأدب الروسي ، وترجمت إلى لغات كثيرة ؛ وكانت

اثنتان من مسرحياتها مآسي تاريخية تقلد شكسبير ؛ ومعظمها فكاهيات بسيطة تسخر من المشعوذين والمغفلين والبخلاء والمتصوفين والمسرفين ، وتهزأ بكاليسترو ، والماسون ، والمتعصبين الدينيين . هذه التمثيليات كان يعوزها الدقه والصقل ، ولكنها أبهجت الجماهير مع أن كاترين أخفت أنها مؤلفتها ، وقد وضعت هذه العبارة على ستار المسرح الذى شيدته فى الهرمتاج « انه يهذب العادات بالضحك » ؛ وكان هذا خير تعبير عن هدف كوميدياتها . أما أفضل مسرحياتها ، واسمها « أوليج » فكانت تتابعاً رائعاً لمشاهد من تاريخ روسيا ، أشاع فيها الحيرية سبعمائة مؤدفى الرقصات والباليهات والألعاب الأولمبية . وكان جل إنتاج كاترين الأدبى يراجعه السكرتيرون ، لأنها لم تتمكن قط من الهجاء أو النحو الروسى ، ثم أنها لم تأخذ هوايتها للتأليف مأخذ الجد الشديد ؛ ولكن الأدب استمد الشجاعة من قدوتها الامبراطورية وأضفى على ملكها عظمة نهائية ومجداً تشوبه الشوائب .

٨ — الأدب

أخذت روسيا تشعر بعدم نضجها الفكرى ، فراح جيش من المؤلفين يقلدون فى تواضع النماذج الأجنبية ، أويترجمون آثاراً حظيت بالشهرة فى فرنسا أو انجلتره أو المانيا . وجادت كاترين بخمسة آلاف روبل من جيبها الخاص لتشجيع هذا السيل الدخيل ، وترجمت هى نفسها قصة « بليزير » لمارمونتيل . فلما تحمس الروس للمشروعات العريضة ترجم رحمانينوف ، أحد ملاك الأرض فى تامبوف ، أعمال فولتير ؛ وترجم فيريفكين ، رئيس كلية قازان ، إلى الروسية «موسوعة» ديدرو . وترجم غير هؤلاء شكسبير والكلاسيكيات اليونانية واللاتينية ، «وأورشليم المحررة» لتاسو . . .

أما أنجح شعراء العهد فهو جافريل رومانوفتش درزافين . ولد لأسرة رقيقة الحال فى أورنبرج الشرقية ، وكان الدم التتارى يجرى فى عروقه ، فخدم فى فوج بريوبرازنسكى عشرة أعوام ، ورأى كاترين ترق إلى ذرى السلطة ، وشارك فى إخماد فتنة بوجاشيف ضابطاً فى الجيش ، وشق طريقه صعدا إلى عضوية مجلس الشيوخ . وحين لاحظ درزافين أن الامبراطورة

أطلقت اسم «فليتسا» على أميرة خيرة فى قصة « الأمير خلور» ، أطلق هذا الإسم فى قصيدة عاطفية شهيرة (١٧٨٢) على «الملكة الشبيهة بالآلهة لقبيلة قرغيز — قازاق» وتوسل إلى هذه السلطانة قائلا « علميني كيف أجد الوردة التى لاشوك لها . . . وكيف أعيش حياة تجمع بين اللذة والاستقامة» (٩٢) وحين ناجى الشاعر فليتسا بأن « من قلمها تفيض السعادة على كل البشر الفانين» كان يمتدح كاترين على نحو واضح . وحين لام نفسه «على النوم حتى الظهر ، وتدخين التبغ ، وشرب القهوة . . . وجعل الدنيا ترتعد لنظراتى... والانغماس فى ولائم فاخرة على مائدة تتألق بالفضة والذهب » ، عرف البلاط كله أن هذه غمزة أراد بها بوتمكين . وقد ارتفع درزافين إلى قمة النشوة فى مديح «الإمبراطورة » فليتسا ، التى «تخلق النور من الظلمات ، ولاتؤذى أحداً ، وتقضى عن الهنات ، وتدع الناس يتكلمون كما يشاءون ، وتكتب القصص الخرافية لتعلم شعبها ، وتعلم خلور الأبجدية » (أى حفيدها ألكسندر) . ويختتم الشاعر بقوله : « أتوسل إلى النبى العظيم أن يسمح لى بلمس تراب قدميك ، وأن استمتع بذلك الجدول العذب جدول ألفاظك ولحظك . أنى أتضرع إلى قوى السماء أن تنشر أجنحتها الزرقاء وتحرسك فى الخفاء . . . وأن يسطع صيت أعمالك فى الأجيال القادمة سطوع النجوم فى السماء» (٩٣) . وأكد درزافين أنه لايطمع فى جزاء على كل هذا المديح العطر ، ولكن كاترين رقته ، وما لبث أن قرب منها قربا بصره بعيوبها ؛ فكف عن كتابة المدائح . واتجه إلى عرش أسمى ونظم « قصيدة غنائية للإله » ، مهنئاً اياه تعالى على كونه «ثلاثة — فى — واحد» وعلى حفظه السماوات فى مثل هذا النظام الجميل . وكان أحياناً يهبط إلى الميتافزيقا ، ويردد برهان ديكارت على وجود الله فيقول : « أنا بالطبع موجود ، وإذن فأنت موجود» (٩٤) . وقد ظلت هذه القصيدة الغنائية نصف قرن لاينافسها شعر فى شعبيتها حتى جاء بوشكن .

وقد فاجأ دنيس إيفانوفتش فون فيزين العاصمة بكوميديتين رشيقتين هما «اللواء » و « القاصر» . ونجحت الثانية نجاحاً كاملا حتى أن بوتمكين نصح المؤلف قائلا «مت الآن ، أو لا تكتب شيئاً بعد اليوم » - بمعنى أن أى شىء يكتبه بعد هذا سيضعف من شهرته (٩٥) . وقد رفض فيزين النصيحة ورأى

تحقيق النبوءة التي احتوتها . وفي سنته الأخيرة جاب غربي أوربا وأرسل إلى وطنه بعض رسائل ممتازة احتوت إحداها نبوءة فيها رنين الإفتخار «نحن (الروس) بادئون ، أما هم (يقصد الفرنسيين) فمنتهون » [٩٦] .

وأطرف شخصية في أدب عصر كاترين هو نيكولاي إيفانوفتش نوفيكوف . فقد تطور هذا الفتى بعد أن طرد من جامعة موسكو لكسله وتخلفه ليصبح رجلا ذا نشاط ذهني لا يني . ففي الخامسة والعشرين (١٧٦٩) ، في سانت بطرسبرج ، رأس تحرير مجلة «الدبور» التي أطلق عليها هذا الإسم بخبث شيطاني ليعارض دورية سوماروكوف «النحلة النشيطة» . وقد هاجم نوفيكوف بأسلوبه المرح الفساد الذي استشرى في الحكومة ، وهاجم الإلحاد الفولتيري السائد في الطبقات العليا لأنه مدمر للأخلاق والشخصية ؛ وامتدح بالمقارنة ما افترض وجوده من إيمان الروس المسلم وأخلاقهم المثالية قبل بطرس الأكبر . « وكان قدامى الحكام الروس قد توقعوا أن إدخال الفنون والعلوم سيقضي قضاء مبرماً على أثمن كنز يملكه الروس — وهو أخلاقهم »[٩٧]. هنا أيضاً كان روسو يخوض حرباً مع فولتير . وحدجت كاترين «الدبور» بنظرات متجهمة ، فاحتجبت في ١٧٧٠ . وفي ١٧٧٥ انضم نوفيكوف إلى الماسون الأحرار ، الذين كانوا ينزعون في روسيا إلى الغيبية ، والتقوية ، والأوهام «الروزكروشية »[*] بينما اخوانهم في فرنسا يداعبون الثورة . وفي ١٧٧٩ انتقل إلى موسكو ، واضطلع بأعمال مطبعة الجامعة ، ونشر في ثلاث سنوات من الكتب عدداً يفوق ما أخرجته تلك المطبعة في أربع وعشرين سنة . وحصل بمعونة مالية من صديق له على مزيد من المطابع ، وكون داراً للنشر ، وفتح مكتبات لبيع الكتب في جميع أرجاء روسيا ، وأذاع نشر إنجيله في الدين والإصلاح . وأسس المدارس ، والمستشفيات ، والمستوصفات والبيوت النموذجية للعمال .

فلما أحالت الثورة الفرنسية كاترين من حاكمة مستبدة مستنيرة إلى حاكمة

(*) Rosicrucian نسبة لجمعية سرية اشتهرت في القرنين الـ ١٧ والـ ١٨ وزعمت أنها تملك معرفة سرية للطبيعة والدين . (المترجم)

مستبدة مذعورة ، خشيت أن يكون نوفيكوف بسبيل قلب النظام القائم . فأمرت بلاتون ، مطران موسكو ، أن يفحص أفكار نوفيكوف . وكتب الحبر يقول : «أضرع إلى الله الواسع الرحمة أن يكون هناك مسيحيون مثل نوفيكوف ، لا فى القطيع الذى وكله الله وأنت إلى فحسب ، بل فى العالم بأسره» (٩٨) . ولكن الإمبراطورة التى ظلت على ريبتها رغم ذلك أمرت بسجن نوفيكوف فى قلعة شلوسلبورج (١٧٩٢) . هناك ظل حبيساً حتى ماتت كاترين . فلما أفرج عنه بولس الأول اعتكف فى ضيعته بتخفين ، وأنفق سنيه الأخيرة فى التقوى وأعمال البر .

أما ألكسندر نيكولايفتش راد شتشيف فقد لقى حظاً أشد عثاراً . أوفدته كاترين إلى جامعة ليبزج ، فتعرف إلى بعض أعمال جماعة الفلاسفة ، وأثر فيه بنوع خاص كتاب روسو «العقد الاجتماعى» كما أثر فيه فضح رينال لوحشية الأوربيين فى استغلال المستعمرات وتجارة الرقيق . وعاد إلى سانت بطرسبرج وهو يضطرم بالمثل الاجتماعية ، فلما وكلت إليه إدارة الجمرك تعلم الانجليزية ليتعامل مع التجار البريطانيين ، ودرس الأدب الإنجليزى ، وأثر فيه خاصة كتاب ستيرن «رحلة عاطفية» . وفى ١٧٩٠ نشر كتاباً من عيون الأدب الروسى اسمه «رحلة من سانت بطرسبرج إلى موسكو» . وقد أقر الكتاب بالإيمان القويم ، ولكنه ندد بخدع القساوسة التى يحتالون بها على سذاجة الشعب ؛ وقبل النظام الملكى ، ولكنه برر الثورة على الحاكم الذى ينتهك «العقد الاجتماعى» بتجاهله للقانون . ووصف تمزيق نظام التجنيد الإجبارى لأوصال الأسر ، وبغى السادة على أقنانهم . وقال راد شتشيف إنه أخبر فى أحد الأماكن بنبأ مالك هتك عرض ستين فلاحة عذراء . ثم شهر بالرقابة ودافع عن حرية الصحافة . ولم يكن داعية للثورة ، ولكنه طلب التفهم الرحيم لمن يدعون إليها . وناشد النبلاء والحكومة إنهاء القنية . «فلترق قلوبكم أيها القساة ؛ حطموا أغلال اخوتكم ، وافتحوا سجون الرق . ان للفلاح الذى يهبنا العافية والحياة الحق فى التصرف فى الأرض التى يفلحها» (٩٩) .

ومن عجب أن الرقيب أجاز الكتاب . ولكن كاترين خافت في ١٧٩٠ أن يحذو شعبها حذو الثورة الفرنسية . فدونت ملاحظة بضرورة عقاب مغتصب العذارى الستين ، ولكنها أمرت بمحاكمة راد شتشيف بتهمة الخيانة . ووجدت في كتابه فقرات عن اقتحام الحصون وثورة الجنود على قيصر قاس ، ومدائح للانجليز لمقاومتهم ملكاً ظالماً . فحكم مجلس الشيوخ على المؤلف بالإعدام ؛ وخففت كاترين الحكم إلى النفي عشر سنين في سيبيريا . وسمح الامبراطور بولس الأول لراد شتشيف بالعودة من المنفى (١٧٩٦) ، ثم دعاه ألكسندر الأول إلى سانت بطرسبرج (١٨٠١) . وهناك انتحر بعد سنة ، لأنه ظن دون مبرر أنه سينفى ثانية . ومصيره ومصير نوفيكوف من الوصمات الكثيرة التي تلطخ عهداً رائعاً .

٩ — الفن

صنعت كاترين للفن أكثر قليلا مما صنعته للأدب ، لأن الفن لايستهوى غير الطبقات العليا ، ولايقرع ناقوس الثورة . ولكن الموسيقى الشعبية كانت ثورية دون قصد منها ، لأن كلها تقريباً تألف من أغان حزينة في مقام صغير وبمصاحبة شاكية باكية ، لا تحكى قصة القلوب التي انفطرت حباً فحسب ، بل الأنفس التي براها الكد والكدح . وندر أن سمع النبلاء تلك الأغاني ، ولكنهم استمتعوا بالأوبرات الإيطالية التي جلبها إلى سانت بطرسبرج جالوبي ، وبايزيللو ، وسالبيرى وتشيماروزا ، الذين كانت الدولة تدفع أجورهم كلهم ، أما كاترين نفسها فلم تكون شديدة الحب للأوبرا . قالت « لاأستطيع في الموسيقى أن أميز نغمات غير نغمات كلابي التسعة ، التي يشترك كل منها بدوره في شرف الوجود في حجرتي ، والتي أستطيع التعرف على صوت كل كلب منها عن بعد » (١٠٠) .

ثم اعترفت أيضاً أنها لاتملك القدرة على فهم الفن . وقد بذلت وسعها لتربي هذا الفهم في روسيا . فوفرت المال الذى مكن بتسكى من أن يدير بالفعل (١٧٦٤) عجلة أكاديمية الفنون التي أنشئت أيام اليزابث (١٧٥٧) . واشترت روائع الفن المعترف بقيمتها في الخارج وعرضتها في قاعات تحفها ،

فدفعت ١٨٠,٠٠٠ روبل ثمناً لمجموعة الكونت فون برول فى درسدن ، و ٤٠,٠٠٠ جنيه ثمناً لمجموعة السير روبرت ولبول فى هوتن هول ، و ٤٤٠,٠٠٠ فرنك لمجموعة شوازيل ، و ٤٦٠,٠٠٠ لمجموعة كروزا . وقد عقدت بهذا كله صفقات رابحة دون أن تدرى ، لأن هذه المجموعات التى التقطتها من هنا وهناك ضمت ألفا ومائة لوحة من أعمال رفائيل ، وبوسان ، وفانديك ، ورمبرانت ، وغيرها من التحف الخالدة التى زادت قيمتها مع الزمن وهبوط العملة . واستطاعت من طريق جريم وديدرو (اللذين كانت تتابع نشاط صالونيهما باهتمام) أن تكلف برسم اللوحات فنانين فرنسيين — أمثال فرنيه ، وشاردان ، وهودون — ونسخت لها كطلبها بالحجم الطبيعى لوحات جصية من أعمال رفائيل فى الفاتيكان وبنيت قاعة خاصة بها فى الأرميتاج .

ولم تكلف الفنانين الوطنيين إلا بالقليل ، لأن ذوقها الفرنسى لم يجد فى فن جيلها الروسى غير القليل مما له قيمة باقية . . على أنها قدمت المال لتعليم وإعالة الطلاب فى أكاديمية الفنون وأوفدت عدداً منهم للدراسة فى غربى أوربا . وفى تلك الأكاديمية تخرج رسام أحداث التاريخ أنطون لرزنكو ، ورساما الأشخاص دمترى ليفتسكى وفلاديمير بوروفيكوفسكى . أما لوزنكوا فقد قضى خمس سنين فى باريس وثلاثا فى روما ثم عاد إلى سانت بطرسبرج (١٧٦٩) ليعلم فى الأكاديمية . وقد أثار ضجة بلوحته المساة « فلاديمير أمام روجنيدا » ، ولكنه — ربما الفداحة واجباته الأكاديمية — أخفق فى أن ينتج الروائع المنتظره منه ، ثم اختطفه الموت وهو فى السادسة والثلاثين (١٧٧٣) . وأما ليفتسكى فقد استخدمته كاترين ليرسم بعض الشابات اللاتى كن يدرسن بمعهد سمولنى ؛ والنتيجة شاهد بجمالهن الرائع . وقد سترت اللوحة التى صور فيها كاترين بدانتها تحت أردية فضفاضة . كذلك جلست لتصورها مدام فيجه لبرون ، وكانت من بين الفنانات الفرنسيات الكثيرات اللاتى دعتهن كاترين لأضفاء الرشاقة الفرنسية على الفن الروسى .

وأعظم فنانيها الذين استقدمتهم كان فالكونيه . قدم فى ١٧٦٦ . وأقام فى روسيا اثنتى عشرة سنة . وقد طلبت إليه كاترين أن يصمم ويصب

بالبرونز تمثالا لبطرس الأكبر ممتطياً جواده . وكان قد جلب معه شابة تدعى ماري — آن — كوللو ، كانت النموذج لرأس التمثال الضخم . وتحدى فالكونيه قوانين الفيزياء بتمثيله الحصان يقفز فى الهواء ، وقائمتاه الخلفيتان فقط تلمسان أرضاً صلبة ، هى صخرة ضخمة جلبت من كاريليا لترمز إلى المقاومة الهائلة التى تغلب عليها بطرس ؛ وتحقيقاً للتوازن أظهر فالكونيه حية نحاسية — رمزاً للحسد — تلدغ ذيل الحصان . وقد احتفظت هذه الرائعة الفنية بتوازنها بينما تغيرت سانت بطرسبرج إلى بتروجراد ثم إلى لننجراد . واستغرق فالكونيه فى هذا العمل وقتاً أطول مما توقعته كاترين ؛ ففقدت اهتمامها به ، وأهملت المثال ، فعاد إلى باريس وقد خاب أمله فيها ، وفى روسيا ، وفى الحياة .

وفى ١٧٥٨ وفد نيكولا — فرانسوا جيبيه من فرنسا ليعلم النحت فى الأكاديمية . وقد نبغ ثلاثة من تلاميذه فى عهد كاترين : تشوبن وكوزلوفسكى وشخيدرين . أما تشوبن فقد كلفه بوتمكين بنحت تمثال «كاترين الثانيه» لقاعة قصر تاوريدا المقببة (الروتندا) ؛ وقد وصف الخبراء التمثال بأنه « عديم الحياة بارد(١٠١) » ، وكذلك يبدو التمثال الذى نحته تشوبن لبوتمكين . أما كوزلوفسكى فقد انتهى إلى مثل هذا الجمود فى المقبرة التى نحتها للمرشال سوفوروف ، وحتى فى تمثاله لآله الحب كيوبيد . أما شيخدرين فجل أعماله أنتجها فى عهد ألكسندر الأول : فإلى عام ١٨١٢ ينتمى تمثاله المسمى «الكرتيدات يسندن الكرة السماوية» — وترى فيه امرأة تحمل الدنيا . . وقد تخصص إيفان بتروفتش مارتوس فى التماثيل الجنائزية ، وحفلت الجبانات فى بطرسبرج بتماثيله «الباكية» ؛ وقد قيل عنه أنه «أبكى الرخام» وقد تخلف النحت الوطنى إلا فى تقليده للطرز الأجنبية . وكانت الكنائس الأرثوكسية تحرم التماثيل وقنع النبلاء بالفنانين الذين يعثرون عليهم بين أقنانهم .

ولكن المعمار ازدهر فى عهد كاترين ، لأنها صممت على أن تترك بصمتها على عاصمتها . قالت « ان المبانى العظيمة تعلن عظمة الحكم ببلاغة لاتقل عن بلاغة الأعمال العظيمة » (١٠٢) . وكتبت فى ١٧٧٩ تقول « أنت تعلم أن هوس البناء أقوى اليوم عندنا مما كان فى أى وقت مضى ، ولم يهدم

زلزال قط عمائر قدر العمائر التى شيدناها . . . وهذا الهوس شيء لعين ، فهو ينضب المال ، وكلما بنينا ازددنا رغبة فى البناء ، إنه مرض كالسكر بالخمر » (١٠٣) . ومع أنها قالت لفالكونيه « انى لا أعرف حتى كيف أرسم » فقد كان لها رأيها الخاص فى الفن ، أو قل رأى تأثر بالحفائر الرومانية فى هركولانيوم وكتب كايلوس وفنكلمان . فولت ظهرها للباروك المزوق والروكوك الزاهى ، وهما طرازان سادا فى عهد اليزابث ، وفضلت عليهما الطراز الكلاسيكى الجديد الأكثر بساطة ونقاء . وقد عزا إليها بعض معاصريها فضل اصدار التعليمات الواضحة المحددة والرسوم التخطيطية التمهيدية لمعاريها (١٠٤) .

فلما افتقدت الفنانين الوطنيين الذين يحققون لها أفكارها ، ولت وجهها شطر غربى أوربا التماساً لرجال ورثوا التقاليد الكلاسيكية . وهكذا قدم جان باتست فالان دلا موت ، الذى شيد لها على نهر نيفا قصر أكاديمية الفنون (١٧٦٥ — ٧٢) وله واجهة بطراز النهضة من آجر مكسو ورواق معمد كلاسيكى ، وداخله سلم نصف مستدير فخم يفضى إلى قاعة مستديرة تعلوها قبة . وبنى فلان ملحقاً للقصر الشتوى هو الأرميتاج الشهير ، الذى كانت كاترين تراه ملاذاً تحتمى به من مراسيم البلاط ، ولكنه أصبح قاعة تحفها ، وهو اليوم من أهم متاحف العالم . وقالت كاترين فى وصفه لجريم عام ١٧٩٠ « أنه خلوتى الصغيرة ، فى موقع مناسب بحيث لايكلفنى الذهاب إليه أو الإياب منه إلى حجرتى أكثر من ثلاثة آلاف خطوة . . هناك أجول بين طائفة من الأشياء التى أحبها وأزهو بها ، وتلك الجولات الشتوية هى التى تحفظ على عافيتى » (١٠٥) .

ومن فرنسا أيضاً قدم الاسكتلندى تشارلز كاميرون ، الذى درس الزخرفة الكلاسيكية فى وطنه . وقد ابتهجت كاترين بالأشراق والرقة اللذين كان يزين بهما — بالفضة واللاكيه والزجاج واليشب والعقيق والرخام المتعدد الألوان — الجناح الخاص الذى احتفظت به لنفسها ولعشاقها وكلاهما فى « القصر العظيم » بتسارسكو سيلو . كتبت تقول « لم أرقط ضريباً لهذه

الحجرات حديثة الزخرف ؛ ولم أمل قط طوال الأسابيع التسعة الأخيرة من تأملها »[١٠٦] . وحول هذا القصر خططت لها حديقة بالطراز « الطبيعى » و « الانجليزى » ، وصفتها فى خطاب إلى فولتير فقالت : « إننى الآن أهيم حباً بالحدائق الانجليزية الطراز ، بخطوطها القصيرة ، والمنحنية ، ومنحدراتها المدرجة فى رفق ، وبركها وبحيراتها . . . إننى شديدة النفور من الخطوط المستقيمة ؛ وباختصار أقول أن الهوس الانجليزى (الانجلومانيا) يسيطر على هوسى بالنبات »[١٠٧] . وقد بنى كاميرون لولدها بولس وزوجته الثانية الفاتنة فى بافلوفسك (وهى ضاحية أخرى من ضواحى العاصمة) قصراً بطراز الفيلات الإيطالية ؛ هنا حفظ الغراندوق وماريا فيودوروفنا التحف التى جمعاها فى رحلاتهما فى غرب أوربا .

ومن إيطاليا أقبل انطونيو رينالدى ، الذى بنى قصرين باذخين أهدتهما كاترين لجريجورى أورلوف ، قصر الرخام على نهر نيفا ، وقصر جاتشينا قرب تسارسكو سيلو ، الذى أصبح المسكن المفضل عند بولس الأول . ومن إيطاليا جاء جاكومو كوارنجى ، الذى استهوته المعابد اليونانية فى بايستوم وروائع باللاديو فى فتشنتشا . وفى ١٧٨٠ عرض على كاترين عن طريق جريم تصميمات ونماذج لأبنية شتى كان يؤمل تشييدها . وافتتنت بها كاترين ومنذ ذلك التاريخ حتى ١٨١٥ شيد كوارنجى فى سانت بطرسبرج أو على مقربة منها العدد الوفير من المبانى بالطراز الكلاسيكى ، مسرح الأرميتاج ، ومعهد سمولنى (الذى ألحقه بدير سمولنى فى راستريللى) ، ومصرف الإمبراطورية ، ومصلى الطريقة المالطية ، والقصر الانجليزى فى بيتر هوف ، وقصر ألكسندر فى تسارسكو سيلو . وقد صمم هذا القصر لحفيد كاترين الذى أصبح فيما بعد ألكسندر الأول ، والذى انتقل إليه فى ١٧٩٣ ، بعد الفراغ من تشييده بعامين . « إنه من روائع معمار القرن الثامن عشر »[١٠٨] . (*)

(*) كان القصر المفضل لدى القيصر نيقولا الثانى : ومنه فر إلى سيبيريا والموت فى ١٩١٧ . وقد حوله السوفييت متحفا . ولحقت به أضرار بالغة فى الحرب العالمية الثانيـــة . ولكنه رمم .

ولكن ألم يكن هناك معماريون روس ينفقون روبلات كاترين ؟ بلى . فقد حداها الأمل فى ترك أثر يخلد ذكرها فى موسكو إلى أن تكلف فاسيلى بازينيف بتصميم «كرملن» من الحجر ليحل محل كرملن إيفان الأكبر المبنى بالآجر . وصمم بازينيف قصراً هائلا لو قام لتضاءل بالقياس إليه قصر فرساى ؛ والذين رأوا نموذجه الخشبى — الذى تكلف ستين ألف روبل — تعجبوا من براعته . غير أن الأساسات التى أرسيت ليقوم عليها هبطت بهبوط التربة بفعل نهر موسكو ، فنكصت كاترين عن المغامرة على أنها دبرت المال الذى أتاح لإيفان ستاروف أن يبنى على ضفة نيفا اليسرى قصر تاوريدا ، وأهدت هذا القصر المنيف إلى بوتمكين تخليداً لفتحه القرم .

وأيا كانت تكلفة نفقات المبانى التى شيدتها كاترين فإنها حققت هدفها . كتب ماسون المعاصر لها يقول : «إن الرجل الفرنسى بعد دورانه على شواطىء بروسيا الماحلة وشقه سهول ليفونيا المقفرة التى لم تزرع ، تأخذه الدهشة والطرب إذ يعثر مرة أخرى وسط بيداء مترامية على مدينة كبيرة فخمة ، تزخر بمجتمع راق وبأسباب الترويح وبالفنون وألوان الترف التى خالها لاتوجد إلا فى باريس» (١٠٩) . أما الأمير دلين فبعد أن شهد أوربا كلها تقريباً خلص إلى أنه «رغم ما فى كاترين من عيوب ، فإن الصروح التى شيدتها ، العامة منها والخاصة ، تجعل سانت بطرسبرج أبدع مدينة فى العالم» (١١٠) ولا عجب ، فقد حول لحم عشرة ملايين من الفلاحين ودمهم إلى طوب وحجر .

١٠ — خاتمة المطاف

لو أن كاترين سئلت لبينت — كما هو دأب الحكام طوال العصور والأزمان — أنه ما دام الموت حقاً على البشر على أية حال ، فلم لايسخر الحكام عبقرية الرجال لتوجيه هؤلاء الأحياء المطاردين والبشر المقضى عليهم لا محاله بالموت ، لجعل الدولة قوية ، وجعل مدنها عظيمة ؟ لقد عودتها سنوات السلطان ، وتحديات الثورة والحرب ، وتقلبات النصر والهزيمة ،

أن تطيق آلام الغير دون أن تجفل ، وأن تغضى عن استغلال الأقوياء للضعفاء باعتباره شراً لا قبل لها بعلاجه .

وقد أرهبتها الثورة الفرنسية بعد ما أزعجها العديد من المؤامرات لخلعها وأخافتها فتنة بوجاشيف . وقد اطاقتها راضية حين توقعت ألا تكون أكثر من إطاحة بارستقراطية عاطلة وحكومة عاجزة ؛ ولكن حين أكره حشد من رعاع باريس لويس السادس عشر وماري انطوانيت على ترك فرساى وسكنى التويلرى وسط جماهير أفلت زمامها — وحين أعلنت الجمعية التأسيسية أنها صاحبة السلطة العليا ، وحين ارتضى لويس أن يكون الأداة المنفذة لأوامرها لاغير — عندها ارتعدت كاترين فرقاً من التشجيع الذى أعطى بالمثل للذين سعوا إلى أن يفعلوا نظير هذا فى روسيا . فسمحت للأكليروس بأن يحظروا نشر أعمال فولتير التى كانت يوماً ما موضع حبها (١٧٨٩) (١١١) . ثم حرمت هى ذاتها بعد قليل جميع المطبوعات الفرنسية ؛ ونقلت تماثيل فولتير النصفية من قاعاتها إلى حجرة لسقط المتاع (١٧٩٢) (١١٢) ثم نفت المثالى راديشتشيف (١٧٩٠) ، وسجنت نوفيكوف المشرب بروح خدمة المجتمع (١٧٩٢) ، وفرضت رقابة تفتيشية على الأدب والمسرحيات . فلما قطع رأسا لويس السادس عشر ومارى انطوانيت بالجيلوتين (١٧٩٣) قطعت صلاتها مع الحكومة الفرنسية ، وحضت الملكيات الأوربية على تأليف تحالف ضد فرنسا . ولم تنضم هى ذاتها لذلك التحالف ، بل استعملته لتشغل به الدول الغربية ريثما تتم ابتلاعها لبولنده . وقد قالت لأحد دبلوماسيها « إن كثيراً من مشروعاتى لم يستكمل بعد ، ويجب شغل بلاطى برلين وفيينا حتى يتركانا طلقاء بغير قيود » (١١٣) .

على أن آثاراً ضئيلة تخلفت من تحررها القديم وبقيت حتى ١٧٩٣ . ففى ذلك العام أبلغها أحد الحاشية أن فردريك — سيزار دلاهارب ، الذى كان المعلم الخاص لحفيديها ، جمهورى عنيد . فأرسلت فى طلبه وأنبأته بالخبر ، فأجاب « ان جلالتك كنت على علم قبل أن تكلى إلى تعليم الغراندوقين انى سويسرى ، وإذن فجمهورى» ثم رجاها أن تمتحن تلميذيه ، وأن

تحكم على عمله من سلوكهما . ولكنها كانت تعلم كم أحسن تعليمهما ، فقالت له «سيدى ، لتكن يعقوبيا أو جمهوريا أو ماشئت ، إننى مؤمنة بأنك رجل أمين ، وهذا يكفينى . فابق مع حفيدى واحتفظ بكامل ثقتى ، وعلمهما بما عهدته فيك من غيرة» (١١٤) .

وفى وسط هذا الضجيج اتخذت آخر عشاقها (١٧٨٩) وهو بلاتون زوبوف . وكان فى الخامسة والعشرين ، وهى فى الحادية والستين . وكتبت لعشيقها « الشرقى» بوتمكين تقول : «عدت إلى الحياة كأننى ذبابة خدرها البرد » (١١٥) . واقترح «تلميذها» الجديد هجوماً مثلث الشعب على تركيا : جيش روسى بقيادة أخيه فاليران ذى الأربعة والعشرين ربيعاً يعبر القوقاز إلى فارس ويقطع كل تجارة اليابس بين تركيا والشرق ؛ وجيش ثان بقيادة سوفوروف يتغلغل فى البلقان ليحاصر الآستانة ؛ ثم أسطول البحر الأسود الروسى ، تحت إمرة الامبراطورة نفسها ليتسلط على البوسفور . وبعد سنوات من الإعداد بدىء بتنفيذ هذه المغامرة الملحمية (١٧٩٦) واستولى الروس على دربنت وباكو ؛ وتطلعت كاترين إلى انتصارات تكمل برنامجها وتتوج حياتها .

وفى صباح ١٧ نوفمبر ١٧٩٦ بدت مرحة كالعادة . وبعد الفطور اعتكفت فى حجرتها . ومضى وقت ولم تظهر ثانية ، فقرعت خادمتها الباب ، فلما لم تجب دخلت ، فوجدت الامبراطورة منبطحة على الأرض ، صريعة انفجار شريان فى الدماغ ، وفصدت مرتين ، وأفاقت لحظة ، ولكنها فقدت النطق . وفى العاشرة من مساء ذلك اليوم لفظت أنفاسها .

وأحس أعداؤها أنها لاتستحق ميتة رحيمة كهذه . ولم يغفروا لها قط تلك التناقضات بين مزاعمها التحررية وحكمها الاستبدادى ، وضيقها بالمعارضة ، وإخفاقها فى تنفيذ الإصلاح المقترح للقانون الروسى ، واستسلامها للنبلاء فى توسيعها للقنية . ولم تحمد لها انتصاراتها تلك الأسر التى أفقرتها الضرائب الباهظة ، أو التى ثكلت أبناءها بسبب حروبها . ولكن الشعب فى جملته صفق لها لأنها مدت روسيا إلى حدود أرحب وأكثر أمنا . لقد

أضافت ٢٠٠,٠٠٠ ميل مربع لمساحة روسيا ، وفتحت ثغوراً جديدة لتجارة روسيا ، وزادت السكان من تسعة عشر إلى ستة وثلاثين مليونا . وكانت عديمة الضمير فى دبلوماسيتها — ربما أكثر قليلا من معظم حكام ذلك العهد فى ابتلاعها بولنده .

أما أعظم منجزاتها فهو مواصلتها جهود بطرس الأكبر لإدخال روسيا فى نطاق الحضارة الغربية . وبينما كان بطرس يفكر فى هذا الهدف بلغة التكنولوجيا ، كانت كاترين تفكر فيه أولا بلغة الثقافة ، فاستطاعت بقوة شخصيتها وشجاعتها أن تنتزع الطبقات المتعلمة فى روسيا من العصور الوسطى وتدفعها إلى فلك الفكر الحديث فى الأدب والفلسفة والعلوم والفنون . وكانت بين أندادها من الحكام المسيحيين (باستثناء فردريك الثانى غير المسيحى) سباقة إلى توطيد التسامح الدينى . وقد عقد مؤرخ فرنسى مقارنة فضلها فيها على الملك الأعظم (لويس ١٤) قال « إن سماحة كاترين ، وبهاء حكمها ، وفخامة بلاطها ومنشآتها ، وآثارها ، وحروبها — هذا كله كان بالنسبة لروسيا بالضبط ماكأنه عصر لويس الرابع عشر بالنسبة لأوربا . غير أن كاترين إذا نظرنا إليها كفرد وجدناها أعظم من هذا الملك . ذلك أن الفرنسيين هم الذين بنوا مجد لويس ، أما كاترين فهى التى بنت مجد الروس . ولم يتح لها كما أتيح له ميزة حكم شعب مهذب ، ولا أحيطت منذ طفولتها بشخصيات عظيمة مثقفة » (١١٦) .

وفى تقدير مؤرخ انجليزى أن كاترين « هى الحاكمة الوحيدة التى فاقت إليزابث ملكة انجلتره كفاءة ، وهى تعدلها من حيث الأهمية الباقية لأعمالها » (١١٧) . وقال مؤرخ ألمانى «كان كل ما فيها «كائناً سياسياً » ، لاضريب لها من جنس النساء فى التاريخ الحديث ، ولكنها فى الوقت ذاته امرأة خالصة ، وسيدة عظيمة » (١١٨) ، ويجوز لنا أن نطبق عليها المبدأ السمح الذى وضعه جوته : كانت عيوبها عدوى انتقلت إليها من جيلها ، أما فضائلها فكانت من صنعها هى . »

الفصل التاسع عشر

اغتصاب بولنده

١٧١٥ — ١٧٩٥

١ — نظرة عامة على بولنده : ١٧١٥ — ١٧٦٤

كانت الجغرافيا ، والعرق ، والدين ، والسياسة ، هى الأعداء الطبيعية لبولنده . ذلك أن هذا القطر كان يعدل فرنسا اتساعاً ، إذ امتد عام ١٧١٥ من الأودر غرباً إلى ما يقرب من سمولنسك وكييف شرقاً ، ولكن لم يكن له حد طبيعي — من جبال أو نهر عريض — على أى جبهة ليقيه شر الغزو ؛ وقد اشتق اسم بولنده من كلمة « pole » وهو السهل . ولم يكن لها سوى منفذ واحد إلى البحر — عند دانتزج ، أما الفستولا الذى وجد له مصباً هناك ، فلم يكن بالحد الذى يصلح للدفاع ضد بروسيا المجاورة . وقد افتقدت الأمة وحدة العرق ، فكانت كثرة البولنديين البالغة ٦,٥٠٠,٠٠٠ نسمه (١٧١٥) فى صراع متقطع مع الأقليات الألمانية واليهودية واللتوانية والروسية ؛ وهنا التقى التيوتون والسلاف وجهاً لوجه فى عداء طبيعي . ولم يكن هناك وحدة دينية : فالأغلبية الكاثوليكية الرومانية تحكم وتظلم «المنشقين» — وهؤلاء هم الآخرون منقسمون فى نزاع وخصام بين بروتستنت وروم أرثوذكس ويهود . ولم يكن هناك وحدة سياسية ، لأن سلطة السيادة التى حرص أصحابها على الاحتفاظ بها كانت فى يد « السجم » أو « الديت» ، المؤلف كله من نبلاء الكل منهم ، بمقتضى حق النقض المطلق ، سلطة إبطال مفعول أى اقتراح يقترحه الباقون كلهم ، وإنهاء أى دورة ، أو أى ديت منتخب ، ان شاء . أما الملك فينتخبه الديت ، وهو خاضع لـ « مواثيق » يوقعها شرطاً

لانتخابه ، ولم يكن فى استطاعته أن يتبع أى سياسة طويلة المدى وهو مطمئن أقل اطمئنان إلى توريث تاجه لذريته أو تلقى التأييد المتصل . وقد طالب النبلاء بهذه السلطة غير المقيدة على التشريع لأن كلا منهم أراد أن يكون مطلق الحرية فى السيطرة على أراضيه وأقنانه . ولكن التقييد روح الحرية ، فما إن تصبح الحرية مطلقة حتى تقضى عليها الفوضى ، وتاريخ بولنده بعد جان سوبيسكى كان سجلا للفوضى .

وكان أكثر الأرض يزرعه أقنان يرسفون فى قيود ذل إقطاعى لامغيث لهم منه . وكان السيد الإقطاعى أحياناً رفيقاً بهم ، ولكنه كان دائماً مطلق السلطة . وأما أقنانه فلم يدينوا له فقط بجزء المحصول الذى يقدره ويطالبهم به ، بل كان لزاماً عليهم أيضاً أن يعطوه من كدهم ، دون أجر ، عمل يومين أو ثلاثة فى ضيعته كل أسبوع . ومن حسن الحظ أن الأرض الجيدة الرى كانت خصبة ، فوجد الفلاحون ما يكفى لإقامة أودهم ، ولكن كوكس وصفهم بأنهم « أشد فقراً وذلا وشقاء من أى شعب لاحظناه فى رحلاتنا »(١). وكان سادتهم المحليون هم الطبقة الدنيا من النبلاء أو صغار الأعيان (شلاختا) ، وهؤلاء الملاك بدورهم كانوا خاضعين لنحو مائة من الأقطاب الذين يملكون أو يشرفون على مساحات شاسعة . وكان صغار الأعيان يشغلون معظم الوظائف التنفيذية فى الدولة ، وهم من الناحية النظرية يؤلفون الغالبية فى مجلس السجم ، ولكن السياسة البولندية كانت من الناحية الفعلية صراعاً بين الأقطاب أو أسرهم ، الذين يتلاعبون بمجموعات من صغار الأعيان مستعينين بالنفوذ الاقتصادى أو الرشوة المباشرة (٢) .

وظلت الأسرة فى بولنده تحتفظ بأفضليتها البدائية على الدولة . فكان آل رادزيفل ، وآل بوتوكى ، وآل تشارتوريسكى ، كل منهم يترابط أفراده بعاطفة من التماسك الأسرى أوثق من أى رباط قومى ؛ هنا كان حب الوطن هو حرفياً احترام الأب وتبجيله ، والأب الأكبر سناً فوق كل شىء . وكانت الأسرة قوية كنظام أو مؤسسة ، لأنها كانت وحدة الإنتاج الاقتصادى والتهذيب الأخلاقى ، فلم يكن هناك نزعة فردانية اقتصادية تشتت الأبناء

فى أرجاء الوطن ؛ والإبن يقيم عادة فى الضيعة الموروثة ، خاضعاً لأمر أبيه مادام الأب حياً . وزكت الأسرة بفضل وحدة السلطة ، هذه الوحدة ذاتها التى أضعف الدولة افتقادها.وكانت كل ثروة الأسرة تحت اشراف أبوى ممركز ، وفى كثير من الحالات كانت تزداد من عام إلى عام بفضل أرباح الاستغلال والتصدير المعاد استثمارها من جديد ، وفى حالات عديدة فاقت ثروة الملك نفسه . وكان عشرون أسرة بولنديه فى القرن الثامن عشر ينفق كل منها أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ جنيه فى العام على البيت[٣] . وكانت الأسرة القوية تسمى بيتها بلاطاً ، له مستخدموه ، وجيشه الخاص ، وخدمه الكثيرون ، ومظاهر الأبهة الشبيهة بأبهة الملوك ؛ من ذلك أن الأمير كارول رادزيفيل ، الذى بلغت مساحة أرضه نصف مساحة بولنده ، أولم فى ١٧٨٩ وليمة لأربعة آلاف ضيف كلفته مليوناً من الماركات[٤] .

أما أشهر الأسر البولندية قاطبة — والتى بلغ من شهرتها أنها كانت تعرف باسم « الأسرة » فقط — فهى أسرة تشارتوريسكى . فقد تبوأت مرتبة الإمارة منذ القرن الخامس عشر ، واتصلت بصلة القرابة ببيت جاجيللو ، الذى حكم بولنده من ١٣٨٤ إلى ١٥٧٢ . وقد تزوج الأمير كازيميرز تشارتوريسكى (مات ١٧٤١) ، نائب مستشار لتوانيا ، بايزابللا مورستن ، التى أضافت دفعة جديدة من الثقافة الفرنسية إلى الأسرة . وأنجب منها ثلاثة من المشاهير هم : (١) فردريك ميشال تشارتوريسكى ، الذى أصبح كبير مستشارى لتوانيا ، (٢) ألكسندر أوغسطس تشارتوريسكى ، الذى أصبح أمير بالاتين لـ « روسيا الحمراء » ، (٣) قنسطنطيا التى تزوجت ستانسلاس بونياتوفسكى الأول ، وولدت له بونياتوفسكى الثانى ، وهو الشخصية المأساوية الكبرى فى التاريخ البولندى .

ومن مفاخر آل تشارتوريسكى فوق ما تميزوا به أن نزعتهم التحررية نمت بنمو ثروتهم ، فقد طالما عرفوا بترفقهم بأقنانهم ؛ قال أحد معاصريهم « لو أننى ولدت قنا لوددت أن أكون قنا للأمير ألكسندر أوغسطس تشارتوريسكى »[٥] . فأنشأوا المدارس للأطفال ، وزودوهم بالكتب

المدرسية ، وبنوا الكنائس والمستشفيات والأكواخ النموذجية . ثم جلبوا إلى ضيعتهم وقصرهم فى بولافى (قرب لوبلين) معلمين ودارسين دربوا الشباب أياً كانت طبقتهم ، على خدمـــة الدولة . أما من الناحية السياسية فأن الأسرة عارضت حق النقض المطلق لأن من شأنه أن يجعل الحكم الفعال ضرباً من المحال . واتحدت ضدهم أسر كثيرة شعرت بأن حق النقض هو حاميها الأوحد من الأوتقراطية المركزة . وكان أقواها أسرة بوتوكى ، وزعيمها الأمير فيلكس بوتوكى ، الذى كان فى استطاعته أن يركب ثلاثين ميلا فى اتجاه واحد دون أن يجاوز أرضه — ثلاثة ملايين من الأفدنة فى أوكرانيا .

أما الصناعة والتجارة ، اللتان شاركتا فى القرن السادس عشر فى جعل بولنده قطراً عظيماً وفى إثراء مدنها ، فقد عطلتهما خصومة ملاك الأرض ومجلسهم النيابى المطيع . فكانت مدن كثيرة بأسرها تقع فى نطاق الملكية الخاصة لقطب من الأعيان آثر الزراعة على الصناعة مخافة أن تنشأ طبقة وسطى مستقلة . وكانت منافسة الحرف اليدوية التى ينتجها الأقنان فى الضياع قد جرت الكساد على مهرة الصناع فى المدن . كتب انطونى بوتوكى فى ١٧٤٤ يقول « إن خراب المدن ظاهر للعيان حتى أن كبرياتها فى الدولة — باستثناء وارسو دون غيرها — أشبه بأوكار اللصوص » (٦) . فى مدينة لفوف مثلا كثر النجيل فى الشوارع ، وأصبحت بعض ميادينها حقولا مفتوحة ، ومدينة كراكاو التى كانت يوماً ما من أعظم المراكز الثقافية فى أوربا هبط عدد سكانها إلى تسعة آلاف ، وعدد الطلاب فى جامعتها الشهيرة إلى ستمائة (٧) .

ويرجع بعض ما أصاب المدن من انحلال إلى عودة الكاثوليك إلى غزو بولنده . فقد كان كثير من البروتستنت المطرودين تجاراً أو صناعاً مهرة ، وقد ترك تقلص عددهم فى جميع أرجاء بولنده إلا غربيها (حيث بقى ألمان كثيرون) للمسرح البولندى لملاك الأرض ، وكان هؤلاء من الكاثوليك الرومان ، أو فى الشرق من الروم الأرثوذكس أو الموحدين (وهم كاثوليك يمارسون الطقوس الشرقية ولكنهم يعترفون ببابا روما) .

وكان المنشقون أو المخالفون — من البروتستنت والروم الأرثوذكس واليهود ، وجملتهم ثمانية فى المائة من السكان — محرومين من الوظائف العامة ومن عضوية الديت ، وكل الدعاوى المرفوعة ضدهم ننظرها محاكم كاثوليكية خالصة (٨) . وقد بلغت الخصومة الدينية مبلغاً دفع الجماهير عام ١٧٢٤ ، فى مدينة تورون (ثورن) التى كان أكثر أهلها من البروتستنت ، إلى أن تنتهك قدسية القربان وتدوس على صورة العذراء بعد أن أثار غضبها الشديد مسلك طالب يسوعى . وقد أعدم تسعة من هؤلاء المغيرين . واستنجد بروتستنت بولنده ببروسيا ، والروم الأرثوذكس بالروسيا ، وعرضت بروسيا وروسيا الحماية ، ومنها تقدمتا إلى الغزو والتقسيم .

أما أخلاق البولنديين فقد شابهت الأخلاق الألمانية على المائدة ، والفرنسية فى الفراش . وقد أكره الفلاحين على الاكتفاء بالزوجة الواحدة عكوفهم على الأرض والنسل ، ولكن هذا الاكتفاء كان عسيراً فى العاصمة لجمال النساء و « سلوكهن المغرى »(٩) ، هؤلاء النساء اللاتى لم يسمحن لتعليمهن الأرقى بأن يقف عقبة فى طريق فتنتهن . ويروى أن نساء الطبقة الراقية فى وارسو كن من الناحية الجنسية منحلات كنساء باريس (١٠) . ويؤكد لنا بوتياتوفسكى أنه كان بكرا حتى الثانية والعشرين (١١) ، ولكنه يضيف أن هذه العفة كانت شاذة فى طبقته — وكان السكر متوطناً لايعرف الفوارق بين الطبقات . فهو بين الفلاحين أنساهم فى نشوته ما يعانون من فقر أو مشقة أو برد ، أما النبلاء فقد سرى عنهم ما يعانون من العزلة والسأم ، وفى جميع الطبقات كان الذكور ينظرون إليه لا على أنه رذيلة بل مظهر من مظاهر التميز . وقد كرم القوم يان كومارنشفسكى لأنه استطاع أن يفرغ فى جوفه دلواً من الشمبانيا فى جرعة واحدة دون أن يدور رأسه أو تخونه قدماه . وقد نبه القوم بونياتوفسكى إلى أنه لن يكون محبوباً ما لم يثمل بالشراب مرتين فى الأسبوع(١٢) . وكان اكرام الضيف عادة شائعة بين الجميع ، ولكنه كان يقاس بمقدار الطعام والشراب الذى يقدم للضيف . وقد يحدث أن يرهن أحد الأقطاب مدينة يملكها ليدفع نفقات مأدبة .

وكان البولنديون المثقفون يضفون على المشهد رونقاً بأزيائهم . أما الفلاح فكان فى الصيف يقنع بالقميص والسراويل إلى الركبة من التيل الخشن ، دون جوارب طويلة أو حذاء . وفى الشتاء يدثر نفسه كالحزمه دون مراعاة للون ، ولا وقت للزينة ، وأما الأعيان الذين يعدون نحو ٧٢٥,٠٠٠ فلباسهم الحذاء الطويل والسيف والقبعة ذات الريشة والرداء الملون من الحرير أو المخرمات ، ثم حول الخصر حزام عريض من النسيج المنقوش ذى الألوان الكثيرة . وهذا الزى الذى اعتزوا بقوميته نقلوه عن المسلمين نتيجة اتصال اللتوانيين بالأتراك فى أوكرانيا ، وقد عكس ماكان يحدث أحياناً من تحالف بين بولنده وتركيا ضد النمسا أو روسيا ، وربما عبر عن عنصر أسيوى فى عادات البولنديين وأخلاقهم .

أما من الناحية الثقافية فقد عطل بولنده من ١٦٩٧ إلى ١٧٦٣ عدم مبالاة ماوكها السكسون بالأدب والفن السلافيين ، كما عطلها حربان مدمران . ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية أهم راع للفنون فحسب ، بل إنها كانت الموزع للتعليم والأمين الأكبر على نفائس الثقافة والأدب . وقد فرضت حجراً دقيقاً على بولنده يقيها حركة العلم والفلسفة فى الغرب ، ولكنها فى نطاق حدودها نشرت المعرفة ونمتها . من ذلك أن جوزيف زالوسكى أسقف كييف جمع ٢٠٠,٠٠٠ مجلد فى وارسو لمكتبته التى تعد من أعظم مكتبات العصر ، وفى ١٧٤٨ فتحها للجمهور وأهداها للأمة ؛ وكان أثناء ذلك يحيا حياة الزهد ، وقد ضحى بنفسه فى الصراع الناشب ليحفظ على بولنده استقلالها .

وهو الذى وجه القسيس الشاب المتطلع ، ستانسلاس كونارسكى ، إلى دراسة التاريخ والقانون وفى ١٧٣١ أصدر كونارسكى المجلد الأول من أربعة مجلدات جمعت ونسقت القانون البولندى من كازيمير الأكبر حتى وقته . هذه الأبحاث وغيرها كشفت لكونارسكى عن مدى سقوط بولنده المحزن من حالة الازدهار الذى شهدته أيام النهضـــة الأوربية . وقد اقتنع بأن البعث لن يأتى إلا من القمة ، لذلك أنشأ فى وارسو (١٧٤٠) «كلية للنبلاء» يتلقى فيها شباب الأشراف تعليماً لايقتصر على الرياضة واللغات والآداب الكلاسيكية (التى أجاد اليسوعيون تدريسها) ، بل يشمل

العلوم الطبيعية واللغات الحديثة . وكان هذا عملا بطولياً ، لأنه لم يكن لديه مال ولا كتب ، ولا معلمون ولا تلاميذ ، ومع ذلك فقد جعل من كلية النبلاء هذه بعد خمسة عشر عاماً من الكد معهداً ذائع الصيت مرموقاً ، وأحد المنابع للإحياء الثقافى فى عهد بونياتوفسكى ولدستور ١٧٩١ المستنير . وقد دعا لإصلاح اللغة البولندية تخليصاً لها من العبارات اللاتينية والبلاغة المزوقة ، واحتجت الأمة ، ولكنها تعلمت . ثم توج كونارسكى أعماله بإصداره فى بولنده (١٧٦٠—٦٣) أهم رسالة سياسية فى القرن ، تحمل هذا العنوان البرىء ، « فى التسيير الفعال لدفة المناقشات » ولكنها احتوت ثورة شعواء على حق النقض المطلق . وهنا أيضاً ارتفعت الاحتجاجات الكثيرة ولكن بعد عام ١٧٦٤ لم يحل «ديت» بحق النقض . وبمعونة كونارسكى بدأ بونياتوفسكى إصلاح الدستور البولندى .

وقبل ذلك الإحياء الرائع المتقطع عانت بولنده سبعة عشر عاماً من الفوضى والعار والاضمحلال تحت حكم الملوك السكسون .

٢ — الملوك السكسون : ١٦٩٧ — ١٧٦٣

فى موضع آخر من هذا الكتاب [١٣] ذكرنا كيف تخطى الديت البولندى ابن سوبيسكى العظيم ليعطى تاج بولنده لفردريك أوغسطس ، ناخب سكسونيا الذى دخل فى المذهب الكاثوليكى بين عشية وضحاها ليصبح أوغسطس الثانى (أى القوى) ملك بولنده ، وكيف ولى شارل الثانى عشر ملك السويد مكانه ستانسلاس لشتشنسكى (١٧٠٤) ، وكيف أتاحت هزيمة شارل فى بلطاوه (١٧٠٩) لأوغسطس أن يستعيد عرشه ، وقد تمتع بالقليل من السلطات التشريعية التى كان يتمتع بها ملوك القرن الثامن عشر ، ولكن بكل امتيازات الملوك الجنسية . فلما فشل فى حكم بولنده رد حبه على سكسونيا ، فجمل درسدن ، وأترع جوفه بالجعة ، وأفرغ عافيته بالخليلات ، ثم أضاف الإهانة إلى الأذى باتخاذه واحدة فقط من هؤلاء الخليلات من بين حسان

بولنده . وفى أخريات عهده وضع خطة لتقسيم بولنده بين النمسا وبروسيا وسكسونيا ، ولكنه مات (١ فبراير ١٧٣٣) قبل أن ينفذ تدبيره الشرير . وقد قال على فراش الموت ، « إن حياتى كلها كانت خطيئة متصلة »[١٤] .

وفى فترة خلو العرش التى تلت ذلك خلال تجميع ديت انتخابى ، أغدق المبعوثون الفرنسيون المال ليكسبوا نواباً يعملون على إعادة لشتشزنسكى. وكان ستانسلاس منذ خلعه يعيش فى الألزاس مستمتعاً بالسلام والأمل . وفى ١٧٢٥ أصبحت ابنته مارى ملكة على فرنسا بزواجها من لويس الخامس عشر ، وتوقع لويس الآن أن يتابع حموه ، متى رد إلى عرشه ، السياسة الفرنسية ، سياسة توحيد بولنده وبروسيا وتركيا فى صف واحد يضرب نطاقاً حول النمسا . وشعرت الحكومة الروسية بأن حلفاً كهذا من شأنه إضعافها فى صراعاتها المحتومة مع تركيا وبروسيا ، فبادرت بإرسال الروبلات إلى وارسوا لتمنع انتخاب لشتشزنسكى . ولكن الجنيهات الفرنسية كانت أثقل من الروبلات الروسية ، وفى ١٠ سبتمبر ١٧٣٣ أصبح لشتشزنسكى ملكاً على بوليده باسم ستانسلاس الأول .

ورفضت أقلية الاعتراف بانتخابه ، ووضعت نفسها تحت حماية جيش روسى زحف على الفستولا ونادى بالناخب السكسونى ملكاً على بولنده باسم أوغسطس الثالث (٦ أكتوبر) . وهكذا بدأت حرب الوراثة البولندية ، وبدأ أول تدخل حاسم لروسيا فى شئون بولنده وبحث ستانسلاس عن جيش بولنده يدافع عنه ، فلم يجد جيشاً إلا على الورق ، ففر إلى دانتزج واستنجد بفرنسا . وكان يرأس الحكومة الفرنسية آنذاك الكردينال فلورى ، ولم يكن به رغبة لخوض حرب مع روسيا النائية ، فأرسل مفرزة من ٢,٤٠٠ جندى سحقها الروس بجيش من اثنى عشر ألف مقاتل . وفر ستانسلاس من دانتزج واعتكف فى اللورين . وفى يناير ١٧٣٦ وقع على تنازله عن العرش ، وفى يوليو اعترف بأوغسطس الثالث ملكاً .

ولكنه لم يكن أصلح من لشتشزنسكى لقيادة أمة ركبت الفوضى فى صميم دستورها . وتعاون فترة مع آل تشارتوريسكى فى محاولات لإنهاء

حق النقض ، فاستعملت أسرة بوتوكى الفيتو المرة بعد المرة للاحتفاظ بهذا الحق ، وأخيراً يئس أوغسطس وأخلد إلى الدعة فى درسدن ، ولم يزر بولنده إلا لماما . واستمر الفساد واستشرى ، وشارك الملك فيه إذ ألفى نفسه عاجزاً عن وقفه ، وباع المناصب لمن يدفع فيها أغلى الأثمان . وهيمن الأقطاب على المحاكم والقوات المسلحة ، وتفاوضوا رأساً مع الدول الأجنبية وتلقوا منها الإعانات المالية (١٥) . وناورت فرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا لترى أيها يستطيع الظفر بنصيب الأسد من انحلال دولة بولنده الوشيك .

وقبل موت أوغسطس الثالث (٥ أكتوبر ١٧٦٣) وبعده تذرعت المنافسة على تعيين خلفه والتسلط عليه بكل حيلة دبلوماسية حتى وصلت إلى شفا الحرب . فطالب آل بوتوكى بجيش دائم عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ليحمى بولنده من السيطرة الأجنبية ، أما آل تشارتوريسكى فقد راضوا أنفسهم على أن تكون بولنده محمية روسية ، وتفاوضوا مع كاترين الثانية . وأدعت روسيا لنفسها الحق فى حماية الأقلية الرومية الأرثوذكسية فى بولنده ، ومدت ذاكرتها إلى الماضى البعيد لتتذكر أن أقاليم بولنده الشرقية انتزعها من روسيا سانت فلاديمير (٩٥٦ — ١٠١٥) قبل ثمانمائة سنة . أما فرنسا فقد ناصرت ابن أوغسطس الثالث خلفاً له ، فلو أن روسيا سيطرت على بولنده لأنهار صرح السياسة الخارجية الفرنسية كله فى الشرق . وأما فردريك الأكبر الذى كان قد اختتم لتوه سبع سنين من الحرب الطاحنة مع فرنسا والنمسا ، فقد كان فى حاجة إلى صداقة كاترين التى نجا من الكارثة بإذنها ، ووافق على أن يؤيد مرشحها للتاج البولندى ، ثم أبرم معها (١١ أبريل ١٧٦٤) معاهدة تلزم الطرفين سراً بمعارضة أى تغييرات فى دستور بولنده أو السويد ، مخافة أن تقضى أى زيادة فى سلطة الملك إلى جعل أحد هذين القطرين أوكليهما قوياً إلى حد خطر ، وهكذا اعتزما الدفاع عن الفوضى باسم الحرية . وهدأت كاترين مخاوف آل تشارتوريسكى بوعدها باختزال حق النقض المطلق بعد أن تستقر الأمور فى نصابها ، وباختيارها محسوباً من هذه الأسرة مرشحاً للعرش . وفى ٧ سبتمبر ١٧٦٤ ، وبإجماع آراء «ديت» أقنعته الروبلات ،

وجيش روسى لايبعد عنه أكثر من ثلاثة أميال ، أختير ستانسلاس بونياتوفسكى ليتبوأ عرش بولنده .

٣ — بونيا توفسكى

ولد لستانسلاس بونيا توفسكى الأب ، حاكم كراكاو ، وقسطنطيا تشارتو ريسكى ، فى ٧ يناير ١٧٣٢ . قال لمدام جوفران «ربيت تربية صارمة جداً على يد أم ندر أن تجدى لها نظيرا اليوم فى أى مكان ، فى حين اكتفى أبى فى وعظى بأن أجد فيه الأسوة الحسنة » (١٦) . وحين بلغ السادسة عشرة بدأ القيام برحلات واسعة . وفى ١٧٥٣ بهر مدام جوفرات وصالونها وكل باريس تقريباً بهيأته ومسلكه وشبابه . وبعد بضع سنوات ، وجريا على سنة جيله ، كتب صورة ذاتية كانت مطابقة للحقائق مطابقة منصفة ، قال فيها :

«كان خليقاً بى أن أرضى عن شكلى لو كنت فقط أطول بوصة ... وكان أنفى أقل انعقافاً ، وفمى أصغر بعض الشىء . بهذه التحفظات أعتقد أن وجهى طلق معبر ، ومظهرى لا يخلو من امتياز . . . وكثيراً ما يجعلنى قصر نظرى أبدو مرتبكاً ، ولكن للحظة واحدة فقط . فالواقع أننى قد أوذى شعور الغير بالتطرف فى الناحية المضادة — بسلوك شديد الخيلاء ويعيننى ما حصلت من تعليم ممتاز على إخفاء عيوبى العقلية والبدنية ، حتى أن كثيراً من الناس ربما توقعوا منى أكثر مما أستطيع إعطاءه فى يسر . وعندى من الذكاء ما يكفى للمشاركة فى أى حديث ، دون أن يكفى للحديث طويلا ومراراً . على أن ما فطرت عليه من تعاطف ولطف كثيراً ما يخف لنجدتى . وبى ولع طبيعى بالفن . . . ويمنعنى كسلى أن أوغل فى الفنون والعلوم كما أشتهى . وأنا إما مفرط فى العمل وإما عاطل منه . وفى استطاعتى الحكم على الأمور حكماً جيداً جداً . . . ولكننى فى مسيس الحاجة للمشورة المخلصة لكى أنفذ أى خطة من بنات أفكارى . وأنا حساس جداً ، ولكن الحزن يؤثر فى أكثر كثيراً من الفرح . فأنا أول من يبتئس . . . وإذا أحببت أحببت حباً جماً . . . ولست

محباً للثأر . ومع أنني فى أول لحظات غيظى قد أتوق للانتقام من أعدائى ، إلا أننى لا قدرة لى أبداً على إنفاذ رغبتى ، فالحنو يقف دائماً حائلا بينى وبين الثأر» (١٧) .

وتوحى قدرة بونياتوفسكى على أن يرى ذاته — ويعبر عنها — على هذا النحو الجميل بأنه ولد ليفكر ويكتب لاليخطط وينفذ . وكان قد التقى بمونتسكيو وقرأ فولتير ؛ واكتسب رهافة ونعومة المجتمع الفرنسى الفكرية مع درجة من تلك « الحساسية» التى أخذت تجد التعبير عنها فى روسو . وكان شديد الحساسية للنساء ، ويشعر أن ما أعطينه ، جسداً وروحاً ، لا يقدر بثمن. وقد شاع أنه قبض عليه فى باريس لعدم وفائه بدين ، ثم أطلق سراحه بعد حبسه ساعة ، عندما دفعت مدام جوفران ١٠٠,٠٠٠ جنيه ليفرج عنه»(١٨) .

وبعد أن قضى فى باريس خمسة أشهر ، وإذ كان قد تعلم الانجليزية ، فقد مضى إلى انجلتره واختلف إلى بعض جلسات البرلمان ، وتطلع إلى إعادة تشكيل الموقف البولندى على غرار انجلتره كما صورها مونتسكيو . فلما عاد من رحلاته (١٧٥٤) عين مشرفاً أول للتواينا . وبعد عام رافق السير تشارلز هانبرى وليمز إلى روسيا ، وكانت النتائج كما أسلفنا . ثم عاد إلى وطنه عام ١٧٥٦ ، ولكنه ذهب إلى سانت بطرسبرج فى ١٧٥٧ سفيراً لبولنده . وشارك فى المؤامرة ضد اليزابث فى ١٧٥٨ ، وأكره على الرحيل عن روسيا دون أن يمهل وحزنت كاترين على رحيله ، ولكنها حين أيدته ليرتقى عرش بولنده لم يكن دافعها أنها لم تزل تحبه ، بل لأنه (فى زعمها) أقل حقاً فى العرش من أى مرشح آخر ، وإذن فخليق به أن يكون أكثر عرفاناً بهذا الصنيع (١٩) . أما هو فلم يفق قط كل الإفاقه من تلك العلاقة الغرامية المثيرة ، وكان يتذكر كاترين قبل أن تقسى السلطة قلبها ، وبقى افتتانه بها حتى حين اتخذته مطية لإخضاع شعبه .

وبعد انتخابه بيومين أرسل النبأ إلى مدام جوفران :

« ماما العزيزة : يبدو أننى أجد لذة أعظم وأنا أدعوك بذلك الإسم

منذ أمس الأول . (وكانت أمه ميتة) لم يكن فى تاريخنا كله انتخاب بهذا الهدوء وهذا الإجماع . . وكانت كل كبريات نبيلات المملكة حاضرات فى ساحة الانتخاب وسط أفواج النبلاء . . . وسرنى أن تنادى بى أصوات جميع النساء كأصوات جميع الرجال . . . فلم لم تكونى هناك ؟ إذن لانتخبت ابنك » (٢٠) .

وقد رأينا كيف اقتحمت « ماما » طرق أوربا لتزور « ابنها » فى قصره بوارسو (١٧٦٦) . وإذ لم يكن لديها مفهوم واقعى عن الفجوة التى تفصل بين الحضارتين الفرنسية والبولندية ، فقد تاقت نفسها إلى أن تراه يرفع بولنده فى عام واحد ما يقتضى رفعه قرناً ، وأصبحت مشورتها مصدر إزعاج له ، وكدرت محبة بونياتوفسكى البنوية لها ؛ فتنفس الصعداء حين رحلت ، وإن هدأها بالمجاملات وبصورة لشخصه فى إطار مرصع بالماس . واحتفظت بالصورة ولكنها ردت الماس . فلما نأت عنه عاودها حبها له فى كل حرارته ، وكتبت له من فيينا تؤكد له « المحبة التى هى ضرورة من ضرورات حياتى » (٢١)

وبذل ستانسلاس ما وسعه من جهد . فانقطع لمهام الحكم خلال هذه السنوات الأولى بشعور الحاكم المخلص لواجبه . فكان يحضر كل يوم مداولات وزرائه ، ويعكف إلى ساعة متأخرة من الليل على مشكلات اضطلع ببحثها فى تفصيل شديد التدقيق . وقد وفق إلى حد كبير فى تدريب فيلق من الموظفين المدنيين ذوى الكفاية الفائقة والنزاهة المذهلة (٢٢) . ثم فتح بابه لمن يريد لقاءه ، وسحر الجميع بلطفه ، ولم يسحر الجميع بتحمسه للإصلاح . ولكن نشاطه خفف منه إحساسه بأنه معتمد على كاترين ، لا بل على الجيش الروسى الذى خلفته فى بولنده ليكفل سلامته وطاعته . وكان سفيرها الكونت أوتوفون شتاكلبرج يرقبه بعينه الساهرة مخافة أن ينسى سلطان روسيا عليه .

وكان الأعداء يحدقون به من بعيد ومن قريب . فالنبلاء البولنديون حزبان : الحزب الذى يتزعمه آل بوتوكى يدعو للاستقلال قبل الإصلاح ،

ويرغب فى كبح سلطة الملك بالإبقاء على قوة الارستقراطية ، والحزب الآخر الذى يتزعمه آل تشارتوريسكى يطلب الإصلاح أولا ، وحجته أن بولنده بفوضاها الراهنة أضعف من أن تنضو عنها الحماية الروسية . وكان آل تشارتوريسكى مترددين فى تأييد يونياتوفسكى ، فقد أحزنهم سرفه وكثرة خليلاته . وقد خصص له الديت ٢,٢٠٠,٠٠٠ طالر فى العام ، وفى ١٧٨٦ زادها إلى ٦,١٤٣,٠٠٠ جولدن — وهو ما يوازى ثلث إيراد الحكومة . ولكنه تجاوز مخصصاته ، لأنه كان قد اقترض من المصارف فى وطنه وفى خارجه . ودفعت الدولة ديونه مرتين ، ومع ذلك ففى عام ١٧٩٠ كان لايزال مديناً بمبلغ ١١,٥٠٠,٠٠٠ جولدن [٢٣] . وكان مثل كاترين يتطلع إلى تخليد ذكرى ملكه بتشييد الصروح الباذخة ، ووزع نفسه وحاشيته على قصرين غاليين ، وأقام حفلات الترفيه الكثيرة التكلفة ، وأغدق العطايا على الفنانين والكتاب والنساء .

وكانت جاذبيته غالية التكلفة . فلقد كان عند توليه العرش فى الثانية والثلاثين من عمره ، وسيماً مثقفاً كريماً غير متزوج ، فجمع من حوله رهطاً من الحسان يتلهفن على يده وعلى كيس نقوده . وسر العديدات ممن أخفقن فى الزواج منه أن يشاركنه فراشه ، وشاركت بعض الممثلات الباريسيات فى الترفيه عن الملك . واحتج التشارتوريسكيون ، فاعترف بخطاياه وتمادى فيها . وأخيراً قادته خليلة تدعى بانى جرابوفسكا إلى المذبح فى زواج سرى . وبعدها خضعت حياته الجنسية للرقابة الشديدة ، واستطاع أن يبذل اهتماماً أكثر بشئون الحكم والأدب والفنون .

وقد اهتم اهتماماً شخصياً بأعمال وحياة فنانى جيله ومؤلفيه . وحذا حذو كاترين فجمع الصور والتماثيل والكتب ، وبنى قاعة للفن ومكتبة ، وأبرز فى المكتبة تمثالا لفولتير . ووجد عملا للفنانين الوطنيين ، واستقدم غيرهم من فرنسا وإيطاليا وألمانيا . ولم يستطع بيرانيزى وكانوفا الحضور ، ولكنهما نفذا أعمالا له فى إيطاليا . وقد حول نصف القصر الملكى إلى مدرسة للفن ،

ودبر المال ليمكن شباب الفنانين الواعدين من الدراسة فى الخارج . وأسس قرب وارسو صناعة للبرسلان ضارعت منتجاته منتجات ميسن وسيفر . وقد ألهم بقدوته أثرياء البولنديين — كآدم تشارتوريسكى ، والبزابث لوبوميرسكا ، وهيلين رادزيفيل ، وغيرهم — ليجمعوا التحف ، ويكلفوا الفنانين بأعمال فنية ، ويحلوا تنويعات الطراز الكلاسيكى الحديث محل روكوك الفترة السكسرنية فى بناء قصورهم وزخرفتها . وكان هو ذاته يحبذ مزيجاً من فن الباروك والفن الكلاسيكى ، وبهذا الطراز صمم دومنيكو مرلينى قصر لازينكى على مشارف وارسو . وكان المصورون الأجانب أثناء ذلك يدربون جيلا جديداً من الفنانين البولنديين الذين بلغوا مرحلة النضج بعد أن اختفت الحرية البولندية .

أما أول الخطوات التى أفضت إلى تلك الكارثة فكانت العقبات التى وضعها فردريك الأكبر فى طريق اصلاح بولنده لذاتها . وإلى ذلك الحين (١٧٦٧) لم يكن لدى كاترين فيما يبدو نية تقطيع أوصال قطر كبولنده خاضع خضوعاً واضحاً للنفوذ الروسى ، فالتقسيم سيوسع رقعة بروسيا بحيث تغدو عائقاً أشد خطراً مما يمكن أن تكونه بولنده السلافية أمام مشاركة روسيا فى شئون غربى أوربا وثقافتها . لذلك اكتفت بالمطالبة بإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية الكاملة . ولكن فردريك أراد أكثر من هذا . فهو لم يستطع قط أن يروض نفسه على قبول هذه الحقيقة ، وهى أن غربى بروسيا ، الألمانى البروتستنتى فى غالبيته الكبرى ، خاضع للحكم البولندى الكاثوليكى . ومن ثم كان نوع من التقسيم لبولنده هدفاً عنده لايغيب عنه . وأى تقوية لبولنده ، سياسية أو عسكرية ، ستعرقل بلوغ أهدافه ؛ لذلك أيد عملاؤه حق النقض المطلق ، وعارضوا فى تشكيل جيش قومى بولندى ، ورحبوا بالخلافات المحتدمة بين الكاثوليك والمنشقين لأنها تتيح ذريعة للغزو .

وتعاون تعصب الكهنوت الكاثوليكى الرومانى مع خطط فردريك . فقد قاوم كل محاولة تبذل لإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية . وفى « روسيا البيضاء » — التى كانت آنئذ جزءاً من بولنده ، مشتملة على منسك — انتزعت

السلطات الكاثوليكية الرومانية مائتى كنيسة من أتباعها الروم الأرثوذكس وأعطتها لطائفة الموحدين ، ومنعت الجاليا الأرثوذكسية من ترميم كنائسها القديمة وبناء أخرى جديدة . وفى حالات كثيرة فصل الأطفال عن آبائهم لينشأوا على طاعة الكنيسة الرومانية ، وأسيئت معاملة القساوسة الأرثوذكس ، وأعدم بعضهم (٢٤) ، وكان بونياتوفسكى ، وهو ربيب جماعة الفلاسفة الفرنسيين ، ميالا إلى التسامح الدينى (٢٥) ، ولكنه كان عليماً بأن الديت سيقاوم ، بالقوة ان اقتضى الأمر ، أى خطوة للسماح لغير الكاثوليكى الرومان بعضويته ؛ وأحس أنه ينبغى تأجيل اقتراحا كهذا حتى يستطيع تعديل من نوع ما لحق النقض المطلق أن يشد أزره . وأجاب فردريك وكاترين بأنهما لايطلبان من بولنده أكثر مما يمنحانه لأقلياتهم الدينية . وقدم للديت الذى اجتمع فى أكتوبر ونوفمبر ١٧٦٦ التماس من بروسيا وروسيا والدنمرك وبريطانيا العظمى بمنح اخوانهم فى الدين فى بولنده كامل حقوقهم المدنية .

وهنا أثارت بلاغة «كاجيتان سوليتك» أسقف كراكاو ثائرة النواب ، فهبوا غاضبين وطالبوا لا برفض الإلتماس فحسب ، بل بتقديم مؤيديه البولنديين للمحاكمة لأنهم خونة لبولنده ولله (٢٦) . ونجا بجلدهم من الموت نفر حاولوا الدفاع عن الملتمس (٢٧) . وحاول بونياتوفسكى أن يهدىء المجالس بإصدار (نوفمبر ١٧٦٦) نبذة سماها «آراء مواطن صالح» ودعا فيها جميع البولنديين للوحدة القومية ، وأنذرهم بأن الشعب المنقسم على ذاته يحرض على الغزو . ثم رجا فى الوقت نفسه السفير البولندى فى بطرسبرج أن يفصل روسيا عن الدول موقعة الملتمس . وكتب يقول «لو أصروا على هذا (الملتمس) فإنى لا أتوقع غير عشية كعشية (مذبحة) القديس بارتولميو للمنشقين ، وحصاداً من السفاكين أمثال رافياك يغتالوننى . . وستحيل الامبراطوره عباءتى الملكية رداء (للقنطور) نيسوس . وسيكون على أن أختار بين نبذ صداقتها وبين مناصبة وطنى العداء» . وردت عليه كاترين بطريق نيكولاى ربنان سفيرها فى وارسو تقول «لا أستطيع أن أتصور كيف يرى الملك نفسه خائناً لوطنه لمجرد أنه يؤيد مطالب العدل والإنصاف» (٢٨) .

لقد كان يفصلها عن بولنده من البون الشاسع سواء فى المسافة أو التعليم ما لا يتيح لها الشعور بوطيس الغضب والكبرياء البولنديين . فلما ألفت جماعة من نبلاء البروتستنت اتحاداً فى ثورن ، وألف حزب من المتشبعين لآل تشارتوريسكى اتحاداً فى رادوم ، أمرت كاترين ربنن بأن يعرض عليهما حماية روسيا . وتحت ستار هذه الحجة جلب ثمانين ألف مقاتل روسى إلى تخوم بولنده ، وبعضهم إلى وارسو ذاتها .

وعاد الديت إلى الإجتماع فى أكتوبر ١٧٦٧ . وحض الاسقفان زالوسكى وسولتيك النواب على الوقوف بحزم أمام أى تغيير فى الدستور . وهنا قبض ربنن على الأسقفين واثنين من العلمانيين بتهمة إهانة الامبراطورة متخطياً بونياتوفسكى ، ونقلهم إلى كالوجا على تسعين ميلا جنوب غربى موسكو . فاحتج الديت ، وأعلن ربنن أنه إذا لقى المزيد من المعارضة فإنه لن يكتفى بترحيل أربعة أقطاب فقط بل أربعين . وفى ٢٤ فبراير ١٧٦٨ استسلم الديت لتهديدات الحرب وأبرم مع روسيا معاهدة قبل بها كل مطالب كاترين . فمنح المنشقون الحرية الكاملة للعبادة الدينية ، وحقهم فى أن يختاروا لعضوية الديت وللوظائف العامة ، وتقرر أن تنظر الدعاوى القضائية بين الكاثوليك والمنشقين أمام محاكم مختلطة . وسر الديت وكاترين وفردريك بتثبيت المعاهدة لحق النقض المطلق ، مع بعض استثناءات للتشريع الاقتصادى . وقبل الديت كاترين حامية لهذا الدستور الجديد ، ولقاء هذا ضمنت كاترين الوحدة الإقليمية لبولنده ما استمر هذا الإتفاق . واغتبطت لأنها لم تكتف بمنح بولنده نصيباً من الحرية الدينية أكبر حتى مما تمتعت به انجلتره ، بل أنها أحبطت خطة فردريك لتقسيم بولنده . وتلقى بونياتوفسكى تهانى جماعة الفلاسفة وازدراء شعبه .

٤ — التقسيم الأول

اتفق الوطنيون والقساوسة البولنديون ١٧٦٨ — ٧٢ مع فردريك على عدم قبول الموقف . وأدان الأكليروس الكاثوليكى الرومانى بقوة تسليم استقلال بولنده الذاتى لامرأة ملحدة روسية . واستنفر البولنديين رجلان ،

أسقف كامر فنييك المسمى آدم كراسنسكى، ويوزف بولاسكى (أبو كازيمير ولاسكى الذى قاتل دفاعاً عن أمريكا) ، بالعظات والنشرات ليؤكدوا من جديد حريتهم السياسية ودكتاتوريتهم الدينية . فما أنقضى أسبوع على استسلام الديت لربنن حتى ألفت جماعة من البولنديين (٢٩ فبراير ١٧٦٨) اتحاد «بار» — وهى مدينة على الدنيستر فى أوكرانيا البولندية . وكان الأقطاب الذين مولوا الحركة مدفوعين بكراهيتهم لكاترين والملك ، وكان « الجمهور الأبله » كما لقب فردريك أتباعهم يضطرم غيرة على المذهب الحق الأوحد ، وتردد صدى هذه الحماسة فى شعر الشعراء يتحسرون فى مراثى حزينة على إذلال بولنده و « ارتداد » ملكها . وبعثت تركيا والنمسا للوطنيين السلاح والمال ، وأقبل دمورييه من فرنسا لينظمهم فى وحدات مقاتلة . وانضم البولنديون الراغبون فى رد الأسرة السكسونية للعرش إلى الحركة التى ما لبثت أن انتشرت إلى مواقع متفرقة فى طول البلاد وعرضها . وكتب ربنن إلى كاترين يقول « ان بولنده بأسرها اشتعلت ناراً » . وفكر بونيا توفسكى فى الانضمام إلى الاتحاد ، ولكن أعضاءه الغلاة المتهورين نفروه وأقصوه عنه بالمطالبة بخلعه إن لم يكن بإعدامه [٢٩] . وإذا جاز أن نصدق فولتير [٣٠] ، فإن ثلاثين من أعضاء الاتحاد أقسموا فى تشستوكوفا هذا القسم :

« نحن الذين أثارتنا غيرة مقدسة دينية ، والذين صممنا على الثأر لله والدين والوطن ، بعد أن أسخطنا ستانسلاس أوغسطس ، محتقر الشرائع السماوية والأرضية ، وراعى الكفار والمهرطقين ، نتعهد ونقسم أمام صورة أم الرب المقدسة المعجزية بأن نستأصل من وجه الأرض شأفة من يدنسها بوطئة الدين . فليساعدنا الرب ! » .

وأمر ربنن الجيش الروسى بإخماد الفتنة ، فطرد الاتحاديين وراء الحدود التركية وأحرق مدينة تركية . فأعلنت تركيا الحرب على روسيا (١٧٦٨) وطالبت بجلاء الروس عن بولنده وتحريرها . واغتنم القوزاق فرصة الاضطراب الشديد ليغزوا أوكرانيا البولندية ، فبطشوا بملاك الأرض ، ووكلائهم اليهود ، والفلاحين الكاثوليك الرومان أو البروتستنت ، فى مهرجان من

التقتيل العشوائى، ففى مدينة واحدة قتلوا ستة عشر ألف رجل وامرأة وطفل. ورد الاتحاديون بقتل من وصلت إليه أيديهم من الروس والمنشقين، وهكذا عانى البروتستنت واليهود من خطر مضاعف. ففى هذه السنوات بجملتها (١٧٦٨ — ٧٠) هلك خمسون ألفاً من سكان بولنده سواء فى المذابح أو المعارك [٣١].

وبدأت كل الأطراف الآن حديث التقسيم. أما الاتحاديون فقد اتهمهم أعداؤهم بأنهم وافقوا على تقسيم بولنده فيما بينهم وبين حلفائهم [٣٢]. ففى فبراير ١٧٦٩ أرسل فردريك إلى سنانت بطرسبرج اقتراحاً بتقسيم بولنده بين روسيا وبروسيا والنمسا، واشترطت كاترين فى ردها أن تمد بروسيا والنمسا يد العون لروسيا لطرد الترك من أوربا، لكى توافق على أن تختص بروسيا بذلك الجزء من بولنده الذى يفصل بروسيا الكبرى عن بروسيا الشرقية، أما باقى بولنده فيخضع للحماية الروسية [٣٣]، ولكن فردريك تردد. أما شوازيل المتحدث باسم فرنسا فقد اقترح على النمسا أن تستولى على الأقاليم البولندية المجاورة للمجر. ورأتها النمسا فكرة مواتية فى وقت موات، وعليه ففى أبريل ١٧٦٩ احتلت إقليم سبتز البولندى، الذى كانت المجر رهنته لبولنده فى ١٤١٢ ولم يفك رهنه قط [٣٤]. وفى ١٧٧٠ اقترح الترك الذين كانوا آنئذ يقاتلون بصفتهم مدافعين عن بولنده — على النمسا تقسيم بولنده بين النمسا وتركيا [٣٥].

وبينما كانت هذه المفاوضات دائرة ارتضت الدول الغربية فكرة تقسيم بولنده نتيجة لا مناص منها لفوضاها السياسية، وأحقادها الدينية، وعجزها الحربى و « أدرك كل رجل دولة فى القارة أن الكارثة واقعة لامحالة » [٣٦]. ولكن البولنديين من خصوم الاتحاديين فى هذا الوقت أوفدوا عضواً فى الديت ليطلب إلى الفيلسوف الاشتراكى مابلى، وإلى عدو جماعة الفلاسفة روسو، أن يضعا دستوراً مؤقتاً لبولنده جديدة. وقدم مابلى توصياته فى ١٧٧٠ — ٧١، أما روسو فقد فرغ من « دستور بولنده » فى ابريل ١٧٧٢ — بعد شهرين من التوقيع على أولى معاهدات التقسيم.

واستمتع اتحاد بار بلحظات من النشوة قبل انهياره . فنى مارس ١٧٧٠ ، ومن مدينة فارنا التركية ، أعلن خلع بونياتوفسكى . وفى ٣ نوفمبر ١٧٧١ ، اعترض بعض — الاتحاديين طريقه وهو يغادر منزل عم له فى الليل ، وتغلبوا على حرسه ، وقتلوا أحدهم رمياً بالرصاص ، ثم جروا الملك من داخل عربته ، وأحدثوا قطعاً فى رأسه بضربة سيف ، ثم اختطفوه من عاصمة ملكه . ولكن دورية من الشرطة هاجمتهم فى غابة بيلنى ، وأثناء العراك هرب بونياتوفسكى ، واتصل بالحرس الملكى ، فأتى رجاله وعادوا به إلى قصره مشعث الشعر ينزف دماً فى الخامسة صباحاً . وهكذا قضى على كل احتمالات المصالحة بين الحكومة والاتحاد . ولجأ بونياتوفسكى إلى المساعدة الروسية ، وقمع الاتحاد، وبقيت منه بقية فى تركيا — الهلال يحمى الصليب (١٧٧٢) [٣٧]

على أن تقدم جيوش روسيا إلى البحر الأسود والدانوب أزعج كلا من بروسيا والنمسا . فلا فردريك الثانى ولا جوزف الثانى كانا مغتبطين بتوقع سيطرة روسيا على البحر الأسود ، وأسوأ من ذلك على الآستانة . وكانت بروسيا قد تعهدت فى معاهدتى ١٧٦٤ و ١٧٦٦ بأن تساعد روسيا إذا هوجمت ، وكانت تركيا من الناحية الشكلية هى المعتدى فى حرب ١٧٦٨ الروسية التركية ؛ وكانت بروسيا تعرض خزانتها للإفلاس بإرسالها المعونات المالية لروسيا . أما النمسا التى ساءها دخول القوات الروسية فلاشيا فكانت تهدد بالتحالف مع تركيا ضد روسيا ؛ فى تلك الحالة كانت روسيا ستنتظر من بروسيا أن تهاجم النمسا . ولكن فردريك كان قد ضاق ذرعاً بالحرب . لقد خاض حربين ليستولى على سيليزيا ويحتفظ بها ، فلم يخاطر بها الآن ؟ ومن ثم آثر الطرق الدبلوماسية . وتساءل ألا يمكن استرضاء الدول الثلاث بحصص يلتهمونها من أرض بولنده ؛ لو أن الأمور تركت تجرى مجراها والسفير الروسى يحكم بولنده فعلا لما كانت المسألة إلا مسألة وقت حتى تبتلع روسيا ذلك البلد كلية متسترة وراء أى حجة . فهل ما زال فى الإمكان الحيلولة دون هذا ؟ بلى ، إذا ارتضت كاترين أن تأخذ بولنده الشرقية فقط ، وتدع فردريك يأخذ بولنده الغربية وتنسحب من الدانوب . وهل يخفف

من شره يوزف للقتال أن يعطى نصيباً من الغنيمة ؟

وعليه ففى يناير ١٧٧١ اقترح الأمير هنرى ، أخو فردريك ، الخطة على الدبلوماسيين الروس فى سانت بطرسبرج . واعترض بنن بأن روسيا قد ضمنت وحدة بولنده الإقليمية ، فذكروه بأن هذا الضمان كان رهناً بالتزام بولنده بدستورها الجديد وتحالفها مع روسيا ، وأن هذا الالتزام انقطع بانضمام العدد الكبير من النواب لاتحاد بار المتمرد . ومع هذا لم ترض كاترين عن الخطة . فأى شىء يدعوها لإعطاء فردريك جزءاً من بولنده بينما قد تأخذ هى الكل بعد قليل ؟ ولم تدعم قوة بروسيا بمزيد من الأرض ، والموارد ، والثغور البلطية ، ومزيد من الجند الفارعين ، ولكنها لم ترد خوض حرب مع فردريك ، فقد كان لديه ١٨٠,٠٠٠ رجل تحت السلاح ، وآثرت على ذلك أن تجعله يمنع يوزف من الاتحاد مع تركيا ضد روسيا ، فهدفها الحاضر ليس بولنده بل البحر الأسود . وعليه ففى ٨ يناير ١٧٧١ ، أشارت لهنرى عرضاً فى حفلة إلى موافقتها مبدئياً على خطة فردريك .

وانقضى عام قبل أن تتمكن المفاوضة من الفصل فى تقسيم الغنيمة . فقد أراد فردريك أن يأخذ دانتزج ، فاعترضت كاترين ؛ وكذلك بريطانيا التى كانت تجارتها مع البلطيق ترسو على ذلك الثغر . وفى غضون هذا عبأت النمسا قواتها ، وتحالفت سراً مع تركيا . وفى ١٧ فبراير ١٧٧٢ وقع فردريك وكاترين « اتفاقاً » على تقسيم بولنده . وألانت كاترين جانب يوزف بتخليها عن جميع مطالب روسيا فى فلاشيا وملدافيا ؛ ثم إن رداءة محصول ١٧٧١ جعل من المستحيل عليه إطعام جيشه . وكانت ماريا تريزا من جهة أخرى تتوسل إلى ولدها بكل دموعها لتمنعه من الاشتراك فى اغتصاب بولنده ، غير أن فردريك وكاترين أكرهاه على الموافقة بشروعهما فى الاستيلاء الفعلى على الأقاليم التى خصا نفسيهما بها . وفى ٥ أغسطس ١٧٧٢ أضاف يوزف توقيعه على ميثاق التقسيم .

أما المعاهدة فبعد الديباجة التى ابتهلت إلى الثالوث المبارك ، وافقت على أن تحتفظ بولنده بثلثى أرضها وثلث سكانها . واستولت النمسا على بولنده الجنوبية بين فولينيا والكربات ، مع غاليسيا وبودوليا الغربية — ٢٧,٠٠٠

ميل مربع ، و ٢,٧٠٠,٠٠٠ — نسمة . وأخذت روسيا « روسيا البيضاء » (بولنده الشرقية إلى دوينا ودنيبر) ٣٦,٠٠٠ ميل مربع ، و ١,٨٠٠,٠٠٠ نسمة . وأخذت بروسيا « بروسيا الغربية » فيما عدا دانتزج وتورن ١٣,٠٠٠ ميل مربع و ٦٠٠,٠٠٠ نسمة . وأخذ فردريك أصغر نصيب ، ولكنه كان قد ألزم المتآمرين بالسلام ، و « خاط » — على حد قوله بروسيا الغربية وبروسيا الشرقية مع براندنبرج . وقد قال الوطنى ترايتشكى إن فردريك على أية حال لم يفعل أكثر من أنه رد إلى ألمانيا « معقل الفرسان التيوتون » — وادى فايشيزال الجميل — الذى انتزعه الفرسان الجرمان من البرابرة فى الأيام الخالية» (٣٨) وذكر فردريك أوربا بأن سكان بروسيا الغربية كثرتهم العظمى ألمانية وبروتستنتيه ، أما كاترين فقد ذكرت أن الإقليم الذى أخذته يسكنه كله تقريباً اتباع الكنيسة الرومية الكاثولوليكية المتحدثون بالروسية (٣٩) .

وسرعان ما احتلت الدول الثلاث أنصبتها من الغنيمة بجيوشها . واستنجد بونياتوفسكى بالدول الغربية لتمنع التقسيم ، ولكنها كانت فى شغل شاغل عنه ؛ ففرنسا تتوقع الحرب مع انجلتره ، وقد ترددت فى معارضة حليفتها النمسا ، وانجلتره تواجه الثورة الوليدة فى أمريكا ، والخطر الذى قد يأتيها من فرنسا وإسبانيا ؛ ونصح جورج الثالث بونياتوفسكى بأن يصلى لله (٤٠) . وطالبت الدول صاحبة التقسيم بدعوة الديت ليصدق على التقسيم الجغرافى الجديد ؛ فماطل بونياتوفسكى عاماً ، وأخيراً دعا الديت للاجتماع فى جرودنو. ورفض الكثير من النبلاء والأساقفة حضوره ، وبعض الذين جاءوا واحتجوا نفوا إلى سيبيريا ؛ وقبل غيرهم الرشا ؛ وحولت البقية المتخلفة من الديت نفسها إلى اتحاد كونفدرالى (يبيح فيه القانون البولندى حكم الأغلبية) ، ووقع الديت المعاهدة التى نزلت عن الأقاليم المنتزعة من بولنده (١٨سبتمبر ١٧٧٣) وبكى بونياتوفسكى ووقع كما بكت ماريا تريزا ووقعت .

وقبلت أوربا الغربية هذا التقسيم الأول على أنه البديل الوحيد لابتلاع روسيا لبولنده ابتلاعاً تاماً . ويقال إن بعض الدبلوماسيين « أذهلهم اعتدال

الشركاء، الذين اكتفوا بالثلث في حين كان الكل رهن إشارتهم إن طلبوه»(٤١) . واغتبط جماعة الفلاسفة لأن بولنده المتعصبة عاقبها مستبدوهم المستنيرون ، ورحب فولتير بالتقسيم باعتباره هزيمة تاريخية للكنيسة الكاثوليكية ، (٤٢) ولكنه بطبيعة الحال لم يكن سوى انتصار للقوة المنظمة على العجز الرجعي .

٥ — التنوير البولندى ١٧٧٣ — ٩١

كان على بونياتوفسكي أن يختار الآن بين روسيا وبروسيا حامياً له وسيداً عليه . فاختار روسيا ، لأنها أكثر بعداً ، ولأن روسيا دون غيرها تستطيع منع فردريك من الاستيلاء على دانتزج وتورن . وكانت كاترين تواقة إلى الحيلولة دون مزيد من توسع بروسيا ، التي كان جيشها العقبة الكؤود في طريق التوسع الروسي غرباً . لذلك أمرت سفيرها في وارسو بأن يقدم العون لبونياتوفسكي بكل طريقة تتفق ومصالح روسيا ، وأرسلت إلى الملك المقترحات التي وضعها بنين من قبل لدستور بولندى أيسر تنفيذاً . وقد احتفظ هذا الدستور بنظام الملكية الانتخابية وحق النقض المطلق ، ولكنه دعم قوة الملك بأن أقام برآسته ، وكأداته التنفيذية ، مجلساً دائماً من ستة وثلاثين عضواً ، ينقسم إلى وزارات للشرطة والعدل والمالية والشئون الخارجية والحرب ؛ ثم نص على إنشاء جيش نظامى من ثلاثين ألف مقاتل . وخاف النبلاء أن يهدد جيش كهذا سيطرتهم على الملك ، فخفضوا العدد إلى ثمانية عشر ألفاً ، على أن الديت الذى انعقد في ١٧٧٥ صدق على الدستور الجديد مع هذا الاستثناء واستثناءات صغيرة أخرى ، وأصبح في وسع بونياتوفسكي الآن أن يشرع في رد شيء من العافية على الأمة .

واستمر الفساد ولكن الفوضى قلت ، فأمكن التغلب على عصابات قطاع الطرق ، ونما الاقتصاد القومى . وعمقت الأنهار لتسمح بمرور السفن الكبيرة ، وشقت الترع لتصل بين الأنهار ، وأكملت في ١٧٨٣ « قناة ملكية» تربط البحرين البلطى والأسود . وازداد سكان بولنده بين عامى ١٧١٥ و ١٧٧٣ من ٦,٥٠٠,٠٠٠ إلى ٧,٥٠٠,٠٠٠ ، وتضاعف دخل الدولة . وتقرر نظام للمدارس القومية ، وأعدت الكتب المدرسية وزود بها التلاميذ ،

ومنحت الهبات من جديد لجامعتى كراكاو وفلنو وبعث فيهما النشاط ، وأسست الدولة كليات لتخريج المعلمين ومولتها . وكان يونياتوفسكى يحب أن يحيط نفسه بالشعراء والصحفيين والفلاسفة . كتب كوكس يقول « إن الملك يولم كل خميس للأدباء المشهورين بعلمهم وقدراتهم ، وجلالته يترأس بنفسه المائدة » [٤٣] . ويقود النقاش فى الكتب والأفكار . وقد استضاف ثلاثة مؤلفين ليعيشوا معه ، ورفع دخل مؤلفين آخرين فى صمت [٤٤] . وكان آلاف البولنديين ، مع تقديمهم فروض الإجلال للكنيسة — يقرءون لوك ومونتسكيو وفولتير وديدرو ودالامبير وروسو . وهكذا أرسيت أسس التنوير البولندى أو الستانسلافى .

وقد اجتذب يسوعى يدعى آدم ناروشفتش أذن الملك بشعره ؛ فرقى أسقفاً ، ولكنه واصل نظم الشعر العاطفى للطبيعة ، وما زال « ترنيمته للشمس » و « فصوله الأربعة » تحبب فيه من يستطيعون قراءته فى الأصل . وقد استعملت « قصائده الهجاءة » ألفاظاً شعبيه رابيلية الطابع أحياناً أو نابية . وطلب إليه ستانسلاس أن يكتب تاريخاً لبولنده يجمع بين السهولة والعمق . فأنفق الشاعر فى هذا العمل تسع سنين ، وأخرج فى ستة مجلدات (١٧٨٠ — ٨٦) أثراً يمتاز بتوثيقه الدقيق . ولكن حماسته فترت بعد التقسيم الثانى ، وأصيب بالاكتئاب ، ولم يعمر أكثر من سنة بعد التقسيم الأخير [٤٥] .

أما أبرز كتاب العهد البولنديين فهو اجناتسى كراسيكى . وقد اكتسب فى رحلاته صداقة فولتير وديدرو [٤٦] وأصبح قسيساً ، ثم رئيساً للأساقفة آخر الأمر ، ولكن ستانسلاس حثه على إطلاق العنان لمواهبه الشعرية . فكتب ملحمة هازلة سماها « ملحمة الفيران ، انتقد فيها نقداً لاذعاً حروب جيله وصورها معارك بين الجرذان والفيران . وفى قصيدته «هوس الرهبنة» (١٧٧٨) هزأ بالخصومات الديرية وأسلحتها الفتاكة هى الكتب اللاهوتية . ثم اتجه إلى النثر ، فروى فى « مغامرات السيد نيقولا المكتشف» (١٧٧٦) كيف اكتشف نبيل بولندى شاب ، مزود بكل حصيلة العصر وعواطفه ، تحطمت به السفينة على جزيرة غريبة ، أن الرجال والنساء يمكن أن يكونوا

مجدين فضلاء رغم وجودهم فى « حالة الفطرة » . وقد اقتفى خطى هومر وسويفت وديفو فى أعماله هذه ، ثم اقتبس أسلوب أديسون وأخرج سلسلة من صور الحياة اليومية ، منها « بان بودستولى » (١٧٧٨ وما بعدها) التى تصف حياة جنتلمان ومواطن مثالى . وفى « قصص خرافية وأمثال (١٧٧٩) تحدى فيدروس ولافونتين ، وهاجم فى تهكم لاذع خراب الذمة والوحشية المستشرية من حوله . وكانت آخر نصيحة له هوراسية النزعة ، « التمس لك ركناً هادئاً ، ودع السعادة تأتيك خلسة » (٤٧) .

ومع أن تأثير التنوير الفرنسى على ناروشفتش وكراسيكى قد حد منه سلطان الدين ، إلا أنه ظهر بشكل قاطع فى ستانسلاس ترمبيكى ، الذى لم يذكر الدين قط إلا بروح العداء . وقد مجد شعره الطبيعة ، ولكن ليس فى تلك المظاهر السارة التى كثيراً ما تحرك العواطف الرقيقة ؛ فقد آثر جوانبها الأكثر جموحاً ووحشية ، إسرافها المجنون فى إنتاج النبات والحيوان ، عواصفها وسيولها ، صراع الحياة مع الحياة والمأكول مع الآكل ؛ واقتبست خرافاته شكلها من لافونتين ولكن روحها منقول عن لوكريتيوس . وقد أكسبته قوة شعره ورهافته وصقله مكانة مرموقة فى هذا الازدهار الأدبى . وسانده بونياتوفسكى فى جميع محنه ، وعند خلع الملك رافقه الشاعر فى المنفى ، ومكث معه حتى مات .

وكان هناك شعر دينى كثير ، لأن الدين كان العزاء الأخير للبولنديين فى خطوبهم الشخصية والقومية . وقصائد فرانتشيشيك كارينسكى المسماة « أغنية الصباح» و « أغنية المساء » و« ولادة المسيح » أدب كما أنها تعبد . أما فرانتشيشيك كنيازنين فكان يتنقل فى غير عناء بين هذين العدوين القديمين ، الدين والجنس ، فحين أشرف على دخول القسوسية اكتشف أناكريون والحب ؛ ونشر قصائد غزلية « إيروتيكا » (١٧٧٠) ، ونشد سعادة الدنيا ، ثم عاد إلى الدين ، ومات مجنوناً . إن محاولة التوفيق بين النقيضين قد تفضى إلى الجنون كما تفضى إلى الفلسفة .

أما فى مضمار الدراما فإن أبرز رجالها هو فويتسيش بوجو سلافسكى ،

الذى يكرم وطنه ذكراه باعتباره «أبا المسرح البولندى» ؛ ويجوز لنا أن نسميه « جاريك » بولنده ، ولكن البولنديين لو سئلوا لوصفوا جاريك بأنه بوجوسلافسكى انجلتره . وكان فيما يبدو أول بولندى كرس حياته كلها للمسرح ، ممثلا ، وكاتباً مسرحياً ، ومخرجاً ، ومديراً لمسارح دائمة فى وارسو ولفوف ، ومديراً لشركات نشرت تذوق الدراما فى طول البلاد وعرضها ووراء الحدود . قدم شكسبير وشريدان مترجمين ، وألف هو نفسه كوميديات ما زال بعضها يمثل على المسرح البولندى . وكانت أفضل تمثيليات هذه الفترة هى «عودة النائب» بقلم جوليان أورسين نيمتشفتش الذى كان هو نفسه نائباً ، فقد صور جانبى الأزمة السياسية تصويراً دراميا فى حب نائب من دعاة الإصلاح لفتاة يدافع أبواها عن امتيازات الأقطاب وأساليب العيش فى الماضى .

وآخر رجال التنوير البولنديين وأعظمهم هو هوجو كوللونتاج . نقل إليه تعليمه عدوى أفكار جماعة الفلاسفة ، ولكنه ستر هرطقاته ستراً كافياً حتى حصل على وظيفة كاهن مرتلة فى كراكاو . وعينه يونياتوفسكى (١٧٧٣) عضواً فى لجنة للتعليم ، وضع لها كوللونتاج وهو لايزال فى الثالثة والعشرين برنامجاً لإصلاح تعليمى يتفق وخير برامج جيله . وحين ناهز السابعة والعشرين وكل بإعادة تنظيم جامعة كراكاو ، وأنجز المهمة فى بضع سنين ، ثم بقى فى الجامعة مديراً لها . وفى « خطابات من كاتب مجهول إلى رئيس الديت» (١٧٨٨ — ٨٩) ، وفى « القانون السياسى للأمة البولندية» (١٧٩٠) قدم مقترحات أصبحت أساساً لدستور ١٧٩١ .

وكافحت بولنده ، بفضل حث شعرائها ومعلقيها ، لتنير نفسها وتصبح دولة قوية قادرة على الدفاع عن ذاتها . وحانت الفرصة حين عرض فردريك وليم الثانى — خلف فردريك الثانى — على «ديت السنين الأربع» الذى استمر انعقاده من ١٧٨٨ إلى ١٧٩٢ تحالفاً تتعهد فيه بروسيا بأن تحمى جيشها القوى بولنده من أى تدخل أجنبى . وكانت روسيا فى شغل بحربها مع تركيا والسويد ، فالآن قد تستطيع بولنده أن تعتق نفسها من خنوعها الطويل لكاترين ، وتتخلص من أعمال السلب والنهب التى اقترفها الجنود الروس على الأرض

البولندية طوال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة . وحل الديت مجلس بونياتوفسكى الدائم رغم احتجاجاته ، ووافق على أن يجند بإذن الديت جيش من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وأمر الجيش الروسى بالرحيل عن بولنده فوراً (مايو ١٧٨٩) ، إما كاترين التى كانت فى حاجة لجميع قواتها فى مواقع أخرى فلم تقاوم ، ولكنها أقسمت على الانتقام . وفى ٢٩ مارس ١٧٩٠ أبرم الديت تحالفاً مع بروسيا .

وكان بونياتوفسكى هو أيضاً قد ثمل الآن بجو الحرية . فنبذ ولاءه لكاترين وتزعم صياغة دستور جديد . وقد نصت شروطه على جعل الملكية وراثية ، ولكنها ضمنت وراثة البيت المالك السكسونى للعرش بعد موت بونياتوفسكى الذى لم يعقب . وتقرر أن توسع سلطات التاج التنفيذية بإعطاء الملك حق النقض المعلق — أى حق منع قرار وافق عليه دايت من أن يصبح قانوناً حتى يؤكده الدايت التالى . ونص على أن يعين الملك وزراءه والأساقفه ، وأن يتولى قيادة الجيش ، وعلى أن ينتخب عدد صغير من المواطنين وغيرهم من أهل المدن نواباً . أما الديت فيتألف من مجلسين ؛ مجلس للنواب له وحده الحق فى وضع القوانين ، ومجلس للشيوخ — يتألف من الأساقفه وحكام الأقاليم ووزراء الملك — تشترط موافقته على أى قانون . أما حق النقض المطلق فتحل محله قاعدة الأغلبية . ويعترف بالمذهب الكاثوليكى الرومانى ديناً سائداً للأمة ، ويعد الارتداد عنه جريمة ، وفيما عدا ذلك فحرية العبادة مكفولة للجميع . وبقيت القنية ، ولكن للفلاحين الآن أن يستأنفوا دعاواهم من المحكمة الوراثية إلى محكمة إقليمية أو قومية . وكان تأثير الدستور الذى اتخذته الولايات المتحدة الأمريكية (١٧٨٧ — ٩٨) واضحاً فى هذه التوصيات . ذلك أن البولنديين الذين حاربوا دفاعاً عن المستعمرات الأمريكية كانوا قد هيأوا ذهن بونياتوفسكى ، ولم يكن قد نسى قراءته للوك ومونتسكيو وجماعة الفلاسفة .

ورغبة فى ضمان التصديق على مقترحاته لجأ بونياتوفسكى إلى الحيلة ؛ ذلك أن كثيراً من أعضاء الديت ذهبوا إلى مواطنهم لقضاء عطلة عيد القيامة عام ١٧٩١ . فدعاه الملك للانعقاد فى ٣ مايو ، وهو تاريخ أبكر من أن

يتيح للأعضاء البعيدين العودة إلى وارسو لحضور الإفتتاح الجديد ، أما النواب القريبون الذين وصلوا فى الميعاد فكان أكثرهم أحرار النزعة يمكن الاعتماد عليهم فى تأييد الدستور الجديد . وعرض عليهم فى القصر الملكى بمجرد اجتماعهم ، فقوبل بتصفيق جارف ، وصدق عليه بأغلبية كبيرة . وقد تذكر البولنديون الوطنيون ذلك اليوم ، الثالث من مايو ١٧٩١ ، فى فخر واعتزاز ، وخلدوه فى الأدب والفن والأغانى البولندية .

٦ — تمزيق بولنده ١٧٩٢ — ٩٥

اعترفت جميع الدول بالدستور الجديد إلا روسيا . ووصفه إدموند بيرك بأنه « أنبل امتياز نالته أمة فى أى زمان » وصرح بأن ستانسلاس الثانى قد تبوأ مكاناً فى التاريخ بين عظماء الملوك ورجال الدولة (٤٨) ، ولكن هذه الحماسة ربما كانت انعكاساً لابتهاج انجلتره بهزيمة كاترين .

وأخفت الامبراطورة حينا عداءها لبولنده الجديدة ، ولكنها لم تغفر طرد جيشها منها على عجل ، ولا إحلال النفوذ البروسى محل الروسى فى الشئون البولندية . فلما أنهت معاهدة ياسى (٩ يناير ١٧٩٢) حربها مع تركيا ، وتحررت من الخوف من شريكيها السابقين فى الجريمة — بروسيا والنمسا — لتورطهما فى الحرب ضد فرنسا الثائرة (ابريل ١٧٩٢) ، تلفتت حولها تبحث عن مدخل جديد إلى بولنده .

وقد هيأه لها البولنديون المحافظون ، إذ وافقوا كاترين كل الموافقة على أن دستور بونياتوفسكى قد صدق عليه ديت جمع على عجل بحيث لم يستطع أشراف كثيرون حضوره . وكان فيلكس بوتوكى وغيره من الأقطاب ساخطين أشد السخط على التخلى عن حق النقض المطلق الذى ضمن لهم القوة أمام السلطة المركزية ، ولم يكونوا راغبين فى النزول عن حقهم فى انتخاب الملك ، وفى الهيمنة عليه تبعاً لذلك . ورفض بوتوكى حلف يمين الولاء للمرسوم الجديد ، ثم قاد جماعة من النبلاء إلى سانت بطرسبرج وطلب إلى الإمبراطورة أن تساعدهم على إعادة الدستور الأقدم (دستور ١٧٧٥) الذى

سبق أن تعهدت بحمايته . فأجابت بأنها لاتريد التدخل فى بولنده بناء على طلب أفراد قليلين ، ولكنها ستنظر فى نداء من أقلية بولندية منظمة يعتد بها ، وأحيط فردريك وليم الثانى علماً بهذه المفاوضات ، وكان متورطاً فى الحرب ضد فرنسا ، كارهاً لخوض حرب ضد روسيا ، فأخبر الحكومة البولندية (٤ مايو ١٧٩٢) بأنها إن كانت تنوى الدفاع عن دستورها الجديد بقوة السلاح فعليها ألا تتوقع الدعم من بروسيا [٤٩] . وقفل بوتوكى إلى بولنده ، وألف (١٤ مايو ١٧٩٢) ، فى بلدة بأوكرانيا ، اتحاد تارجوفيكا ، ودعا للانضواء تحت لوائه كل الذين يريدون إعادة الدستور القديم . ولقب اتباعه أنفسهم بالجمهوريين ، وأدانوا تحالف بولنده مع بروسيا ، وأثنوا على كاترين ، والتمسوا بركتها وطلبوا جيشها .

فأرسلتهما جميعاً ، وزحف الاتحاديون على وارسو بعد أن توفر لهم هذا الدعم . وكانت دعوتهم إلى « الحرية » قد أحدثت بعض التأثير ، لأن مدناً عديدة استقبلتهم استقبالها للمحررين ؛ وفى تريسابول (٥ سبتمبر) رحب القوم ببوتوكى كأنه فعلا ملك بولنده الجديد . ودعا بونياتوفسكى الديت أن يعطيه كل السلطات التى تلزم للدفاع . فعينه دكتاتوراً ، ودعا كل الذكور البالغين من البولنديين للخدمة العسكرية ، ثم ارفض . وعين بونياتوفسكى ابن أخيه ، الأمير يوزف بونياتوفسكى ذا التسعة والعشرين عاما ، قائداً أعلى للجيش الذى وجده مفتقراً إلى التدريب ومجهزاً أسوأ تجهيز . وأمر يوزف جميع كتائب الجيش بأن تنضم إليه فى لوبار على نهر سلوتش ، ولكن القوات الروسية كانت قد طوقت الكثيرين فلم يستطيعوا الحضور ، والذين حضروا كانوا أضعف من أن يقفوا الزحف الروسى . وتقهقر الشاب إلى بولرن ، مركز إمداداته تقهقراً منظماً أتاحه قتال المؤخرة الباسل بقيادة تاديوس كوتشيوسكو ، الذى كان قد حارب من قبل فى صفوف المستعمرات فى أمريكا ، وكان الآن وهو فى السادسة والأربعين عريقاً فى أمجاد الوطنية والحرب .

وفى ١٧ يونيو ١٧٩٢ التقى البولنديون بجيش روسى كبير عند زيلنتسى ، وهزموه فى أول معركة حامية انتصرت فيها بولنده منذ أيام سوبيسكى . هنا أيضاً أثبت كوتشيوسكو مهارته ، باستيلائه على ربوة سيطرت منها مدفعيته على ساحة المعركة ؛ أما يوزف ، الذى كان إلى الآن موضع الريبة فى كفايته من مرءوسيه الذين فى مثلى عمره ، فقد كسب احترامهم بقيادته احتياطيه من الجنود بشخصه ليكره الروس على التقهقر . وأثلج نبأ النصر صدر بونياتوفسكى ، ولكن كاد يغلب هذا النبأ نبأ آخر بأن الأمير لودفج فورتمبرج قائد الجيش البروسى الموكل بالقوات البولندية فى لتوانيا ، قد هرب من موقعه تاركاً جنوده فى حالة من الفوضى أتاحت للروس فى ١٢ يونيو الاستيلاء على فلنو عاصمة لتوانيا دون مشقة .

لم يبق من أسباب الدفاع عن بولنده الآن غير جيش يوزف . وكانت مؤنه وعتاده من الضآلة بحيث اضطرت أفواجه إلى الصيام أربعا وعشرين ساعة ، ولم تملك المدفعية غير اثنى عشر صندوقاً من الذخيرة . فأمر الأمير بالتقهقر إلى دوبنو ؛ فلما رمى بالجبن ثبت عند دوبينكا (١٨ يوليو) واستطاع بجيشه البالغ ١٢,٥٠٠ مقاتل أن يتعادل مع ٢٨,٠٠٠ مقاتل روسى . ثم تقهقر بنظام حسن إلى كوروف ، حيث انتظر وصول التعزيزات والمؤن التى وعده بها الملك .

ولكن ستانسلاس كان قد يئس . ذلك أن رفض فردريك وليم الثانى أن ينفذ شروط الحلف البروسى البولندى ، وخيانة الأمير لودفج ، وهروب المئات من الجيش الذى جمعه فى براجا — كل أولئك كان فوق ما تطيقه روحه التى لم تكن يوماً ما شديدة البسالة . وعليه فقد أرسل نداء شخصياً لكاترين يلتمس شروطاً مشرفة ، وكان جوابها (٢٣ يوليو) إنذاراً نهائياً يشترط عليه الانضمام إلى اتحاد تارجوفيكا وإعادة دستور ١٧٧٥ . وقد صدمته لهجتها التى لم تعرف هوادة ولا ليناً ؛ أفهذه هى المرأة التى استجابت يوماً لغرامه الطائش ؟

وكان حنانه هو المسيطر عليه الآن . فلقد فكر فى المقاومة ، وفى التسلح والمضى إلى الجبهة ليقود دفاعاً يائساً ؛ ولكن زوجته ، وأخته ، وابنة أخية ، اشتد بكاؤهم لفكرة موته وما يجره عليهم من الوحدة والأسى ، حتى وعد الملك بأنه سيسلم . ثم ما جدوى المقاومة بعد هذا كله ؟ فبعد أن قطع الأمل فى أى معونة من بروسيا — فى وقت توقع فيه الهجمات على الجبهة الغربية العزلاء — ، كيف تستطيع بولنده الوقوف فى وجه روسيا ؟ ألم يحاول جاهداً أن يثنى الديت عن الاستخفاف بكاترين والمغامرة بكل شىء اعتماداً على وعود بروسيا ؟ ألم يلح فى طلب جيش كبير حسن التجهيز ، وألم يرفض الديت اعتماد المال لهذا الجيش بعد أن وافق على الرجال ؟ وحتى لو حقق الجيش البولندى الراهن انتصاراً أو اثنين على الروس ، أفلا تستطيع كاترين ، المتخمة بالجنود بعد أن أبرمت الصلح مع تركيا ، أن ترسل الموجة تلو الموجة من الجنود المدربين المدججين بالسلاح ضد فلوله المبعثرة المختلة النظام ؟ فعلام التضحية بمزيد من الأرواح ، وإسلام نصف بولنده إلى الخراب ، إذا كان التسليم هو النهاية على كل حال ؟

أرسل السفير الروسى الجديد ، ياكوف سيفرس ، إلى أخته وصفا ملؤه العطف يصور فيه بونياتوفسكى فى هذه الساعة ، ساعة الانهيار البدنى والروحى قال :

« لم يزل الملك (فى عامه الستين) رجلا وسيماً أنيقاً . وإن كان وجهه شاحباً . ولكن فى وسع المرء أن يرى أن ستاراً قاتماً قد أسدل على روحه . إنه يحسن الحديث ، بل يتحدث بفصاحة ، وهو مجادل حسن الاستماع دائماً ومع الجميع . ومسكن سيىء ، وهو مهمل ، مزدرى مخذول . ومع ذلك فهو ألطف الناس جميعاً . وإذا غضضت النظر عن منصبه الرفيع ، وتأملته من وجهة النظر الشخصية فقط ، قلت إن فضائله ترجح رذائله . ولا ريب فى انه أسوأ الملوك حظاً بعد لويس السادس عشر . إنه يحب أقرباءه حباً جماً . وهؤلاء الناس هم علة نكباته كلها (٥١) .

وفى ٢٤ يوليو ١٧٩٢ قرأ بونياتوفسكى الإنذار النهائى الروسى على مستشاريه الخصوصيين ، ونصحهم بأن يركنوا إلى سماحة كاترين وشهامتها . واحتج كثيرون منهم على هذه السذاجة . واقترح أحدهم المدعو مالا خوفسكى أن يجمع فى ساعة واحدة ١٠٠,٠٠٠ جولدن لأغراض الدفاع ، وألح على أن الجيش البولندى يستطيع —حتى إذا اقتضى الأمر التخلى عن وارسو— أن يتقهقر إلى كاركاو ويجند جيشاً جديداً فى الجنوب الآهل بالسكان . وهزم اقتراح بونياتوفسكى بالتسليم فى المجلس بأغلبية عشرين صوتاً ضد سبعة . ولكنه أبطل قرارهم بحكم سلطته دكتاتوراً ، وأمر ابن أخيه بالكف عن المقاومة . ورد يوزف بأن على الملك بدلا من هذا التسليم أن يبادر إلى الجبهة بما يستطيع جمعه من قوات ويقاتل إلى النهاية . فلما أصر ستانسلاس على انضمام الجيش إلى الاتحاد أرسل إليه جميع الضباط إلا واحداً استقالاتهم وعاد يوزف إلى موطنه السابق فى فيينا . وفى ٥ أغسطس احتل جيش روسى براجا . وفى أكتوبر أرسل يوزف رجاء إلى عمه يدعوه لاعتزال ماكه قبل أن تزول البقية الباقية من الشرف . وفى نوفمبر دخل بوتوكى مع طلائع جيش الاتحاديين وارسو دخول الظافر ، وألقى على بونياتوفسكى درساً فى واجبات الملك . ولكن انتصار بوتوكى تبين بعد قليل أنه كارثة ، لأن الجنود البروسيين دخلوا بولنده فى يناير ١٧٩٣ ، وواصلوا زحفهم ليحتلوا دانتزج وتورن ، دون أن يطلق حلفاء بوتوكى الروس رصاصة ليمنعوهم . ووضح أن روسيا وبروسيا قد اتفقتا على تقسيم بولنده ثانية .

وكانت كاترين وفردريك وليم قد وقعا هذا الاتفاق فى ٢٣ يناير ، ولكنهما تكتما أمره حتى ٢٨ فبراير . أما بوتوكى فقد استنفر البولنديين من جميع الأحزاب ليهبوا دفاعاً عن بولنده ؛ فضحكوا منه ، وندد به يوزف خائناً لوطنه ، وتحداه للمبارزة ، ولكن ستانسلاس منعهما .

وبمقتضى هذا التقسيم الثانى حصلت روسيا على ٨٩,٠٠٠ ميل مربع من بولنده الشرقية ، يعيش فيها ٣,٠٠٠,٠٠٠ من السكان ، بما فى هذا

فلنو ومنسك ؛ أما بروسيا فأخذت ٢٣,٠٠٠ ميل مربع من بولنده الغربية ، يعيش فيها ١,٠٠٠,٠٠٠ من السكان بما فيها دانتزج وتورن ؛ وبقى لبولنده ٨٠,٠٠٠ ميل مربع و ٤,٠٠٠,٠٠٠ نسمة — وهو يقرب من نصف ما ترك لها من قبل فى ١٧٧٣. ولم يكن للنمسا نصيب فى هذه الغنيمة الثانية ، ولكن هدأتها الوعود الروسية بمساعدتها فى الحصول على بافاريا . أما الدول الغربية التى كانت لاتزال منهمكة فى صراعها مع فرنسا الثائرة فلم تتخذ أى اجراء ضد هذا الاغتصاب الثانى ، الذى عللته لها كاترين بأنه ضرورة اقتضاها تطور الدعوة الثورية فى وارسو ، التى تهدد بالخطر جميع الملكيات.

ولكى تلبس هذه السرقة ثوب الشرعية أمرت بونيا توفسكى أن يدعو الديت للاجتماع فى جرودنو ، وأمرته بالحضور بشخصه ليوقع على تحالف مع روسيا فأبى الذهاب أول الأمر ، ولكن حين عرضت الوفاء بديونه — التى بلغت الآن ١,٥٦٦,٠٠٠ دوقاتية — قبل هذا الإذلال الجديد خدمة لدائنيه . وزود السفير الروسى بالمال لرشوة عدد كاف من النواب ليحضروا اجتماع الديت ، ولم يجد عناء فى رشوة عدة أعضاء من بطانة الملك ليفشوا كل كلمة فاه بها سيدهم وكل عمل أتاه . وأمكن اقناع هذا « الديت الأخير » (١٧ يونيو إلى ٢٤ نوفمبر ١٧٩٣) بأن يوقع معاهدة مع روسيا ، ولكنه ظل شهوراً يأبى التصديق على التقسيم الثانى . وقيل للأعضاء أنهم ممنوعون من مغادرة القاعة حتى يوقعوا ، فظلوا على رفضهم وجلسوا صامتين اثنتى عشرة ساعة . ثم طرح الرئيس المسألة للتصويت ، فلما لم يسمع جواباً أن السكوت علامة الرضى (٢٥ سبتمبر) . وعاد ما بقى من أرض بولنده محمية روسية ؛ وأعيد دستور ١٧٧٥ .

وإذا كان فى استطاعة رجل واحد أن يفتدى الأمة فذلك هو كوتشيوسكو أمده التشارتورسكيون بالمال فذهب إلى باريس (يناير ١٧٩٣) والتمس معونة فرنسا لبلد يتعاطف فى حرارة مع الثورة الفرنسية . وتعهد بأنه لومدت فرنسا يد المعونة لبولنده لهب الفلاحون البولنديون فى ثورة على القنية ، وأهل المدن على النبلاء ، وقال ان بونياتوفسكى سينزل عن عرشه ليكون النظام جمهورياً ، وإن جيشاً بولندياً سيساند فرنسا فى حربها مع بروسيا[٥١] .

ورحب الزعماء الفرنسيون بمقترحاته ، ولكن نشوب الحرب مع انجلتره (فبراير ١٧٩٣) وغزو الحلفاء لفرنسا ، قضيا على كل أمل فى تقديم العون لبولنده .

وفى غياب كوتشيوسكو جند بعض المواطنين والماسون الأحرار وضباط الجيش جيشاًبولندياً جديداً (مارس ١٧٩٤) . وهرع كوتشيوسكو من درسدن إلى كركاو لينضم إليه ، فعين قائداً أعلى وأعطى سلطات مطلقة ، وأمر كل خمس بيوت فى بولنده أن توافيه بجندى من المشاه ، وكل خمسين بفارس ، وأمر هؤلاء المجندين بأن يأتوا بما يجمعونه من سلاح ، حتى المعاول والمناجل . وفى ٤ أبريل هاجم بأربعة آلاف مقاتل نظامى وألفى فلاح مجند قوة عدتها سبعة آلاف روسى فى راتسلا فيس قرب كراكاو ، وهزمها بفضل براعة قيادته من جهة وفاعلية مناجل الفلاحين من جهة أخرى .

فلما سمع فريق الراد يكاليين أو « اليعقوبيون » فى وارسو بهذا النصر نظم رجاله عصياً مسلحاً انضم إليه الزعماء من الطبقة الوسطى فى تردد . وفى ١٧ أبريل هاجم هؤلاء الثوار الحامية الروسية المؤلفة من ٧,٥٠٠ مقاتل ، وقتلوا الكثيرين منهم ، وهزموا فرقة بروسية من ١٦٥٠ جندى ، وهربت قوات الاحتلال ، وخضعت وارسو لحظة للسيطرة البولندية . وحررت انتفاضة كهذه مدينة فلنو (٢٣ أبريل) وشنقت هتمان (زعيم) لتوانيا الأكبر ، واستردت أجزاء من بولنده حتى منسك تقريباً . وفى ٧ مايو وعد كوتشوسكو الإقنان بعتقهم ، وكفل لهم تملك الأرض التى يزرعونها . وانضوى تحت لوائه خلق كثير من المتطوعين والمجندين حتى اجتمع له فى يونيو ١٧٩٤ (١٥٠,٠٠٠) رجل لم يكن منهم حسن التجهيز أكثر من ٨٠,٠٠٠ .

على هؤلاء تدفقت الموجات المتتالية من الجنود الروسية أو البروسية المدربة . وفى ٦ يونيو فاجأ جيش متحالف من ٢٦,٠٠٠ مقاتل البولنديين قرب تشيكوسيني ، ولم يتح لكوتشيوسكو من الوقت إلا ما يجلب فيه ١٤,٠٠٠

مقاتل فقط . فهزم بخسائر فادحة ،والتمس الموت فى المعركة ، ولكن الموت راغ منه ؛ وتقهقرت فلول البولنديين إلى وارسو . وفى ١٥ يونيو استولى البروسيون على كراكاو ؛ وفى ١١ أغسطس استعاد الروس فلنو ؛ وفى ١٩ سبتمبر أبادت قوة روسية من ١٢,٥٠٠ من الجنود المتمرسين بالقتال بقيادة سوفوروف جيشاً بولندياً من ٥,٥٠٠ مقاتل عند تريسابول ؛ وفى ١٠ أكتوبر هزم ١٣,٠٠٠ روسى كوتشيوسكو نفسه وهو يقود ٧,٠٠٠ بولندى عند ما سيسجويس ، وجرح جرحاً خطيراً وأسر . ولم يفه كما زعمت الأسطورة بصرخة اليأس « لقد قضى على بولنده ! » ولكن الهزيمة كانت قاضية على الثورة الباسلة .

أما سوفوروف فقد وحد مختلف الجيوش الروسية واقتحم معسكر البولنديين الحصين فى براجا ، وراح جنوده الذين أصابهم جنون المعركة يذبحون لا المدافعين فقط بل سكان البلدة المدنيين . وسلم يونياتوفسكى وارسو تفادياً لمذبحة أشد بشاعة . وأرسل سرفوروف كوتشيوسكو وغيره من زعماء الثوار إلى حيث السجن فى سانت بطرسبرج ، وأرسل الملك إلى جرودنو ليكون رهن إشارة الإمبراطورة . وهناك ، فى ٢٥ نوفمبر ١٧٩٥ ، وقع على اعتزاله الملك . وتوسل إلى كاترين أن تبقى على جزء من بولنده ، ولكنها صممت على أن تحل المسألة البولندية بالقضاء على الأمة البولندية كما ظنت . وبعد خمسة عشر شهراً من النزاع ، وقعت روسيا وبروسيا والنمسا معاهدة التقسيم الثالث (٢٦ يناير ١٧٩٧) واستولت روسيا على كورلاند ولتوانيا وغربى بودوليا وفولينيا — ١٨١,٠٠٠ ميل مربع ؛ واستولت النمسا على « بولنده الصغيرة » بما فيها كراكاو ولودلن — ٤٥,٠٠٠ ميل مربع ؛ وأخذت بروسيا الباقى بما فيه وارسوا — ٥٧,٠٠٠ ميل مربع . وفى التقسيمات الثلاثة كلها استوعبت روسيا نحو ٦,٠٠٠,٠٠٠ من سكان بولنده البالغين ١٢,٢٠٠,٠٠٠ نسمه (١٧٩٧) ، والنمسا ٣,٧٠٠,٠٠٠ ، وبروسيا ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة .

وفر آلاف البولنديين من وطنهم ، وتسلم الأجانب الأملاك المصادرة . وظل بونياتوفسكي فى جرودنو ، يتسلى بدراسة النبات ويكتب مذكراته . وبعد موت كاترين دعاه بولس الأول إلى سانت بطرسبرج وخصص له القصر الرخامى و ١٠٠,٠٠٠ دوقاتيه فى العام ، وهناك مات فى ١٢ فبراير ١٧٩٨ بعد أن بلغ السادسة والستين . أما كوتشيوسكو فقد أفرج عنه الامبراطور بولس فى ١٧٩٦ ، وعاد إلى أمريكا ، ثم إلى فرنسا ، وواصل جهوده لتحرير بولنده حتى مماته (١٨١٧) . وأما يوزف بونياتوفسكي فقد فر إلى فيينا ، وشارك فى حملة نابليون على روسيا ، وجرح فى سمولنسك ، وأحسن البلاء فى ليبزج ، ورقى مارشالا فى الجيش الفرنسى ، ومات فى ١٨١٣ مكرماً حتى من أعدائه . وأما بولنده فلم تعد دولة ، ولكنها ظلت شعباً وحضارة ، يلوثها الاضطهاد الدينى ، ولكنها تميزت بعظماء الشعراء والقصاصين والموسيقيين والفنانين والعلماء ، ولم تتخل قط عن عزمها على النهوض من جديد .

الكتاب الخامس

الشمال البروتستنتي

الفصل العشرون

ألمانيا فى عهد فردريك

١٧٥٦ – ١٧٨٦

١ – فردريك المظفر

من هذا الغول الذى أثار الخوف والإعجاب دولياً ، والذى سرق سيليزيا ، وهزم نصف أوربا المتحد ضده ، وهزأ بالدين ، وازدرى الزواج ، وأعطى فولتير دروساً فى الفلسفة ، واقتطع بعض أوصال بولنده ولو ليمنع روسيا من التهامها كلها ؟

لقد بدأ أقرب إلى الأشباح منه إلى الغيلان يوم عاد حزيناً منتصراً من حرب السنين السبع ودخل برلين (٣٠ مارس ١٧٦٣) بين تصفيق الجماهير المملقة . كتب إلى دارجنس يقول « إنى أعود إلى مدينة لن أعرف فيها غير الأسوار ، ولن أجد أحداً من معارفى ، حيث تنتظرنى مهمة ضخمة ، وحيث أخلف بعد زمن غير طويل عظامى فى مثوى لاتكدر هدوءه الحرب ولا الكوارث ولا سفالة الإنسان »[1] كانت بشرته قد جفت وتغضنت ، وعيناه الزرقاوان الرماديتان داكنتين منتفختين ، ووجهه يحمل آثار المعركة والمرارة ، وأنفه فقط هو الذى احتفظ بجلاله القديم . وقد ظن أنه لن يستطيع الحياة طويلا بعد أن استنزفت الحرب الطويلة موارده جسداً وعقلا وإرادة ، ولكن زهده مد فى أجله ثلاثة وعشرين عاماً أخر . كان مقلا فى طعامه وشرابه ، لايعرف الترف ؛ يعيش ويلبس فى قصره الجديد ببوتسدام كما لو كان فى المعسكر ، وكان يضن بالوقت المخصص للعناية بشخصه ؛ وفى سنيه الأخير أقلع عن الحلاقة ، واكتفى بجز لحيته بمقص بين الحين والحين ؛ ورددت الشائعات أنه لم يكن يستحم كثيراً[2] .

وأكملت الحرب تقسى خلقه الذى بدأ دفاعاً ضد قسوة أبيه . فكان يتطلع بهدوء رواقى بينما الجنود المحكوم عليهم يمرون ستا وثلاثين مرة[٣] بين صفين من الرجال يجلدونهم . وكان يتعقب موظفيه وقواده ويزعجهم بالجواسيس السريين ، والتدخل المفاجىء ، واللغة البذيئة ، والأجر الشحيح ، وبضروب من الأوامر التفصيلية تخنق روح المبادرة والاهتمام . ولم يكسب قط حب أخيه الأمير هنرى الذى جد وأخلص فى خدمته فى الدبلوماسية والحرب . وكان له بعض الصديقات ، ولكنهن كن يخفنه أكثر مما يحببنه ، ولم يسمح لواحدة منهن بدخول دائرة اخصائه . كان يحترم المعاناة الصامتة التى عانتها ملكته التى أهملها ، وعند عودته من الحرب فاجأها بهدية من ٢٥,٠٠٠ طالر ؛ ولكن من المشكوك فيه أنه شاركها فراشها إطلاقاً . ومع ذلك تعلمت أن تحبه إذ رأته بطلا فى المحن مخلصاً فى الحكم ؛ وكانت تشير إليه فى حديثها عنه بعبارة « ملكنا العزيز » و « هذا الملك العزيز الذى أحبه وأعبده »[٤] . ولم يكن له ولد ، ولكنه كان شديد التعلق بكلابه ، وكان اثنان منها ينامان عادة فى حجرته ليلا ، ربما لحراسته ؛ وكان أحياناً يستصحب أحدهما إلى فراشه ليدفئه بحرارة الحيوان . وعندما مات آخر كلابه الكثيره لديه « بكى اليوم كله »[٥] . وقد ظن به اللواط[٦] . ولكنا لا نملك فى هذه الشبهة غير التخمين .

وعلى أنه كان يخفى تحت جلده العسكرى الصلب عناصر من الحنان نبدر أن كشف عنها أمام الناس . فقد بكى كثيراً لموت أمه ، وكان يرد على محبة أخته فلهلمينه الحارة بمحبة مخلصة . وقد وزع على بنات أخيه بعض الأفضال الصغيرة غير الملحوظة . كان يضحك من عواطف روسو المفرطة ، ولكنه اغتفر له عداءه وعرض عليه الملجأ حين نبذه العالم المسيحى . وكان يتنقل بين التدريب الصارم لجنوده وصفير الألحان من نايه . وقد ألف الصوناتات والكونشرتوات والسمفونيات التى شارك فى أدائها أمام حاشيته . وسمعه العالم بيرنى هناك ؛ وقرر أنه عزف « بضبط شديد ، واستهلال صاف منسق ، ولعب بالأصابع بديع ، وذوق نقى بسيط ، ودقة بالغة فى التنفيذ ، إتقان

متساو فى كل معزوفاته » ، على أن بيرنى يضيف إلى ما ذكر أنه فى بعض الفقرات الصعبة ، . . . اضطر جلالته — على عكس ما تقتضيه القواعد — أن يلتقط نفسه ليكمل الفقرة[٧] (*) .

وفى سنوات لاحقة أكرهه ازدياد النهج وفقدان عدة أسنان على الإقلاع عن العزف على الناى ، ولكنه استأنف دراسة الكلافير .

وكانت الفلسفة هوايته المحببة بعد الموسيقى . كان يحب أن يشاركه مائدته فيلسوف أو اثنان ليسلخ جلد القساوسة ويستفز قواد الجيش . وكان ثابت القدم كفؤاً لفولتير فى رسائله معه . وقد بقى على شكوكيته فى حين اعتنق معظم جماعة الفلاسفة العقائد الجازمة والخيالات الشاطحة . وكان أول حاكم فى العصور الحديثة يجهر بلادينيته ، ولكنه لم يهاجم الدين علناً . وذهب إلى أن « لدينا من درجات الأرجحيه ما يكفى لبلوغ اليقين بأن « لاشىء بعد الموت»[٩] ، ولكنه رفض حتمية دولباخ وأكد (كرجل هو الإرادة المتجسدة) أن العقل يؤثر على الأحاسيس على نحو خلاق ، وان فى استطاعة العقل أن يسيطر على دوافعنا الفطرية بالتعليم[١٠] أما أحب الفلاسفة إليه فهم (صديق لوكريتيوس . . . وامبراطورى الطيب ماركوس أوريليوس »؟ وعنده أن أحداً لم يضف إليهما شيئاً ذا بال [١١] .

وقد اتفق مع فولتير على الاعتقاد بأن « الجماهير » تسرف فى إنسالها وتفرط فى كدها بحيث لايتسع لها الوقت للتعليم الحقيقى . ولن يجدى تبصيرها بأوهام اللاهوت إلا فى دفعها إلى العنف السياسى . وهو يقول فى هذا « إن التنوير نور من السماء للواقفين على القمم ، وجمرة مدمرة للجماهير »[١٢] ،

(*) فى ١٨٨٩ نشر برايتكويف وهرتل ١٢٠ قطعة موسيقية من تأليف فردريك الأكبر . وقد سجل عدد منها على أقراص . وقد أحييت سنفونيته فى مقام D لناينن وأوركسترا فى برلين عام ١٩٢٨ وفى نيورك عام ١٩٢٩ .[٨]

وقد أجمل قوله هذا تاريخ مذابح سبتمبر ١٧٩٢ وإرهاب ١٧٩٣ قبل أن تبدأ الثورة الفرنسية . وكتب إلى فولتير فى أبريل ١٧٥٩ يقول « فلنعترف بهذه الحقيقة : إن الفلسفة والفنون والآداب لاتنتشر إلا بين قلة من الناس ، أما الجماهير العريضة ... فتظل كما جبلتها الطبيعة ،حيوانات شريرة حاقدة»[١٣] وكان يسمى النوع الإنسانى (فى شيء من المزاح) . « هذا الجنس الملعون » — ويضحك من أحلام الخير والسلام يقول :

« إن الخرافة والنفعية والانتقام والخيانة ونكران الجميل سوف تثير المعارك الدامية المحزنة إلى آخر الدهر ، لأننا محكومون بالعواطف ، ونادراً جداً بالعقل.ولن تنقطع أبداً الحروب وقضايا المحاكم ومظاهر الدمار والأوبئة والزلازل والتفاليس . . . وما دام الأمر كذلك ، فى ظنى أن هذا الوضع ضرورة لابد منها . . . ولكن يلوح لى أنه لو كان هذا الكون قد فطره كائن خير لخلقنا أسعد مما نحن . . . إن العقل البشرى ضعيف ، وأكثر من ثلاثة أرباع البشر خلقوا ليخضعوا لأسخف ضروب التعصب . فالخوف من الشيطان والجحيم يبهر عيونهم ، وهم يكرهون الرجل الحكيم الذى يحاول تنويرهم . . . وعبثاً ألتمس فيهم صورة الله التى يؤكد اللاهوتيون أنهم يحملونها . إن فى داخل كل إنسان وحشاً ، وقليلون هم الذين يستطيعون ترويضه ، وأكثر الناس يرخون له اللجام ما لم يكبحهم الخوف من القانون »[١٤] .

وقد خلص فردريك إلى أن السماح للحكومات بأن تتسلط عليها الأغلبية مجلبة للكوارث . فلكى تحيا الديمقراطية يجب أن تكون — كغيرها من نظم الحكم — أقلية تقنع الأغلبية بأن تسمح لنفسها بأن تقودها الأقلية . وقد رأى فردريك رأى نابليون فيما بعد من أن « الارستقراطية موجودة دائماً بين الأمم وفى الثورات»[١٥] وآمن بأن الارستقراطية الوراثية تربى الإحساس بالشرف والولاء ، والرغبة فى خدمة الدولة بتضحية شخصية بالغة ، لا يمكن توقعها من نوابع البورجوازيين الذين نشأوا بفضل التسابق على الثروة .

لذلك أحل بعد الحرب شباب النبلاء محل معظم ضباط الطبقة الوسطى الذين ترقوا فى الجيش[١٦] . ولكن بما أن هؤلاء النبلاء المعتزين بعراقتهم قد يصبحون مصدراً للتفتت والفوضى ، وأداة للاستغلال ، إذن فلابد من أن يحمى ملك مطلق السلطة الدولة من الانقسام ، ويدفع الظلم الطبقى عن عامة الشعب .

وكان فردريك يحب أن يصور نفسه خادما للدولة والشعب . وربما كان هذا تبريراً لإرداة القوة فيه ، ولكنه تسامى بحياته إلى مستوى دعواه . فأضحت الدولة عنده « الكائن الأعلى » الذى يبذل فى سبيله نفسه وغيره ؛ ومطالب خدمة الدولة تغلب عنده على ناموس الفضيلة الفردية ؛ فالوصايا العشر تتوقف عند أبواب الملوك . ووافقته جميع الحكومات على هذه « السياسة الواقعية » ، وقبل بعض الملوك النظرة إلى الملكية على أنها خدمة مقدسة . وقد اعتنق فردريك هذا المفهوم من اتصاله بفولتير ؛ ومن طريق الصاقهم بفردريك طور الفلاسفة ونظريتهم « الملكية » ومؤداها أن الأمل الأكبر فى الإصلاح والتقدم معقود على تنوير الملوك .

وهكذا أصبح برغم حروبه معبود الفلاسفة الفرنسيين ، وهدأ من عدائهم له ، حتى عداء روسو الفاضل . وقد رفض د الامبير طويلا دعوات فردريك له ، ولكنه لم يكف عن الثناء عليه . فكتب لفردريك يقول « إن الفلاسفة والأدباء فى كل بلد طالما تطلعوا إليك يا مولاى قائداً ومثالا لهم »[١٧] وأخيراً أذعن الرياضى المتحفظ للدعوات المتكررة ، وأنفق شهرين مع فردريك فى بوتسدام عام ١٧٦٣ . ولم تنتقص الألفة (والمعاش الذى أجراه عليه) من إعجاب دالامبير به . فقد أبهجه اغفال الملك لقواعد التشريفات ، وأطربته تعليقاته — لا على الحرب والحكومة فحسب ، بل على الأدب والفلسفة أيضاً ، وقال لجولى دلسبيناس إن هذا الحديث كان أروع من أى حديث يتاح للمرء سماعه آنئذ فى فرنسا[١٨] . فلما ابتأس دالامبير فى ١٧٧٦ حزنا على موت جولى ، بعث إليه فردريك برسالة تظهر هذا الغول فى ثوب الرجل الحكيم الحنون :

« يؤسفنى الخطب الذى ألم بك . . . إن جراح القلب أكثر الجراح إيلاماً . . . ولا شيء يبرئها غير الزمن . . . إن لى لسوء طالعى حظاً وفيراً جداً من الخبرة بالآلام التى تحدثها خسائر كهذه . وخير دواء هو سيطرة المرء على نفسه ليصرف تفكيره بعيداً . . . وخليق بك أن تختار بحثاً هندسياً يتطلب العكوف الدائم عليه . . . إن شيشرون أغرق نفسه فى التأليف ليتعزى عن موت حبيبته تليا . . . وفى مثل سنك وسنى خليق بنا أن نكون أكثر استعداداً للسلوى لأن لحاقنا بمن فجعنا فيهم لن يطول »[١٩] .

ثم حث دالامبير على أن يحضر ثانية إلى بوتسدام « سوف نفلسف معاً تفاهة الحياة . . . وبطلان الرواقية . . . وسوف أشعر بالسعادة فى تهدئة حزنك كأننى انتصرت فى معركة . » هنا على الأقل ملك أحب الفلاسفة ، ان لم يكن ملكاً فيلسوفاً بكل معنى الكلمة .

ولكن هذه المعاملة لم يعد يطبقها على فولتير ، ذلك أن خلافاتهما فى برلين وبوتسدام ، والقبض على فولتير فى فرانكفورت — كل هذا ترك جراحاً أعمق من الحزن . وبقى الفيلسوف يعانى الألم والمرارة أطول مما بقى الملك . فأخبر الأمير دلبن أن فردريك « لا قدرة له على عرفان الجميل ، ولم يعترف قط بجميل إلا للجواد الذى هرب على ظهره فى معركة مولفتس »[٢٠]. ثم عاد تبادل الرسائل بين ألمع رجلين فى القرن حين كتب فولتير إلى فردريك محاولا أن يثنى المحارب اليائس عن الانتحار . وراحا يتبادلان العتاب والمجاملات . وذكر فولتير فردريك بالإهانات التى لقيها الفيلسوف وابنة أخته من عمال الملك ، وأجاب فردريك : « لولا صلتك برجل فتن حباً بعبقريتك الرائعة لما أفلت بهذه السهولة . . . فاعتبر الأمر كله منتهياً ، ولا تذكر لى شيئاً بعد اليوم عن ابنة أختك تلك المتعبة »[٢١]. ولكن الملك رغم هذا لاطف الذات المفلسفة على نحو ساحر :

« أتريد كلاماً حلواً ؟ حسناً جداً ، سأخبرك ببعض الحقائق . إننى أقدر فيك أروع عبقرية ولدتها الأجيال ، إننى أعجب بشعرك ، وأحب نثرك . . . ولم يؤت كاتب قبلك مثل هذه اللمسة المرهفة ، ولا مثل هذا

الذوق الأصيل الرقيق . . . إنك ساحر فى حديثك ، تعرف كيف ترفه وتعلم فى وقت واحد . إنك أكثر المخلوقات التى عرفتها إغواء . . . كل شىء فى حياة الإنسان يتوقف على الزمان الذى يجىء فيه إلى هذا العالم . وأنا وإن جئت متأخراً جداً ، إلا أننى لست بآسف على هذا ، لأننى رأيت فولتير ، . . . ولأنه يكتب لى »[٢٢] .

وأعان الملك بتبرعاته السخية حملات فولتير دفاعاً عن أسرتى كالاس وسيرفان ، وصفق للحرب التى شنها على الكنيسة الكاثوليكية (L,infeme) ، ولكنه لم يشارك جماعة الفلاسفة ثقتهم فى تنوير النوع الإنسانى . فقد تنبأ بفوز الخرافة فى السباق بينها وبين العقل . فتراه يكتب إلى فولتير فى ١٣ سبتمبر ١٧٦٦ يقول :

« إن مبشريك سيفتحون أعين قلة من الشباب . . . ولكن ما أكثر الحمقى الذين لايعقلون فى هذا العالم ! . . صدقنى ، لو أن الفلاسفة أقاموا حكومة فلن يمضى نصف قرن حتى يخلق الشعب خرافات جديدة . . . قد يتغير موضوع العبادة ، كما تتغير الأزياء فى فرنسا ؛ (ولكن) ما أهمية أن يسجد الناس أمام قطعة من الفطير ، وأمام العجل أبيس ، أو أمام تابوت العهد ، أو أمام تمثال من التماثيل ؟ لايهم الاختيار ، فالخرافة واحدة ، والعقل لايكسب شيئاً »[٢٣] .

على أن فردريك تصالح مع الدين بعد أن قبله ضرورة بشرية ، فحمى كل صوره السلمية بمنتهى التسامح . ففى سيليزيا التى غزاها ترك الكاثوليكية هادئة دون إزعاج ، فيما عدا فتحه أبواب جامعة برلين لجميع المذاهب ، وكانت من قبل وقفاً على الكاثوليك . . ثم رحب باليسوعيين بصفتهم معلمين ذوى قيمة كبرى ، وكانوا بعد أن طردهم الملوك الكاثوليك قد التمسوا ملجأ تحت حكمه اللاأدرى . وبالمثل بسط حمايته على المسلمين واليهود والملحدين ؛ وفى عهده وفى مملكته مارس كانط حرية الكلام والتعليم والكتابة ، وهى الحرية التى لقيت أشد تعنيف وقضى عليها بعد موت فردريك . وفى ظل هذا التسامح اضمحلت معظم صور الدين فى بروسيا . ففى ١٧٨٠ كان هناك

كنسى واحد لكل ألف من سكان برلين ، وفى ميونخ ثلاثون[٢٤] . وقد ذهب فردريك إلى أن التسامح سيقضى على الكاثوليكية عاجلا . كتب إلى فولتير فى ١٧٦٧ يقول «لابد من حدوث معجزة لكى تعود الكنيسة الكاثوليكية إلى سابق عزها ، فلقد أصيبت بسكتة دماغية خطيرة ، وسوف يمد فى أجلك لتتعزى بدفنها وكتابة قبريتها»[٢٥] . ولكن أشد الشكاك غلواً فى شكوكيته نسى لحظة أن يشك فى الشكوكية .

٢ — اعادة بناء بروسيا

لم يكد حاكم فى التاريخ فى صناعة الحكم كما كد فردريك ، ربما باستثناء تلميذه جوزيف الثانى إمبراطور النمسا ، كان يأخذ نفسه كما يأخذ جنوده بالتدريب الشاق ، فيستيقظ عادة فى الخامسة ، وأحياناً فى الرابعة ، ويشتغل حتى السابعة ، ثم يفطر ، ويجتمع بمساعديه حتى الحادية عشرة ، ويستعرض حرس قصره ، ويتناول الغذاء فى النصف بعد الثانية عشرة مع الوزراء والسفراء ، ثم يعمل حتى الخامسة ، وعندها فقط يسترخى بالموسيقى والأدب الحديث . أما عشاء «نصف الليل» بعد الحرب ، فكان يبدأ فى التاسعة والنصف ، وينتهى فى الثانية عشرة ، ولم يسمح لأى روابط أسرية بأن تصرفه عما هو عاكف عليه ، ولا لأى مراسم بلاطية بأن تثقله ، ولا لأى عطلات دينية بأن تقطع عليه كده ، وكان يراقب عمل وزرائه ، ويملى كل خطوة تقريباً من خطوات السياسة ، ويرقب حالة الخزانة ، وقد أنشأ فوق الحكومة كلها ديواناً للمحاسبات ، خول له سلطة فحص أى مصلحة فى أى وقت . وأصدر إليه تعليماته بأن يبلغ عن أى شبهة مخالفة . وكان يعنف فى معاقبة الانحراف أو عدم الكفاية عنفاً اختفى معه من بروسيا أو كاد ذلك الفساد الحكومى الذى استشرى فى كل بلد آخر من بلدان أوربا .

وكان يعتز بهذا العمل ، وبسرعة إفاقة وطنه مما حاق به من دمار . بدأ بألوان من الاقتصاد فى بيته أثارت السخرية من بلاطى النمسا وفرنسا المسرفين رغم أنهما بلدان مهزومان . فكان بيت الملك يدار باقتصاد شديد كأنه بيت حرفى . فصوان ملابسه لا يحوى غير حلة جندى ، وثلاثة معاطف قديمة ، وصدريات

متسخة بالنشوق ، ورداء رسمي لازمه طوال حياته . وقد طرد بطانة أبيه من الصيادين وكلاب الصيد ، لأن هذا المحارب آثر الشعر على الصيد . ولم يبن أسطولا ، ولم يسع إلى تملك المستعمرات . وكان موظفوه يتقاضون أجوراً زهيدة ، وقد أنفق بمثل هذا البخل على البلاط المتواضع الذى احتفظ به فى برلين حينما هو مقيم فى بوتسدام . ومع ذلك فقد حكم إيرل تشستر فيلد عليه بأنه أكثر بلاط فى أوربا أدباً وتألقاً ونفعاً لشاب أن يوجد فيه ،» ثم أردف قائلا : « سترى فنون الحكم وحكمته فى ذلك البلد الآن (١٧٥٢) خيراً مما تراها فى أى بلد آخر فى أوربا »[٢٦] . على أنه بعد عشرين سنة من هذا التاريخ كتب اللورد ما لمسبرى ، السفير البريطانى لدى بروسيا ، ربما لتعزية لندن ، يقول إنه « ليس فى تلك العاصمة (برلين) رجل فاضل واحد ولا امرأة عفيفة واحدة »[٢٧] .

على أن فردريك كان يكبح شحه إذا اتصل الأمر بالدفاع القومى . فسرعان ما أعاد جيشه إلى سابق قوته بفضل الإقناع والتجنيد الإجبارى ؛ فهذا السلاح الذى فى متناوله هو وحده الذى يتيح له صيانة وحدة أراضى بروسيا أمام أطماع جوزيف الثانى وكاترين الثانية . وكان على ذلك الجيش كذلك أن يدعم القوانين التى هيأت النظام والاستقرار للحياة البروسية . وقد أحس أن القوة المركزية هى البديل الوحيد للقوة المختلة الممزقة توضع فى أيدى الأفراد . وكان يؤمل أن تتطور الطاعة بدافع الخوف من القوة ، إلى طاعة بدافع الاعتياد على القانون — وهى قوة اختزلت إلى قواعد وأخفت براثنها .

وقد جدد أمره للفقهاء بأن ينسقوا فى نظام قانونى واحد (قانون بروس عام) التشريع المتنوع المتناقض للكثير من الأقاليم والأجيال . وكانت هــذه المهمة قد توقفت بموت صموئيل فون كوكسيجى (١٧٥٥) وبنشوب الحرب ، فاستأنفها الآن المستشار يوهان فون كارمر وعضو المجلس الخاص ك. ج. سفاريتس ، واستكملت فى ١٧٩١ . وقد سلم القانون الجديد بوجود الإقطاعية والقنية ، ولكنه حاول فى

هذه الحدود أن يحمى الفرد من الطغيان أو الظلم الخاص أو العام . فألغى المحاكم التى لاضرورة لها . وقلل من الإجراءات القانونية وعجلها ، وخفف العقوبات ، وصعب الشروط اللازمة للتعيين فى وظائف القضاء . وتقرر ألا ينفذ حكم بالإعدام إلا بتصديق الملك ، وفتح للجميع باب الاستئناف أمام الملك . وقد اكتسب سمعة العدالة المحايدة ، وسرعان ما اعترف الجميع للمحاكم البروسية بأنها أنزه وأكفأ المحاكم فى أوربا[٢٨] .

وفى ١٧٦٣ أصدر فردريك النظام التعليمى العام ليثبت ويوسع التعليم الإلزامى الذى أعلنه أبوه فى ١٧١٦ — ١٧ . فتقرر أن يذهب كل طفل فى بروسيا من سن الخامسة إلى الرابعة عشرة إلى المدرسة . ومن صفات فردريك المميزة إسقاط اللاتينية من منهج التعليم الأولى ، وتعيينه قدامى الجند معلمين ، وجعله معظم التعليم يجرى بتدريب أشبه بالتدريب العسكرى[٢٩] . وقد أضاف الملك : « من الخير أن يعلم المدرسون فى الريف الأحداث الدين والأخلاق . . . وحسب أهل الريف أن يتعلموا القليل من القراءة والكتابة . . . ولا بد من تخطيط التعليم . . . بحيث يبقى عليهم فى القرى ولا يؤثر عليهم ليهجروها»[٣٠] .

وحظى تجديد البناء الاقتصادى بالأولوية فى الوقت والمال . فبدأ فردريك باستخدام المال الذى جمع من قبل لحملة حربية أخرى — زالت الحاجة إليها الآن — فى تمويل تعمير المدن والقرى وتوزيع الطعام على المجتمعات الجائعة ، وتقديم البذور للزراعات الجديدة ؛ ثم وزع على المزارع ستين ألف حصان أمكن توفيرها من الجيش . وبلغت جملة المبالغ التى أنفقت على أعمال الإغاثة العامة ٢٠,٣٨٩,٠٠٠ طالر[٣١] . وأعفيت سيليزيا التى اجتاحتها الحرب من الضرائب ستة أشهر ؛ وبنى فيها ثمانية آلاف بيت فى ثلاث سنين ، وقدم مصرف عقارى المال للفلاحين السيليزيين بشروط ميسرة . وأسست جمعيات للتسليف فى مراكز شتى لتشجيع التوسع الزراعى . وصرفت مياه منطقة المستنقعات الممتدة على الأودر الأدنى ، فهيأت أرضاً صالحة للزراعة لخمسين ألف رجل . وبعث المندوبون إلى الخارج لدعوة مهاجرين إلى بروسيا ، فجاء منهم ٣٠٠,٠٠٠[٣٢] .

ولما كانت القنية تربط الفلاح بسيده ، فإنه لم توجد فى بروسيا حرية الانتقال إلى المدن ، تلك الحرية التى يسرت فى انجلترة تطور الصناعة السريع . وقد جهد فردريك بكل الوسائل للتغلب على هذا المعوق . فأقرض الملتزمين المال بشروط ميسرة ، وأجاز الاحتكارات المؤقتة ، واستورد العمال ، وفتح مدارس الصنائع ، وأنشأ مصنعاً للبرسلان فى برلين . وناضل لينشىء صناعة الحرير ، ولكن أشجار التوت ذبلت فى برد الشمال . وشجع التعدين النشيط فى سيليزيا الغنية بالمعادن . وفى ٥ سبتمبر ١٧٧٧ كتب إلى فولتير كما يكتب أحد رجال الأعمال لزميل له يقول : «اننى عائد من سيليزيا راضياً عنها الرضى كله . . . فقد بعنا للأجانب ما قيمته ٥,٠٠٠,٠٠٠ كراون من التيل ، و ١,٢٠٠,٠٠٠ كراون من القماش . . . وقد أمكن اكتشاف طريقة لتحويل الحديد إلى صلب أبسط كثيراً من طريقة ريومور»[٣٣]

وتسهيلا للتجارة ألغى فردريك المكوس الداخلية ووسع الموانئ ، وحفر القنوات وشق ثلاثين ألف ميل من الطرق الجديدة . أما التجارة الخارجية فقد عاقتها الرسوم المرتفعة على الواردات والحظر المفروض على تصدير السلع الاستراتيجية ؛ واقتضت الفوضى الدولية حماية الصناعة الوطنية لضمان الاكتفاء الصناعى فى الحرب . ورغم ذلك نمت برلين قلباً للتجارة وللحكومة : ففى ١٧٢١ كانت تضم من السكان ٦٠,٠٠٠ ، وفى ١٧٧٧ زادوا إلى ١٤٠,٠٠٠[٣٤] . لقد كانت تتهيأ لتصبح عاصمة لألمانيا .

ولكى يمول فردريك هذا المزيج من الإقطاعية ، والرأسمالية ، والاشتراكية ، والأوتقراطية ، اقتضى شعبه من الضرائب قدراً يقرب بما رد عليهم من نظام اجتماعى وإعانات مالية وأشغال عامة . واحتفظ للدولة باحتكار الملح والسكر والتبغ والبن (بعد ١٧٨١) ، وامتلك ثلث الأرض الصالحة للزراعة[٣٥] . وفرض الضرائب على كل شىء ، حتى على المغنين الجائلين واستقدم هلفتيوس ليخطط له نظاماً محكماً فى جمع الضرائب . وكتب

سفير انجليزى يقول : «ان مشروعات الضرائب الجديدة نفرت الشعب حقاً من ملكهم»[٣٦] . وقد ترك فردريك عند موته فى خزانة الدولة ٥١,٠٠٠,٠٠٠ طالر — وهو ما يعادل إيراد الدولة السنوى مرتين ونصفا .

وفى ١٧٨٨ نشر ميرابو (الابن) بعد زيارات ثلاث لبرلين تحليلا مدمراً عنوانه «فى النظام الملكى البروسى تحت حكم فردريك الأكبر» . وكان قد ورث عن أبيه مبادىء الفزيوقراطين التى تنادى بالمشروعات الحرة ، لذلك أدان نظام فردريك باعتباره دولة بوليسية ، وبيرقراطية تخنق كل روح للمبادرة وتعدو على كل حرية شخصية . وكان فى وسع فردريك أن يرد على هذه التهم بأنه لو انتهج سياسة «عدم التدخل Laissez Faire» فى حالة الفوضى التى ضربت أطنابها فى بروسيا عقب حرب السنين السبع لأفسدت عليه هذه السياسة انتصاره بما تجر من فوضى اقتصادية . لقد كان التوجيه أمراً حتمياً ، وكان هو الرجل الوحيد الذى يستطيع القيادة الفعالة ، وهو لايعرف شكلا من أشكال القيادة غير قيادة القائد الحربى لجنوده . لقد أنقذ بروسيا من الهزيمة والانهيار ، ودفع الثمن بفقدانه حب شعبه له ؛ وقد فطن إلى هذه النتيجة ، وعزى نفسه بمبررات أخلاقية :

«إن البشر يتحركون إذا حثثتهم على الحركة . ويقفون إذا كففت عن دفعهم . . . والناس مقلون فى القراءة ، زاهدون فى أن يتعلموا كيف يمكن التصرف فى أى شىء بطرق مختلفة . أما أنا ، أنا الذى لم أصنع بهم قط غير الخير ، فهم يظنون أننى أريد أن أضع سكيناً على حلوقهم بمجرد أن يلوح احتمال إدخال أى تحسين مفيد ، لا بل أى تغيير على الإطلاق . فى مثل هذه الحالات اعتمدت على شرف هدفى وسلامة ضميرى ، وعلى المعلومات التى أملكها ، ثم مضيت فى طريقى هادئاً»[٣٧] .

وقد انتصرت إرادته . فازدادت بروسيا حتى فى حياته غنى وقوة . وتضاعف عدد سكانها ، وانتشر فيها التعليم ، وأخفى التعصب الدينى رأسه . صحيح أن هذا النظام الجديد اعتمد على الاستبداد المستنير ، وأن هذا الاستبداد

بقى بغير الاستنارة بعد أن مات فردريك ، وأن الهيكل القومى اعتراه الضعف وانهار فى فيينا أمام إرادة تعادل إرادة فردريك قوة وجبروتا . ولكن الصرح النابليونى أيضاً ، الذى اعتمد على إرادة رجل واحد وتفكيره ، انهار هو أيضاً ، وفى خاتمة المطاف كان بسمارك ، وريث فردريك والمستفيد البعيد فى تركته ، هو الذى عاقب فرنسا التى سيطر عليها وريث نابليون ، وهو الذى جعل من بروسيا وعشرات الإمارات دولة موحدة قوية هى ألمانيا .

٣ — الإمارات

لنذكر أنفسنا من جديد بأن ألمانيا لم تكن فى القرن الثانى عشر أمة بل اتحاداً مفككاً من دول مستقلة تقريباً ، قبلت صورياً الإمبراطور « الرومانى المقدس » فى فيينا رأساً لها ، وأوفدت ممثلين لها بين الحين والحين إلى ديت إمبراطورى (رايشستاج) ، أهم وظائفه الاستماع إلى الخطب ، واحتمال عبء المراسم ، وانتخاب إمبراطور جديد . وكان للدول لغة وآداب وفنون مشتركة ، ولكنها تباينت فى العادات والزى والعملة والعقيدة . وكان فى هذا التفتت السياسى بعض الفوائد : فتعدد بلاطات الأمراء كان مواتياً لتنوع الثقافات تنوعاً مشجعاً ؛ وكانت الجيوش صغيرة بدلا من أن تكون متحدة فتصبح مصدر إرهاب لأوربا ؛ ثم إن سهولة الهجرة فرضت على الدولة والكنيسة والشعب قسطاً كبيراً من التسامح فى الدين والعادات والقانون . وكانت سلطة كل أمير مطلقة من الناحية النظرية ، لأن المذهب البروتستنتى كرس « حق الملوك الإلهى » . أما فردريك ، الذى لم يقر بأى حق إلهى غير حق جيشه ، فقد سخر من « معظم الأمراء الصغار ، لا سيما الألمان منهم » الذين « يدمرون أنفسهم بالإشراف السفيه إذ يضللهم الوهم بعظمتهم المتصورة ، فأصغر ابن لأصغر ابن لأسرة مقطعة يخيل إليه أنه من طراز لويس الرابع عشر ، فيبنى فرسايه ، ويقتنى الخليلات ، ويحتفظ بجيش . . . له من القوة ما يكفى لخوض . . . معركة على مسرح فيرونا »[٣٨] .

وكانت أهم هذه الإمارات سكسونيا . وقد دالت دولة فنها ومجدها يوم تحالف أميرها الناخب فردريك أوغسطس الثانى مع ماريا تريزا ضد فردريك الأكبر ، فقصف الملك القاسى درسدن ودمرها عام ١٧٦٠ وفر الناخب إلى بولنده بصفته ملكها أوغسطس الثالث ، ثم مات فى ١٧٦٣ . وورث حفيده فردريك أوغسطس الثالث الإمارة الناخبة وهو فى الثالثة عشرة ، واكتسب لقب (العادل) ، وحول سكسونيا إلى مملكة (١٨٠٦) ، واحتفظ طوال تقلبات كثيرة بعرشه إلى أن مات (١٨٢٧) .

ويدخل كارل أويجن ، دوق فورتمبرج ، قصتنا فى المقام الأول باعتباره صديقاً ثم عدوا لشيلر . وقد فرض الضرائب على رعاياه ببراعة لاينضب معينها ، وباع عشرة آلاف من جنوده لفرنسا ، واحتفظ ببلاط كان فى رأى كازانوفا « ألمع بلاط فى أوربا »[٣٩] ، حوى مسرحاً فرنسياً ، وأوبرا إيطاليه ، وسلسلة من المحظيات . ويعنينا أكثر منه فى قصتنا كارل أوجسط ، دوق ساكسى — فايمار الحاكم من ١٧٧٥ إلى ١٨٢٨ ؛ ولكننا سنراه فى مظهر أكثر بهاء وهو محاط بنجوم أناروا سماء ملكه — فيلاند ، وهردر ، وجوته ، وشيلر . وكان واحداً من فريق « المستبدين المستنيرين » الصغار الذين ساهموا فى هذا العصر فى نهضة ألمانيا حين شعروا بتأثير فولتير وبالمثال الذى ضربه فردريك . ونهج نهج هؤلاء رؤساء الأساقفة الذين حكموا مونستر وكولون وترير وماينز وفورتزبورج — بامبرج باستكثارهم من المدارس والمستشفيات ، وحدهم من إسراف البلاط ، وتخفيفهم من الفوارق الطبقية ، وإصلاحهم السجون ، وتقديمهم الإعانات للفقراء ، وتحسينهم أحوال الصناعة والتجارة . كتب أدموند بيرك يقول « ليس من السهل أن نجد أو نتصور حكومات أكثر اعتدالا وتسامحاً من هذه الإمارات الكنسية »[٤١] .

على أن الفوارق الطبقية كانت تؤكد فى أكثر الدول الألمانية باعتبارها جزءاً من أسلوب الضبط الاجتماعى . فكان النبلاء والاكليروس وضباط الجيش وأرباب المهن والتجار والفلاحون يؤلفون طبقات منفصلة ؛ وداخل كل فئة من هؤلاء درجات ومراتب صلبت كل منها ذاتها باحتقار المرتبة

الأدنى منها . وكان زواج الفرد خارج طبقته أمراً مستحيلا تقريباً ، ولكن بعض التجار والماليين اشتروا النبالة . واحتكر النبلاء المناصب العليا فى الجيش والحكومة ، وقد اكتسب كثيرون منهم امتيازاتهم ببسالتهم أو كفايتهم ولكن الكثيرين كانوا عالة على المجتمع ، لا يفضلون الحلل التى يرتدونها ، يتنافسون على المكان الاجتماعى المقدم فى البلاط ، ويتبعون الموضات الفرنسية فى اللغة والفلسفة والخليلات .

ومما يذكر بالفخر لأمراء ألمانيا الغربية وأساقفتها ونبلائها أنه لم يحل عام ١٧٨٠ حتى كانوا قد أعتقوا فلاحيهم الأقنان ، وبشروط يسرت الانتشار الواسع للرخاء فى الريف . وقد ذهب رانيهولد لنتس إلى أن الفلاحين مخلوقات أفضل — أكثر بساطة وودأ وفطرية — من التجار الذين يحصون الدراهم أو شباب النبلاء الذين يختالون كبرا[٤١] . وقد صورت سيرة هينريش يونج الذاتية (١٧٧٧) حياة القرية فى كدها اليومى وفى مهرجاناتها الموسمية فى صورة مثالية ؛ ووجد هردر أغانى الفلاحين الشعبية أصدق وأعمق من شعر الكتب ؛ ووصف جوته فى كتابه (الشعر والحقيقة) الاحتفال بموسم صنع الخمر بأنه « يغمر بالفرح إقليماً بأسره » من صواريخ وغناء ونبيذ[٤٢] . كان هذا جانباً من المشهد الألمانى ؛ أما الجانب الآخر فكان الجهد الشاق والضرائب المرتفعة والنساء يشخن فى الثلاثين والأطفال الأميين يرتدون الأسمال ويتسولون فى الشوارع . قالت إيفا كونيج لليسنج فى ١٧٧٠ « فى إحدى المحطات تزاحم حولى ... ثمانون شحاذاً ... وفى ميونخ جرت ورائى أسر بأكملها وأفرادها يصيحون بأننى بالتأكيد لن أتركهم يموتون جوعاً »[٤٣] .

لقد كانت الأسرة فى القرن الثامن عشر أهم من الدولة أو المدرسة . أو المدرسة . وكان البيت الألمانى المصدر والمركز للتهذيب الخلقى ، والنظام الاجتماعى ، والنشاط الاقتصادى . ففيه يتعلم الطفل أن يطيع أباً صارماً ، ويلوذ بأم محبة ، ويشارك فى سن مبكرة فى مختلف الواجبات البناءة التى تملأ فراغ اليوم . وقصيد شيلر « أغنية الجرس » تعطينا صورة مثالية ترى فيها « الزوجة الشديدة التواضع ... تحكم دائرة الأسرة بحكمة ، وتدرب

البنات ، وتكبح تهور الأولاد ، وتعكف فى كل لحظة من فراغها على نولها»(٤٤) . وكانت الزوجة خاضعة لزوجها ، ولكنها معبودة أبنائها . أما خارج البيت ، إلا فى قصور الأمراء ، فكان الرجال عادة يقصون النساء عن حياتهم الاجتماعية ، ومن ثم كان حديثهم ينحو إلى الأملال أو البذاءة . أما فى قصور الأمراء فكان هناك كثير من النساء المثقفات المهذبات السلوك . ويرى إكرمان أن بعضهن « يكتبن بأسلوب رائع ويفقن فى هذا كثيراً من أشهر مؤلفينا»(٤٥). وكان على نساء الطبقة العليا فى ألمانيا ، كما فى فرنسا ، أن يتعلمن الأغماء جزءاً من بضاعتهن ، والاستعداد لذرف الدموع دليلا على رقة شعورهن .

أما أخلاق البلاط فقد اقتدت بالمثل الفرنسية فى الشراب والقمار والفسق والطلاق . تقول مدام دستال إن النبيلات من النساء كن يبدلن أزواجهن « فى غير مشقة وكأنهن يرتبن أحداث تمثيلية » ، وكن يفعلن هذا « بقليل من مرارة النفس»(٤٦) . وضرب الأمراء المثل فى السلوك اللاأخلاقى ببيع جنودهم للحكام الأجانب ؛ وهكذا بنى حاكم هسى — كاسل قصراً أنيقاً ، وأنفق على بلاط مترف ، من حصيلة اتجاره فى جنوده . وبلغ مجموع ما باعه الأمراء الألمان — أو ما « أقرضوه » على حد تعبيرهم — خلال الثورة الأمريكية ثلاثين ألف جندى لانجلتره مقابل ٥٠٠,٠٠٠ جنيه ؛ ومن هؤلاء ١٢,٥٠٠ لم يعودوا قط(٤٧) . ولم يبد ألمان القرن الثامن عشر خارج بروسيا ميلا يذكر للحرب وهم يتذكرون أهوال القرن السابع عشر . ويبدو أن « الخلق القومى» يمكن أن يطرأ عليه التغيير من قرن لآخر .

وكان الدين فى ألمانيا أطوع للدولة منه فى الأقطار الكاثوليكية . كان منقسماً إلى ملل ونحل ، فحرم بذلك من حبر أعظم مرهوب ينسق عقيدته واستراتيجيته ودفاعه ؛ وكان قادة الدين يعينهم الأمير ، ودخل الدين يعتمد على مشيئته . وكان إيماناً قوياً فى الطبقتين الوسطى والدنيا ؛ ولم يتأثر بموجات الإلحاد التى تدفقت من انجلتره وفرنسا غير النبلاء والمفكرين وبعض الأكليروس . وكان إقليم الراين أكثره من الكاثوليك ، ولكن فى هذا الإقليم بعينه شهدت هذه الحقبة قيام حركة تتحدى سلطة البابوات فى جرأة .

وبيان ذلك أنه فى ١٧٦٣ نشر يوهان نيكولاوس فون هونتايم ، أسقف تريير المساعد ، متخفياً وراء اسم مستعار هو يوستينوس فبرونيوس ، رسالة باللاتينية فى « حالة الكنيسة ، وسلطة بابا روما الشرعية » وترجم الكتاب من اللاتينية إلى الألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، وأحدث ضجة فى جميع أرجاء غربى أوربا . وقد قبل « فبرونيوس » سيادة البابا ، ولكن على أنها سيادة شرف وإدارة تنفيذية ؛ فالبابا غير معصوم ، وينبغى أن يتاح استئناف قراراته أمام مجمع عام تكون له السلطة التشريعية النهائية فى الكنيسة . وكان المؤلف سيء الظن بالتأثير المحافظ المستور للبلاط البابوى (الكيوريا) ، — وألمع إلى أن التركيز المفرط للسلطة الكنسية تمخض عن حركة الإصلاح البروتستنتى ؛ وقد تيسر اللامركزية رجوع البروتستنت إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية . وفى مسائل القانون البشرى ، لا الإلهى ، يحق للأمر اءالعلمانيين أن يرفضوا طاعة البابوية ، ولهم — إن لزم الأمر — حق فصل كنائسهم القومية عن روما . وأدان البابا الكتاب (فبراير ١٧٦٤) ، ولكنه أصبح «كتاب صلاة للحكومات» (٤٨) وقد رأينا تأثيره على يوزف الثانى .

ومال رؤساء أساقفة كولون وترير وماينز وسالزبورج لآراء « فبرونيوس » ، فقد رغبوا فى الاستقلال عن البابا استقلال الإمارات الأخرى عن الامبراطور . وعليه فى ٢٥ سبتمبر ١٧٨٦ أصدروا « بيان إيمس التمهيدى» (قرب كوبلنتز) الذى كان خليقاً بأحداث حركة إصلاح بروتستنتى جديدة لو أخرج إلى حيز التنفيذ :

« إن البابا أعلى سلطة فى الكنيسة وسيظل أعلى سلطة فيها . . . ولكن الامتيازات (البابوية) التى لا تنحدر عن القرون المسيحية الأولى بل هى مبنية على المراسيم الإيزادورية الباطلة ، والتى تنتقص من قدر الأساقفة . . . لم يعد فى الإمكان أن تعد قانونية ، فهى تنتمى إلى اغتصابات الكيوريا الرومانية ؛ وللأساقفة الحق (مادامت الاحتجاجات السلمية لاتجدى) فى صيانة حقوقهم الشرعية تحت حماية الامبراطور الألمانى — الرومانى .

ويجب ألا يكون هناك بعد اليوم أى استئنافات (من الأساقفة) أمام روما . . وألا تتلقى الطرق (الدينية) أى توجيهات من رؤساء أجانب ، ولا أن تحضر مجامع عامة خارج ألمانيا . ويجب ألا ترسل أية تبرعات لروما . . . وألا تملأ روما الوظائف الكنسية الشاغرة ذات الدخول ، بل تملأ بانتخاب قانونى للمرشحين الوطنيين . . . وينبغى أن ينظم هذه الأمور وغيرها مجمع قومى ألمانى» (٤٩) .

ولم يؤيد الأساقفة الألمان هذا الإعلان خوفاً من قوة الكيوريا المالية ، ثم انهم ترددوا فى الاستعاضه عن سيادة روما النائية بسلطة الأمراء الألمان المباشرة والأصعب تفادياً . وهكذا انهارت الثورة الوليدة . وعدل هونتهايم عن أقواله (١٧٨٨) ، وسحب رؤساء الأساقفة بيانهم التمهيدى (١٧٨٩) ، وعادت الأمور كلها تسير سيرتها الأولى .

٤ — عصر التنوير الألمانى

ولكن ليس بكل معنى العبارة فالتعليم ، باستثناء الإمارات الكنسية ، كان قد انتقل من سيطرة الكنيسة إلى سيطرة الدولة . فأساتذة الجامعات تعينهم الحكومة وتدفع رواتبهم (فى تقتير مخجل) ، ولهم وضع الموظفين العموميين . ومع أن جميع المدرسين والطلاب كان يشترط عليهم الإقرار بأنهم يدينون بمذهب الأمير ، إلا أن الكليات الجامعية ، حتى سنة ١٧٨٩ ، كانت تتمتع بقدر متزايد من الحرية الأكاديمية . وحلت الألمانية محل اللاتينية لغة للتعليم . وكثرت المقررات الدراسية فى العلوم والفلسفة ، وتوسع فى تعريف الفلسفة (فى جامعة كونجزبرج على عهد كانط) بأنها «القدرة على التفكير ، وعلى البحث فى طبيعة الأشياء دون تغرضات أو مذهبية» (٥٠). وقد طلب كارل فون تسيدلتس وزير التربية المخلص فى عهد فردريك الأكبر ، إلى كانط أن يقترح طرقاً «لصد الطلاب فى الجامعات عن دراسات «أكل العيش» . وإفهامهم أن القليل الذى يتعلمونه من القانون ، لا بل اللاهوت والطب . سيكون أيسر استيعاباً وآمن تطبيقاً لو ملكوا ناصية المعرفة الفلسفية» (٥١) .

وقد حصل الكثير من فقراء الطلاب على معونة حكومية أو أهلية لمواصلة التعليم الجامعى ، وإنها لقصة مبهجة تلك التى روى فيها إكرامان كيف كان جيرانه الرحماء يمدون إليه يد المعونة فى كل خطوة من خطى تطوره (٥٢) . ولم يكن بين جماعة الطلاب تفرقة طبقية (٥٣) . فكل خريج يسمح له بأن يحاضر تحت رعاية الجامعة مقابل أى رسم يستطيع جمعه من المستمعين ، وقد بدأ كانط حياته المنهنية على هذا النحو ؛ وكانت منافسة المعلمين الجدد لقداماهم تحفز هؤلاء على أن يكونوا مستعدين فى كل لحظة . وقد حكمت مدام دستال على الجامعات الألمانية الأربع والعشرين بأنها « أرقى الجامعات علماً فى أوربا . فليس فى أى قطر ، ولا حتى فى انجلتره ، وسائل بهذه الكثرة للتعليم أو للارتقاء بقدرات الإنسان إلى الكمال . ه . ومنذ عصر الإصلاح البروتستنتى تفوقت الجامعات البروتستنتيه على الكاثوليكية تفوقاً لا جدال فيه ، ويرتكز مجد ألمانيا الأدبى وفخرها على هذه المعاهد »(٥٤) .

وانتشر الإصلاح التعليمى وشاع فى الجو . فأصدر يوهان بازدوا — مستلهماً قراءته لروسو — فى ١٧٧٤ كتاباً من أربعة مجلدات عنوانه « المبادىء » رسم مخططاً لتعليم الأطفال بطريق المعرفة المباشرة بالطبيعة ؛ فيجب أن يكتسبوا الصحة والعافية بالألعاب والتمرينات الرياضية ؛ وأن يتلقوا الكثير من تعليمهم فى الهواء الطلق بدلا من أن يلزموا مكاتبهم ؛ وأن يتعلموا اللغات لا بالأجرومية والصم بل بتسمية الأشياء والأفعال التى يصادفونها فى خبراتهم اليومية ؛ وأن يتعلموا الأخلاق بتأليف جماعاتهم وتنظيمها ؛ وأن يتهيأوا للحياة بتعلم حرفة ما . والدين يدخل فى المنهج لا بالصورة القديمة الغالبة ؛ وكان بازدو يتشكك فى عقيدة التثليث جهاراً (٥٥) وأنشأ فى دساو (١٧٧٤) معهداً خبرياً نموذجياً أخرج تلاميذ ، صدمت الكبار « وقاحتهم ، وسلاطتهم ، وسعة علمهم وخيالهم » (٥٦) ، ولكن هذا « التعليم التقدمى» ، كان متسقاً مع حركة التنوير ، فانتشر سريعاً فى طول ألمانيا وعرضها .

وكانت التجارب فى مضمار التعليم جزءاً من الاختمار الفكرى الذى

اضطربت به البلاد بين حرب السنين السبع والثورة الفرنسية . فكثرت الكتب والجرائد والمجلات والمكتبات المتنقلة وأندية القراءة كثرة ملؤها الحماسة . وانبثقت الحركات الأدبية العديدة ، ولكل منها أيديولوجيتها ومجلتها وقادتها . وكانت أول جريدة يومية ألمانية « داى لبتزج ذيتونج » قد بدأت عام ١٦٦٠ ، فلم يحل عام ١٧٨٤ حتى كان هناك ٢١٧ جريدة يومية وأسبوعية فى ألمانيا . وفى ١٧٥١ بدأ ليسنج يحرر القسم الأدبى من «فوسيك ديتونج » فى برلين ؛ وفى ١٧٧٢ أصدر ميرك وجوته وهردر « أنباء فرانكفورت الأدبية» ؛ وفى ١٧٧٣ — ٨٩ جعل فيلاند من «در تيوتش مركر» أكثر المجلات الأدبية فى ألمانيا نفوذاً . وكان هناك ثلاثة آلاف مؤلف ألمانى فى ١٧٧٣ ، وستة آلاف فى ١٧٨٧ ؛ وفى ليبزج وحدها ١٣٣ . وكثيرون منهم كانوا كتاباً يعملون بعض الوقت . وربما كان ليسنج أول ألمانى تعيش من الأدب سنين كثيرة . وكان جل المؤلفين فقراء ، لأن حق التأليف لم يحمهم إلا داخل إماراتهم ؛ واختزلت الطبعات المسروقة أرباح المؤلف والناشر على السواء اختزالا شديداً . وقد خسر جوته من كتابه جوتز فون برليشنجن وكان ربحه ضئيلا من قصته «آلام فرتر» ، وهى أعظم انتصار أدبى لذلك الجيل . ويعد تفجر الأدب الألمانى أحد الأحداث العظمى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . فحين كتب دالامبير من بوتسدام فى ١٧٦٣ لم يجد فى المطبوعات الألمانية شيئاً يستحق الذكر [٥٧] ؛ ولكن ما وافى عام ١٧٩٠ حتى كانت ألمانيا تنافس فرنسا بل ربما تبزها فى العبقرية الأدبية المعاصرة . وقد لاحظنا احتقار فردريك للغـة الألمانية لأنها جشاء غليظة تؤذيها الحروف الساكنة ؛ ومع ذلك فإن فردريك نفسه ، بهزيمته الرائعة لهذا العدد الكبير من أعدائه ، قد ألهم ألمانيا العزة القومية التى حفزت الكتاب الألمان على استعمال لغتهم والوقوف أنداداً لأمثال فولتير وروسو . فلم يحل عام ١٧٦٣ حتى كانت الألمانية قد هذبت نفسها وأضحت لغة أدبية مستعدة للتعبير عن حركة التنوير الألمانى .

ولم يـكن هذا التنوير وليـداً بتوليا . فهو الثمرة المؤلمة التى تمخضت عنها الربوبية الانجليزية مقترنة بالتفكير الحر الفرنسى

على أرض مهدتها عقلانية كريستان فون فولف المعتدلة . وكانت تفجرات الربوبية الكبرى التى فجرها تولاند وتندال وكولنز ووستن وولستن قد تمت ترجمتها إلى الألمانية قبيل عام ١٧٤٣ ، وما وافى عام ١٧٥٥ حتى كانت « رسائل » جريم تبث أحدث الأفكار الفرنسية بين الصفوة المثقفة من الألمان . وتوفر فى ١٧٥٦ من أحرار الفكر فى ألمانيا نفر أتاح اصدار « معجم لأحرار الفكر » . وفى ١٧٦٣ — ٦٤ أصدر بازدوف كتابه (محبة الصدق) الذى رفض أى وحى إلهى غير وحى الطبيعة ذاتها . وفى ١٧٥٩ بدأ كريستيان فريدرش نيقولاى ، وهو تاجر كتب برلينى ، « رسائل عن احدث ثمرات الأدب » ؛ وقد ظلت هذه الرسائل التى أثرتها مقالات بأقلام ليسنج وهردر وموسى مندلسون حتى عام ١٧٦٥ مناراً أدبياً لحركة التنوير يحارب التطرف فى الأدب والسلطة فى الدين .

وشاركت الماسونية فى الحركة فتأسس أول محفل للماسون بهمبورج فى ١٧٥٣ ، ووتلته محافل أخرى ؛ وكان من أعضائها فردريك الأكبر ، وفرديناند دوق برنزويك ، وكارل أوجست دوق ساكسى — فايمار ، وليسنج ، وفيلاند ، وهردر ، وكلوبشتوك ، وجوته ، وكلايست . وكانت هذه الجماعات بوجه عام تميل إلى الربوبية ، ولكنها تحاشت النقد العلمى للإيمان التقليدى . وفى ١٧٧٦ نظم آدم فايسهاويت ، أستاذ القانون الكنسى فى إنجولشتات ، جمعية سرية شقيقة ، سماها « برفكتيبيلستن » ، ولكنها اتخذت بعد ذلك الاسم القديم (المستنيرين) وقد اتبع مؤسسها ، وهو يسوعى سابق ، المنهج الذى جرت عليه جماعة اليسوعيين ، فقسم رفاقها إلى درجات من الاطلاع على أسرارها وأخذ عليهم العهد بطاعة قادتهم فى حملة « لتوحيد جميع الرجال القادرين على التفكير المستقل » ، ولجعل الإنسان « آية من آيات العقل ، فيبلغ بذلك أسمى درجات الكمال فى فن الحكم » .[٥٨] وفى ١٧٨٤ حظر كارل تيودور ، ناخب بافاريا ، جميع الجمعيات السرية ، فلقيت « طائفة المستنيرين » حتفها فى سن مبكرة .

وتأثر بحركة التنوير حتى الأكليروس . فطبق يوهان سملر أستاذ الفلسفة

فى هاله « النقد الأعلى » على الكتاب المقدس . فزعم (على العكس تماماً من الأسقف فاربورتن) أن العهد القديم لا يمكن أن يكون موحى به من الله ، لأنه — إلا فى مرحلته الأخيرة — تجاهل الخلود . وألمع إلى أن المسيحية قد حرفها عن تعاليم المسيح لاهوت القديس بولس الذى لم ير المسيح قط ؛ ثم نصح اللاهوتيين بأن ينظروا إلى المسيحية على أنها صورة عابرة من صور جهد الإنسان فى بلوغ حياة فاضلة . فلما رفض كارل بارت وغيره من تلاميذه العقيدة المسيحية بأكملها إلا الإيمان بالله ، عاد سملر إلى إيمانه السنى ، واحتفظ بكرسى اللاهوت من ١٧٥٢ إلى ١٧٩١ . ووصف بارت المسيح بأنه معلم عظيم فقط . « مثل موسى ، وكونفوشيوس ، وسقراط ، وسملر ، ولوثر ، ومثلى أنا » (٥٩) كذلك سوى يوهان إيبرهارت بين سقراط والمسيح ، وقد طرد من وظيفة القسوسية اللوثرية ، ولكن فردريك عينه أستاذاً للفلسفة فى هاله . وقسيس آخر يدعى ف . أ . تيلر اختزل المسيحية إلى الربوبية ، ودعا لعضوية كنيسته أى إنسان مؤمن بالله ، بما فى ذلك اليهود (٦٠) ، أما يوهان شولتز ، الراعى اللوثرى ، فقد أنكر لاهوت المسيح ، ولم ير فى الله أكثر من « الأساس الكافى للعالم » (٦١) ، وقد طرد من وظيفته فى ١٧٩٢ .

هؤلاء المهرطقون المفصحون عن هرطقاتهم كانوا قلة قليلة ؛ ولعل المهرطقين الصامتين كانوا كثيرين . أما وقد رحب هذا العدد الكبير من رجال الدين بالعقل ، وكان الدين فى ألمانيا أقوى كثيراً منه فى انجلترة أو فرنسا وكانت فلسفة فولف قد أمدت الجامعات بهذا التوفيق بين العقلانية والدين ، فإن التنوير الألمانى لم يتخذ صورة متطرفة . ولم يسع إلى تدمير الدين بل إلى تخليصه من الأساطير والسخافات وسلطان رجال الدين — وهى أمور جعلت الكاثوليكية فى فرنسا مبعث سرور عظيم للشعب وسخط شديد لجماعة الفلاسفة ، وقد فطن العقلانيون الألمان — وهم يتبعون روسو لا فولتير — إلى ما للدين من إغراء قوى للعناصر العاطفية فى الإنسان ؛ ثم إن النبلاء الألمان ، الأقل جهراً بارتيابيتهم من الفرنسيين ، ساندوا الدين معواناً للأخلاق والحكم . وجاءت الحركة الرومانتيكية فكبحت زحف العقلانية . ومنعت ليسنج من أن يكون لألمانيا ما كانه فولتير من قبل لفرنسا .

٥ — جوتهولت ليسنج

١٧٢٩ — ٨١

كان جده الأعلى عمدة لبلدة فى سكسونيا ، وظل جده أربعة وعشرين عاماً عمدة على كامينتس ، وكتب دفاعاً عن التسامح الدينى ؛ وكان أبوه الراعى اللوثرى الأول فى كامينتس ، وكتب دروساً فى تعليم العقيدة بالسؤال والجواب حفظها ليسنج عن ظهر قلب . أما أمه فكانت ابنة الواعظ الذى تقلد أبوه من قبل منصب الراعى لكنيسته . وكان تصرفاً طبيعياً منها أن تنذره للقسوسية ، وطبيعياً منه بعد أن أتخم بالتقوى أن يتمرد .

وكان تعليمه المبكر فى البيت وفى مدرسة ثانوية بمدينة مايسين مزيجاً من التأديب الألمانى والآداب الكلاسيكية ، ومن اللاهوت اللوثرى والكوميديا اللاتينية . يقول «كان تيوفراستوس ، وبلاوتوس ، وترينس ، عالمى الذى درسته بابتهاج» (٦٢) ، وحين بلغ السابعة عشرة بعث إلى ليبزج على منحة دراسية . فوجد المدينة أكثر إثارة للاهتمام من الجامعة ؛ وانغمس فى بعض حماقات الشباب ، وعشق المسرح ووقع فى غرام إحدى الممثلات ، وسمح له بالدخول وراء الكواليس ، وتعلم وسائل تقوية التأثير المسرحى . وفى التاسعة عشرة كتب تمثيلية ، ووفق فى جهوده فأخرجت . فلما سمعت الأم بنبأ هذه الخطيئة بكت ، واستدعاه الأب إلى البيت غاضباً . ولكنه سرى عنهما بابتساماته ، وأقنعهما بسداد ديونه . وحين وقعت أخته على قصائده وجدتها بذيئة إلى حد مذهل وأحرقتها ؛ فرمى ثلجاً فى صدرها ليخفف من حماستها . ثم أعيد إلى ليبزج ليدرس الفلسفة ويصبح أستاذاً ، ولكنه وجد الفلسفة قاتلة ، واقترض ديوناً عجز عن الوفاء بها ، ثم هرب إلى برلين (١٧٤٨) .

هناك عاش حياة الأديب الذى يلتقط رزقه يوماً بيوم — يراجع الكتب ، ويترجم ، ويشترك مع كريستلوب ميليوس فى تحرير مجلة مسرحية لم تعمر . وما إن بلغ التاسعة عشرة حتى أصبح مدمناً للتفكير الحر . فقرأ سبينوزا ووجده برغم هندسته لا يقاوم . وألف مسرحية (١٧٤٩) عنوانها

« الروح الحر » ، قابلت بين تيوفان القسيس الشاب اللطيف ، وآدراست الحر التفكير الخشن الصخاب الذى تغلب عليه إلى حد ما صفات الأوغاد . هنا انتصرت المسيحية فى الجدل . ولكن فى هذه الفترة أو حولها كتب ليسنج لأبيه يقول « ليس الإيمان المسيحى بالشىء الذى ينبغى للمرء أن يتقبله من أبويه بتسليم » [٦٣] وألف الآن تمثيلية أخرى (اليهود) ناقشت التزاوج بين المسيحيين واليهود . فهنا عبرانى غنى شريف لا اسم له إلا « المسافر » . ينقذ حياة نبيل مسيحى وابنته ، فيعرض النبيل عليه الزواج من ابنته مكافأة له ، ولكنه يعدل عن عرضه حين يميط اليهودى اللثام عن حقيقة جنسه ؛ ويوافق اليهودى على أن الزواج لو تم لكان غير سعيد . ولم يتعرف ليسنج إلى موسى مندلسون الذى رأى فيه تجسيداً للفضائل التى كان قد خلعها على « المسافر » إلا بعد خمس سنين (١٧٥٤) وذلك أثناء مباراة للشطرنج .

وفى بواكير عام ١٧٥١ كلف فولتير أو سكرتيره ليسنج بأن يترجم إلى الألمانية مادة أراد الفيلسوف المتغرب أن يستعملها فى دعوى رفعها على أبراهام هيرش ، وسمح السكرتير لليسنج أن يستعير جزءاً من مخطوط كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » . وفى تاريخ لاحق من تلك السنة ذهب ليسنج إلى فتنبرج وأخذ المخطوط معه . وخشى فولتير أن تستعمل هذه النسخة غير المصححة فى إصدار طبعة مسروقة ، فأرسل إلى ليسنج طلباً عاجلا بأسلوب مهذب لرد الأوراق . واستجاب ليسنج ، ولكنه أنكر النغمة المتعجلة ، وربما كان هذا سبباً فى تشويه خصومته التالية لأعمال فولتير وخلقه .

ونال ليسنج درجة الأستاذية من جامعة فتنبرج عام ١٧٥٢ . فلما عاد إلى برلين شارك فى دوريات شتى بمقالات اتسمت بكثير من التفكير الإيجابى والأسلوب اللاذع . فما حل عام ١٧٥٣ حتى كان قد اكتسب قراء بلغوا من الكثرة حداً يلتمس له معه العذر فى أن ينشر وهو فى الرابعة والعشرين طبعة جمعت كل أعماله فى ستة مجلدات . وقد اشتملت على تمثيلية جديدة اسمها « الآنسة سارة سامبسن » كانت من معالم تاريخ المسرح الألمانى . وكان

المسرح الألمانى إلى هذا التاريخ قد أخرج كوميديات وطنية ، ولكن ندر أن أخرج مأساة وطنية . لذلك ناشد ليسنج زملاءه كتاب التمثيليات أن يتحولوا عن النماذج الفرنسية إلى النماذج الانجليزية ويكتبوا مآسيهم هم . وامتدح ديدرو لدفاعه عن الكوميديا العاطفية ومأساة الطبقة الوسطى ، ولكن تمثيلية « الآنسة سامبسن » استوحاها من انجلتره — من « التاجر اللندنى» لجورج ليللو (١٧٣١) و «كلاريسا » لصموئيل رتشردسن (١٧٤٨) .

ومثلت المسرحية فى فرانكفورت — على — الأدور عام ١٧٥٥ ، ولقيت قبولا حسناً . وقد احتوت كل عناصر الدراما ؛ بدأت بإغواء ، واختتمت بانتحار ، ووصلتهما بنهر من الدموع . والوغد مليفوسنت (الحلو المظهر) هو افلايس فى قصة رتشردسن ؛ تمرس بسلب الفتيات بكارتهن ، ولكنه يستنكر الزواج بواحدة ؛ يعد سارة بالزواج — ويهرب معها ، ويعاشرها معاشرة الأزواج ، ثم يسوف فى الزواج ؛ وتحاول خليلة سابقة له أن تسترده ، وتخفق . فتدس السم لسارة ، ويصل أبو سارة ، مستعداً لأن يغفر كل شيء ويقبل ميلفونت صهراً له ، ولكنه يجد ابنته تحتضر أما ملفونت فينتحر مخالفاً بذلك طبيعته ، وكأنه يطبق ملاحظة ليسنج الساخرة : إن الأبطال فى المآسى لايموتون من شيء إلا من الفصل الخامس (٦٤) .

وخيل إليه أن فى استطاعته الآن أن يرتزق من الكتابة للمسرح ، ولما لم يكن فى برلين مسارح فإنه رحل إلى ليبزج (١٧٥٥) ثم اندلعت حرب السنين السبع . فأقفل المسرح ، وكسدت سوق الكتب ، وبات ليسنج مفلساً . فعاد إلى برلين ، وشارك فى مجلة نيقولاى « رسائل عن أحدث ثمرات الأدب » بمقالات سجلت قمة جديدة فى النقد الأدبى الألمانى . تقول رسالته التاسعة عشرة « إن القواعد هى ما يشاء أساتذة الفن مراعاته » وفى ١٧٦٠ غزا الجيش النمساوى الروسى برلين . ففر ليسنج إلى برزلاو حيث عمل سكرتيراً لقائد بروسى . وخلال السنين الخمس التى أقامها هناك اختلف إلى الحانات ، وقامر ، ودرس سبينوزا ، وآباء المسيحية القدامى ، وفنكلمان ، وكتب « لا وكون » . ثم عاد إلى برلين فى ١٧٦٥ . وفى ١٧٦٦ دفع بأشهر كتبه إلى المطبعة .

وهذا الكتاب « لاوكون ، أوعلى التخوم بين التصوير والشعر » استلهم حافزه المباشر من كتاب فنكلمان « أفكار عن محاكاة الآثار الإغريقية فى التصوير والنحت »(١٧٥٥) . وبعد أن كتب ليسنج نصف مخطوطه وصله كتاب فنكلمان « تاريخ الفن القديم » (١٧٦٤) ، فقطع بحثه وكتب يقول ، « لقد ظهر كتاب الهر فنكلمان فى تاريخ الفن . ولن أجرؤ على التقدم خطوة أخرى قبل أن أقرأ هذا الكتاب » [٦٥] واتخذ نقطة انطلاقة من مفهوم فنكلمان عن الفن الإغريقى الكلاسيكى متمثلا فى الوقار الهادىء والفخامة المطمئنة ، ووافق على زعم فنكلمان أن مجموعة تماثيل اللاوكون المحفوظة بقاعة الفاتيكان للفنون احتفظت بهذه الصفات رغم الألم القتال (اشتبه لاوكون ، كاهن أبوللو فى طروادة ، فى أن هناك يونانيين يختبئون فى « حصان طروادة » ، فقذفه برمح ، ولكن الإلهة أثينا المحابية لليونان أقنعت بوسيدن أن يطلع من البحر ثعبانين ضخمين التفا حول الكاهن وولديه التفافاً قاتلا) . وقد ظن فنكلمان أن مجموعة لاوكون — التى تعد الآن عملا من أعمال نحاتين رودسيين فى القرن الأخير قبل المسيح — تنتمى إلى عصر فيدياس الكلاسيكى .

أما لماذا خلع فنكلمان ، الذى شاهد هذا الأثر ودرسه صفة الجلال المطمئن على ملامح الكاهن المشوهة فذلك سر غامض . وقد قبل ليسنج الوصف لأنه لم ير التمثال قط [٦٦] . ووافق على أن المثال خفف من تعبير الألم ؛ ثم راح يتساءل عن سبب هذا الانضباط الفنى ، وأراد استنباطه من قيود الفن التشكيلى الأصيلة الصحيحة .

ثم تمثل بقول الشاعر الإغريقى سيمونيدس إن « التصوير شعر صامت ، والشعر تصوير بليغ » [٦٧] . وأضاف أن الإثنين مع ذلك يجب أن يلزما حدودهما الطبيعية : فالتصوير والنحت ينبغى أن يصفا الأشياء فى المكان ، لا أن يحاولا قص قصة ، أما الشعر فينبغى أن يروى أحداثاً فى الزمان ، لا أن يحاول وصف أشياء فى المكان . وينبغى أن يترك الوصف المفصل للفنون التشكيلية ، فإذا ورد فى الشعر ، كما فى «فصول» طومسن أو «ألب» هالر ، قطع السرد وشوش الأحداث . « ومعارضة هذا الذوق الفاسد

ومناقضة هذه الآراء التى لا أساس لها ، هوو الهدف الرئيسى للملاحظات التالية »[٦٨] . ولكن سرعان ما نسى ليسنج هذا الهدف ، وتاه فى نقاش مستفيض لكتاب فنكلمان فى تاريخ الفن . هنا كانت تعوزه الخبرة والكفاية ، وكان لتمجيده الجمال المثالى باعتبارة هدف الفن أثر معطل على التصوير الألمانى . ثم إنه خلط بين التصوير والنحت ، وطبق عليهما جميعاً المعايير الخاصة بالنحت فى المقام الأول ، وبهذا شجع شكلية أنطون رفائيل منجز الجامدة . بيد أن أثره على الشعر الألمانى كان بركة ؛ فقد حرره من الأوصاف المسهبة ، والنزعة الوعظية المدرسية ، والتفصيل الممل ، وأرشده إلى الحركة والشعور . وقد أقر جوته شاكراً بالتأثير المحرر لكتاب ليسنج « لاوكون » .

ووجد ليسنج نفسه أكثر تمكناً من عمله حين انتقل (ابريل ١٧٦٧) إلى همبورج كاتباً وناقداً مسرحياً براتب قدره ثمانمائة طالر فى العام . وهناك أخرج تمثيليته الجديدة . « منا فون بارنهيلم » . وبطل التمثيلية — الميجر تلهايم — العائد من الحرب بأكاليل الغار إلى أملاكه يظفر بخطبة منا الحسناء الغنية . غير أن الحظ الذى قلب له ظهر المجن ، والدسائس المعادية التى لاحقته ، يهويان به إلى درك الفقر ، فينسحب من الخطبة لأنه لم يعد الزوج الصالح لوريثة ثروة ضخمة . ويختفى ، ولكنها تطارده وتتوسل إليه أن يتزوجها ، فيرفض . وإذ تدرك السبب تدبر خدعة تبيت بها معدمة ولكن فى صورة جذابة ؛ ويعرض الميجر الآن نفسه زوجاً لها ويدخل رسولان فجأة يعلنان كل من ناحيته أن منا وتلهايم قد استردا ثروتهما . ويبتهج الجميع ، وحتى الخدم يدفعون على عجل إلى الزواج . والحوار مرح ، والشخوص بعيدة التصديق ، والحبكة منافية العقل — ولكن كل الحبكات تقريباً منافية للعقل .

وفى اليوم الذى شهد افتتاح المسرح القومى بهمبورج (٢٢ أبريل ١٧٦٧) أصدر ليسنج نشرة قدم بها لمقالاته فى نظرية الدراما وقد علقت هذه المقالات دورياً ، طوال العامين التاليين ، على التمثيليات التى أخرجت فى ألمانيا ، وعلى نظرية الدراما فى أعمال الفلاسفة . وقد اتفق مع أرسطو على القول بأن الدراما أسمى أنواع الشعر ، وقبل فى تناقض مندفع القواعد التى وضعها أرسطو فى كتابه « فى الشعر » :

« لست أتردد فى الاعتراف . . . بأنى أعده معصوماً مثل « مبادىء » (٦٩) اقليدس (الذى لم يعد الآن معصوماً) . ومع ذلك توسل إلى مواطنيه أن يكفوا عن تبعيتهم لكورنيى وراسين وفولتير ، وأن يدرسوا فن الدراما كما هو معلن فى شكسبير (الذى تجاهل قواعد أرسطو) . وقال إنه يشعر ان فى الدراما الفرنسية اسرافاً فى الشكلية لايسمح بإحداث ذلك « التنفيس » أوتطهير العواطف الذى وجده أرسطو فى الدراما اليونانية ؛ وذهب إلى أن شكسبير قد حقق هذا التطهير على نحو أفضل فى الملك لير ، وعطيل ، وهاملت بحدة الحركة وقوة لغته وروعتها . وقد أكد ليسنج ضرورة توفر عنصر الاحتمال ، ناسياً منديل ديدمونه . فكاتب الدراما القدير يتجنب الاعتماد على المصادفات والتفاهات ، فيبنى بالتدريج كل شخص من شخوصه بحيث تصدر الأحداث بالضرورة عن طبيعة الأشخاص المعنيين . وقد وافق كتاب الدراما فى فترة حركة « شتورم أوند درانج (الاقتحام والجهاد) على اتخاذ شكسبير مثلا أعلى ، وحرروا الدراما الألمانية فى ابتهاج من الدراما الفرنسية . وألهمت الروح القومية التى تصاعدت بانتصارات فردريك وهزيمة فرنسا نداء ليسنج ودعمته ، وسيطر شكسبير على المسرح الألمانى قرابة قرن من الزمان .

غير أن تجربة همبورج انهارت لأن الممثلين تنازعوا فيما بينهم ولم يتفقوا إلا على الاستياء من مقالات ليسنج النقدية . فشكا فريدرش شرودر من أن « ليسنج لم يستطع قط أن يفرغ لمشاهدة عرض كامل للمسرحية ؛ فهو يخرج ويدخل ، أو يتحدث إلى معارفه ، أو يستسلم للتفكير ، ومن السمات التى تثير سروره العابر يكون صورة هى من نسج عقله ولا تمت إلى الواقع بسبب » (٧٠) وهذا الحكم المميز أجاد وصف حياة ليسنج وعقله المتمردين .

والآن هل يجدر بنا أن نقف به فى منتصف طريقه لنلقى عليه بنظرة ؟ كان ربعة ، منتصب القامة فى كبرياء ، قوياً لدنا بفضل التمرين الرياضى المنتظم ، مليح القسمات ، أزرق العينين فى دكنة ، بنى الشعر فاتحه محتفظاً بلونه هذا حتى مماته . وكان دافئاً فى صداقاته ، حاراً فى عداواته . لا يسعده شىء كالجدل ، فإذا اشتبك فيه أثخن الجراح بقلم حاد . كتب يقول « ليبدأ

الناقد بالبحث عن شخص يستطيع الاختلاف معه . وهكذا يلج موضوعاً ويوغل فيل شيئاً فشيئاً ، ثم يقفو الباقى هذه الخطوة نتيجة طبيعية لها ، وأنا أعترف صراحة بأنى أخترت أولا المؤلفين الفرنسيين لهذا الغرض ، لاسيما المسيو فولتير » (٧١) — وقد اقتضى هذا الاختيار قدراً كافياً من الشجاعة . وكان متحدثاً ذكياً ولكنه مندفع ، حاضر الجواب ، لديه عن كل شىء أفكار بلغت من الكثرة والقوة مبلغاً لم يتح له أن يضفى عليها النظام أو الاتساق أو الفعالية الكاملة . وكان يستمتع بالبحث عن الحقيقة أكثر من الوهم الخطر بأنه وجدها . ومن هنا جاءت أشهر ملاحظاته :

« ليست الحقيقة التى يملكها الرجل — أو يعتقد أنه يملكها — هى التى تجعل له قيمة ، بل الجهد المخلص الذى بذله للوصول إليها . لأنه ليس بامتلاك الحقيقة بل بالبحث يطور المرء تلك الطاقات التى فيها وحدها كماله المطرد النمو . فالتملك يجعل العقل راكداً كسولا متكبراً . ولو أن الله احتوى فى يمناه الحقيقة كلها ، ولم تحتو يسراه إلا الحافز الدائم الحركة نحو الحقيقة ، علماً بأنى سأخطىء دائماً أبدا — ثم قال لى « اختر ! » لأحنيت رأسى فى اتضاع أمام يسراه وقلت « أبتاه ، أعطنى هذا ! فالحقيقة الخالصة لك أنت وحدك »(٧٢) .

وبقيت له من تجربة همبورج الفاشلة صداقتان غاليتان ، إحداهما مع إليز رايماروس ، ابنة هرمان رايماروس أستاذ اللغات الشرقية فى أكاديمية همبورج ، التى جعلت من بيتها ملتقى لأرقى الجماعات ثقافة فى المدينة . وأنضم ليسنج إلى ندوتها ، واختلف إليها مندلسون وياكوبى أثناء وجودهما فى المدينة ، وسوف نرى الدور الحيوى الذى لعبته هذه الجماعة فى تاريخ ليسنج . أما الصداقة الثانية التى كانت أوثق حتى من هذه فصداقته لإيفا كونيج يقول ليسنج إن هذه السيدة التى كانت زوجاً لتاجر حرير وأما لأربعة أطفال « ذكية تفيض حيوية ، وهبت لباقة المرأة وكياستها » ، وأنها « كانت لا تزال محتفظة ببعض نضارة الشباب وفتنته »(٧٣)، وقد جمعت هى أيضاً

من حولها صالوناً من الأصدقاء المثقفين ، كان ليسنج يحتل مكان الصادرة منهم . فلما رحل زوجها إلى البندقية فى ١٧٩٩ قال لليسنج ، « إنى أترك أسرتى وديعة بين يديك » . ولم يكن هذا بالترتيب الحكيم ، لأن الكاتب المسرحى لم يكن له ما يملكه إلا العبقرية ، وكان مديناً بألف طالر . وفى أكتوبر من ذلك العام قبل دعوة من الأمير كارل فلهلم فرديناند حاكم برنزويك ليضطلع بأمانة مكتبة الدوقية فى فولفنبوتل ، التى تقلص سكانها إلى ستة آلاف نسمة منذ أن نقل دوقها الحاكم مقره إلى برنزويك (١٧٥٣) على سبعة أميال منها ، ولكن مجموعة كتبها ومخطوطاتها كانت فى رأى كازانوفا « ثالث أعظم مكتبة فى العالم » (٧٤) واتفق على أن ينقد ليسنج ستمائة طالر فى العالم ويخصص له مساعدان وخادم ، ويعطى سكناً مجانياً فى قصر الدوق القديم ؛ وفى مايو ١٧٧٠ استقر فى بيته الجديد .

غير أنه لم يكن أمين مكتبة ناجحاً ، ومع ذلك فقد أبهج رئيسه باكتشافه بين المخطوطات بحثاً مشهوراً مفقوداً بقلم بيرنجار الثورى (٩٩٨ — ١٠٨٨) يتشكك فيه فى عقيدة استحالة خبز القربان وخمرة إلى جسد المسيح ودمه . وقد افتقد فى حياته القاعدة ، التى عاشها الآن ، الكفاح والحافز اللذين وجدهما فى همبورج وبرلين . ثم إن انكبابه على قراءة الخطوط الرديئة فى الضوء الضعيف أضر عينيه وأصابه بنوبات من الصداع ، وبدأت صحته تتداعى . فعزى نفسه بكتابة مسرحية جديدة سماها « إميليا جالوتى » أفصحت عن الضيق بامتيازات الطبقة الارستقراطية وأخلاقها . فإميليا هذه ابنة جمهورى متحمس ، يشتهيها سيدهما أمير جواستاللا فيقتل خطيبها بأمره ، ثم يخطفها إلى قصره ؛ فيعثر عليها أبوها ، ويطعنها طعنات مميتة استجابة لإلحاحها ، ثم يستسلم لبلاط الأمير ويحكم عليه بالإعدام ، بينما الأمير سادر فى غيه لا يختلج إلا لحظة . وحرارة المسرحية وبلاغتها أنقذتا خاتمتها ، فأصبحت مأساة محببة على خشبة المسرح الألمانى ، وقد أرخ جوته بعرضها الأول (١٧٧٢) بعث الأدب الألمانى من رقدته . ورحب بعض النقاد بليسنج شكسبيراً ألمانياً .

وفى أبريل ١٧٧٥ ذهب ليسنج إلى إيطاليا مرافقاً ليوپولد أمير برنزويك ، وقضى ثمانية أشهر يستمتع بالحياة فى ميلان والبندقية وبولونيا ومودينا

وبارما وبياتشنتسا وبافيا وتورين وكورسيكا وروما ؛ وهناك قدم إلى البابا بيوس السادس ، وربما شاهد تمثال لاوكون متأخراً . وفى فبراير ١٧٧٦ كان قد عاد إلى فولفنبوتل . وفكر فى الاستقالة ، ولكنه أقنع بالبقاء فى منصبه بعلاوة قدرها مائتا طالر فوق راتبه ، وبمائة جنيه ذهبى فرنسى (لوى دور) فى العام بوصفه مستشاراً لمسرح مانهايم . وعرض الآن وهو فى السابعة والأربعين على الأرملة إيفا كونيج أن تصبح زوجاً له وأن تحضر بأولادها معها . فحضرت ، وتزوجا (٨ أكتوبر ١٧٧٦) . وظلا عاماً يتمتعان بحياة سعيدة هادئة . وفى عشية الميلاد من عام ١٧٧٧ ، ولدت طفلا مات فى الغد . وبعد ستة عشر يوماً ماتت الأم أيضاً ، وفقد ليسنج طعم الحياة .

ولكن الجدل حفظ عليه حياته . ففى أول مارس ١٧٦٨ ودع هرمان رايماروس الحياة مخلفاً لزوجته مخطوطاً ضخماً لم يجرؤ قط على طبعه . وقد مررنا فى غير هذا الموضع [٧٥] من الكتاب مرور الكرام بهذا « الدفاع عن المؤمنين العقلانيين » . وكان ليسنج قد اطلع على شطر من هذا المؤلف الممتاز ، فطلب إلى السيدة رايماروس أن تسمح له بنشر أجزاء منه ، فوافقت . وكان له بصفته أميناً للمكتبة سلطة نشر أى مخطوط فى المجموعة . فأودع مخطوط « الدفاع » فى المكتبة ، ثم نشر جزءاً منه فى ١٧٧٤ بعنوان « تسامح الربوبيين . . . بقلم كاتب مجهول » . فلم يثر أى ضجة . ولكن الراسخين فى الأمور الروحية أثارهم القسم الثانى فى مخطوط رايماروس الذى أصدره ليسنج فى ١٧٧٧ بعنوان « مزيد من بحوث الكاتب المجهول عن الوحى » . وقد زعم هذا القسم أنه لا يمكن لأى وحى موجه لشعب واحد أن يظفر بقبول جميع الناس فى عالم تتنوع أجناسه وأديانه هذا التنوع الكبير ، فالذين سمعوا إلى الآن بالكتاب المقدس ؛ اليهودى — المسيحى ، بعد ألف وسبعمائة سنة ، ليسو إلا أقلية من البشر ، وإذن فلا يمكن قبوله تنزيلا من الله للنوع الإنسانى . ثم نشر قطعة أخيرة من المخطوط بعنوان « أهداف المسيح وتلاميذه » (١٧٧٨) لم تصور المسيح ابناً لله بل صوفيا متحمساً شارك رأى بعض اليهود فى أن العالم المعروف يومها قد أشرف على نهايته ، وسيعقبه قيام

ملكوت الله على الأرض ؛ وقد فهمه الرسل على هذا النحو (فى زعم رايماروس)، لأنهم أملوا فى أن يبوءوا عروشاً فى هذا الملكوت القادم . فلما انهار الحلم بصرخة المسيح اليائسة على الصليب « إلهى إلهى لماذا تركتنى » — اخترع الرسل (كما ظن رايماروس) خرافة قيامته إخفاء لهزيمته ، وصوروه بصورة ديان العالم المكافىء المنتقم .

وهاجم اللاهوتيون الذين صدموا أجزاء « مخطوط فولفنبوتل » هذه فى نيف وثلاثين مقالا فى الصحف الألمانية. واتهم يوهان ملكيور جوتسى كبير رعاة همبورج ليسنج بأنه موافق سراً على مزاعم « الكاتب المجهول » ، وحض الكنيسة والدولة جميعاً على عقاب هذا المنافق . أما الخصوم الأكثر اعتدالا فقد وبخوا ليسنج على نشره بالألمانية المفهومة للقراء شكوكاً كان من الواجب الإفصاح عنها ، إن جاز الإفصاح إطلاقاً ، باللاتينية لفئة قليلة من القراء . ورد ليسنج فى إحدى عشرة نشرة (١٧٧٨) نافست « رسائل بسكال الإقليمية » فى تهكمها المرح — ونكتتها الذكية الفتاكة . يقول هينى « لم يسلم منه رأس ، وما أكثر الرءوس التى أطاح بها لمجرد العبث الخالص ، ثم دفعته شقاوته إلى رفعها علانية ليرى الناس أنها فارغة »(٧٦) . وقد ذكر ليسنج مهاجميه بأن حرية الحكم والنقاش عنصر حيوى فى برنامج حركة الإصلاح البروتستنتى ؛ ثم إن للشعب الحق فى كل المعرفة المتاحة له ، وإلا لكان بابا واحد من بابوات روما خيراً من مائة نبى بروتستنتى . وعلى أية حال فإن قيمة المسيحية (فى زعمه) ستبقى حتى لو كان الكتاب المقدس مجرد وثيقة بشرية وكانت معجزاته مجرد قصص خرافية ورعة أو أحداث طبيعية . وصادرت حكومة الدوق أجزاء مخطوط فولفنبوتل ومخطوط رايماروس ، وأمرت ليسنج بألا ينشر المزيد دون موافقة الرقيب البرنزويكى .

فلما ألزم ليسنج الصمت على منبره اتجه إلى خشبة المسرح فألف أروع تمثيلياته . وكان قد أعسر مرة أخرى إثر النفقات التى تحملها بسبب مرض زوجته وموتها ، فاقترض ثلاثمائة طالر من يهودى همبورجى ليوفر الوقت اللازم للفراغ من مسرحية « ناثان الحكيم » . وقد اختار

مكاناً لأحداثها مدينة أورشليم أبان الحملة الصليبية الرابعة . وأما ناثان هذا فتاجر يهودي ورع له زوجة وسبعة أبناء يذبحهم المسيحيون الذين أتلفت الحرب الطويلة أخلاقهم . وبعد ثلاثة أيام يأتيه راهب بطفلة مسيحية ماتت أمها لتوها ، وكان أبوها — الذي قتل فى المعركة مؤخراً — قد أنقذ ناثان من الموت فى مناسبات عديدة . ويسمى ناثان الطفلة ريكا ، ويربيها كأنها ابنته ، ولا يلقنها إلا التعاليم الدينية التي يجمع عليها اليهود والنصارى والمسلمون.

وبعد ثمانية عشر عاماً ، وبينما كان ناثان غائباً لقضاء بعض مصالحه ، احترق بيته ؛ وينقذ فارس شاب من فرسان المعبد ريكا ثم يختفى دون التعريف بشخصه ؟ وتحسبه ريكا ملاكاً معجزاً . ويبحث ناثان بعد عودته عن المنقذ ليكافئه ، فيسبه هذا لأنه يهودي . ولكن ناثان يقنعه بالمجيء لتقبل شكر ريكا وعرفانها . فيحضر ، ويقع فى غرامها وتبادله الحب ، ولكنه حين يعرف أنها مسيحية المولد ولم ترب كمسيحية يسائل نفسه ألا يلتزم بيمين الفروسية بتبليغ الأمر إلى بطريرك أورشليم . ثم يشرح مشكلته للبطريرك دون ذكر أسماء الأفراد ، ويحدس البطريرك أنهما ناثان وريكا ، فيقسم أنه قاتل ناثان لا محالة . ثم يرسل راهباً ليتجسس على اليهودي ، ولكنه هو الراهب ذاته الذي جاء بريكا إلى ناثان قبل ثمانية عشر عاماً ؛ وقد لحظ طوال هذه السنين حكمة التاجر المشربة بالعاطفة ، فيخبره بالخطر الذي يتهدد حياته ، ويحزنه ذلك الحقد الديني الذي يجعل الناس قتلة سفاكين للدماء إلى هذا الحد .

ثم يقع صلاح الدين ، حاكم القدس الآن ، فى ضائقة مالية . فيرسل فى طلب ناثان بأمل الاقتراض منه . فيحضر ناثان ، ويفطن إلى حاجة صلاح الدين ، فيعرض السلفة قبل أن تطلب منه . أما السلطان ، العليم بما اشتهر به ناثان من حكمة ، فيسأله أي الأديان الثلاثة أفضل فى رأيه . ويجيب ناثان بقصة حورها بحكمة من القصة التي رواها بوكاشيو ونسبها للمكي صادق اليهودي الاسكندري. تقول القصة إن خاتماً نفيساً كان يتوارثه جيل بعد جيل دليلا

على الوارث الشرعى لضيعة غنية . ولكن فى أحد هذه الأجيال يحب الأب أبناءه الثلاثة حباً يستوى حرارة وصدقاً ، فيأمر بصنع ثلاثة خواتم متشابهة ، ويعطى كل ابن خاتماً سراً ، وبعد موته يتنازع الأبناء على أى الخواتم هو الأصيل والحقيقى ، ثم يحتكمون إلى القضاء — حيث ظل الأمر معلقاً لم يفصل فيه إلى اليوم . فأما الأب المحب فهو الله ، وأما الخواتم الثلاثة فهى اليهودية والمسيحية والإسلام ، والتاريخ لم يفصل بعد فى أمر هذه الأديان وأيها هو شريعة الله الحقة . ويدخل ناثان تغييراً جديداً على القصة : فالخاتم الأصلى كان المفروض أنه يجعل لابسه إنساناً فاضلا ، ولكن بما أن أحداً من الابناء الثلاثة لايفضل غيره من الناس ، فمن المحتمل أن يكون الخاتم الأصلى قد فقد ، فكل خاتم — أى كل دين — حقيقى بقدر ما يجعل لابسه فاضلا . ويعجب صلاح الدين بجواب ناثان إعجاباً شديداً فيقوم ويعانقه — وعقب هذا الحديث الفلسفى يظهر مخطوط عربى يتبين منه أن فارس المعبد وريكا ولدان لأب واحد . فيحزنان لأنهما لايستطيعان الزواج ، ولكنهما يفرحان لأن فى استطاعتهما الآن أن يحب أحدهما الآخر كأخ وأخت ينالان بركة ناثان اليهودى وصلاح الدين المسلم ؟

أكان ناثان صورة صاغها على غرار موسى مندلسون ؟ هناك أوجه شبه بين الإثنين كما سنرى فى فصل لاحق ، ومن المحتمل ، برغم أوجه الخلاف الكثيرة ، أن ليسنج وجد فى صديقه الكثير مما ألهمه تلك الصورة المثالية لتاجر القدس . وربما رسم ليسنج اليهودى والمسلم بتعاطف أكثر مما رسم المسيحى مدفوعاً برغبته الشديدة فى التبشير بالتسامح ؛ ففارس المعبد فى أول لقاء مع ناثان فظ فى تعصب ، والبطريرك (أهو ذكرى ليسنج لجوتسى؟) لاينصف فى صورته هذه الأساقفة الرحماء المستنيرين الذين كانوا آنئذ يحكمون ترير وماينز وكولون . وأنكر جمهور ألمانيا المسيحى التمثيلية حين نشرت فى ١٧٧٩ لأنه رآها غير منصفة ؛ وانضم إلى هذا النقد العديد من أصدقاء ليسنج . فلم تصل تمثيلية « ناثان الحكيم » إلى خشبة المسرح إلا فى عام ١٧٨٣م فى الليلة الثالثة كان المسرح خالياً . وفى ١٨٠١ لقيت

نسخة معدلة أعدها شيلر وجوته قبولا حسناً فى فايمار ، وبعدها ظلت من التمثيليات المحببة فى المسارح الألمانية طوال قرن كامل .

وقبل أن يموت ليسنج بعام أصدر نداءه الأخير للتفاهم ، وصاغه فى عبارات دينية ، كأنما أزاد أن يلين جانب المقاومة ويقيم جسراً بين الأفكار القديمة والجديدة . وهذا المقال المسمى «تربية النوع الإنسانى» من بعض نواحيه يبرر الأفكار القديمة ؛ ثم ندرك أن الدفاع إنما هو دعوة لحركة التنوير . فالتاريخ بجملته يمكن أن ينظر إليه على أنه رؤيا مقدسة ، وتربية تدريجية للنوع الإنسانى . وكل دين عظيم كان مرحلة فى هذه الإنارة المتدرجة الخطوات ، فهو ليس كما افترض بعض الفرنسيين خدعة يخدع بها رجال الدين الأنانيون السذج من الناس ، إنما هو نظرية عالمية قصد بها تمدين البشرية ، وغرس الفضيلة والتهذيب والوحدة الاجتماعية . ففى إحدى مراحله (مرحلة العهد القديم) حاول الدين جعل الناس فضلاء بأن وعدهم بطيبات الدنيا فى عمر مديد ؛ وفى مرحلة أخرى (مرحلة العهد الجديد) حاول التغلب على التناقض المثبط للعزائم بين الفضيلة والنجاح فى هذه الدنيا بوعده بثواب الآخرة ؛ وفى كلتا الحالتين خوطب الناس على قدر فهمهم المحدود فى ذلك الوقت . وكل دين فيه نواة غالية من الحقيقة ، ربما كان الفضل فى تقبل الناس لها ذلك الغلاف من الخطأ الذى جعلها سائغة . فإذا كان اللاهوتيون قد أحاطوا المعتقدات الأساسية شيئاً فشيئاً بعقائد عسيرة الفهم ، كالخطيئة الأصلية والتثليث ، فإن هذه التعاليم أيضاً هى رموز للحقيقة وأدوات للتربية . فالله يمكن تصوره على أنه قوة واحدة لها وجوه ومعان كثيرة ؛ والخطيئة أصلية بمعنى أننا كلنا مولودون بنزوع لمقاومة الشرائع الأخلاقية والاجتماعية [٧٧] . ولكن المسيحية فوق الطبيعية ليست سوى خطوة فى تطور العقل البشرى ، وستأتى مرحلة أعلى حين يتعلم النوع الإنسانى أن يعقل ، وحين يصبح الناس من القوة ووضوح الرؤية بحيث يفعلون الصواب لأنهم يرونه صواباً ومعقولا ، لا طمعاً فى ثواب مادى أو سماوى . وقد بلغ بعض الأفراد تلك المرحلة ، وهى لم تتوفر للنوع الإنسانى إلى الآن ولكنها «آتية ، آتية لاريب فيها . . . زمان رسالة جديدة خالدة ! » [٧٨] وكما أن

الفرد المتوسط يلخص فى نموه التطور الفكرى والخلقى للنوع ، فكذلك يمر النوع فى بطء خلال التطور الفكرى والخلقى للفرد الأعلى . وإذا شئنا التعبير بطريقة فيثاغوريه ، قلنا ان كلا منا يولد من جديد ، ثم يولد من جديد ، حتى تكتمل تربيته — أى تكيفه مع العقل ٥

ترى ماذا كانت آراء ليسنج النهائية فى الدين ؟ لقد قبله معيناً هائلا للفضيلة ، ولكنه أنكره نسقاً من العقائد القطعية التى تفرض قبولها وإلا كانت الخطيئة والعقاب والعار الاجتماعى . وكان فكره عن الله أنه الروح الباطن للحقيقة ، المسبب للتطور والمتطور هو ذاته ؛ ورأى فى المسيح أكمل إنسان مثالى ، ولكنه ليس تجسيداً لهذا الإله إلا مجازاً ؛ وقد تطلع إلى زمن يختفى فيه اللاهوت كله من المسيحية ، فلا يبقى إلا مبدأ أخلاقى سام من العطف الصبور والأخوة العالمية . وفى مسودة خطاب إلى مندلسون صرح بالتزامه برأى سبنيوزا فى أن الجسم والعقل هما الظاهر والباطن لحقيقة واحدة ، وصفتان لجوهر واحد متطابق مع الله . وقال لياكوبى « ان المفاهيم التقليدية عن الإله لم يعد لها وجود عندى ، وانا لا أطيقها ، لا أطيقها كلها ! لا أعرف غير هذا »(٧٩) ؛ وفى ١٧٨٠ طلب إليه ياكوبى الذى زاره فى قولفنبوتل أن يساعده فى الرد على سبينوزا وتفنيد آرائه ، فصدمه جواب ليسنج : « ليس هناك فلسفة غير فلسفة سبينوزا . . . ولو خيرت فى أن أتسمى بإسم آخر لما عرفت غير إسمه »(٨٠) .

وقد ترك ليسنج وحيداً فى أخريات عمره بسبب هرطقاته وضراوته أحياناً فى الجدل . وبقى له بعض الأصدقاء فى برنزويك يختلف إليهم بين الحين والحين للحديث ولعب الشطرنج . وكان أبناء زوجته يعيشون معه فى قولفنبوتل ، وقد خصص لهم التركة الصغيرة التى خلفتها كاملة . ولكن خصومه شهروا به فى طول ألمانيا وعرضها ملحداً رهيباً . فتحداهم ، وتجاسر على معارضة الرجل الذى يدفع له راتبه ، ذلك أن كارل فلهلم فرديناند ، الذى أصبح الآن (١٧٨٠) دوقاً على برنزويك ، زج فى السجن يهودياً

شاباً آثار سخطه . فزار ليسنج الفتى فى سجنه ، ثم اصطحبه إلى منزله بعد ذلك ليسترد عافيته .

أما عافيته هو فكانت قد ولت . وغشى بصره الآن حتى لم يكد يقوى على القراءة . وكان يعانى من الربو ، وضعف الرئتين ، وتصلب الشرايين. وفى ٣ فبراير ١٧٨١ بينما كان فى زيارة لبرنزويك أصابته نوبة ربو شديدة ، وبصق دماً . وأوصى أصحابه قائلا : حين ترونى مشرفاً على الموت ، استدعوا موثقاً ، وسأعلن أمامه انى أموت على غير دين من الأديان السائدة [٨١] . وفى ١٥ فبراير بينما كان راقداً فى فراشه اجتمع نفر من أصحابه فى الحجرة المجاورة . وفجأة فتح باب حجرته ، وظهر ليسنج ، منحنى الظهر مهزولا ، ورفع قلنسوته محيياً ، ثم خر على الأرض صريعاً بسكتة دماغية . وأذاعت مجلة لاهوتية أن الشيطان حمله عند موته إلى الجحيم كأنه فاوست آخر باع روحه [٨٢] . ولم يخلف من المال إلا أقل القليل ، فاضطر الدوق إلى دفع نفقات جنازته .

لقد كان البشير بأعظم عصور ألمانيا الأدبية . فى عام موته نشر كانط كتابه الخطير « نقد العقل الخالص » ونشر شيلر أول تمثيلياته . وكان جوته يرى فى ليسنج المحرر العظيم ، وأبا التنوير الألمانى . قال جوته موجهاً الخطاب إلى طيف ليسنج « فى الحياة كرمناك إلها من الآلهة ؛ أما الآن وقد مت فإن روحك تسيطر على جميع النفوس » .

٦ — رد الفعل الرومانتيكى

كان جوته يتحدث باسم أقلية صغيرة ؛ أما السواد الأعظم من الشعب الألمانى فتشبثت بتراثه الدينى ، ورحب بالشاعر الذى تغنى بإيمانهم رجلا ملهماً من السماء . فبعد أن أثار هندل مشاعر إرلنده على الأقل بأنغام « المسيا » السمائية بست سنوات ، أسر فريدرش جوتليب كلوبشتوك قلب ألمانيا بالقصائد الحماسية الأولى من ملحمته (المسيا) (١٧٤٨ — ٧٣) .

وقد ولد كلوبشتوك فى ١٧٢٤ قبل مولد ليسنج بخمس سنين ، وعاش اثنين وعشرين سنة بعده . وقد أصبح ليسنج رجلا حر الفكر وهو ابن القسيس ، أما كلوبشتوك ابن المحامى فقد اتخذ من نظم ملحمة شعرية عن حياة المسيح أهم رسالة لحياته . وبلغ من تحمسه الشديد لموضوعه أنه نشر الأقسام الثلاثة الأولى من الملحمة وهو لايزال فتى فى الرابعة والعشرين . وقد فتنت هذه الأبيات السداسية التفاعيل ، غير المقفاة ، جمهوراً من القراء بلغ من عرفانهم أنهم أرسلوا الرسائل من جميع أرجاء ألمانيا لابنة عمه حين تقدم لخطبتها بعد سنة يناشدونها أن تقبل الخطبة ، ولكنها رفضتها . بيد أن فردريك الخامس ملك الدنمرك - استجابة لتوصية وزيره يوهان فون برنشتورف - دعا كلوبشتوك للحضور والإقامة فى البلاط الدنمركى وإكمال ملحمته نظير أربعمائة طالر فى العام . وفى طريق الشاعر إلى كوبنهاجن راقته إحدى المعجبات الدنمركيات ، واسمها مارجريتا مولر ؛ وفى ١٧٥٤ تزوجها ، وفى ١٧٥٨ ماتت فحطمت قلبه وأظلمت شعره . وقد خلد ذكراها فى القسم الخامس عشر من « المسيا » وفى بعض من أعمق قصائده الشعبية تأثيراً . وأقام فى كوبنهاجن عشرين سنة ، ثم ذهبت حظوته عند الملك بعد طرد برنشتورف ، فعاد إلى همبورج ، وفى ١٧٧٣ نشر آخر أجزاء ملحمته الضخمة .

وكان مطلعها دعاء هو صدى لملتن ، ثم روت فى عشرين قسماً القصة المقدسة ، ابتداء من تأملات المسيح على جبل الزيتون وانتهاء بصعوده إلى السماء . وبعد أن أنفق كلوبشتوك فى كتابة ملحمته وقتاً قارب ما أنفقه المسيح لكى يعيشها ، اختتمها بتسبحة تفيض حمداً وشكراً لله :

ها أنذا قد بلغت هدفى ! ان الفكرة المثيرة
ترف خلال روحى . وذراعك القادرة على كل شىء
ربى وإلهى هى وحدها التى هدتنى
عبر أكثر من قبر مظلم قبل أن أبلغ
ذلك الهدف البعيد ! أنت أيها الرب شفيتنى ،
وأنزلت فيضاً جديداً من الشجاعة على قلبى المتخاذل ،

الذى كان فى صحبـة حميمـة مع المـوت ؛
وكنت إذا شخصت إلى الأهـوال لم تلبث
أشكالها المظلمة أن تتوارى ، لأنك تحميني ؛
لقد اختفت سريعاً . . . . يا مخلصى ، لقد تغنيت
بوعـد رحمتـك . ووطئـت قـدمـاى
طريق المخيف ، وكل رجائى فيك أنت ؛ (٨٣)

ورحبت ألمانيا السنية الإيمان بملحمة « المسيا » كأفضل شعر كتب إلى يومها بالألمانية . وينبئنا جوته عن مستشار فى فرانكفورت كان يقرأ الأقسام العشرة الأولى «كل سنة فى أسبوع الآلام ، وبهذه الطريقة ، ينعش روحه طوال العام » . أما جوته فلم يكن يستطيع الاستمتاع بالملحمة إلا بنبذ شروط معينة لا تتخلى عنها ثقافة تسير قدماً إلا على مضض (٨٤) . وقد سكب كلوبشتوك ورعه بغزارة فى شعره حتى أصبحت قصيدته سلسلة متعاقبة من الغنائيات والكوراليات الباخية أكثر منها الرواية المتدفقة التى يجب أن تكونها الملحمة ؛ وليس من اليسير علينا أن نتتبع تحليقاً عاطفياً استغرق عشرين قسماً وخمسة وعشرين سنة .

وكما أن فولتير ولد نقيضه فى روسو ، كذلك جعل ليسنج بارتيابيته ، وعقلانيته ، ونزعته الفكرية ، ألمانيا تشعر بحاجتها إلى كتاب يدركون مقابل هذا مكان وحقوق الوجدان، والعاطفة ، والخيال ، والغموض ، والرومانس ، والعنصر فوق الطبيعى فى حياة البشر .

وقد أصبحت عبادة « الحساسية » عند بعض ألمان هذه الفترة ، لاسيما النساء منهم ، ديناً ثم أصبحت موضة . وكان فى دارمشتات « حلقة لذوى الحساسية » جعل أعضاؤها من العاطفة والتعبير الوجدانى مبدأ وشعيرة . وكان روسو هو « مسيا » هذه النفوس . وفاق تأثيره فى ألمانيا تأثير فولتير بمراحل ؛ واعترف به هردر وشيلر ينبوعاً للإلهام ؛ وكان كتاب كانط « نقد العقل العلمى » مشرباً بروسو ، أما جوته

فقد بدأ بروسو « الشعور هو كل شيء » وانتقل إلى فولتير « فكر فى أن تحيا » ، ثم انتهى إلى ضرب رأسيهما بعضهما ببعض . وجاء فى غضون ذلك شعراء الوجدان من انجلتره : جيمس طومسون ، ووليم كولنز ، وإدورد ينج ، وقصاصا الوجدان رتشردسن وستيرن . وقد أثارت مختارات توماس برسى من روائع الشعر الإنجليزى القديم ، وديوان مكفرسن (من الشعر المنثور الذى زعم أنه ترجمة لشعر « أوسيان » من مخطوطات غالية قديمة) الاهتمام بشعر العصر الوسيط و غموضه وروما نسيته ؛ وبعث كلوبشتوك وهاينريش فون جرستنبرج إلى الحياة فيثولوجية اسكندناوه وألمانيا السابقة للمسيحية .

وكان يوهان جيورج هامان ، قبل عام ١٧٨١ ، قائد الثورة على العقل . ولد مثل كانط فى مدينة كونجزبرج الغائمة السماء ، وأشربه أبوه الوجدان الدينى بشدة ، وتلقى علومه فى الجامعة ، ثم كافح وهو فقير واشتغل معلماً خاصاً ، ووجد عزاءه فى إيمان بروتستنتى يثبت لكل اطمات حركة التنوير . وكان يقول إن العقل ليس إلا جزءاً من الإنسان ، حديث التطور وليس أساسياً ؛ أما الغريزة ، والحدس ، والوجدان ، فهى أعمق منه ، والفلسفة الحقة تقيم نفسها على طبيعة الإنسان وجوانبه كلها . واللغة ليست فى أصلها حصيلة للعقل بل منحة من الله للتعبير عن الوجدان . والشعر أعمق من النثر . والأدب العظيم لا يكتب بمعرفة القواعد والأسباب ومراعاتها ، بل بتلك الخاصية التى لايمكن تعريفها وهى العبقرية التى تتجاوز كل القواعد مهتدية بالوجدان .

ووافق فريدريش ياكوبى هامان وروسو . وقال ان فلسفة سبينوزا منطقية جداً إذا كنت تقبل المنطق ، ولكنها زائفة لأن المنطق لاينفذ أبداً إلى قلب الحقيقة ، التى لاتتكشف إلا للوجدان والإيمان . فوجود الله لايمكن إثباته بالعقل ، ولكن الوجدان يعرف أنه بدون الإيمان بالله تكون حياة الإنسان عبثاً مأساوياً يائساً .

بهذا التمجيد للوجدان والشعر شحنت الروح التيوتونية لتطلق تحليقات

من الأدب الخصب الخيال جعلت النصف الثانى من القرن الثامن عشر فى ألمانيا مذكراً بحرارة انجلتره وخصوبة إنتاجها على عهد اليزابث . فكثرت مجلات الشعر ، التى عانت قصر العمر المألوف ، وكتب يوهان هاينريش فوس قصة رقيقة بالشعر سماها « لويزه » (١٧٨٣ — ٩٥) فضلا عن قيامه بترجمة هومر وفرجل وشكسبير ، وقد كسبت هذه القصة محبة الألمان وحفزت جوته لينافسها . وظفر سالومون جسنر بقراء دوليين أقبلوا على غنائياته الرقيقة ورعوياته النثرية . ومس ماتياس كلوديوس قلوب مائة ألف أم بأغانيه الريفية عن الحياة العائلية ، مثل أغنيته المسماه « تهويدة تغنى على ضوء القمر » :

نامى الآن ياصغيرتى !
لم تبكين؟
ناعمة هى الراحة ،
وحلوة فى ضوء القمر .
وسيقبل النعاس عما قليل
وبلا ألم .
إن القمر يفرح بالأطفال
ويحبك (٨٥) .

أما جوتفريد بورجر فقد أوتى كل فضائل العبقرية الرومانسية . كان ابناً لراعى كنيسة . وأرسل إلى خاله فى جوتنجن ليدرس القانون ، ولكن حياته الفاجرة أفضت إلى تركه الكلية . وفى ١٧٧٣ نال غفران جميع الناس لخطاياه بقصيدته الشعبية « لينوره » . وحبيب لينوره هذه يرحل مع جيش فردريك إلى حصار براغ . وفى كل صباح تنتفض من أحلامها وتسأله « يافلهلم ، أأنت عديم الإيمان ، أم أنت ميت؟ وإلى متى يبطىء قدومك ؟ » وتضع الحرب أوزارها ، ويعود الجند ، ويلقاهم الزوجات والأمهات والأبناء بالفرح والشكر لله :

وراحت تستفسر من الجميع فى ذلك العرض ،

وتسأل كل واحـد عـن اسـمه ،
ولكن أحداً لـم يعطهـا جـوابا ،
لا أحـد ممـن عـادوا ،
فلما مضى كـل الجنـود ،
مزقت شعرهـا الفـاحـم ،
وارتمت على الأرض
فى نوبات أليمـة من اليـأس القـاتـل .

وتقول لها أمها إن « ما يفعله الله يفعله حسناً » ، وتجيب لينوره بأن هذا وهم ، وتطلب لنفسها الموت . . . وتحدثها الأم عن النعيم والجحيم ، وترد لينوره بأن النعيم أن تكون مع فلهلم ، والجحيم أن تحرم منه ، وتروح تهذى طوال نهارها . فإذا جن الليل وقف فارس ببابها ، وهو لايذكر اسمه ، بل يأمرها بأن تأتى معه وتكون عروسه . فتمتطى خلفه جواده الأسود ، وتركب الليل كله . ثم يصلان إلى جبانة ، وترقص الأشباح من حولها . وفجأة ينقلب الفارس جثة هامدة ، وتجد لينوره أنها متشبثة بهيكل عظمى . وبينما هى تتأرجح بين الحياة والموت تنوح الأرواح بهذه الكلمات :

صبراً ، صبراً ! حتى حين ينفطر القلب !
لاتنـازعى اللـه فى سـمائـه !
لقـد جـردت مـن جسـدك ؟
فليسبغ الله رحمته على روحك (٨٦) ،

٧ — الزوبعيـة

اندفعت الحركة الرومانتيكية من ورع كلويشتوك ورقة جسنر إلى النزعة الفردية الخارجة على تقاليد الاحترام ، إلى تمرد الشباب الألمانى وجهاده فى نشوة الثورة الأخلاقية والاجتماعية . ذلك أن ارستقراطية البلاطات الجامدة المتصلبة وعقائدية الوعاظ المتهافتة وجشع طبقة رجال الأعمال وتكالبهم الكئيب على المال ، وأساليب البروقراطيين المطردة المملة المبالدة للشعور ،

وحذلقة العلماء وغرورهم — كل أولئك أثار سخط شباب الألمان الواعين بقدراتهم المغموطين مكانتهم . وقد أصاخوا السمع لصيحة روسو طلباً للطبيعية والحرية ، ولكنهم لم يعبأوا بتمجيده « للإرادة العامة » ووافقوه على رفض المادية ، والعقلانية ، والحتمية ، ووافقوا ليسنج على تفضيل انحرافات شكسبير القوية عن القواعد ، على كلاسيكية كورنبي وراسين المقيدة للحركة . وأساغوا ذكاء فولتير وظرفه ، ولكن المكان الذى اجتازه تراءى لهم صحراء جرداء . وقد طربوا لتمرد المستعمرات الأمريكية على انجلترا . كتب جوته وهو يستعيد ذكرى هذه الحقبة « تمنينا للأمريكيين النجاح كله ، وبدأ اسما فرانكلين وواشنطن يسطعان ويتألقان فى سماء السياسة والحرب»[٨٧] . هؤلاء المتمردون المجاهدون أحسوا نشوة المراهقة الجسمية واليقظة العقلية ، وشكوا من كابوس الشيوخ على الشباب ، والدولة على النفوس . كانوا مع الأصالة ، والتجربة المباشرة والتعبير الطليق ، واعتقد بعضهم أن عبقريتهم تعفيهم من القانون . وأحسوا أن الزمن فى صفهم ، وأن المستقبل القريب سيشهد انتصارهم . يقول جوته « أوه ، لقد كانت حقبة سعيدة حين كنت أنا وميرك شابين ! » [٨٨] .

وأعرب بعض هؤلاء المتمردين عن فلسفتهم بتحدى تقاليد الزى وإحلال تقاليد من عندهم محلها ، فكان كرستوف كاوفمان يسير عارى الرأس ، مشعث الشعر ، مفتوح القميص حتى السرة [٨٩] . ولكن هذا كان حالة شاذة ، وإذا استثنينا حالة انتحار أو حالتين ، فإن أكثر أبطال الحركة اجتنبوا هذا العرض المقلوب لزيهم . وكان بعضهم ميسوراً . وكان جوته نفسه واحداً من أسلاف الزوبعية بمسرحيته جوتز فون برليشنجن (١٧٧٣) ، وفى السنة التالية أصبحت قصته « آلام فرتر » لواء الرومانتيكية الخفاق . وانضم شيلر إلى الحركة فأصدر « اللصوص » (١٧٨١) ، ولكن هذه النفوس المعقدة ، المتطورة ، سرعان ما تركت الحملة ليضطلع بها شباب أكثر التهاباً وأضعف جذوراً .

وكان يوهان ميرك أحد الآباء المؤسسين للحركة وكل الشواهد تدل على أنه كان سليم العقل قوى البدن ، وكان قد أتم دراسته بالجامعة ، وأصبح شخصاً أثيراً فى بلاط هسى — دار مشتات ، ثم عين رئيساً عاماً لصيارفة الجيش ، واشتهر بالذكاء الحاد والكفاءة العملية . وحين التقى به جوته فى ١٧٧١ وقع من نفسه موقعاً حسناً ، فاشترك معه ومع هردر فى تمويل مجلة نقدية تسمى «أنباء فرانكفورت الأدبية » ، ومن هنا لقب «الفرانكفورتيين» (٩٠) الذى أطلق أول الأمر على المتمردين . وإذ كان ميرك خبيراً بدنيا الأعمال والسياسة ، ورحالة جاب أرجاء المانيا وتنقل فى أنحاء روسيا ، فقد شهد وانتقد انتقاداً لاذعاً غرور الغنى ، وملل العيش فى قصور الملوك والأمراء ، واستغلال الفلاحين . فلما ألفى نفسه عاجزاً عن إصلاح هذه الأحوال ، بات متألماً ساخراً . وقد سماه جوته « مفستوفيليس ميرك » ، واتخذ من نفسه ومن ميرك نماذج لأدوار الأبطال فى فاوست . واضطرب عقل ميرك لهزائمه فى عمله وتعاسته فى زواجه . ووقع فى حبائل الدين ، فأنقذه منها دوق ساكسى — فايمار استجابة لرجاء جوته . ثم بات فريسة لاكتئاب لا يبرحه ، وقتل نفسه وهو لا يزال فى الخمسين (١٧٩١) .

وأكثر مأساة حتى من هذه الحياة كانت حياة راينهولد لنتس . وكان ابناً لراعى كنيسة لوثرى فى ليفونيا ، أثر فى أعصابه الضعيفة ، ومزاجه السريع الإثارة ، فى طفولته التأكيد على عقيدتى الخطيئة والجحيم (٩١) . وأعانه حينا استماعه إلى محاضرات كانط فى كونجزبرج ؛ وقاده كانط إلى كتابات روسو ، فقال لنتس بعد قليل عن « هلويز الجديدة » إنها خير كتاب طبع إطلاقاً فى فرنسا . وفى ستراسبورج التقى بجوته ، فبهرته شخصيته الإيجابية ، وقلده فى الفكر والأسلوب ، وكتب أشعاراً غنائية اشبهت أشعار جوته إلى حد أنها ضمنت فى بعض طبعات أعمال جوته . ثم مضى إلى زيزنهايم ، ووقع (بعد جوته) فى غرام فردريكه بريون ، ونظم القصائد الحارة فى مديحها . وأكد لها أنها أن لم تستجب لحبه فهو قاتل نفسه ، فلم تفعل ولم يفعل . ثم انتقل إلى فايمار ، وصادقه جوته ، وحسد جوته على نجاحه ، وسخر من علاقة جوته بشارلوته فون شتاين ، وطلب إليه الدوق ان يرحل

عن الدوقية . . وكان شاعراً ومسرحياً موهوبا . وتمثيليته المسماة « الجند » نقدت نقداً لاذعا الفوارق الطبقية والحياة البورجوازية ، وشخصيتها المحورية فتاة من الطبقة الوسطى تتطلع عبثاً إلى الزواج من ضابط . ثم تنقلب مومسا وتتحرش بأبيها الذى لم تتعرف عليه فى الشوارع . وإذ كان لنتس مفتقراً إلى الثبات والاستقرار افتقاراً أعجزه عن العثور على مكان مرموق فى الحياة ، فقد راح يهيم متنقلا من وظيفة إلى وظيفة ومن إخفاق إلى إخفاق ، ويعانى نوبات من الجنون ، ويحاول الانتحار غير مرة ، وأخيراً مات مجنوناً (١٧٩٢).

أما مكسمليان فون كلنجر فكان أذكى دعاة الحركة . ندد بالدنيا وارتقى فيها إلى مكان مرموق ، وأطلق لقلمه العنان فى الحديث العنيف فى تمثيلياته ، ثم أصبح أميناً لجامعة دوربات ، واستمتع بكل آثام الشباب وحماقاته وعمر حتى التاسعة والسبعين . وعنه كتب جوته بيته الذى نم عن حسن إدراك وفطنة : « فى الصبايا نحب ما هن عليه ، أما فى الفتيان فنحب ما يرجى أن يكونوه » . وقد أعطت أشهر تمثيلية كتبها كلنجر وهو فى الرابعة والعشرين (١٧٧٦) « شتورم أوند درانج » اسمها ومزاجها للزوبعية . وترى فيها المتمردين الأوربيين يتغربون فى أمريكا أملا فى أن يجدوا منافذ حرة لنزعاتهم الفردية ؛ أما لغتها فلغة العاطفة المشبوبة وقد جمحت ؛ وأما دعوتها فدعوة العبقرية التى تحررت من كل القواعد . وقد حارب كلنجر فى الجيشين النمساوى والروسى ، وتزوج ابنة غير شرعية لكاترين الكبرى ، وهبطت ثورته أخيراً حين تولى منصب الأستاذية ، ثم تجمد عموداً من أعمدة الدولة .

وأما فلهلم هاينزى فقد توج الحركة برواية « أرد نجهللو » (١٧٨٧) التى جمعت بين الفوضوية ، والعدمية ، والشيوعية ، والفاشية ، واللامبالاة بالأخلاق ، وإرادة القوة ، فى مهرجان صاخب من الشهوانية والجريمة ، يقول البطل إن الجريمة ليست بجريمة إن كانت شجاعة ؛ وما من جريمة حقيقية غير الضعف ، وأصدق الفضائل شجاعة الجسم والإرادة ؛ والحياة

إظهار للغرائز الإساسية ، ونحن نخطىء إذا دمغنا هذه الغرائز باللا أخلاقية . وهكذا يغوى أردنجالو ويقتل إذا لاحت له الفرصة أو دفعته النزوة ، ويرى فى عواطفه المشبوبه الطليقة من كل قيد أسمى قوانين الطبيعة . وهو يصف بطولات هانيبال ويمجده إنساناً أعلى ويتساءل : «ما قيمة مليون من الرجال الذين لم يحظوا طوال حياتهم بساعة واحدة كساعاته — بالقياس إلى هذا الرجل الفرد ؟ » (٩٢) وهو يقيم مجتمعاً شيوعياً تسوده شيوعية النساء وحق الانتخاب للنساء وعبادة قوى الطبيعة باعتبارها الدين الأوحد .

فى دوامة الزوبعية (شتورم) المضطربة هذه خلعت بعض الأفكار الغالبة على هذه الحركة طابعها وتأثيرها . فعظم قادتها أتوا من الطبقة الوسطى ، وبدأوا ثورتهم احتجاجاً على امتيازات الحسب والنسب ، ووقاحة ذوى المناصب ، وبذخ الأحبار الذين ينعمون بطيبات العيش على حساب عشور الفلاحين . وقد أجمعوا على الرثاء لحظ الفلاح العاثر — حراً كان أو قناً — وتصوير خلقه فى صورة مثالية . وأهابوا بالنساء أن ينبذن موضاتهن وأطواقهن وعواطفهن الهشة وإغماءاتهن وتقواهن الخانعة الذليلة ، ودعوهن للمجىء والمشاركة فى الحياة المثيرة التى يحياها العقل المحرر من الأغلال ، والذكر الجوال . وأعادوا تعريف الدين بأنه إلهام سماوى فى نفس عبقريتها جزء من الحافز الخلاق والسر المبدع فى الدنيا . ووحدوا بين الطبيعة والله ، وانتهوا إلى أن الإنسان يكون إلهياً إذا كان طبيعياً . واتخذوا من أسطورة فاوست المنحدرة من العصر الوسيط رمزاً للجوع الفكرى والطموح الملتهب الذى يحطم كل حواجز التقاليد أو الاعراف أو الأخلاق أو القوانين . وهكذا نرى «مالرمولر» يكتب قبل جوته بزمان مسرحية سماها «فوستس لوبن» «لأننى عرفت فيه من البداية رجلا عظيماً . . . يحس بقوته كلها ، ويشعر باللجام الذى قيده به القدر ، ويحاول أن يخلعه ، وتتوفر له شجاعة الإطاحة بكل شىء يقف فى طريقه» (٩٣) .

وقد وسمت حماسة الزوبعية وشططها هذه الحركة بأنها تعبير عن المراهقة الفكرية ، وصوت أقلية قضى عليها بأن يعلو صوتها ثم يخبو . ولم تكسب

الحركة أى تأييد شعبى ، لأن التقاليد والشعب يساند الواحد منهما الآخر دائماً . فلما وجد أتباع الحركة أنفسهم بغير قاعدة فى بنيان الحياة الألمانية ، تصالحوا مع الأمراء ، وأملوا — كما أمل جماعة الفلاسفة — أن يقود الحكام المستنيرون الطريق إلى التحرر الفكرى والإصلاح الاجتماعى . وأدرك هردر وجوته وشيلر الحركة فى شبابهم ، ثم انسحبوا من نارها الآكلة ، وقلموا أظافرهم وأطبقوا أجنحتهم ، وتقبلوا حماية أدواق فايمار الكرام شاكرين .

٨ — الفنانون

كان ألمان العصر الذى نحن بصدده أنداداً فى الفن للفرنسيين والإيطاليين. فلقد نقلوا الباروك عن إيطاليا والروكوك عن فرنسا ، ولكنهم أعطوا إيطاليا فنكلمان ومنجز ، وآثر ملوك فرنسا وملكاتها الألمان المغتربين أمثال دافيد رونتجن ، و « جان » ريزنر ، وآدم فايسفايلر ، على صناع الأثاث الفاخر الفرنسيين ؛ من ذلك أن لويس السادس عشر دفع ثمانين ألف جنيه ثمناً لمكتب من صنع رونتجن [٩٤] . وحفل المقر الملكى فى ميونخ ، وقصر فردريك الجديد فى بوتسدام ، وبيوت أثرياء الألمان ، بالأثاث الضخم الدقيق النقوش ، حتى وفد طراز أخف فى نهاية العصر من صنع الانجليزيين تشينديل وشيراتن . وكانت مصانع ما يسن قد أضرت بها الحرب ، ولكن نمفنبرج ولود فجزبرج وبوتسدام وغيرها من المراكز واصلت صناعات البرسلان والخزف ، وأشرقت رفوف الألمان ومدافئهم وموائدهم ومكاتبهم بصغار التماثيل المرحة الرشيقة الرقص والغناء والتقبيل .

وعلى نطاق أوسع ظهر نحت للتماثيل جدير بالإعجاب . شديد الاهتمام من ذلك أن مارتن كلاور نحت تمثالا نصفياً لجوته فى أيام فايمار الأولى — بدا فيه متشوفاً ، براق العين ، واثق النفس [٩٥] . ولم يبلغ لودفج ، بن مارتن ، هذا الإتقان فى تمثاله الذى نحته لشيلر [٩٦] ، وأفضل منه تمثال شيلر المعروض الآن فى ميدان بشتوتجارت من صنع يوهان فون دانيكر . أما سيد النحت الألمانى فى هذا العصر فيوهان جوتفيلد شادوف ، الذى أصبح مثالا للبلاط فى برلين عام ١٧٨٨ . وفى ١٧٩١ نحت رأساً لفردريك ،

وفى ١٧٩٣ صنع له تمثالا كامل الطول ؛ وفى ١٨١٦ صب بالبرونز « فردريكا » [٩٧] أصغر — وهو رائعة لاينساها من شهدها . وصب البرونز « مركبة النصر » لبوابة براندنبرج ، وكاد يبلغ روعة الجمال الكلاسيكى فى المجموعة الرخامية التى نحتها لولية العهد الأميرة لويزة وأختها فريدريكه .

وكثر المصورون فى ألمانيا كثرة أتاحت لها أن تنزل لإيطاليا عن اثنى عشر منهم ثم يبقى لها بعد ذلك مصورون أكفاء « من ذلك أن عدد المصورين من أل تيشباين الذين جمعتهم رابطة الفرشاة كان كبيراً بحيث يسهل علينا الخلط بينهم . فأحدهم وهو يوهان هاينريش تيشباين المصور فى بلاط هسى — كاسل رسم صورة بديعة لليسنج . أما ابن أخيه يوهان فريدريش تيشباين ، فرسم فى كاسل وروما ونابلى وباريس وفيينا ولا هاى، ودساو وليبزج وسانت بطرسبرج ، وصور مجموعة ساحرة لأبناء الدوق كارل أوجست أمير ساكسى — فايمار . وأما يوهان هاينريش فلهلم تيشباين فعاش فى إيطاليا (١٧٨٧ — ٩٩) ، ورسم صورة مشهورة « جوته فى كمبانيا روما » ثم عاد ليصبح مصور البلاط للدوق أولدنبورج .

وكان من مصادر « الزوبعية » « الألمانية المنحازة لإيطالية آدم فريدريش أويزر ، النحات ، الرسام ، النقاش ، المعلم ، وداعية اصلاح الفن على الأصول الكلاسيكية . وقد عاش فنكلمان معه زمناً فى درسدن ، وانتقد رسمه ، وأعجب بخلقه ، وقال « إنه يعرف كل ما يستطيع الإنسان أن يعرفه خارج إيطاليا » [٩٨] وفى ١٧٦٤ عين أويزر مديراً لأكاديمية الفنون فى ليبزج ، وزاره جوته هناك وانتقلت إليه عدوى الحمى الإيطالية .

ويحتل مكان الصدارة بين الفنانين الذين بقوا فى ألمانيا دانيل شودوفيكى ، وكان بولندياً . ولد فى دانبرج ، وترك يتيماً ، فتعلم أن يكسب قوته بصنع الرسوم والمحفورات والصور . وفى ١٧٤٣ انتقل إلى برلين وأصبح ألمانيا فى كل شىء إلا اسمه . وقد روى حياة المسيح فى منمنمات رائعة أذاعت صيته فى طول البلاد وعرضها ، ثم رسم بمزاج فولتيرى « جان كالاس وأسرته » وتكاثر الطلب على رسومه حتى إنه لم ينشر أى أثر أدبى كبير فى بروسيا

سنين طوالا دون أن تزينه رسوم من صنعه . وفى أروع محفوراته صور أسرته : فصور نفسههو و مكب على عمله ، وزوجته تشرف فى اعتزاز على أبنائه الخمسة ، ثم جدران البيت تكسوها الصور . ورسم بالطباشير الأحمر صورة لوته (شارلوته) كستز ، التى أحبها جوته وفقدها . وترى فى عمله رشاقة فى الخط ورقة فى الشعور تميزه عن هوجارت ، الذى كثيراً ما قورن به لكثرة ما صوره من مناظر الحياة المألوفة ؛ ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة ما قورن به لكثرة ما صوره من مناظر الحياة المألوفة ؛ ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة . وكثيراً ما استلهم فاتو ؛ وفى صورته « لقاء فى حديقة الحيوان[٩٩] » ، ترى ولع فاتو بالهواء الطلق وتموج ثياب النساء الخلاب .

وقد ترك أنطون جراف صورة لشود وفيكى[١٠٠] — يفيض ابتسامات وعقصاً ولحماً مكتنزاً — وصورة لنفسه[١٠١] وهو يتطلع من فوق لوحته ولكنه مكتمل الزينة كأنه يتأهب للذهاب إلى حفلة رقص . وقد أفرغ حيوية أكثر على لوحته الجميلة لزوجته[١٠٢] ، والتقط غرور الممثلة كورونا شروتر[١٠٣] وجلل بالثياب المذهبة جسد السيده هوفرات بومى الفضفاض[١٠٤] .

وآخر قائمة المصورين فى نصف القرن الذى نحن بصدده هو آزموس ياكوب كارستنز ، الذى استوعب دعوة فنكلمان نصاً وروحاً ، وأكمل الإحياء الكلاسيكى فى التصوير الألمانى . ولد فى شلزفج ، وتعلم فى مدارس كوبنهاجن وإيطاليا ، ومارس عمله فى لوبك وبرلين على الأخص ، ولكنه عاد إلى إيطاليا فى ١٧٩٢ ، ووجد المتعة الكبرى فى تأمل أطلال النحت والعمارة القديمين . ولم يعرف أن الزمن قد نزح اللون من الفن اليونانى فلم يبق إلا على الخط ؛ وعليه أحال فرشاته إلى قلم كما فعل منجز ، ولم يستهدف إلا الشكل الأكمل . وقد أزعجته العيوب البدنية التى شابت أجساد نماذجه التى يصورها فى مرسمه ، فقرر أن يركن إلى خياله ؛ وأبهجه أن يصور الأرباب اليونانية والمناظر المستقاة من الميثولوجيا اليونانية كما تخيلها هو وفنكلمان . ومن هذه انتقل إلى تصوير دانتى وشكسبير . وكان ولعه بالخط والشكل يفتقد دائماً اللون والحياة ، وحتى حين كان يبلغ فى رؤياه لأشباه الإله رؤيا تقرب

من رؤيا ميكلانجلوا ، كما نرى فى لوحة « مولد النور »[١٠٥] ، فإننا لا نستطيع الثناء عليه إلا لأنه تذكر صور كنيسة السستين بالدقة التى تذكر بها موتسارت موسيقاها . وردت روما على محبته بمحبة مثلها ، وأتاحت لعمله (١٧٩٥) العرض فى أوسع وأشهر المعارض التى أتيحت لأى فنان حديث . وهناك مات بعد ثلاث سنين غير متجاوز الرابعة والأربعين . ولا غرو فالفن كالجنس قد يكون ناراً آكله .

وغلب مزاج الكلاسيكية الجديدة على الزخرفة المعمارية لبوتسدام وبرلين فى عهد فردريك الأكبر . وكان قد بدأ قصره الجديده فى ١٧٥٥ ، ولم يسمح للحرب بأن تعوقه عن المضى فى المشروع . فشارك فى تصميمه ثلاثة معماريين — بورنيج ، وجونتارد ، وما نجر ؛ فمزجوا الكلاسيك بالباروك فى صرح مهيب يذكر بقصور روما القديمة ، أما الزخارف الداخلية فقد نافسوا فيها أبدع نماذج الروكوك الفرنسى . وكان للكنيسة الفرنسية فى برلين رواق معمد كلاسيكى ، فأضاف إليه جونتارد وتلميذه جيورج أونجر برجا كلاسيكياً (١٧٨٠ — ٨٥) . وزاد أونجر برلين جلالا بتشييد مكتبة ملكية فى ١٧٧٤ — ٨٠ . أما بوابة براندنبورج التى بناها كارل لانجهانز فى ١٧٨٨ — ٩١ فقد قلدت تقليداً سافراً مداخل الأكروبول الفخمة ؛ وقد نجت بالجهد من التدمير فى الحرب العالمية الثانية ، ولكنها فقدت « الكدريجة الشهيرة . وهى العربة ذات الجياد الأربعة التى توجها بها شادوف .

كانت مدن ألمانيا أخرى تنحت الآثار المخلدة لأمراء البيوت المالكة والنبلاء والرفات ، فزينت أخت فردريك فلهلميه مدينة بايرويت بقصر زين بالروكوك الساحر (١٧٤٤ — ٧٣) . وفى كاسل صمم سيمون لوى دورى (١٧٦٩ وما بعدها) صالة الرقص الفخمة والحجرة الزرقاء فى قلعة حاكم هسى — كاسل . وفى الراين قرب دسلدورف بنى نيكلاوس فون بيجاجى قلعة بنرات الفخمة (١٧٥٥ — ٦٩) ، وبنى فليب دلا جبيير لودفجز بورج قصر مونريبو الجميل (١٧٦٢ — ٦٤) .

٩ — بعد باخ

أسعدت ألمانيا بالموسيقى وتأثرت بها أكثر من أى أمة أخرى باستثناء إيطاليا . فالأسرة التى خلت من الآلات الموسيقية كانت شذوذاً وكانت المدارس تعلم الموسيقى تعليمها للدين والقراءة سواء بسواء تقريباً . وكانت الموسيقى الكنيسية آخذة فى الاضمحلال لأن العلم والفلسفة ، والمدن والصناعة ، كانت تصرف العقول عن الدين إلى الدنيا ، وظلت الترانيم اللوثرية العظيمة تجلجل ، ولكن الأغنية أخذت تتحول من الكوارس الكنسية إلى الليدات والتمثيليات الغنائية والأوبرا . وقد افتتح يوهان بيتر شولتس عهداً جديداً فى الأغنية بـ « أغان فى فوكستن» (١٧٨٢) ؛ وبعدها حظيت ألمانيا بزعامة لا تنازع فى استخدام الموسيقى فى الشعر الغنائى .

وقد شجع التحسين الآلى الذى أدخل على البيانوا انتشار الحفلات الموسيقية وظهور مهرة العازفين على الآلات . وغزا العازفون أمثال يوهان شوبرت ، وآبت فوجلر ، ويهان هومل ، المدن الكثيرة بأدائهم الموسيقى . ففى ١٠ مارس ١٧٨٩ قام هومل الذى لم يتجاوز الأحد عشر ربيعاً بعزف على البيانو فى درسدن ؛ ولم يدر أن موتسارت سيكون بين السامعين ؛ وخلال الحفلة رأى أستاذه السابق وتعرف عليه ؛ فما إن فرغ من عزف قطعته حتى شق طريقه بين الجمع المصفق وعانق موتسارت فى عبارات حارة تفيض بالولاء والبهجة(١٠٦). واكتسب آبت (أعنى آبوت ، أى الأب الدينى) فوجلر لقبه هذا برسامته قسيساً (١٧٧٣) ؛ وفى مانهايم كان قسيس البلاط ومدير الموسيقى معاً . وكان فى التأليف الموسيقى من أكثر كتاب القرن أصالة وتأثيراً ؛ وفى العزف على الأرغن أثار غيرة موتسارت ؛ وفى التعليم كان صاحب الفضل فى تكوين فيبر وميربير ؛ ثم أضحك مانهايم وهو ممثل للبابا بلبسه الجوارب الطويلة الزرقاء وحمله كتاب صلواته مع موسيقاه ، وبجعله جمهوره أحياناً ينتظره ريثما يفرغ من صلاته .

وكان أوركسترا مانهايم الآن فرقة من ستة وسبعين موسيقياً منتقين ،

يقودهم بكفاية كرستيان كانا بيش معاماً وقائداً وعازفاً منفرداً على الكمان . وقد أثر عن اللورد فورد ابس قوله إن ألمانيا تبز سائر الأمم لسببين : الجيش البروسى وأوركسترا مانهايم . ويليه شهرة أوركسترا جيفاندهاوس بليبزج . وكانت الحفلات الموسيقية عملاقة تحوى ثلاثة أو أربعة أو أحياناً ستة كونشرتوات فى برنامج واحد . والقوم يحيونها فى كل مكان — فى المسارح والكنائس والجامعات والقصور والحانات والمتنزهات . ونافست السمفونية الآن الكونشرتو فى الربرتوار الأوركسترالى ، وما وافت سنة ١٧٧٠ — حتى قبل مجىء هايدن — حتى حظيت السمفونية بقبولها كأرقى ألوان الموسيقى الآلية (١٠٧) .

ونصف المؤلفين الموسيقيين فى هذه الحقبة منحدرون من قلب يوهان سبستيان باخ القوى وصلبه المكين . أنجبت له زوجته الأولى سبعة أطفال ، أحرز اثنان منهم — فلهلم فريدمان وكارل فليب إيمانويل — سمعة دولية . وأنجبت له زوجته الثانية ثلاثة عشر طفلا برز فى عالم الموسيقى منهم اثنان هما يوهان كرستوف فريدرش ويوهان كرستيان . ثم أنجبت يوهان كسرستوف فريدرش مؤلفاً موسيقياً صغيراً هو فلهلم فريدرش ارنست باخ ؛ وهكذا أعطى يوهان سبستيان باخ العالم خمسة رجال ضمنوا لهم مكاناً فى تاريخ الموسيقى . يضاف إلى هؤلاء أحد أقربائه الأبعدين واسمه يوهان ارنست باخ ، درس على الأستاذ فى ليبزج ، وأصبح رئيساً لفرقة المرتلين فى فايمار ، وترك عدة مؤلفات موسيقية ليجر عليها النسيان ذيوله .

أما فلهلم فريدمان باخ فقد ولد فى فايمار . والقسم الأول من مؤلف أبيه « الكلافير الوسيط » كتب لتعليمه . وقد سار حثيثاً فى دراسته ، ولم يناهز الستة عشر عاماً حتى كان يؤلف الموسيقى . فلما بلغ الثالثة والعشرين عين عازفا اللارغن بكنيسة صوفيا بدرسدن ، ولما كانت واجباته فى هذه الوظيفة هينة فقد ألف عدة صوناتات وكونشرتوات وسمفونيات . ثم ازداد راتباً وشهرة حين اختير (١٧٤٦) عازف أرغن فى كنيسة ليفراون بهاله . وأقام هناك ثمانية عشر عاماً ، ومن هنا تلقيبه «باخ هاله» . وكان مولعاً بالشراب لا يعلو على ولعه به إلا ولعه بالموسيقى . ثم استقال فى

١٧٦٤ ، وظل عشرين عاماً يهيم متنقلا من بلد إلى بلد ، ويقيم بالجهد أوده بالعزف فى حفلات موسيقية وبتعليم التلاميذ . وفى ١٧٧٤ استقر فى برلين حيث مات فى ضنك عام ١٧٨٤ .

وكان كارل فليب إيمانويل باخ أعسر ، فاضطر إلى قصر عزفه على الأرغن والبيانو . وفى ١٧٣٤ حين بلغ العشرين التحق بجامعة فرانكفورت ، وهناك حظى بصحبة جيورج فليب تليمان ، الذى كان أحد عرابيه يوم عماده وأعطاه جزءاً من اسمه . وفى ١٨٣٧ عزف بعض مؤلفاته أمام جمهور ضم فردريك وليم الأول ملك بروسيا . ولما علم بأن ولى العهد فردريك يحب الموسيقى ، قصد راينزبرج وقدم نفسه إليه دون أن يظفر بثمرة عاجلة ؛ ولكن فى ١٧٤٠ عينه فردريك ، الذى أصبح الآن ملكاً ، عازفاً على الصنج فى أوركسترا الكنيسة ببوتسدام . ولكنه ضاق بمصاحبة ناى فردريك الهوائى المزاج وقبول سلطته الملكية فى الموسيقى . وبعد أن قضى فى الأوركسترا ستة عشر عاماً ، اعتزل ليفرغ للتعليم . وقد حدد كتابه « بحث فى العزف الحقيقى على الكلافير » (١٧٥٣ وما بعدها) بداية تقنية البيانو الحديثة ، وكان لهذا الكتيب الفضل فى اكتساب هايدن البراعة الفنية فى العزف على البيانو ، وبسببه قال موتسارت عن « باخ برلين » هذا : « إنه أبونا ، ونحن صبيته ؛ والذين يعرفون منا أى شىء على وجهه الصحيح ، فإنما تعلمناه منه ، ووغد ذلك الطالب الذى لا يعترف بهذا »(١٠٨) . وقد خرج إيمانويل فى مؤلفاته عامداً على أسلوب أبيه الكونترابنطى ، مؤثراً تناولا متجانس الصوت وخطا ميلوديا أبسط . وفى ١٧٦٧ قبل وظيفة المدير لموسيقى الكنيسة فى همبورج ، وهناك أنفق الإحدى وعشرين سنة الباقية فى أجله . وفى ١٧٩٥ جاء هايدن إلى همبورج ليراه ، ولكنه وجد أن أعظم أبناء يوهان سبستيان قد مضى على موته سبع سنين .

أما يوهان كريستوف فريدرش باخ فقد درس على أبيه وفى جامعة ليبزج ، ثم عين فى الثامنة عشرة (١٧٥٠) موسيقار الحجرة فى بوكسبورج ، لفلهلم كونت شاومبورج – ليبه . وحين بلغ السادسة والعشرين أصبح مديراً للموسيقى . أما الحدث العظيم الذى وقع له فى عامه الثامن والعشرين فهو

مجيء هردر (١٧٧١) مبشراً ؛ وقد زوده هردر بنصوص ملهمة للأوراتوريوات والكنتاتات ، والأغاني ؛ واتبع يوهان كرستوف أساليب أبيه وروحه ، ثم ضاع في خضم تغيرات الدهر وتقلباته .

وعلى النقيض منه كان ولاء الإبن الأصغر ، يوهان كرستيان باخ ، لإيطاليا . بعث إلى برلين وهو لايتجاوز الخامسة عشرة عند موت أبيه ، وهناك بذل له أخ غير شقيق ، يدعى فلهلم فريدمان ، العون وقام على تعليمه . وحين بلغ التاسعة عشرة ذهب إلى بولونيا ، حيث أدى الكونت كافالييري أجوستينوليتا نفقات دراسته على الأب مارتيني ؛ وقد افتتن الشاب بالحياة الإيطالية والموسيقى الكاثوليكية ، فدخل في المذهب الكاثوليكي ، وظل ست سنوات يخص الكنيسة أولا بمؤلفاته الموسيقية . وفي ١٧٦٠ عين عازف أرغن في كتدرائية ميلان ، وأصبح « باخ ميلان » . ثم أثارت الأوبرا الإيطالية أثناء ذلك طموحه للتفوق في الموسيقى غير الدينية كما تفوق في الموسيقى الكنسية ، فأخرج الأوبرات في تورين ونابلي (١٧٦١) ؛ وشكا رؤساؤه الميلانيون من أن رشاقة هذه المؤلفات تتنافر مع مركزه في الكتدرائية . فنقل يوهان كرستيان مقامه إلى لندن (١٧٦٢) ، حيث حظيت أوبراته عادة بعروض طويلة الأمد . وما لبث أن عين رئيساً للموسيقى عند الملكة شارلوت صوفيا ، ورحب بالصبي موتسارت ذي الأعوام السبعة عند مجيئه إلى لندن في ١٧٦٤ ، وراح يلهو معه على البيانو . وأحب الصبي هذا الموسيقى الذي اكتمل نضجه الآن ، وأخذ عنه الكثير من الألماعات في تأليف الصوناتات والأوبرات والسمفونيات . وفي ١٧٧٨ ذهب باخ إلى باريس ليقدم أوبراه « أماديس الغاليين » ، وهناك التقى ثانية بموتسارت . وكان ابتهاج فتى الثانية والعشرين به كابتهاجه قبل خمسة عشر عاماً . كتب فولفجانج لأبيه يقول « إنه رجل أمين ينصف الناس ، وأنا أحبه من كل قلبي »(١٠٩) .

ويمكن القول على الجملة أن أسرة باخ هذه ابتداء من فايت باخ الذي مات في ١٦١٩ ، وانتهاء بفلهلم فريدرش إرنست باخ الذي مات في ١٨٤٥ ، هي أبرز الأسر في تاريخ الثقافة . فمن بين نحو ستين من هؤلاء الباخيين

المعروفة أسماؤهم من أقرباء يوهان سبستيان ، كان ثلاثة وخمسون موسيقيين محترفين ، وكان ثمانية من أسلافه وخمسة من أخلافه من وزن كاف لتبرير نشر مقالات عنهم فى قاموس للموسيقى(١١٠) . وقد ظفر عدد من الأبناء فى حياتهم بصيت ذائع وشهرة فاقت ما تمتع به يوهان سبستيان . ولا يعنى هذا أنهم احتكروا الشهرة الموسيقية ، فالموسيقيون الأفذاذ كانوا كالعادة يلقون المديح الأعظم وهم أحياء ، ثم يجر عليهم النسيان ذيوله حين يموتون ؛ وقد نافس مؤلفون موسيقيون مثل كارك فريدرش فاش وكرستيان فريدرش شوبارت أبناء باخ فى ذيوع اسمهم .

وإذا نحن رجعنا النظر إلى هذا النصف الثانى من القرن الثامن عشر لحظنا بعض الخطوط الخاصة فى التطور الموسيقى . فاتساع مساحة البيانو وازدياد قوته حررا الموسيقى من خضوعها للألفاظ وشجع المؤلفات للموسيقى الآلية ؛ ثم إن إقبال الجماهير المتزايد على الحفلات الموسيقية ، وتقلص هيمنة الكنيسة ، بعدا بالمؤلفين عن بوليفونية يوهان سبستيان باخ وقربهم من هارمونيات خلفائه الأسهل تذوقاً . وعمل تأثير الأوبرا الإيطالية على تفوق الميلوديا حتى فى قطع الموسيقى الآلية ، بينما أحدثت الليدات ، بحركة مضادة ، تعقيداً جديداً فى الأغنية . وبلغت الثورة على الأوبرا الإيطالية ذروتها فى جلوك ، الذى أراد إخضاع الموسيقى للدراما ، ولكنه بالعكس أضفى السمو على الدراما بالموسيقى . وعلى درب آخر طورت الثورة « المسرحية الغنائية » ، التى بلغت أوجهاً فى « الناى السحرى» . وانتقل الكونشرتو جروسو إلى الكونشرتو الموضوع لآلة منفردة واحدة وأوركسترا ، واتخذت الصونات شكلها الكلاسيكى فى كارل فليب إمانويل باخ وهايدن ، وتطورت الرباعية إلى السمفونية . وهكذا تهيأ كل شىء لبيتهوفن .

١٠ — الشيخ فرتز *

فوق كل هذه الحياة المنوعة : حياة السياسة والدين والصناعة واللهو والموسيقى والفن والعلم والفلسفة والبر والأثم — كان يلوح طيف البطل الشائخ الذى لقبته ألمانيا « الشيخ فرتز » — لا حباً بل تكريماً له بوصفه أعجب وأدهش

تيوتونى فى عصره . فهو لم يقنع بحكم مملكته وأوركسترا ه ، بل حسد قلم فولتير وتاقت نفسه إلى الظفر بالثناء عليه شاعراً ومؤرخاً . وقد خلف للأجيال التالية ثلاثين مجلداً من كتاباته : سبعة فى التاريخ ، وستة فى الشعر ، وثلاثة فى الأبحاث العسكرية ، واثنين فى الفلسفة ، واثنى عشر فى الرسائل ، كلها بالفرنسية . أما أشعاره فأكثرها من النوع العابر سريع الزوال ، ولم يعد القراء يذكرونها . ولكنه كان من كبار المؤرخين فى جيله . ففى بواكير ملكه كتب تاريخ أسلافه — « مذكرات فى تاريخ أسرة براند نبورج » (١٧٥١) . وقد زعم لنفسه الحياد كما يزعم أكثر المؤرخين : « لقد ارتفعت فوق كل الأهواء والميول ، ونظرت إلى الأمراء والملاك والأقرباء نظرى إلى أناس عاديين » ، (١١١) ولكنه ارتفع إلى ذروة الحماسة والنشوة وهو يصف الناخب الأكبر فردريك وليم .

أما رائعته الأدبية فهى « تاريخ عصرى» الذى سجل حكمه . وقد بدأه عقب انتهاء الحرب السيليزية الأولى (١٧٤٠ — ٤٢) ، وواصل كتابته على فترات حتى أخريات عمره . وقد ضمنه تاريخ العلم والفلسفة والأدب والفن ، ربما متأثراً بفولتير — وإن كان قد كتب جانباً كبيراً من هذا الكتاب قبل أن يظهر كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » و « مقاله فى الأعراف» وقد اعتذر عن تضييعه حيزاً فى كتابه على « بلهاء يلبسون الأرجوان ، ودجاجلة يحملون التيجان . . . أما تتبع الكشف عن الحقائق الجديدة ، وتفهم أسباب التغيير فى الأخلاق والعادات ، ودراسة الطرق التى قشعت بفضلها ظلمة الهمجية من عقول الناس — فهذه بالتأكيد موضوعات جديرة بأن تشغل جميع المفكرين » . (١١٢) وقد اثنى على هوبز ولوك والمؤلهة فى انجلترا ، وعلى توماسيوس وفولف فى ألمانيا ، وفونتينيل وفولتير فى فرنسا . « هؤلاء العظماء وتلامذتهم كالوا للدين ضربة قاضية . وبدأ الناس يمحصون ما كانوا يعبدونه بغباوة ، وأطاح العقل بالخرافة . . وكسبت الربوبية أتباعاً كثيرين ، وهى العبادة البسيطة للكائن الأعظم » . (١١٣) وإذ كان فردريك يحتقر الحكومة الفرنسية ويحب الأدب الفرنسى ، فإنه فضل ملحمة فولتير «الهنريادة» على الألياذه ، وفضل راسين على سوفوكليس وسوى بين بوالو وهوراس ،

وبين بوسويه وديموستين . وسخر من لغة ألمانيا وأدبها ، وامتدح فنها المعمارى ؟ وشق على نفسه ليبرر غزوه سيليزيا ، فقال انه أحس أن لرجل الدولة أن ينتهك الوصايا العشر أن اقتضته ذلك مصالح دولته الحيوية « فخير أن يحنث الملك بعهده من أن يهلك الشعب »(١١٤) — وهذا الهلاك — كما أمل أن تصدقه — هو الخطر الذى تهدد بروسيا فى ١٧٤٠ ؛ وقد اعترف بأنه اقترف أخطاء كثيرة فى قيادة جيشه ، ولكنه رآه أمراً لا ضرورة له أن يسجل فراره مولفتز . وهذان المجدان فى جملتهما يقفان على قدم المساواة مع أفضل الكتابات التاريخية عن أوربا الحديثة قبل جبون .

وما إن وضعت حرب السنين السبع أوزارها حتى عكف فردريك على كتابة « تاريخ حرب السنين السبع » . وكان كقيصر يتطلع إلى أن يكون خير مؤرخ لحملاته ، وكقيصر تحاشى الحرج فتكلم عن نفسه بضمير الغائب ، وهنا أيضاً حاول — ربما بعذر أفضل — أن يبرر المبادرة الجريئة التى بدأ بها الحرب . وقد امتدح ألد أعدائه ، ماريا تريزا ، فى كل ما يتصل بحكمها الداخلى ، أما فى علاقاتها الخارجية فقد أدان هذه المرأة المتكبرة « التى استبد بها الطمع فأرادت أن تبلغ هدف المجد من كل طريق »(١١٥) ووسط سجل الحملات ، المحايد إلى حد لا بأس به ، توقف ليندب أمه التى ماتت فى ١٧٥٧ وشقيقته التى لحقت بها فى ١٧٥٨ . والصفحة التى وصف فيها فلهلمنية واحة من الحب فى بيداء خربة من الحرب .

وقد خلص إلى أن التاريخ أستاذ عظيم تلاميذه قليلون : « ان فى طبيعة البشر ألا يتعلم إنسان من التجربة . وحماقات الآباء تضيع هدراً على الأبناء ، وكل جيل لا بد مقترف حماقاته »(١١٦) « كل من يقرأ التاريخ بإمعان يدرك أن المشاهد ذاتها كثيراً ما تتكرر ، وأنه لا حاجة بنا إلا لتغيير أسماء الممثلين »(١١٧) . ولكنا حتى لو استطعنا أن نتعلم ، فإننا سنظل عرضة للمصادفة التى لا يمكن التنبؤ بها . « إن هذه المذكرات تقنعنى أكثر فأكثر بأن كتابة التاريخ إن هى إلا تجميع لحماقات الناس وضربات الحظ . فكل شىء يدور حول هذين الموضوعين »(١١٨) .

وقد حاول مرتين (١٧٥٢ و ١٧٦٨) فى « وصية أخيرة » أن ينقل لورثته بعض الدروس المستفادة من تجربته الخاصة . فحثهم على دراسة أهداف الدول المختلفة ومواردها ، والوسائل المتاحة لحماية بروسيا وتنميتها . وحذا حذو أبيه فى تأكيده على الحاجة لأحكام ضبط الجيش ، وحذر خلفاءه من الإنفاق فوق ما يسمح به الدخل ؛ وتنبأ بالمتاعب السياسية التى ستحيق بفرنسا لسفهها المالى ؛ ونصح بزيادة الإيرادات لا بفرض ضرائب جديدة بل بحفز إنتاجية الاقتصاد . وينبغى حماية كل الأديان ما التزمت الهدوء والسلام — رغم أن « جميع الأديان إذا فحصها المرء وجدها ترتكز على نسق من الخرافة غير معقول قليلا أو كثيراً »[١١٩]. إما سلطة الملك فيجب أن تكون مطلقة ، ولكن على الملك أن يعد نفسه أول خادم للدولة . ومادامت بروسيا فى خطر من صغر حجمها وسط دول كبيرة كروسيا وفرنسا والامبراطورية النمساوية المجرية ، فإن من واجب الملك أن يغتنم أى فرصة ليوسع بروسيا ويوحدها — ويحسن أن يكون ذلك بفتح سكسونيا وبروسيا البولندية وبومرانيا السويدية : « أن أول شغل شاغل للأمير هو أن يصون سلطته ، أما الثانى فهو أن يوسع رقعته . وهذا يقتضى المرونة وسعة الحيلة . . . وستر المطامع الخفية يكون بإعلان الميول السلمية حتى تأتى اللحظة المواتية . تلك طريقة جميع رجال الدولة العظماء »[١٢٠] .

وينبغى أن يعد الملك خلفه للحكم . فيهيء له التعليم على يد رجال مستنيرين لا رجال كنسيين ، لأن هؤلاء يشحنون رأسه بخزعبلات يقصد بها أن يكون أداة طيعة فى يد الكنيسة [١٢١] . وتعليم كهذا من شأنه أن يخرج عقلا ضعيفاً سرعان ما تسحقه مسئوليات الدولة . « ذلك ما رأيته ، وإذا استثنيت ملكة المجر (ماريا تريزا) وملك سردينيا (شارل إمانويل) ، فإن كل ملوك أوربا ليسوا سوى بلهاء مشهورين »[١٢٢] . وقد كتب هذا وإليزابث تحكم روسيا . وكانت « وصية » ١٧٦٨ أكثر تأدباً ، لأن كاترين كانت قد أثبتت علو همتها ، وتنبأ فردريك الآن بأن روسيا ستكون أخطر دولة فى أوربا [١٢٣] .

فلما شاخ بدأ يسائل نفسه إن كان ابن أخيه ووريثه المحتمل — فردريك

فلهلم الثانى — صالحاً لوراثة الحكم . كتب إليه يقول « إننى أشقى من أجلك ولكن على أن أفكر فى الاحتفاظ بما أصنع ، فإن كنت كسولا خاملا ذاب فى يديك كل ما جمعته بالجهد والمشقة »[١٢٤] . وفى ١٧٨٢ كتب وقد ازداد تشاؤما « لو أن ابن أخى لان وتراخى بعد موتى ، لما بقى شىء اسمه بروسيا فى ظرف عامين »[١٢٥] . وقد تحققت النبوءة فى فيينا عام ١٨٠٦ ، لا لأن فردريك وليم الثانى كان رخوا لينا ، بل لأن نابليون كان صلباً قاسياً .

وقد بات فردريك ذاته فى عقده الأخير قاسياً إلى حد لا يحتمل . فاختزل قدراً كبيراً من الحرية التى سمح بها للصحافة قبل ١٧٥٦ . كتب ليسنج إلى نيقولاى فى ١٧٦٩ يقول « إن حريتكم البرلينية تتقلص . . إلى حرية جلب ما تشاءون جلبه إلى السوق من سخافات ضد الدين . . . ولكن ليرفع إنسان صوته نيابة عن الرعايا ، وضد الاستغلال والاستبداد ... وعندها ستتبين سريعاً أى دول أوربا أكثرها اليوم عبودية وذلا » . [١٢٦] وكره هردر وطنه بروسيا ، وانصرف فنكلمان فى « رعب » عن ذلك « البلد المستبد »[١٢٧] . وحين زار جوته برلين فى ١٧٧٨ أدهشته عدم شعبية الملك . ومع ذلك كان الشعب يبجل فردريك شيخاً لم يضن طوال خمسة وأربعين عاماً بيوم واحد فى سبيل خدمة الدولة .

وقد برته الحرب كما براه السلم . وكثرت واشتدت عليه نوبات النقرس والربو ، والمغص والبواسير ، وزادت أوجاعه حدة لولعه بالوجبات الثقيلة والأطعمة الحريفه . وفى ٢٢ — ٢٥ أغسطس ١٧٧٨ استعرض جيشه السيليزى قرب برزلاو . وفى اليوم الرابع والعشرين ظل على صهوة جواده ست ساعات برداثه العسكرى العادى والمطر يهطل غزيراً ، وعاد إلى مسكنه مبللا يرتعد من البرد . ولم يستعد عافيته بعدها قط . وفى يونيو ١٧٨٦ أرسل فى طلب الدكتور تسمرمان من هانوفر . وتوقف عن تعاطى العقاقير التى وصفت له ، وآثر الأحاديث المرحلة عن الأدب والتاريخ ، ولكى يلزمه تسمرمان الهدوء وصف له كتاب جبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية

وسقوطها »[١٢٨] . وتفاقت أوصابه بالاستسقاء ، وأحدثت القطوع التى أجريت له لتخفيف الانتفاخات غرغرينة . ثم أطبق عليه الالتهاب الرئوى فاكتمل الحصار ، وفى ١٧ أغسطس ١٧٨٦ مات فردريك وهو فى الرابعة والسبعين . وكان قد طلب أن يدفن فى حديقة « صانسوسى » قرب قبور كلابه وحصانه الحبيب ، ولكن أمر رحيله هذا الذى أصدره على البشرية أغفل ، فدفن إلى جوار أبيه فى كنيسة الحامية ببوتسدام . وحين جاء نابليون ووقف أما قبر فردريك بعد أن هزم البروسيين فى يينا قال لقواد جيشه « لو كان على قيد الحياة لما كنا هنا » [١٢٩] .

الفصل الحادى والعشرون

كانط

١٧٢٤ — ١٨٠٤

١ — مقدمه

لعل كانط ماكان ليظهر قط لولا وجود فردريك الأكبر . ذلك أن كتابيه « نقد العقل الخالص » و « الدين فى حدود العقل وحده » يسرت صدورهما شكوكية فردريك وتسامحه الدينى ؛ فلم ينقض على موت فردريك عامان حتى أخرجت الحكومة البروسية كانط .

كان كانط كفردريك ربيباً لحركة التنوير ، وقد تشبث بولائه للعقل حتى النهاية — رغم كل ذبذبته الاستراتيجية ، ولكنه أيضاً كروسو كان جزءاً من الحركة الرومانتيكية ، مكافحاً للتوفيق بين العقل والوجدان ، وبين الفلسفة والدين ، وبين الفضيلة والثورة . وقد أشربه أبواه النزعة التقوية ، ثم هجنها بعقلانية كرستيان فون فولف ؛ واستوعب هرطقات جماعة الفلاسفة ؛ وهجنها بـ « اعتراف قسيس سافوا بالإيمان » فى كتاب روسو « إميل » ؛ وورث سيكولوجية لوك وليبنتس وباركلى وهيوم الدقيقة البارعة ، واستخدمها فى محاولة لينقذ العلم من هيوم ، وينقذ الدين من فولتير . وقد رتب حياته بانتظام بورجوازى ، ورحب بالثورة الفرنسية . وإذ عاش منفرداً فى بروسيا الشرقية ، فإنه أحس ولخص كل تيارات عصره العقلية .

ولد فى كونيجزبرج (٢٢ أبريل ١٧٢٤) النائية عن فرنسا ، المولعة بالوضوح والمعتمة بضباب البحر . وقد أثيرت بعض الشكوك حول أصل أسرته الاسكتلندى ، ولكن كانط نفسه يخبرنا أن جده « فى ختام القرن

الماضى هاجر من اسكتلنده إلى بروسيا ، ولا أدرى لم »[١] . وتزوج أبوه يوهان جيورج كانط من آنا رويتر ، وكان إمانويل (ومعناها الله معنا) رابع أبنائهم الأحد عشر . وقد اتخذ اسمه الأول من قديس يوم ميلاده ، ثم غير اسم الأسرة من Cant إلى Kant ليمنع الألمان من أن ينطقوه «تسانت»[٢] وقد نشأت الأسرة كلها على مذهب التقويين ، الذى كان كالمثودية الانجليزية يشدد على الإيمان والتوبة والالتجاء رأساً إلى الله ، بعكس العبادة اللوثرية التقليدية فى الكنيسة بقسيس وسيط .

وكان أحد وعاظ التقويين قد أنشأ فى كونيجزبرج «كلية فردريكية » . والتحق إمانويل بها من سن الثامنة إلى السادسة عشرة . وكان اليوم المدرسى يبدأ فى الخامسة والنصف صباحاً بنصف ساعة من الصلاة ، وكل حصة فى الصف تختم بالصلاة ؛ وخصصت ساعة كل صباح لتعليم الدين ، مع التشديد على نيران الجحيم ؛ وكان التاريخ يدرس أساساً من العهد القديم ، واليونانية من العهد الجديد . وحده.ويوم الأحد يكرس أكثره للعبادة . لقد كان تعليماً أثمر الفضيلة فى بعض خريجيه ، والنفاق فى آخرين ، وربما روحاً كئيبة فى معظمهم . وقد أنكر كانط فيما بعد هذه الجرعة الثقيلة من التقوى والإرهاب ، وقال ان الخوف والرعدة يغلبانه حين يتذكر تلك الأيام[٣] .

وفى ١٧٤٠ انتقل إلى جامعة كونيجزبرج . هنا كان أحب المدرسين إليه مارتن كنوتسن الذى عرف كانط بـ « عقلانية » فولف رغم كونه تقويا . وكان كنوتسن قد قرأ للربوبيين الانجليز ، وأدانهم ولكنه ناقش آراءهم ، وترك بعض الشكوك الربوبية فى واحد من تلاميذه على الأقل . فلما دعى كانط بعد قضاء ست سنين فى الجامعة ليرسم قسيساً لوثريا ، رفض الدعوة رغم ما وعد من ترقية قريبة إلى وظيفة مربحة[٤] . وعاش بدلا من ذلك تسع سنين رقيق الحال يعلم أبناء الأسرة الخاصة ويواصل دراسته . وكان اهتمامه حتى ١٧٧٠ بالعلم لا باللاهوت « وكان لوكريتيوس من أحب المؤلفين إليه »[٥] .

وفى ١٧٥٥ نال كانط درجة الدكتوراه ، وسمح له بأن يحاضر فى الجامعة

بوصفه « معلماً خاصاً » لا يكافأ إلا بالرسوم التى يقرر الطلبة دفعها . وظل خمسة عشر عاماً فى هذا الوضع القلق. وخلال هذه البداية الطويلة الأمد رفضت طلباته لوظيفة الأستاذية مرتين . وظل فقيراً ، يتنقل من نزل إلى نزل ، ولا يجرؤ على الزواج ، ولا يسكن بيتاً خاصاً به حتى بلغ التاسعة والخمسين(٦). وقد حاضر فى مواضيع كثيرة التباين ، ربما ليجتذب عدداً أكبر من الطلاب ، وكان عليه أن يحاضر بلغة واضحة ليتيسر له العيش . ولا بد أن كانط المعلم كان يختلف تماماً عن كانط المؤلف الذى اشتهر بغموضه . وقد وصفه هردر ، الذى كان أحد تلاميذه (١٧٦٢ — ٦٤) بعد ثلاثين عاماً ، محتفظاً له بذكرى ملؤها العرفان بالجميل ، فقال :

« أسعدنى الحظ بمعرفة فيلسوف كان معلمى . فى مقتبل عمره تحلى بشجاعة الشباب المرحة ، وأعتقد أن هذه الشجاعة لازمته حتى الشيخوخة . وكان جبينه الواضح المفكر مستقراً للبشر والسرور الذى لايكدر صفوه مكدر ، وكان حديثه حافلا بالأفكار شديد الإيحاء ؛ وفى متناوله الضحك والدعابة الذكية والخيال الفكه ؛ ومحاضراته تجمع بين التعليم والترفيه الكثير . وبالروح ذاتها التى انتقد بها ليبنتس وفولف وباومجارتن . . . وهيوم ، بحث فى القوانين الطبيعية التى قال بها نيوتن وكبلر والفزيائيون . وبهذا الأسلوب تناول كتابات روسو . . . ولم يكن لأى عصبة أو ملة ، ولا تحيز أو إجلال لاسم من الأسماء ، أدنى تأثير عليه مقابل نشر الحقيقة ودعمها . وكان يشجع سامعيه على التفكير لأنفسهم ويضطرهم فى رفق إلى هذا التفكير ؛ أما الأستبداد فكان غريباً على طبعه . وهذا الرجل الذى أذكر اسمه بأعظم عرفان وتبجيل هو إمانويل كانط ، وصورته ماثلة أمامى ، وهى محببة إلى نفسى »(٧) .

ولو أردنا أن نتذكر كانط على الأخص من واقع عمله قبل أن يبلغ السابعة والخمسين (١٧٨١) لوجب أن نرى فيه العالم أكثر من الفيلسوف — رغم أن هذين المصطلحين لم يكونا بعد منفصلين . وأول أعماله المنشورة « خواطر من التقييم الحقيقى للقوى الديناميكية ، ١٧٤٧ » نقاش علمى عن قوة الجسم أثناء حركته وهل تقاس (كما زعم ديكارت وأويلر) بالكتلة

مضروبة فى السرعة ، أو (كما زعم ليبنتس) بالكتلة مضروبة فى مربع السرعة ؛ وهو انجاز ممتاز لفتى فى الثالثة والعشرين . وتلا هذا بعد سبع سنوات مقال فى زمن دوران الأرض اليومى وهل يتغير بالمد والجزر . وفى العام نفسه نشر كانط بحثاً عن الأرض وهل بسبيلها إلى الشيخوخة ، هنا أعرب كانط عن القلق الذى يساور عصرنا الحديث على فقد الشمس بعض طاقتها كل يوم على تجمد أرضنا فى المستقبل .

وفى بحث رائع نشر عام ١٧٥٥ قدم الشاب الجرىء ذو الحادية والثلاثين عاماً « التاريخ الشامل للطبيعة ، ونظرية السماوات » . وقد نشر الكتاب غفلا من اسم المؤلف وأهدى إلى فردريك الأكبر ؛ وربما خاف كانط أن يلحقه أذى من رجال اللاهوت وأمل فى أن يبسط الملك عليه حمايته ، وقد رد جميع عمليات الأرض والسماء إلى قوانين آلية ، ولكنه أكد أن النتيجة ، بما فيها من تناسق وجمال ، تثبت وجود عقل أسمى . ولكى يفسر كانط أصل المنظومة الشمسية اقترح « الفرض السديمى » . قال :

« اننى أزعم أن كل مادة المنظومة الشمسية . . . كانت فى بداية الأشياء كلها متحللة إلى عناصرها الأولية ، وأنها ملأت كل الفضاء . . . الذى تدور فيه الآن الأجسام المكونة منه . . . وفى فضاء مملوء على هذا النحو ، لا يمكن أن يدوم هدوء شامل إلا لحظة . . . فالعناصر المشتتة الأكثف نوعاً ، بحكم قوتها الجاذبة ، تجمع من حولها كل المادة الأقل وزناً نوعياً ؛ وهذه العناصر هى الأخرى ، مع المادة التى وحدتها معها ، تتجمع فى النقط التى توجد فيها جسيمات من نوع أكثر كثافة ، وهذه بالمثل تنضم إلى جسيمات أكثف . وهلم جرا . . .

« ولكن للطبيعة قوى أخرى ، . . . بفعلها تتنافر هذه الجسيمات ، وهى التى تحدث — بصراعها مع الجاذبيات — تلك الحركة التى هى بمثابة الحياة الدائمة للطبيعة . . . وقوة التنافر هذه تظهر فى مرونة الأبخرة ، وتدفق الأجسام القوية الرائحة ، وانتشار جميع المواد الكحولية . وهذه القوة هى التى بفعلها تحيد تلك العناصر التى قد تكون ساقطة إلى النقطة التى تجتذبها . . .

عن حركتها فى خط مستقيم ؛ وسقوطها العمودى يكون فى حركة دائرية حول المركز الذى تسقط نحوه » [٨] .

واعتقد كانط أن جميع النجوم تجمعت أو هى بسبيل التجمع — فى مثل هذه المنظومات من الكواكب والشموس ، وقد أضاف عبارة ذات مغزى « أن الخليقة لا تكتمل أبداً ، انها لا تكف عن مواصلة السير » [٩]. وهذا الفرض السديمى الذى افترضه كانط فى ١٧٥٥ ، وكذلك التعديل الذى أدخله عليه لابلاس (١٧٩٦) ، حافل بالصعوبات كمعظم ماتلاه من النظريات فى أصل الكون ، ومع ذلك يقول فيه فلكى حى شهير « إنى أعتقد أن بحث كانط عن أصل الكون كان أبدع تلخيص موضوعى للعلم حتى ذلك الوقت » [١٠] . أما بالنسبة لنا فإن دلالة البحث تكمن فى بيانه أن كانط لم يكن ميتافيزيقياً غيبياً بل رجلا فتن بالعلم ، وكافح للتوفيق بين المنهج العلمى والعقيدة الدينية . وهذا لب جهوده حتى النهاية » .

وفى ١٧٥٦ ، حين هزته كارثة زلزال لشبونة التى وقعت فى ١٧٥٥ — كما هزت فولتير — إلى أعماق فلسفته ، نشر كانط ثلاث مقالات عن الزلازل ومقالا عن نظرية فى الرياح . وفى ١٧٥٧ نشر « مجملا لمجموعة محاضرات فى الجغرافيا الطبيعية وبياناً عنها » ،وفى ١٧٥٨ نشر « نظرية جديدة فى الحركة والسكون . فلما اتسعت دائرة اهتماماته أرسل إلى المطبعة رسائل قصيرة عن موضوعات التفاؤل (١٧٥٩) ، والقياس المنطقى (١٧٦٢) ، و أمراض الرأس (١٧٦٤) . وقد ألمع فى هذه الرسالة إلى أن تقسيم العمل المتزايد قد يفضى إلى الجنون نتيجة التكرار الرتيب الممل . وفى ١٧٦٣ انتقل إلى اللاهوت ببحث عنوانه « الدعامة الوحيدة الممكنة للبرهنة على وجود الله » ؛ وواضح أنه كان مبلبل الخاطر لاهتزاز إيمانه الدينى . وفى ١٧٦٤ ، بعد ثمانى سنين من نشر بيرك رسالة مماثلة ، قدم « ملاحظات على الشعور بالجميل والجليل » .

ومرت به أوقات خطر له فيها أن يوسع فرضه فى أصل الكون التطورى

ليشمل علم الأحياء ؛ وكان على علم بأن الأشكال الجديدة تطورت من القديمة بفعل تغيرات فى ظروف الحياة [١١] ، وقبل الرأى القائل بأن تشريح الإنسان كان فى الأصل ميسراً لحركة أرجل أربع [١٢] . ومع ذلك أحجم عن فكرة البيولوجية القائمة كلها على المذهب الآلى » . «كذلك مرت بى أوقات سرت خلالها فى هذه الدوامة مفترضاً هنا ميكانيكا طبيعية عمياء أساساً للتفسير . واعتقدت أننى أستطيع استكشاف طريق أسلكه إلى المفهوم البسيط الطبيعى . ولكننى كنت دائماً أنتهى إلى تحطيم سفينة العقل ، ومن ثم آثرت المغامرة فى محيط الأفكار الذى لا حدود له »[١٣] . وكان رودلف راسبي (مؤلف رحلات البارون مونتشاوزن) قد اكتشف مؤخراً مخطوط ليبنتس المفقود منذ زمن طويل « مقالات جديدة فى الفهم البشرى» ونشره فى ١٧٦٥ ، واستطاع كانط أن يقرأه بالفرنسية ، وقد أسهم فى تحويله إلى نظرية المعرفة . على أنه لم يهجر اهتمامه بالعلم هجراناً تاماً ، فقد كتب فى تاريخ متأخر (١٧٨٥) مقالا عنوانه « فى براكين القمر » . غير أن الصراع الباطن بين دراساته العلمية ولا هوته الموروث حفزه إلى التماس التوفيق بينهما فى الفلسفة .

ويحتمل أن يكون من العوامل التى وجهته هذه الوجهة الجديدة عرض (١٧٧٠) منصب أستاذ المنطق والميتافزيقا عليه . وكان الراتب ضئيلا لرجل بلغ السادسة والأربعين وهو ١٦٧ طالرا فى العام ، زيد ببطء إلى ٢٢٥ فى ١٧٨٦ ؛ وقد رفعت الراتب خدمات عارضة أداها بوصفه « سناتورا » و « أقدم أساتذة الكلية » فى ١٧٨٩ إلى ٧٢٦ طالرا وكانت التقاليد تقضى بأن يلقى الأستاذ الجديد خطاباً افتتاحياً باللاتينية . واختار كانط موضوعاً عسيراً هو « فى شكل ومبادىء العالم المحسوس والعالم المعقول » . واستعمل كانط المصطلحات « المدرسية » التى كانت لاتزال سائدة فى الجامعات الألمانية . وقصد بالعالم المحسوس العالم كما تدركه الحواس ، وسوف يسميه أيضاً فيما بعد بعالم الظواهر . أما العالم المعقول . فيقصد به العالم كما يدركه الذهن أو العقل ، وسوف يسميه بعد ذلك العالم « النومينى » . ونحن نحاول فهم العالم المحسوس بأن نطبق عليه المفاهيم الذاتية للزمان والمكان بواسطة الرياضة والعلوم ؛ والعالم المعقول بتجاوز الحواس عن طريق العقل

والمتافيزيقا إلى مصادر العالم المحسوس وأسبابه فوق الحسية . هنا أرسى كانط نظريته الأساسية : وهى أن الزمان والمكان ليسا شيئين موضوعيين أو محسوسين بل شكلين من أشكال الإدراك الحسى أصيلين فى طبيعة العقل وبنيانه ؛ وأن العقل ليس متلقياً وناتجاً سلبياً للأحاسيس ، بل هو عامل إيجابى — له طرائق وقوانين عمل أصيلة لتحويل الأحاسيس إلى أفكار .

وقد عد كانط هذا البحث الجوهرى « النص الذى سيفصل القول فيه فى الكتاب التالى » وتدل هذه العبارة الواردة فى خطاب حرره فى ١٧٧١ إلى ماركوس هرتس على أن الفيلسوف كان الآن يخطط لكتابة « نقد العقل الخالص » . وبعد اثنتى عشرة سنة من العكوف على ذلك البحث الضخم نشره على الناس فى ١٧٨١ ، وأهداه لكارل فون تسيدلتس وزير التعليم والشئون الدينية فى عهد فردريك الأكبر . وكان تسيدلتس ، كما كان الملك ، ربيب حركة التنوير ، ونصيراً لحرية النشر . وقد قدر كانط أن حمايته ستكون مفيدة جداً إذا استشف اللاهوتيون وراء ألفاظه الغامضة واستنتاجاته السنية فى ظاهرها تحليلا من أشد التحليلات التى تلقاها اللاهوت المسيحى تدميراً .

٢ — نقد العقل الخالص ، ١٧٨١

إذا وجد العالم هذا الكتاب عسيراً فقد يكون السبب منهج العمل الذى انتهجه كانط . كتب إلى موسى مندلسون (١٦ أغسطس ١٧٨٣) يقول : مع أن الكتاب « ثمرة تأمل شغلنى على الأقل اثنى عشر عاماً ، فإنى أكملته بأقصى سرعة فى أربعة أشهر أو خمسة ، باذلا أبلغ العناية بمحتوياته ، ولكن دون اهتمام يذكر بالعرض أو بتيسير فهمه للقارىء — وهو قرار لم أندم عليه قط ، وإلا فلو تباطأت وحاولت صياغته فى شكل أكثر شعبية لما اكتمل العمل إطلاقاً فى أغلب الظن »[١٤] . إن الوضوح يقتضى الوقت ، ولم يكن كانط واثقاً من أنه يملك الوقت . وقد حذف عمداً بعض الأمثلة الموضحة

مخافة أن يتضخم كتابه ؛ « فهذه ليست ضرورية إلا من وجهة النظر الشعبية ، وهذا الكتاب لا يمكن أبداً جعله صالحاً للاستهلاك الشعبي » [١٥] . وهكذا كتب كانط لأهل حرفته ، وركن إلى غيره فى تبسيطه وتخفيفه ليصلح للهضم . ومع أن كرستيان فون فولف كان قد سبقه فى التأليف الفلسفى بالألمانية ، إلا أن تلك اللغة كانت لاتزال على جفافها فى التعبير عن ظلال التفكير ، ولم تكن قد استقرت على مصطلحات فنية فى الفلسفة . وكان على على كانط فى كل خطوة تقريباً أن يخترع ترجمة ألمانية لمصطلح لاتينى ، وفى كثير من الحالات حتى اللاتينية كانت تفتقر إلى مصطلحات تفى بالفوارق الدقيقة التى أراد التعبير عنها . وقد أربك قراءه بخلعه المعانى الجديدة على الألفاظ القديمة ، وبنسيانه أحياناً تعاريفه الجديدة . والصفحات المائة الأولى واضحة وضوحاً لا بأس به ، أما باقى الكتاب فحريق فلسفى لا يبصر فيه القارىء غير الخبير شيئاً غير الدخان .

وقد احتاج العنوان نفسه إلى إيضاح . فأنى للقارىء أن يعرف أن « نقد العقل الخالص » معناه تمحيص نقدى حصيف للعقل مستقلا عن التجربة ، و « النقد لم يعن التحليل والعرض فحسب ، بل الحكم أيضاً ، كما يستفاد من سالف اللفظة اليونانى (بمعنى يحكم) . وقد قصد كانط أن يصف الحس ، والإدراك الحسى والفكرة والعقل ، وأن يقرر لكل منها حدودها واختصاصاتها الصحيحة . ثم أمل أن يبين أن فى استطاعة العقل أن يعطينا المعرفة مستقلا عن أى خبرة مؤيدة ، كما هى الحال فى معرفتنا أن ستة مضروبة فى ستة تساوى ستة وثلاثين ، أو أنه لا بد أن يكون للمعلول علة . تلك أمثلة لـ « العقل الخالص » — أعنى المعرفة القبلية أو الأولية ، أى المعرفة التى لا تتطلب برهاناً من التجربة . يقول : « إن ملكة المعرفة الحاصلة من المبادىء القبلية يمكن أن نسميها العقل الخالص ، والبحث العام فى قدرتها وحدودها (يؤلف) نقد العقل الخالص» [١٦] . وقد اعتقد كانط بأن بحثاً كهذا سينطوى على كل مشكلات الميتافيزيقا ؛ وكان على ثقة من أنه « ما من مشكلة ميتافيزيقية واحدة لم تحل ، أو لم يقدم

مفتاح حلها على الأقل » فى هذا النقد [١٧] . وذهب إلى أن الخطر الوحيد الذى يخشاه « ليس خطر تفنيد آرائى بل عدم فهمى» [١٨] .

فما الذى جره يا ترى إلى خوض هذه المغامرة البطولية ؟ قد يظن أن اعلاء حركة التنوير الفرنسية من شأن العقل — وزعم جماعة الفلاسفة أن الإيمان يجب أن يخضع للعقل — وما حاق باللاهوت المسيحى نتيجة لهذا من دمار ، كان السبب الذى جعل كانط يصمم على دراسة أصل العقل وعمله وحدوده . وقد لعب ذلك الحافز دوره ، كما ورد فى مقدمة كانط للطبعة الثانية [١٩] ، ولكن المقدمة ذاتها أوضحت بجلاء أن العدو الذى اسهدفه هو هذه التوكيدية الإيقانية (الدجماطيقية) بكل ألوانها — أى كل مذاهب الفكر التقليدية والمبتدعة على السواء ، التى ينشئها عقل لم يخضع للامتحان . وقد لقب كرستيان فون فولف بـ « أعظم الفلاسفة الدجماطيقيين قاطبة » لأنه اضطلع بإثبات عقائد المسيحية ، وفلسفة لبنتس بالعقل وحده . وكل المحاولات التى تبذل للبرهنة على صدق الدين أو كذبه بالعقل الخالص هى فى نظر كانط صور من الدجماطيقية ؛ وقد حكم بـ « دجماطيقية الميتافزيقا » على كل مذهب فى العلم أو الفلسفة أو اللاهوت لم يخضع أولا لامتحان نقدى للعقل ذاته .

وقد اتهم تفكيره هو ، حتى عام ١٧٧٠ ، بأنه مدان بهذه الدجماطيقية . يقول إن ما أيقظه من هذه التأملات غير الممحصة هو قراءته لهيوم — ربما كتابه « بحث فى الفهم البشرى » الذى ظهرت ترجمة ألمانيا له فى ١٧٥٥ . وكان هيوم قد زعم أن كل تدليل يعتمد على فكرة العلة ، وأننا فى التجربة الفعلية لاندرك العلة إدراكاً حسياً بل التعاقب وحده ؛ وإذن فكل العلم والفلسفة واللاهوت يرتكز على فكرة — علة ليست غير فرض ذهنى لاحقيقة مدركة حسياً . كتب كانط يقول « أعترف بصراحة أن ملاحظة ديفد هيوم هى التى قطعت على سباتى الدجماطيقى منذ سنين طويلة ووجهت أبحاثى فى مجال الفلسفة النظرية فى اتجاه مختلف كل الاختلاف» [٢٠] . فكيف يمكن إنقاذ مفهوم العلة من المكان الوضيع ، مكان الفرض غير اليقينى ، الذى

خلفه فيه هيوم ؟ يقول كانط أنه لا سبيل إلى ذلك إلا ببيان أنه قبلى ، مستقل عن الخبرة ، واحد من تلك المقولات ، أو أشكال الفكر ، التى وإن كانت ليست بالضرورة فطرية ، إلا أنها جزء من التركيب الفطرى للعقل(*). ومن ثم صمم على التغلب على دجماطيقية فولف وارتيابية هيوم جميعاً بنقد — أى بتمحيض نقدى — يصف فى الوقت نفسه سلطة العقل ويحددها ويحييها. وهذه المراحل الثلاث — الدجماطيقية ، والارتيابية ، والنقد — هى فى نظر كانط المراحل الثلاث الصاعدة فى تطور الفلسفة الحديثة .

وفى ولع بالتعاريف ، والتمييزات ، والتصنيفات ، وباستخدام للألفاظ الطويلة اختصاراً للكلام ، قسم كانط المعرفة كلها إلى معرفة تجريبية (تعتمد على التجربة) وأخرى ترانسندنتالية (مستقلة عن التجربة ومن ثم متجاوزة لها) . وقد وافق على أن المعرفة كلها « تبدأ » بالتجربة ، بمعنى أن إحساساً ما لا بد أن يسبق وينبه عمليات الفكر ، ولكنه يعتقد أنه فى اللحظة التى تبدأ فيها التجربة فإن تركيب العقل يشكلها بما تأصل فيه من أشكال « الحدس » (الإدراك الحسى) أو الإدراك العقلى . وأشكال « الحدس » الأصيله هى الصور المشتركة بين الجميع ، والتى تتخذها التجربة فى إحساسنا الظاهر كمكان ، وفى حساسيتنا الباطنة كزمان .

وبالمثل توجد أشكال فطرية من الإدراك العقلى أو الفكر ، مستقلة عن التجربة وهى تشكلها . وقد سماها كانط المقولات ، وقسمها بتناسق أولع به وحرص عليه حرصاً شديداً إلى أربع مجموعات ثلاثية : ثلاث مقولات للكم—هى الوحدة والكثرة وجملة الكل ؛ وثلاث مقولات للكيف— هى الوجود والسلب وحد التناهى ؛ وثلاث مقولات قوائم للإضافة هى الجوهر فى مقابل العرض ، والسببية فى مقابل التلازم ، والمشاركة أو التفاعل ؛

(*) ذكر كانط فى خطاب لجارف فى ١٧٩٨ تفسيراً لاحقاً لـ « يقظته » هذه . قال : « إن تناقضات العقل الخالص (الصعوبات التى ينطوى عليها الإيمان بالله أو عدم الإيمان به ، أو حرية الإراده ، أو الخلود) . . . هى التى بدأت ايقاظى من سباتى الدجماطيقى وساقتنى إلى نقد العقل » (٢١) .

وثلاث مقولات قوائم للجهة — هى الإمكان فى مقابل الاستحالة، والوجود فى مقابل العدم ، والضرورة فى مقابل العرضية . وكل إدراك حسى يندرج تحت واحد أو أكثر من هذه الأشكال أو القوالب الأساسية للفكر . فالإدراك الحسى إحساس تترجمه الأشكال الفطرية للزمان والمكان ، والمعرفة إدراك حسى تحوله المقولات إلى حكم أو فكرة . والتجربة ليست قبولا سلبياً لانطباعات موضوعية على حواسنا ، إنما هى حصيلة العقل المؤثر إيجابياً على خامة الإحساس .

وقد حاول كانط أن يعارض ارتيابية هيوم فى العلية ، وذلك بأن عد علاقة العلة والمعلول شكلا حقيقياً من أشكال الفكر لا حقيقة موضوعية ؛ وهى بهذه الصفة مستقلة عن الخبرة وليست خاضعة لعدم يقينية الأفكار التجريبية . ولكنها مع ذلك جزء ضرورى من كل تجربة ، لأننا لا نستطيع فهم التجربة بدونها . ومن ثم فإن « إدراك العلة العقلى » ينطوى على صفة الوجوب ، التى لا يمكن لأى تجربة أن تعطيها » [٢٢] . وقد ظن كانط أنه بـ « خفة القلم » هذه أنقذ العلم من ذلك القيد المذل ، قيد الاحتمال ، الذى قضى عليه به هيوم . بل انه زعم أن العقل البشرى لا الطبيعة — هو الذى ينشىء « قوانين الطبيعة » الشاملة ، وذلك بإضفائه على بعض تعميماتنا — كالتعميمات الرياضية — صفات من الشمول والوجوب لاتدرك موضوعها إدراكاً حسياً . « إننا نحن الذين ندخل ذلك الترتيب والانتظام على المظهر الذى نسميه « الطبيعة » . وما كنا لنجدهما قط فى المظاهر لو لا أننا نحن أنفسنا بحكم طبيعة عقلنا ، وضعناهما فى الأصل هناك » [٢٣] و « قوانين الطبيعة ليست كيانات موضوعية بل مركبات عقلية نافعة فى معالجة التجربة » .

وكل معرفة تتخذ شكل الصور أو المثل، والمثالى بهذا المعنى على صواب : فالعالم « بالنسبة لنا » ليس إلا أفكارنا . وما دمنا لانعرف المادة إلا كأفكار وبواسطة الأفكار ، فالمادية إذن مستحيلة منطقياً ، لأنها تحاول أن ترد المعلوم مباشرة (الأفكار) إلى المجهول أو المعلوم بطريق غير مباشر . ولكن المثالى يخطىء إذا اعتقد أنه لا شىء « موجود » إلا صورنا ، لأننا نعلم أن الصور

يمكن إحداثها بالأحاسيس ، ونحن لا نستطيع تفسير كل الأحاسيس دون أن نفترض ، لكثير منها ، علة خارجية . وبما أن معرفتنا مقتصرة على الظواهر أو المظاهر — أى على الشكل الذى يتخذه السبب الخارجى « بعد » أن تشكله أساليب إدراكنا الحسى والعقلى — فإننا لا نستطيع أبداً أن نعرف الطبيعة الموضوعية لتلك العلة الخارجية [٢٤] ، ولا بد أن تظل بالنسبة لنا شيئاً — فى — ذاته ، ملغزا ، « نومينا » يدرك عقلياً ولا يدرك حسياً على الإطلاق . فالعالم الخارجى موجود ولكنه فى حقيقتـــه المطلقة مجهول لا يمكن معرفته » [٢٥] .

والنفس أيضاً حقيقية ولكن لا يمكن معرفتها . ونحن لا ندركها حسياً على الإطلاق بوصفها كياناً مضافاً إلى الحالات العقلية التى ندركها حسياً ، وهى الأخرى « نومين » يدرك عقلياً بالضرورة باعتبارها الحقيقة التى من وراء الذات الفردية ، والحس الأخلاقى وأشكال العقل وعملياته . والإحساس بالذات يمتزج مع كل حالة عقلية ، ويوفر الاستمرارية والهوية الشخصية . والوعى بالذات « وعى الذات الاستبطانى » هو أوثق تجاربنا قاطبة ، ولا سبيل إلى إدراكه عقلياً كشىء مادى بأى جهد بطولى من جهود المخيلة [٢٦] . ويبدو من المستحيل أن تؤثر نفس لا مادية فى جسد مادى ، وأن تتأثر به ، ولكن لنا أن نعتقد أن الحقيقة المجهولة والكامنة وراء المادة « قد لا تكون مع ذلك شديدة الاختلاف فى طبيعتها » من ذلك الشىء — فى — ذاته ، الباطن ، الذى هو النفس [٢٧] .

وليس فى استطاعتنا بالعقل الخالص أو النظرى أن نثبت (كما حاول فولف) أن نفس الفرد خالدة ، أو أن الإرادة حرة ، أو أن الله موجود ؛ ولكننا أيضاً لا نستطيع بالعقل الخالص أن ندحض هذه المعتقدات (كما خطر لبعض الشكاك أن يفعلوا) فالعقل والمقولات مهيأة للتعامل مع الظواهر أو المظاهر فقط ، الظاهرة أو الباطنة ، ولا نستطيع تطبيقهما على الشىء — فى — ذاته ، أى على الحقيقة التى من وراء الأحاسيس أو النفس التى من وراء الأفكار . فإذا حاولنا إثبات عقائد الدين أو دحضها وقعنا فى أغلاط (فى البرهان)

أو أغاليط (مغالطات) أو نقائض — تناقضات ملازمة . كذلك ينتهى بنا الأمر إلى استحالات كهذه إذا قلنا إن العالم كان له بداية أو لم يكن ، أو إن الإرادة حرة أو غير حرة ، أو إن كائناً واجباً أو كائناً أعلى موجود أو غير موجود . وعبر كانط فى بلاغة غير معهودة فيه عن البرهان الغائى (٢٨) . ولكنه خلص إلى أن « قصارى ما يستطيع هذا البرهان إثباته هو « مهندس » . . . تعوقه دائماً أشد التعويق تكيفية المادة التى يشتغل بها ، لا « خالق » . . يخضع لفكرته كل شىء » (٢٩) .

ومع ذلك فكيف نستطيع الرضى بمثل هذه النتيجة المحيرة — وهى أن حرية الإرادة ، والخلود ، والله ، هذه كلها لا يمكن إثباتها أو نفيها بالعقل الخالص ، يقول كانط إن فى باطننا شيئاً أعمق من العقل ، هو شعورنا الذى لا يقبل التفنيد بأن الوعى ، والعقل ، والنفس ، ليست مادية ، وأن الإرادة حرة إلى حد ما ، وإن يكن على نحو غامض ولا منطقى ؛ ونحن لانستطيع أن نقنع طويلا بالنظر إلى العالم على أنه تسلسل لا معنى له من التطور والفناء دون مغزى خلقى أو عقل أصيل . فكيف نستطيع تبرير إرادة الإيمان فينا ؟ من جهة (كما يقول كانط) بالجدوى الفعلية للإيمان — لأنه يقدم لنا بعض الهداية فى تفسير الظواهر ، ويوفر لنا شيئاً من السلامة الفلسفية والسلام الدينى ، يقول :

« إن أشياء العالم يجب النظر إليها » كأنها « تلقت وجودها من عقل أسمى ففكرة (الله) هى فى الحقيقة مدرك عقلى موجه ، لا مدرك عقلى مباشر (هى فرض يعين على الكشف والفهم ، ولكنها ليست برهاناً) . . . فى ميدان اللاهوت يجب أن ننظر إلى كل شىء « كأن » جماع المظاهر كلها (العالم المحسوس ذاته) له أساس واحد ، أسمى ، كلى الاكتفاء ، وراء ذاته — هو عقل موجود بذاته ، مبتكر ، مبدع . لأنه فى ضوء هذه الفكرة ، فكرة العقل المبدع ، نوجه الاستخدام التجريبى «لعقلنا» بحيث نحصل على أقصى امتداد مستطاع له . . والمفهوم المحدد الوحيد الذى يعطينا إياه العقل النظرى الخالص عن الله هو ، بأدق معنى ، مفهوم « ربوبى » ؛ أى أن العقل لايحدد الصحة

الموضوعية لمثل هذا المفهوم ، إنما هو يعطينا فقط الفكرة عن شيء هو الأساس للوحدة الأسمى والواجبة لكل الحقيقة التجريبية » [٣٠] .

ولكن المبرر الأشد إلزاماً للاعتقاد الديني ، في رأى كانط ، هو أن هذا الاعتقاد لا غنى عنه للأخلاقية و « لولا أن هناك كائناً أصلياً متميزاً عن العالم ، ولو كان العالم . . . بغير خالق ، ولو كانت إرادتنا غير حرة ، ولو كانت الروح . . . فانية كالمادة ، إذن لفقدت الأفكار والمبادىء الأخلاقية «كل صحتها » [٣١] . وإذا شئنا للصفة الأخلاقية والنظام الاجتماعي إلا يعتمدا كلية على الخوف من القانون ، فلا بد لنا من دعم الإيمان الديني ، ولو بوصفه مبدأ منظماً ، ويجب أن نسلك ، كأننا نعرف « أن هناك إلهاً ، وأن نفوسنا خالدة ، وأن إرادتنا حرة »[٣٢] . أضف إلى ذلك ، أننا إعانة للفكر والأخلاق — مبررون في تمثيل سبب العالم بلغة تشبيهية لطيفة دقيقة . (بغيرها لا نستطيع تصور أى شيء متصل بهذا السبب) أعني ككائن ذى فهم ، ومشاعر سرور وأستياء ، ورغبات ومشيئات تقابلها » [٣٣] .

وهكذا يختتم كتاب « النقد » الشهير ، مخلفاً مذاهب الفكر المتعارضة وقد سرى عنها وأثار استياءها . لقد أصبح في وسع الشكاك أن يزعموا أن كانط برد اللاإدرية ، وأن يزدروا إرجاعه الله إلى مكانته السابقة مكملا للشرطة . ووبخه اللاهوتيون المصدومون على تسليمه بهذا القدر الكبير للكفار ، واغتبطوا لأن الدين خرج — فيما بدا لهم — حياً من رحلته الخطرة داخل متاهة عقل كانط . وفي ١٧٨٦ وصف كارل راينهولت هذه الضجة الكبرى فقال :

«لقد حكم الدجماطيقيون على كتاب « نقد العقل الخالص» : بأنه محاولة شاك يقوض يقينية المعرفة كلها . الشكاك بأنه قطعة من التبجح المستعلى تضطلع بإقامة صورة جديدة من الدجماطيقية على أنقاض مذاهب سابقة ؛ وفوق الطبيعيين بأنه حيلة مبيتة بدهاء لإزاحة الأسس التاريخية للدين ، ولاقاه المذهب الطبيعي دون جدل عنيف ؛ والطبيعيون بأنه دعامة جديدة لفلسفة الإيمان المحتضرة ؛ وحكم عليه الماديون بأنه إنكار مثالى النزعة لحقيقة

المادة ؛ والروحانيون بأنه قصر لا مبرر له للمعرفة كلها على العالم المادى مستتر تحت اسم ميدان التجربة . . . » [٣٤] .

وهاجمت مدارس الفكر هذه كلها تقريباً الكتاب فأذاعت بذلك شهرته ولو بتجريحه . وأعلت من قدرة كل العوامل حتى عسر فهمه الذى جعله تحدياً يتعين على كل عقل عصرى أن يقبله . وسرعان ما جرت مصطلحات كانط وألفاظه الطويلة على كل لسان مثقف .

ولم يستطع كانط أن يفهم لم عجز نقاده عن فهمه . ألم يعرف كل مصطلح أساسى مراراً وتكراراً ؟ (بلى ، وما أشد التباين فى تعاريفه !) وفى ١٧٨٣ رد على الهجمات بإعادة صياغة « النقد » فيما خاله صورة أبسط ، وسمى رده فى تحد « مقدمة لكل ميتافيزيقا مستقبلة قادرة على الظهور كعلم » . وزعم فى هذا الرد أنه قبل كتابة « نقد العقل الخالص » لم تكن هناك ميتافيزيقا ميتافيزيقا حقيقية على الإطلاق ، لأنه ما من مذهب قدم لنفسه بتمحيص ناقد لأداته — وهى العقل . فإذا كان بعض القراء عاجزين عن فهم كتاب « النقد » فقد يكون السبب أنهم ليسوا على مستواه تماماً ؛ « وفى هذه الحالة على القارىء أن يستخدم مواهبه العقلية فى شىء آخر » ، وعلى أى حال « ما من حاجة تدعو كل إنسان لدراسة الميتافيزيقا » [٣٥] . لقد كان فى الأستاذ العجوز دعابة وكبرياء ، وفيه حدة فى الطبع أيضاً . على أن « المقدمة » باتت كلما أو غلت عسيرة عسر كتاب النقد الأصلى .

واتصل الجدل فى ظل حكومة فردريك الأكبر المتسامحة . وكان كانط قد كتب فى كتابه « نقد العقل الخالص » فقرات بليغة عن شرف العقل ، وعن حقه فى حرية التعبير [٣٦] . وفى ١٧٨٤ ، حين كان لا يزال مطمئناً إلى حماية فردريك وتسيدلتس ، نشر مقالا عنوانه (ما التنوير ؟) . وقدعرف التنوير بأنه حرية الفكر واستقلاله ، واتخذ شعاراً ونصيحة القول المأثور « تجرأ على أن تعرف » . وأبدى أسفه على تخلف التحرر الفكرى نتيجة لمحافظة الأغلبية على القديم . « فإذا سألنا

هل عائشون فى عصر مستنير ؟ فالجواب لا » ، إنما نحن نعيش فى « عصر التنوير» « ثم حيا فردريك باعتباره عنوان حركة التنوير الألمانى وحاميها ، والملك الوحيد الذى قال لرعاياه « فكروا كما تشاءون »[٣٧] .

ولعله كتب هذا الكلام مؤملا أن خليفة فردريك سيلزم سياسة التسامح . ولكن فردريك وليم الثانى (١٧٨٦ — ٩٧) كان أكثر اهتماما بقوة الدولة منه بحرية العقل . فلما أعدت طبعة ثانية من « نقد العقل الخالص » (١٧٨٧) عدل كانط بعض فقراته ، وحاول التخفيف من حدة هرطقاته بمقدمة طابعها الاعتذار . قال « وجدت من الضرورى أن أنفى المعرفة (بالأشياء فى ذواتها) لأفسح مجالا للإيمان . . . فالنقد وحده يستطيع أن يقطع جذور المادية والقدرية والكفر والإلحاد والتعصب والخرافة »[٣٨]. وكان محقاً فى هذا الحذر . ففى ٩ يوليو ١٧٨٨ أصدر يوهان كرستيان فون فولنر ، وزير الإدارة اللوثرية « مرسوماً دينياً » رفض التسامح الدينى صراحة باعتباره مسئولا عن التحلل الخلقى ، وهدد بالطرد من منابر الكنائس أو كراسى الجامعات كل الوعاظ أو المدرسين المنحرفين عن المسيحية التقليدية . فى هذا الجو الرجعى نشر كانط « نقده » الثانى .

٣ — نقد العقل العملى ، ١٧٨٨

وما دام كتاب « النقد » الأول زعم أن العقل الخالص لا يستطيع أن يثبت حرية الإرادة ، وما دامت الأخلاقية — فى رأى كانط — تحتاج إلى هذه الحرية ، فإن عمليات العقل بدت وقد تركت الأخلاقية ، كاللاهوت ، دون أساس عقلى . بل أسوأ من هذا أن حركة التنوير قوضت الأساس الدينى للأخلاق بالتشكيك فى وجود إله مثيب معاقب . فأنى للحضارة أن تبقى حية إذا انهارت عمد الأخلاقية التقليدية هذه ؟ وأحس كانط أنه هو نفسه ، بوصفه تلميذاً صريحاً للتنوير ، ملتزم أخلاقياً بالعثور على أساس عقلى ما لناموس أخلاقى . وعليه فنى مقال تمهيدى عنوانه « المبادىء الأساسية لميتافيزيقا الأخلاق » (١٧٨٥) رفض محاولة أحرار الفكر إقامة الأخلاقية على

تجربة الفرد أو النوع ؛ فمثل هذا الاشتقاق البعدى خليق بأن يساب المبادىء الأخلاقية تلك الكلية وذلك الإطلاق اللذين هما فى رأيه شرط للمبدأ الأخلاقى السليم . ثم أعلن بما تميز به من ثقة بالنفس : « أنه من الواضح أن المفاهيم الأخلاقية كلها مستقرة ومتأصلة قبلياً فى العقل كلية » [٣٩] . وقد استهدف كتابه الثانى الكبير « نقد العقل العملى » العثور على ذلك المستقر والأصل وإيضاحه . فسيحلل العناصر القبلية فى الأخلاقية كما حلل الكتاب الأسبق فى النقد العناصر القبلية فى المعرفة .

يزعم كانط أن لكل فرد ضميراً ، إحساساً بالواجب ، وعياً بقانون أخلاقى آمر . « شيئان يملآن العقل بالإعجاب والرهبة المتجددين المتعاظمين أبدا . . . السموات المرصعة بالنجوم من فوقنا ، والقانون الأخلاقى فى داخلنا »[٤٠] . وكثيراً ما يتعارض هذا الشعور الأخلاقى برغباتنا الحسية ، ولكننا ندرك أنه عنصر أسمى فينا من طلب اللذة . وهو ليس ثمرة التجربة ، إنما هو جزء من بنائنا النفسى الأصيل ، مثل المقولات ؛ وهو محكمة باطنية حاضرة فى كل شخص من كل جنس [٤١] . وهو مطلق الحكم ، يأمرنا أمراً غير مشروط ، وبغير استثناء أو عذر ، بأن نفعل الحق من أجل الحق ، كغاية فى ذاته ، لا كوسيلة للسعادة أو الثواب أو لخير غيره . فأمره مطلق .

وهذا الأمر المطلق يتخذ شكلين : « اعمل بحيث تستطيع قاعدة إرادتك أن تظل على الدوام صادقة كمبدأ للتشريع العام » ؛ أسلك بحيث إذا سلك الغير مثلك سار كل شيء على ما يرام ، وهذه (الصيغة المعدلة من القاعدة الذهبية — أى التى تأمر بمعاملة الناس كما تحب أن يعاملون) هى « القانون الأساسى للعقل العملى الخالص » [٤٢] ، وهى « الصيغة لإرادة خيرة خيرا مطلقاً [٤٣] . وفى صيغة ثانية ، « اعمل بحيث تعامل الإنسانية ، سواء ممثلة فى شخصك أو فى شخص أى إنسان آخر ، وفى كل حالة ، كغاية لا كمجرد واسطة اطلاقاً » [٤٤] ، — فى هذه الصيغة الثانية أعلن كانط مبدأ أشد ثورية من أى شيء احتواه الإعلان الأمريكى أو الفرنسى لحقوق الإنسان .

والأحسان بالالتزام الخلقى دليل إضافى على قدر من حرية الإرادة .

فأنى يكون لنا هذا الشعور بالواجب لو لم نكن أحراراً في أن نعمل أو لا نعمل ، ولو كانت أفعالنا مجرد حلقات في سلسلة لا تنفصم من العلة والمعلول الميكانيكيين؟ والشخصية بدون الإرادة الحرة عديمة المعنى ؛ وإذا كانت الشخصية عديمة المعنى كانت الحياة كذلك ، وإذا كانت الحياة عديمة المعنى كان الكون كذلك [٤٥] . ويدرك كانط بمنطق الحتمية الذى يبدو ولا مهرب منه ، فكيف يستطيع الاختيار الحر أن يتدخل في عالم موضوعى يبدو محكوماً بقوانين ميكانيكية (كما يعترف كانط)؟ [٤٦] وجوابه عن هذا السؤال بلغ الغاية في الغموض والإبهام . فهو يذكرنا بأن القانون الميكانيكى مركب عقلى ، نظام يفرضه العقل ، بواسطة مقولته العلية ، على عالم المكان والزمان ذريعة للتعامل معه باتساق . وما دمنا قد قصرنا المقولات على عالم الظواهر ، وما دمنا قد سلمنا بأننا لا نعرف كنه العالم النومينى — الشيء — في — ذاته الكائن خلف الظواهر — فأننا لا نستطيع الزعم بأن القوانين التى نركبها للظواهر تصدق أيضاً على الحقيقة المطلقة . وبما أننا سلمنا أننا لا نعرف ، في ذواتنا ، إلا الذات الظاهرية — عالم المدركات الحسية والصور فقط — ولا نعرف كنه النفس الباطنة والنومينية ، فإننا لا نستطيع الزعم بأن قوانين العلة والمعلول التى يبدو أنها تحكم أفعال أبداننا (بما فيها أمخاخنا) تنطبق أيضاً على إرادات الحقيقة الروحية المطلقة الكائنة وراء عملياتنا العقلية . فوراء ميكانيكيات العالم الظاهرى للمكان وللأفكار في الزمان قد تكون هناك حرية في العالم النومينى الذى بلا مكان ولا زمان ، عالم الحقيقة المطلقة — الظاهرة أو الباطنة . وأفعالنا وأفكارنا تتحدد بمجرد دخولها عالم الأحداث المادية أو العقلية المدركة حسياً ؛ وقد تظل حرة في أصلها في النفس غير المدركة حسياً ؛ « وهكذا يمكن للحرية والطبيعة أن توجدا معاً » [٤٧] ، وليس في إمكاننا إثبات هذا ، ولكن يجوز لنا شرعاً أن نفترضه متضمناً بحكم طبيعة حسنا الأخلاقى الآمرة ؛ وبدونه تموت حياتنا الأخلاقية .

على أى حال (في رأى كانط) ، لم لا ينبغى أن نقدم العقل العملى على النظرى؟ أن العلم ، الذى يبدو أنه يجعلنا آلات ذاتية الحركة ، هو في النهاية مضاربة — مقامرة على الصحة الدائمة لنتائج ومناهج لا تفتأ تتغير . ونحن

على حق إذا شعرنا بأن الإرادة فى الإنسان أهم من الذهن ، فالذهن أداة صاغتها الإرادة للتعامل مع العالم الخارجى والميكانيكى ، وما ينبغى أن يكون السيد المتسلط على الشخصية التى تستخدمه (٤٨) .

ولكن إذا كان الحس الأخلاقى يبرر افتراضنا قدر من الإرادة الحرة ، فإنه يبرر أيضاً اعتقادنا بخلود النفس ، ذلك أن حسنا الأخلاقى يستحثنا إلى كمال تحبطه المرة بعد المرة دوافعنا الحسية ، ونحن لا نستطيع تحقيق هذا الكمال فى حياتنا على الأرض ؛ فإذا كان هناك عدل فى العالم فلا بد أن نفترض أننا سنمنح حياة متصلة بعد الموت لاكتمالنا الأخلاقى . وإذا كان هذا يفترض أيضاً وجود إله عادل ، فإن هذا أيضاً يبرره العقل العملى . فالسعادة الأرضية لا تتفق دائماً والفضيلة ، ونحن نشعر أن التوازن بين الفضيلة والسعادة سيصحح فى مكان ما ، وهذا لا سبيل إليه إلا إذا افترضنا وجود إله يحقق هذه المصالحة ، وعليه فإن وجود سبب للطبيعة كلها ، متمايز عن الطبيعة ذاتها ، محتوياً لمبدأ . . . الإنسجام الدقيق بين السعادة والفضيلة ، هذا أيضاً من مسلمات « العقل العملى (٤٩) .

وقد عكس كانط النهج التقليدى المألوف . فبدلا من أن يستنبط الحس الأخلاقى والناموس الأخلاقى من الله (كما فعل اللاهوتيون من قبل) ، استنبط الله من الحس الأخلاقى . ويجب أن نتصور واجباتنا لا على أنها « أوامر تعسفية لإرادة غريبة عنا » بل قوانين أساسية لكل إرادة حرة فى ذاتها » . على أنه مادامت تلك الإرادة والله كلاهما ينتميان إلى العالم النومينى ، فينبغى أن نتقبل هذه الواجبات على أنها أوامر إلهية ولن ننظر إلى الأفعال (الأخلاقية) على أنها إلزامية لأنها أوامر الله ، ولكنا سنعدها أوامر الهية لأن فينا إلتزاماً باطنياً نحوها » (٥٠) .

وإذا كان هذا التفكير « الإرادى » (العنيد) يشوبه بعض الغموض ، فقد يكون السبب أن كانط لم يكن شديد التحمس لمحاولته التوفيق بين فولتير وروسو . فقد مضى « نقد العقل الخالص » شوطاً أبعد حتى من فولتير فى الاعتراف بأن العقل الخالص لايستطيع إثبات حرية الإرادة ،

أو الخلود ، أو الله . ولكن كانط كان قد وجد فى تعاليم روسو — عن تهافت العقل ، وأولية الوجدان ، وانبثاق الدين من الحس الأخلاقى للإنسان — مهرباً مستطاعاً من اللاإرادية ، والتحلل الخلقى ، وبوليس فولتر . ورأى أن روسو أيقظه من « السبات العقائدى» فى الأخلاق كما أيقظه هيوم فى الميتافيزيقا [٥١] . فكان كتابه الأول فى النقد ينتمى إلى حركة التنوير ، والثانى إلى الحركة الرومانتيكية ، ومحاولة الجمع بين الإثنين كانت من أبرع الإنجازات فى تاريخ الفلسفة . وقد عزا هاينى المحاولة إلى الحرص على حاجات عامة الشعب : لقد رأى الأستاذ خادمه الأمين لامبه يبكى على موت الله ؛ « فرق له قلب إيمانويل كانط ، وأثبت أنه ليس فيلسوفاً عظيماً فحسب ، بل إنساناً طيباً أيضاً » ، وقال بمزيج من العطف والتهكم : « يجب أن يكون للامبه العجوز إله ، وإلا فلن يستطيع أن يكون سعيداً . . . أما من جهتى أنا فإن العقل العملى يستطيع أن يضمن وجود الله »[٥٢] .

٤ — نقد الحكم ، (١٧٩٠)

ولابد أن كانط نفسه كان غير راض عن براهينه ، لأنه فى كتابه « نقد الحكم » عاد إلى مشكلة الآلية مقابل الإرادة الحرة ، وتقدم إلى مشكلة الصراع بين الآلية والقصد ، وأضاف إليها مقالات معقدة فى الجمال ، والجلال ، والعبقرية ، والفن . وهو مزيج لا يثير الشهية .

أما ملكة الحكم هذه ، « فهى عموماً ملكة التفكير فى الجزء على أنه محتوى فى الكل » ، وهى إدراج شىء أو فكرة أو حدث تحت صنف أو مبدأ أو قانون . لقد حاول كتاب « النقد » الأول أن يدرج جميع الأفكار تحت المقولات الكلية القبلية ، وحاول الثانى إدراج جميع المفاهيم الأخلاقية تحت حس أخلاقى قبلى كلى ، أما الثالث فاضطلع بالعثور على مبادىء قبلية لأحكامنا الجمالية (الإستطيقية) — فى النظام أو الجمال أو الجلال فى الطبيعة أو الفن ، [٥٣] «انى أجرؤ على الأقل فى أن تنهض صعوبة حل معضلة ، فى طبيعتها مثل هذا التعقيد ، عذراً يبرر بعض الغموض الذى لا يمكن تجنبه فى حلها »[٥٤] .

ان الفلسفة « الدجماطيقية » قد حاولت من قبل أن تجد عنصراً موضوعياً في الجمال ؛ أما كانط فيشعر أن هنا ، على الأخص ، يكون العنصر الذاتى هو الغالب . فليس هناك شىء جميل أو جليل إلا أن يجعله الوجدان كذلك . ونحن نصف بالجمال أى شىء يعطينا تأمله لذة منزهة — أى لذة مجردة من رغبة شخصية ؛ فنحن نستمد إشباعاً جمالياً ، وجمالياً فقط ، من غروب الشمس ، أو من لوحة لرفائيل ، أوكتدرائية ، أو زهرة ، أو حفلة موسيقية ، أو أغنية . ولكن لم تعطينا أشياء أو تجارب بعينها هذه اللذة المنزهة ؟ لعل السبب أننا نرى فيها اتحاداً فى الأجزاء يؤدى وظيفته بنجاح فى كل متناسق . وفى حالة الجليل تلذنا العظمة أو القوة التى لا تهددنا بخطر ؛ وهكذا نشعر بالجلال فى السماء أو البحر ، إلا إذا هددنا اضطرابهما بالخطر .

ويزداد تقديرنا للجمال أو الجلال بقبولنا الغائية — أى بتبيننا فى الكائنات الحية موائمة أصيلة بين الأجزاء وحاجات الكل ، وبشعورنا بحكمة إلهية فى الطبيعة وراء التناسق والانسجام ، والعظمة والقوة . ولكن العلم يهدف إلى عكس هذا تماماً — وهو أن يثبت أن الطبيعة الموضوعية كلها تعمل بقوانين ميكانيكية ، دون خضوع لأى قصد خارج عنها ، فكيف السبيل إلى التوفيق بين هذين المدخلين إلى الطبيعة؟ بقبولنا الآلية والغائية جميعاً بقدر ما تساعداننا كمبدئين موجهين ، كفرضين ييسران الفهم أو البحث . فالمبدأ الآلى يساعدنا على الأخص فى البحث فى المواد غير العضوية ، أما المبدأ الغائى فهو خير عون لنا فى دراسة الكائنات الحية . ففى هذه الكائنات قوى للنمو والتوالد تعيى التفسير الميكانيكى ؛ فهناك توفيق واضح بين الأجزاء وأغراض العضو أو الكائن ، كاستخدام المخالب للقبض والعيون للإبصار . ومن الحكمة الإقرار بأنه لا الآلية ولا الغائية يمكن إثبات صدقهما صدقاً كلياً . والعلم نفسه ، بمعنى من المعانى ، هو غائى ، لأنه يفرض فى الطبيعة ترتيباً ، وانتظاماً ، ووحدة معقولة ، «كأن» عقلا إلهياً نظمها ويبقى عليها (٥٥) .

وقد اعترف كانط بالصعوبات الكثيرة التى تعترض النظر إلى الإنسان

والعالم على أنهما حصيلة تدبير إلهى : « إن أول شىء كان يقتضى تدبيره بجلاء فى نظام يوضع بحيث يحقق كلا غائياً للكائنات الطبيعية على الأرض هو موطنها — التربة أو العنصر الذى يراد لها أن تزكو عليه أو فيه . ولكن التعمق فى طبيعة هذا الشرط الأساسى للإنتاج العضوى كله يظهر أثراً لأى علل إلا تلك التى تعمل دون غاية إطلاقاً ، بل تنزع فى الواقع إلى التدمير دون أن يكون القصد منها تشجيع تكوين الأنواع والنظام والغايات . والبر والبحر لا يحويان فقط آثار كوارث قديمة العهد هائلة حلت بهما وبكل ما زخرا به من كائنات حية ، ولكن تكوينهما بجملته — طبقات اليابس وخطوط سواحل البحر — يحمل كل المظاهر الدالة على أنه نتيجة قوى عنيفة قهارة لطبيعة تعمل فى فوضى » (٥٦) .

ومع ذلك أيضاً ، فإننا لو تخلينا عن كل فكرة فى وجود هدف فى الطبيعة لسلبنا الحياة كل معناها الأخلاقى ، فتصبح سلسلة حمقاء من ولادات مؤلمة وميتات معذبة ، ليس فيها للفرد ولا للأمة ولا للنوع شىء مؤكد إلا الهزيمة. فلابد لنا من أن نؤمن بغاية إلهية ولو للاحتفاظ بسلامة عقولنا — وما دامت الغائية لاتثبت غير صانع مكافح بدلا من خيرية إلهية كلية القدرة ، فلا بد إذن من أن نرسى إيماننا فى الحياة على حس أخلاقى لا يبرره غير الاعتقاد بإله عادل . بهذه العقيدة نستطيع أن نعتقد — وأن كنا لا نستطيع أن نثبت بالبرهان — ان البار هو الغاية النهائية للخليقة ، وأنه أنبل ثمرة للتدبير العظيم الملغز (٥٧) .

٥ — الدين والعقل ١٧٩٣

لم يكن كانط قانعاً قط بلاهوته الا « كأنى » المتردد . ففى ١٧٩١ ، فى كتيب عنوانه « عن تهافت جميع المحاولات الفلسفية فى الإلهيات » أعاد القول إن « عقلنا عاجز كل العجز عن تبصيرنا بالعلاقة بين العالم . . . والحكمة السامية » . وأضاف إلى هذا تحفظاً ، ربما لنفسه ، فقال : « على الفيلسوف ألا يلعب دور المحامى الخاص فى هذا الأمر ؛ وعليه ألا يدفع عن أى قضية

يعجز عن فهم عدالتها، ولا يستطيع إثباتها بطرق التفكير الخاصة بالفلسفة»[٥٨]

ثم عاد الى المشكلة فى سلسلة من المقالات أفضت به إلى تحدى الحكومة البروسية تحدياً سافراً. وطبعت أولى هذه المقالات وعنوانها « فى الشر المتأصل » فى « مجلة برلين الشهرية » عدد أبريل ١٧٩٢. وأذن الرقيب بنشرها على أساس « أن العلماء المتعمقين فى التفكير هم وحدهم الذين يقرءون كتابات كانط »[٥٩]. ولكنه رفض نشر المقال الثانى « فى الصراع بين مبادىء الخير والشر للسيطرة على الإنسان ». ولجأ كانط إلى حيلة. ذلك أن الجامعات الألمانية كان لها امتياز اعتماد الكتب والمقالات للنشر؛ فقدم كانط المقال الثانى والثالث والرابع إلى كلية الفلسفة بجامعة يينا (وكان يشرف عليها آنئذ جوته وكارل أوجست دوق فايمار، وكان شيلر أحد أساتذتها)، وأذنت الكلية بالنشر، وبهذا طبعت المقالات الأربع كلها فى كونجزبرج عام ١٧٩٣ بعنوان « الدين فى حدود العقل وحده ».

والسطور الأولى تعلن الفكرة الرئيسية السائدة فيها: « بقدر ما تبنى الأخلاق على مفهوم الإنسان كفاعل حر، هذا الإنسان الذى — بسبب حريته هذه — يتعامى بعقله عن رؤية القوانين غير المشروطة، فإن هذه الأخلاق فى غير حاجة إلى فكرة كائن آخر من فوقه ليجعله يدرك واجبه، ولا إلى حافز غير القانون ذاته يجعله يؤديه . . . ومن هنا فإن الأخلاق من أجل ذاتها هى لاتحتاج إلى دين على الإطلاق »[٦٠]. ويعد كانط بطاعة السلطات، ويسلم بالحاجة إلى الرقابة، ولكنه يشدد على « ألا تسبب الرقابة أى اضطراب فى مجال العلوم »[٦١] فغزو اللاهوت للعلم، كما حدث فى حالة جاليليو، « قد يعطل جميع جهود العقل البشرى . . . ويجب أن يتمتع اللاهوت الفلسفى بكامل الحرية على قدر ما يمتد إليه علمه »[٦٢].

ويستنبط كانط مشكلات الأخلاق من وراثة الإنسان لنوازع الخير والشر. « لا حاجة لإقامة الدليل صورياً على أن نزعة الفساد لا بد متأصلة فى الإنسان وذلك لكثرة الأمثلة الصارخة التى تضعها الخبرة أمام

أعيننا »[٦٣]. وهو لا يوافق روسو على أن الإنسان يولد خيراً أو كان خيراً فى « حالة الطبيعة » ، ولكنه يتفق معه فى إدانة « رذائل الحضارة والمدنية» لأنها « أشد عيوب أذى» [٦٤] ، « والواقع أن هذا السؤال مازال بغير جواب ، وهو ، ألا تكون أسعد فى حالة غير متحضرة . . . مما نحن فى حالة المجتمع الراهنة » [٦٥] ما فيه من استغلال ونفاق وخلل أخلاقى وتقتيل بالجملة فى الحرب. وإذا شئنا أن نعرف طبيعة البشر الحقيقية فيكفى أن نلاحظ سلوك الدول.

ولكن كيف بدأ « الشر المتأصل فى طبيعة البشر» ؟ . . انه لم يبدأ بسبب « الخطية الأصلية » ، « فلا ريب فى أن أشد التفسيرات كلها سخفاً لذيوع هذا الشر وانتشاره فى جميع أفراد وأجيال نوعنا هو التفسير الذى يصفه ميراثاً منحدراً إلينا من أبوينا الأولين»[٦٦] . وربما كانت النوازع « الشريرة » قد تأصلت فى الإنسان تأصلا قوياً لأنها كانت ضرورية للبقاء فى الأحوال البدائية ، وهى لاتصبح رذائل إلا فى المدنية — فى المجتمع المنظم ، وفيه لا تحتاج إلى القمع بل إلى الضبط[٦٧] . « فالميول الطبيعية ، إذا نظرنا إليها فى ذاتها ، خيرة ، أى أنها لا تلام ، ومحاولة القضاء عليها ليست عديمة الجدوى فحسب ، بل ضارة ومستحقة للوم . والأولى أن نروضها ، وبدلا من أن يصطدم بعضها ببعض يمكن أن ينسق بينها لتنسجم فى كل يسمى السعادة [٦٨] . والخير الأخلاقى هو أيضاً غريزى ، كما يدل على ذلك الحس الأخلاقى فى جميع الناس ، ولكنه فى أول الأمر ليس إلا حاجة ، لابد من تنميتها بالتعليم الأخلاقى والتهذيب الشاق . وأفضل الأديان ليس الذى يفوق غيره فى التمسك الدقيق بالعبادة الطقسية ، بل أعظمها تأثيراً فى الناس ليحيوا حياة أخلاقية [٦٩] . والدين القائم على العقل لا يبنى نفسه على وحى إلهى ، بل على إحساس بالواجب يفسر على أنه أقدس عنصر فى الإنسان [٧٠] . ومن حق الدين أن ينظم نفسه على هيئة كنيسة [٧١] . وله أن يحاول تحديد عقيدته بالأسفار المقدسة ، وأن يعبد ، بحق ، المسيح بوصفه أعظم البشر شبهاً بالله ، وأن يعد بالجنة وينذر بالنار [٧٢] ، و « لا يمكن تصور دين لا يحتوى على اعتقاد بحياة آخرة » [٧٣] . ولكن لا ينبغى أن يكون ضرورياً للمسيحى أن يؤكد إيمانه بالمعجزات ، أو بلاهوت المسيح ، أو بالتكفير عن خطايا البشر بصلب المسيح ، أو بالحكم المقدر على الأرواح بالجنة

أو النار بالنعمة الإلهية تمنح دون نظر إلى الأعمال الصالحة أو الشريرة(٧٤) .
و « من الضرورى أن نغرس بعناية بعض أشكال الصلاة فى أذهان الأطفال (الذين لا يزالون فى حاجة إلى حرفية الدين » (٧٥) . ، ولكن صلاة الضراعة « التى يتوسل بها لكسب النعمة الإلهية وهم خرافى» (٧٦) .

أما حين تنقلب كنيسة ما مؤسسة لإكراه الناس على الإيمان أو العبادة ؛ وحين تزعم لنفسها الحق الأوحد فى تفسير الكتاب المقدس وتعريف الأخلاقية ، وحين تكون كهنوتها يدعى لنفسه سبل الاتصال وحده بالله والنعمة الإلهية ؛ وحين تجعل من عبادتها مجموعة طقوس سحرية لها قوى معجزية ؛ وحين تصبح ذراعاً للحكومة وأداة للطغيان الفكرى ؛ وحين تحاول أن تتسلط على الدولة وتستخدم الحكام العلمانيين مطايا للطمع الكهنوتى — عندها يثور العقل الحر على كنيسة كهذه ، ويبحث خارجها عن ذلك الدين العقلى الخالص ، الذى هو السعى لبلوغ الحياة الأخلاقية (٧٧) .

وقد تميز هذا الأثر الكبير الأخير من آثار كانط بالتذبذب والغموض الطبيعيين فى رجل لا ولع له بحياة السجون . ففيه الكثير من الحشو «السكولاستى» ، ويشوبه العجيب من تشقيقات المنطق ومن اللاهوت المفرق فى الخيال . ومع ذلك فالعجب العجاب فى رجل بلغ التاسعة والستين ، أن يظل مبدياً مثل هذه القوة فى الفكر والقول ، ومثل هذه الشجاعة فى صراعه مع قوى الكنيسة والدولة مجتمعة . وقد بلغ الصراع بين الفيلسوف والملك ذروته حين (أول أكتوبر ١٧٩٤) أرسل إليه فردريك وليم الثانى الأمر التالى الصادر من المجلس الملكى :

« إن شخصنا البالغ السمو قد لاحظنا طويلا باستياء شديد كيف تسيء استخدام فلسفتك لتقوض وتحط من قدر الكثير من أهم وألزم تعاليم الأسفار المقدسة والمسيحية ، وكيف أنك على التحديد ، فعلت هذا فى كتابك « الدين فى حدود العقل وحده » . . . ونحن نطالبك فوراً بجواب غاية فى النزاهة ، ونتوقع أنك فى المستقبل ، تجنباً لسخطنا الشديد ، لن يبدر منك ما يسيء كهذا الذى بدر . بل على العكس فإنك طبقاً لمقتضيات

واجبك ستستخدم مواهبك وسلطتك لكى يتحقق هدفنا الأبوى أكثر فأكثر . أما إذا تماديت فى المقاومة فلك أن تتوقع بالتأكيد أن تجر عليك المقاومة عواقب وخيمة »(٧٨) .

ورد كانط رداً ملؤه الاسترضاء . فذكر أن كتاباته لم يوجهها إلا للدارسين واللاهوتيين ، الذين ينبغى صيانة حرية تفكيرهم لصالح الحكومة ذاتها . وقال إن كتابه قد سلم بقصور العقل فى الحكم على الأسرار النهائية للإيمان الدينى . ثم اختتم بتعهد بالطاعة : « إننى بوصفى خادم جلالتكم المخلص كل الإخلاص أعلن هنا إعلاناً قاطعاً اننى منذ الآن سأمتنع كلية عن جميع التصريحات العلنية عن الدين ، الطبيعى منه والموحى ، سواء فى المحاضرات،أو المؤلفات . » فلما مات الملك (١٧٩٧) أحس كانط أنه فى حل من وعده ؛ ثم ان فردريك وليم الثالث عزل فولنر (١٧٩٧) وألغى الرقابة ، وأبطل المرسوم الدينى الصادر فى ١٧٨٨ . وبعد هذه المعركة أجمل كانط نتائجها فى كتيب سماه « صراع الملكات » (١٧٩٨) ، كرر فيه دعواه بأن الحرية الأكاديمية لا غنى عنها للنمو الفكرى للمجتمع . ونحن إذا نظرنا إلى الأمر فى جوهره ، تبين لنا أن الأستاذ القصير القامة ، القابع فى ركن قصى من أركان المعمورة ، قد انتصر فى معركته ضد دولة تملك أقوى جيش فى أوربا . وستنهار الدولة عما قريب ، ولكن ما وافى عام ١٨٠٠ حتى كانت كتب كانط أبلغ الكتب تأثيراً فى حياة ألمانيا الفكرية .

٦ — المصلح

واعتزل إلقاء المحاضرات فى ١٧٩٧ (بعد أن بلغ الثالثة والسبعين) ، ولكنه واصل نشر المقالات فى الموضوعات الحيوية حتى ١٧٩٨ . وظل على صلة بالشئون العالمية رغم عزلته . فلما اجتمع مؤتمر بازل عام ١٧٩٥ ليرتب صلحاً بين ألمانيا وأسبانيا وفرنسا ، اغتنم كانط الفرصة (كما فعل من قبل الأبيه سان — بيير مع مؤتمر أوترخت فى ١٧١٣) لينشر كراسة عنوانها « فى السلام الدائم » .

وقد استهلها استهلالا متواضعاً بوصفه « السلام الأبدى» شعاراً يليق بجبانة الموتى ، وأكد للساسة أنه لايتوقع منهم أن يروا فيه أكثر من مجرد « معلم نظرى متحذلق عاجز عن إلحاق أى خطر بالدولة» .[٧٩] وبعد أن نحى مواد الصلح المبرم فى بازل جانباً باعتبارها مواد تافهة قصد بها مسايرة الظروف ، وضع بوصفه لجنة مؤلفة من رجل واحد — « ست مواد أولية » تجمل الشروط الأساسيةللسلام الدائم : فحرمت المادة الأولى جميع التحفظات والملاحق السرية لأى معاهدة . وحظرت المادة الثانية على أى دولة أن تستولى على أخرى أو تسيطر عليها . وطالبت المادة الثالثة بالتخلص تدريجياً من الجيوش الدائمة . وذهبت المادة الرابعة إلى أنه لا يجوز لأى دولة « أن تتدخل بالقوة فى دستور دولة أخرى» . وطالبت المادة السادسة كل دولة تخوض حرباً مع أخرى بألا « تسمح بأعمال عدائية من شأنها أن تجعل الثقة المتبادلة مستحيلة ، فى حالة إبرام سلام فى المستقبل ، كالاستعانة بالقتلة يغتالون أو يدسون السم . . . والتحريض على الفتنة فى دولة العدو» .

وإذ كان من غير المستطاع ابرام صلح طويل الأمد بين دول لاتعترف بحدودلسيادتها ، فإنهلابدمن بذل الجهودالحثيثةلتطوير نظام دولى،وإيجاد بديل للحرب بهذه الطريقة . ومن ثم وضع كانط بعض « المواد المحددة » للسلام الدائم . أولا ، « يجب أن يكون دستور كل دولة جمهورياً . ذلك أن الملكيات والارستقراطيات تنزع إلى الحروب المتكررة ، إذ أن الحاكم والنبلاء هم عادة فى مأمن من فقد أرواحهم وثرواتهم فى الحرب ، لذلك يبادرون إلى خوضها بوصفها « تسلية الملوك » ؛ أما فى الجمهوريات « المواطنون هم المسئولون عن قرار إعلان الحرب أو عدم إعلانها ، « وهم الذين سيتحملون العواقب» ، ومن ثم « فليس من المحتمل أن يغامر مواطنو دولة (جمهورية) فى أى وقت بلعبة غالية التكلفة إلى هذا الحد » [٨٠] . ثانيا « يجب أن يبنى كل حق دولى على أساس اتحاد فدرالى بين الدول الحرة » ،[٨١] وألا يكون هذا الاتحاد دولة عظمى ، « فالواقع أن الحرب ليست سيئة سوءاً لابرء منه كسوء الملكية العالمية » [٨٢] . فينبغى أن يقرر كل شعب حكومته الخاصة

به ، ولكن على كل دولة بمفردها (على الأقل .. دول أوربا) أن تتجمع فى اتحاد كنفدرالى تخول له سلطة التحكم فى علاقاتها الخارجية . والمثل الأعلى الذى لابد من التمسك به هو أن تمارس الدول القانون الأخلاقى الذى تطالب به مواطنيها . فهل يمكن أن تسفر مغامرة كهذه عن شر أعظم مما ينجم عن الممارسة الدائمة للخداع والعنف الدوليين؟ لقد راود كانط الأمل بأن مكيافللى سيثبت فى نهاية المطاف أنه مخطىء ، وليس هناك من داع للتضارب بين الأخلاقية والسياسة ، ذلك أن « الأخلاق وحدها هى القادرة على قطع العقدة التى لاتقوى السياسة على فكها » [٨٣] .

وواضح أن كانط كان مخدوعاً فى أمر الجمهوريات (التى شاركت بعد ذلك فى أبشع الحروب قاطبة) ؛ ولكن ينبغى أن نقرر أنه كان يعنى بـ « الجمهورية » الحكومة الدستورية لا الديمقراطية الكاملة . فلقد كان عديم الثقة بالدوافع المتهورة التى تحفز رجالا لا تكبحهم قيود [٨٤] ، وكان يخشى إطلاق حق التصويت للجميع باعتباره تسليطاً للأغلبيات الجاهلة على الأقليات التقدمية والأفراد الخارجين على الإجماع [٨٥] . ولكن كانت تغيظه الامتيازات الموروثة ، وخيلاء الطبقة ، والقنية التى تطوق كونجزبرج ، ورحب بالثورة الأمريكية التى أخذت ، فى رأيه ، تكون اتحاداً فدرالياً من دويلات مستقلة ، على غرار النظام الذى اقترحه لأوربا ، وناصر الثورة الفرنسية بحماسة تقرب من حماسة الشباب ، حتى بعد مذابح سبتمبر وحكم الإرهاب .

ولكنه ، شأن أتباع التنوير جميعاً تقريباً ، آمن بالتعليم أكثر مما آمن بالثورة . فى هذا المجال ، كما فى مجالات كثيرة ، أحس بتأثير روسو والحركة الرومانتيكية . « يجب أن نسمح للطفل منذ نعومة أظفاره بكامل الحرية من جميع النواحى . . . شريطة ألا يتدخل فى حرية غيره» [٨٦] . على أنه تحفظ بعد قليل فى هذه الحرية الكاملة ، وسلم بأن قدراً من الضبط ضرورى فى تكوين الخلق ؛ « فإهمال الضبط شر أعظم من إهمال الثقافة ، لأن إهمال الثقافة يمكن علاجه فى الحياة فيما بعد » . [٨٧] أما أفضل ضبط فهو العمل ، وينبغى مطالبة الطفل به فى جميع مراحل تعليمه . والتربية

الأخلاقية لا غنى عنها ، وينبغى أن تبدأ فى مرحلة مبكرة . وإذ كانت الطبيعة البشرية تحتوى بذرة الخير والشر كليهما ، فإن كل تقدم أخلاقى رهن باقتلاع الشر وغرس الخير ، ولا يكون هذا بالثواب والعقاب ، بل بالتشديد على مفهوم الواجب » .

والتعليم الذى تقوم به الدولة ليس أفضل من التعليم الذى تقوم به الكنيسة ، فالدولة ستسعى إلى تكوين المواطنين المطيعين اللينين المتعصبين لوطنهم . والأفضل ترك التعليم للمدارس الخاصة التى يرأسها معلمون مستنيرون ومواطنون مشربون بروح الخدمة العامة [٨٨] . لذلك أشاد كانط بمبادىء ومدارس يوهان بازروف . وأسف على ما تتسم به مدارس الدولة وكتبها المدرسية من تحيز للقومية ، وتطلع إلى زمن تعالج فيه جميع الموضوعات بحيدة ونزاهة . وفى ١٧٨٤ نشر مقالا بعنوان « أفكار لتاريخ عام من وجهة نظر عالمية » ؛ وقد أجمل المقال تقدم البشرية من الخرافة إلى التنوير ، ولم يفسح للدين إلا دوراً صغيراً ، وطالب بمؤرخين يرتفعون فوق التعصب القومى .

وقد أدفأ فؤاده بالإيمان بالتقدم ، الأخلاقى منه والفكرى ، كما أدفأ جماعة الفلاسفة أفئدتهم . ففى ١٧٩٣ وبخ موسى مندلسون على قوله أن كل تقدم يلغيه تقهقر . « فى الإمكان الاستشهاد بأدلة كثيرة على أن النوع الإنسانى بوجه عام ، لاسيما فى زماننا بالقياس إلى الأزمنة السابقة كلها ، قد سار خطوات لايستهان بها نحو حياة أفضل من الناحية الأخلاقية . ولا ينقض هذا القول حالات التوقف المؤقتة . وصراخ القائلين بأن النوع الإنسانى ينحط باستمرار منشؤه بالضبط أن المرء حين يقف على درجة أعلى من الأخلاقية يمتد بصره إلى مدى أبعد أمامه فيكون حكمه على حالة الناس كما هم ، بالقياس إلى ما ينبغى أن يكونوا ، حكماً أشد صرامة »[٨٩] .

فلما بدأ كانط آخر عقد فى عمره (١٧٩٤) أصاب تفاؤله المبكر شىء من الإظلام . ربما بسبب الرجعية فى بروسيا وتحالف الدول على فرنسا الثائرة . فانطوى على نفسه ، وكتب سراً ذلك الأثر الذى نشر بعد وفاته ، والذى قدر له أن يكون وصيته الأخيرة للنوع الإنسانى .

٧ — بعد الموت

كان فى بدنه من أضأل الرجال فى جيله حجماً — لا يجاوز طوله خمسة أقدام إلا قليلا ، يزيده قصراً تقوس إلى الأمام فى عموده الفقرى . وكان يشكو ضعفاً فى رئتيه ، ووجعاً فى معدته ، ولم يطل عمره إلا بفضل تغذية منتظمة معتدلة . ومما يتفق وطبيعته أنه وهو فى السبعين كتب مقالا عنوانه « فى قدرة العقل على التحكم فى الشعور بالمرض بقوة العزيمة » . وكان يؤكد على حكمة التنفس من الأنف ؛ فالمرء يستطيع التغلب على الكثير من نزلات البرد ، وغيرها من العثرات بإقفال فمه [٩٠] . ومن ثم كان فى مسيراته اليومية يمشى وحيداً تجنباً للحديث . ثم يمضى إلى فراشه بانتظام فى العاشرة ، ويستيقظ فى الخامسة ، ولم يستغرق فى النوم إلى ما بعدها مرة على مدى ثلاثين عاماً (كما يؤكد لنا) [٩١] . وقد فكر فى الزواج مرتين ، ثم أحجم مرتين . ولكنه لم يكن عزوفاً عن عشرة الناس ؛ فقد اعتاد أن يدعو ضيفاً أو ضيفين ، غالباً من تلاميذه ، دون أى امرأة قط — لمشاركته غداءه فى الواحدة بعد الظهر . وكان أستاذاً للجغرافيا ، ولكن ندر أن تحرك خارج كونجزبرج ، ولم يرتقط جبلا ، ولعله لم ير البحر قط على قربه منه [٩٢] . وقد شد من أزره طوال محنة الفقر والرقابة عزة نفس لم تلن إلا ظاهرياً لأى سلطان غير سلطان عقله . وكان كريم النفس سمحاً ، ولكنه صارم فى أحكامه ، يفتقد روح الفكاهة الخليق بأن ينقذ الفلسفة من الغلو فى الجد . وكان حسه الأخلاقى أحياناً يبلغ من الرهافة حد التزمت الذى يسىء الظن بكل اللذات حتى تثبت أنها فاضلة .

ولقد بلغ من قلة اكتراثه بالدين المنظم أنه لم يختلف إلى الكنيسة إلا إذا اقتضته ذلك واجباته الجامعية [٩٣] . ويبدو أنه لم يصل قط فى حياته بعد الرشد [٩٤] . روى هردر أن تلاميذ كانط بنوا شكوكيتهم الدينية على تعاليم كانط [٩٥] . وقد كتب كانط إلى مندلسون يقول « صحيح حقاً أننى أفكر بأوضح اقتناع ، وبغاية الرضى ، فى أشياء كثيرة ليس لدى الشجاعة أبدا على قولها ، ولكنى لا أقول أبدا أى شىء لا أعتقده » [٩٦] .

وكان حتى آخر سني حياته يجاهد لتحسين عمله ، وفى ١٧٩٨ أخبر صديقاً : « إن العمل الذى أشغل به نفسى الآن يجب أن يتناول الانتقال من الأساس الميتافيزيقى للعلوم الطبيعية إلى الفيزياء . فلا بد من حل هذه المشكلة ، وإلا كان هنا فجوة فى نسق الفلسفة النقدية» . (٩٧) ولكنه فى ذلك الخطاب وصف نفسه بأنه « قد عجز عن العمل الذهنى» . ودخل حقبة طويلة من اضمحلال البدن ، والأوجاع المتراكمة ، وشعور الوحشة الذى يصاحب شيخوخة العزب . ووافته المنية فى ١٢ فبراير ١٨٠٤ . ودفن فى كتدرائية كونجزبرج ، فيما يعرف الآن بـ « ستواكانطيانا » ، (مثوى كانط) ونقشت على قبره كلماته « السماء المرصعة بالنجوم من فوق ، والقاموس الأخلاقى فى باطنى» .

وقد خلف عند موته خليطاً كبيراً من الكتابات نشرت على أنها « أثر منشور بعد وفاة مؤلفه » فى ١٨٨٢ — ٨٤ . وفى إحداها وصف « الشيء — فى — ذاته » — الطبقة السفلية المجهولة من وراء الظواهر والأفكار — بأنه « ليس شيئاً حقيقياً ، . . . ولا حقيقة موجودة ، بل مجرد مبدأ . . . للمعرفة القبلية التركيبية للعيان — الحسى المتعدد (٩٨)» . وقد سماه ... « أى شيئاً لا وجود له إلا فى فكرنا » . وقد طبق هذه الارتيابية ذاتها على فكرة الله :

«ليس الله جوهراً موجوداً خارجى ، بل مجرد علاقة أخلاقية فى باطنى . . . والأمر المطلق لا يفترض جوهراً يصدر أوامره من عل ، ويتصور إذن على أنه خارجى ، بل هو أمر أو نهى من عقلى أنا . . . والأمر المطلق يمثل الواجبات الإنسانية كأوامر إلهية لا بالمعنى التاريخى ، كأن (كائناً إلهياً) قد أصدر أوامر للناس ، بل بمعنى أن العقل . . . له القدرة على الأمر بسلطة شخص إلهى وعلى هيئته . . . « وصورة كائن كهذا ، يجثو أمامه الجميع . . . الخ . تنبعث من الأمر المطلق ، وليس العكس . . . ان الكائن الأعلى ... هو من خلق العقل ... لا جوهر خارج عنى » (٩٩) .

وهكذا انتهت الفلسفة الكانطية التي تشبثت بها المسيحية طويلا ، فى ألمانيا ثم بعدها فى انجلتره ، باعتبارها آخر وأفضل أمل للألوهية ، بتصور كئيب لله يراه خيالا نافعاً نماه العقل البشرى ليفسر المطلقية الواضحة للأوامر الأخلاقية .

أما خلفاء كانط الذين كانوا يجهلون هذا الأثر الذى خلفه بعد موته ، فقد أشادوا به منقذ المسيحية ، والبطل الألمانى الذى قتل فولتير ؛ وغلوا فى تمجيد إنجازه غلوا غلب تأثيره على تأثير أى فليسوف من المحدثين . وتنبأ أحد تلاميذه وهو كارل رانيهولت بأنه لن يمضى قرن حتى تنافس شهرة كانط شهرة المسيح [١١١] . وقبل الألمان البروتستنت كلهم (باستثناء جوته) زعم كانط بأنه أحدث « ثورة كوبرنيقية » فى علم النفس : فبدلا من أن يكون الفكر (الشمس) هو الذى يدور حول الشيء (الأرض) ، جعل الأشياء تدور حول الفكر ، ويعتمد عليه . وقد أرضى غرور الذات الإنسانية أن يقال لها إن أساليبها الفطرية فى الإدراك الحسى هى المقومات المحدده لعالم الظواهر . وخلص فشته (حتى قبل وفاة كانط) إلى أن العالم الخارجى من خلق العقل ، واستهل شوبنهاور — الذى قبل تحليل كانط — بحثه الضخم « العالم كإرادة وفكرة » بهذا الإعلان « إن العالم فكرتى » — وهو إعلان أثار بعض الدهشة فى مدام دستال .

واغتبط المثاليون لأن كانط كان قد جعل المادية مستحيلة منطقياً ببيانه أن العقل هو الحقيقة الوحيدة المعروفة لنا مباشرة . وسعد الصوفيون لأن كانط كان قد قصر العلم على الظواهر ، وأقصاه عن العالم النومينى والحقيقى حتماً ، وترك هذه المملكة الغامضة (التى أنكر فى دخيلة نفسه وجودها) متنزهاً خاصاً للاهوتيين والفلاسفة . أما الميتافزيقا ، التى كان جماعة «الفلاسفة» الفرنسيين قد أقصوها عن الفلسفة ، فقد رد لها اعتبارها حكماً للعلوم كلها ، وأقر جان بول لاشتير لألمانيا بسيادة الهواء ، بعد أن أقر لبريطانيا بسيادة البحر ، ولفرنسا بسيادة اليابس . وبنى فشته وشيلنج وهيجل القلاع الميتافزيقية على مثالية كانط الترانسند نتالية ، وحتى رائعة شوبنهاور اتخذت نقطة انطلاقها

من تشديد كانط على أولوية الإرادة . قال شيلر « انظر كيف هيأ غنى واحد أسباب الرزق لمجموعة من المتسولين » (١٠١) .

كذلك أحس الأدب الألمانى هو أيضاً تأثير كانط سريعاً ، لأن فلسفة عصر تكون على الأرجح أدب العصر الذى يليه . ففرق شيلر برهة فى مؤلفات كانط ، وكتب خطاباً ملؤه الإجلال للمؤلف ، وبلغ فى مقالاته النثرية غموضاً يقرب من الغموض الكانطى . وأصبح الإبهام واللبس موضة فاشية فى الكتابة الألمانية ، وشعار نبالة يشهد بعضوية حامله فى تلك الطائفة العتيقة ، طائفة نساجى خيوط العناكب . قال جوته « إن التأمل الفلسفى ، على العموم ، أذى للألمان ، لأن من شأنه أن يجعل أسلوبهم غامضاً عسيراً مبهماً . وكلما قوى تعلقهم بمدارس فلسفية بعينها ازدادت كتابتهم سوءاً » (١٠٢) .

ويتردد المرء فى اعتبار كانط كاتباً رومانتيكياً ، ولكن الفقرات الأدبية الغائمة التى كتبها فى الجمال والجلال غدت من الينابيع التى انبثقت منها الحركة الرومانتيكية . ولقد انبعثت محاضرات شيلر فى يينا « ورسائله فى تربية الإنسان الاستطيقية » (١٧٩٥) — وهى معالم على طريق تلك الحركة — من دراسته كتاب كانط « نقد الحكم » . وقد هيأ التفسير الذاتى النزعة لنظرية كانط فى المعرفة أساساً فلسفياً لمذهب الفردية الرومانتيكية الذى نشر لواءه مزهواً فى حركة « شتورم » (الزوبعية) . وعبر تأثير كانط الأدبى إلى انجلتره ، فتأثر به كولبردج وكارليل ، ثم عبر إلى انجلتره الجديده ، وأعطى اسماً لحركة إمرسن وثورو — الترانسندنتالية (١٠٣) . لقد هز أستاذ الجغرافيا القصير القامة المحدودب الظهر العالم وهو يطأ أرض « متنزه الفيلسوف » فى كونجزبرج . وما من شك فى أنه قدم للفلسفة وعلم النفس أشق ما عرفه التاريخ إلى الآن من تحليل لعملية المعرفة .

* * *

الفصل الثاني والعشرون

الطرق إلى فايمار

١٧٣٣ – ٨٧

١ – أثينة ألمانيا

ترى لم أختار اسمى عصور الأدب الألمانى فايمار دون غيرها وطناً له ؟ ان ألمانيا لم يكن لها عاصمة واحدة تتركز فيها ثقافتها كما كانت الحال فى فرنسا وانجلتره ، ولم تكن تملك ثروة مركزة لتمويل هذه الثقافة . وكانت حرب السنين السبع قد أضعفت برلين وليبزج ، أما درسدن فكادت تدمرها تدميراً ؛ وأما همبورج فقد بذلت مالها أولا للأوبرا ، ثم للمسرح . وفى ١٧٧٤ كانت فايمار ، عاصمة دوقية ساكسى – فايمار –آيزيناخ ، بلدة هادئة يسكنها نحو ٦،٢٠٠ نسمة ، وحتى بعد أن ذاع صيتها أشار إليها جوته بـ « هذه العاصمة الصغيرة التى تضم – كما يقول الناس على سبيل المزاح عشرة آلاف شاعر وبعض السكان » [1] فهل مجدها يا ترى بناه افراد عظام ؟ .

لقد حكمت فايمار من ١٧٥٨ إلى ١٧٧٥ ابنة أخت فردريك الأكبر ، وهى المرأة المرحة ، الدوقة الأرملة آنا أماليه ، التى ترملت وهى فى الثامنة عشرة بموت زوجها الدوق قسطنطين ؛ وأصبحت وصية على والدهما كارل أوجست الذى لم يتجاوز العام الواحد . وإليها يرجع الفضل فى فتح باب بين الحكومة والأدب بدعوتها فيلاند للحضور والقيام على تهذيب أبنائها (١٧٧٢). وكانت واحدة من نساء عديدات مثقفات حفزن الشعراء والمسرحيين

والمؤرخين تحت قيادتها وحتى موتها فى ١٨٠٧ بإغراء الجنس والمديح ، وقد حولت بيتها بعد عام ١٧٧٦ صالوناً ، شجعت فيه استعمال الألمانية لغة للأدب — رغم أن الجميع كانوا يتكلمون الفرنسية أيضاً .

وفى ١٧٧٥ كان بلاط فايمار يضم نحو اثنى عشر شخصاً واتباعهم . وقد وجد الشاعر الكونت كرستيان تسوشتولبرج فى هذا البلاط جواً ساراً خالية من الكلفة فى ذلك العام الذى وصل فيه جوته . يقول « إن الدوقة العجوز (وكانت يومها فى السادسة والثلاثين) هى الفطنة المجسمة ، وهى مع ذلك لطيفة وطبيعية جداً . أما الدوق فغلام عجيب ، كله وعد وتبشير ، وكذلك أخوه . ثم هنالك الكثير من الأشخاص الممتازين ».[٢] وفى ١٧٨٧ وصف شيلر « نبيلات فايمار » بأنهن « شديدات الحساسية وقل أن تجد بينهن واحدة لم تخض تجربة غرام ، وجميعهن يحاولن غزو القلوب . . . فهنا حكومة هادئة لا تكاد تحس بها ، تسمح لكل إنسان بأن يحيا ، وأن يصطلى فى الهواء والشمس . وإذا كان بالمرء ميل إلى المرح فكل الفرص متاحة له »[٣] .

وتقلد كارل أوجست حكم الدوقية فى ٣ سبتمبر ١٧٧٥ حين بلغ الثامنة عشرة . وما لبث أن اتخذ له زوجة بعد أن أجرى معاشاً على خليلته[٤] ، والزوجة هى لويزه أميرة هسى — دارمشتات ، ثم اقتنص جوته فى الطريق ، وكان يمارس الصيد فى ضراوة ، ويسوق مركبته فى تهور مخترقاً شوارع المدينة الهادئة ، ويتنقل على عجل بين النساء ؛ ولكن تهوره كبحه عقل نضج ببطء حتى بلغ القدرة على الحكم الصائب . وقد درس الزراعة والصناعة وبسط رعايته عليهما ، وشجع العلوم ، وأعان الأدب ، وجاهد لخير إمارته وشعبها . واستمع إلى مدام دستال التى جابت ألمانيا فى ١٨٠٣ تقول : « ليس بين الإمارات الألمانية كلها إمارة تشعرنا أكثر من فايمار بمزايا الدويلة حتى يكون أميرها رجلا قوى الفهم قادراً على السعى لإسعاد جميع طبقات رعاياه دون أن يفقد شيئاً من طاعتهم . . . ومواهب الدوق الحربية يحترمها الجميع ، وحديثه المثير المشرب بالتفكير يذكرنا على الدوام بأنه ربيب فردريك

العظيم . ولسمعته وسمعة أمه الفضل فى اجتذاب ألمع رجال العلم والثقافة إلى فايمار . ولأول مرة أصبح لألمانيا حاضرة أدبية كبرى»[٥] .

٢ — فيلاند : ١٧٣٣ — ١٧٧٥

كرستوف مارتن فيلاند هو أقل الرجال الأربعة ، الذين أذاعوا صيت فايمار ، شهرة بين الناس ، ولكن لعله كان أجدرهم بالحب . وقد عزفت على قيثارته كل مؤثرات جيله تقريباً ووفقت نغماتها كل بدوره . كان ابناً لراعى كنيسة فى أوبرهولتسهايم (قرب بيبراخ فى فورتمبرج) فنشىء على التقوى واللاهوت . فلما اكتشف الشعر جعل الرجل الفاضل كاوبشتوك مثله الأعلى ، ثم تحول إلى فولتير ترفيهاً عن نفسه . ثم وجد فى بلدة فارتهاوزن القريبة منه مكتبة الكونت فون شتاديون الضخمة ، فنهل من الأدبين الفرنسى والانجليزى ، ونفض عنه قدراً كبيراً من اللاهوت ، حتى لقد هزأ بإيمان صباه فى رواية سماها « دون سلفيو فون روزالفا » (١٧٦٤) . ونشر مترجمات نثرية لعشرين من مسرحيات شكسبير (١٧٦٢ — ٦٦) ، فأتاح بذلك لألمانيا لأول مرة نظرة إلى شكسبير ككل ، ويسر لكتاب التمثيليات الألمان مهرباً من الصيغة الكلاسيكية التى اتخذتها الدراما الفرنسية . وكان فنكلمان وآخرون أثناء ذلك يبشرون بالدعوة بالهيلينية ، وصاغ فيلاند لنفسه صورته الخاصة من هذه الدعوة فاتخذ نغمه أبيقورية خفيفه فى كتابه « قصص هزلية » (١٧٦٥) ، وجعل رجلا اغريقياً وهمياً البطل لأهم عمل نثرى ألفه وهو « تاريخ أجاثون » (١٧٦٦ — ٦٧) ، الذى وصفه ليسنج بأنه « الرواية الوحيدة اللائقة بالرجال المفكرين »[٦] .

وقد أراد فيلاند (البالغ ثلاثة وثلاثين عاماً) فى صفحاتها المطوفة أن يبسط فلسفته فى الحياة ، متمثلة فى المغامرات الجسدية والعقلية لرجل أثينى من عصر بركليس . قال فى المقدمة « لقد اقتضت خطتنا تصوير بطلنا وهو يجتاز شتى المحن » ، وهى محن من شأنها أن تربى الإنسان على الأمانة والحكمة دون الالتجاء إلى الحوافز أو الدعائم الدينية [٧] . وأجاثون (أى الطيب) ،

الشاب الوسيم ، يقاوم محاولة إحدى كاهنات دلفى لإغوائه ، وبدلا من ذلك يشعر نحو العذراء الساذجة « بسوخى» (النفس) بحب نقى وإن كان مشوباً . ويدخل عالم السياسة ، فيشمئز من تعصب الأحزاب ، ويندد بالناخبين لافتقارهم إلى المبدأ ، ثم ينفى من أثينا.وفيما هو يهيم فى جبال اليونان يقع على لفيف من النسوة التراقيات يحتفان بعيد باخوس برقصات شهوانية عنيفة ؛ فيحسبنه باخوس ، ويكدن يخنقنه بعناقهن ، ثم تنقذه عصابة من القراصنة ، تبيعه عبداً فى أزمير لهبياس ، وهو أحدسوفسطائى القرن الخامس ق . م . ويشرح فيلاند فلسفة السوفسطائيين فى سخط فيقول :

« ان الحكمة التى جعل منها السوفسطائيون مهنة لهم كانت من حيث الكيف كما كانت من حيث الأثر النقيض للحكمة التى جهر بها سقراط . فالسوفسطائيون علموا فن إثارة أهواء الرجال (بالخطابة) ؛ بينما غرس سقراط فن سيطرة الإنسان على أهوائه . وقد بينوا كيف يظهر الإنسان أمام الناس حكيماً فاضلا ، أما هو فقد بين كيف يكون الإنسان كذلك . وهم شجعوا شباب أثينا على محاولة السيطرة على الدولة ، أما هو فبين لهم أنهم سينفقون نصف عمرهم ليتعلموا كيف يحكمون ذواتهم . وكانت فلسفة سقراط تفخر بالحياة مجردة من الغنى ، أما فلسفة السوفسطائيين فكانت تعرف كيف تحقق الغنى . كانت كيسة ، خلابه ، متقلبة ، مجدت العظماء . . . وعبثت بالنساء ، وتملقت كل شخص ينقدها ثمن التملق . كانت فى كل مكان لاتحس الغربة ، لها الحظوة فى البلاط ، وفى مخادع النساء ، ومع الطبقة الارستقراطية ، وحتى مع طبقة الكهان ، فى حين أن تعاليم سقراط . . . يحكم عليها الفضوليون بأنها عديمة النفـــع ، والمتبطلون بأنها عديمة المذاق ، والأتقياء بأنهـــا خطرة . » (٨)

وتتمثل فى هبياس كما يصوره فيلاند كل أفكار السوفسطائين ورذائلهم . فهو فيلسوف ، ولكنه حرص على أن يكون مليونيراً أيضاً . وهو يعتزم

أن ينشيء أجاثون المستقيم الخلق على أسلوب أبيقورى فى التفكير والعيش . ويزعم أن أحكم سياسة ينتهجها الإنسان أن يجرى وراء الأحاسيس اللذيذة، و « كل اللذات هى فى حقيقتها حسية » (٩) . وهو يضحك من أولئك الذين يحرمون أنفسهم من لذات هذه الحياة الدنيا أملا فى مباهج السماء التى قد لا تتحقق أبداً . « فمن ذا الذى رأى مرة أولئك الأرباب ، وتلك المخلوقات الروحية ، التى يؤكد (الدين) وجودها ؟ « فهذا كله حيلة يخادعنا بها الكهنة (١٠) . ويدين أجاثون هذه الفلسفة لأنها تتجاهل العنصر الروحى فى الإنسان وحاجات النظام الاجتماعى . ويقدمه هبياس إلى داناى المرأة الغنية الجميلة ، ويشجعها على اغوائه ، ويخفى عنه ماضى داناى حين كانت محظية . وترقص المرأة وتحمل أجاثون رشاقة جسدها مع سحر حديثها وموسيقى صوتها على أن يقدم لها حبه الخالص الطاهر. وتفسد داناى على هبياس مؤامرته إذ ترد حب أجاثون بمثله . ذلك أنها بعد أن تقلبت فى أحضان رجال كثيرين تجد تجربة وسعادة جديدتين فى حب أجاثون . وهى تتطلع إلى أن تبدأ مع أجاثون حياة جديدة أكثر طهراً بعد أن سئمت غرامياتها العديمة العاطفة . فتشتريه من هبياس ، وتعتقه ، وتدعوه لمقاسمتها ثروتها ؛ ولكن هبياس يبوح لأجاثون بماضى داناى وهى محظية انتقاماً منها . فيركب أجاثون البحر إلى سيراكيوز.

وهناك يكتسب سمعة طيبة بالحكمة والنزاهة ، فيصبح الوزير الأول للدكتاتور ديونيسيوس . وقد تخلى الآن عن بعض مثاليته :

« فلم يعد يحلم كما كان بتلك المثاليات الرفيعة عن طبيعة البشر . أو قل إنه انتهى إلى معرفة البون الشاسع بين الإنسان الميتافيزيقى ، الذى يفكر فيه المرء أو يحلم به فى خلوته المتأملة ، أو الإنسان الفطرى وهو خارج لتوه فى بساطته الفجة من يدى الطبيعة الأم ، وبين الإنسان الزائف الذى جعله المجتمع والقوانين والآراء والحاجات والتبعية والصراع المتصل بين رغباته وظروفه ، وبين مصلحته ومصلحة غيره ، وما يترتب على ذلك من ضرورة إخفاء مقاصده الحقيقية وسترها باستمرار — أقول إن هذا كله

تجعل الإنسان كاذباً ، منحطاً ، مشوهاً ، متنكراً وراء مئات الصور الخداعة وغير الطبيعية . ولم يعد ذلك المتحمس ، الفتى الذى كان يخيل له أن تنفيذ مشروع عظيم سهل يسير كتصوره . وقد تعلم أن على المرء ألا يتوقع الكثير من الآخرين ، وألا يعتمد كثيراً على تعاونهم معه ، و(أهم من ذلك كله) ألا يثق كثيراً بنفسه . . . وتعلم أن أكثر الخطط كمالا هى فى الغالب أسوؤها (وأنه) لاشىء فى العالم الأخلاقى ، كما فى العالم المادى ، يتحرك فى خط مستقيم ، وبالاختصار أن الحياة أشبه برحلة بحرية يتعين فيها على الربان أن يكيف مسيره وفق هوى الريح والجو ، ولا يطمئن أبداً إلى أن التيارات المعاكسة لن تعطله أو تجنح بمركبه ؛ وأن كل شىء رهن بهذا : وهو أن يضع نصب عينيه ميناء الوصول الذى يقصده رغم مئات الانحرافات عن الطريق » (١١) .

ويخلص أجاثون الخدمة لسيراكيوز وينجز بعض الإصلاحات ، ولكن مؤامرة فى القصر تخلعه ، فيعتزل فى تارنتوم . وهناك يرحب به صديق قديم لأبيه هو الفيلسوف والعالم الفيثاغورى أرخيتاس (ازدهر ٤٠٠ — ٣٦٥ ق . م) الذى يحقق حلم أفلاطون بالملك الفيلسوف . وهناك يعثر على حبيبة صباه بسوخى ، ولكنها للأسف متزوجة من ابن أرخيتاس ، ثم يتبين أنها أخت أجاثون . على أن داناى يؤتى بها (بعصا الروائى السحرية) من أزمير إلى تارنتوم ، وقد هجرت عاداتها الأبيقورية لتحيا حياة العفة والبساطة . ويطلب إليها أجاثون أن تغفر له بعد أن أدرك أنه أثم بهجرانه أياها ، فتعانقه ، ولكنها ترفض الزواج منه ، فقد عولت على التكفير عن انحرافات الماضى بحياة الزهد والتعفف فى ما بقى لها من أجل . وتختم القصة بأجاثون قانعاً قناعة لا تصدق بأن يعد المرأتين أختين له ه

والكتاب تشوبه عشرات المآخذ . فبناؤه مفكك ؛ ومصادفاته ذرائع كسولة للتهرب من الصنعة الروائية ؛ وأسلوبه لطيف ولكنه شديد الاطناب ؛ وفى كثير من الفقرات يبتعد الفاعل عن الفعل حتى ينسى ؛ وقد هنأ أحد النقاد المؤلف بعيد ميلاده بأن تمنى له حياة طويلة طول جمله . ولكن « تاريخ

أجاثون » برغم هذا يعد من أعظم آثار عصر فردريك . وقد دلت استنتاجاته على أن فيلاند قد اصطلح مع الدنيا ، وأن فى الاستطاعة الآن أن يوكل إليه تعليم الشباب المندفع المتوتر وترويضه . فعين فى ١٧٦٩ أستاذاً للفلسفة فى إيرفورت . ومنها أصدر بعد ثلاث سنين « المرآة الذهبية » وهو كتاب بسط فيه أراءه فى التربية . وأفتتنت به آنا آماليا ، فدعته ليجرب نظرياته التربوية مع أبنائها . فذهب ، وأنفق ما بقى من عمره فى فايمار ، وفى ١٧٧٣ أنشأ مجلة (الرائد الألمانى) ، التى ظلت جيلا (١٧٧٣ — ٨٩) تحت قيادته أعظم المجلات الأدبية نفوذاً فى ألمانيا . وكان النجم الفكرى لفايمار حتى أتى جوته ، وحين اقتحم الكاتب الشاب الجرىء المدينة فى ١٧٧٥ ، رحب به فيـــلاند دون شعور بالغيرة . وسيظل صديقه مدى ست وثلاثين سنة .

٣ — جوته بروميثيوس : ١٧٤٩ — ٧٥

١ — نشأته

تقلبت على يوهان فولفجانج فون جوته شتى التجارب منذ كان يجوب شوارع فرانكفورت — على — المين وهو واع بأنه حفيد عمدتها ، حتى سبعينياته التى كان لأحاديثه العارضة فيها الفضل فى إذاعة اسم كاتب سيرته إكرمان (كما أذاع جونسون اسم بوزويل) ، واستوعب كل ما وسع الحياة والحب والرسائل ان تمنحه ، راداً إياه — فى عرفان — حكمة وفنا .

وكانت فرانكفورت « مدينة حرة » ، يسودها التجار والأسواق ، ولكنها إلى ذلك المقر الذى خصصه الأباطرة لتتويج الملوك الألمان وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة . وفى ١٧٤٩ كان يسكنها ٣٣,٠٠٠ نسمة جلهم تقى مهذب بشوش الوجه . وكان مولد جوته فى منزل متين ذى طوابق أربعة (دمره حريق فى ١٩٤٤ ثم أعيد بناؤه فى ١٩٥١) . وكان أبوه يوهان كاسبار جوته ابن خياط وفندقى ميسور الحال ، وقد دمر يوهان كاسبار مستقبله السياسى بالكبر والخيلاء ، واعتزل مهنة المحاماة مؤثراً حياة الدراسة الهاوية فى مكتبته

الأنيقة . وفى ١٧٤٨ تزوج كاتارينا اليزابث ، ابنة يوهان فولفجانج تكستور عمدة فرانكفورت . ولم ينس ابنها قط أنه عن طريقها ينتسب إلى الإشراف من غير حملة الألقاب ، الذين حكموا المدينة أجيالا قبل ذلك . قال لأكرمان وهو فى الثامنة والسبعين ، « نحن أشراف فرانكفورت كنا نعد أنفسنا دائماً مساوين لطبقة النبلاء ؛ وحين احتوت يداى إجازة النبالة (التى منحت له عام ١٧٨٢) لم أر أنى ظفرت بشيء أكثر مما كنت أملك منذ زمن طويل ».[١٢] وكان يحس أن « الأوغاد فقط هم المتواضعون »[١٣] .

وكان أكبر أطفال ستة ، لم يتجاوز الطفولة منهم غيره هو وأخته كورنيليا ؛ فى تلك الأيام كان الحنان الأبوى الكبير يعد عناء باطلا . ولم يكن بيتهم بالبيت السعيد ؛ فالأم لطيفة الطبع تميل إلى الفكاهة والشعر ، ولكن الأب حاكم صارم متزمت أقصى عنه قلوب أطفاله بخشونة طبعه وضيق خلقه . يقول جوته مستعيداً ذكرى طفولته « لم يكن فى الإمكان نمو علاقته سارة مع أبى» [١٤] . وربما اكتسب جوته منه كما اكتسب من تجربته عضواً فى مجلس شورى الدوق بعض التصلب الذى بدا عليه فى أخريات حياته . وربما أخذ عن أمه روحه الشاعرة وحبه للدراما . وقد بنت فى بيتها مسرحاً للعرائس ؛ ولم يفق ابنها قط من افتتانه بهذا المسرح .

وتلقى الأطفال تعليمهم المبكر على يد أبيهم ، ثم من معلمين خصوصيين . واكتسب فولفجانج الإلمام بقراءة اللاتينية واليونانية والانجليزية وبعض العبرية ، والقدرة على التحدث بالفرنسية والإيطالية . وتعلم أن يعزف على الهاربسيكورد والفيولنشيللو ، ويرسم ويصور بالألوان ، ويركب الخيل ويثاقف ويرقص ، ولكنه اتخذ الحياة خير معلم له . فارتاد كل نواحى فرانكفورت بما فيها حى اليهود ؛ وسدد النظرات الغرامية للفتيات اليهوديات الحسان ، وزار مدرسة يهودية ، وحضر حفلة ختان ، وكون لنفسه فكرة عن أيام اليهود المقدسة [١٥] . وأضافت إلى تعليمه أسواق فرانكفورت إذ جلبت إلى المدينة وجوهاً وسلعاً غريبة دخيلة ، وكذلك أضاف الضباط الفرنسيون فى بيت جوته إبان حرب السنين السبع . وفى ١٧٦٤ شهد الصبي ذو الخمسة

عشر ربيعاً تتويج يوزف الثانى ملكاً على الرومان ؛ وقد حفظ كل صغيرة وكبيرة فى الحفل ، وانفق عشرين صفحة على وصفه فى سيرته الذاتية (١٦) .

وحين ناهز الرابعة عشرة وقع فى أول غرام من غرامياته الكثيرة التى أثمرت نصف شعره. وكان فى تلك الآونة قد اشتهر ببراعته فى قرض الشعر ، فطلب إليه بعض الصبية ممن اختلط بهم أحياناً أن يكتب خطاباً منظوماً بأسلوب فتاه موجهاً إلى فتى ؛ فأحسن كتابته ، مما حملهم على أن يرتبوا تسليمه لعضو مقيم من جماعتهم على أنه مرسل إليه من حبيبته . وأراد الصبى أن يرد على الشعر بالشعر ولكن أعوزته الكفاية وخانته القوافى ، فطلب إلى جوته أن ينظم له رداً . فوافق ، وعرفاناً بجميله دفع العاشق نفقات نزهة خرجت فيها الجماعة إلى فندق فى إحدى ضواحى المدينة . وكانت الخادمة صبية مراهقة تدعى مرجريته — أو جرتشن اختصاراً ، وقد أطلق جوته اسمها على بطلة تمثيليته « فاوست » . وربما هيأته القصص الغرامية التى قرأها ، والرسائل التى كتبها ، لتذوق سحر الأنوثة فى الصبايا . كتب وهو فى الستين يقول « إن أول نوازع الحب فى شاب غشيم يتجه اتجاهاً روحياً بحتاً . ويبدو أن الطبيعة ترغب فى أن يدرك أحد الجنسين بحواسه الجمال والطيبة فى الجنس الآخر . وهكذا تكشف لى عالم جديد من الجميل والرائع بمرأى هذه الفتاة وبميلى الشديد لها » . (١٧) ولم يفقد ذلك العالم بعدها قط ؛ فكانت المرأة بعد المرأة تحرك روحه الحساسة ، وتحركها غالباً بالتبجيل كما تحركها بالرغبة ؛ فحين كان فى الثالثة والسبعين وقع فى غرام فتاه فى السابعة عشرة .

وغلبه الارتباك لحظة وأعجزه عن التحدث إلى ساحرته . « ذهبت إلى الكنيسة مدفوعاً بحبى لها . . . ورحت خلال الخدمة البروتستنتية الطويلة أحدق فيها بملء عينى » . (١٨) ثم رآها ثانية فى فندقها جالسة فى المغزل . كما جلست جرتشن أخرى فى فاوست . واتخذت هى الخطوة الأولى الآن ، ووقعت فى ابتهاج الخطاب الغرامى الثانى الذى اصطنعه كأنه مرسل من فتاة . ثم قبض على واحد من الجماعة كان جوته قد أوصى جده به ، وهو يزيف سندات ووصايا ؛ فنهى فولفجانج أبواه عن مزيد من الاتصال بهؤلاء

الصبية ، ورحلت جرتشن إلى مدينة بعيدة ، ولم يرها جوته بعدها قط . وقد تضايق كثيراً حين علم أنها قالت «كنت أعامله دائماً على أنه طفل » [١٩] .

وكان الآن (١٧٦٥) راضياً تمام الرضى بالرحيل عن فرانكفورت ودراسة القانون فى جامعة ليبزج ،وراح ككل شاب طلعة يقرأ قراءات واسعة خارج الموضوعات المقررة لدراسته . وكان قد تصفح « قاموس بيل التاريخى النقدى» فى مكتبة أبيه ، وخرج منه بأذى كبير لإيمانه الدينى ؛ « ما إن وصلت إلى ليبزج حتى حاولت أن أتحرر كلية من صلتى بالكنيسة»[٢٠] . ثم أنفق فترة فى التنقيب فى الغيبيات والخيمياء وحتى السحر ، وهذا أيضاً دخل فى مسرحية « فاوسمت» . ثم جرب الحفر وصنع الرواسم من الخشب ، ودرس مجموعة الصور المعروضة فى درسدن ؛ وتكررت زياراته للمصور أويزر فى ليبزج . وقد ألم بكتابات فنكلمان بطريقة أويزر ، وعن هذه الكتابات وكتاب ليسنج « اللاوكون » تلقى أولى نفحات إجلاله للطراز الكلاسيكى ، وكان هو وطلاب آخرون يعدون استقبالا حاراً لفنكلمان فى ليبزج حين وافاهم نبأ مصرعه فى تريست (١٧٦٨) .

وكان الإحساس بالجمال هو الغالب فى مدخله إلى العالم . ففى الدين لم يحب غير أسراره المقدسة ، المثيرة ، الغنية بالألوان . ولم يحب الفلسفة كما كتبها الفلاسفة ، باستثناء سبينوزا ؛ وكان يرتعد من المنطق ويهرب من كانط . وقد أحب الدراما ، وكتب مسرحية لا قيمة لها فى ليبزج ، ودأب على قرض الشعر كل يوم تقريباً ، حتى وهو يستمع إلى محاضرات القانون . والقصائد التى نشرها باسم « أغانى ليبزج» مكتوبة بأسلوب أناكريون ، فيها عبث ولهو ، وأحياناً إثارة وشبق :

ومع ذلك فأنا قانع تملؤنى الفرحة
إن هى جادت فقط ببسمتها الحلوة ،
أو إن استعملت وهى على المائدة
قدمى حبيبها وسادة لقدميهـــا ؛

أو أعطتنى التفاحة التى قضمتها ،
أو الكأس التى شربت منهـــا ،
وكشفت عن ثديهـــا المكنون
حين تنشد ذلك قبلتى [٢١] .

أكانت هذه مجرد منى؟ لافيما يبدو . ذلك أنه كان قد وجد فى ليبزج رأساً جميلا — رأس آنيت شونكويف — راغباً فى أن يلج على الأقل الدهليز إلى الحب . وكانت أبنة تاجر خمور يقدم وجبة الظهر للطلاب . وكان جوته يتناول طعامه هناك مراراً فاشتهاها . واستجابت لحرارة عاطفته بتحفظ حكيم ، وسمحت لرجال آخرين بأن يتقربوا منها ، فبدأ يغار ، وأخذ يتجسس عليها ؛ وتشاجرا ثم تصالحا ، وتشاجرا وتصالحا ، ثم تشاجرا وافترقا . ولقد ذكر نفسه حتى فى هذه النشوات أنه حفيد عمدة ، وأن باطنه قرينا — هو حافز ودافع لجنى نهم يطالب بالحرية فى سبيل الاكتمال التام إلى مصيره المحتوم . وقبلت آنيت خطيباً غيره .

ورأى جوته فى هذا هزيمة له ، وحاول نسيانها بالانغماس فى اللذات. « لقد فقدتها حقاً وكان للجنون الذى انتقمت به لخطئى من نفسى بالعدوان على طبيعتى الجسدية بشتى الطرق المسعورة ، لألحق بعض الأذى بطبيعتى الخلقية — أقول كان له ضلع كبير جداً فى إصابتى بالأمراض البدنية التى خسرت بسببها بعضاً من أفضل سنى عمرى» . [٢٢] واستسلم للاكتئاب ، وأصابه عسر هضم عصبى ، وابتلى بورم مؤلم فى عنقه ، واستيقظ ذات ليلة على نزيف كاد يقضى عليه . وغادر ليبزج دون أن يظفر بدرجته الجامعية ، وقفل إلى فرانكفورت (سبتمبر ١٧٦٨) ليواجه تأنيب الأب ومحبة الأم .

ثم تعرف أثناء فترة نقاهته الطويلة إلى سوزانه فون كلتنبرج ، وكانت تقوية مورافية ، لطيفة ، عليلة . «كان صفاؤها وهدؤ عقلها لا يبرحانها قط ، وكانت تنظر إلى مرضها نظرتها إلى عنصر ضرورى فى وجودها الأرضى

العابر »[٢٣] . وقد وصفها بعد سنين وصفاً فيه تعاطف وبراعة فى « اعترافات روح جميلة » . التى أدخلها فى كتابه « ولكنه سجل فى غير مبالاة مزاعمها من أن قلقه واكتئابه سببهما اخفاقه فى المصالحة مع الله . « كنت أعتقد منذ حداثتى إننى على علاقة طيبة جداً مع إلهى — لا بل اننى تخيلت . . . انه قد يكون مديناً لى بدين لم يوفه بعد ، لأننى كنت من الجرأة بحيث رأيت أن عليه لى مأخذا يقتضى أن أغتفره له . وكان هذا الغرور قائماً على حسن نيتى الذى لا حد له ، وهو ما كان خليقاً بإلهى أن يعيننى عليه معونة أفضل كما بدا لى . وللقارىء أن يتصور كم من المرات دخلت فى منازعات مع أصدقائى حول هذا الموضوع ، ولكنها كانت تنتهى دائماً بغاية المودة والصفاء »[٢٤] .

ومع ذلك مرت به لحظات متفرقة من التقوى ، إلى حد الاختلاف إلى بعض جلسات الإخوان المورافيين ، ولكن نفره من هؤلاء القوم البسطاء[٢٥]، « ضعف ذكائهم » ، وسرعان ما ارتد إلى الجمع المتقطع بين الإيمان بوحدة الوجود والشك العقلانى .

وفى أبريل ١٧٧٠ رحل إلى ستراسبورج أملا فى نيل درجته القانونية . ووصفه زميل من الطلاب (وهو فى الحادية والعشرين) بأنه « فتى وسيم الوجه ، له جبين رائع وعينان واسعتان متقدتان « ولكنه أردف» ان التعامل مع هذا الشاب لن يكون أمراً يسيراً ، إذ يبدو أن له طبعاً جموحاً غير مستقر»[٢٦] . وربما كان مرضه الطويل سبباً فى إثارة أعصابه ؛ وكان « قرينه » أشد اقلاقاً له من أن ينيله الهدوء والاستقرار ، ولكن أى شاب تسرى النار فى دمه يستطيع أن ينعم بالهدوء ؟ وحين وقف أمام الكتدرائية الكبرى حياها بشعور الوطنية ، لا بوصفها كاثوليكية بل « معماراً ألمانياً ، معمارنا ، فالإيطاليون لا يستطيعون المفاخرة بشىء نظيرها ، وأقل منهم الفرنسيون »[٢٧] (ولم يكن قد رأى بعد إيطاليا ولا فرنسا) . « وصعدت وحيداً إلى أعلى قمة فى البرج . . . وغامرت من هذا العلو بأن أخطو إلى الخارج على افريز لا يكاد يبلغ ياردة مربعة . وقد أوقعت هذا الرعب

والعذاب على نفسي مراراً وتكراراً حتى أصبحت التجربة فى نظرى أمراً غير ذى بال » .[٢٨] وقد لاحظ أحد أساتذته أن « الهر جوته كان يسلك بأسلوب جعل الناس ينظرون إليه نظرتهم إلى دعى كاذب من أدعياء العلم ، وخصم مسعور لكل تعليم ديني . والرأى الذى أجمع عليه الكل تقريباً أن فى رأسه برجاً ناقصاً »[٢٩] .

وعملت التجارب الجديدة الكثيرة على تأجيج ناره . فقد التقى بهردر مرات خلال إقامته فى ستراسبورج . وكان هردر الذى يكبره بخمس سنوات ، هو الطرف المسيطر فى هذه اللقاءات ؛ وقد وصف جوته نفسه ، فى نوبة تواضع عارضة ، بأنه « كوكب » يدور حول شمس هردر . وأزعجته نزعة هردر الدكتاتورية ، ولكنه حفزه إلى قراءة الأغانى الشعبية القديمة ، وكتاب مكفرسن « أوسيان » ومسرحيات شكسبير (فى ترجمة فيلاند) . ولكنه قرأ أيضاً فولتير وروسو وديدرو ثم درس مقررات فى الكيمياء والتشريح والولادة ، فضلا عن مواصلة دراسة القانون . . . ثم انه واصل دراسته للنساء .

ذلك انه شعر بفتنتهن بكل ما فى الشاعر من حساسية مرهفة ، وكل ما فى الشباب من توهج كهربى . وبعد هذه الحقبة بسبعة وأربعين عاماً أخبر إكرمان بأنه يعتقد أن للأشخاص تأثيراً مغنطيسياً غامضاً على غيرهم ، وأكثره عن طريق تباين الجنس[٣٠] . فكانت تحركه خطرات الفتيات الخفيفة الرشيقة ، وموسيقى أصواتهن وضحكهن ، ولون أثوابهن وحفيفها ؛ وكان يحسد الزهرة التى كن أحياناً يزين بها مشدهن أو شعرهن على التصاقها بهن . وكانت الواحدة تلو الأخرى من هذه المخلوقات السحرية تستنفر دمه ، وتكبر فى خياله ، وتحرك قلمه . لقد أحب من قبل جرتشن وآنيت ، وعما قليل سيكون هناك لوته وللى وشارلوته ، ثم منا وأوليريكه . أما الآن ، فى زيزنهايم (قرب ستراسبورج) ، فكانت افتنهن قاطبة — فردريكه بريون .

كانت الإبنة الصغرى (تسعة عشر ربيعاً فى ١٧٧١) لراعى كنيسة

المدينة ، الذى شبه جوته بقسيس ويكفيلد الفاضل الذى روى جولد سمث قصته . والصفحات التى كتبها جوته عن فردريكه فى سيرته الذاتية هى أروع ما كتب فى حياته من نثر [٣١] . وكان يركب مراراً من ستراسبورج ليستمتع بما اتسمت به هذه الأسرة الريفية من بساطة لم تفسدها الحضارة . وكان يصطحب فردريكه فى نزهات طويلة لأنها كانت ترسل نفسها على سجيتها فى الهواء الطلق . وقد أحبته ، ومنحته كل ما طلب . « فى خلوة فى الغابة تعانقنا بعاطفة عميقة ، وتبادلنا أخلص التأكيدات بأن كلا منا يحب الآخر من أعماق قلبه ». [٣٢] ولكن سرعان ما راح يعترف لصديق بأن « المرء لا تزداد سعادته مثقال ذرة بنيله ما تمنى » .

وكان خلال ذلك يكتب باللاتينية رسالة الدكتوراه التى أكدت (كما أكد فبرونيوس) حق الدولة فى الاستقلال عن الكنيسة . وقد نالت موافقة الكلية الجامعية ؛ ونجح فى الامتحانات ؛ وفى ٦ أغسطس ١٧٧١ نال درجة الليسانس فى القانون . وجاء أوان الرحيل عن ستراسبورج . فركب إلى زيزنهايم ليودع فردريكه ، « وحين مددت إليها يدى وأنا على صهوة جوادى ، اغرورقت عيناها بالدموع . وأحسست بضيق شديد . . . وبعد أن نجوت آخر الأمر من انفعال الوداع ، تمالكت نفسى تماماً ومضيت فى رحلة هادئة مطمئنة » . [٣٣] أما تقريع الضمير فجاء بعد ذلك . « لقد انتزعت جريتشن منى ؛ وهجرتنى آنيت ؛ أما الآن فكنت مذنباً لأول مرة . فقد جرحت أحب قلب جرحاً فى الصميم ؛ وكانت فترة الندم الكئيب مع افتقادى ذلك الغرام المنعش الذى كنت قد ألفته — فترة عذاب أليم . . » [٣٤] انه شعور أنانى إلى حد محزن ، ولكن من منا ، فى تجارب الحب وزلاته ، لم يجرح قلباً أو قلبين قبل أن يظفر بقلب ؟ وماتت فردريكه دون أن تتزوج ، فى ٣ أبريل ١٨١٣ .

٢ — جوتز وفرتر

لم يمارس حامل أجازة القانون الجديد مهنة المحاماة فى فرانكفورت إلا كرهاً وكان يزور دارمشتات بين الحين والحين ، وأحس تأثير تمجيدها

للعاطفة فى وجدانه . وجاز الآن فترة من رد الفعل الشديد ضد فرنسا ، وضد الدراما الفرنسية وقواعدها الصارمة ، وحتى ضد فولتير . وراح يسيغ أكثر فأكثر شكسبير الذى عرض على خشبة المسرح طبيعة الإنسان حلالا كانت أو حراماً . فى هذا المزاج ، وفى عنفوان الشباب وحيويته ، كان مهيأ للحركة الزوبعية . فتعاطف مع رفضها للسلطة ، وإعلائها للغريزة فوق العقل ، وللفرد البطل فوق الجماهير الحبيسة فى سجن التقاليد . وهكذا كتب « جوتز فون برليشنجن » فى ١٧٧٢ — ٧٣ .

وكانت انجازاً ممتازاً من فتى فى الثالثة والعشرين : دراماً جمعت بين الحب والحرب والخيانة فى قصة تنبض بالحماسة للحرية ، وتنضح حيوية ، وتشد الانتباه من أولها لآخرها . أما جوتز هذا ففارس أطاح الرصاص بيمناه فى المعركة وهو فى الرابعة والعشرين (١٥٠٤) ؛ فركبت فى ذراعه يد حديدية أعانته على استعمال سيفه قاطعاًبتاراً كما كان من قبل ، وإذ رفض الاعتراف بأى سيد إلا الإمبراطور ، فقد أصبح واحداً من أولئك« البارونات اللصوص » الذين ادعوا باسم الحرية أن لهم مطلق السلطة على أرضهم إلى درجة سلب عابرى السبيل وشن الحروب الخاصة . وفى ١٤٩٥ أصدر الأمبراطور مكسمليان الأول مرسوماً يحرم الحروب الخاصة ، وإلا كان عقاب المذنب مزدوجاً — النفى بأمر الإمبراطور والحرم بأمر الكنيسة ، ورفض جوتز ذو اليد الحديدية النفى لأنه يخالف الحقوق المتوارثة ، ودارت التمثيلية أول الأمر حول الصراع بين الفارس المتمرد وأمير بامبرج الأسقف ، وإذ كان جوته يحب النساء أكثر كثيراً من حبه للحرب ، فإنه ركز الاهتمام على أوليده فون فالدورف التى إلهب جمالها وثراؤها رجالا كثيرين بالرغبة المشبوبة المستهترة . فى سبيلها نقض أدلبرت فون فايزلنجن ، وهو فارس « حر » آخر ، تحالفه مع جوتز وفسخ خطبته لماريا أخت جوتز ، وإنحاز إلى الأسقف . ولعل جوته تذكر — فى حب فايزلنجن المتذبذب — عدم وفائه هو . وأرسل نسخة من التمثيلية إلى فردريكه بيد صديق قائلا « سيسرى عن فردريكة المسكينة بعض الشىء أن ترى العاشق الخائن يموت بالسم » (٣٥) .

وقد حور المؤلف التاريخ ليطوعه لمسرحيته ، فجوتفريد فون برليشنجن لم يبلغ فى نبله وشهامته مبلغ جوتز كما صوره جوته ؛ ولكن تعديلات كهذه تعد من قبيل الجواز الشعرى ، شأنها شأن القوافى المشوهة . كذلك يغتفر لجوته ذلك الحديث الخشن المتهور الذى أجراه على لسان بطله تعبيراً عن الفحولة . وحين أخرجت المسرحية فى برلين (١٧٧٤) أدانها فردريك الأكبر « تقليداً بغيضاً » لتلك « البربرية » التى رآها هو فى شكسبير ، كما رآها فولتير ؛ ثم دعا المسرحيين الألمان أن يلتمسوا نماذجهم فى فرنسا . وقد وافق هردر فردريك أول الأمر ، وقال لجوته « لقد دمرك شكسبير » (٣٦) ، ولكنه بعث بالنسخة المنشورة إلى أصدقائه مشفوعة بالتقريظ العظيم . « أمامكم ساعات من السحر . فهناك قدر غير عادى من القوة والعمق والإخلاص الألمانى الأصيل فى التمثيلية ، وإن كانت بين الحين والحين لا تعدو أن تكون تدريباً ذهنياً » (٣٧) . أما الجيل الأصغر فقد حيا جوته بوصفه أسمى تعبير عن حركة « شتورم » وطاب للقراء الألمان أن يسمعوا أخبار فرسان العصر الوسيط ، ورموز الخلق الألمانى الجبار . ولذ البروتستنت أن يسمعوا أصداء لوثر فى « الأخ مارتن » ، الذى يشكو من أن نذوره الفقر والعفة والطاعة نذور غير طبيعية ، والذى يصف المرأة بأنها « فخر الخليقة وتاجها » ، ويهش للخمر لأنها « تبهج قلب الرجل » ، ويقلب قولا مأثوراً قديماً بقوله أن « البهجة أم الفضائل كلها » (٣٨) . وحتى أبو جوته ، الذى اضطر أن يعاونه فى مهنة المحاماة والذى رأى فيه صورة لتدهور سلالة أبيه ، اعترف بأنه ربما كان فى الغلام خير رغم كل شىء .

وفى مايو ١٧٧٢ كان على المحامى الشاب أن يذهب فى مهمة قضائية إلى فتسلار ، مقر محكمة الاستئناف الامبراطورية . وراح يجول بين الحقول والغابات ومخادع النساء غير مكترث البته بالقانون ، وهو يرسم ويكتب ويستوعب . وفى فتسلار التقى بكارل فلهلم يروزاليم ، الشاعر والمتصوف ، وجيورج كرستيان كستنر ، وهو موثق وصفه جوته بأنه « يتسم بالسلوك الهادىء الرصين ، وبوضوح الرؤية ، . . . وبالنشاط الرزين الذى لا يكل » (٣٩) ،

وبلغ من ثقته بالترقى فى وظيفته أنه كان مرتبطاً بفتاة ليتزوجها . وقد وصف كستنر جوته وصفاً فيه سماحة وكرم :

« هو فى الثالثة والعشرين ، والإبن الوحيد لأب غنى جداً . وقد تقرر — وفقاً لمشيئة أبيه — أن يمارس المحاماة فى المحكمة هنا ، أما مشيئته هو فهى أن يدرس هومر وبندار وأى شىء آخر توحى به عبقريته وذوقه وقلبه . . . والحق أنه صاحب عبقرية أصيلة ، ورجل على خلق . وهو صاحب خيال ذو حيوية خارقة ، ويعبر عن نفسه بالصور والتشبيهات . . . ومشاعره عنيفة ، ولكنه يملكها عادة . وقناعاته نبيله ، وهو برىء تماماً من الهوى ويسلك كما يحب دون أن يعبأ إن كان سلوكه هذا يسر غيره ، أو هو السلوك العصرى ، أو السلوك المباح . وكل ألوان القهر بغيضة فى نظره . وهو يحب الأطفال ، وفى وسعه أن يلاعبهم ساعات بطولها . . . إنه رجل ممتاز تماماً »[٤٠] .

وفى ٩ يونيو ١٧٧٢ التقى جوته بخطيبة كستنر فى حفلة رقص ريفية ، واسمها شارلوته بوف . ثم زارها فى الغد ، ووجد فى الأنوثة فتنة جديدة . أما لوته هذه التى كانت يومها فى العشرين فهى أكبر الأخوات فى أسرة من أحد عشر طفلا . وكانت الأم ميتة والأب مشغولا بكسب قوته ؛ وقامت لوته بدور الأم للأطفال الكثيرين . ولم تؤت بهجة ألفتاة الصحيحة البدن ونضارتها فحسب ، بل زادت عليهما جاذبية المرأة الشابة التى تؤدى فى بساطة وأناقة هندام مهام وظيفتها بكفاءة وحب وبشاشة . وسرعان ما وقع جوته فى غرامها ، فما كان فى استطاعته أن يظل طويلا بغير صورة أنثى تدفىء خياله . ورأى كستنر الموقف ، ولكنه لثقته مما يملك أبدى تسامحاً كريماً . أما جوته فقد سمح تقريباً بمزايا الخطيب المنافس ، ولكن لوته كانت دائماً تصده ، وتذكره بأنها مخطوبة . وأخيراً طلب إليها أن تختار بينهما ، ففعلت ، ورحل جوته عن فتسلار فى الغد (١١ سبتمبر) دون أن تختلج كبرياؤه إلا لحظة . وظل كستنر صديقه الوفى حتى مماته .

وقبل أن يعود جوته إلى فرانكفورت توقف فى ايرنبرايشتاين على الرين ، وهى موطن جيورج وصوفى فون لا روش . وكان لصوفى ابنتان « سرعان

ما جذبتني بشدة كبراهما مكمسليانه ، وإنه لإحساس لذيذ جداً حين يبدأ غرام جديد في التحرك داخلنا قبل أن يخمد القديم تماماً . فعند غروب الشمس يود المرء أن يرى القمر يطلع على الجانب المقابل » (٤١) . على أن مكسمليانه تزوجت بيتر برنتانو ، وولدت بنتاً رشيقة اسمها بتينا ، وقعت في غرام جوته بعد خمسة وثلاثين عاماً . وراض جوته نفسه على حياة فرانكفورت والمحاماة . ولكنه لم يرتض هذه الحياة تماماً ، فقد فكر حيناً في الانتحار . يقول :

«كنت أملك فيما أملك من مجموعة كبيرة من السلاح خنجراً جميلا جيد الصقل . وكنت أضعه كل ليلة بجوار فراشي ، وقبل أن أطفىء الشمعة جربت إن كان في استطاعتي أن أفلح في إغماد السن الحاد بوصتين في قلبي . فلما لم أوفق في هذه المحاولة قط ، أقلعت أخيراً عن الفكرة بضحكي من نفسي ، وكففت عن كل أوهامي ووساوسي ، وصممت على أن أعيش .

«ولكي أستطيع هذا العيش في بشر اضطررت إلى حل مشكلة أدبية ، تتحول فيها كل مشاعري الماضية . . . إلى ألفاظ . فجمعت لهذا الغرض العناصر التي كانت تعتمل في سنوات ، واستحضرت في ذهني الحالات التي أثرت في وعذبتني أشد تأثير وعذاب ؛ ولكن شيئاً لم ينته إلى شكل محدد . فقد افتقدت الحدث ، أو الأسطورة ، التي يمكن فيها أن ترى هذه الحالات كلا متكاملا» (٤٢) .

وقدم محام من زملائه في فتسلار هذا الحدث الذي يدمج هذه العناصر . ففي ٣٠ أكتوبر ١٧٧٢ قتل فلهلم يروزاليم نفسه يأساً من حبه لزوجة صديق له ، بعد أن استعار مسدساً من كستنر . قال جوته وهو يستحضر الحدث « وبمجرد سماعي بنبأ موت يروزاليم . . . . تشكلت خطة « فرتر » في ذهني ، وتسابق الكل معاً من جميع الجوانب» (٤٣) . ربما ، ولكنه لم يبدأ تأليف الكتاب إلا بعد خمسة عشر شهراً . وواصل أثناء ذلك مغازلته لمكسمليانه برنتانو — التي كانت قد انتقلت مع زوجها إلى فرانكفورت — بمثابرة وإصرار جعلا الزوج يحتج ، فانسحب جوته .

وشتتت جهده ألوان مختلفة من المشروعات الأدبية المخفقة . فقد داعب

فكرة قص قصة اليهودى التائه من جديد ، وخطط زيارة يقوم بها اليهودى لسبينوزا ، وأن يبين أن الشيطان كما تدل جميع الظواهر منتصر على المسيح فى العالم المسيحى [٤٤] ، ولكنه لم يزد على عشر صفحات فى « اليهودى التائه » . ثم نظم هجائيات فى ياكوبى ، وفيلاند ، وهردر ، ولنتس ، ولا فاتر ، ولكنه وفق رغم ذلك فى كسب صداقتهم . وشارك فى كتاب لا فاتر فى الفراسة ، سمح له بأن يفحص قسمات دماغه ، وكانت النتائج مرضية لغروره . وكان حكم السويسرى « إن هنا ذكاء ، مع حساسية تؤججه . لاحظ الجبين النشيط . . . والعين السريعة النفوذ والفحص والافتتان . . . والأنف ، الذى يكفى فى ذاته إعلاناً عن الشاعر . . مع الذقن الفحل ، والأذن القوية المتسعة — فمن ذا الذى يرتاب فى العبقرية الكامنة فى هذا الدماغ ؟[٤٥] ومن ذا الذى يستطيع تطبيق هذه المقاييس الدماغية ؟ » على أن ياكوبى قال إن هذا ممكن ، لأنه بعد أن زار جوته فى يوليو ١٧٧٣ وصفه فى رسالة إلى فيلاند بأن « عبقرى من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، رجل به مس من الجن ، كتب عليه أن يسلك وفق أوامر الروح الفردى »[٤٦] .

وأخيراً ، فى فبراير ١٧٧٤ ، كتب جوته الكتاب الذى آذاع اسمه فى طول أوربا وعرضها ، « آلام الفتى فرتر » . وكان قد أطال التفكير فيه ، وأطال ترديده فى تأملاته وخياله ، حتى لقد أطلقه الآن كما يقول « فى أربعة أسابيع . . . اعتزلت الناس كلية ، ومنعت زيارة أصحابى »[٤٧] .قال لأكرمان بعد خمسين سنة « كان ذلك خلقاً غذوته بدم قلبى كما يفعل طائر البطريق »[٤٨] . وقد قتل فرتر ليمنح نفسه السلام .

وكان ملهماً فى إنجاز الكتاب . اشتعمل شكل الرسائل ، محاكاة لقصة رتشردسن « كلاريسا » وقصة روسو « جولى » من جهة ، ومن جهة أخرى لأن هذا الشكل كان ملائماً للإفصاح عن العاطفة وتحليلها ، وربما لأنه فى هذا الشكل استطاع أن يستعمل بعض الرسائل التى كتبها من فتسلار لأخته كورنيليا أو لصديقه ميرك . وصدم شارلوته وكستنر بإطلاقه اسمها الفعلى

« لوته على بطلة حب واضح أنه يصف غرامجوته بعروس كستنر ، وكستنر يقابله فى القصة « البرت» الذى صوره المؤلف فى إطراء . وحتى اللقاء فى المرقص ، وزيارة الغد ، كانا فى القصة كما كانا من قبل فى الواقع . « منذ ذلك اليوم تستطيع الشمس والقمر والنجوم أن تسير سيرتها فى هدوء ، ولكنى لا أعى بنهار ولا بليل ، وكل العالم من حولى يتلاشى . . . لم يعد عندى صلوات أتلوها إلا لها »[٤٩] . على أن فرتر ليس جوته بالضبط : فهو أكثر عاطفية ، وأميل إلى البكاء والكلام المتدفق والرثاء لنفسه . ولكى يقود المؤلف القصة إلى نهايتها الفاجعة ، اقتضاه ذلك أن يغير فرتر من جوته إلى فلهلم يروزاليم . أما اللمسات الأخيرة فهى تحكى تاريخ ما حدث : يستعير فرتر ، كما استعار يروزاليم ، مسدس البرت لينتحر به ، وقصة ليسنج « إميليا جالوتى » ملقاة على مكتبه وهو يموت . « ولم يصحبه كاهن » إلى قبره .

كانت قصة «آلام الفتى فرتر» (١٧٧٤) حدثاً فى تاريخ الأدب وتاريخ ألمانيا . فقد عبرت عن العنصر الرومانسى فى الحركة الزوبعية ودعمته ، كما عبرت قصة « جوتز فون برليشنجن » من قبل عن العنصر البطولى . واستقبلها الشباب المتمرد بالمديح والمحاكاة ، وارتدى بعضهم السترة الزرقاء والصدرة الصفراء البرتقالية كفرتر ، وبكى بعضهم كفرتر ، وانتحر بعضهم باعتبار الانتحار الشيء « العصرى» الوحيد الذى يجب عمله . واحتج كستنر على الولوغ فى أسراره . ولكن لم يلبث ان هدىء ، ولم يقل لنا أحد ان شارلوته شكت حين قال لها جوته « ان اسمك تنطقه آلاف الشفاه المعجبة بكل اجلال »[٥٠]. ولم يشارك رجال الدين الألمان فى هذا الاستحسان . وأدان واعظ همبورجى القصة لأنها دفاع عن الانتحار . اما الراعى جوتسى ، عدو ليسنج ، فقد حمل على الكتاب ، وأدانه ليسنج لعاطفيته المفرطة وافتقاره إلى القصد الكلاسيكى[٥١] . وفى عشاء عام لأم القس ى. ك. هازنكمبف جوته فى مواجهته على « تلك القطعة الشريرة من الكتابة » ، ثم أردف « ليهد الله قلبك الضـــال » ! وأفحمه جوته بجواب

هادىء : « اذكرنى فى صلواتك »[٥٢] . وكان الكتيب أثناء ذلك يكتسح أوربا فى مترجمات عديدة ، منها ثلاثة فى فرنسا خلال سنوات ثلاث ؛ واعترفت الآن فرنسا لأول مرة بأن فى ألمانيا أدباً .

٣ — الملحد الشاب

كان لرجال الدين بعض العذر فى القلق على جوته ، لأنه كان فى هذه المرحلة يجهر بعداء الكنيسة المسيحية . كتب كستنر فى ١٧٧٢ يقول « انه يجل الدين المسيحى ، ولكن ليس فى الصورة التى يصوره بها لاهوتيونا . . . انه لا يتردد على الكنيسة ، ولا يتناول القربان ، ونادراً ما يصلى . »[٥٣] وكان جوته يكره على الأخص تأكيد المسيحية على الخطيئة والندم[٥٤] ، ويؤثر أن يأثم دون ندم . كتب إلى هردر (حوالى ١٧٧٤) يقول « ليت تعليم المسيح كله لم يكن هذا الهراء الذى يثير سخطى بصفتى بشراً ، مخلوقاً مسكيناً محدوداً ذا رغبات وحاجات ! »[٥٥] ووضع مخططاً لمسرحية عن بروميثيوس رمزاً للإنسان يتحدى الآلهة ، ولكنه لم يزد على مقدمة صدمت ياكوبى وأبهجت ليسنج . وما بقى منها هو أكثر تفجرات جوته المعادية للدين تطرفاً . يقول بروميثيوس :

غط سماءك يازيوس بالضباب الملبد بالغيوم ،
وإله — كما يلهو طفل يقطع رؤوس الشوك
على شجر البلوط وقمم الجبال !
فأنت لابد تارك أرضى قائمة .
وكوخى ، الذى لم تبنه ،
ومدفأتى التى تحسدنى على توهج نارها .
لست أعرف تحت السماء من هو أفقر منكم أيها الآلهه !
إنكم تغذون جلالتكم بالجهد من الضحايا وصلوات الرغبات .
ولولا حمق الأطفال والمتسولين المتعللين بالآمال
لماتت هذه الجلالة جوعاً .

حين كنت طفلا لا أعرف فى ماذا أفكر ،
كانت عيناى الضالتان تتطلعان إلى الشمس ،
كأن لها أذناً تصيخ السمع إلى شكاتى ،
أو قلباً كقلبى يرق لنفس معناة .
فمن ترى أعاننى على غطرسة الطاغية ؟
ومن أنقذنى من الموت ، من العبودية ؟
أليس هو قلبى المقدس المضطرم ،
هو الذى صنع هذا كله وحده ،
ولكنه لحداثته وطيبته ولأنه كان مخدوعاً ،
فهو يرفع الشكر للملك النائم هناك ؛
أمجدك ؟ لماذا ؟
هل خففت مرة أحزان المثقلين بالهموم ؟
هل كفكفت مرة دموع المعذبين ؟
ألم يفطرنى بشرا ؟
ذلك الزمان الجبار والقدر السرمدى —
سيداى وسيداك . . .
ها أنذا قاعد هنا . أصنع الرجال على شاكلتى ،
سلالة شبيهة بى .
تحزن وتبكى . تفرح وتمرح ،
وتزدريك كما أزدريك .

ثم انتقل جوته ببطء من حضيض الإلحاد المغرور هذا إلى « حلولية » سبينوزا الأكثر تهذيباً . روى لافاتر أن « جوته قال لنا أشياء كثيرة عن سبينوزا ومؤلفاته ... فقد كان رجلا غاية فى الإنصاف والاستقامة والفقر ... وكل الربوبيين المحدثين قد أخذوا آراءهم عنه أولا . . . وأضاف جوته أن رسائله أطرف ما عرف العالم كله عن الاستقامة وحب البشر »[٥٦] ،

وبعد اثنين وأربعين عاماً قال جوته لكارل تسلتر إن أكثر الكتاب تأثيراً فيه هم شكسبير وسبينوزا ولينايوس [٥٧] وفى ٩ يونيو ١٧٨٥ كتب إلى ياكوبى بتسلمه كتابه « فى تعاليم سبينوزا » ، وتكشف مناقشته لتفسير ياكوبى لهذه التعاليم عن دراسة مستفيضة للفيلسوف — القديس اليهودى . كتب يقول « إن سبينوزا لا يبرهن على وجود الله ، انه يبرهن على أن الوجود (حقيقة المادة — العقل) هو الله . فليرمه غيرى لهذا السبب بالإلحاد ، أما أنا فأميل إلى أن أصفه وأثنى عليه رجلا تقياً جداً ، لا بل مسيحياً جداً ! . . . وأنا آخذ عنه أصح المؤثرات فى تفكيرى وسلوكى » [٥٨] .

وقد علق جوته فى سيرته الذاتية على رده على ياكوبى بقوله : « كنت لحسن الحظ قد أعددت نفسى . . . بعد أن انتحلت إلى حد ما أفكار وعقل رجل خارق للعادة . . . وهذا العقل ، الذى كان قد أثر فى تأثيراً حاسماً جداً ، وكتب له أن يؤثر تأثيراً عميقاً جداً فى أسلوب تفكيرى كله ، هو سبينوزا . ذلك أننى بعد أن بحثت فى العالم عبثاً عن وسيلة لتطوير طبيعتى الغريبة ، وقعت فى النهاية على كتاب « الأخلاق » لهذا الفيلسوف . . . فوجدت فيه مسكناً لعواطفى المشبوبة ، وتفتحت أمامى نظرة واسعة حرة تشرف على العالم الحسى والخلقى . . . ولم تبلغ بى الجرأة قط مبلغ الاعتقاد بأننى فهمت كل الفهم رجلا . . . ارتقى ، بدراساته الرياضية والربانية ، إلى ذرى الفكر ، رجلا يلوح ان اسمه حتى فى يومنا هذا ، يعين الحد الذى تقف عنده كل المحاولات التأملية » [٥٩] .

وقد أضاف مزيداً من الدفء لعقيدته الأسبينوزية فى الحلول (وحدة الوجود) بولعه الشديد بالطبيعة ، ولم يكن هذا الولع ابتهاجاً فحسب بمرأى الحقول النضرة أو الغابات الغامضة أو النباتات والأزهار المتكاثرة فى تنوع غزير ، بل إنه عشق أيضاً حالات الطبيعة الأكثر صرامة ، وأحب أن يشق طريقه خلال الريح أو المطر أو الثلج ، ثم صعوداً إلى قمم الجبال الخطرة . وكان يتحدث عن الطبيعة كأنها أم يرضع من صدرها رحيق الحياة ونكهتها . وقد عبر فى ملحمة من الشعر المنثور سماها « الطبيعة » (١٧٨٠) ، بوجدان

دينى ، عن استسلامه المتواضع للقوى الخلاقة المدمرة التى تكتنف الإنسان ، واندماجه السعيد فيها :

« الطبيعية ! انها تكتنفنا وتحضرنا — ونحن لا نستطيع الخطو خارجها ، ولا التعمق فى داخلها . انها تتلقانا ، دون توسل إليها ولا تحذير ، فى حلبة رقصها ، ثم ترافقنا فى رقص سريع حتى تنهك قوانا ونخر من بين ذراعيها . .

« انها لا تفتأ تخلق الأشكال الجديدة ، فما هو موجود الآن لم يكن موجوداً قط من قبل ، وما فات لن يعود ؛ الكل جديد ، ومع ذلك فهو دائماً القديم .

انها تبدو وكأنها دبرت كل شىء للفردية ، ولكنها لا تعبأ مثقال ذرة بالافراد ، انها بانية أبداً ، هادمة أبداً ، ومصنعها لا سبيل للوصول ليه . . .

انها تملك الفكر ؛ وهى تتأمل باستمرار ، لا كالإنسان ، بل كالطبيعة . أن لها عقلا كلى الشمول خاصاً بها ؛ وما من أحد يستطيع النفوذ إليه . . .

انها تسمح لكل طفل بأن يعبث بها ، ولكل أحمق بأن يحكم عليها ، والآلاف تعثر أقدامهم ولا يرون شيئاً ، ان فرحتها بالكل .

انها رحيمة ، وأنا أثنى عليها وعلى كل أعمالها . انها حكيمة هادئة . لا يستطيع المرء أن يستخلص منها أى تفسير ، أو ينتزع منها عطية لا تعطيها بمشيئتها الحرة .

لقد وضعتنى هنا ، وسوف تقودنى بعيداً . وأنا أوكل إليها نفسى ، ولها أن تفعل بى ما تشاء . فهى لن تكره صنعة يدها »[٦١] .

وفى ديسمبر ١٧٧٤ توقفت الدوق كارل أوبست بفرانكفررت فى الطريق بحثاً عن عروس فى كارلسروهى . وكان قد قرأ « جوتز فون برليشنجن » وأعجبته ، فدعا مؤلفها للقائه . وذهب جوته ، ووقع من نفس الدوق موقعاً طيباً . وساءل الدوق نفسه ألا يجوز أن يصبح هذا العبقرى الوسيم المهذب نجماً ساطعاً فى بلاط فايمار . وكان عليه أن يعجل بالرحيل ، ولكنه طلب إلى جوته أن يلتقى به ثانية فى رجوعه من كالسروهى .

كان جوته كثير الكلام عن القدر ، قليله جداً عن المصادفة . ولعله لو سئل لأجاب إن القدر — لا المصادفة — هو الذى جاء به إلى الدوق ، وأنه هو الذى صرفه عن حسن للى شوثيمان إلى مخاطر فايمار وفرصها المجهولة . أما للى هذه فكانت ابنة تاجر غنى فى فرانكفورت . وقد دعى جوته إلى حفل استقبال فى بيتها بعد أن أصبح الآن سبعاً من سباع المجتمع الراقى . وعزفت للى على البيانو عزفاً رائعاً ، واتكأ جوته على ركن منه وراح يحدق على مهل فى مفاتنها ذات الستة عشر ربيعاً وهى تعزف . « كنت أحس انى أشعر بقوة جذابة غاية فى الرقة . . . ثم ألفنا أن نلتقى . . . وأصبحنا الآن ولا غنى للواحد عن صاحبه . . . وملكنى شوق لاسبيل إلى مقاومته (٦١) . فما أسرع ما ترتفع هذه الحمى الشهيرة ، التى فجرتها حساسية شاعر . قبل أن يدرك معنى ما فعل ، كان قد خطبها رسمياً (ابريل ١٧٧٥) . أما للى التى ظنت أنها اقتنصته وأمنته ، فراحت تعابث غيره . وشهد جوته ذلك فغلت مراجل غيظه .

فى هذه الفترة بالضبط مر صديقان هما الكونت كرستيان والكونت فريدريش تسو شتولبرج بفرانكفورت فى طريقهما إلى سويسرة . واقترحا على جوته أن ينضم إليهما . وحثه أبوه على الذهاب ومواصلة الرحلة إلى إيطاليا . « وانفصلت عن للى بعد أن أفضت إليه ببعض السر ولكن دون أن استأذن قبل الرحيل »(٦٢) .

وقد بدأ الرحلة فى مايو ١٧٧٥ ، والتقى بالدوق ثانية فى كارلسروهى ، فدعاه بصفة نهائية إلى فايمار . ومضى إلى زيورخ . حيث التقى بلافاتير وبودمير . وتسلق سانت جوتهارد وتطلع باشتياق إلى إيطاليا ، ثم تسلطت على خياله من جديد صورة للى . فترك أصحابه ويمم شطر وطنه . وفى سبتمبر كانت للى بين زراعيه . ولكنه ما أن خلا إلى نفسه فى حجرة حتى عاوده خوفه القديم من الزواج سجناً وركوداً . وأنكرت للى تردده ، فاتفقا على فسخ خطبتهما ، وفى ١٧٧٦ تزوجت برنهارت فون توركهايم .

أما الدوق الذى ألم بفرانكفورت فى طريق عودته من كارلسروهى

فقد عرض على جوته أن يرسل إليه عربة تقله إلى فايمار . ووافق جوته ، ودبر أمره ، وانتظر اليوم الموعود . ولكن العربة لم تأت . أفكان ذلك عبثاً وخديعة ؟ وبعد أن قضى أياماً من التلبث المغيظ انطلق فى رحلته إلى إيطاليا . ولكن العربة الموعودة لحقته فى هيدلبرج ، وقدم مبعوث الدوق التفسيرات والاعتذارات ، فقبلها جوته . وفى ٧ نوفمبر ١٧٧٥ وصل إلى فايمار ، وكان يومها فى السادسة والعشرين ، ممزقاً كعادته دائماً بين إله الغرام والقدر ، تهفو نفسه إلى النساء ولكنه مصمم على أن يصير إنساناً عظيماً .

٤ — هردر ١٧٤٤ — ١٧٧٦

لم يمض شهر على وصول جوته إلى فايمار حتى أنهى إلى الدوق اقتراحاً مشفوعاً بموافقته الحارة ، هو اقتراح فيلاند بأن تعرض على يوهان جوتفريد هردر وظيفة المشرف العام على اكليروس الدوقية ومدارسها . ووافق الدوق . أما هردر فقد ولد بمورنجن فى بروسيا الشرقية (٢٥ أغسطس ١٧٤٤) ، فهو من حيث الجغرافيا وضباب البلطيق قريب إيمانويل كانط . وكان أبوه معلماً فقيراً وقائد فرقة ترتيل تقوى النزعة . وهكذا كان للصبى أوفر نصيب من الشدائد . فمنذ كان فى الخامسة كان يشكو ناسورا فى عينه اليمنى . واضطرته ضرورة المشاركة بعد قليل فى موارد الأسرة إلى ترك المدرسة والاشتغال سكرتيراً وخادماً لسبستيان تريشو ، الذى كان يكسب رزقاً طيباً بتأليف كتيبات فى التقوى . وكان لديه مكتبة استوعبها يوهان . فلما بلغ الثامنة عشرة أرسل إلى كونجزبرج لإزالة الناسور ولدراسة الطب فى الجامعة . على أن الجراحة أخفقت ، وقلبت فصول التشريح معدة الشاب فانصرف عن الطب إلى اللاهوت .

وتصادق مع هامان الذى كان يعلمه الانجليزية مستعملا هاملت نصاً ، وحفظ هردر المسرحية كلها تقريباً عن ظهر قلب . واختلف إلى محاضرات كانط فى الجغرافيا والفلك وفلسفة فولف . وبلغ من حب كانط له أنه أعفاه من الرسم الذى يحصل من الطلبة نظير حضورهم المحاضرات . وكسب هردر قوته بالترجمة وتدريس التلاميذ الخصوصيين ، ثم قام بالتدريس فى مدرسة

الكتدرائية بمدينة ريجا من سن العشرين إلى الخامسة والعشرين . وحين بلغ الحادية والعشرين رسم قسيساً لوثريا ، وفى الثانية والعشرين أصبح ماسونيا (٦٣) . وفى الثالثة والعشرين عين مساعداً للراعى فى كنيستين قرب ريجا . ودخل عالم النشر فى الثانية والعشرين بكتاب فى الأدب الألمانى الحديث ، ثم أضاف إليه جزءاً ثانياً وثالثاً بعد عام . وراعت ثقافة المؤلف الشاب كانط وليسنج ونيقولاى ولا فاتر — وامتدحوا دعوته إلى أدب قومى متحرر من الوصاية الأجنبية .

واستبق هردر الموضة « الفرترية » بوقوعه فى غرام يائس بامرأة متزوجة . واشتدت معاناته من الاكتئاب والغم فى بدنه وعقله ، فمنحه رؤساؤه أجازة ينقطع فيها عن عمله ، ووعدوه بأن يوظفوه من جديد براتب أعلى عند عودته . واقترض مالا ، ثم غادر ريجا (٢٣ مايو ١٧٦٩) ولم يرها ثانية قط . وركب البحر إلى نانت ، وأقام فيها أربعة أشهر ، ثم مضى إلى باريس والتقى بديدرو ود الامبير ، ولكن أحداً لم يستطع اقناعه بالانحياز إلى التنوير الفرنسى .

وذلك أن ميله الفطرى كان جمالياً (استطيقيا) أكثر منه عقلياً . ففى باريس بدأ بجمع الشعر البدائى ، ووجد فيه متعة تفوق ما فى أدب فرنسا الكلاسيكى . وقرأ كتاب مكفرس : « أوسيان » فى ترجمة ألمانية ، وحكم بأن هذه التقليدات البارعة أروع من معظم الشعر الانجليزى الحديث بعد شكسبير . ثم بدأ فى ١٧٦٩ مقالات فى النقد الفنى والأدبى أطلق عليها اسم (الغياض) ، ونشر ثلاثة مجلدات منها فى حياته بعنوان (غابات من النقد) . وفى فبراير ١٧٧٠ أنفق أربعة عشر يوماً فى اتصال مثمر مع ليسنج فى همبورج . ثم صاحب أمير هولشتين — جوتورب معلماً ورفيقاً . وجاب معه ألمانيا الغربية . وفى كاسل التقى برودلف راسبى ، أستاذ الآثار والمؤلف القادم لكتاب « قصة البارون مونتشاوزن عن أسفاره وحملاته العجيبة فى روسيا » (١٧٨٥) . وكان راسبى قد استرعى اهتمام ألمانيا بكتاب توماس برسى « مخلفات من الشعر الانجليزى القديم » سنة ظهوره (١٧٦٥) .

وتقوى هردر فى إيمانه بأن واجب الشعراء أن يهجروا الدعوة الفنكلمانية اللسنجية لتقليد الكلاسيكيات اليونانية ، وأنه أخلق بهم أن يتشبثوا بالمنابع الشعبية لتقليد أمتهم فى الشعر الفولكلورى والتاريخ القصصى الغنائى .

وانتقل هردر مع الأمير إلى دارمشتات ، فالتقى بجماعة « الحساسين » فيها . وراقه إعلاؤهم شأن العاطفة ، وخص بالتقدير عواطف كارولينية فلا خسلاند ، الأخت اليتيمة لزوجة عضو المجلس الخاص اندرياس فون هسى ، ودعى هردر للوعظ فى كنيسة محلية ، فسمعته ، وتأثرت بوعظه ، وتمشيا معاً فى الغابات ، وتلامست أيديهما فانعطف قلبه ، وعرض عليها الزواج ولكنها نبهته إلى أنها تعيش على صدقة أختها ، وأنها لن تستطيع أن تدفع له مهراً ، ورد هو بأنه مثقل بالدين ، وأن المستقبل أمامه غامض جداً ، وأنه ملتزم بمرافقة الأمير . وتعاهداً بألا تكون خطبة رسمية ، ولكنهما اتفقا على تبادل الحب بالرسائل . ثم رحلت جماعته إلى مانهايم فى ٢٧ أبريل ١٧٧٠ .

فلما وصلوا إلى ستراسبورج ترك هردر الأمير رغم شوقه لرؤية إيطاليا . ذلك أن الناسور الذى فى غدته الدمعية سد القناة الدمعية الموصلة إلى المنخر فأصابه بألم لا يهدأ . ووعده الدكتور لوبشتين أستاذ أمراض النساء فى الجامعة بأن الجراحة ستزيل الانسداد فى ثلاثة أسابيع . واستسلم هردر ، دون مخدر ، للثقب المتكرر لقناة خلال العظم إلى ممر الأنف . ولكن الجرح بدأ يتلوث ، وظل هردر ستة أشهر تقريباً حبيس حجرته فى الفندق وقد فت فى عضده فشل الجراحة ، وران عليه اكتئاب بسبب شكوكه فى مستقبله . فى هذه الحالة النفسية من المعاناة والتشاؤم ، التقى بجوته (٤ سبتمبر ١٧٧٠) . ويذكر جوته هذه الفترة فيقول « أتيح لى أن أحضر الجراحة وأن أكون نافعاً فى نواحى كثيرة »[٦٤]. وقد ألهمه رأى هردر القائل بأن الشعر ينبثق غريزياً فى الشعب ، لا من « بضعة رجال مهذبين مثقفين »[٦٥]. وحين رحل هردر وقد نفد ما معه من مال ، « اقترض جوته مبلغاً من أجله » رده هردر فيما بعد .

ثم قبل على مضض دعوة من الكونت فلهلم تسوليبي ، حاكم إمارة شاومبورج — ليبي الصغيرة فى شمال غربى ألمانيا ، ليعمل واعظاً لبلاطه ورئيساً للمجلس الكنسى فى عاصمته المتواضعة بوكيبورج . وفى أبريل ١٧٧١ غادر هردر استراسبورج ، وزار كارولينه فى دارمشتات وجوته فى فرانكفورت ، ووصل إلى بوكيبورج فى الثامن والعشرين . فوجد الكونت حاكماً « مستبداً مستنيراً » من طراز إدارى صارم ، أما المدينة فكانت قروية فى كل شىء إلا الموسيقى ، التى كان يحسن تزويدها بها يوهان كريستوف فريد ريش باخ ، وراض هردر نفسه على الانفصال عن التيار الرئيسى للفكر الألمانى ، ولكن الكتب التى أصدرها فى مكانه الصغير أثرت تأثيراً قوياً فى ذلك التيار ، وأسهمت فى تشكيل الأفكار الأدبية للحركة الزوبعية . وقد أكد للكتاب الألمان أنهم إن التمسوا الإلهام فى جذور الأمة وحياة الشعب فسوف يأتى الوقت الذى يبزون فيه الفرنسيين فى كل ما حققوه. وقد تحققت هذه النبوءة فى الفلسفة والعلم .

وقد ظفر بحثه فى أصل اللغة (١٧٧٢) بالجائزة التى قدمتها أكاديمية برلين عام ١٧٧٠ . ومع أن هردر كان يجهر بتدينه مخلصاً ، إلا أنه رفض الفكرة التى تزعم أن اللغة من صنع الله وحده ؛ وقال إنها من صنع البشر ، وأنها نتجت طبيعياً من عمليات الإحساس والتفكير . وألمع إلى أن اللغة والشعر كانا واحداً باعتبارهما تعبيرين عن الانفعال ، وأن الأفعال ، المعبرة عن الفعل ، كانت أول أقسام الكلام » . وفى مجلد آخر سماه « فلسفة أخرى مضافة إلى فلسفات التاريخ » (١٧٧٤) عرض التاريخ على أنه « الفلسفة الطبيعية للأحداث المتعاقبة » فكل حضارة هى وجود بيولوجى له مولده وشبابه ونضجه وانحلاله وموته ؛ ويجب أن تدرس من وجهة نظر عصرها ، دون تحيزات مبنية على بيئة وعصر آخرين . وقد أعجب هردر إعجاب الرومانتيكيين عموماً بالعصور الوسطى لأنها زمان الخيال والوجدان ، والشعر والفن الشعبيين ، والبساطة والسلام الريفيين ؛ وعلى نقيض ذلك كانت أوربا بعد النهضة عبارة عن عبادة للدولة ، وللمال ، وللترف الحضرى ، وللتكلف والافتعال ، وللرذيلة . وانتقد التنوير لأنه عبادة لوثن العقل ، وقارن بينه وبين ثقافات

اليونان والرومان مقارنة لا تخدم التنوير . ولقد أبصر هردر يد الله كما أبصرها بوسويه فى العملية التاريخية كلها ، ولكن الواعظ المفوه كان أحياناً ينسى لاهوته ، ويرى أن « التغيير العام للعالم كان يقوده الإنسان أقل كثيراً مما يقوده قدر أعمى »(٦٦) .

وحمله شعوره بالوحدة إلى أن يطلب إلى كارولينه وزوج أختها أن يأذنا له بالحضور والزواج منها رغم ضآلة دخله . فوافقا ، وزف الحبيبان فى دارمشتات فى ٢ مايو ١٧٧٣ . ثم عادا إلى بوكيبورج ، واقترض هردر بعض المال ليجعل دار القسيس بيتاً مبهجاً لزوجته . وقد بذلت له زوجته الخدمة والحب الخالص مدى الحياة . وبفضل وساطتها انقشع الفتور الذى ران من قبل على المودة بين هردر وجوته ، وحين وجد جوته نفسه فى موقف يسمح له بتزكية الراعى لوظيفة أسخى عطاء ، أسعده أن يفعل ذلك . وفى أول أكتوبر ١٧٧٦ وصل هردر وكارولينه إلى فايمار ، وانتقلا إلى البيت الذى أعده لهما جوته . ولم يبق الآن سوى عضو واحد ليكتمل عقد الرباعى الذى سيضيع شهرة فايمار .

٥ — شيلر فى سنى تطويفه ١٧٥٩ — ١٧٨٧

ولد يوهان كريستوف فريدريش شيلر فى ١٠ نوفمبر ١٧٥٩ بمدينة مارباخ فى فورتمبرج . وكانت أمه ابنة صاحب فندق الأسد ، وأبوه جراحاً — ثم ضابط برتبة الكابتن -- فى جيش الدوق كارل أويجين ؛ وكان يتنقل مع فوجه ، ولكن زوجه أقامت أكثر الوقت فى لورش أولود فجزبرج . وفى هاتين المدينتين تلقى فريدريش تعليمه . وقد نذره أبواه للقسوسية ، ولكن الدوق اقنعهما بأن يبعثا به وهو فى الرابعة عشرة إلى كارلسشولى (مدرسة كارل) فى لود فجزبرج (ثم فى شتوتجارت) ، حيث يعد أبناء الضباط لمهنة المحاماة أو الطب أو الجندية . وكان نظام المدرسة نظاماً عسكرياً صارماً ، والدراسات مجافية لطبيعة غلام فيه حساسية مرهفة تقرب من حساسية الفتيات . وكان رد فعل شيلر أن تشرب كل ما وجد إليه سبيلا من

الأفكار الثورية ، ثم صبها (١٧٧٠ — ١٧٨٩) فى مسرحية « اللصوص » التى فاقت جوتز فون برليشنجن تعبيراً عن الحركة الزوبعية .

وفى ١٧٨٠ تخرج شيلر فى الطب ، وأصبح جراحاً لفوج فى شتوتجارت. وكان راتبه ضئيلا ، وسكن حجرة واحدة مع الملازم كايف . وكانا يجهزان طعامهما وأكثره من السجق والبطاطس والخس ، ثم النبيذ فى المناسبات السارة . وقد شق على نفسه ليكون رجلا له كل حس الجندى بالمعركة والجعة والمواخير ، وزار المومسات اللاتى يختلفن إلى المعسكر[٦٧] ؛ ولكنه لم يكن يسيغ الابتذال والسوقية ، فالنساء فى نظرته المثالية أسرار غامضة مقدسة يجب أن يدنو منها الرجل فى إجلال ورعدة . وكانت صاحبة الدار واسمها لويزة فيشر أرملة فى الثلاثين ، ولكنها إذا عزفت على الهاربسيكورد « فارقت روحى جسدى الترابى الفانى »[٦٨] ، وتمنى لو « انى التصقت إلى الأبد بشفتيك » . . . لا تشرب أنفاسك »[٦٩] . وهى طريقة مبتكرة فى الانتحار .

وحاول عبثاً أن يجد ناشراً لمسرحية « اللصوص » ، فلما أن أخفق ، وفر واقترض ثم طبعها على نفقته (١٧٨١) . وقد أدهش نجاحها الناس حتى مؤلفها ذا الإثنين والعشرين ربيعاً . وفى رأى كارليل أنها بدأت « عصراً فى الأدب العالمى »[٧٠] ، ولكن ألمانيا الوقور صدمها أن المسرحية لم تترك ناحية من نواحى الحضارة الراهنة إلا أدانتها . وذكرت المقدمة التى صدر بها شيلر تمثيلته أن نهايتها تبين عظمة الضمير وأذى التمرد .

وخلاصة التمثيلية أن كارل مور ، وهو الإبن البكر للكونت المسن مكسمليان فون مور ، يخصه أبوه بحبه لما اتسم به من مثالية وسماحة خلق ؛ ومن ثم يحسده ويبغضه أخوه فرانتز . ويرحل كارل ويدخل جامعة ليبزج ، ويتشرب مشاعر التمرد التى تضطرب بها صدور شباب أوربا الغربية . فلما الح الدائنون فى مطالبته بالدين ، راح يندد بعباد المال القساة الذين «يلعنون الصدوقى الذى يقصر فى الحضور إلى الكنيسة بانتظام ، ومع أن تقواهم لا تخرج عن عد مكاسبهم ، المجلوبة بالربا ، على مذبح الكنيسة ذاته »[٧١] .

ثم يفقد كل إيمان بالنظام الاجتماعى القائم ، وينضم إلى عصابة من اللصوص ، ويصبح زعيماً لها ، ويقسم يمين الولاء لها حتى الموت ، ثم يهدىء ضميره بلعب دور روبن هود . ويصفه أحد أفراد العصابة بهذه العبارات :

« انه لايقتل كما نقتل طمعاً فى شىء يسلبه ، أما المال . . . فيبدو أنه لايعبأ به مثقال ذرة ، فثلث الغنيمة الذى هو حق خالص له يعطيه لليتامى ، أو ليعين به شباب الكلية المبشرين بمستقبل مرموق . أما إذا وقع فى براثنه عين من أعيان الريف الذين يسومون فلاحيهم سوء العذاب كأنهم الأنعام ، أو وغد يرفل فى فاخر الثياب ممن يعوجون القضاء ليخدم مآربهم . . . أو أى رجل من هذا النوع — عندها يا بنى يتجلى على فطرته ثائراً هادراً كأنه شيطان رجيم »[٧٢] .

ويندد كارل برجال الدين لأنهم يتملقون السلطان ويعبدون صنم المال سراً ، « وخيرهم لايتردد فى أن يخون الثالوث الأقدس كله فى سبيل عشرة شواقل »[٧٣] .

ويدبر فرانتس فى غضون هذا ابلاغ الكونت فى رسالة كاذبة أن كارل مات . ويصبح فرانتس الوريث لثروة أبيه ، ويتقدم لخطبة أميليا التى تحب كارل حياً أو ميتاً . ويدس فرانتس السم لأبيه ، ويهدىء وخز ضميره بالإلحاد : « لم يثبت بعد أن فوق هذه الأرض عيناً ترقب كل ما يجرى عليها . . . ليس هناك إله »[٧٤] . ويسمع كارل بجرائم أخيه ، فيقود عصابته إلى قلعة الأب ويضرب حصاراً على فرانتس ، فيتضرع هذا إلى الله مستميتاً فى التماس العون ، فإذا لم يصله عون قتل نفسه . وتقدم أميليا نفسها لكارل شريطة أن يقلع عن حياة اللصوصية ؛ وهو تواق إلى هذا ، غير أن أتباعه يذكرونه بتعهده البقاء معهم حتى الموت . فيحترم تعهده ، وينصرف عن أميليا ؛ ولكنها تتوسل إليه أن يقتلها ، فيستجيب لها ، وبعد أن يرتب أن ينال عامل فقير المكافأة المرصودة للقبض عليه ، يستسلم للقانون وللمشنقة .

وهذا كله بالطبع هراء . فالشخوص والأحداث يستحيل تصديقها ،

والأسلوب منمق طنان ، والخطب لاتطاق ، والفكرة عن المرأة مثالية على نحو رومانسي . ولكنه هراء قوى . ذلك أن فينا كلنا تقريباً تعاطفاً خفياً مع أولئك الذين يتحدون القانون ؛ فنحن أيضاً نحس أنفسنا أحياناً وقد ضيقت علينا الخناق وأرهقتنا آلاف القوانين والأوامر التى تكبلنا أوتغرمنا وقد طال اعتيادنا على المنافع التى وهبنا إياها القانون حتى أننا لنأخذها قضايا مسلمة ، ونحن لا نشعر بتعاطف طبيعى مع الشرطة حتى نقع ضحية من ضحايا التمرد على القانون . ومن ثم وجدت التمثيلية المطبوعة قراء متحمسين واستحساناً حاراً ، ولم تمنع شكاوى الوعاظ والمشرعين ، الذين زعموا أن شيلر مجد الجريمة ، أحد النقاد من أن يحييه لأنه يعد بأن يصبح شكسبيراً « ألمانيا »[٧٥] ، ولا منعت المخرجين من أن يقترحوا إخراج المسرحية .

وعرض البارون ڤولفجانج هريبرت فون دالبرج أن يقدمها على المسرح القومى بمانهايم إذا وضع لها شيلر نهاية أسعد . ففعل : واقتضى التعديل أن يتزوج مور أميليا بدلا من أن يقتلها . وتسلل شيلر من شتوتجارت دون أن يستأذن الدوق كارل أو يجين قائده الحربى ليحضر العرض الأول للمسرحية فى ١٣ يناير ١٧٨٢ . وأقبل الناس من فورمز ودارمشتات وفرانكفورت وغيرها من المدن ليشهدوا التمثيل.ولعب أوجست افلاند دور كارل ، وكان من ألمع ممثلى الجيل ؛ وأبدى النظارة استحسانهم بالصياح والتشيج ، ولم تلق مسرحية ألمانية أخرى من قبل مثل هذا الاحتفاء[٧٦] ، وكانت قمة فى الحركة الزوبعية . وبعد المسرحية كرم الممثلون شيلر وتودد إليه ناشر من مانهايم ، وشق عليه أن يعود إلى شتوتجارت ويستأنف حياته جراحاً للفوج . وفى شهر مايو تسلل ثانية إلى ما نهايم لشهد عرضاً آخر لمسرحية « اللصوص » ، وليناقش مع دالبرج الخطط لمسرحية ثانية . فلما أن عاد ثانية إلى فوجه ، وبخه الدوق وحظر عليه تأليف المزيد من التمثيليات .

ولم يقو على تقبل هذا الحظر . فى ٢٢ سبتمبر ١٧٨٢ هرب إلى مانهايم فى صحبة صديق يدعى أندرياس سترايشر . وهناك قدم لدالبرج تمثيلية جديدة سماها « مؤامرة فييسكو فى جنوه » . وقرأها على الممثلين ،

فحكموا بأنها هابطة هبوطاً مؤسفاً عن مستوى « اللصوص » ، وقال والبرج أنه قد يخرج المسرحية إذا راجعها شيلر ؛ فعكف شيلر أسابيع على هذه المهمة ، ولكن دالبرج رفض حصيلة هذا الجهد . ووجد شيلر نفسه لايملك فلساً . وأنفق سترايشر على إعاشته النقود التى ادخرها ليدرس الموسيقى فى همبورج . فلما نفدت ، رحب شيلر بدعوة للإقامة فى باورباخ فى كوخ تملكه السيدة هنرييتا فون فولتسوجن . وهناك كتب تمثيلية ثالثة سماها « الدسيسه والحب » . ووقع فى غرام الآنسة لوته فون فولتسوجن البالغة من العمر ستة عشر ربيعاً . ولكنها آثرت عليه منافساً فى حبها . وظفرت « فييسكو » التى نشرت فى غضون هذا بتوزيع جيد . وندم دالبرج ، وأرسل إلى شيلر دعوة ليكون كاتب التمثيليات المقيم لمسرح مانهايم براتب قدره ثلاثمائة فلورن فى العام . فوافق (يوليو ١٧٨٣) .

ونعم شيلر بعام من السعادة القلقة رغم كثرة ديونه التى عجز عن سدادها ورغم ماأصيب به مرة من مرض خطير . وعرضت فييسكو على المسرح أول مرة فى ١١ يناير ١٧٨٤ ، وقد أفسدها ما أصر عليه دالبرج من نهاية سعيده سعادة لا يمكن تصديقها ، ولم تثر المسرحية أى حماسة من النظارة . بيد أن « الدسيسة والحب «كانت أفضل بناء ، وأقل خطباً ، وأظهرت حساً متزايداً بالمسرح ؛ وقد رأى فيها البعض ، من وجهة النظر المسرحية ، أفضل المآسى الألمانية قاطبة(٧٧) . وبعد أن فرغ الممثلون من العرض الأول (١٥ أبريل ١٧٨٤) ضج النظارة بتصفيق صاخب حمل شيلر على أن يقوم من مقعده فى إحدى المقصورات وينحنى للجمهور .

كانت سعادته مفرطة قصيرة الأجل . ذلك أنه لم يكن بطبيعته صالحاً للتعامل مع الممثلين ، الذين كانوا على شاكلته تقريباً فى عصبيتهم ؛ فقد قسا فى الحكم على آدائهم ، ولامهم على عدم حفظ أدوارهم حفظاً دقيقاً(٧٨) . ولم يستطع أن يكمل تمثيلية ثالثة سماها « دون كارلوس » فى الزمن المشروط. فلما أن قارب عقده «كاتباً للمسرح» الانتهاء فى سبتمبر ١٧٨٤ رفض دالبرج تجديده . ولم يكن شيلر قد ادخر شيئاً ، فعاد من جديد يواجه الإملاق والدائنين الذين فرغ صبرهم .

فى هذه الفترة أو نحوها نشر بعض « الرسائل الفلسفية » التى تدل على أن الشكوك الدينية قد أضيفت إلى مشكلاته الاقتصادية . فهو لم يستطع تقبل اللاهوت القديم ، ومع ذلك اشمأزت روحه الشاعرة من الإلحاد المادى ، كذلك الذى عبر عنه دولباخ فى كتابه « مذهب الطبيعة » (١٧٧٠) . ولم يعد قادراً الآن على أن يصلى ، ولكنه كان يحسد القادرين على الصلاة ؛ وقد وصف فى إحساس بالخسارة الفادحة ذلك العزاء الذى يهبه الدين لآلاف النفوس فى ظروف الألم والحزن والاحتضار [٧٩] . على أنه احتفظ بإيمانه بحرية الإرادة ، وبالخلود ، وبإله مجهول ، بانياً هذا كله ، كما بناه كانط ، على الوجدان الأخلاقى . وقد أعرب فى عبارة لاتنسى عن مبدأ المسيح الأخلاقى « حين أبغض أنتزع شيئاً من نفسى ، أما حين أحب فإننى أزيد ثراء بما أحب . والصفح معناه أن أتلقى ثروة فقدت . وكراهة البشر إنما هى انتحار بطىء »[٨٠] .

وسط هذه الظروف المعقدة جمل كرستيان جوتفريد كورنر حياة شيلر بصداقة من أروع الصداقات فى تاريخ الأدب . ففى يونيو ١٧٨٤ أرسل إلى شيلر من ليبزج رسالة تنم على الإعجاب الحار ، مشفوعة بصور له ، ولخطيبته منا شتوك ، وأختها دوراً ، وخطيب دوراً لودفج هوبر ، ومحفظة جيب طرزتها منا . أما كورنر هذا فقد ولد فى ١٧٥٦ (قبل مولد شيلر بثلاثة أعوام) لراعى كنيسة القديس توماس التى قاد فيها باخ قبل جيل الكثير من الموسيقى الخالدة . وقد نال الشاب أجازته فى القانون وهو فى الحادية والعشرين ، وكان الآن مستشاراً لمجلس الكنيسة الأعلى فى درسدن . وأخر شيلر رده حتى ٧ ديسمبر ، إذ كان مرهقاً بمتاعبه وهمومه . ورد عليه كورنر يقول « نحن نقدم لك صداقتنا دون تحفظ ، فاحضر إلينا بأسرع ما تستطيع »[٨١] .

وتردد شيلر . وكان قد كون صداقات فى مانهايم ، ووقع فى غرام العديدات ، لا سيما (١٧٨٤) شارلوته فون كالب ، التى تزوجت قبل

ذلك بعام واحد . وفى دارمشتات ، فى ديسمبر ١٧٨٤ ، التقى بالدوق كارل أوجست أمير ساكسى — فايمار ، وقرأ عليه الفصل الأول من « دون كارلوس » ، ونال لقب Rat أو المستشار الفخرى ، ولكن لم يصله أى عرض بمكان فى سماء فايمار . ومن ثم فقد قرر أن يقبل دعوة كرونر لليبزج . وعليه ، ففى ١٠ فبراير ١٧٨٥ أرسل إلى المعجب الذى لم يعرفه بعد نداء عاطفياً يظهره قريباً من نقطة الانهيار .

« فى الوقت الذى يهرع فيه نصف سكان مانهايم إلى المسرح . . . أطير إليكم أيها الأصدقاء الأعزاء . . . فمنذ أن تلقيت خطابكم الأخير لم تبرحنى قط الفكرة بأننا مخلوقون بعضنا لبعض ، لا تسيئوا الظن بصداقتى إذ تبدو متعجلة بعض الشىء . فالطبيعة تطرح الكلفة فى رضاها عن بعض الكائنات . والنفوس النبيلة ترتبط بخيط رقيق كثيراً ما يتبين أنه طويل البقاء .

« فإذا ما التمستم العذر لرجل تدفىء قلبه أفكار عظيمة ولكنه لم ينجز غير أفعال صغيرة ؛ رجل لايستطيع إلى الآن إلا أن يحدس من حماقاته أن الطبيعة رصدته لشىء ما ، ويطالب بالحب الذى لاحدود له ، وهو مع ذلك يجهل ما فى وسعه أن يقدمه رداً على هذا الحب ؛ ولكنه رجل يستطيع أن يحب شيئاً ما يتجاوز شخصه ، ولا يعذبه شىء كرؤيته نفسه بعيداً كل البعد من أن يكون ما يشتهى أن يكونه ؛ أقول إذا تطلع رجل هذه طبيعته إلى صداقتكم فإن صداقتنا ستكون أبدية ، لأننى أنا ذلك الرجل . فلعلكم ستحبون شيلر ، حتى إن كان تقديركم للشاعر قد تضاءل » .

وقد توقف عن إكمال هذا الخطاب ، ولكنه استأنفه فى ٢٢ فبراير :

« لاأستطيع المقام بعد اليوم فى مانهايم . . . فلا بد لى من زيارة ليبزج والتعرف إليكم . إن نفسى متعطشة لغذاء جديد — لناس أفضل — للصداقة ، والمودة ، والمحبة . لا بد أن أكون قريباً منكم ، وبفضل حديثكم وصحبتكم ستنتعش روحى الجريحة . . . يجب أن تهبونى حياة جديدة ، وسأصبح خيراً مما كنت فى أى وقت مضى . سأكون سعيداً — إننى لم أنعم بالسعادة قط إلى الآن . . أتراكم ترحبون بمقدمى ؟ » [٨٢] .

ورد كورنر فى ٣ مارس يقول « سنستقبلك بأذرع مفتوحة » ثم نقد ج. ى. جوشن الناشر الليبزجي بعض المال ليرسل إلى شيلر مقدم أتعابه عن مقالات مستقبله [٨٣]. فلما أن وصل الشاعر إلى ليبزج (١٧ مارس ١٧٨٥ كان كورنر غائباً فى درسدن ، ولكن خطيبته ، وأختها ، وهوبر ، ادفأوا شيلر بالطعام والحفاوة البالغة . وأحبه جوشن لتوه ، وكتب يقول « لا أستطيع أن أصف لك مبلغ عرفان شيلر واستجابته حين تبذل له النصيحة الناقده ، ومبلغ جهاده فى سبيل تطوره الخلقى » [٨٤].

والتقى كورنر بشيلر أول مرة فى ليبزج فى أول يوليو ، ثم قفل إلى درسدن . وكتب إليه شيلر يقول « لقد جمعت السماء بيننا بطريقة عجيبة ، وصداقتنا معجزة . » ولكنه أردف أنه أشرف على الإفلاس من جديد [٨٥]. فبعث إليه كورنر بالمال ، والطمأنينة ، والنصيحة :

« إن كنت فى حاجة إلى المزيد فاكتب لى وسأرسل لك أى مبلغ برجوع البريد . أنني لو كنت ذا ثراء طائل ، وكان فى استطاعتى . . . أن أرفعك فوق العوز والحاجة لضروريات الحياة فى يوم من الأيام ، لما جرؤت على أن أفعل هذا ، فأنا عليم بأنك قادر على كسب ما يفى بكل حاجاتك بمجرد أن تشرع فى العمل . ولكن اسمح لى — على الأقل سنة واحدة — بأن أعفيك من ضرورة العمل . فنى استطاعتى أن أدبر هذا دون إعسار ، وفى استطاعتك أن ترد لى المال إن شئت حين تسمح بذلك ظروفك » [٨٦].

وزاد من قدر هذا الجود أن كورنر كان يجهز نفسه للزواج . وزف العروسان بدرسدن فى ٧ أغسطس ١٧٨٥ . وفى سبتمبر لحق بهما شيلر وعاش معهما ، أو على حسابهما ، حتى ٢٠ يوليو ١٧٨٧ . فى هذه الفترة أو نحوها — ربما وسط سعادة العروسين — كتب أشهر قصائده « أغنية للفرح » التى أصبحت تاج السمفونية التاسعة . وكلنا يعرف ميلودية بيتهوفن المؤثرة ، ولكن القليلين منا ، خارج ألمانيا ، من يعرفون كلمات شيلر . وقد بدأت بنداء للمحبة الشاملة ، وانتهت بدعوة للثورة :

أيتها الفرحة المنبثقة من لهب سماوى
يا ابنة الفردوس ،
إننا نقبل إلى هيكلك
ملتهبين بتلك النار المقدسة .
أنت صاحبة التعاويذ التى وحدت
من باعدت التقاليد الرهيبة بينهم ،
كل الناس يصبحون أخوة
حيث يمتد جناحاك الرفيقان .

الكورس : نحن نجمع الملايين بين أحضاننا ،
ونرسل قبلتنا إلى الدنيا بأسرها !
أيها الأخوة ، ان وراء السماء المرصعة بالنجوم
يسكن أب محب .
من جرب النعيم المقيم
فى صداقة الأصدقاء ،
ومن ظفر بعذراء محبوبة
ليشاركنا فى ابتهاجنا .
ومن سبى قلبا
يملكه دون الناس أجمعين -
ومن أخفق ، فلينصرف
عن جماعتنا باكيا .

الكورس : كل ساكن للكون الكبير
يقدم الإجلال للمبحة
وهى تتقدم الطريق إلى النجوم
حيث يملك الآله المجهول .
إن القلوب الباسلة الرازحة تحت الآلام
تمد يد العون حيثما يبكى الأبرياء .
والعهد الذى لا يخذل أبدا

والوفـــاء للصـــديق والعـــدو !
وتحدى الملوك ، والروح الجريئة ،
وإن كلفتنا المال والدم أيها الأخوة ،
التيجـــان لأشـــرف مستحقيها
والموت لكل سلالة الكذابين !

الكورس : اقفـــل الدائـــرة المقـــدمـــة
وأقســـم بـــالخمـــرة الذهبيـــة !
أقسم بالوفاء بهذه العهود المقدسة
أقســـم بـــرب الفـــلك .

وظل كورنر يعول شيلر عامين أملا فى أن يصوغ الشاعر فى شكل لائق تلك المسرحية التى قصد بها تصوير الصراع بين فليب الثانى وابنه كارلوس . ولكن شيلر طال توانيه وتسويفه للتمثيلية حتى فقد المزاج الذى بدأها به ، ولعل ازدياد اطلاعه على التاريخ غير نظرته إلى فليب ؛ ومهما يكن الأمر ، فقد غير الحبكة حتى افتقدت الوحدة والتسلسل . » وفى غضون هذا (فبراير ١٧٨٧) وقع فى غرام هنرييتا فون أرنيم ، واستهلكت الخطابات الغرامية مداد قلمه ، بينما كانت هى تتصيد خطيباً أغنى منه . وأقنع كورنر شيلر بأن يعتكف فى إحدى الضواحى حتى يفرغ من مسرحيته . وأخيراً تمت (يونيو ١٧٨٧) ، وعرض مسرح همبورج أن يخرجها . وانتعشت معنوية شيلر وكبرياؤه ، فلعله الآن يرى جديراً بالانضمام إلى كوكبة الأدباء المتألقة حول الدوق كارل أوجست ، أما كورنر الذى تنفس الصعداء فقد وافقه على أنه ليس للشاعر مستقبل فى درسدن . ثم إن شارلوته فون كالب كانت فى فايمار ، بغير زوج ، تغريه بالمجىء . وعليه ، ففى ٢٠ يوليو ، وبعد الكثير من عبارات الوداع ، ركب شيلر منطلقاً من درسدن إلى حياة جديدة . فوصل فايمار فى الغد ، وهكذا اكتمل عقد الزمرة العظمى .

الفصل الثالث والعشرون

فايمار إبان ازدهارها

١٧٧٥ — ١٨٠٥

١ — تتمة لفيلاند : ١٧٧٥ — ١٨١٣

حين رأى موتسارات فيلاند فى مانهايم عام ١٧٧٧ قال فى وصف وجهه أنه « قبيح إلى حد مخيف ، تغشاه ندوب الجدرى ، وله أنف طويل ، . . . وفيما خلا هذا فهو . . . رجل موهوب جداً . . . والناس يحدقون فيه كأنه قد هبط من السماء » (١) . وقد كرهه طيور النوء الهائجون أنصار الحركة « الزوبعية » لأنه سخر من انتشاءاتهم المتمردة ؛ أما فايمار فأحبته لأنه لطف نقده اللاذع بالكياسة وبغفران عام للنوع الإنسانى ، ولأنه احتمل فى رضى تفجر النجوم الجديدة مراراً فى سماء الأدب بينما كان فى استطاعته أن يدعى لنفسه مكان الصدارة . وقد خلد جوته ذكره فى سيرته الذاتية بشعور العرفان بصنيعه (٢) . أما شيلر فقد خاله فى أول لقاء بينهما مغروراً محزوناً ، ولكن « الموقف الذى اتخذه منى للتو يدل على الثقة والحب والتقدير » (٣) .

وقال الشاعر الكبير للشاعر الفتى « سنفتح عما قليل قلبينا الواحد للآخر ، وسيساعد كل منا صاحبه بدوره » (٤) ، وقد أثبت وفاءه بهذا الوعد . « إننى وفيلاند نتقارب أكثر كل يوم . . . ولا تفوته مناسبة لا يذكرنى فيها بكلمة طيبة » (٥) .

وقد وفق فيلاند فى منافسته للوافدين الجدد بإصداره فى ١٧٨٠ رواية شعرية اسمها « أوبرون » تحكى قصة فارس تنقذه عصا أمير الجان السحرية من مائة جنية ومن شراك مفاتن ملكة اشتدت بها حرارة العشق . وحين

اضطر جوته إلى الجلوس لمصور يرسم صورته وأراد أن يقعد ساعة دون حركة ، طلب إلى فيلاند أن يقرأ عليه أجزاء من هذه الملحمة . يقول فيلاند « لم أشهد قط إنساناً سعد بعمل إنسان آخر كما سعد جوته » (٦) . وقد ترجم جون كوينسى آدمز القصيدة وهو سفير للولايات المتحدة فى بروسيا فى ١٧٩٧ — ١٨٠١ ، واقتبس منها جيمس بلانشيه نص أوبرا فيبر (١٨٢٦) .

واحتوى عدد مارس ١٧٩٨ من مجلة فيلاند « الرائد الألمانى الجديد» مقالة يحتمل أنها بقلم فيلاند — تنبأت بالأحداث المقبلة على نحو يلفت النظر . فقد لاحظت الفوضى التى ترددت فيها فرنسا منذ ١٧٨٩ ، وأوصت بتعيين دكتاتور لها ، كما وقع فى الأزمات التى تعرضت لها روما الجمهورية ؛ ورشحت بونابرت الشاب ، الذى كان يواجه المتاعب يومئذ فى مصر ، بوصفه صالحاً لهذه المهمة بشكل واضح . وحين فتح نابليون ألمانيا فعلا التقى بفيلاند فى فايمار وفى ايرفورت (١٨٠٨) ، وتحدث معه فى أدب اليونان والرومان وتاريخهم ، وكرمه فيمن كرم من الكتاب الألمان بوصفه أعظمهم بعد جوته (٧) .

وفى ٢٥ يناير ١٨١٣ كتب جوته فى يوميته « دفن فيلاند اليوم » ثم أنهى النبأ إلى صديق فى كارلسباد قائلا : « لقد تركنا صديقنا الطيب فيلاند . ففى ٣ سبتمبر احتفلنا كما الفنا كل عام بعيد ميلاده الثمانين بمظاهر الابتهاج. لقد كان فى حياته توازن بديع بين الهدوء والنشاط . فلقد اسهم بقدر هائل فى ثقافة الأمة العقلية فى ترو وأناة ملحوظين ، دون أى نضال مشبوب أو صراخ عال » (٨) .

٢ — هردر والتاريخ : ١٧٧٧ — ١٨٠٣

كتب شيلر فى يوليو ١٧٨٧ « لقد تركت هردر لتوى . . . أن حديثه رائع ، ولغته دافئة قوية ، ولكن مشاعره يراوحها الحب والكره » (٩) .

وكانت واجهات هردر فى فايمار متنوعة ، فلم تتح له متسعاً من الوقت للتأليف . فكان بصفته قسيساً خاصاً للدوق يقوم بواجبات العماد ، والتثبيت

فى الإيمان ، وعقد الزيجات والإشراف على الجنازات لأسرة الدوق وبلاطه ، وبصفته المراقب العام للدوقية كان يشرف على سلوك الأكليروس وتعييناتهم ، ويحضر اجتماعات مجلس الكنيسة ويلقى عظات فيها من سلامة العقيدة القدر الذى تسمح به شكوكه الخاصة . وكانت مدارس الدوقية تحت إدارته ، فأصبحت نموذجاً تحتذيه ألمانيا كلها . هذه المسئوليات مضافاً إليها ناسوره وسوء صحته عموماً ، جعلته سريع الغضب وصبغت حديثه بين الحين والحين بما سماه جوته « اللدغة الخبيثة » [١٠] . وقد ظل ثلاث سنين (١٧٨٠ — ٨٣) هو وجوته يتجنب أحدهما صاحبه ؛ وقد أنكر الدوق بعض عظات هردر . قال جوته « بعد عظة كهذه لم يبق أمام أى أمير إلا الاعتزال » [١١] . وقال فيلاند اللطيف الطبع معلقاً فى ١٧٧٧ « وددت لو قام بينى وبين هردر اثنا عشر هرماً » [١٢] ، وتعلمت فايمار أن تلتمس المعازير « الاكلينيكية » لقسيسها الشبيه بدين سويفت ، وردت زوجته اللطيفة كارولينه على بعض لدغه . وفى ٢٨ أغسطس ١٧٨٣ اغتنم جوته اتفاق وقوع عيد ميلاده وعيد ميلاد ابن هردر البكر فى يوم واحد ليدعو آل هردر للعشاء . واصطلح عضو المجلس الخاص والمراقب العام ، وكتب جوته يقول ان « السحب الكثيبة التى فرقت بيننا طويلا قد انجلت ، وإلى الأبد فى اعتقادى » [١٣] . وبعد شهر أضاف « لست أعرف رجلا أنبل قلباً أو أسمح وروحاً » [١٤] ، وذكر شيلر فى ١٧٨٧ أن « هردر شديد الإعجاب بجوته — بل هو يكاد يعبده » . [١٥] وأصبح فيلاند وهردر فى الوقت المناسب صديقين متفاهمين [١٦] ، وكان هذان ، لا جوته ولا شيلر ، هما اللذين قادا الحديث فى صالون آنا أماليا واكتسبا قلب الدوقة الأرملة [١٧] .

وواصل هردر وسط واجباته الإدارية البحث فى الشعر البدائى ، وجمع عينات منه من نيف وعشرة شعوب ، ومن أورفيدس إلى أوسيان ، ونشرها فى « مختارات سماها Volksliede « أغانى شعبية » (١٧٧٨) أصبحت ينبوعاً من ينابيع الحركة الرومانتيكية فى ألمانيا . وبينما كان جوته يتهيأ لعودة إلى المثل والأشكال والأساليب الكلاسيكية ولضبط العقل للعاطفة ، كان هردر يشير بالانتفاض على عقلانية القرن الثامن عشر وشكلية القرن السابع عشر والعودة إلى إيمان العصر الوسيط وأساطيره وأناشيده وأساليب حياته .

وفى ١٧٧٨ عرضت الأكاديمية البافارية جائزة لأفضل مقال « فى آثار الشعر فى عادات الأمم وأخلاقها » . وفاز مقال هردر ونشرته الأكاديمية فى ١٧٨١ . وقد تتبع المقال ما رآه المؤلف تدهوراً للشعر بين العبرانيين واليونان والأوربيين الشماليين ، من التعبير الملحمى المبكر عن التاريخ والمشاعر والأفكار الشعبية فى إيقاعات طليقة فياضة ، إلى تدريب « مصقول » ومدرسى ، بعد المقاطع ، ويلوى القوافى ، ويقدس القواعد ، ويضيع حيوية الشعب وسط مظاهر الافتعال المميته التى تشوب حياة الحضر . وزعم هردر أن النهضة الأوربية قد انتزعت الأدب من الشعب وحبسته بعيداً فى قصور الملوك والأمراء ، وأن الطباعة قد احلت الكتاب محل المنشد الحى . وفى مقال آخر « فى روح الشعر العبرى» (١٧٨٣) اقترح هردر قراءة سفر التكوين على أنه شعر لا علم ، وكان قد تمكن من العبرية بجهده الخاص ؛ وألمع إلى أن شعراً كهذا يستطيع أن يحمل بالرمزية من الحقيقة قدر ما يحمله العلم بـ « الواقع » .

ولقد كافح إيمانه الدينى للصمود رغم سعة اطلاعه على الكتب العلمية والتاريخية . ففى عامه الأول فى فايمار اشتبه بعضهم فى أنه ملحد ، حر الفكر ، سوسينى ، صوفى (١٨) . وكان قد قرأ أجزاء « مخطوطة فولفنبوتل » لريماروس ، التى نشرها ليسنج ، وتأثر بها تأثراً كفى لتشكيكه فى لاهوت المسيح (١٩) . ولم يكن ملحداً ، ولكنه وافق على وحدة الوجود التى قال بها سبينوزا . قال لياكوبى فى ١٧٨٤ « لست أتبين إلها من وراء العالم المادى» (٢٠) وقد حذا حذو ليسنج فى دراسة سبينوزا والدفاع عنه ، « يجب أن أعترف أن هذه الفلسفة تسعدنى جداً » (٢١) . وقد كرس لسبينوزا الفصول الأولى من رسالة عنوانها « أحاديث عن الله » (١٧٨٧) ، ففى هذا البحث فقد الله صورته الذاتية وأصبح قوة الكون وروحه ، الذى لا سبيل إلى معرفته إلا فى نظام العالم والوعى الروحى للإنسان (٢٢) . على أن هردر فى دراساته الموجهة إلى الأكليروس قبل الصفة الخارقة لمعجزات المسيح ، وخلود النفس (٢٣) .

ثم جمع العناصر المتفرقة لفلسفته وجعل منها كلا منسقاً نسبياً فى رائعة ضخمة سماها فى تواضع « أفكار نحو فلسفة فى تاريخ الإنسان » ، وهى

كتاب من كتب القرن الثامن عشر البزرية الخطيرة . صدر فى أربعة أجزاء فى ١٧٨٤ و ١٧٨٧ و١٧٩١ . وإشراف مشروع ضخم كهذا على التمام وسط مسئوليات هردر الرسمية يقوم شاهداً على الخلق القوى والزوجة الصالحة . وآية ذلك ماكتبه هردر إلى هامان فى ١٠ مايو ١٧٨٤ : « لم أؤلف طوال حياتى كتاباً كهذا وانا نهب للكثير من المتاعب وأسباب الإرهاق من الداخل ودواعى الإزعاج من الخارج ، بحيث أستطيع القول إنه لو لا أن زوجتى ، التى هى « المؤلف الحقيقى » لكتبى ، ولولا جوته الذى نظر مصادفة فى الجزء الأول — أقول لولا أنهما لم يفترا عن تشجيعى وحثى ، لظل كل شيء فى مثوى الكائنات التى لم تر النور »[٢٤] .

ويستهل الجزء الأول بقصة للخليقة ، دنيوية فى صراحة ، مبنية على الفلك والجيولوجيا المعروفين ، دون لجؤ للكتاب المقدس إلا بوصفه شعراً . وقد زعم أن الحياة لم تنشأ من المادة ، لأن المادة ذاتها حية . والجسم والعقل ليسا جوهرين منفصلين متضادين . إنما هما صورتان لقوة واحدة ، وكل خلية فى كل جسم حى تحتوى الصورتين إلى حد ما . وليس هناك قصد خارجى يمكن رؤيته فى الطبيعة ، ولكن هناك قصداً باطنياً — هو « التصميم الكامل » والباعث لكل بذرة أن تتطور إلى كائن نوعى بكل ما لها من أجزاء معقدة مميزة . وهردر لا يقول بأن الإنسان تطور من الحيوانات الدنيا ، ولكنه يراه عضواً فى المملكة الحيوانية ، يناضل كغيره من الكائنات للطعام والبقاء . وقد أصبح الإنسان إنساناً باتخاذه القامة المنتصبة ، مما طور فيه جهازاً للحس قائماً على البصر والسمع لا على الشم والذوق ؛ فغدت قوائمه الأمامية أيدى ، حرة فى القبض ، والاستعمال ، والاحتواء ، والتفكير . وأسمى ثمرات الله أو الطبيعة هو الذهن الواعى ، الفعال بتفكير وحرية ، المكتوب له الخلود .

ويبدأ الجزء الثانى من « الأفكار » بفرض يزعم أن الإنسان بطبيعته خير ، ويجدد القول بالتفوق والسعادة النسبيين للمجتمعات البدائية ، ويستنكر الفكرة الكانطية — الهيجلية فيما بعد — التى تزعم أن الدولة هى هدف التطور البشرى . وقد احتقر هردر الدولة كما عرفها . كتب يقول « فى الدول العظمى لابد

أن يتضور المئات جوعاً لكى يزهو فرد واحد ويتقلب فى النعيم ؛ أن عشرات الألوف يظلمون ويساقون إلى الموت لكى يستطيع أحمق أو عاقل متوج واحد أن يحقق حلمه »[٢٥] .

وفى الجزء الثالث امتدح هردر أثينا على ديمقراطيتها النسبية التى أتاحت للحضارة أن تنتشر فى كثير من طبقات السكان . أما روما التى أقامت ثراءها على الفتح والرق فقد طورت حضارة ضيقة خلفت الشعب فى الفقر والجهل . فى هذا التاريخ كله لم ير هردر أى « عناية إلهية » ، فهو أشر من أن يكون من عند الله . فالله ، الواحد مع الطبيعة ، يدع الأمور تجرى فى أعنتها وفق القانون الطبيعى وغباوة البشر . ومع ذلك فبحكم صراع البقاء ذاته ينبعث بعض التقدم من الفوضى ؛ فيطور العون المتبادل ، والنظام الاجتماعى ، والأخلاق ، والقانون ، كوسائل للبقاء ، ويتحرك الإنسان فى بطء صوب إنسانية رحيمة . لا لأن هناك خطاً متصلا للتقدم ، فهذا غير ممكن ، لأن كل حضارة قومية هى كيان فريد ، له طابعه المتأصل ، ولغته ، ودينه ، وناموسه الخلقى ، وأدبه وفنه ، وكل حضارة — شأنها شأن أى كائن حى — إذا استثنينا ما يطرأ عليها من حوادث عارضة — تنحو للنمو إلى نهايتها القصوى الطبيعية ، التى تضمحل بعدها وتموت . وليس هناك ضمان لتفوق الحضارات اللاحقة على السابقة ، ولكن اسهامات كل حضارة تنقل على نحو أفضل إلى الحضارات التى تخلفها . وهكذا ينمو التراث الإنسانى .

والجزء الرابع يمتدح المسيحية أما للمدنية الغربية . فالبابوية الوسيطة حققت هدفاً نافعاً يكبحها استبدادية الحكام والنزعة الفردية للدول ؛ والفلاسفة المدرسيون ، وان نسجوا نسيجاً واهياً أجوف بألفاظ ثقيلة ، إلا أنهم أرهفوا أدوات العقل ولغته . وجامعات العصر الوسيط جمعت وحفظت ونقلت الكثير من ثقافة اليونان والرومان ، بل بعض علوم العرب والفرس وفلسفتهم . وهكذا أصبح المجتمع الفكرى أكبر عدداً وأرهف حساً من أن يقوى عليه سدنة السلطة . وتحطمت أغلال العرف ، وأعلن العقل الحديث تحرره .

وحقق هردر فيما بين الجزئين الثالث والرابع من « الأفكار» حلمه الذى طال تأجيله برؤية إيطاليا . ذلك أن يوهان فريد ريش هوجو فون دالبرج ، المستشار الكاثوليكى الخاص لرئيس أساقفة ترير الناخب ، دعا هردر ليصحبه فى رحلة كبرى تدفع له فيها كل نفقاته . وأذن له دوق ساكسى — فايمار ، وكارولينه ، بالغياب ؛ فغادر فايمار فى ٧ أغسطس ١٧٨٨ . فلما لحق بدالبرج فى أوجزبرج وجد أن خليلة دالبرج عضو هام فى الجماعة . واجتمع على هردر وجودها ومطالبها ، وسوء صحته ، لتنغص عليه رحلته . وفى أكتوبر وصلت آنا أميليا إلى روما . فترك هردر دالبرج وانضم إلى بطانتها . وقد استلطف انجليكا كاوفمان استلطافاً أكثر مما ترضى عنه كارولينه ، وأسرفت رسائل كارولينه فى الكلام عن جوته والميل إليه . وعاد هردر لدغه ، وكان قد سمع أنباء عن حياة جوته فى روما . وكتب يقول « ان رحلتى هنا كشفت لى لسوء الحظ عن حياة جوته الأنانية على نحو أوضح مما كنت أتمنى ، وهى حياة فى صميمها لاتعبأ بالغير على الإطلاق . إنه لايملك غير هذا ، فلندعه وشأنه إذن . . » [٢٦] .

وعاد إلى فايمار فى ٩ يوليو ١٧٨٩ . وبعد خمسة أيام سقط الباستيل ، وغير هردر خططه فى التأليف . فأكمل الجزء الرابع من «الأفكار» ، ثم نحى الكتاب جانباً ، وكتب بدلا منه « رسائل لتقدم الإنسانية (١٧٩٣ — ٩٧) . وقد بدأها بتقريظ حذر للثورة الفرنسية ، ورحب بانهيار الإقطاع الفرنسى ، ولم يذرف دموعاً على علمنة الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا [٢٧] ، وحين انطلق الدوق وجوته لمواجهة الفرنسيين عند فالمى ، وعادا يجرران أذيال الهزيمة ، حبس هردر هذه « الرسائل » الأولى ، وخصص الباقى للثناء على الموتى من العباقرة الذين لا خوف من الثناء عليهم .

ولم يفقد فى شيخوخته شيئاً من لذة الصراع الفكرى . فقابل نقد كانط لكتاب « الأفكار » بهجوم حاد على « نقد العقل الخالص » . ووصف الكتاب بأنه تلاعب رهيب بالألفاظ الميتافيزيقية الأشباح ، مثل « الأحكام التركيبية القبلية » ، وأنكر ذاتية المكان والزمان ، واتهم كانط بأنه أعاد إلى علم النفس فكرة الملكات ، التى زعم الفلاسفة

المدرسيون أن العقل ينقسم إليها . ثم المع ، فى تنبثو ، إلى أن الفلسفة قد تختط طريقاً جديداً بالتحليل المنطقى للغة—لأن الاستدلال ما هو إلا حديث باطنى .

وقد وافق جوته إلى حد كبير على نقد هردر لكانط ، ولكن هذا لم يعصمه من لدغة نصيبه منه بين الحين والحين . فحين أقام كلاهما تحت سقف واحد فى يينا عام ١٨٠٣ قرأ جوته على جماعة كان هردر واحداً منها أجزاء من مسرحيته الجديدة « الإبنة الطبيعية » (أى غير الشرعية) . وأثنى هردر على المسرحية للآخرين ، ولكن حين سأله المؤلف رأيه لم يستطع مقاومة الرد بتورية عن الصبي الذى ولدته خليلة جوته فقال : « انى أحب ابنك الطبيعى أكثر من ابنتك الطبيعية » ولم يستطب جوته الدعابة . وبعد ها لم يلتق الرجلان قط . واعتكف هردر فى خلوة بيته بفايمار ، ومات هناك فى ١٨ ديسمبر ١٨٠٣ — قبل شيلر بعامين ، وقبل فيلاند بعشرة ، وقبل جوته بتسعة وعشرين ودفن بأمر الدوق كارل أوجست — الذى كثيراً ما ضايقه هردر — بمراسم التكريم الكبير فى كنيسة القديسين بطرس وبولس.

٣ — جوته عضو المجلس الخاص
١٧٧٥ — ٧٦

لقى جوته فى فايمار ترحيباً من الجميع إلا السياسيين . كتب فيلاند إلى لافاتر فى ١٣ نوفمبر ١٧٧٥ « لابد لى من انبائك بأن جوته معنا منذ الثلاثاء الماضى ، وأنه لم تنقض ثلاثة أيام حتى شعرت بمحبة عميقة لهذا الشخص الرائع — فأنا أنفذ إلى أعماقه وأحسه وأفهمه تماماً — على نحو تستطيع أن تتخيله أفضل كثيراً مما أستطيع أن أصفه» [٢٨] . وفى الشهر نفسه كتب أحد رجال الحاشية إلى والدى جوته يقول « فكرا فى ابنكما كأوثق صديق لدوقنا العزيز ، . . . وهو محبوب إلى حد العبادة أيضاً من جميع السيدات من فضليات النساء فى هذه المنطقة »[٢٩] .

بيد أن سماء فايمار لم تخل من غيوم . ذلك أن الدوق كان يستطيب الصيد العنيف والإفراط فى الشراب ، وقد صاحبه جوته فيهما جميعاً أول الأمر ،

فاتهم كلوبشتوك الشاعر علانية بأنه يفسد أميراً فاضلا . وخشيت لويزه أن يقصى جوته زوجها عنها ، مع أن حقيقة الأمر أنه استخدم تأثيره لبرد الدوق إلى الدوقة رغم أن زواجهما لم يكن زواج حب . وتشكك بعض الموظفين فى جرته باعتباره تابعاً متطرفاً من اتباع الحركة « الزوبعية » ذا معتقدات وثنية وأحلام رومانسية . وهجم على فايمار عدد من أنصار تلك الحركة — لنتن ، وكلنجو ، وغيرهما — وقدموا أنفسهم باعتبارهم أصدقاء جوته ، وطالبوا بالغنيمة . وحين استلطف جوته بيتا ذا حديقة خارج بوابة المدينة ولكنه قريب من قلعة الدوق — أفقد كارل أوجست جوته بعض عطف الرأى العام بإخلائه شاغلى البيت تمكيناً لجوته من الانتقال إليه (٢١ أبريل ١٧٧٦) . هناك تخفف الشاعر من مراسم البلاط ، وتعلم كيف يزرع الخضر والأزهار . وظل ثلاثة أعوام يسكن البيت على مدار السنة ، ثم فى الصيف فقط حتى ١٧٨٢ ، حين انتقل إلى قصر فسيح فى المدينة لينصرف إلى واجباته المتزايده بصفته عضواً فى الحكومة .

كان الدوق قد فكر فيه شاعراً ، ودعاه إلى فايمار ليكون كوكباً من كواكب الأدب فى بلاطه . ولكنه رأى أن مؤلف مسرحية ثائرة ورواية غرامية باكية ، هذا الكاتب الذى ناهز السادسة والعشرين ، أخذ يصبح رجلا ذا حكم عملى سديد . وعليه فقد عين جوته فى « مكتب للأشغال » ، وطلب إليه أن ينظر فى حالة المناجم فى المينا وفى تشغيلها . وقام جوته بالمهمة بهمة وذكاء حملا كارل أوجست على التصميم على ضمه للمجلس الخاص الذى يدير شئون الدوقية . واحتج عضو قديم على تدفق الشعر على المجلس على هذا النحو الفجائى ، وهدد بالاستقالة . ولكن الدوق والدوقة الأرملة هدءا ثائرته ، وفى ١١ يونيو ١٧٧٦ أصبح جوته « عضو المجلس المختص بالتفويض الدبلوماسى » براتب سنوى قدره ألف ومائتا طالر . فقالل من مغازلاته للسيدات . وقد كتب فيلاند لمبرك فى ٢٤ يناير يقول « منذ أمد طويل ، من اللحظة التى قرر فيها أن يكرس نفسه للدوق وشئون الدوق ، راح يسلك بحكمة مبرأة من الخطأ وبحذر الرجل الخبير بأمور الدنيا » (٣٠) . وفى ١٧٧٨ رقى إلى منصب وزير الحرب ، وكان يومها

منصباً هادئاً ، ثم إلى العضوية الكاملة للمجلس الخاص فى ١٧٩٩ . وقد حاول بعض الإصلاح ، ولكنه وجد نفسه معوقاً بالمصالح المكتسبة فى القمة ، واللامبالاة العامة فى القاعدة ، وما لبث هو نفسه أن بات محافظاً تام المحافظة . وفى ١٧٨١ عين رئيساً لغرفة الدوقية . وفى ١٧٨٢ خلع عليه يوزف الثانى براءة النبالة ، وغدا « فون » جوته . قال لأكرمان بعد خمسة وأربعين عاماً « فى تلك الأيام كنت أشعر بغاية الرضى عن نفسى بحيث اننى لوكنت رقيت أميراً لما وجدته تغييراً ذا بال »[٣١] .

وامتزجت بمستقبله السياسى قصة غرام كانت أبقى وأحر وآلم حب فى حياته . استمع إلى وصف الدكتور يوهان تسمرمان لإحدى مرضاه وصفاً لا يمت إلى الطب بسبب فى نوفمبر ١٧٧٥ .

« ان للبارونه فون شتين ، زوجة البارون ورئيس الخياله ، عيوناً نجلاء سوداء رائعة الجمال . وصوتها رقيق خافت . ولا يفوت أحداً أن يلحظ على وجهها سمات . . . الرزانة ، ودماثة الطبع ، واللطيف . . . والفضيلة ، والحساسية العميقة . أن آداب السلوك فى البلاط ، التى تملك ناصيتها إلى حد الكمال ، تحولت فيها إلى بساطة رفيعة نادرة . وهى نقية جداً ، ذات سمو روحى مؤثر يكاد يبلغ حد النشوة . ولا يستطيع المرء من مشيتها الأنيقة ومهارتها فى الرقص التى تقرب من مهارة المحترفين ان يستشف نور القمر الهادىء المطمئن . . . الذى يملأ قلبها بالسلام . أنها فى الثالثة والثلاثين ، ولها عدة أطفال . وأعصابها ضعيفة . ووجنتاها ورديتان ، وشعرها فاحم ، وبشرتها . . . إيطالية اللون »[٣٢] .

وقد ولدت شارلوته فون شارت فى ١٧٤٢ ، وتزوجت البارون يوسياس جوتلوب فون شتين فى ١٧٦٤ . وفى ١٧٧٢ بلغ مجموع ما أنجبت من أطفال سبعة ، مات منهم أربعة . وحين التقى بها جوته كانت لاتزال تعانى من الحمل المتكرر ، وامتزج إحساسها بالضعف بما فطرت عليه من تواضع وحياء . ورفعها جوته فى خياله إلى السماء ، ولا غرو فقد كان فيه دم شاب وخيال شاعر ، ألف تجميل الواقع ونيط به هذا التجميل ، ومع ذلك لم يجاوز

ما قاله طبيبها فى تمجيدها . فقد كانت شيئاً جديداً فى بستان وروده النسائية : كانت ارستقراطية ، كأنما ركب السلوك المهذب فى فطرتها ، ورآها جوته كأنها من النفائس المدخورة فى قدس النبالة . وكان من ثمرات علاقتهما أنها نقلت إليه آداب طبقتها ، وعلمته ضبط النفس ، والطبيعية ، أو الاعتدال ، والمجاملة . وكانت شاكرة حبه إياها لأنه رد إليها اهتمامها بالحياة ، ولكنها قبلت هذا الحب كما تقبل امرأة كريمة المربى إعجاب فتى يصغرها بسبع سنين — باعتباره آلام النمو لروح متشوف يبحث عن التجربة وتحقيق الذات .

ولم يكن حباً من أول نظرة ، فبعد أن انضم إلى زمرة فايمار بستة أسابيع كان لايزال يقرض الشعر عن « الجميلة للى » شونمان [٣٣] . ولكن فى ٢٩ ديسمبر ١٧٧٥ ، لاحظ الدكتور تسمرمان تنبه جوته إلى « فضائل ومفاتن جديدة فى شارلوته » . وما حل ١٥ يناير حتى كان يحاول مقاومة افتتانه الوليد بها ، فقال لها « انى مسرور لأنى أبعد عنك وأفطم نفسى منك » ، ولكن لم يواف ٢٨ يناير حتى كان قد ألقى السلاح ، وكتب إليها يقول « ياملاكى الحبيب ، لن آتى إلى البلاط . ان بى من شعور السعادة ما لا أطيق معه كثرة الخلق . . . فأسمحى لى أن أحبك كما أفعل » . ثم كتب فى ٢٣ ٢٣ فبراير « يجب أن أخبرك أيتها المختارة بين النساء أنك ألقيت فى قلبى حباً يملؤنى بهجة »[٣٤] .

وردت برسائل كثيرة ، ولكن لم يبق منها غير واحدة من هذه الحقبة : « لقد عزلت نفسى بعيداً عن العالم ، ولكنه الآن يعود إلى عزيزا ، وعزيزا بسببك . ان قلبى يبكتنى وأنا أشعر انى أعذب نفسى وأعذبك . فقبل ستة أشهر كنت على أتم استعداد للموت ، وأنا لم أعد الآن مستعدة للقائه » [٣٥] . وملكته النشوة . فقال لفيلاند « ليس من تفسير لما تفعله هذه المرأة بى . . . إلا إذا قبلت نظرية التقمص . أجل ، لقد كنا يوماً ما رجلا وزوجته ! [٣٦] واتخذ لنفسه امتياز الأزواج فى الشجار والمصالحة . كتبت شارلوته إلى تسمرمان فى مايو ١٧٧٦ تقول : « لقد تركنى ثائراً قبل أسبوع ، ثم عاد يحب طاغ . . . فماذا هو صانع بى فى النهاية ؟ [٣٧] ويبدو أنها أصرت على أن يظل حبهما أفلاطونياً ، أما هو فكان به من حرارة العشق مالا يجعله

يترك حبهما عند هذا الحد ، فقال لها « ان امتنع على العيش معك فإن حبك لن ينفعنى بأكثر من حب غيرك الغائبات عنى »[٣٨] . ولكنه أردف فى الغد «اصفحى عنى أننى آلمتك . وسأحاول بعد اليوم أن أحتمل الألم وحدى »[٣٩] .

وشعر بالوحشة حين ذهبت إلى بيرمونت النائية فى الشمال للعلاج ، ولكنها زارته فى المينا وعند عودتها (٥ — ٦ أغسطس ١٧٧٦) . وكتب فى ٨ أغسطس يقول «كان لحضورك أثر عجيب فى . . . وحين أفكر أنك كنت هنا فى كهفى معى ، وإننى أمسكت بيدك وأنت تنحنين على . . . أرى صلتك بى مقدسة وغريبة معاً . . . فليس هناك كلام يعبر عنها ، وأعين الرجال لاتبصرها »[٤٠] . وكان لايزال حاراً فى حبه لها بعد أن انقضى على لقائهما الأول قرابة خمس سنين . ففى ١٢ سبتمبر ١٧٨٠ كتب وهو وحيد فى زلباخ «كلما استيقظت من أحلامى وجدتنى مازلت أحبك وأصبو إليك . والليلة بينما كنا راكبين ورأينا النوافذ المضاءة فى بيت أمامنا ، قلت فى نفسى ليتها هناك لتضيفنا . ان هذا المكان جحر حقير ، ومع ذلك فلو أننى استطعت أن أعيش هنا فى هدوء طوال الشتاء معك لأحببته كثيراً[٤١] . ثم كتب فى ١٢ مارس ١٧٨١ :

« لقد امتزجت روحانا امتزاجاً جعلنى كما تعلمين مربوطاً بك رباطاً لافكاك منه ، ولن يفصلنا علو ولاعمق . وددت لو كان هناك قسم ما أو سر مقدس ما يربطنى بك على نحو مرئى ووفقاً لقانون ما . لكم يكون هذا رائعاً ! ولا شك أن فترة الاختبار كفانى طولها لانعام التفكير الواجب فى الأمر . . . أن اليهود يربطون زنارا حول أذرعتهم أثناء الصلاة . وهكذا أربط على ذراعى زنارك العزيز حين أوجه صلاتى إلياك ، وأرغب إليك فى أن تنقلى إلى طيبتك وحكمتك واعتدالك وصبرك » .

وقد فسر بعضهم « فترة الاختبار» المنصرمة ، بأنها تشير إلى أن شارلوته أسلمت جسدها إليه »[٤٢] ، ومع ذلك كتب إليها بعد ست سنوات يقول .

« ياعزيزتى لوته ، أنت لا تعلمين أى عنف أوقعته بنفسى وما زلت أوقعه : وكيف أن فكرة عدم امتلاكى إياك . . . ترهقنى وتفنينى »(٤٣) . فإذا كان غرامهما قد اكتمل حقاً فإن السر قد كتم أحسن كتمان . وقد احتمل البارون فون شتين ، الذى عمر حتى ١٧٩٣ ، هذه العلاقة الغرامية بمجاملة جنتلمان من أهل القرن الثامن عشر . وكان جوته يختم خطاباته بين الحين والحين بعبارة « تحياتى إلى شتين »(٤٤) .

وقد تعلم أن يحب أطفالها أيضاً ، وكلما امتد به العمر اشتد شعوره بحرمانه من أطفال له . وفى ربيع ١٧٨٣ أقنعها بأن تسمح لابنها فرتز ذى السنين العشر بالإقامة معه فى زورات طويلة ، وحتى بمصاحبته فى رحلات طويلة . وفى أحد خطاباتها لفرتز (سبتمبر ١٧٨٣) يظهر جانب الأمومة فيها ، وتتكشف قلوب البشر الكامنة خلف واجهة التاريخ المجردة من عواطف البشر .

« انى عظيمة الابتهاج لأنك لم تنسنى وأنت منطلق فى هذا العالم الجميل ، وأنك تكتب إلى بحروف لا بأس بها وإن لم يكن رسمها حسناً جداً . ومادمت تعتزم الإقامة أطول مما توقعت ، فإنى أخشى ألا تبدو ثيابك حسنة المظهر جداً . فإذا اتسخت واتسخت أنت أيضاً ، فاطلب إلى عضو المجلس الخاص جوته فقط أن يلقى بفرتزى الصغير الحبيب فى الماء . . . حاول أن تستمتع بفرصتك الطيبة ، واجتهد أن تسر عضو المجلس بسلوكك ، ووالدك يرغب إلى أن اقرئك تحيته (٤٥) .

فإذا وافى عام ١٧٨٥ كان غرام جوته قد هدأت فورته فى فترات صمت طويلة . وفى مايو ١٧٨٦ شكت شارلوته من أن « جوته يفكر كثيراً ولا يقول شيئاً »(٤٦) . وكانت الآن تناهز الرابعة والأربعين ، أما هو ففى السابعة والثلاثين ، وكان آخذاً فى الانطواء على نفسه . كثير التردد على يينا هروباً من بلاط فايمار والتماساً لتجدد الشباب بين الطلاب . وكان قد اعتاد دائماً أن ينعش نفسه بالطبيعة ، فيتسلق قمة بروكن (وهى قمة ارتفاعها ٣,٧٤٧ قدماً فى جبال هارتس ، اقترنت منذ أمد بعيد بأسطورة فاوست) ، ويخرج فى

رحلات مع الدوق فى سويسره (سبتمبر ١٧٧٩ إلى يناير ١٧٨٠) . وكان أحياناً وهو يسترجع الماضى يشعر « بأننى خلال السنوات العشر الأولى من حياتى فى الوظيفة والبلاط بفايمار لم أكد أنجز شيئاً »[٤٧] فى مضمار الأدب أو العلم . ولكن كان من الخير تهجين الشاعر بالأدارى ، وتأديب الغنى الذى كاد التدليل يفسده ، والعاشق الخائن ، بتبعات المنصب وبطء الانتصار فى الحب . وقد أفاد من كل تجربة ونما مع كل هزيمة . « أن خير ما فى ، هو ذلك السكون الباطنى العميق الذى أعيش فيه وأنمو ، رغم العالم ، والذى بفضله أكتسب مالا يقوى العالم على انتزاعه منى أبدا »[٤٨] . فلم يكن شىء يضيع هدراً عليه ، وكل شىء وجد التعبير عنه فى مكان ما فى كتاباته ، وأخيراً أصبح خير ما حوته ألمانيا المفكرة منصهرا فى كل متكامل .

وينتمى إلى هذه الحقبة قصيدتان من أعظم قصائده : أولاهما مزاوجة بين الفلسفة والدين ، وبين الشعر والنثر ، فى قصيدة « الطبيعة» . وثانيتهما أعظم أشعاره الغنائية كمالا . وهى الثانية من قصائده المسماة « أنشودة الجوالين فى الليل » التى نقشها على جدران كوخ الصيد فى ٧ سبتمبر ١٧٨٠ [٤٩] ربما فى حالة من حالات الشوق القلق :

على قمم التلال كلها
ران السكون ؛
وعلى ذرى الأشجار
لاتكاد تسمع
نفساً يتردد ؛
الطير نيام فى الغابات
مهلا : فأنت أيضاً
ستهجع مثلها سريعاً[٥٠] .

وهناك قصيدة من قصائد جوته العاطفية المشهورة الأخرى تنتمى إلى هذه المرحلة من مراحل تطوره : وهى قصيدة « ملك العفاريت» الحزينة وضع لها شوبرت لحناً موسيقياً . فتى عبر شاعر عن إحساس الطفل بالكائنات

الخفية المنتشرة فى الطبيعة تعبيراً أقوى مما فى هذا الخيال السريع ، خيال الطفل المشرف على الموت ، الذى يرى « ملك العفاريت» آتياً ليخطفه من بين ذراعى أبيه ؟ .

فى هذه الحقبة أيضاً كتب جوته ثلاث مسرحيات نثرية : « اجمونت (١٧٧٥) وافجينى فى تاوريس (١٧٧٩) وتورقواتو تاسو (Torquato Tasso) (١٧٨٠) — وهى ثمر كاف لخمس سنين قضاها فى خضم السياسة . ولم تخرج « إجمونت» على المسرح إلا فى ١٧٨٨ ، أما إفجينى فقدمت على مسرح فايمار فى ٦ أبريل ١٧٧٩ (قبل العرض الأول لأوبرا جلوك التى بهذا الاسم بستة أسابيع (؛ ولكن جوته غير فيها وبدل ، ونظمها شعراً ، أثناء مقامه فى روما ، بحيث يحسن النظر إليها على أنها نتاج لمرحلة جوته الكلاسيكية . كذلك أعاد صياغة « تاسو» ونظمها شعراً فى إيطاليا ، ولكنها تدخل هنا جزءاً من افتتان جوته بشارلوته فون شتين . ففى ١٩ أبريل ١٧٨١ كتب إليها يقول : « كل كلام تاسو موجه إليك »[٥١] . وصدقت كلامه ، فطابقت بينها وبين ليونورا ، وبين جوته وتاسو ، وبين كارل أوجست ودوق فرارا .

وقد تلقف جوته الأسطورة التى زعمت أن انهيار عقل تاسو فى بلاط فرارا قد اشتد ، ان لم يكن قد نشأ أصلا ، عن غرام تعس بأخت لألفونس الثانى (حكم ١٥٥٩ — ٩٧)[٥٢] . وما من شك فى أن جوته كان يفكر فى نفسه حين وصف ما يدور فى فكر تاسو الشعرى :

ان عينه قلما تطيل النظر إلى هذا المشهد الأرضى ،
أما أذنه فرهفة السمع لأنغام الطبيعة .
وأما صدره فيتلقى للتو فى ابتهاج
ما يقدمة التاريخ وتأتى به الحياة ،
ثم يجمع الأشتات المتفرقة ويربط بينها
ويبعث حسه الذكى الحياة فى الموتى .
وهكذا يغرينا الرجل العجيب

وهـــو يتحـــرك فى عـــالمـــه المسحـــور
بأن نطـــوف معـــه ونشـــاركه فـــرحه .
وهو يبـــدو كأنه يدنو منـــا ، إلا أنه يظل
بعيداً كما كان ، فإذا اتفـــق ووقعت عينـــه
علينـــا رأى الأشـــباح فى مـــكانـنـــا (٥٣)

وقد تكون ليونورا ، الأميرة الجليلة التى ترتضى حب الشاعر ولكنها تأمره بأن يكبح حماسته ويراعى اللياقة ، هى شارلوته فون شتين تضبط غرام جوته المشبوب فى هذا العالم الفاسق ويعلن تاسو — وهنا يتكلم الشاعران كلاهما :

كل ما يصل إلى القلب مـــن أغنيـــتى
فيتردد صداه فيه ، إنما أدين به لواحـــد ،
وواحـــد فقط ! فلم يحـــم حول روحى
طيف غـــامض ، يتقـــدم تـــاره
فى سناء باهـــر ، ثم يتـــوارى ثانيـــة .
فأنا نفسى ، بعينى رأس ، أنا الذى أبصرت
مثـــال كل فضيلة وكل جمـــال (٥٤)

وأما الدوق الفونسو فهو شبيه كارل أوجست فى صبره على غضبات الشاعر وغرامياته وأحلام يقظته ، وهو مثله يحزنه تباطؤ الشاعر فى الفراغ من رائعة موعودة :

بعد كل خطوة بطيئة يدع عمله ،
لايفتأ يبدل ويغير ، ولا طاقة له على الانتهاء (٥٥) .

وهو وصف صادق لكتابة جوته المنجمة وإبطائه وتسويفه فى إنجاز « فلهم ما يستر » و « فاوست » . وأميرة أخرى تمتدح الفونسو كارل أوجست على إتاحته الفرصة لتاسو — جوته لينضج بممارسته لشئون الدنيا وهنا تعلو أبيات مشهورة :

« إن الموهبة تكون نفسها فى سكون »
والشخصية تتشكل فى نهر العالم » (٥٦) .

ولكن التلازم بين الشاعرين يتضاءل فى النهاية : فتاسو لايبدى شيئاً من قدرة جوته على السباحة فى نهر العالم ، فيغرق فى مملكة أحلامه ويضرب بالحذر واللياقة عرض الحائط ، ويحتضن الأميرة المذهولة بين ذراعيه ، ويجن جنونه حين تنتزع نفسها من ضمته ومن حياته . ولعل جوته أحس بأنه كان قد وقف على شفا هذا الجرف .

وكثيراً ما فكر فى إيطاليا ملاذاً يعتصم به من موقف يهدد سلامة عقله . وفى نحو هذه الفترة فى الصيغة الأولى لـ « فلهلم ما يستر » نظم لمينون أغنية شوق ولهفة تلائم آماله أكثر من آمال مينون :

أتعرف البلد الذى تزهـــر فيه أشجار الليمـــون ،
حيث تتوهج ثمار البرتقال الذهبية فى الأوراق الداكنة ،
حيث يهب النسيم العليل من السماء الزرقـــاء ،
حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة النار السامقة
حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة الغار السامقة
أتعرفـــه جيـــداً ؟ هنـــاك ! هنـــاك !
اشتهى يـــاحبيـــبى ان انطلـــق معـــك !

لقد كانت فايمار جميلة ، ولكنها لم تكن دافئة . ثم ان هموم المنصف كدرت روح الشاعر . « أنها لوسيلة مرة من وسائل كسب القوت أن يضطر المرء إلى محاولة خلق التناغم والانسجام بين نشازات العالم »[٥٧] . وقد أضنته حياة البلاط ، « ليس بينى وبين هؤلاء القوم ولا بينهم وبينى شىء مشترك يربطنا »[٥٨] . وكانت قد وقعت بعض الجفوة بينه وبين الدوق لعجزه عن مسايرة خطى الدوق فى الصيد والغزل ، وغرامه الكبير الوحيد قد براه الزمن وكثرة الشجار . فأحس أنه لابد له من التحرر من هذه الأصفاد الكثيرة ، والبحث عن اتجاه ونظرة جديدين . فطلب إلى الدوق أن يمنحه أجازة ، فاستجاب الدوق ، ووافق على أن يواصل دفع راتب جوته . ورغبة فى توفير مبلغ إضافى من المال باع جوته لجوشن ، الناشر الليبزجى ، حق نشر طبعة من مجموعة مؤلفاته . ولم يبع جوشن إلا ٦٠٢ نسخة ، فخسر ١٫٧٢٠ طالرا فى هذه المغامرة .

وفى أول سبتمبر ١٧٨٦ كتب جوته إلى شارلوته من كارلسباد يقول :

« الآن وداعاً أخيراً ، أريد أن أكرر لك أنى أحبك حباً جماً . . . وأن تأكيدك لى انك تجدين من جديد لذة فى حبى يجدد فرحة حياتى . لقد احتملت الكثير فى صمت إلى الآن ، ولكنى لم أرغب فى شيء بأحر مما رغبت فى أن تتخذ علاقتنا صورة لايقوى عليها أى ظرف . فإذا لم يكن هذا ممكناً ، فلن ارتضى أن أسكن حيث تكونين ، بل أوثر أن أكون وحيداً فى ذلك العالم الذى انطلق إليه الآن[٥٩] .

٤ — جوته فى إيطاليا : ١٧٨٦ — ٨٨

واتخذ له فى رحلة اسماً مستعاراً هو « المسيو جان — فليب مولر » لأنه أراد التحرر من مضايقات الشهرة . وكان فى السابعة والثلاثين ، ولكنه ذهب بتطلع يفوق حتى تطلع الشباب وترقبه المرح ، وباستعداد يفضل كثيراً استعداد الشباب ، لأنه كان ملماً ببعض تاريخ إيطاليا وفنها . وفى ١٨ سبتمبر كتب إلى هردر يقول « آمل أن أعود شخصاً مولوداً من جديد » وكتب إلى كارل أوجست « أرجو أن أعيد معى إنساناً تطهر تماماً وتجهز تجهيزاً أفضل كثيراً من ذى قبل » . وإلى هذين وإلى غيرهما من الأصدقاء أرسل « رسائل من إيطاليا » مازالت تحوى نبض الحياة الإيطالية السريع . وقد قدملها بالشعار القديم « Auch in Arkadien -هوأيضاً كان الآن فى أركاديا . وقد رأينا فى موضع آخر من الكتاب مبلغ شكره على ضوء الشمس . فقد صاح عند دخوله إيطاليا » إنى أومن بالله من جديد ! »[٦٠] ولكنه أحب الشعب الإيطالى أيضاً ، وجوههم وقلوبهم الطلقة ، وطبيعية حياتهم ، وحرارة حديثهم ومرحه . وإذ كان عالماً كما كان شاعراً ، فإنه لاحظ الخصائص الخاصة بالظواهر الجوية ، والتكوينات الجيولوجية ، والعينات المعدنية ، وأنواع الحيوان والنبات ، وأحب حتى السحالى المارقة فوق الصخور .

وبلغ من شدة شوقه للوصول إلى روما أنه مر مرور الكرام بفنيسيا ولمبارديا وتسكانيا ولكنه تلبث فى فتشنتسا وقتا كفى لأشعاره ببساطة معمار بلاديو وقوته الكلاسيكيتين . وعاد يؤكد من جديد نفوره من الطراز القوطى .

« لقد تحررت إلى الأبد — ولله الحمد — من كل ميل إلى تلك الأعمدة الشبيهة بقصبات التدخين ، وقلاعنا الصغيرة المتوجة بأبراج الكنائس ، والأطراف المورقة لمبانينا ! . . . لقد فسح بلاديو أمامى الطريق لكل . . . فن »[٦١] .

وعاد بهذا الطريق إلى فتروفيوس الذى درسه فى طبعة أشرف عليها جاليانى ، صاحبنا الظريف القادم من نابلى وباريس . واستحال الطراز الكلاسيكى الآن غراماً عنده ، يلون كتاباته وفكره ، ويعيد صياغة بعض أناجه القديم ، مثل « افجينى » و « تاسو » فى قالب وخط كلاسيكيين . وفى البندقية بدت قصور الباروك فى عينيه مسرفة فى البهرج ، مفرطة فى الأناقة النسائية ؛ لا بل إنه انصرف عن واجهات النهضة إلى أطلال العمائر والتماثيل الكلاسيكية فى المتاحف . ولكن دمه الحار تجاوب مع لون فيرونيزى وتتسيانو وكبريائهما .

وقد بحث فى فرار عبثاً عن القصر الذى حبس فيه تاسو . وبعد أن قضى ثلاثة أيام فى بولونيا وثلاث ساعات فقط فى فلورنسة انطلق حثيثاً عبر بروجه وتيرنى وتشيتا دى كاستيللو ، وفى ٢٩ أكتوبر ١٧٨٦ ركب إلى روما مخترقاً « البورتا ديل بوبولو » (بوابة الشعب) وأحس الآن بلحظة عابرة من التواضع « كل الطرق مفتوحة أمامى لأنى أسير بروح التواضع »[٦٢] .

وإذ لم يكن قد تمكن بعد من لغة الحديث الإيطالية ، فقد بحث عن الجالية الألمانية ، لاسيما الفنانين الألمان ، لأنه تطلع إلى أن يتعلم على الأقل أصول الرسم والتصوير والنحت . وأعجبت انجليكا كاوفمان بحماسته ووسامته فرسمته فى صورة أبرزت شعره الأسود وجبينه العالى وعينيه الصافيتين . وارتبط بصداقة حميمة مع يوهان هاينريش فلهلم تيشباين ، الذى أسلمه لنا فى لوحته الشهيرة « جوته فى الريف »[٦٣] . يستلقى فى استرخاء كأنه فتح أركاديا . وكان جوته قد راسل هذا المصور قبل حضوره إلى إيطاليا بزمن طويل ، ثم التقيا لأول مرة فى ٣ نوفمبر ، حين اجتمعا فى « بياتسا سان بيترو (ميدان القديس بطرس) ، وتعرف الشاعر على الفنان ، وقدم إليه نفسه ببساطة « أنا جوته »[٦٤] ، ووصفه تيشباين فى خطاب إلى لافاتر بهذه العبارات :

« وجدته تماماً كما توقعت . ولم يدهشنى غير الرزانة والهدوء فى رجل له هذه الحساسية الناشطة ، ثم قدرته على الاسترخاء والتصرف بحرية فى جميع الظروف . وما يسرنى أكثر حتى من هذا هو بساطة حياته . فكل ما طلبه منى كان فى إعداد حجرة صغيرة يستطيع أن ينام فيها ويعمل دون إزعاج ؛ ثم أبسط الطعام . . . وهو يجلس الآن فى تلك الحجرة الصغيرة عاكفاً على قصة « افجينى » من الصباح الباكر إلى الساعة التاسعة . ثم يخرج لدراسة روائع الفن »[٦٥] .

وكثيراً ما كان تيشباين مرشداً له فى جولاته هذه ، ورتب تزويده بما طلب من الرسوم ، وحصل له على نسخ من الصور الأكثر شهرة . وقد رسم جوته بنفسه رسوماً تخطيطية للصور التى أراد تذكرها بنوع خاص . ثم جرب النحت ، ونحت رأساً لهرقول . واعترف بأنه غير موهوب فى الفنون التشكيلية ، ولكنه شعر أن هذه التجارب تعطيه إحساساً أفضل بالشكل ، وتساعده على تصور ما يريد وصفه[٦٦] . ثم أكب على كتاب فنكلمان « تاريخ الفن القديم » ، « هنا على الطبيعة أجده ثميناً جداً . . . والآن يستطيع عقلى فى النهاية أن يتسامى إلى أعظم وأنقى إبداعات الفن فى مأمن هادىء »[٦٧]. « إن تاريخ العالم كله يربط نفسه بهذه البقعة ، وأحسبنى ولدت . . . ولادة جديدة صادقة منذ اليوم الذى دخلت فيه روما . . . أظننى تغيرت إلى الصميم »[٦٨] . ويبدو أنه استمتع خلال ذلك بالفن الحى الذى قدمته الموديلات « اللذيذات » اللائى جلسن للمصورين فى مراسمهم[٦٩] . وأنهت إقامته فى روما ذلك التخلص من النزعة الرومانتيكية الذى بدأ بمسئوليات المنصب . وبدأ الآن تمرد جوتز على القانون ، ودموع فرتر ، فى نظر جوته الذى أخذ ينضج كأنها أمارات عقل غير متزن ، « انالرومانتيكية مرض ، والكلاسيكية صحة »[٧٠] . وقد كان فى تحمسه الجديد للآثار الرخامية والأعمدة والتيجان والقواصر الكلاسيكية والخطوط النقية للتماثيل اليونانية مسحة رومانتيكية . « إذا شئنا حقاً نموذجاً نحتذيه ، فعلينا دائماً أن نرجع إلى قدماء اليونان ، الذين يتمثل فى أعمالهم دائماً جمال الإنسان »[٧١] . وقد رأى جوته ، كلما رأى فنكلمان ، الجانب « الأبوللونى » للحضارة

والفن اليونانيين فقط — تمجيد الشكل والقصد ، وكاد الآن يتجاهل تلك النشوة « الديونيسية » التي لونت الخلق والدين والحياة اليونانية تلويناً دافئاً جداً ، والتي أعربت في جوته ذاته عن نفسها خلال « قرينه » وغرامياته .

في هذا الوجد الكلاسيكي أعاد كتابة « افجيني في تاوريس » شعراً (١٧٨٧) ، واعتزم أنه ينافس راسين ، لا بل يوربيديس نفسه . وإذ كان قلبه لا يزال محتفظاً بجمرات النار التي أضرمتها فيه شارلوته فون شتين ، فقد سكب في أحاديث الأميرة اليونانية شيئاً من رقة البارونة الألمانية وتمالكها نفسها . وروى القصة القديمة جداً ، بكل ما فيها من تعقيدات الميثولوجية والأنساب ، وزاد من حدة الدراما بتصويره الملك السكوذي تصويراً متعاطفاً ، وأقدم على تغيير الخاتمة لتتوافق مع الفكرة — النادرة بين اليونان — التي تزعم أن على الإنسان التزامات حتى للبرابرة (الهمج أوغير اليونان) . ولا يستطيع تقدير انجاز جوته حق قدره إلا الذين يقرءون الألمانية بطلاقة ، ومع ذلك قال ايبوليت تين ، وهو رجل فرنسي ، وناقد فذ ، خبير على على الأرجح بدرامات راسين : « انني لاأفضل أى عمل أدبي حديث على درامة جوته افجيني في تاوريس »[٧٢] .

وقد أحيت ذكريات شارلوته في هذه المسرحية ، ثم في « تاسو » أكثر منها ، اللتين أعاد كتابتهما في روما ، شعوره من نحوها . لقد أصابها بجرح عميق هروبه المفاجىء إلى إيطاليا وتركه ولدها في عهدة خادم ، فأعادت فرتز لفورها ، وطالبت جوته برد كل الرسائل التي كتبتها له . فكتب معتذراً من روما (٨ و١٣ و ٢٠ ديسمبر ١٧٨٦) ، وبعثت إليه (١٨ ديسمبر) بتذكرة فيها لوم « حلومر » فكان رده (٢٣ ديسمبر) « ليس في طاقتي أن أصف لك كيف يدمى قلبي أنك مريضة ، ومريضة بسبب غلطتي . فاصفحي عني . لقد صارعت أنا نفسي الموت والحياة ، وما من لسان يقوى على النطق بما كان يعتمل في داخلي . » وأخيراً لانت . فكتب لها أول فبراير ١٧٨٧ « الآن أستطيع أن أنصرف إلى عملي وأنا أسعد مزاجاً لأنني تسلمت منك رسالة تقولين فيها انك تحبين رسائلي وتبتهجين بها » .

فى ذلك الشهر ذهب هو وتيشباين إلى نابلى وإرتقى فيزوف مرتين ؛ وفى محاولته الثانية غطى ثوران صغير للبركان رأسه وكتفيه بالرماد . ووجد متعة عظمى فى الأطلال الكلاسيكية فى بومبى ، وبهت للجلال البسيط الذى رآه فى المعابد اليونانية ببايستوم . فلما عاد إلى روما ركب البحر إلى بلرمو ، ومضى ليدرس المعابد الكلاسيكية فى سجستة وجرجنتى (أجرجنتو) ، ووقف فى المعبد اليونانى بتاورمينا ، ثم قفل إلى روما فى شهر يونيو . فلما تعاظم افتتانه بـ « أروع مدينة فى العالم كله »[٧٣] . أقنع الدوق كارل أونجست بأن يواصل دفع راتبه حتى نهاية ١٧٨٧ . فلما ان نفدت المهلة راض نفسه ببطء على العودة إلى الشمال . فغادر روما فى ٢٥ أبريل ١٧٨٨ ، وسافر على مهل عبر فلورنسه وميلان وكومو حتى بلغ فايمار فى ١٨ يونيو . وكان كل يوم يتساءل كيف يستقبل الدوق ، والحاشية ، وشارلوته ، رجلا يحس أنه تبدل إنساناً آخر .

٥ — جوته فى الانتظار ١٧٨٨ — ١٧٩٤

كان الدوق قد عين رئيساً جديداً للمجلس بموافقة الشاعر الغائب ؛ والآن أعفى جوته بناء على طلبه من جميع واجباته الرسمية عدا منصب وزير التعليم ، ولم يخدم المجلس بعدها إلا بصفة استشارية . وكان الدوق لطيفاً معه ، ولكنه كان قد اتخذ اخصاء غيره ، ثم إنه لم تعجبه العواطف الشبيهة بالنزعات الجمهورية التى استشفها من « إجمونت » بعد أن أعاد الشاعر كتابتها . أما جمهور القراء فقد نسى جوته أو كاد ؛ وأقبل على شاعر جديد يدعى شيلر ، وصفق بحماسة لتمثيلية « اللصوص » الزاخرة بروح التمرد والعنف الذى اتسمت به الحركة « الزوبعية » ، والذى بدأ الآن سخيفاً فجا فى عين شاعر يتأهب للتبشير بالنظام والقصد الكلاسيكيين . وأما شارلوته فون شتين فقد استقبلته ببرود . وأنكرت طول غيابه ، وتمهله فى العودة ، وتحمسه المتصل لإيطاليا ، ولعلها سمعت بـ « موديلات » روما . كتبت تقرل إن لقاءهما الأول عقب وصوله كان « زائفاً كل الزيف فى طابعه ، ولم نتبادل شيئاً غير الملل »[٧٤] . ورحلت لتقيم فترة فى كوخبرج ، وصار جوته حراً فى التفكير فى كرستيانه فولبيوس .

وقد دخلت هذه الفتاة حياته فى ١٢ يوليو ١٧٨٨ إذ حملت إليه رسالة من أخيها . وكانت فى الثالثة والعشرين ، تعمل فى مصنع للأزهار الصناعية ، وراع جوته منها روحها النضرة ، وعقلها البسيط ، وأنوثتها المتفتحة . فدعاها إلى بيته ذى الحديقة لتعمل مديرة للبيت ، وما لبث أن جعلها خليلة له . ولم تنل حظاً من التعليم ، وقال « انها لاتستطيع فهم الشعر إطلاقاً[٧٥] ، ولكنها استسلمت له فى ثقة واطمئنان ، ومنحته تحقيق ذاته الجسدى الذى أنكرته عليه شارلوته فيما يبدو . وفى نوفمبر ١٧٨٩ ، حين أوشكت أن تصبح أما ، أخذها إلى بيته فى فايمار ، وجعلها زوجته علانية فى كل شيء إلا الإسم . وصدمت شارلوته والحاشية لتجاوزه الحدود الطبقية وعدم إخفائه العلاقة المحرمة . وقد أحزنه كثيراً هو وكرستيانه هذا الموقف ، ولكن الدوق المتمرس بالخليلات قام عرابا للطفل الذى ولد فى عيد الميلاد ١٧٨٩ ، وعمده فى أغسطس هردر الصارم ، الغفور رغم صرامته .

أما جوته ، الذى كثيراً ماكان عاشقاً ، ولكنه الآن فقط كان أباً ، فقد وجد الكثير من السعادة فى « الرجل الصغير » و « المرأة الصغيرة » . ودبرت له أمر بيته ، واستمعت إليه فى حب حتى وهى لاتفهمه ، ومنحته الصحة والعافية . قال لصديق منذ اجتازت هذه العتبة أول مرة لم ينلنى منها غير الفرح »[٧٦] . ولم ير فيها عيباً غير حبها للخمر حباً فاق حتى حبه ، وما أفضى إليه هذا أحياناً من المرح والقصف الذى لا يمكن السيطرة عليه . وكانت تختلف إلى المسرح ، وترتاد حفلات الرقص الكثيرة ، بينما يظل جوته فى البيت ويخلدذكرها فى «المراثى الرومانية» Romische Elegien (١٧٨٩ — ٩٠) ، التى كتبها على طريقة بربروتيوس وبأخلاقيات كاتوللوس . وليس فى هذه « المراثى الرومانية » شيء حزين ، إنما تشتق اسمها هذا من بحر المراثى « elegiac » الذى تتناوب فيه البحور السداسية والخماسية التفاعل ؛ وهى لاتتصل بروما بل بأرملة طروب — نستشف من ورائها كرستيانه نفسها :

« كل ما تحويه أسوارك المقدسة أى روما الخالدة
يشغى بالحياة ، ولكنه فى ناظرى ساكن ميت .

أواه ، منذا يوشوش فى أذنى ؟ متى أشهد فى النافـــذة
ذلك القد الجميل الذى يحيي وإن أحرق ؟
لا تندمى ياحبيبتى على أنك استسلمت هكذا سريعاً !
ثقى بى ، أراك غير جريئة ؛ إنما أشعر بالإجـــلال . .
ان الاسكندر وقيصر وهنرى وفردريك ، هؤلاءالجبابرة ،
يودون أن يخلعوا على نصف المجد الذى ظفروا به
لو أننى وهبتهم ليلة واحدة على الأريكة التى أرقدعليها ؛
ولكنهم وا أسفاه يقعدهم ليل أوركوس فى قسوة .
فاغتبط إذن ، أيها الحى ، ناعماً فى بيتك المنور بالحب
قبل أن تبلل موجة «ليذى» الحزينة قدمك الهاربة »(٧٧)

وربما كانت تلك الأرملة الجميلة ذكرى من أيام روما ، ولكن دفء هذه الأبيات مبعثه كرستيانه . على أية حال ألم يكن يدرس الفن ؟

على أنه مما يعيننى على الدرس أيضاً أن أرسم
بيد حساسة تلافيف صدرها الجميـــلة وأدع
الأنامل الحكيمة تنزلق هابطة على الفخذ النـــاعم ،
لأنى هكذا أتمكن من صنعة النحات القديم ، وأتأمل ،
وأقـــارن ، وأتعـــلم أن آتى وأبصـــــر
بعين شاعرة ، وأشعر بيد مبصرة(٧٨) .

ولم يرق نبيلات فايمار هذا العرض المرخص لمفاتنهن ، وحزنت شارلوته الوقور على انحدار بطلها « جالاهاد » لا بل ان كارل أوجست ذاته انزعج قليلا ، ولكن سرعان ما هدأت نفسه . وعندما كانت الدوقة الأرملة عائدة من إيطاليا أرسل الدوق جوته إلى البندقية ليصحبها إلى أرض الوطن . وطال مقامه هناك (مارس إلى يونيو ١٧٩٠) طولا ضايقه ، وتاق إلى كرستيانة ، وصب جام غيظه من الباعة الإيطاليين ووسائل النظافة الإيطالية فى « الابجرامات الفينيسية » — وهى ، أقل أعماله اغراء بالقراءة .

فلما عاد من البندقية وجد أن الثورة الفرنسية تبعث النشوة فى شباب ألمانيا ، والخوف فى حكامها . وكان الكثيرون من أصحابه ، وفيهم فيلاند

وهردر ، يصفقون للإطاحة بالاستبدادية الملكية فى فرنسا . أما جوته ، الذى أدرك أن كل العروش مهددة بالخطر ، فقد اتخذ موقفه إلى جوار الدوق ، وأشار عليه بالحيطة وقال إن أناساً كثيرون جداً « يجرون وفى أيديهم منفاخ بينما يلوح لى أن الأجدر بهم أن يبحثوا عن أباريق الماء البارد للسيطرة على النار »[٧٩]. وأطاع أمر كارل أوجست له بأن يصحبه فى حملة الحلف الأول ضد فرنسا . وحضر معركة فالمى (٢٠ سبتمبر ١٧٩٢) ، ووقف هادئاً تحت النيران ، وشارك فى الهزيمة . وقد سجل ضابط ألمانى فى يوميته أن الشاعر — عضو المجلس الخاص ، حين طلب إليه التعليق على الحدث أجاب « منذ اليوم ومن هذا الموضع يبدأ عصر جديد فى تاريخ العالم »[٨٠] . وليس لدينا ما يؤيد هذه القصة . ومهما يكن من أمر ، فإن جوته هاجم الثورة بقوة حين عاد إلى فايمار ، وكانت تدخل فترة شططها ووحشيتها (١٧٩٢ — ٩٤) .

ورسخت هذه التطورات فى جوته ذلك التحول الطبيعى ، تحول العقل الآخذ فى النضج ، من التلذذ بالحرية إلى حب للنظام . وشعر جوته انه إذا كان فى استطاعة أى أحمق أن يكون مبتكراً ، فإن فى استطاعة أى أحمق أن يحيا كما يشاء »[٨١] منتهكاً العادات أو القوانين فى اطمئنان لأن غيره يراعونها . ولم يشعر بتحمس للديمقراطية ، فلو أتيح لنظام كهذا أن يمارس فعلا لكان معناه تسلط الغفلة والجهل والخرافة والهمجية . لقد كان لطيفاً سمحاً فى نطاق دائرته ، ينفق بعض دخله على أعمال البر المستورة[٨٢] ، ولكنه كان ينكمش من الجماهير . فإذا وجد بين الجماهير أو الأغراب انطوى على نفسه فى كبرياء وأحجام ، وكان يجد سعادته الوحيدة فى بيته . فى سنى القلاقل هذه (١٧٩٠ — ٩٤) ران عليه سبات كئيب أيقظته منه لمسة شباب شيلر المتحمس ومنافسة قلمه .

٦ — شيلر فى الانتظار ١٧٨٧ — ١٧٩٤

كان جوته فى إيطاليا حين وصل شيلر إلى فايمار . واعترف الشاعر المعسر بغيرته من عضو المجلس الخاص الغائب . «بينما هو يرسم فى إيطاليا ، يبذل النكرات

من الناس العرق من أجله كأنهم دواب الحمل . أنه يبعثر هناك راتباً قدره ١,٨٠٠ طالر ، وهنا عليهم أن يضاعفوا كدهم ليحصلوا على نصف هذا المال »[٨٣] . وفى ١٢ أغسطس ١٧٨٧ كتب بروح أكثر تعاطفاً .

« يتكلم الكثيرون هنا عن جوته فى شىء من الحب ، بل انهم أكثر حباً له وإعجاباً به إنساناً أكثر منه مؤلفاً . ويقول هردر إنه أوتى حكماً شديد الوضوح وعمقاً كبيراً فى الوجدان ، وعواطف نقية جداً . وجوته فى رأى هردر مبرأ من كل روح للدس والوقعية ، وهو لم يؤذ أحداً قط . . . وهو فى معاملاته السياسية يتصرف بصراحة وجرأة . . . ويقول هردر أن جوته أحق بالإعجاب كرجل دنيا منه شاعراً . . . وأن له عقلا يتسع لأى شىء »[٨٤] .

وكان الدوق غائباً حين حضر شيلر ، ولكن أنا أماليا وشارلوته فون شتين استقبلتاه استقبالا حاراً . وأخبره فيلاند أنه « ينقصه الصقل والوضوح والذوق »[٨٥] ، وتطوع بأن يصقله ، وسرعان ما أخذ الشاعر المتحمس يكتب المقالات لمجلة فيلاند « الرائد الألمانى » . وقد وجد ترفيهاً آخر مع شارلوت فون كالب ، التى كان لها كشارلوته الأخرى زوج واسع الأفق « ان الناس أخذوا يهمسون فى صوت عال بعض الشىء حول علاقتى بشارلوته . . . وقد كتب لى الهر فون كالب . وسيحضر فى آخر سبتمبر ، وسيؤثر وصوله كثيراً فى ترتيباتى . وصداقته لى لم يطرأ عليها تغيير ، وهو أمر مدهش ، لأنه يحب زوجته ، ويعلم بصلتى الحميمة بها . . . ولكنه لا يمكن أن يشك لحظة واحدة فى وفائها . . . ومازال كما كان ، الرجل الأمين الطيب القلب »[٨٦] .

وفى ٢٧ أغسطس ١٧٨٧ عرضت « دون كارلوس » أول مرة فى همبورج . وكان بشيلر من الولع بفايمار ما منعه من الذهاب لحضور العرض . وقد استقبلت تمثيليته هـــذه وهى أولى تمثيلياته الشعرية ، بالمديح والذم كليهما لأنها استسلام لأسلوب المأساة الفرنسية ، ولكن يعوزها الوحدة المسرحية التى تتطلبها قواعد أرسطو . وقد استهلت بالصراع بين فليب الثانى وابنه على حب اليزابيث أميرة فالوا ، ثم انتقل مركز الاهتمام فى منتصف التمثيلية

إلى كفاح الأراضى الواطئة للتحرر من السيادة الإسبانية ومن قسوة ألفا . وحاول شيلر أن يرسم صورة محايدة لفليب ، وقد صفق القراء البروتستنت لهذا النداء الذى وجهه المركيز بوزا إلى الملك :

يـا صـاحب الجلالـة ،
لقد مررت مؤخراً بأرض فلاندر وبرابانت —
أقـاليم كثيرة غنيـة مـوفقـة ،
تـزخـر بشعب بـاسل عظيم أمـين !
قلت فى نفسى انه لشىء رائع حـقاً
أن يكون الإنسان أباً لشعب كهذا !
ثم تعثرت قدمى فوق كومة من عظام رجال محترقة !
فليتك تـرد لنا كل ما حرمتنـا منـه ،
وتدع السعادة تتدفق من نبـع خـيرك
لأنك قوى كريم النفس ؛ دع عقل الإنسان
ينضج فى ملكك الشاسع . . . ويصبح
ملكاً حقـاً بين مئـات الملوك ! . . .
دع كل فرد من رعيتك يصبح ماكانه يوماً ما—
الغاية والهدف لرعاية المليك واهتمامه ،
لا يربطه واجب غير محبة الأخ لأخيـه »(٨٧)

وهجر شيلر الدراما طويلا رغم نجاح دون كارلوس . وكان قد كتب إلى كورنر فى ١٧٨٦ يقول « ان التاريخ يدخر لى مع كل يوم تال مغريات جديدة . . . وددت لو لم أدرس شيئاً غيره طوال عشر سنوات متصلة ؛ أظننى كنت أصبح مخلوقاً من نوع آخر . أترى أنه مازال أمامى متسع من الوقت للتعويض عما فقدت؟ »(٨٨) ولم يكن فى استطاعته أن يعول نفسه ، فضلا عن أن يعول أسرة ، من حصيلة مسرحيات عارضة قد تذبل وتموت

موتاً مبكراً حتى بعد أن تحظى بعرض أول يصفق له النظارة . فلعل كتاباً ناجحاً فى التاريخ يكسبه من الشهرة العلمية ما يكفى للظفر بأستاذية فى جامعة يينا . هناك لن يبعد عن فايمار بأكثر من أربعة عشر ميلا ، وسيبقى فى نطاق سلطة الدوق وكرمه .

وعليه ، فبعد أن فرغ من « دون كارلوس » عكف على تأليف « تاريخ سقوط الأقاليم الواطئة المتحدة » . وإذ كان لا يقرأ الهولندية ، فقد اعتمد على مراجع ثانوية جمع من رواياتها تصنيفاً غير ذى قيمة باقية . وانتقد كورنر المجلد الأول (١٧٨٨) بأمانته المعهودة : « ان العمل الراهن ، مع كل مزاياه ، لا يحمل طابع تلك العبقرية التى أنت ميسر لها »[٨٩] . وتخلى شيلر عن الكتاب ، ولم يصدر مجلد ثان فى موضوعه .

وفى ١٨ يوليو ١٧٨٨ عاد جوته من إيطاليا ، وفى سبتمبر التقى بشيلر فى ضاحية رود ولشتات . وكتب شيلر إلى كورنر يقول : « ان الفكرة العظيمة التى كونتها عنه لم تنقص مثقال ذرة . . . ولكنى أشك فى أننا سنتقارب تقارباً وثيقاً يوماً ما . . . انه يسبقنى بمراحل . . . فلا يمكن أن نلتقى على الطريق . وقد سارت حياته كلها من بدايتها فى اتجاه معاكس لاتجاه حياتى . وعالمه ليس عالمى . وأفكارنا فى بعض النقاط متعارضة تعارضاً تاماً »[٩٠] . والحق أن الشاعرين كانا يبدوان وكأن العناية قصدت بهما أن يكره الواحد صاحبه . فجوته ، ذو التسعة والثلاثين ، قد وصل ونضج ، أما شيلر ، ذو التسعة والعشرين ، فكان يتسلق ويجرب ؛ ولم يتفقا إلا فى الأنانية المتعالية . كان أصغرهما من غمار الشعب ، رقيق الحال ، يكتب الشعر القريب من الثورية ؛ أما الآخر فكان غنياً ، رجلا ذا مكانة ومنصب مرموق ، عضواً فى المجلس الخاص يستنكر الثورة . وكان شيلر قد خرج لتوه من حركة « الزوبعية » ؛ كان صوت الوجدان والعاطفة والحرية والرومانس ؛ إما جوته ، الذى تولع باليونان ، فكان بكل ميوله مع العقل ، والقصد ، والنظام ، والأسلوب الكلاسيكى . على أية حال ليس من الطبيعى فى عالم المؤلفين أن يحب بعضهم بعضاً ، فهم إنما يسعون للظفر بذات الجائزه .

فلما أن عاد جوته وشيلر إلى فايمار لم يكن يفصل مسكنيهما غير مسيرة قصيرة ، ولكنهما لم يتصلا الواحد بالآخر . وساءت العلاقة بينهما بظهور نقد شيلر المناوىء لتمثيلية جوته « إجمونت» وقرر جوته أن أثينا الصغيرة » لا تتسع لكليهما . ففى ديسمبر ١٧٨٨ زكى شيلر لكرسى فى التاريخ بجامعة يينا . وقبل شيلر المنصب مسروراً وزار جوته ليشكره ، ولكنه كتب إلى كورنر فى ٢٩ فبراير ١٧٨٩ :

لو طالت عشرتى لجوته لشقيت بها . فهو لا يهش حتى لأصدق أصدقائه ، ولا شىء يربطه . وأنا أومن حقاً أنه أنانى من الدرجة الأولى . وقد أوتى موهبة تطويق أعناق الناس بمجاملات صغيرة وكبيرة ، ولكنه يفلح دائماً فى أن يظل هو نفسه حراً . . . وأنا أنظر إليه على أنه تجسيد لنظام مدروس جيداً من الأنانية التى لا حد لها . وينبغى ألا يطيق الناس مخلوقاً كهذا بقربهم . وأنا أبغضه لهذا السبب ، وإن لم أملك إلا الإعجاب بعقله ، والتفكير فيه بسمو . لقد بعث فى مزيجاً عجيباً من البغض والحب»[٩١] .

وفى ١١ مايو ١٧٨٩ تسلم شيلر عمله فى يينا ، وفى ٢٦ مايو ألقى « خطاب الافتتاح» وموضوعه « ما التاريخ العالمى وما الهدف من دراسته » ؟ وإذ كان الدخول مجاناً ، فقد تبين أن الحضور يفوق كثيراً ما تتسع له الحجرة المخصصة ، وانتقل الأستاذ مع جمهوره فى هرج ومرج إلى قاعة فى الطرف الآخر من المدينة . وقد لقيت هذه المحاضرة ثناء مستطابا ، « فقد غنى لى الطلبة سرينادا فى تلك الليلة وهتفوا لى ثلاثا [٩٢] . غير أن عدد من سجلوا أسماءهم لحضور المحاضرات كان صغيراً — وكان الحضور نظير رسم يدفعه الطالب ، ومن ثم كان دخل شيلر من التدريس ضئيلا .

فأضاف إليه بالكتابة . وفى ١٧٨٩ — ٩١ أصدر على ثلاث دفعات « تاريخ حرب الثلاثين » . هنا وجد اليسر على الأقل من حيث اللغة ، وإن منعته مضايقات شديدة مرة أخرى من الرجوع إلى المصادر الأصلية ، وشوه حبه لإصدار الأحكام والتفلسف القصة وقطعها . ومع ذلك فقد رحب فيلاند بالكتاب دليلا على « قدرة شيلر على أن يرتفع إلى مستوى هيوم وروبرتسن

وجبون »[٩٣] . وبيعت سبعة آلاف نسخة من المجلد الأول فى السنة الأولى لصدوره .

وشعر شيلر الآن أن فى استطاعته إشباع شوقه إلى بيت خاص به ، وإلى امرأة تمنحه حبها ورعايتها . وكان قد أتيح له لمحة خاطفة لشارلوته وكارولينه فون لنجفيلد فى مانهايم عام ١٧٨٤ . ثم رآهما ثانية فى رودولشتات فى ١٧٨٧ ، وكانت « لوته » تعيش هناك مع أمها ، أما كارولينه ، الشقية فى زواجها ، فكانت تسكن فى البيت المجاور . وكتب شيلر إلى كورنر يقول : [٩٤] « انهما لذيذتان رغم أنهما غير جميلتين ، وهما تسرانى غاية السرور . وهما مطلعتان على أدب العصر ، وتتوفر الأدلة على تمتعهما بتعليم راق جداً . وهما عازفتان ماهرتان على البيانو » . وأنكرت السيدة لنجفيلد فكرة زواج ابنتها من شاعر مملق ، ولكن كارل أوجست نفحه بمعاش صغير قدره مائتا طالر ، وأنعم عليه دوق ساكسى — ميننجن بشعار النبالة . وقد نبه لوته إلى أن فيه عيوباً كثيرة ، فقالت أنها لحظتها ، ولكنها أضافت « ان الحب حب الناس كما نجدهم ، وقبول مواطن ضعفهم إن وجدت بقلب محب » .[٩٥] وزفا فى ٢٢ فبراير ١٧٩٠ ، واتخذا منزلا متواضعاً فى يينا . وأتته لوته بدخلها البالغ مائتى طالر فى العام ، وأنجبت له أربعة أطفال ، وأثبتت خلال شدائده كلها أنها الزوجة الصابرة الحنون . كتب يقول « ان قلبى يسبح فى السعادة ، وعقلى يستمد قوة وعافية جديدتين »[٩٦] .

وعكف على عمله بهمة ، يعد محاضرتين كل أسبوع ، ويكتب المقالات ، والقصائد ، والتاريخ . وظل شهوراً يكد ويكدح أربع عشرة ساعة فى اليوم[٩٧] . وفى يناير ١٧٩١ أصيب بنوبتين من « الحمى النزلية » جلبتا معهما آلاماً فى المعدة وبصقاً للدم . وظل طريح الفراش ثمانية أيام ومعدته ترفض كل طعام . وأعان الطلبة لوته على العناية به و « تنافسوا أيهم يسهر معى . . . . وبعث إلى الدوق بست زجاجات من نبيذ ماديرا المعتق الذى أفادنى مع بعض النبيذ المجرى »[٩٨] . وفى شهر مايو أصابه « تشنج رهيب ، مصحوب بأعراض الاختناق ، فتراءى لى أن ساعتى قد دنت . . . وودعت

احباقى ، وظننتنى راحلا عن الدنيا فى أى لحظة . . . وخففت عنى كثيراً جرعات قوية من الأفيون والكافور والمسك واستعمال عوامل التبثر»(٩٩) .

وأزعج أصحابه شائعة كاذبة بموته ، وصلت حتى كوبنهاجن . وهناك — بناء على اقتراحين من كارل راينهولت وينز باجيزن — وهما نبيلان دانمركيان — عرض الدوق فردريش كوستيان أمير هولشتين — أوجستنبورج والاونت إرنست فون شيملمان على شيلر منحة سنوية قدرها ألف طالر على مدى ثلاث سنين . فقبلها شاكراً . وأعفته الجامعة من التدريس ولكنه ظل يحاضر فرقة خاصة صغيرة . ثم خصص بعض فراغه الجديد ، بناء على اقتراح من راينهولت ، لدراسة فلسفة كانط التى قبلها كاملة تقريباً ، وهو ما أضحك جوته وأثار اشمئزاز هردر ، وربما ألحق بعض الأذى بشعر شيلر .

ونشر الآن (١٧٩٣) مقاله الطويل « فى الكياسة والكرامة » الذى استهل التربية الرومانسية « للروح الجميلة » . وقد عرف هذه الروح الجميلة بأنها تلك التى « ينسجم فيها العقل والحواس ، والواجب والميل ، وتجد هذه كلها التعبير الخارجى فى الكياسة »(١٠٠) . ولا بد أن المتبرعين الكوبنهاجيين قد هالهم أن يتلقوا ، كبعض الرد على منحتهم ، كتيباً عنوانه « رسائل فى التربية الجمالية (الاستطيقية) للإنسان » (١٧٩٣ — ٩٤) . وقد بدأ شيلر بفكرة كانط عن الإحساس بالجمال كتأمل نزيه للصور المتناسقة ، ثم زعم (مع شافتسبرى) أن « الشعور الذى ينميه الجميل يهذب السلوك » ويصبح الحس الجمالى هو والفضيلة واحداً . وأنه لعزاء أن نقرأ ، فى هذا الرأى المنبعث من أيام فايمار المزدهرة ان شيلر (كجوته) رأى أن جيله منحل ، غارق فى انحطاط خلقى سحيق »(١٠١) .

فلما عاد من الفلسفة إلى الشعر وجد عناء فى استحضار « تلك الجرأة والنار المضطرمة التى كنت أملكها من قبل ، .. لقد أفسدنى الجدل النقدى»(١٠٢) . ولكنه أصر على أن « الشاعر هو الإنسان الأصيل الوحيد ، وليس أفضل الفلاسفة إلا كاريكاتورا إذا قيس به »(١٠٣) ، ورفع

وظيفة الشاعر فى تعليم البشر والتسامى بهم إلى مستوى الإلهام السماوى . وقد وصف فى قصيدة غنائية طويلة « الفنانون ١٧٨٩ » الشعراء والفنانين بأنهم يرشدون النوع الإنسانى إلى وحدة الجمال مع الفضيلة والحق . وفى قصيدة أخرى «آلهة اليونان» (١٧٨٨) امتدح اليونان على حساسيتهم الجمالية وإبداعاتهم الفنية ، وزعم ، فى إبهام حذر ، إن العالم بات كئيباً قبيحاً منذ حلت المسيحية محل الهيلينية . وكان واقعاً الآن تحت سحر جوته كما وقع جوته من قبل تحت سحر فنكلمان .

ولعل تصوير شيلر وجوته الرومانسى لليونان القديمة كان هروباً من المسيحية . فشيلر ينتمى إلى التنوير رغم بعض الفقرات الورعة ، شأنه فى ذلك شأن جوته ؛ وقد قبل إيمان القرن الثامن عشر بالخلاص عن طريق العقل البشرى لا النعمة الإلهية . واحتفظ باعتقاد ربوبى فى الله — شخصى فى الشعر فقط — وخلود غامض . ورفض الكنائس كلها البروتستنتية منها والكاثوليكية . ولم يكن يطيق المواعظ حتى مواعظ هردر . وقد كتب بيتين شهيرين فى ابجرام عنوانه (عقيدتى) يقول فيهما :

أى دين أعترف به ؟ ولاواحد من كل
الأديان التى تذكرها لى . ولم ؟ بسبب الدين (١٠٤) .

وكتب إلى جوته فى ٩ يوليو ١٧٩٦ يقول « ان الطبيعة السليمة الجميلة — كما تقول أنت نفسك — ليست فى حاجة إلى ناموس أخلاقى ، إلا إلى قانون لطبيعتها ، ولا إلى ميتافيزيقا سياسية . وكان فى وسعك أن تضيف أيضاً أنها ليست فى حاجة إلى إله ، ولا فكرة خلود تدعم وتصون بها ذاتها» . ومع ذلك كان فيه عوامل من الخيال والرقة ردته صوب المسيحية :

« انى أجد أن المسيحية تحتوى فعلا على الأصول الأولى لكل ما هو أسمى وأنبل ؛ وصورها الخارجية المختلفة لا تبدو لنا بغيضة منفرة إلا لأنها تعبيرات سيئة عن الأسمى . . ولم يشدد أحد تشديداً كافياً على ما يمكن أن يكونه هذا الدين لعقل جميل أو على الأصح ما يمكن أن يفهمه منه

عقل جميل . وهذا يفسر نجاح هذا الدين نجاحاً كبيراً مع الطبائع الأنثوية ، وأنه فى النساء فقط يمكن احتماله إطلاقاً »[١٠٥] .

لم يكن شيلر كجوته مركباً من حيث بدنه للوثنية الخالصة . كان وجهه مليحاً ولكنه شاحب ، وقوامه فارعاً ولكنه نحيل هش . وكان يخشى تقلبات الجو اليومية ويؤثر القعود فى حجرته يدخن ويتنشق . وكان يقابل بينه وبين جوته مقابلة الفكرة ضد الطبيعة ، والخيال ضد العقل ، والعاطفة ضد الفكر الموضوعى[١٠٦] . وكان يجمع بين الحياء والكبرياء ، يخشى الخصومة ولكنه يرد دائماً على الهجوم ؛ سريع الغضب فاقد الصبر أحياناً ، [١٠٧] ربما لأنه كان عليماً بأن عمره ينفد ؛ يكثر النقد للغير ويحسدهم أحياناً[١٠٨]. وكان يميل إلى استخراج العبرة عن كل شيء ، وإلى الضرب على وتر مثالى عال . ومما يريح نفوسنا أن نراه يستمتع بغراميات قصة ديدرو «الحلى الواشية » [١٠٩] . وقد أجاد تحليل موهبته فى خطاب مبكر إلى جوته :

« لقد غلبنى عقل الشاعر عموماً حين كان ينبغى أن أفلسف . وغلبنى عقل الفيلسوف حين كنت أريد الشعر . وحتى الآن كثيراً ما يحدث أن يقتحم الخيال تجريداتى ، والفكر الهادىء نتاجى الشعرى . ولو استطعت السيطرة على هاتين القوتين بحيث أعين لكل منهما حدودها (كما كان جوته يفعل) لبقى لدى أمل فى التطلع إلى مصير سعيد . ولكن حين بدأت أعرف طاقاتى المعنوية واستخدمها على الوجه الصحيح ، هاجمنى المرض للأسف وهددنى بتقويض قواى البدنية »[١١٠] .

وعاوده المرض بعنف فى ديسمبر ١٧٩٣ ؛ ثم تماثل للشفاء ، ولكن إحساسه بأنه لاشفاء له منه وأنه يجب أن يتوقع نوبات راجعة أورثه الكآبة . فى ١٠ ديسمبر كتب إلى كورنر يقول « إننى أكافح هذا الشعور بكل قوى عقلى . . . ولكنى أصد دائماً . . . فإن غموض مستقبلى ؛ . . . والشكوك فى عبقريتى التى لايدعمها ولا يشجعها الاتصال بغيرى ، والافتقار التام لذلك الحديث العقلى الذى أصبح ضرورة لا غنى لى عنها » ؛ تلك كانت الأفكار الملازمة لمحنته الجسدية . وراح يتطلع فى تشوق ، من يينا لفيمار ،

إلى جوته الذى ينعم بعافية يحسد عليها ، ذلك « العقل السليم فى الجسم السليم » وأحس شيلر انه هناك يوجد الرجل الذى يستطيع أن يعطيه الحافز والدعم ، لو أن الجليد القائم بينهما ذاب ، وسقط حاجز الأميال الأربعة عشر الذى يفصل بينهما !

٧ — شيلر وجوته ١٧٩٤ — ١٨٠٥

وسقط الحاجز لحظة حين حضر الرجلان فى يونيو ١٧٩٤ جلسة عقدتها جمعية التاريخ الطبيعى فى يينا . فلما التقى شيلر بجوته وهما يغادران القاعة ، قال معلقاً أن العينات البيولوجية المعروضة فى المؤتمر تعوزها الحياة ، ولا ولا يمكنها أن تعين مشاهدها حقاً على فهم الطبيعة . ووافق جوته مشدداً ، وتجاذبا الحديث حتى بلغا بيت شيلر . وقال جوته فيما بعد مستعيداً ذكرى اللقاء « وأغرانى الحديث بالدخول معه وشرحت له . . . « تحور النباتات» — وهى مقالة زعم فيها جوته أن جميع النباتات تنويعات من نمط أولى واحد . وأن كل أجزاء النبات تقريباً تنويعات أو تطويران للورقة . « واستمع . . . إلى هذا كله بكثير من الاهتمام وبفهم واضح ، ولكن ما إن فرغت حتى هز رأسه وقال لى « ليست هذه تجربة ، إنما هى فكرة » ، أى أنها نظرية لم تثبتها الملاحظة أو الاختبار . وغاظ التعليق جوته ، ولكنه رأى أن لشيلر عقلا مستقلا ، فازداد احترامه له . أما زوجة شيلر « التى أحببتها وقدرتها منذ طفولتها ، فقد بذلت قصاراها لتوثق تفاهمنا المتبادل »[١١١] .

وفى مايو ١٧٩٤ كان شيلر قد وقع عقداً بالإشراف على تحرير مجلة أدبية شهرية «تسمى داى هورين والهوراى » فى المتيولوجيا الإغريقية ربات الفصول . وكان يأمل أن يجند للمجلة كانط ، وفشته ، وكلوبشتوك ، وهردر ، وياكوبى ، وياجيزين ، وكورنر ، ورايهولت ، وفلهلم فون همبولت ، وأوجست فلهلم فون شليجل ، ثم جوته — أفضل صيد يطمع فى اقتناصه . وفى ٣ يونيو أرسل إلى فايمار رسالة موجهة إلى « السيد الكريم المحتد ، الرفيع المقام ، المكرم ، عضو المجلس الخاص » ، تحتوى على نشرة تمهيدية للمجلة المقترحة ، وأضاف : « أن الورقة المرافقة تعرب عن

رغبة عدد من الرجال الذين يقدرونك تقديراً بغير حدود فى أن تشرف الدورية بمقالات من قلمك ، بجمع الكل بصوت واحد على عظم قيمتها . ونحن نشعر ياصاحب السعادة بأن موافقتك على دغم هذا المشروع ستكون ضماناً لنجاحه »(١١٢) . ورد جوته بأنه يسره المشاركة بمقالاته . وأنه « على ثقة من أن الاتصال الأوثق بالرجال الأصلاء الذين يؤلفون لجنتكم سيبعث حياة جديدة فى كثير مما هو راكد الآن فى باطنى(١١٣) .

وهكذا بدأ تراسل يعد من ذخائر تاريخ الأدب ، وصداقة اتصلت إحدى عشرة سنة — حتى موت شيلر — فيها من تبادل الاحترام والعون ما ينبغى أن يدخل فى تقديرنا للنوع الإنسانى . وربما كان أكثر هذه الرسائل الباقية كشفاً — وعددها ٩٩٩ — هى الرسالة الرابعة (٢٣ أغسطس ١٧٩٤) ، التى حلل فيها شيلر — بعد عدة لقاءات مع جوته جمعت بين المجاملة والصراحة وبين التواضع والاعتزاز بالنفس ، الفارق بين عقليهما . قال :

« إن أحاديثى الأخيرة معك حركت كل ذخيرة أملكها من الأفكار . . . فكثير من الأشياء التى لم أستطع أن أصل فيها إلى تفاهم خاص مع نفسى تلقت ضوءاً جديداً غير متوقع من تأملى لعقلك (فهكذا أسمى التأثير العام لأفكارك على) . . لقد أعوزنى التجسيد لعدد من أفكارى التأملية ، وأنت وضعتنى على الطريق المفضى إليه . وأسلوبك الهادىء الواضح فى النظر إلى الأشياء يعصمك من التيه فى الطرق الجانبية التى كثيراً ما يشرد بى فيها تأملى وخيالى المستبد . ان حدسك الصائب يدرك كل الأشياء ، ويدركها على نحو أكمل كثيراً مما ينشده المرء فى عناء بالتحليل . . . وعقول كعقلك قل أن تعرف إلى أى حد بعيد نفذت وتغلغلت ، وأنه ما من داع يذكر يدعوها للاستعارة من الفلسفة ، التى لا تستطيع فى الواقع إلا أن تتعلم منها . . . ومع أنى فعلت هذا على بعد ، إلا انى طالما راقبت المسار الذى سلك فيه عقلك . . أنت تبحث عن الضرورى فى الطبيعة ، ولكنك . . . تنظر إلى الطبيعة بوصفها كلا حين تحاول جعل الضوء يلقى على أجزائها الفردية ، أنت تبحث عن تفسير الفرد فى جماع مظاهرها المتنوعة(١١٤) .

أما رد جوته (٢٧ أغسطس) فقد تجنب فى ذكاء تحليل عقل شيلر :

« ماكنت لأتلقى بمناسبة عيد ميلادى الذى وقع هذا الأسبوع هدية أجمل من رسالتك التى تلخص فيها حياتى بيد ودود ، وتشجعنى فيها بتعاطفك على استخدام قدراتى استخداماً أكثر مثابرة ونشاطاً . وسيكون من دواعى سرورى أن أكشف لك حين تتاح لى الفرصة ماكانه حديثك لى ، وكيف أننى أنا أيضاً أعد تلك الأيام مرحلة متميزة فى حياتى ، لأنه يبدو لى اننا لانملك بعد هذا اللقاء غير المتوقع إلا أن نطوف فى دروب الحياة معاً » .

وتابع جوته هذه الرسالة (٤ سبتمبر) بدعوة لشيلر ليحضر إلى فايمار وينفق معه أياماً فيها . « سيكون فى استطاعتك أن تشرع فى أى عمل تشاء دون أن يزعجك أحد . وسنتجاذب الحديث معاً فى أوقات ملائمة . وفى ظنى اننا لن نفترق دون أن تحقق بعض الكسب . وعليك أن تعيش هنا تماماً كما تحب ، وكما لوكنت فى بيتك ما أمكن ذلك » . ولم يتردد شيلر فى القبول ، ولكنه حذر جوته قائلا « ان تشنجات الربو التى أعانى منها تلزمنى الفراش طوال الصباح لأنها لاتسمح لى بأى راحة فى الليل » . وهكذا كان شيلر ضيف جوته وعليله تقريباً من ١٤ إلى ٢٨ سبتمبر . وأعتنى أكبر الرجلين بالشاعر العليل عناية رفيقه ، وحماه من المضايقة ، وبذل له النصح فى أمر غذائه ، وعلمه حب الهواء الطلق . كتب شيلر (٢٩ سبتمبر) بعد عودته إلى يينا يقول « أجدنى فى بيتى مرة أخرى ، ولكن أفكارى لاتزال فى فايمار . ولا بد لى من وقت طويل أحل فيه خيوط كل الأفكار التى أيقظتها فى » . ثم (٨ أكتوبر) ، ناشد ه بما عهد فيه من تحمس « يبدو لى انه من الضرورى أن نصل فوراً إلى قدر من التفاهم الواضح حول أفكارنا عن الجميل » .

ثم تلا ذلك شهور ثلاثة من التحضير للعدد الأول من مجلة « هورين » الذى صدر فى ٢٤ يناير ١٧٩٢ ، والثانى فى أول مارس . والأعداد الباقية شهرياً على مدى ثلاث سنين ؛ وكتب جوته من فايمار (١٨ مارس) يقول « إن الناس يتهافتون عليها ، ويتخاطفون أعدادها ، ولما كنا لنطمع فى أكثر

من ذلك لهذه البداية » . وفى ١٠ أبريل كتب شيلر لجوته يقول « لقد كتب لى كانط خطاباً ودياً جداً ، ولكنه طلب مهلة لإرسال مقالاته . . . ويسرنى أننا أغرينا الطائر العجوز بالانضمام إلينا . » وطلب جوته أن تنشر مقالاته غفلا من التوقيع ، لأنها اشتملت على عدد من « مراثيه الرومانية » ، وكان عليماً بأن نزعتها الشيقة القوية ستبدو غير لائقة بعضو فى المجلس الخاص .

وفى حماسة النجاح المتهورة أقنع شيلر جوته بأن يشترك معه فى إصدار دورية أخرى « التقويم السنوى للشعر » صدرت كل سنة من ١٧٩٦ إلى ١٨٠٠ . وأطرف ما احتوته هو الأبجرامات المسماة xenien والتى صاغها الشاعران على غرار ابجرامات مارتيال Xenia (اكسنيا) التى كانت تكتب هدايا للضيوف . وقد وصف شيلر المشروع لكرونر فقال : « ان العملية كلها تجميع لأبجرامات ، كل منها مقطع شعرى من بيتين . وهى فى أكثرها هجائيات عنيفة شيطانية ، موجهة بصفة خاصة ضد المؤلفين وأعمالهم ، يتخللها هنا وهناك ومضات خاطفة من الأفكار الشعرية أو الفلسفية . فسيكون هناك عدد لا يقل عن ستمائة من هذه المقطوعات »[١١٥]. وكان جوته قد اقترح هذه الفكرة ذريعة لرد اللطمات إلى نقادهما ، وللسخرية من المؤلفين المغرورين وأصحاب الميول البورجوازية ، ولتنبيه جمهرة القراء الألمان إلى الاهتمام بالأدب اهتماماً أشد . وعزماً على أن يطلقا هذه « الهدايا » على معسكر الرجعيين « كالثعالب المشتعلة الذيول» . [١١٦] وكانت الأبجرامات بلا توقيع ، وكان بعضها نتاجاً مشتركاً للمتآمرين كليهما . وإذ كان الكثير من هذه الذيول المشتعلة موجهاً ضد مؤلفين طواهم النسيان أو جدليات لا يذكرها الناس الآن ، فإن الزمن أطفأ نارها ؛ ولكن واحداً منها بقلم جوته يستحق منا التنويه الخاص :

« جاهد دائماً فى سبيل الكل ، وإذا لم تستطع أنت نفسك أن تصبح كلا ، فاربط نفسك إلى كل ما يوصفك جزءاً تابعاً » .

وهناك إبجرام آخر يعزى عادة إلى شيلر يفصل الفكرة :

« أتخاف الموت؟ أتريد الحياة دون أن تموت؟ إذن عش فى الكل !

فسوف يبقى بعد أن تموت بزمن طويل . » وقد جر عليهما الجزء الهجائى من الابجرامات هجمات مضادة آلمت شيلر واضحكت جوته . ونصح جوته شيلر بأن يجعل من عمله الرد الوحيد على هذا الهجوم . « بعد مغامرتنا المجنونة فى الابجرامات ، علينا أن نحرص على العكوف على أعمال الفن العظيمة الجليلة دون غيرها ، وأن نخزى جميع خصومنا بتحويل طبائعنا المتقلبة إلى صور نبيلة »(١١٧) .

وهكذا كان ، فى سنى صداقتهما النامية تلك كتب جوته وشيلر بعضاً من اروع قصائدهما : فكتب جوته « عروس كورنت » و « الأله والبايدير» ؛ وكتب شيلر « المسيرة » (١٧٩٥) و «كراكى أبيكوس » (١٧٩٧) و « أنشودة الناقوس » (١٨٠٠) . وأضاف شيلر مقالا كبيراً فى « الشعر الساذج العاطفى » (١٧٩٥) — وطلع جوته على الناس بقصته « تلمذة فلهلم ما يستر» (١٧٩٦) .

وقد عنى شيلر بالشعر الساذج العاطفى ، ذلك الشعر المنبعث عن الإدراك الحسى الموضوعى مقابل الشعر الذى ينشئه الوجدان التأملى ؛ وكان فى طويته يقارن بين جوته وشيلر . أما الشاعر «الساذج» فليس بسيطاً ولاسطحياً ولا مخدوعاً ، إنما هو شاعر توافق فى يسر مع العالم الخارجى بحيث لايشعر بأى تعارض بينه وبين الطبيعة ، بل يجد طريقه إلى الواقع بالحدس المباشر غير المتردد : ويستشهد شيلر بهومر وشكسبير مثالين على فكرته . وكلما أصبحت المدنية أكثر تعقيداً وافتعالا فقد الشعر هذه المباشرة الموضوعية والانسجام الذاتى ؛ ودخل الصراع النفس ، وكان على الشاعر أن يقتنص من جديد بالخيال والوجدان هذا التوافق والاتحاد بين النفس والعالم — كمثل أعلى يتذكره أو يتطلع إلى تحقيقه ؛ ويغدو الشعر عندئذ تأملياً ، يلبد الفكر سماءه(١١٨) . وكان شيلر يعتقد أن معظم الشعر اليونانى من النوع الساذج أو المباشر . ومعظم الشعر الحديث حصيلة التنافر والتفكك والشك . والشاعر المثالى هو الذى يصهر المدخلين جميعاً — البسيط والتأملى — فى رؤية واحدة وصورة شعرية واحدة . وقد ذكر جوته فيما بعد أن هذا المقال أصبح مصدراً للجدل بين الأدب والفن الكلاسيكيين والرومانتيكيين .

ونمو فكرة « تلمذة فلهلم ما يستر » من بدايتها إلى تمام تنفيذها يوضح منهج جوته فى الخلق . فقد تصور القصة فى ١٧٧٧ ، وأتم الكتاب الأول فى ١٧٧٨ ، ثم نحاه جانباً ، ولم يكمل الكتاب الثانى حتى يوليو ١٧٨٢ . ثم عكف على الكتاب الثالث حتى نوفمبر من ذلك العام ، وعلى الرابع حتى نوفمبر ١٧٨٣ ؛ أما الكتابان الخامس والسادس فقد امتد بهما الزمن ثلاث سنين خرى . وقد أطلق على الكتب الستة « انطلاق فلهلم ما يستر المثير » وقرأ أجزاء منها على بعض أصحابه ، ثم طرحها جانباً . وعاد إلى القصة فى ١٧٩١ بإلحاح من هردر وآنا آماليا ، وأضاف إليها كتابين فى ١٧٩٤ ، ثم عرض المخطوط المتعاظم على شيلر ، الذى رد بانتقادات واقتراحات وتشجيع كلما وافاه المؤلف بصفحات جديدة . وكأنها صورة لقابلة تعين الأم على ولادة فات أوانها . وأخيراً ، فى ١٧٩٦ ، دفع جوته بالمؤلف كله إلى المطبعة . لا عجب إذن أن كانت الحصيلة النهائية مشوهة تشويهاً طفيفاً ، ضعيفة البناء ، « دهنية » القوام ، مهوشه ، ممتازة فى أجزاء فقط ، وفى عكسها لتردد جوته بين الاهتمامات المتضاربة ، والمثل العليا الغامضة . لقد كان الحسم والثقة بالنفس ، اللذان نعته بهما شيلر ، هما الستار المتكبر للتذبذب والصراع الداخليين .

وقد عبر الكتاب عن فترة التلمذة فى النقابات الحرفية الألمانية ، وخلال زمن الوصاية هذا أصبح فلهلم « معلماً » فموضوع القصة المطوف إذن هو هو تلمذة فلهلم البطيئة الأليمة فى نقابة الحياة . وبسبب مسارح العرائس التى أحبها جوته طفلا ، واهتمامه المتصل بالمسرح ، ربط القصة بفرقة من الممثلين تجتاز مدناً كثيرة وتتقلب عليها عشرات الغير دروساً فى الحياة وصوراً لأساليب العيش الألمانية . وإذ كان وفياً لعدم وفائه فقد أدخل بطله إلى مسرح الأحداث بهجراته خليلته ماريانه . وفلهلم ليس بالشخصية الفتانه . فهو يترك نفسه تساق من موقف لآخر أو من فكرة لأخرى على هوى الظروف أو بقوة الشخصية المفروضة عليه ، والمرأة هى التى تقوم بالمبادرة فى غرامياته . ولد بورجوازياً ، ومن ثم فهو يتعثر إعجاباً بالرجال النبلا

المولد ، ويأمل فى تواضع أنهم فى يوم ما سيعترفون بارستقراطية العقل . أما فيلينه فأكثر جاذبية منه : فهى ممثلة جميلة تثب بخفة من عشق إلى عشق ، ولكنها تجمل تطويفها الغرامى بمرح معد وعدم وعى بالإثم يحلها من خطيئتها . أما مينون الصغيرة ففريدة فى بابها ، تتبع أباها الشيخ فى إحساس بالواجب وهو يعزف عزفاً غير بارع على قيثارته فى جولات يجمع فيها الدراهم . ويقول جوته فى وصفها أنها تتكلم « المانية ركيكة جداً »[119] . ولكنه يجرى على لسانها تلك الأغنية الرائعة « أتعرف ذلك البلد » . وهى تقع فى غرام المراهقة بفلهلم الذى يحبها حبه لطفلة ، وتموت هى حزناً حين تراه بين ذراعى تريزا . وقد التقطها امبرواز توما من بين هذه الصفحات الثمانمائة ليجعل منها أوبرا حزينة ممتعة (١٨٦٦) .

وامتدح شيلر رصانة أسلوب القصة وصفاءه ، وما فى وصف الفرقة التمثيلية الجوالة من صدق ومطابقة للحياة ، ولكنه أشار إلى تناقضات فى الترتيب الزمنى ، وشبه استحالات سيكولوجية ، وانتهاكات للذوق ، وأخطاء فى التصوير والتصميم »[120] . واقترح تغييرات فى الحبكة ، وأولى بأفكاره عن النحو الذى ينبغى أن تختم عليه القصة[121] . وقال له جوته مؤكداً ، « اننى بالتأكيد سامتثل لرغباتك المنصفة مااستطعت[122] . ولكنه اعترف لأكرمان ، بعد ثلاثة وثلاثين عاماً ، بأنه بذل قصاراه ليحمى قصته من تأثير شيلر[123] . وكان نقاد آخرون أقل تعاطفاً ؛ فوصف أحدهم الكتاب بأنه ماخور متجول ، وشكت شارلوته فون شتين قائلة « حين يتناول جوته العواطف السامية يقذفها دائماً ببعض الأقذار ، وكأنما يريد بذلك أن ينكر على الطبيعة البشرية أى طموح إلى القداسة »[124] . على أن القصة لم تستحق هذه الانتقادات العشوائية ، ففيها الكثير من الصفحات السارة ، ومازال فى استطاعتها أن تثير شوق القراء الذين تحرروا من ضجيج العالم وصخبه .

وفى ٢٣ مارس ١٧٩٦ ذهب شيلر إلى فايمار مرة أخرى ضيفا على جوته . هناك عملا معاً فى خدمة المسرح . وكان جوته مديراً صارماً ، يختار التمثيليات المراد عرضها ، ويدرب الممثلين . « فاستبعد كل ماكان كئيباً

أو ضعيفاً أو باكياً أو هش العاطفة ، كما استبعد تماماً كل ماكان مخيفاً أو مرعباً أو نابياً »[١٢٥] . أما الجمهور فاقتصر عادة على البلاط ، إلا حين يدعى بعض الطلاب من يينا . وقد عاق أوحست فون شليجل على هذا الوضع تعليقاً لاذعاً « أن لألمانيا مسرحين قوميين — فيينا بجمهور من خمسين ألف مشاهد ، وفيمار من خمسين »[١٢٦] .

وعاد شيلر إلى يينا في ١٢ أبريل ، وقد حفزه اتصاله المجدد بالمسرح لينصرف عن التاريخ والفلسفة والشعر العارض إلى الدراما . ولقد طالما فكر من قبل في تأليف مسرحية عن فالنشتين ، فحثه جوته على الشروع فيها . وفي نوفمبر ذهب جوته إلى يينا ، وعاش حيناً في اتصال يومي بشيلر . فلما عاد جوته إلى فيمار كتب إليه يقول « لايفتك أن تستغل أفضل أوقاتك ، حتى تمضي قدماً بمأساتك ، ليتسنى لنا أن نشرع في مناقشتها »[١٢٧] .

وبينما كان شيلر عاكفاً على تأليف « فالنشتين » ، شحذ روح المنافسة في جوته نجاح « لويزه » (١٧٩٥) التي ألفها يوهان هينريش فوس قصة ريفية شعرية تمثل الحياة والعواطف الألمانية — فجرب هذا اللون المحبب ، ونشر في ١٧٩٨ — « هيرمان ودوروتيا » . أما هيرمان فهو الإبن القوي السليم ، الخجول الهادىء ، لأب صفراوي المزاج وأم حنون يديران « الخان الذهبي » ومزرعة واسعة في قرية قريبة من الراين . ويصل إلى علمهم أن مئات من اللاجئين قادمون من بلدة على التخوم استولى عليها الفرنسيون ، فتجهز الأسرة رزما من الثياب والطعام ، يحملها هيرمان إلى اللاجئين . ويجد بينهم صبية لها « نهدان بارزان » و « كاحلان رائعان »[١٢٨] تقدم للاجئين العون وأسباب الراحة . فيهيم بها ، وبعد شدائد لابد منها ، يصطحبها إلى بيته ويقدمها إلى أبويه بوصفها عروسه . ويروي الشاعر القصة في أبيات متدفقة من البحر السداسي التفاعيل ، وصور الحياة الريفية الموجزة تضفي رواء على القصة ، وقد ابهجت النداءات لطرد الغزاة الفرنسيين الألمان المتحمسين لوطنهم والذين وجدوا مسرحيتي جوته « إفجيني » و « تاسو » غريبتين عويصتين . واكتسبت الملحمة الصغيرة شعبية جديدة لمؤلف لم يظفر منذ « فرتر » إلا بقلة من القراء خارج دوقية ساكسي فايمار .

أما شيلر فكان نجمه فى صعود من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٠ . ففى ٢٨ نوفمبر ١٧٩٦ كتب إلى كورنر يقول « مازلت أطيل الفكر جاداً فى « فالنشتين » ، ولكن العمل التعس مازال أمامى بلا شكل ولا نهاية . « وقد بدأ المسرحية نثراً ، ثم نحاها ، ثم استأنفها شعراً . وكان على إلمام بالمادة من الدراسات التى قام بها ليؤلف كتابه « تاريخ حرب الثلاثين » ، ولكنها بلغت من الوفرة والتعقيد فى الشخوص والأحداث مبلغاً أكرهه على الإقلاع عن محاولة ضغطها فى خمسة فصول . وقرر أن يقدم للدراما بتمهيد (برولوج) من فصل واحد سماه « معسكر فالنشتين » ، وأن يقسم الباقى إلى تمثيليتين . وشرحت الأولى مؤامرة خلع القائد المتمرد ، ووازنتها بغرام ملتهب بين ابنة فالنشتين وابن زعيم فى المؤامرة . وإما الدراما النهائية والأساسية فستكون « موت فالنشتين » .

فلما قرأ جوته التمهيد « راعه التصوير الواقعى لمعسكر الجيش ، والإعداد البارع للتطورات اللاحقة ، فأصر على عرض « معسكر فالنشتين » على مسرح فايمار (١٢ أكتوبر ١٧٩٨) قبل أن يكتمل القسم الأول ؛ وربما كانت هذه الطريقة ذكية لإلزام الشاعر بالعكوف على مهمته . وفى مطالع ١٧٩٩ ذهب شيلر إلى فايمار لإخراج التمثيلية الأولى ، فعرضت أول مرة فى ٣٠ يناير ولقيت قبولا حسناً . وعاد إلى يينا وراح يعكف بشكل محموم على « موت فالنشتين » . ويكشف خطاب فى ١٩ مارس ١٧٩٦ عن الحالة النفسية لكاتب خرج لتوه من أتون الخلق « لقد طالما روعتنى اللحظة التى سأفرغ فيها من عملى ، مع شدة رغبتى فى مجىء تلك اللحظة ؛ والواقع أننى أشعر بأن حريتى الراهنة أسوأ من حالة العبودية التى كنت أعانيها إلى الآن . فقد ذهب الآن الجمهور الذى اجتذبنى حتى الآن وألزمنى هذا هذا الواجب ، وأنا أحس كأننى معلق فى الهواء إلى مالا نهاية » .

وجاء ما يكفى من الإثارة مع التدريبات والعرض الأول (٢٠ أبريل ١٧٩٩) لموت فالنشتين . وكان نجاحها كاملا . وحتى جمهور فايمار النقاد أحس أنه شهد رائعة من روائع العرض الدرامى . ووصل شيلر الآن

إلى قمة تطوره . لقد قصر الخطب وكثف الحركة ، ورسم كل الشخوص الهامة بحيوية وقوة ، وجمع كل خيوط الحبكة معاً فى الخاتمة الفاجعة — وهى ذلك الموت المخزى لرجل عظيم دمره الطمع والكبرياء اللذان لاحدود لهما . وأحس شيلر أن فى وسعه الآن أن يقف على قدم المساواة مع جوته(١٢٩)، وكان على حق فى مضمار الدراما . وأضاف الدوق مائتى طالر لمعاش شيلر ، ربما بناء على اقتراح من جوته ، ودعاه للإقامة فى فيايمار . وهكذا انتقلت الأسرة فى ٣ ديسمبر ١٧٩٩ إلى بيت قريب جداً من بيت جوته ، حتى أن الشاعرين ظلا حينا يلتقيان كل يوم (١٣٠) .

وكان شيلر خلال ذلك قد زج بنفسه فى مسرحية أخرى بعد أن حفزه انتصاره . كتب إلى كورنر فى ٨ مايو ١٧٩٩ يقول « شكراً لله ! لقد وقعت وقعت فعلا على موضوع جديد لمأساة » ودرس لهذه التمثيلية « ماريا ستيوارت» الخلفية التاريخية ، ولكن لم يدع أنه يكتب التاريخ ، فقد نوى أن يكتب تمثيلية يستخدم فيها التاريخ مادة وخلفية . فرتب من جديد الأحداث والتسلسل الزمنى ليخدما الاتساق والتأثير الدراميين ؛ وأكد على العناصر غير السارة فى خلق اليزابث ، وجعل من مارى بطلة مبرأة من كل دنس تقريباً ، ثم أتى بالملكتين وجهاً لوجه فى مواجهة درامية . والتاريخ لايعرف هذا اللقاء ، ولكن المشهد من أقوى المشاهد فى أدب المسرح . فلما أن عرضت فى فايمار فى ١٤ يونيو ١٨٠٠ انتشى شيلر مرة أخرى بنجاحه . وما وافى شهر يوليو حتى كان عاكفاً على تمثيلية « عذراء أورليان » . هنا أيضاً عدل التاريخ ليخدم هدفه : فبدلا من حرق العذراء صور جان دارك هاربة من آسريها الانجليز ، مندفعة إلى المعركة لتنقذ ملكها ، لاقية حتفها وهى منتصرة على ساحة القتال . وكان العرض الأول فى ليبزج (١٨ سبتمبر ١٨٠١ (أعظم انتصار ظفر به شيلر طوال حياته .

أكان جوته يغار من صعود نجم صديقه فجأة على المسرح الألمانى؟ لقد اغتبط بهذا الصعود ، وظل بعد مضى ثمانية وعشرين عاماً يحكم على « موت

فالنشتين» بأنها « عظيمة حتى انك لاتجد لها نظيراً من نوعها » (١٣١) . على أنه لم يرفع قدر منافسه فى الشعر إلى المقام الذى رفعه إليه فى الدراما ، فقد أحس أن شيلر كدر صفاء شعره بالفلسفة ، وأنه لم يملك قط ناصية موسيقى الشعر تماماً (١٣٢) . وحين أراد بعض المعجبين بشيلر أن يقدموا على مسرح فايمار تعبيراً عن تقديرهم له ، منع جوته هذا العرض بحجة أن فيه غلواً فى التباهى (١٣٣) . وفى يوليو ١٨٠٠ ذهب إلى يينا للخلوة والدرس ، بينما ظل شيلر فى فايمار ، ولكن فى ٢٣ نوفمبر كان شيلر لايزال يتكلم عن جوته بعبارات الصداقة التى لم تشبها شائبة . وكان رأيه فى جوته أنه « أعظم رجل موهوب منذ شكسبير . . . وطوال سنى صداقتنا الحميمة الست لم يخامرنى أدنى شك فى نزاهته . لقد اتصف بأسمى صفات الصدق والإحساس بالشرف ، وأعمق الجد فى السعى إلى ما هو حق وخير»(١٣٤) . ثم أردف « وددت لو استطعت أن أبرر جوته بمثل هذه الحرارة من جهة علاقاته الأسرية ! . . . فبسبب أفكار خاطئة عن مقومات السعادة البيتية ، وخوف منكود من الزواج ، انزلق إلى ورطة تضنيه وتشقيه فى بيته ذاته ، وهو أضعف وألين قلباً من أن يتخلص منها . ذلك مغمزه الوحيد . » وقد أبت زوجة شيلر كغيرها من سيدات فايمار أن تستقبل كرستيانه فى بيتها ، وندر أن ذكر شيلر كرستيانه فى اتصالاته القائمة بجوته .

على أن هذه الصداقة بين « الديوسقورين » — كما كانا يلقبان أحياناً — رغم ما شابها من صدوع ، أثبتت على الأقل أن الانسجام ممكن بين عبقرية كلاسيكية وأخرى رومانتيكية . كانا يبعثان الرسائل الواحد لصاحبه كل يوم تقريباً ، ويتناولان العشاء معاً مراراً ، وكثيراً ما وضع جوته مركبته تحت تصرف شيلر ؛ وأهدى شيلر « شطراً من الطلب الذى سلمه الساعة تاجر النبيذ الذى أتعامل معه »(١٣٥) . كتب جوته فى ٢٠ أبريل ١٨٠١ : « لنتمش معاً قرب المساء » ، وكتب فى ١١ يونيو « وداعاً ، بلغ تحياتى الرقيقة لزوجتك العزيزة ، واشرح صدرى عند عودتى (من جوتنجن) باطلاعى على بعض ثمرات جهدك» ؛ وفى ٢٨ يونيو ١٨٠٢ : « سيصلك مفتاح حديقتى وبيتى ؛ وأريدك أن تمضى هناك ما أمكنك من الأوقات

السعيدة » . وبعد موت شيلر باثنين وعشرين عاماً قال جوته لأكرمان ، «كان من حسن حظى . . . ان وجدت شيلر ، لأننا رغم اختلاف طبائعنا فإن ميولنا كانت تتجه إلى نقطة واحدة ، مما وثق صلتنا إلى حد استحال معه حقيقة على الواحد أن يعيش بدون الآخر» (١٣٦) .

وقد عوقهما المرض فى سنوات صداقتهما الأخيرة . ففى الشهور الثلاثة الأولى من سنة ١٨٠١ كان جوته يشكو العصبية ، والأرق ، والأنفلونزا العنيفة ، والخراريج التى أقفلت عينيه حيناً . وفى إحدى مراحل مرضه طالت غيبوبته حتى توقعت فايمار موته . وفى ١٢ يناير كتبت شارلوته فون شتين لولدها فرتز تقول : لم أكن أدرى أن صديقى السابق جوته ما زال عزيزاً جداً على ، وأن مرضاً خطيراً قهره منذ تسعة أيام سيهزنى إلى الأعماق » (١٣٧) . وأخذت أوجست ، ابن كرستيانه ، إلى بيتها فترة لتخفف الأعباء التى ألقاها مرض جوته على خليلته التى كانت تبذل له العناية دون كلل . وكان إبلاله بطيئاً إليماً . كتب إلى شارلوته يقول « صعب على المرء أى يجد طريقه إلى العودة (١٣٨) .

وفى ١٨٠٢ اشترى شيلر بيتاً فى فايمار لقاء ٧٫٢٠٠ جولدن ، وكان الآن ميسوراً بفضل الحصيلة المتزايدة من مسرحياته الممثلة والمنشورة ؛ وساعده جوته ، وكان وقتها فى يينا ، على بيع البيت الذى كان يسكنه هناك . وفى ١٧ مارس ١٨٠٣ أخرج شيلر « عروس مسينا » ، وهى محاولة — اعترف بها لنفسه (١٣٥) — لمنافسة مسرحية سوفوكليس « أوديب » بتصوير النضال بين أخوين يعشقان امرأة يتبين أنها أختهما مستعيناً بكورس مقسم . ولم تحز المسرحية الرضى . وجاز جوته بنكسة مماثلة حين أخرج فى ١٨٠٣ « الإبنة الطبيعية » (أى غير الشرعية) .

وكان بين المشاهدين لعرض من عروض « الأبنة الطبيعية » سيدة لامعة هوائية هى جرمين نكر ، مدام دستال ، التى كانت تجمع مادة لكتابها « فن ألمانيا » وقد رأت شيلر أول مرة فى ديسمبر ١٨٠٣ :

« فى صالون دوق ودوقة فايمار ، فى جماعة جمعت بين الاستنارة

والنبالة . وكان يجيد قراءة الفرنسية ، ولكنه لم يتكلمها قط من قبل . وقد عبرت فى شىء من التحمس عن تفوق نظامنا الدرامى على ما عداه من الأنظمة قاطبة ، فلم يرفض منازلتى دون أن يشعر بأى ضيق لما يجد من مشقة وبطء فى التعبير عن نفسه بالفرنسية . . . وسرعان ما اكتشفت الكثير جداً من الأفكار خلال عقبة ألفاظه ، وراعتنى جداً بساطة خلقه . . . فقد وجدته شديد التواضع ، . . . شديد الحيوية ، حتى لقد أخذت على نفسى العهد منذ تلك اللحظة بصداقة له ملؤها الإعجاب» (١٤٠) .

وقد أخذ شيلر جوته للتعرف إليها ! «إنها تمثل الثقافة الفكرية لفرنسا فى نقائها . . . ولا يعيبها غير تدفقها المفرط . ولابد للمرء أن يحول نفسه إلى جهاز سمع مركز واحد لكى يتابعها» (١٤١) . وأتى بها إلى جوته فى ٢٤ ديسمبر . وكتب جوته يقول : «ساعة لذيذة جداً . لم أجد فرصة للنطق بكلمة . أنها تجيد الحديث ، ولكن بإسراف شديد . » وكانت روايتها عن اللقاء مطابقة لروايته مع تغيير طفيف ، فقد قالت إن جوته أكثر من الكلام حتى لم تجد فرصة للنطق بمقطع واحد(١٤٢) . وقد كان كتابها بمثابة كشف أماط لفرنسا اللثام عن المانيا «موطن الفكر» . كتبت تقول «لايعقل ألا يكون الكتاب الألمان ، وهم أكثر الرجال فى أوربا اطلاعاً وتفكيراً ، جديرين بلحظة انتباه تبذل لأدبهم وفلسفتهم»(١٤٣) .

واعتزم شيلر أن يسترد جمهوره الذى رفض «عروس مسينا» ، فاختار بناء على اقتراح جوته موضوعاً لدرامته التالية قصة وليم تل الشعبية : وسرعان ما عكف على الموضوع فى لهفة وانفعال . قال جوته فى ١٨٢٠ مستحضراً تلك الفترة ، «بعد أن جمع كل المادة الضرورية قعد للعمل ... ولم يبرح مقعده حتى فرغ من المسرحية . فإذا غلبه التعب أسند رأسه على ذراعه وأغفى هنيهة . . . وبمجرد أن يستيقظ كان يطلب . . . قهوة سوداء قوية ليظل يقظاً . وهكذا فرغ من االمسرحية بعد ستة أسابيع(١٤٤) .

وقبل شيلر أسطورة شائعة — على أنها تاريخ — عن وليم تل قائد ثورة

السويسرين على النمسا فى ١٣٠٨ . كانت الثورة حقيقية ، وكذلك كان جسلر الوكيل النمساوى المكروه . وتروى الأسطورة أن جسلر تعهد لوليم تل بالعفو الكامل إذا أثبت براعته المشهورة فى استعمال القوس والسهام بإصابته تفاحة على رأس ولده . ووضع تل سهمين فى منطقته ، وأصاب التفاحة بأولهما . وسأله جسلر عم كان يريده بالآخر ؛ وأجاب تل «كنت أريدك أنت إن أصاب الأول ولدى » . ولقيت المسرحية الاستحسان فى فايمار فى ١٧ مارس ١٨٠٤ وفى كل مكان عرضت فيه بعدها بقليل ، وتبنتها سويسره جزءاً من تقاليدها القومية . فلما نشرت المسرحية بيع منها سبعة آلاف نسخة فى بضعة أسابيع . وأصبح اسم شيلر الآن أوسع ذيوعاً من اسم جوته .

ولكن أجله دنا ، إذ لم يبق له فى الحياة غير شهور . ففى يوليو ١٨٠٤ أصابته نوبة من المغص اشتدت حتى خشى طبيبه أن يموت وتمنى هو الموت. ثم تماثل للشفاء ببطء ، وشرع فى تأليف مسرحية أخرى اسمها « ديمتريوس» (« ديمترى الكاذب » الذى يذكره تاريخ روسيا) . وفى ٢٨ أبريل ١٨٠٥ رأى جوته آخر مرة ، ومن ذلك الاجتماع عاد جوته إلى بيته وأصيب هو الآخر بإصابة خطيرة بالمغص . وفى التاسع والعشرين بدأ مرض شيلر الأخير . كتب هينريش فوس يقول : « غارت عيناه فى رأسه ، وكان كل عصب فيه ينتفض متقلصاً » (١٤٥) . وائتمرت عليه توترات الجهد الأدبى الضارة ، والتهاب أمعائه ، واعتلال رئتيه . قال جوته فيما بعد « إن شيلر لم يسرف فى الشراب قط ، وكان شديد الاعتدال فيه ، ولكنه اضطر فى ساعات ضعفه البدنى إلى تنشيط قواه بالمسكر»(١٤٦) . وفى ٩ مايو قابل شيلر الموت بهدوء عجيب : فقد ودع زوجته وأطفاله الأربعة وأصدقائه ، ثم نام ، ولم يستيقظ ثانية . وأظهر تشريح جثته الرئة اليسرى وقد أتلفها السل تماماً ، والقلب منحلا ، والكبد والكلية والأمعاء كلها مصابة . وقا الطبيب للدوق « فى هذه الظروف لاتملك غير العجب من أن الرجل المسكين استطاع أن يعيش كل هذا العمر»(١٤٧) .

وكان جوته عندئذ فى حال من المرض لم يجرؤ معها إنسان على أن ينبئه بموت شيلر . وفى ١٠ مايو أفضت إليه كرستيانه بالنبأ وهى تنشج . وكتب إلى تسلتر يقول «كنت أظن اننى أفقد حياتى أنا ، فإذا أنا أفتقد صديقاً كان نصف وجودى ذاته» [١٤٨] . ووصل بما بقى له من وجوده إلى تمام تحقيق ذاته .

* * *

الفصل الرابع والعشرون

جوته « تسطورا »(*)

١٨٠٥ — ١٨٣٢

١ — جوته ونابليون

أيحسن بنا — ونحن مقيدون بحدودنا المقررة — أن نترك جوته معلقا عند هذه النقطة ، وعلى قلمه فاوست وفى شيخوخته الحكمة ، أم أن نلاحق هذا الأولمبي — الذى لا يكف عن التطور — إلى نهايته ، مقلبين الصحائف مضحين بالوقت ؟ « إن الحكمة السرمدية تجذبنا إلى العلا » .(١)

فى ١٤ أكتوبر ١٨٠٦ هزم نابليون البروسيين فى يينا . وكان الدوق كارل أوجست ، المتحالف مع بروسيا ، قد قاد جيشه الصغير ضد الفرنسيين فى تلك المعركة . ودخـــل الأحياء المدحورون فايمار ، وأعقبهم الغالبون الجياع ، فنهبوا المحال واحتلوا بيوت الناس . واستولى ستة عشر جنديا الزاسيا على بيت جوته ، وأعطتهم كرستيانه الطعام والشراب والفراش . فى تلك الليلة اقتحم البيت جنديان آخران ثملا بالخمر ، فلما افتقدا الأسرة فى الطابق الأسفل ، صعدا عدوا إلى حجرة جوته ، ولوحا بسيفيهما فى وجهه ، وطالباه بمكان للنوم ، ووقفت كرستيانه حائلا بين الجنديين ورفيقها ، وأقنعتهما بالخروج ثم أرتجت الباب . وفى الخامس عشر من الشهر وصل نابليون إلى فايمار وأعاد النظام إلى نصابه ، وصدرت التعليمات بعدم إزعاج « الأديب الكبير » وبضرورة اتخاذ جميع الإجراءات لحماية جوته العظيم وبيته .(٢) ومكث معه المارشالات لان ونيه وأوجروا برهة ثم رحلوا معتذرين مجاملين . وشكر جوته كرستيانه على شجاعتها وقال لها « إن أذن الله سنكون زوجا وزوجة » وفى ١٩ أكتوبر تزوجا . أما أمه الطيبة التى احتملت فى حب جميع مثالبه ، وفى تواضع جميع مفاخره ، فقد جددت بركاتها لهما . ثم ماتت فى ١٢ سبتمبر ١٨٠٨ ، وورث جوته نصف تركتها .

---

(١) أى المرشد الحكيم المتقدم فى السن (المترجم) .

وفى أكتوبر ١٨٠٨ رأس نابليـــون مؤتمرا من ستة ملوك وثلاثة وأربعين أميرا فى أرفورت ، وأعاد رسم خريطة ألمانيا ، وحضر الدوق كارل أوجست المؤتمر واصطحب جوته فى بطانته . وطلب نابليون إلى جوته أن يزوره فى ٢ أكتوبر ، وذهب الشاعر ، وأنفق ساعة مع الغازى ، وتاليران ، وقائدين ، وفريدريش فون مولر ، وهو قاضى فايمارى . وهنأه نابليون على عافيته (وكان جوته يومها فى التاسعة والخمسين) ، واستفسر عن أسرته ، ثم دخل فى نقد جرىء لقرتر . وقد عاب الدرامات الشائعة التى تؤكد على القضاء والقدر « فلم الحديث عن القضاء والقدر ؟ إن السياسة هى القضاء والقدر ... ما قول المسيو جوته فى هذا ؟ » ولا علم لنا بجواب جوته ولكن موللر روى أن نابليون قال لقواده معلقا بينما جوته يبرح الحجرة « هاكم رجلا ! » [٣] .

وفى ٦ أكتوبر عاد نابليون إلى فايمار ، واصطحب معه فرقة ممثلين من باريس من بينهم تالما العظيم . ومثلوا فى مسرح جوته مسرحية فولتير « موت قيصر » وعقب الحفلة انتحى نابليون بجوته جانبا وناقش معه التراجيديا ، فقال «إن الدراما الجادة تصلح جدا لأن تكون مدرسة للأمراء كما هى مدرسة الشعب ، لأنها من بعض نواحيها فوق التاريخ ... يجدر بك أنت أن تصور موت قيصر صورة أبهى مما صوره فولتير ، وتبين كم كان قيصر (نابليون) سيسعد العالم لو أن الشعب أتاح له الوقت لإنفاذ خططه السامية . «ثم بعد قليل » لابد أن تأتى إلى باريس ! إنى أوجه إليك هذا الرجاء المشدد ! ستتاح لك هناك نظرة أوسع للعالم ، وستجد ذخيرة من الموضوعات لشعرك » [٤] وحين مر نابليون بفايمار ثانية عقب تقهقره المشئوم من موسكو طلب إلى السفير الفرنسى أن يبلغ جوته تحياته .

وأحس الشاعر أنه فى بونابرت قد التقى ، على حد تعبيره ، بـ « إعظم فكر شهده العالم » [٥] إلى الآن . وقد وافق تماماً على حكم نابليون لألمانيا ، فلم يكن هناك ألمانيا على أية حال (كما كتب جوته فى ١٨٠٧) إنما هى خليط من الدويلات ، أما الإمبراطورية الرمانية المقدسة

فقد نفذ قضاء الله فيها فى ١٨٠٦ ، وبدا لجوتة أن من الخير أن تتوحد اوربا ، لا سيما تحت رأسة رجل ألمعى كبونابرت . ولم يغتبط بهزيمة نابليون فى واترلو ، مع أن دوقه قاد أفواج فايمار مرة أخرى ضد الفرنسيين . لقد كانت ثقافته واهتماماته أشمل وأعم من أن يتيحا له الشعور بالكثير من الزهو الوطنى ، ولم يستطع أن يستشعر فى نفسه الميل لتأليف الأغانى ذات الحماسة القومية رغم كثرة ما طلب إليه . قال لا كرمان وهو فى الثمانين :

« أنى لى أن أؤلف أغانى الحقد وأنا لم أشعر بشىء من الكره ؟ وأقول فيما بينى وبينك أننى لم أكره الفرنسيين قط وإن شكرت الله على خلاصنا منهم . وأنى لى ، أنا الذى أرى الحضارة والهمجية الشيئين الوحيدين اللذين لهما مغزى ، أن أبغض أمة هى من أكثر أمم الأرض ثقافة ، أمة أدين لها بجزء عظيم من ثقافتى ؟ على أية حال أرى أن مسألة الكراهية بين الأمم هذه شىء غريب . فأنت ستجدها دائما أقوى وأشد مما تكون ضراوة فى المراتب الدنيا من المدنية . ولكن يوجد مستوى تختفى فيه كلية ، ويقف عليه الإنسان فوق الأمم إذا جاز التعبير ، ويحس أفراح شعب مجاور أو أتراحه كأنها أفراحه هووأتراحه . ولقد كان هذا المستوى يلائم طبيعتى ، ولقد بلغته قبل أن أبلغ الستين بزمن طويل » [٦] .

ألا ليت كل دولة غنيت بمليون من هؤلاء « الأوربيين الصالحين ! » .

٢ — فاوست : الجزء الأول

لم يقبل جوتة دعوة نابليون أياه للانتقال إلى باريس أو للكتابة عن قيصر ، ذلك أنه طالما احتضن فى ذهنه وفى مخطوطاته موضوعاً أثاره إثارة أعمق حتى من أعظم مستقبل سياسى : الا وهوصراع النفس لبلوغ الفهم والجمال ، وهزيمة النفس بسبب قصر عمر الجمال وروغان الحقيقة ، والسلام المستطاع للنفس ، بتضييق الهدف وتوسيع الذات . ولكن كيف

السبيل إلى تخيل هذا كله فى قصة رمزية عصرية وشكل درامى ؟ لقد ظل جوته يحاول تحقيق هذا الهدف ثمانية وأربعين عاما .

وكان قد تعلم قصة فاوست [٧] فى طفولته من كتيبات القصص الشعبية ومسارح الدمى ، ورأى صوراً لفاوست والشيطان على جدران حانة آورباخ فى ليبزج . وتطفل هو نفسه فى شبابه على السحر والخيمياء ؛ وامتزج بحثه الدءوب عن الفهم بتصوره لفاوست ، ودخلت قراءته لفولتير وإلمامه بتهكمات هردر فى تصويره لمفستوفيليس ، وأعطت جريتشن التى أحبها فى فرنكفورت ، وفردريكه بريون التى هجرها فى زيزنهايم ، لمارجريت أسمها وصورتها .

ويتجلى عمق تأثر جوته بقصة فاوست ، وتباين الأشكال التى اتخذتها فى فكره ، إذا علمنا أنه شرع فى تأليف المسرحية فى ١٧٧٣ فلم يفرغ منها إلا فى ١٨٣١ . وحين التقى بهردر فى ١٧٧١ كتب فى ترجمته الذاتية :

« أخفيت عنه فى تكتم شديد اهتمامى بشخوص معينة أصلت جذورها فى وكانت تشكل نفسها شيئاً فشيئا فى صورة شعرية . وتلك هى جوتزفون برليشنجن وفاوست . . . فمسرح عرائس فاوست ذو المغزى كان يجلجل ويتردد فى باطنى بأنغام كثيرة . كذلك كنت قد طوفت فى شتى ضروب العلم ، وانتهيت فى فترة مبكرة من حياتى إلى تبين بطلانه . ثم إننى جربت كل أساليب العيش فى الحياة الواقعية ، وكنت دائماً أعود منها ضيق النفس غير راض عنها . هذه الأشياء وغيرها حملتها معى وسعدت بها فى ساعات العزلة ولكن دون أن أكتب شيئاً » [٨] .

وفى ١٧ سبتمبر ١٧٧٥ كتب إلى مراسل يقول : « أحسست بانتعاش هذا الصباح وكتبت مشهداً فى مسرحيتى فاوست » [٩] . وفى تاريخ لاحق من ذلك الشهر سأله يوهان تسمرمان عن سير المسرحية . « فأتى بحقيبة مملوءة بمئات من قطع الورق وألقاها على المائدة . وقال : هاك فاوستى » [١٠] . وحين ذهب إلى فايمار (نوفمبر ١٧٧٥) كان أول شكل للدراما قد اكتمل [١١] . ولكنه نحاها لأنه لم يرض عنها ، ولم تصل « فاوست الأصلية »

هذه قط إلى المطبعة إلا فى ١٨٨٧ حين وجدت فى فايمار [١٢] نسخة خطية نسختها الآنسة فون جوشهاوزن . وراح ينفخ ويوسع فيها طوال خمسة عشر عاما أخرى . وأخيراً نشرها (١٧٩٠) باسم «شذره من فاوست» تبلغ الآن ثلاثا وستين صفحة ، [١٣] وكان هذا أول شكل مطبوع لأشهر مسرحية منذ هاملت .

على أن جوته ظل غير راض عنها ، فأسقط الموضوع حتى ١٧٩٧ .وفى ٢٢ يونيو كتب إلى شيلر يقول « أعتزمت أن أستأنف كتابة « فاوستى .»؛ مفككا ماطبع منها ، مرتبا إياه فى كتل كبيرة . . . معداً تطور المسرحية إعدادا أو فى ..... كل ماأريده أن تتفضل بتقليب الأمر فى فكرك فى ليلة من لياليك النابغية — وتخبرنى بما تتطلبه من المسرحية بوصفها كلا ، وتفسر لى أحلامى تفسير نبى صادق . ورد عليه شيلر فى الغد . « أن ازدواج الطبيعة البشرية ، ومحاولة الإنسان الفاشلة للجمع بين العنصر الإلهى والعنصر الجسدى ، لا تغيب عن البصر أبداً . . . أن طبيعة الموضوع ستكرهك على تناوله فلسفيا ، وعلى الخيال أن يكيف نفسه لخدمة فكرة عقلية . »أما خيال جوته فكان غاية فى الخصوبة ، وأما تجاربه الناصعة الذكرى فكثيرة جدا ، لذلك أدخل الكثير منها فى «شذرة من فاوست» فضاعف بذلك من حجمها ؛ وفى ١٨٠٨ أذاع على العالم ما نسميه الآن الجزء الأول من فاوست .

وقبل أن ينطق دميته بكلمة ، صدر الدراما بإهداء رقيق إل أصدقائه الموتى ، وبفصل تمهيدى هزلى « برولوج فى المسرح » بين المدير والمؤلف والمضحك ، و « برولوج فى السماء » يراهن الله فيه مفستوفيليس على أن فاوست لايمكن أن يظفر به الإثم بصفة دائمة . ثم يتكلم فاوست أخيراً فى فى أبسط شعر هزلى :

« أجهدت نفسى فى دراسة الفلسفة والشريعة والطب ، وتعمقت أيضاً — وياللحسرة فى دراسة علوم الدين ، بجد لا يعتوره فتور وهمة لا تعرف الكلال . ثم أرانى — أنا البليد المسكين — بعد هذا كله لم أتقدم شبرا ولم أخط نحو العرفان خطوة .

« سميت الأستاذ والدكتور ، وقضيت زهاء عشر سنوات وسط تلاميذى أخادعهم وأغرر بهم وأذهب بهم ذات اليمين وذات الشمال . ثم أرانا بعد هذا كلة لم نزل عاجزين عن أن ندرك شيئاً أو أن نلم بشىء[١٤] » (*)

وقد تبين أن البحر الرباعى التفاعيل ، المنحدر من تمثيليات هانز زاكس القصيرة ، هو الوزن المترقرق اللائق لدراما هذبت الفلسفة بالفكاهة .

وفاوست هو بالطبع جوته ، حتى فى كونه رجلا فى الستين ، لم يزل كجوته يتماشى فى الستين بحسن المرأة ورشاقتها . وتطلعه المزدوج إلى الحكمة والجمال هو روح جوته الصميم ، وقد تحدى تطلعه الآلهة المنتقمة بوقاحته ، ولكنه كان نبيلا . لقد قال فاوست وجوته نعم للحياة ، الروحية والحسية ، الفلسفية والمرحة ، وعلى النقيض من ذلك كان مفستوفيليس (وهو ليس ابليس بل فيلسوف إبليس فقط) شيطان الإنكار والشك ، كل تطاع فى نظره هراء ، وكل حس إنما هو هيكل عظمى يكسوه جلد . وقد كان جوته فى لحظات كثيرة هذا الروح الساخر أيضاً . وإلا لما استطاع أن يسبغ عليه هذا الذكاء وهذه الحياة . ويبدو مفيستوفيليس أحياناً صوت التجربة ، والواقعية والعقل ، يكبح رغبات فاوست وأوهامه الرومانسيـــة ، والحق ، كما قال جوته لاكرمان « إن شخصيه مفستوفيليس ... حصيلة حية لخبرة واسعة بالدنيا »[١٥] .

وفاوست لا يبيع روحه بغير شروط ، فهو لا يوافق على أن يقذف به فى الجحيم إلا إن أراه مفيستوفيليس لذة فيها من الإشباع الدائم له ما يحبب له معايشتها إلى الأبد :

« لئن جاء اليوم الذى أرقد فيه على فراش الكسل والراحة ، . . . فليكن ذلك اليوم آخر عمرى ! ... ولو مرت بى لحظة من الزمن وكانت من الحسن بحيث قلت لها أن « لاتبرحى فما أحلاك ! إذن فتهيء لى سلاسلك وأغلالك ... هنالك أرحب بالموت » ...(**)

(*) الترجمة للدكتور عوض محمد : فاوست : لجنة التأليف والترجمة والنشر ص (٧)

(**) فاوست : د . محمد عوض محمد ، ص ٥٨

وبهذا الشرط يبرم فاوست حلقة مع دمه ويصيح فى استهتار «هلم نطفىء الآن ظمأ رغباتنا المتأججة فى بحر من الشهوات »(١٦) .

ويأخذه مفيستوفوليس إلى مارجريت— « جريتشن » فيجد فيها فاوست كل فتنة البساطة التى تولى مع المعرفة وتعود مع الحكمة . ويتودد إليها بالجواهر والفلسفة :

« مارجريت : قل لى مارأيك فى الديانة ؟ لست أنكر أنك من أطيب الناس وأحسنهم . لكنى أخشى أن تكون قليل الإيمان .

فاوست : دعى هذا ياحبيبتى ! أنت ترينى متيماً بك ؛ أود أن أبذل من أجل حبك لحمى ودمى ،وما أريد لعمرى أن أسلب أحدا دينه ومعتقده .

مارجريت : هذا خطأ . يجب على الإنسان أن يؤمن بالدين ! ... قل لى : هل تعتقد وتؤمن بالله ؟

فاوست : أيتها الحبيبة ! من ذا الذى يستطيع أن تبلغ به الجرأة والقحة أن يقول « أنا أعتقد بالله » ...

مارجريت : إذن فأنت لا تؤمن بالله ؟

فاوست : لاتسيئى فهم أقوالى أيتها الحبيبة : أى الناس يقدر أن ينطق بإسمه ؟ وأيهم يستطيع أن يقول « أنا لاأؤمن به ؟ وأى الورى يحس ويبصر ، ويسمع ، ويعى ، ثم يجرؤ أن يقول « أنا لاأؤمن به » ؟ ذلك القابض على كل شىء والممسك كل شىء ؟ أليس هو الممسك لى ولك ولنفسه ! أما تنظرين إلى السماء كيف رفعت وإلى الأرض كيف سطحت ؟ . . . وإلى هذه النجوم الزهر تسبح فى السماء ، مرسلة ضياءها الأبدى المحبوب ؟ ... فمن هذا كله فاملأى قلبك حتى يطفح ... بتلك السعادة ، ويستنير بذلك النور . وعندئذ فلتسميه كما تشائين ، ولتدعيه بما يحلو لك من الأسماء : السعادة أو القلب أو الحب أو الرب . أما أنا فما له اسم عندى . وكل همى أن أحسه وأستشعره . فالشعور هو كل شىء ! وما الإسم إلا صدى لاطائل تحته ، أو غمام يستر عن أبصارنا محيا الشمس البديع .

مارجريت : هذا كله حسن وجميل ... لكنى مازلت قلقة لأنى أرى قدماك فى المسيحية غير راسخة .

فاوست . ولم أيتها الطفلة العزيزة ![17] » (*) .

وهى لا تتأثر بحلوليته الغامضة ، بل بالصورة الجميلة والثياب الرائعة التى خلعها سحر مفيستوفوليس على شبابه المجدد . وهى تنشد على مغزلها أنشودة ملؤها الحنين الحزين (**) .

« أنا — صبحى ومسائى
فى عذاب وبلاء ،
واعنائى ! واشقائى !
هل لدائى من دواء ؟
كيف لا يشتد خطبى
كيف لا يزداد كربى
كيف لا يحزن قلبى
وحبيب القلب ناء ؟
بان صفو العيش عنى
قرح التسهيد جفنى ،
لم يسكن نار حزنى
دمع عينى وبكائى .
قد نبا عنى الرقاد
وبرى جسمى السهاد
آه ! قد طال البعاد
وشفائى فى اللقاء .

(*) فاوست ، ترجمة د . محمد عوض محمد ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(**) مترجمة بتصرف بقلم د . محمد عوض محمد : فاوست ص ٢٤٤

فمتى يســمح دهرى
ويرينى وجــه بدرى
قد أضل الحب فكرى
والهوى أعضل داء :
أوما يدنو الحبيب
فأرى العيش يطيب ؟
الهوى أمر عجيب
منه ســقمى ودوائى ؟
ما أحــلاه إذا ما
ثغره ابدى ابتساما !
قد حكى البــدر التماما
فى ســناء وبهاء .
آه لو أشــفىَ بلثمة
منه أو أحظى بضمة !
ثم يقضى الدهر حكمه
بهــلاكى وفنائى (١٨) .

وبقية القصــة يعرفها الغرب كله ، ولو من جونو فقط . فمارجريت تعطى أمها شرابا منوما لا تفيق منه لكى تقبل هى حبيبها وتغيب عن الوعى دون رقيب . ويقتتل فاوست فالنتين أخا مارجريت فى مبارزة ثم يختفى ؛ أما مارجريت فتقتل طفلها العديم الأب خزياوحسرة ، فيقبض عليها ويحكم عليها بالإعدام . ويزورها فاوست فى زنزانتها ويرجوها أن تهرب معه ، فتعانقه ، ولكنها ترفض مغادرة زنزانتها . ويجذب مفيستوفيليس فاوست بعيدا ، بينما يصيح صوت من السماء « كتبت لها النجاة » .

ولم يدرك جمهور القراء — إلا ببطء — أن فاوست ١٨٠٨ هذه أروع دراما وأجمل شعر أنتجتهما ألمانيا إلى ذلك التاريخ . ولكن قلة من أصحاب العقول اليقظة فطنوا للتوالى أنها جديرة بأن تتبوأ مكانها بين شوامخ الأدب العالمى . وشبه فريدريش شليجل جوته بدانتى ، وسوى جان بول رشتر بينه وبين شكسبير ، ورفعه فيلاند فى دنيا الشعر إلى مقام السيادة الذى ارتفع إليه نابليون فى دنيا الحكم والحرب (١٩) .

٣ — نسطور عاشقاً

فى السنوات ١٨١٨ — ٢١ دخل جوته فى غرامين مثيرين ، فضلا عن صلته ببتينا برنتانوا . ففى ٢٣ أبريل ١٨٠٧ جاءت بتينا ذات الاثنين وعشرين ربيعا إلى الشاعر المسن بخطاب تقديم من فيلاند . وكانت حفيدة صوفى فون لاروش التى أحبت فيلاند من قبل ، وابنة مكسمليانه برنتانو التى غازلت جوته فى شبابها * وقد أحست أن لها دالة الحفيدة على قلب جوته . ولم تلبث بعد أن دخلت حجرته أن ألقت بنفسها بين ذراعيه . وقبلها هو على أنها طفلة ، وبعدها كان يراسلها بهذا المعنى ، ولكنه طوى رسائله على أحدث قصائده الغزلية ، ومع أنها لم تكن موجهة إليها إلا أنها عدتها بوحاً بغرام مشبوب ، وأضفت عليها ذلك اللون فى كتابها « رسائل جوته إلى طفلة» الذى نشرته فى ١٨٣٥ .

أما ملهمة أكثر هذه القصائد فهى فلهلمينا هرتسليب . وكافت منا ، كما دعاها جوته بعد قليل ، ابنة كتبى فى يينا . وقد عرفها طفلة ، ولكنها فى عام ١٨٠٨ كانت فى التاسعة عشرة ، فتاة خجولا ، رقيقة ، مشرقة . وكانت تتلاقف كل كلمة يفوه بها ، وتتحسر على أن شيخوخته ومكانته الاجتماعية تمنعانها من عشقه وتملكه . وأدرك هو شعورها ، واستجاب له ونظم لها الصونيتات ، موريا على اسمها كقلب محب ، ولكنه تذكر أنه لم يمض على زواجه من كرستيانه إلا زمن قصير . ويلوح أنه كان يفكر فى منا وهو يصـــور أوتيلييه الخجول الودود ، المشدودة الأعصاب ، فى قصته « الانجذابات العاطفة ١٨٠٩ » .

وهذه القصة الممتازة ، فى رأى مؤلفها [٢٠] ، خير قصصه المنثور ، فهى أفضل تنظيما وأكثر تماسكا فى روايتها من أى من تطويفات فلهلم مايستر. وهنا نلاحظ قول جوته لأكرمان (٩ فبراير ١٨١٩) : « ليس فى قصة (الانجذابات العاطفة) بأسرها سطر لم أعشه أنا نفسى حقيقة وفعلا ، ووراء النص معان أكثر كثيرا مما يستطيع أى إنسان استيعابه من قراءة واحدة » . والواقع أن عيب الكتاب أن فيه من جوته أكثر مما يجب ، ومن التفلسف الجارى على ألسنة لا يتوقع أن يجرى عليها قدر أكبر مما ينبغى .

(مثال ذلك أنه يجعل الفتاة أوتيلييه تحتفظ بيومية يودع فيها بعضا من أنضج التأملات كقوله « لا سبيل إلى الدفاع عن أنفسنا أمام التفوق العظيم فى إنسان غيرنا سوى سبيل الحب [٢١] . ولكن احتواء هذا الكتاب على هذا القدر الكثير من جوته هو الذى يجعله دافئاً بالحياة غنياً بالفكر : لأن شارلوتة القصة هى أيضا شارلوته فون شتين • تغرى ولكنها تأبى أن تخون زوجها ، ولأن الكبتن هو جوته العاشق لزوجة صديقه ، ولأن إدورد ، الزوج ذا الخمسين المقيم بأوتيلييه هو جوته المفتن بمنا هرتسليب ، ولأن القصة هى محاولة جوتة تحليل حساسيته الشبقة .

وقد قصد هنا أن يفكر فى الجاذبية الجنسية بلغة كيميائية . وربما اتخذ عنوان كتابه من « الإنجذابات العاطفية » الذى نشره الكيميائى السويدى العظيم توربرن أولوف برجمان فى ١٧٧٥ . والكبتن يصف لادورد وشارلوته انجذابات جزئيات المادة وتنافراتها وتجمعاتها فيقول : « ينبغى أن تريا بنفسيكما هذه الجواهر — التى تبدو ميتة جداً وهى مع ذلك زاخرة بالنشاط والقوة — تعمل أمام عيونكما ، يبحث بعضها عن بعض . . . ويمسك ويسحق ويلتهم ويدمر بعضها بعضاً ، ثم يعود إلى الظهور فجأة . . . فى صور نضرة ، مجددة ، غير متوقعة . » [٢٢] فحين يدعو ادورد صديقه الكبتن ، وتدعو شارلوته ابنة أخيها أوتيلييه ، للإقامة معهما فى زيارات طويلة ، يهيم الكبتن بشارلوته ، وإدورد بأوتيلييه . وحين يتصل إدورد بزوجته جنسياً يفكر فى أوتيلييه ، وتفكر

شارلوته في الكبتن ، في ضرب من الزنا السيكولوجي : ويبدو الوليد عجيب الشبه بأوتيلييه ، وتحنو أوتيلييه على الطفل كأنه طفلها . ثم تتركه ليغرق كأنما جاء ذلك مصادفة ، ويحملها تأنيب الضمير على أن تضرب عن الطعام حتى الموت . ويموت إدورد حسرة ، ويختفي الكبتن ، وتبقى شارلوته على قيد الحياة ، ولكنها ميتة روحياً .

ويخلص فيلسوف في المدينة إلى أن « الزواج هو البداية والنهاية لكل ألوان الحضارة . أنه يروض المتوحشين ، ويمنح أكثر الناس ثقافة ، خير فرصة للرقة ودماثة الخلق . وينبغي أن يكون غير قابل للفسخ لأنه يجلب من السعادة الكثير ، ما يجعل متاعبه العارضة لا وزن لها [٢٣] » : على أن أحد شخوص القصة يقترح بعد أربع صفحات من هذا القول زواج التجربة الذي لا يتجاوز العقد فيه في المرة خمس سنوات .

وفي ١٨١٠ نلتقي بجوتة في كارلسباد يستشفي بمياهها ويغازل شاباتها ، بينما تظل كرستيانه التي مضى على زواجها أربعة أعوام في البيت تغازل الشبان . فقد تتيمت بالشاعر ذي الحادية والستين عاما يهودية حسناء سمراء تدعى ماريانه فون إيبنبرج ، ثم هرب منها إلى الشقراء سلفي فون تسيجزار ؛ وفي قصيدة وجهها إلى سلفي يدعوها « الأبنة الخليلة ، الحبيبة ، البيضاء النحيفة القوام »[٢٤] ، وقد أرسلت إليه كرستيانه نداءات تناشده الوفاء :

« وهل وصلت بتينا وتلك السيدة فون أيبنبرج إلى كارلسباد ؟ يقولون هنا إنه من المتفق عليه أن تكون زلفي وآل جوترز هناك أيضاً . فلماذا أنت صانع وسط كل معابثاتك ؟ ما أكثرها ! ولكنك لن تنسى أقدمها عهداً ، أليس كذلك ؟ فكر في قليلا أيضا ، بين الحين والحين . إني أريد الوثوق بك ثقة تامة ، مهما قال الناس . لأنك كما تعلم الوحيد الذي يفكر في إطلاقاً »[٢٥] . و يبعث إليها بهدايا صغيرة .

وقد وجد وقتا كل يوم تقريبا لكتابة شيء من الشعر أو النثر . وحوالى عام ١٨٠٩ بدأ يكتب سيرته الذاتية ، وقد سماها « الخيال والحقيقة من حياتي » واعترف العنوان اعترافا جميلا بأنه بين الحين والحين ، عن عمد أو غير عمد ،

ربما مزج الخيال بالواقع . أما غرامه بشارلوته بوف فقد مسه مسا خفيفا رقيقا ، ولكنه كان أكثر إفاضة فى قص غرامه بفردريكه بريون ، وكانت المرأتان لا تزالان على قيد الحياة . ثم حالى فى براعة وأريحية الكثير من أصدقاء شبابه — لنتس ، وبازدوف ، ومرك ، وهردر ، وياكوبى ، ولافاتر . أما عن نفسه فقد تكلم فى تواضع ، وقد شكا فى ملاحظاته الخاصة من أن كاتب السيرة الذاتية يتوقع منه الناس أن يعترف بنقائصه ولا يعلن عن فضائله (٢٦) . والكتاب تاريخ فكر أكثر منه تاريخ حياة ، والأحداث فيه قليلة والتأملات وفيرة . أنه أعظم كتبه النثرية »

وفى ١٨١١ تلقى من بيتهوفن خطاب إعجاب مع «مقدمة موسيقية لأجمونت». والتقى الشاعر والمؤلف الموسيقى فى تبلتز فى يوليو ١٨١٢ ، وعزف بيتهوفن لجوته وكان يتمشى معه . وإذا صدقنا الروائى أوجست فرانكل ، « كان الناس فى المتنزه — أينما ذهبا — يفسحون لهما الطريق باحترام ويحيونهما . وقال جوته وقد غاظته هـــذه المقاطعات المستمرة : « يا لها من مضايقة ! لا أستطيع أبدا تجنب هذا الأمر . » وأجاب بيتهوفن بابتسامة «لا يضايقك هذا يا صاحب السعادة ، فلعلى أنا المقصود بالاحترام . » وكتب جوته إلى تسلتر (٢ سبتمبر ١٨١٢) : « لقد أذهلتنى موهبة بيتهوفن ، ولكن شخصيته للأسف لا يمكن السيطرة عليها إطلاقا . إنه ليس مخطئا ... فى اعتباره العالم بغيضا ، ولكن هذا الموقف لا يجعل هذا العالم أكثر إمتاعا لا له ولا لغيره . وكثير من هذا الموقف يلتمس له العذر فيه بسبب مؤسف هو أنه يفقد قدرته على السمع . » (٢٧) أما تعليق بيتهوفن على جوته فكان « ما أشد صبر الرجل العظيم على ! وما أعظم الخير الذى أسداه إلى ! ولكن « جو البلاط يلائمه أكثر مما ينبغى . » (٢٨)

لقد كانت مظاهر البلاط وسلوكه جزءا من حياة جوته الرسمية ، لأنه كان لا يزال يمارس نشاطه فى الإدارة . أما حياته البيتية فقد فقدت سحرها. فأوجست ابنه ، الذى بلغ الثانية والعشرين فى ١٨١٢ ، كان ضعيف المواهب لا أمل فى إنقاذه ، وكرستيانة باتت بدينة مدمنة للشراب ، وكان لها بعض العذر ، لأن مغازلاته للنساء لم تتوقف . فخلال زياراته لفرانكفورت ، كثيرا

ما كان يقيم فى فيلا يوهان فون فلليمير الواقعة فى إحدى الضواحى ، وكان يعجب بماريانه زوجة فلليمير . وفى صيف ١٨١٢ أنفق أربعة أسابيع تقريبا معهما . وكانت مريانه فى الحادية والثلاثين ، ولكنها كانت فى ريعان جمالها الأنثوى . وكانت تغنى أشعار جوتة العاطفية وألحان موتسارت غناء ساحرا ، وتنظم الشعر الرفيع ، وتتبادل مع جوته سلسلة من القصائد محاكاة لحافظ والفردوسى وغيرهما من شعراء الفرس (وكان حافظ قد ترجم إلى الألمانية فى ١٨١٢) . وفى بعض القصائد شهوانية سافرة وحديث عن الفرح المتبادل فى العناق الجسدى ، ولكن هذا الترخص قد يكون مجرد انحراف شعرى . والتقى الثلاثة مرة أخرى فى سبتمبر بهيدلبرج ، وكان الشاعران يخرجان معا فى مسيرات طويلة ، وكتب جوته اسم مريانه بحروف عربية فى التراب حول نافورة القلعة . ولم يلتقيا قط بعد ذلك اليوم ، ولكنهما ظلا يتراسلان طوال السبعة عشر عاما الباقيـــة من حياته . ويبدو أن فلليمير زاد اعتزازا بزوجته لأنها فتنت رجلا بهذه الشهرة ، ولأنها عارضت شعر جوته بقصائد لا تقل روعة عن قصائده . وضمن جوته أشعارها وأشعاره فى « الديوان الشرقى الغربى » الذى نشره فى ١٨١٩ .

وبينما هو ماض فى مراسلاتة نثرا وشعرا ماتت كرستيانه (٦ يونيو ١٨١٦) . وسجل جوته فى يوميته : «كان صراعها مع الموت رهيبا ... خواء وصمت قاتل فى باطنى ومن حولى . » (٢٩) وران على هذه السنوات اكتئاب عميق . وحين زارته شارلوته كستنر ، حبيبة صباه التى فقدها ، والتى كانت الآن زوجـــة فى الرابعة والستين لعضو المجلس الناجح كستنر الهانوفرى ، فى صحبة ابنتها (٢٥ سبتمبر ١٨١٦) لم يستشعر أى عاطفة تختلج بين جوانحه ، وكان حديثه كله حديثا تافها مجاملا . ولكن فى ١٨١٧ ، تزوج ابنه أوجست من أوتيلييه فون بوجفيش ، بعد أن قطع حياة كلها خلاعة وفسق ، ودعاه جوته ليسكن معه ، وأتت أوتيلييه بمرح الشباب إلى البيت ، وما لبثت أن أعطت الشاعر المسن أحفادا أنبضوا قلبه بالحياة من جديد .

وأعانته على ذلك أولريكه فون لفتزوف ، وكانت إحدى بنات ثلاث

لأماليا فون لفتزوف التى عرفها جوته فى كارلسباد . والتقى فى أغسطس ١٨٢١ بأولريكه فى مارينباد ، وقد قالت فيما بعد مسترجعة ذكرى هذا اللقاء : «لما كنت قد أقمت سنوات فى مدرسة داخلية فرنسية بستراسبورج ، وكنت لا أتجاوز السابعة عشرة ، فإننى لم أسمع قط بجوته ، ولا خطر لى أنه رجل مشهور وشاعر فحل . وعلى ذلك لم أشعر قط بالخجل من السيد العجوز الودود ... وفى غد ذلك اليوم ذاته طلب إلى أن أتمشى معه ... وكان يصحبنى معه فى نزهته كل صباح تقريبا . » (٣٠) وعاد إلى مارينباد فى ١٨٢٢ ، و « طوال ذلك الصيف أبدى لى جوته غاية الود » . وبعد عام التقيا فى كارلسباد ، وسرعان ما أثارا القيل والقال فى منتجع المياه المعدنية . وكان الشاعر الآن قد قرر أن حبه أكثر من الحب الأبوى . وألح الدوق كارل أوجست على أولريكه فى أن تتزوج جوته ، ووعدها إن فعلت بأن يمنح أسرتها فى فايمار بيتا جميلا ، وأن تحصل بعد موت الشاعر على معاش قدره عشرة آلاف طالر فى العام (٣١) . ورفضت الأم وابنتها . وقفل جوته محزونا إلى فايمار ، وأغرق خيبة أمله فى المداد . وعمرت أولريكه حتى أوفت على الخامسة والتسعين .

فى ذلك العام ، عام ١٨٢١ الذى قاد جوته لأولريكه ، جاءه فى فايمار كارل تسلتر — مدير الموسيقى فى برلين — بتلميذ فى الثانية عشرة يدعى فيلكس مندلسون . وكان تسلتر قد فتح روح جوته على عالم الموسيقى ، بل أنه علمه التأليف الموسيقى . وأذهلت براعة عازف البيان الصغير الشاعر العجوز وأبهجته ، فأصر أن يمكث معه أياما . وقد كتب فيلكس فى ٦ نوفمبر يقول : « فى كل صباح يقبلنى مؤلف « فاوست » و « فرتر » . وفى العصر أعزف له قرابة ساعتين ، وبعض العزف فوجات من باخ ، وبعضه من ارتجالى . وفى ٨ نوفمبر أقام جوته حفل استقبال ليقدم فيلكس إلى مجتمع فايمار الراقى . وفى ١٠ نوفمبر كتب فيلكس : « فى كل عصر يفتح البيان ويقول : لم أسمعك قط اليوم . تعال وأسمعنى شيئا من الضوضاء . ثم يجلس إلى جوارى ويصغى . لا تتصور كم هو عطوف ودود . » فلما أراد تسلتر أن يرجع فيلكس إلى برلين ، أقنعه جوته بأن يترك تلميذه أياما أخرى . وكتب الصبى

السعيد «وعلت الآن أصوات الشكر لجوته من كل ناحية ، ولثمت أنا والبنات شفتيه ويديه . وطوقت أوتيليه دون بوجفيش عنقه بذراعيها ، ولما كانت جميلة جدا ، وهو يغازلها طوال الوقت ، فقد كان الأثر رائعا » (٣٢) . إن في التاريخ لحظات سعيدة تتوارى خلف درامة المأساه ، وتحت ملاحظة المؤرخين .

٤ — العالم

ولنعد الآن إلى سنوات صباه ، حين بدأ بحثه الذى امتد طوال حياته فى العلم ، باهتمام يقظ ولذة تلتهم كل شىء . وقليلون منا من يعرفون أن جوته كرس للبحث والمؤلفات العلمية وقتاً أكثر مما كرس الكل شعره ونثره مجتمعين (٣٣) . وكان قد درس الطب والفيزياء فى ليبزج ، والكيمياء فى ستراسبورج : ثم بدأ دراسة التشريح فى ١٧٨١ ، وظل سنوات يضرب فى أرجاء ثورنجيا جامعاً للعينات المعدنية والنباتيـــة ويرقب التكوينات الجيولوجية . وكان فى أسفاره لايلحظ الرجال والنساء والفن فحسب ، بل الحيوان والنبات والظواهر البصرية والمتيورولوجية أيضا . وقد قام بدور رائد فى إنشاء المختبرات فى يينا . وكان يشتد فرحه بانتصاراته فى العلم أو حزنه بهزائمه فيه ، اشتدادة بنجاحه أو إخفاقه فى الأدب .

وقد استحدث شيئا فى دراسة الطقس . ذلك أنه نظم محطات للرصد الجوى فى دوقية ساكسى — فايمار ، وأعان على إنشاء محطات أخرى فى طول ألمانيا وعرضها (٣٤) ، وأعد التعليمات اللازمة لها . وكتب المقالات فى « نظرية الطقس » و « أسباب تذبذبات البارومتر » وأقنع الدوق كارل أوجست بأن يشرع فى اقتناء المجموعات التى كانت النواة لمتحف علم المعادن فى يينا ، وبعد أن درس الطبقات الجيولوجية فى إلمينا وذهب إلى أنها تؤيد نظرية أبراهام فرنر التى زعمت أن جميع التكوينات الصخرية على القشرة الأرضية نتيجة لفعل المياه البطىء . (ويجب أن تقرن هذه النظرية « النبتونية » بالنظرية «البركانية» التى تقول بالتغيير نتيجة للحركات العنيفة) . وكان من أوائل من ألمعوا إلى أن عمر الطبقات قد يقرر من المتحفرات

المطمورة فيها ، ومن دافعوا عن الرأى القائل بأن الجلاميد الهائلة الموزعة الآن توزيعا شاذا فى المرتفعات قد قذفتها هناك موجات من الجليد هابطة من المنطقة القطبية الشمالية[٣٥] .

وفى ١٧٩١ — ٩٢ نشر جوته فى مجلدين « مقالات فى البصريات » ، وكتب يقول «كان هدفى تجميع كل ماهو معروف فى هذا الميدان ، والقيام بكل التجارب بنفسى ، منوعا فيها قدر الاستطاعة ، ميسراً متابعتها ، مراعيا أن تكون فى متناول الشخص العـــادى [٣٦] . وقد أجرى خلال السنوات من ١٧٩٠ إلى ١٨١٠ مالا يحصى من التجارب لتفسير اللون ، وما زال متحف جوته بفايمار يحتفظ بالأدوات التى استعملها . وظهرت الحصيلة فى ١٨٠٠ فى مجلدين كبيرين يحتويان النصوص ، ومجلد للوحات ، تحت هذا العنوان « فى نظرية اللون » . وكان هذا أكبر آثاره عالما .

وقد درس الألوان باعتبارها ناشئة لا عن التركيب الكيميائى للأشياء فحسب ،بل عن تكوين العين وعملها . وحلل تكييف الشبكية للظلام والنور ، وفسيولوجية العمى اللونى ، وظواهر أطياف الون والصور التلوية ، وآثار تناقضات الألوان وتجمعاتها فى الإحساس وفى التصوير . وحسب اللون الأخضر — خطأ — مزيجا من الأصفر والأزرق . (وهما يمتزجان هكذا حقا على لوحة ألوان الرسام، ولكن حين يتحد الأزرق والأصفر فى الطيف ينتج عنهما الرمادى والأبيض) . وقد أعاد إجراء الكثير من التجارب التى ورد وصفها فى « بصريات » نيوتن (١٧٠٤) ، فوجد فى عدة حالات نتائج تختلف مما ذكر فى ذلك الكتاب ، وخلص إلى اتهام نيوتن بعدم الكفاية وبالغش أحيانا [٣٧] . وقد عارض رأى نيوتن فى أن الون الأبيض تأليف من عدة ألوان،وذهب إلى أن اتحاد الألوان ينتج عنه بانتظام اللون الرمادى لا الأبيض . ولكن نتائجه لم يقبلها لامعاصروه ولا من أتوا بعده فى ميدان البصريات . فقد اثنوا على تجاربه ورفضوا الكثير من نظرياته . وفى ١٨١٥ أرسل إليه آرثر شوبنهاور مقالا دافع فيه بكفاية عن فكرة نيوتن فى أن الأبيض تأليف من عدة ألوان — وكان شوبنهاور يعجب بجوته شاعرا

وفيلسوفا ؛ ولم يغتفر له الشيخ فعلته قط . وزاد الرفض العام لنظريته فى الألوان سنيه الأخيرة قتاما .

وكان طبعيا لرجل كجوته، حساس إلى هذا الحد أن يستهويه عالم النبات. فحين زار بادوا فى ١٧٨١ أبهجته الحدائق النباتية ، ففيها وجد مجموعة أغنى وأكثر تنوعا من كل ما رأى فى حياته . وشاهد مدى اختلاف نباتات الجنوب عن نباتات الشمال ، فصمم على دراسة تأثير البيئة على شكل النبات ونموه . كذلك لم يشعر قط بمثل هذا الشعور العميق بقدرة الطبيعة الملغزة العارمة على تطوير كل نوع — بما تفرد به من حيث التركيب والنسيج واللون والخط — من بزور تبدو بسيطة متشابهة . فيالها من خصوبة ، ويالها من قدرة على الابتكار ! ولكن أهناك بعض عناصر مشتركة فى كل تنوع الأفراد ، وفى كل تطور الأعضاء والأجزاء ؟ وخطر له أن هذه الأجناس والأنواع والأشكال هى تحورات من نموذج أصلى أساسى ، وأن هذه النباتات كلها ، مثلا ، شكلت على غرار نموذج أساسى أصيل — حتى وإن كان متخيلا — أو نبات أول ، هو أم النبات جميعا . وكتب إلى هردر يقول « إن هذا القانون ذاته يمكن تطبيقه على كل حى » أى على الحيوانات كما يطبق على النباتات ، فالحيوانات هى أيضا تحورات من أصل بنائى واحد[٣٨] . وكما أن الكائن الحى الفرد ، بكل تفرده ، هو محاكاة لنمط أول ، كذلك قد تكون أجزاء الكائن تحورات لشكل أساسى واحد . ولاحظ جوته فى بادوا نخيله (بالميطة) كانت أوراقها فى مراحل مختلفة من التطور ؛ فدرس مراحل الانتقال المرئية من أبسط ورقة إلى مروحة السعف الكاملة الرائعة ؛ وتصور فكرة مؤداها أن جميع تركيبات النبات — باستثناء المحور أو الساق — هى تحورات ومراحل للورقة(*) .

وبعد عودة جوتة إلى فايمار نشر نظريته فى كتيب من ست وثمانين صفحة عنوانه « محاولة قام بها س . ف . جوته عضو المجلس الخاص للدوقية ساكسى — فايمار ، لتفسير تطور النباتات » (١٧٩٠) .

(*) كان كاسپار فريد ريش فولف قد خلص إلى هذه النتيجة فى ١٧٦٨ .

وضحك علماء النبات من الكتيب وقالوا إنه أحلام شاعر ، ونصحوا الشاعر بأن يلزم حرفته . (٣٩) فلم يكذبهم ، وصاغ آراءه من جديد ، فى قصيدة سماها « تحور النباتات » وتجمعت الأدلة والمؤيدون للنظرية شيئاً فشيئاً .

وفى ١٨٣٠ قدم إتيين جوفروا سانتللير مقال جوته لأكاديمية العلوم الفرنسية ، وأشاد به أثراً من آثار البحث الدقيق والخيال الخلاق يؤيده تقدم علم النبات (٤٠) .

وألمع جوته (١٧٩٠) فى محاولة لتطبيق نظريته على التشريح إلى أن الجمجمة ليست سوى تحور وتتمة للفقرات ، تحتوى المخ كما يحتوى العمود الفقرى على الحبل الشوكى ، وليس هناك اليوم اتفاق على هذه الفكرة . ولكن إنجازاً ذكياً أكيـــداً يرجع الفضل فيه إلى جوته فى التشريح — وهو إثباته وجود العظمة البينفكية فى الإنسان (وهى العظمة التى تتوسط عظمتى الفك العلوى والتى تحمل القواطع العلوية) . وكان علماء التشريح قد تبينوا وجود هذه العظمة فى الحيوان ، ولكنهم ارتابوا فى وجودها فى الإنسان ، وكان لاكتشاف جوته الفضل فى تضييق الخلاف البنيانى بين الإنسان والقرد .

استمع إلى الشاعر يعلن نجاحه فى خطاب من بيتا إلى شارلوته فون شتين مؤرخ ٢٧ مارس ١٧٨٤ — العاشق والعالم ممتزجين معاً : « سطور إلى حبيبتى لوته ، أقرئها تحية الصباح ... لقد منحت شعوراً بالرضى يبهجنى . ذلك أنى اهتديت إلى كشف تشريحى جميل وهام فى وقت معاً . وسيكون لك نصيبك فيه ، ولكن لا تنبسى بكلمة عنه » . (٤١) وأذاع كشفه فى مقال خطى أرسله إلى مختلف العلماء فى ١٧٨٤ بعنوان « محاولة قائمة على علم العظام المقارن ، لإثبات أن العظمة البينفكية فى الفك الأعلى يشترك فيهـــا الإنسان والحيوانات العليا » وكانت هذه «أول رسالة كتبت من قبل يمكن أن توصف بحق بأنها تدخل فى باب التشريح المقارن ، وهى إذن معلم فى

تاريخ هذا العلم »[٤٢] (وقد نشر المشرح الفرنسى فيلكس فيك دازير هذا هذا الكشف ذاته فى السنة نفسها ١٧٨٤) .

كتب جوته فى رسالته : « أن الانسان شديد الشبه بالحيوان الأعجم ... فكل مخلوق إنما هو نغمة أوتحوير فى تآلف ألحان عظيم »[٤٣] وقد ذهب كثيرون من العلماء والفلاسفة الذين سبقوه إلى أن الإنسان جزء من مملكة الحيوان ونظم قصيدة سماها « تطور الحيوانات » ولكنه لم يكن من دعاة التطور بالمعنى الداروينى . فقد افترض ثبات الأنواع اتباعاً لمذهب نينايوس ، وهكذا لم يكن « النبات الأول » الذى قال به نباتاً بدائياً فعلياً تطورت منه جميع النباتات ، إنما كان مجرد نمط عام كانت كل النباتات تحويرات له . ولم يكن رأيه كرأى معاصريه لامارك وإرازمس داروين فى أن الأنواع متطورة من أنواع أخرى بالانتخاب البيئى لأشكال واحدة .

فهل كان جوته عالماً حقيقياً ؟ ليس بالمعنى الاحترافى . لقد كان هاوياً غيوراً مستنيراً ، وعالماً بين القصائد والروايات والغراميات والتجارب الفنية والواجبات الإدارية .

وقداستخدم أجهزة كثيرة وجمع مكتبة علمية كبيرة ، ولاحظ ملاحظات مفيدةوتجارب دقيقةوشهدهلمهولتز بالدقةالواقعيةللعمليات والتجارب الموضوعية التى وصفها جوته[٤٤] . وقد تجنب التفسيرات الغائية . ولكن العلماء المحترفين لم يقبلوه عالماً ، لأنهم نظروا إليه هاوياً يعتمد على الحدس والفرص بثقة مفرطة . وكان ينتقل بسرعة أكثر مما ينبغى من موضوع أو تحقيق إلى آخر لامسا كلا منها نقطة خاصة ، دون أن يبلغ فى أى منها مسحا للميدان فى إلا فى البصريات ونظرية اللون . ولكن كان هناك شئ مثالى وبطولى فى إصراره المتشعب المتعدد الأشكال . وقال إكرمان فى ١٨٢٥ : « سيبلغ جوته عامه الثمانين بعد بضع سنوات ، ولكنه لم يكل من الأبحاث والتجارب ، فهو لا يفتأ جاداً فى أثر تأليف كبير »[٤٥] . وربما كان الشاعر محقا فى رأيه أن الهدف الأكبر للعالم ينبغى ألا يكون إمداد الرغبات القديمة بأدوات جديدة ، بل توسيع الحكمة بالمعرفة فى سبيل إثارة الرغبة .

٥ — الفيلسوف

كان فى الفلسفة ، كما كان فى العلم ، عاشقاً لا أستاذاً محترفا — مع أنه صاحب الفضل فى تعيين فشته وشيلنج وهيجل فى كراسى الفلسفه بيينا . وكان قليل الاهتمام جداً بجدليات المذاهب الفلسفية ، ولكنه كان معنيا أشد العناية بتفسير الطبيعة ومعنى الحياة. وكلما تقدم به العمر بات بفضل العلم والشعر حكيما ، وقد وجد الأنارة عن « الكل » من كل شيء ، وكل لحظة ، وكل جزء : « كل عابر ليس إلا رمزاً » (٤٦) و « الأقوال المأثورة العارضة » التى خلفها عند موته دون أن تطبع ، تنضح بالحكمة فى كل صفحة .

ولم يقدم أى نسق منطقى ، ولكنه ألمع ، براجماتيا إلى « أنه لا حقيق إلا ما هو مثمر » (٤٧) وإلى أنه « فى البدء كان الفعل (لا الكلمة) » (٤٨) فنحن نجد الحقيقة فى الفعل أكثر مما نجدها فى الفكر ، وينبغى أن يكون الفكر أداة للعمل ، لا بديلا عنه . ولم يولع بكانط كما أولع به شيلر ، فقد اعترف بأن الطبيعة النهائية للحقيقة تتجاوز علمنا ، ولكنه لم يشعر أن هذا يلزمه بسفية العقيدة ، بل على العكس أوصى بتجاهل ما لا يمكن معرفته ، « إن مالا سبيل إلى سبر أغواره ليست له قيمة عملية » ، والعالم المحسوس كاف لحياتنا (٤٩) ولم تساوره أى ريب أو مخاوف معرفية حول الاعتراف بوجود عالم خارجى . كتب لشيلر بعد أن قرأ كانط وشيلنج يقول « أنى أسلم مختاراً بأن ماندركه حسيا ليس الطبيعة (فى ذاتها) ، بل إن الطبيعة تفهم طبقاً لصور وملكات معينة لفكرنا .... ولكن توافق طبائعنا العضوية مع العالم الخارجى . . . (يدل على) تصميم من الخارج ، وعلاقة نحو الأشياء » (٥٠) « وكثيرون يقاومون الاعتراف بالحقيقة ، لاشىء إلا لأنهم لو قبلوه لانهاروا » (٥١) .

ولكن جوته رفض المادية رفضه للمثالية الذاتية . وقال إن « مذهب الطبيعة » الذى قال به دولباخ « بدا لنا [نحن الطلاب فى ستراسبورج] شديد القتام . . . رهيبا كالموت ، حتى لقد وجدنا فى إطلقة وجوده عناء ونكدا ، وكنا نرتعد فرقا منه كأنه عفريت » . (٥٢) كان هذا فى شبابه ،

ولـكنه أحس به أيضاً فى شيخوختـــه وهو يكتب إلى كنيبل فى ٨ ابريل ١٨١٢ :

« إن الرجل الذى لايدرك هذه الحقيقة : ولا يسمو إلى هذه الرؤية ، وهى أن الروح والمادة ، للنفس والجسد ، الفــكر والامتداد ، ... إنما هما مقوما الكون التوأمان الضروريان ، وسيظلان كذلك أبد الدهر ، وإن لهذين الاثنين حقوقا متساوية ، ومن ثم يمكن اعتبارهما فى وجودهما معاً ممثلين لله ؛ أقول أن رجلالايدرك هذا خير له أن ينفق عمره فى ثرثرة أهل الدنيا ولغوهم الفارغ .

وهذا بالطبع هو سبينوزا ، وجوته يتبع سبينوزا إلى الحتمية — «نحن ننتمى إلى قوانين الطبيعة ، حتى أن تمردنا عليها [٥٣] ، ولكنه أحيانا يميل إلى الاتفاق مع كانط على أن « حياتنا ، مثلها مثل الكون الذى ننتمى إليه ، تتألف على نحو ملغز من الحرية والضرورة . » [٥٤] وكان يشعر بقوة قضاء وقدر تعمل فيه — صفات تفرض نمره وتقرره ، ولكنه يتعاون معها ، كما يتعاون عامل حر يخدم قضية تحركه وتحتويه .

أما دينه فتجميد للطبيعة ، ورغبة فى التعاون مع قواها الخلاقة — قدرتها الإنتاجية المتعددة الأشكال ومثابرتها العنيدة ؛ على أنه استغرق زمناً طويلا ليكتسب صبرها . وقد شخص « الطبيعة » على نحو مبهم ، فرأى فيها فكراً وإرادة ، ولكنه فكر يختلف تماماً عن فكرنا ، وإرادة محايدة فى غير اكتراث كأنها تحايد بين ناس وبراغيث . فليس للطبيعة مشاعر أخلاقية بالمعنى الذى نقصده من التزام الجزء بالتعاون مع الكل ، لأنها « هى» الكل . وفى قصيدته « الإلهى » (١٧٨٢) وصف جوته الطبيعة بأنها بغير شعور ولا رحمة . فهى تدمر كما تعمر بإسراف . «كل مثالكم العليا لن تمنعنى (جوته) من أن أكون أصيلا ، صالحاً وطالحاً ، كالطبيعة » [٥٥] ، ومبدؤها الأخلاقى الوحيد هو : عش واجعل غيرك يعيش . وقد سلم جوته بحاجة كثير من النفوس إلى سند فوق طبيعى ، ولكنه لم يشعر بمثل هذه الحاجة إلا فى أخريات عمره. « من عنده الفن أو العلم فهو يملك (ما يكفى من)

الدين ؛ أما من ليس عنده فن أو علم فهو فى حاجة إلى الدين » (٥٦) . انني بصفتى شاعراً وفناناً أشعر بتعدد الآلهة (فأشخص قوى الطبيعة المنفصلة) ، أما فى دورى عالماً فأناأميل إلى الحلولية (أىأرى إلهاً واحداً فى كل شىء)(٥٧)

وإذا كان « وثنياً ثابتاً عامداً » فى الدين والأخلاق ، فقد خلا من الإحساس بالخطيئة ، ولم يشعر بحاجة إلى إله يموت كفارة عنه ، (٥٨) وأنكر كل حديث عن الصليب . وقد كتب إلى لافاتر فى ٩ أغسطس ١٧٨٢ يقول « لست عدواً للمسيحية ، ولا مضاداً لروح المسيحية ، ولكنى قطعاً لا — مسيحى . . . أنك تقبل الإنجيل ، كما هو ، على أنه حقيقة إلهية . حسناً ، ما من صوت مسموع من السماء يمكن أن يقنعنى بأن امرأة يمكن أن تحبل بطفل دون رجل ، وأن رجلا ميتاً يقوم من قبره . وأنا أعد هذه كلها تجديفات على الله وعلى إعلانه ذاته فى الطبيعة » (٥٩) . وضيق عليه لافاتر الخناق (كما يروى لنا جوته) و « أخيراً سألنى السؤال العسير » إما مسيحى وأما ملحداً « فصارحته بأنه ان لم يترك لى مسيحيتى كما اعتززت بها إلى ذلك الحين ، ففى استطاعتى أن أنحاز دون تردد إلى صف الإلحاد ، خصوصاً وأننى أرى أنه ما من إنسان يعرف على التحديد المعنى المقصود من كل من هذين اللفظين» (٦٠) . وقد ذهب جوته إلى أن « الدين المسيحى ثورة سياسية جهيضة انقلبت أخلاقية » (٦١) وفى الأدب « مئات الصفحات التى فيها من الجمال والفائدة ، مثل ما فى الأناجيل (٦٢) ، ومع ذلك أعد الأناجيل الأربعة كلها حقيقية لا غبار على صحتها ، ففيها يتجلى البهاء المنعكس للقوة السامية التى انبثقت من شخص المسيح وطبيعته ، الذى كان إلهياً ماظهرت الألوهية فى الأرض . . . وأنا أنحنى أمامه بوصفه المظهر الإلهى لأسمى مبدأ للفضيلة » (٦٣) . ولكنه اعتزم أن يعبد الشمس كما يعبد المسيح ، باعتبارها مظهراً معادلا من مظاهر القوة الإلهية (٦٤) . وقد أعجب بلوثر ، وامتدح حركة الإصلاح البروتستنتى لتخطيها أغلال التقاليد ، ولكنه أسف على انتكاسها إلى العقائدية المتزمتة (٦٥) . وخامره شعور بأن البروتستنتية ستعانى من افتقارها إلى المراسم الملهمة المكونة للعادات ، ورأى أن الكاثوليكية

حكيمة سمحة فى رمزها للعلاقات والتطورات الروحية بالأسرار المقدسة البالغة الوقع فى النفوس [٦٦] .

أما آراء جوته فى الخلود فقد تغيرت مع السنين . ففى ٢ فبراير ١٧٨٩ كتب إلى فريدريش تسو شتولبرج يقول . « أما أنا فأتمسك بوجه عام بتعاليم لوكريتيوس ، وأقصر نفسى وكل آمالى على هذه الحياة » . ولكنه فى ٢٥ فبراير ١٨٢٤ قال لاكرمان « لا أريد اطلاقاً أن أستغنى عن سعادة الأيمان بحياة مستقبلة ؛ والحق انى أقول مع لورنتسودى مديتشى ان الذين لا رجاء لهم فى حياة أخرى هم موتى حتى فى هذه الحياة » ؛ وفى ٤ فبراير ١٨٢٥ ، «انى راسخ الاقتناع بأن روحنا شىء لايقبل الفناء اطلاقاً » [٦٧] . وقرأ زفيد نبورج ، وقبل فكرة عالم الروح [٦٨] ، وداعب آمال تقميص الأرواح . ودرس القبلانية وبيكوديللا ميراندولا ، بل رسم البروج أحياناً لكشف الطالع [٦٩] . وكلما تقدم به العمر ازداد تسليمه بما للإيمان من حقوق .

« إذا توخيت الدقة فى التعبير ، قلت إنه لا يمكننى أن أصل إلى معرفة لله إلا المعرفة التى أستقيها من الرؤية المحدودة المتاحة لمدركاتى الحسية على هذا الكوكب المفرد . ومعرفة كهذه إنما هى شظية من شظية . ولست أسلم أن هذه المحدودية ، التى تصدق على ملاحظتنا للطبيعة ، يجب أن تصدق فى ممارسة الإيمان . فالعكس هو الصحيح . ولعل معرفتنا ، وهى ناقصة بالضرورة ، تتطلب الإضافة والاستكمال بفعل من أفعال الإيمان »[٧٠] .

وفى ١٨٢٠ أسف على تأليفه « برومثيوس » المتمرد أيام شبابه ، لأن شباب المتطرفين يومئذ كانوا يستشهدون به ضده [٧١] . وقد انصرف عن فشته حين اتهم فشته بالإلحاد [٧٢] . وكان رأيه الآن « انه من واجبنا ألا نخبر غيرنا بأكثر مما فى قدرتهم تلقيه . فالإنسان لا يفهم إلا ما يناسبه » [٧٣] .

وكما تغيرت آراؤه فى الدين ، كذلك تغير مفهومه للأخلاق مع تقدم عمره . فحين كان يظفر بنشاط الشباب وكبريائه فسر الحياة بأنها ليست سوى

مسرح لتنمية الذات والظهور . « ان هذه الرغبة الملحة فى أن أرفع ما استطعت هرم حياتى الذى أعطيته وأرسيت قاعدته لى ، ترجح كل ما عداها ، ولا تكاد تسمح بلحظة انتكاس »[٧٤] . وقد رأيناه يجرح نفوساً رقيقة فى هذه العملية . ولكنه حين نضج بفضل المنصب السياسى أدرك أن الحياة البشرية عملية تعاونية ؛ وأن الفرد إنما يحيا بالمساعدة المتبادلة ؛ وأن الأفعال الأنانية — وان ظلت القوة الأساسية — إلا أنه لا بد من أن تحدها حاجات الجماعة . ففاوست فى قسمها الأول هى النزعة الفردية متجسدة ؛ وفى قسمها الثانى يجد « الخلاص » وسلامة الروح ، بالعمل للصالح العام . وفلهم مايستر فى « تلمذته » يحاول تعليم ذاته وإنماءها وإن كان يحكم طبيعته وتدريبه كثيراً ما يعين اخوانه ؛ وفى « تطويفاته » يحاول تحقيق المزيد من سعادة المجتمع . وقد غض جوته من الوصية بمحبة الأعداء، ولكنه عرف النبل بنبل فى قصيدة من أروع قصائده :

« ليكن الإنسان نبيلا
معيناً وطيباً
فذلك وحده
هو الذى يميزه
عن سائر الكائنات
التى نعرفها . . .
ان الطبيعة
مجردة من العواطف
تشرق شمسها
على الأشرار والأبرار ،
ويضىء القمر والنجوم
على الصالحين والطالحين .
والرياح والسيول ،
والرعد والبرد ،

تهدر في طريقها ،
تنتزع وتكتسح أمامها
واحداً بعد واحد . . .
ولا مناص لنا كلنا بحكم القوانين
العظمى ، الأبدية الصارمة ،
من أن نكمل دورة وجودنا .
ولكن الإنسان وحده
يستطيع المحال ،
فهو يميز ،
ويختار ، ويحكم ؛
ويستطيع أن يطيل مكث
اللحظة العابرة .
هو وحده القادر على
ان يثيب الخير ،
ويعاقب الشر ،
ويشفي وينقذ ،
ويصدق النصح
للخطاة والضالين
فليكن الإنسان النبيل
معيناً وطيباً .

ولكي يكون الإنسان نبيلا عليه أن يحذر المؤثرات المفسدة ، و « الكل مؤثر إلا ذواتنا » [٧٥] . « دعك من دراسة المعاصرين والذين يحاربونك ؛ بل أدرس عظماء الماضي الذين احتفظت آثارهم بقيمتها ومكانتها قروناً . فالرجل الموهوب حقاً ينحو هذا النحو بحكم طبيعته ، والرغبة في التنقيب في أعمال الأسلاف العظام علامة صادقة على الموهبة السامية » ،[٧٦] وعليك باحترام المكتبات وإجلالها لأنها التراث الذى خلفه هؤلاء الرجال . « ان

المرء حين يتأمل مكتبة ما يشعر كأنه فى حضرة رأس مال هائل يأتى فى صمت بفائدة لاتقدر » (٧٧) . ولكن الفكر بغير الخلق أسوأ كثيراً من الخلق بغير الفكر ، « فكل ما يحرر العقل دون أن يمنحنا السيطرة على أنفسنا مؤذ » (٧٨) . خطط لحياتك ، ولكن حاول الموازنة بين الفكر والعمل ؛ فالفكر بغير العمل مرض . « فلأن تعرف حرفة وتمارسها يزودك بثقافة أكثر مائة مرة من نصف المعرفة » (٧٩) . « وما من بركة تعدل بركات العمل » (٨٠) وفوق كل شيء كن « كلا » أو انضم إلى كل « أن النوع الإنسانى وحده هو الإنسان الحق ، ولا يستطيع الفرد أن يفرح ويسعد إلا إذا امتلك شجاعة الشعور بنفسه فى الكل »(٨١) .

وهكذا نرى الفنى الذى ورث أسباب الرغد والأمن ، والذى أضحك طلاب ستراسبورج على لباسه المترف الغريب ، قد تعلم بفضل الفلاسفة والقديسين وتجارب الحياة أن يفكر فى الفقراء بعطف ، وأن يتمنى لوتقاسم المحظوظون من الناس ثرواتهم مع الفقراء بسخاء أكثر . وينبغى أن تفرض الضرائب على النبلاء بنسبة دخولهم ، وأن يتيحوا لاتباعهم الإفادة من « المنافع التى تهيئها المعرفة والرجاء المتزايدان »(٨٢) وقد أحس جوته بما يحس به البورجوازيون من حسد لأصحاب النبالة بالميلاد حتى بعد أن طبق صيته آفاق أوربا . « فى المانيا لاتتاح فرصة الحصول على . . . ثقافة شخصية مكتملة الجوانب للنبـــلاء » (٨٣). وكان يراعى جميع فروض الاحـــترام المألوف فى سلوكه مع رؤسائه . وكل الناس يعرفون ما وقع لجوته وبيتهوفن فى تبلتز ، فى يوليو ١٨١٢ ؛ ولكن المصدر الوحيد لهذه القصة هو بتينا برنتانوفون آرنيم ، غير الموثوق بروايتها ، التى ادعت أنها تنقل عن رواية بيتهوفن :

« يستطيع الملوك والأمراء حقاً أن يخلعوا الألقاب والأوسمة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يصنعوا عظماء الرجال الذين يجب إذن النظر إليهم بإجلال . وحين يجتمع اثنان مثل جوته ومثلى ، فلا بد لهؤلاء السادة من ذوى الحسب

والنسب أن يفقهوا معنى العظمة عند أمثالنا . فبالأمس التقينا بالأسرة الامبراطورية (النمساوية) كلها ، وخلص جوته ذراعه من ذراعى ليقف جانباً . أما أنا فكبست قبعتى على رأسى واخترقت الجمع فى أكثف نقطة وذراعاى تتدليان على جانبى . واصطف الأمراء وأفراد الحاشية فى صفين ؛ ورفع دوق فايمار قبعته لى ، وحيتنى الامبراطورة أولا . وقد أضحكنى أن أرى الموكب يمر أمام جوته الذى وقف على جنب وقبعته فى يده . وقد عنفته بعدها بقسوة على ما أتاه [٨٤] .

وسيختلف انفعالنا بهذه القصة باختلاف عمرنا . فلقد شعر جوته بأن الارستقراطية العاملة بنشاط وبروح خدمة الجماعة تهيىء خير الحكومات الممكنة آنئذ فى أوربا ، وتستحق الاحترام الواجب للنظام والضبط الاجتماعيين . وينبغى اصلاح المفاسد ، ولكن فى غير عنف أو اندفاع ؛ فالثورات تكلف أكثر مما تساوى ، وتنتهى عادة إلى حيث بدأت . ومن ثم يقول مفستوفيليس لفاوست :

« وا أسفاه ! إليك عنى ! كف عن الثرثرة حول ذلك الشجار بين الطغيان والرق ! انه يضايقنى . فما إن ينته حتى يبدأ من جديد مع المهزلة كلها » [٨٥] .

ومن ثم يقول جوته لأكرمان فى سنة ١٨٢٤ : « صحيح انى لم أكن صديقاً للثورة الفرنسية . فلقد كانت أهوالها عاجلة جداً . . . على حين لم تكن آثارها النافعة منظورة بعد . . . ولكننى بالمثل لم أكن متعاطفاً مع الحكم التعسفى الذى سبقها . وكنت حتى فى ذلك الوقت مقتنعاً بأنه ما من ثورة هى غلطة الشعب . بل هى دائماً غلطة الحكومة » [٨٦] . وقد رحب بنابليون نعمة على النظام فى فرنسا وأوربا بعد عقد حفل بالاضطرابات . وكان يتشكك فى الديمقراطية لأنه « ما من شىء أسوأ من الجهل النشيط »[٨٧] ، و « محال أن نتصور أن الحكمة يمكن أن تكون فى يوم من الأيام صفة شعبية » [٨٨] .

ثم سخر من تذبذب « اطان بين الأحزاب . « أن الناس يتقلبون فى

السياسة كما يتقلبون على فراش المرض من جنب إلى جنب أملا فى مزيد من الراحة فى رقادهم »[٨٩] . وقد عارض حرية النشر بحجة أنها تعرض المجتمع والحكومة للإزعاج المستمر على يد كتاب يعوزهم النضج والشعور بالمسئولية . وبدت له الصرخة المطالبة بالحرية ، فى أواخر عمره ، مجرد جوع المحرومين من المناصب للسلطان والمغانم . « ان الهدف الأوحد هو نقل القوة والنفوذ والثراء من يد إلى اليد التالية . وما الحرية إلا كلمة السر التى يهمس بها المتآمرون المتسترون ، وصيحة المعركة الصاخبة يصيح بها الثوار السافرون ، لا بل شعار الاستبدادية ذاتها وهى تسوق جماهيرها الخاضعة على العدو واعدة إياها بالخلاص من الطغيان الخارجى إلى الأبد »[٩٠] .

لقد وفى جوته كل الوفاء بواجب الكبار ، بقيامه بوظيفة الكابح لطاقة الصغار .

٦ — فاوست : الجزء الثانى

ولقد سكب فلســفته التى تقدم بها العمر فى الجزء الثانى من فاوست . ففى خاتمة الجزء الأول كان قد ترك « نفسه الثانية » ، محطمة يائسة ، فى قبضة مفستوفيليس — الشهوة تعاقب على افراطها . ولكن ، أكان ممكناً أن يكون هذا كل شيء ، وأن يكون جماع الحكمة ؟ ان فاوست لم يكن قد خسر رهانه كل الخسران ، فالشيطان لم يعثر له بعد على أية متعة تهدىء نضاله وتملأ حياته . فهل ثمة أشباع كالذى يتوق إليه فى أى مكان ؟ لقد كافح جوته طوال أربعة وعشرين عاماً ليجد للقصة تتمة وقمة تحويان أو ترمزان إلى النتائج التى خلص إليها تفكيره ، وتسبغان على بطله خاتمة نبيلة ملهمة .

وأخيراً . وحين بلغ الثامنة والسبعين ، تصدى للمهمة . ففى ٢٤ مايو ١٨٢٧ كتب إلى تسلتر الذى شاخ كما شاخ هو وكان مزمعاً أن يموت معه : « أود أن أعترف لك فى هدوء . . . بأننى عاودت العكوف على فاوست . . فلا تخبر بذلك أحداً » . وكانت خاتمة بايرون المثيرة فى حرب اليونان التحريرية

قد حركت مشاعر جوته ؛ فالآن يستطيع أن يجعل بايرون ، فى شخص « يوفوريون » (ومعناه السعادة) ، بن فاوست وهيلانة يمثل شفاء العقل العصرى ، الممزق الحائر ، بفضل اتحاده مع جمال اليونان القديمة الهادىء . ومن ثم راح يكد ويكدح فى ساعات الصباح ، فلا يبلغ من ذلك غير صفحة واحدة على أحسن تقديره ، حتى أفضى لأكرمان فى أغسطس ١٨٣١ ، قبل موته بسبعة شهور ، بأن المهمة المضنية قد تمت — بعد أن انقضت تسع وخمسون سنة على تصوره إياها أول مرة . وكان قد كتب يقول « أسعد الناس من استطاع وصل نهاية حياته ببدايتها » [٩١] . وقال الآن « أيا كان مقدار ما بقى لى من الحياة فى وسعى أن أعده منذ الآن منحة ، ولست فى الحق أبالى ان كنت سأنجز فوق ما أنجزت أم لا » [٩٢] .

ولا يستطيع المرء أن يسترسل اليوم فى قراءة كل الجزء الثانى من فاوست إلا فى ثقة واطمئنان أعوام ثمانين . فابتداء من المنظر الافتتاحى الذى يصف فيه فاوست ، بعد استيقاظه بين حقول الربيع ، شروق الشمس ببلاغة لم تبل جدتها ، تقف حركة القصة المرة بعد المرة للتغزل فى جمال الطبيعة أو التغنى بعظمتها أو رهبتها ؛ وقد أجاد المؤلف الوصف . ولكنه أسرف فيه ؛ فجوته المبشر بالانضباط الكلاسيكى يأثم هنا ضد شعار « القصد فى القول » . ذلك أنه صب فى الدراما كل شىء تقريباً تراكم بغير نظام فى ذاكرته الجياشة : الميثولوجيات اليونانية والألمانية ، وليدا والبجعة ، وهيلانة وركبها ، والساحرات ، والفرسان ، والجنيات ، والأقزام والحيوانات الخرافية ، والأقزام البشرية ، وحوريات الغاب ، والسيرانات ، ومقالات الجيولوجية « النبتونية » ، والخطب الطويلة يلقيها الرسل ، والفتيات بائعات الزهر ، وحوريات الحدائق ، والحطابون ، — والمهرجون القصار السمان ، والسكارى ، وأتباع الفرسان ، ووكلاء الإقطاعيين ، والنظار ، ثم سائق مركبة حربية وأبو هول ، ومنجم وإمبراطور ، وآلهة الحقول وفلاسفة ، وكراكى أبيكوس ، و« رجل قصير » (قزم) صنعه فجنر تلميذ فاوست كيميائياً . والخليط أشد تحيراً وإرباكاً من الدغل المدارى ،

لأنه يضيف العنصر فوق الطبيعى إلى الطبيعى ، ويسبغ على كل شىء موهبة الخطابة أو الغناء .

وما أعظم الراحة التى نستشعرها حين نظهر هيلانة فى الفصل الثالث ، وهى ما تزال على نحو معجز إلاهة بين النساء ، تغزو قلوب الرجال برشاقة حركتها أو بلحظ عينيها . وتتخذ القصة قوة جديدة ، ويرتفع الكورس إلى نبرة سوفوكلية ، حين تسمع هيلانه ان منيلاوس رغبة فى عقاب « الجمال الوقح المتغطرس » أمر بأن تسلم هى ووصيفاتها إلى شهوات قبيل « بربرى » يغزو بلاد اليونان من الشمال . أما زعيمهم ففاوست نفسه ، الذى انقلب بحيلة مفستوفيلية فارساً من فرسان العصور الوسطى ، مليح القد والصورة واللباس . ويبلغ جوته ذروة فنه الدرامى حين يصف لقاء هيلانه وفاوست — اليونان القديمة تواجه ألمانيا الوسيطة . فليتحد الإثنان ! تلك هى الفكرة الرئيسية فى القصة . ويفتتن فاوست ككل الرجال فيلقى عند قدمها بكل ما وهبه السحر والحرب من مال وقوة . وتستسلم هى لتوسلاته ، فهذا المصير على أى حال لم يكن شراً من الموت . ولكن منيلاوس يقترب مع جيشه فيقطع عليهما نعيمهما . وفى لمح البصر ينقلب فاوست من الغرام إلى الحرب ، ويستنفر رجاله ويقودهم إلى غزو اسبرطه (وهذه ذكرى « الفرنجة » يغزون المورة فى القرن الثالث عشر) .

ثم يتغير المشهد ، فقد مرت السنون سراعاً ، وإذا يوفوريون شاب سعيد يشرح صدر فاوست وهيلانه بـ « العناق والمزاح اللعوب والنداءات المرحة » [٩٣] . قافزاً فى استهتار من جرف إلى جرف ، وأبواه يحذرانه فى رفق ، راقصا فى عنف مع الحوريات اللائى افتتن بحسنه (بايرون فى إيطاليا) ، ويمسك بواحدة منهن فى جذل ؛ فإذا هى تنفجر مشتعلة بين ذراعيه . وحين يسمع فى ترحيب ناقوس الحرب يدق ، يندفع خارجاً ، فيهوى من منحدر قائم ، ويدعو أمه وهو يموت لتلحق به فى العالم السفلى .

« هيلانه (لفاوست) ويلاه ! ان حكمة قديمة يتحقق فى صدقها — فزفاف المال إلى الجمال لا يدوم أبدا . ان رباط الحياة يتمزق كما يتمزق

رباط الحب ، فوداعاً لهما جميعاً وأنا أبكيهما فى عذابى ، وعلى صدرك أرتمى مرة أخرى ، فتلقينى يا برسيفونى أنا وولدى . (تعانق فاوست ؛ ويتلاشى جسمها وتبقى الثياب والنقاب بين ذراعيه) » .

وهكذا يختتم الفصل الثالث ، وهو أجمل فصول هذا الجزء الثانى من فاوست . وهو الجزء الذى بدأ جوته بكتابته ، وسماه « هيلانه » ، وظل حيناً يفكر فيه على أنه كل كامل قائم بذاته ؛ ولو تركه كذلك لكان خيراً له . فهنا ارتفع جوته لآخر مرة إلى قمة شعره بجهد بطولى لاستنهاض ما بقى له من قوى ، مازجا الدراما بالموسيقى كما جرى اليونان على عهد بركليس ، نافخاً الحياة والحرارة فى شخوص قصة رمزية معقدة لشفاء العقل العصرى.

ومن ذلك العلو الشاهق ينزلق الجزء الثانى من فاوست إلى حرب بين امبراطور وغريم ينافسه على العرش الرومانى المقدس . ويحقق فاوست ومفستوفليس بحيلهما السحرية النصر فى الحرب للإمبراطور ؛ ويطلب فاوست وينال جزاء له مساحات كبيرة من ساحل الامبراطورية الشمالى ، مضافاً إليها ما يسعه انتزاعه من الأرض من براثن البحر . وفى الفصل الخامس نرى فاوست وقد بلغ المائة سيدا على ملك شاسع ، ولكنه لم يصبح بعد سيداً على نفسه . وذلك أن كوخاً لزوجين من الفلاحين هما فليمون وباوكيس تحجب المنظر من قصره ؛ فيعرض عليهما بيتاً أفضل فى موقع آخر ، ولكنهما يرفضان ؛ فيطلب إلى مفستوفيليس وعملائه أن يطردوهما ؛ ولكنهم يلقون المقاومة ، فيشعلون النار فى الكوخ ؛ ويموت الزوجان العجوزان رعباً . ولا يلبث فاوست أن تطوف به رؤى الأرواح المنتقمة ، عجائز شمطاوات اسمهن الفقر ، والذنب ، والهم ، والحاجة ، والموت ، وينفخ الهم فى وجهه فيعميه . وتنتشله من اليأس فكرة فيها شىء من الإيثار ؛ فيأمر مفستوفيليس وشياطينه بأن يقيموا السدود على البحر ، ويجففوا المستنقعات ، ويبنوا على الأرض الجديدة ألف بيت وسط الحقول الخضراء ؛ ويتخيل هذه الأرض المنتزعة من البحر ، ويشعر بأنه ان استطاع « مع شعب حر أن يقف على أرض حرة » لقال أخيراً لهذه اللحظة العابرة « لاتبرحى لأنك جميلة جداً » (٩٤) . ويسمع أصوات الفؤوس والمعاول ، فيظن

أن مشروعه الضخم يتقدم ؛ أما الحقيقة فهي أن الشياطين تحفر قبره . ويأخذ منه الإرهاق كل مأخذ ، فيخر صريعاً على الأرض ؛ فيشمت فيه مفيستوفيليس بينما يهيأ حشد من الشياطين لحمل روح فاوست إلى الجحيم ؛ ولكن جيشاً من الملائكة ينقض من السماء ، وبينما يتسلى مفستوفيليس بالإعجاب بسيقانهم ، يرفع الملائكة رفات فاوست . وفى السماء نرى فاوست الذى ألبس جسداً نورانياً تستقبله بالتحية جريتشن الممجدة الآن ، والتى تتوسل إلى الأم العذراء قائلة : « هبيني أن أعلمه ! » وتأمرها العذراء بأن تقوده صعداً ، ويختتم كورس سحرى المسرحية بهذا النشيد :

« كل عابر
ليس إلا رمزاً ؛
وكل ناقص لم يكمل
يبلغ الكمال هنا »
وما لا يمكن وصفه
يتحقق ها هنا
السرمدى الأنثوى
يجذبنا صعداً وقدماً .

٧ — التمام : ١٨٢٥ — ١٨٣٢

فى ١٨٢٣ أصبح يوهان بيتر إكرمان ، البالغ واحداً وثلاثين عاماً ، سكرتير جوته ؛ وبدأ يدون حديث الشيخ للأجيال القادمة وتحتوى حصيلة هذا الجهد « أحاديث مع جوته » (ثلاثة مجلدات ١٨٣٦ — ٤٨) ، التى راجعها جوته جزئياً ؛ من ذخائر الحكمة أكثر مما نجده عند معظم الفلاسفة .

وفى سبتمبر ١٨٢٥ احتفلت فايمار بالذكرى الخمسين لتولى كارل أوجست العرش وحضر جوته الاحتفال . وأمسك الدوق بيده وتمتم قائلا له معاً إلى آخر نسمة »[٩٥] . وفى ٧ نوفمبر احتفل البلاط بالذكرى الخمسين

لقـــدوم جوته إلى فايمار ، وأرسل إليــه الدوق خطاباً أذيع أيضاً على الشعب :

« ببالغ السرور أود أن أنوه بالذكرى الخمسينية لهذا اليوم يوبيلا لا للخادم الأكبر لدولتى فحسب ، بل لصديق صباى الذى رافقنى طوال تقلبات الحياة بثابت المحبة والولاء والوفاء . وإنى لمدين فى نجاح أهم مشروعاتى لمشورته الواعية ولتعاطفه الذى لاينى وخدمته النافعة . وإنى لأعد ضمى اياه لشخصى بصفة دائمة مفخرة من أعظم مفاخر ملكى[٩٦] .

ثم أقبلت سنوات الشيخوخة الحزينة حين يختفى الصديق تلو الصديق ؛ فنى ٢٦ أغسطس ١٨٢٦ ، بعد عيد ميلاد جوته السابع والسبعين بيومين ، أرسلت شارلوته فون شتين ، وهى فى الرابعة والثمانين ، آخر ما نعرف من رسائل لحبيبها منذ نصف قرن : « كل تمنياتى الصادقة وبركاتى بمناسبة هذا اليوم . وأتوسل إلى الملائكة الحارسة فى المحفل السماوى أن تأمر بمنحك أيها الصديق الأعز كل خير وجميل . وإننى مازلت المخلصة لك فى رجاء وبلا خوف ، وأنا أسألك أن تهبنى عطفك السمح خلال الفسحة القصيرة التى بقيت لى فى الأجل »[٩٧] . ثم ماتت فى ٦ يناير ١٨٢٧ ، فلما سمع جوته بالنبأ بكى . وفى ١٥ يونيو ١٨٢٨ مات الدوق ، وعرفت فايمار أن عصرها الذهبى أخذ يولى . واستعد جوته لدوره بالعكوف على فاوست بنشاط محموم . ولكن الدور لم يكن دوره بعد . ذلك أن أوجست ، ابنه الوحيد الباقى على قيد الحياة ، بعد أربعين سنة من الفشل ، وعشرين من الفسق ، مات فى روما فى ٢٧ أكتوبر ١٨٣٠ . وقد أظهر تشريح جثته أن حجم كبده خمسة أضعاف الحجم العادى . فلما أبلغ جوته بالنبأ قال (باللاتينية) « لم أكن أجهل أنى أنجبته إنساناً فانياً »[٩٨] . وكتب يقول « حاولت إغراق نفسى فى العمل وقد ألزمت نفسى بالمضى فى المجلد الرابع من كتاب « الشعر والحقيقة »[٩٩] .

وحين بلغ الثمانين بدأ يحد من مجال اهتماماته . فنى ١٨٢٩ كف عن قراءة الصحف . وكتب إلى تسلتر يقول « لست أستطيع البدء بإنبائك بما اكتسبته من

وقت وما أنجزته من أعمال خلال الأسابيع الستة التى تركت فيها جميع الصحف الفرنسية والألمانية دون أن أفتحها » [١٠٠] « سعيد من كان عالمه فى بيته » [١٠١] . وقد حظى بالمحبة والرعاية من أرملة أوجست ، أوتيلييه ، واستشعر البهجة بأطفالها . ولكنه كان أحياناً يعتكف حتى عنهم ويطلب الخلوة التامة ويثنى على الوحدة لأنها المواسية والمحك للعقل المثقف .

ولقد أفصح وجهه الآن عن أعوامه الثمانين : غضون عميقة عبر الجبين وحول الفم ، وشعر فضى يتراجع ، وعيون هادئة متسائلة ؛ ولكن عوده ظل مستقيماً وصحته جيدة . وكان يفخر بأنه اجتنب القهوة والتبغ وكلاهما مذموم فى رأيه لأنه سم زعاف . وكان معجباً بطلعته وبكتبه ، يستطيب ثناء الناس عليه صراحة ، ولا يبذله إلا ضنيناً به . بعث إليه شاعر شاب فى ١٨٣٠ بديوان شعر ، فرد عليه جوته ينبئه بتسلمه رداً لاذعاً قال فيه « تصفحت كتيبك . ولكننى نحيته لأن على المرء فى وباء من أوبئة الكوليرا أن يحمى نفسه من المؤثرات المضعفة » [١٠٢] . وكان يضيق بأصحاب الكفايات الهزيلة ، وازداد ضيقه بالناس أكثر فأكثر كلما أكرهته الشيخوخة على الانطواء على نفسه ، وقد اعترف بهذا فقال « كل من ظننى لطيفاً من واقع مؤلفاتى ألفى نفسه مخدوعاً أشد الخداع حين احتك برجل فيه برود وتحفظ [١٠٣] . ووصفه زواره بأنه بطىء الانفراج ، فيه شىء من التكلف والتصلب ربما نتيجة لارتباكه ، أو لضنه بالوقت ينتزع من واجباته . ومع ذلك فإن كثيراً من رسائله تدل على الرقة ومراعاة مشاعر الآخرين .

وطبق صيته الآن آفاق أوربا . وأشاد به كارليل — قبل موت جوته بزمن طويل — فحلا من فحول الأدب العالمى . وأهدى بايرون « ورنر » إليه ، وأهدى برليوز « هلاك فاوست » إلى « المونسنيور جوته » ؛ وأرسل إليه الملوك الهدايا . ولكن قراءه فى ألمانيا كانوا قله ، والنقاد مناوئين له ، وانتقص منافسوه من قدره ورموه بأنه عضو فى مجلس الأمير مغرور يدعى أنه شاعر وعالم . وأدان ليسنج « جوتز » و « فرتر » لأنهما هراء رومانسى ؛ واحتقر كلوبشتوك « ارمان ودوروتيا » لأنه كتاب عادى لا امتياز فيه ،

و«افجينى» لأنه تقليد جامد لليونان . ورد جوته بعبارات متكررة من الاحتقار لألمانيا — لمناخها ، ومناظرها الطبيعية ، وتاريخها ، ولغتها ، وفكرها . وشكا من أنه أضطر « للكتابة بالألمانية ، وهكذا . . . أهدر الحياة والفن على أسوأ مادة »(١٠٤) . وقال لأصحابه ان « هؤلاء الألمان الحمقى » يستحقون تماماً هزيمتهم على يد نابليون فى يينا (١٠٥) ، وقد جاء دور ألمانيا لتضحك منه حين انتصر الحلفاء على بونابرت فى ووترلو .

وإذ انسلخ عن نهر الأدب الرئيسى (النهر الرومانتيكى) فى شيخوخته ، فقد عزى نفسه باحتقار ازداد عمقاً للعالم والإنسان . « تبدو الحياة كلها — إذا نظرنا إليها من قمم العقل — كأنها مرض خبيث ، والعالم كأنه مستشفى للمجانين » (١٠٦) . وكتب إلى تسلتر فى ٢٦ مارس ١٨١٦ « قبل أيام وقعت على نسخة من أول طبعة لآلام فرتر ، وبدأت ترتفع من جديد تلك الأغنية التى طال إسكاتها . وشق على أن أفهم كيف استطاع رجل أن يطيق العالم أربعين سنة مع أنه تبين سخفه حتى فى صباه » (١٠٧) . ولم يتطلع إلى أى تحسين ذى بال فى المستقبل . « ان الناس لا يعيشون إلا ليكدر ويقتل بعضهم بعضا . كذلك كان ، وكذلك هو اليوم ، وكذلك سيظل إلى أبد الدهر » (١٠٨) ، وكان يرى كما يرى معظمنا بعد الستين أن الجيل الجديد منحط . « ان هذه الخيلاء التى لاتصدق ، والتى يشب عليها الشباب ، ستتمخض بعد بضع سنوات عن أعظم الحماقات . . . ومع ذلك فهناك الكثير الذى يتحرك وينشط ، وقد يكون مبعث اغتباط فى السنين القادمة (١٠٩) » .

وفى ١٥ مارس ١٨٣٢ أصيب بنزلة برد وهو راكب عربته فى نزهة . ثم بدا أنه تماثل للشفاء فى الثامن عشر من الشهر ، ولكن فى اليوم العشرين كانت الإصابة قد نزلت إلى صدره ، وألهبته حمى النزله ، وشوه الألم وجهه . وفى الثانى والعشرين لاحظ أن الربيع بدأ ، وقال « لعل هذا يعيننى على البرء . » وكانت الحجرة قد أظلمت لأراحة عينيه ؛ فاعترض قائلا « أدخلوا مزيداً من الضوء » . وإذ كان لا يزال ضيقاً بالظلام أمر خادمه قائلا « افتح ستارة النافذة الأخرى ليدخل مزيد من الضوء . » وكانت هذه

فيما يبدو آخر كلماته . وكان قد قال لأوتيليه « أيتها المرأة الصغيرة ، ناوليني كفك الصغيره » ومات بين ذراعيها قابضاً على يدها ظهر يوم ٢٢ مارس ١٨٣٢ بالغاً اثنتين وثمانين سنة وسبعة شهور [١١٠] .

ورأى اكرمان جثمانه فى الغد :

«كان الجسد عارياً إلا من كفن أبيض . . . وأزاح الخادم الملاءة فأذهلنى ما رأيت فى أطرافه من بهاء إلهى . وكان الصدر قوياً ، عريضاً ، مقبباً ، والذراعان والفخذان ممتلئة مفتولة فى رقة ؛ والقدمان أنيقتين وفى أكمل هيئة ؛ ولم يكن فى الجسم كله أثر لا لشحم ولا لنحول ولا لتحالل . فقد رقد أمامى رجل كامل فى أجمل صورة ؛ وأنستنى بهجة المنظر لحظة أن الروح الخالدة قد فارقت هذا المسكن » [١١١] .

وهكذا اختتم عصر عظيم ، ابتداء من انتصار فردريك الكئيب فى ١٧٦٣ ، ومروراً بليسنج وكانط ، وفيلاند وهردر ، وانتهاء بشيلر وجوته . ولم يوفق العقل الألمانى منذ لوثر إلى مثل هذا النشاط والتنوع والثراء فى التفكير المستقل . ولم يكن بالكارثة على ألمانيا أنها لم تكن امبراطورية مترامية كامبراطورية بريطانيا مستغرقة فى الفتح والتجارة ؛ ولا ملكية ممركزة كالملكية الفرنسية تمزقها فشل الحكومة ؛ ولا استبدادية كاستبدادية روسيا تتخم نفسها بالأرض أو تخدر نفسها بالماء المقدس . ان ألمانيا — من الناحية السياسية — لم تكن قد ولدت بعد ، ولكنها فى الأدب كانت تتحدى العالم الغربى ، وفى الفلسفة تقود هذا العالم .

★ ★ ★

الفصل الخامس والعشرون

اليهـــود

١٧١٥ — ١٧٨٩

كفاح الحياة

قال روسو :

أن اليهود يقدمون لنا مشهداً عجيباً . فقد ماتت قوانين صولون، ونوما، وليكورجوس ؛ أما شرائع موسى ، الأقدم بكثير ، فما زالت حية . وقد بادت أثينا ، واسبرطة ، وروما ، ولم تترك خلفاً على الأرض ، أما صهيون التى دمرت فلم تفقد بنيها ؛ فقد احتفظوا بكيانهم ، وهم يتكاثرون ، وينتشرون فى أرجاء العالم . . . وهم يخالطون كل الشعوب دون أن يذوبوا فيها(١) ؛ وليس لهم حكام ، ومع ذلك فهم دائماً شعب» .

وربما كان بقاء ناموس راجعاً لالحكمته الأصلية بقدر جدواه فى حفظ النظام والاستقرار بين جماعات تعيش فى خطر وسط عقائد معادية وشرائع أجنبية . فى الشتات كان على الكنيس (المجمع) أن يقوم بما تقوم به الكنيسة والحكومة ، وربط الحاخامات بين أفراد شعبهم فى وحدة متماسكة خلال جميع التقلبات والغير بإعطائهم بركة إيمان دينى فخور لناموس نظم كل منحى من مناحى الحياة اليهودية وأصبحت الأسفار الموسوية الخمسة الدستور — وأصبح التمود المحكمة العليا — لدولة غير منظورة .

وفقد العداء لليهودية بعض قواعده الدينية باضمحلال الاعتقادات السنية . وقد عرف المسيحيون ممن ألموا بطرف من التاريخ أن كل شعب تقريباً من الشعوب المسيحية ، فى فترة أوأخرى ، اضطهد المهرطقين بالقتل

الجماعى جيلا بعد جيل أو دواوين التفتيش أو المذابح المنظمة . وعرف فولتير هذا[٢]، وندد المرة بعد المرة باضطهاد المسيحيين لليهود، وأثنى على ما رآه فى اليهود من «أسلوب فى الحياة رزين منظم، ومن زهد، وكد» وأدرك أن اليهود الأوربيين أقبلوا على التجارة لأن حرمانهم من تملك الأرض «أعجزهم عن التوطن بصفة دائمة — أى مأمونة — فى أى بلد»[٣] . ومع ذلك فقد انقلب فولتير عدواً لليهود عداوة لا هوادة فيها . ذلك أنه تورط فى معاملات غير موفقة مع رجال المال اليهود . فعند رحيله إلى انجلترا حمل معه صكوكاً على المصرف اللندنى «مديناً» ، الذى أفلس أثناء ذلك وهو مدين لفولتير بعشرين ألف فرنك[٤] . وفى برلين كلف ابراهام هيرش — كما أسلفنا — بشراء سندات هبطت قيمتها فى سكسونيا ، بقصد استيرادها (بطريقة غير قانونية كما حذره هيرش) إلى بروسيا ليسترد قيمتها هناك بربح يبلغ خمسة وستين فى المائة[٥] . وتشاجر الفيلسوف ورجل المال ، واحتكما إلى القضاء ، وانتهيا بالكراهية المتبادلة . وفى مقال فولتير عن «الأعراف» أطلق لحقده العنان فوصف العبرانيين القدامى بأنهم «أمة حقيرة ، وشعب من اللصوص ، فظيع ، رجس ، ناموسه ناموس المتوحشين ، وتاريخه نسيج من الجرائم ضد الإنسانية».[٦] واعترض قسيس كاثوليكى بأن هذا اتهام وحشى إلى حد مضحك[٧] . ونشر يهودى برتغالى عالم يدعى إسحاق بنتو فى ١٧٦٢ «تأملات» فيها نقد للفقرات المعادية لليهود والواردة فى مقال بعنوان «اليهود» فى القاموس الفلسفى ؛ واعترف فولتير بأنه «أخطأ فى وصم أمة بأسرها برذائل أفراد»، ووعد بحذف الفقرات المهينة فى الطبعات القادمة ؛ ولكنه غفل عن الوفاء بوعده[٨] . وكان موقف الكتاب الفرنسيين عموماً ضد فولتير فى هذا الأمر[٩] . وتكلم روسو على اليهود بتعاطف مشرب بالفهم[١٠] .

ولم يكن لليهود فى فرنسا حقوق مدنية قبل الثورة ، ولكنهم أنشأوا جماعات ناجحة وخرجوا زعماء ذوى نفوذ ، اشترى أحدهم اقطاعية اشتملت على أميان ؛ واستعمل حقه الإقطاعى فى تعيين قساوسة الكتدرائية ، فاحتج الأسقف ، ولكن برلمان باريس أيد الإقطاعى اليهودى (١٧٨٧) واعترفت الحكومة الفرنسية شاكرة بمساعدة الماليين اليهود لها فى حروب الوراثة

الأسبانية والبولندية ، ولعب اليهود دوراً كبيراً فى إحياء شركة الهند الشرقية بعد انهيار مغامرة « لو » فى ١٧٢٠ (١١) . وكان يهود بوردو ذوى ثراء عريض ؛ واشتهر تجارهم ومصرفيوهم بنزاهتهم وجمودهم ؛ ولكنهم اعتزوا بأصلهم الصفاردى ، ونجحوا فى اقصاء جميع اليهود الاشكنازيين عن بوردو .

ولم يكن فى أسبانية القرن الثامن عشر يهود سافرون . ففى مطالع حكم البوربون الأسبان استغلت جماعات صغيرة منهم استنارة فليب الخامس المزعومة لاستئناف شعائر العبادة اليهودية سراً ، واكتشفت حالات كثيرة ، وأعدم ديوان التفتيش بين عامى ١٧٠٠ و١٧٢٠ ثلاثة يهود فى برشلونه ، وخمسة فى قرطبة ، وثلاثة وعشرين فى طليطلة ؛ وخمسة فى مدريد . واحفظت الديوان هذه الاكتشافات فهب ينشط من جديد ، وبلغ عدد الدعاوى التى نظرتها محاكمه بين عامى ١٧٢١ و ١٧٢٧ أكثر من ثمانمائة بتهمة اليهودية من بين ٨٦٨ دعوى ، وأحرق خمسة وسبعون ممن أدينوا . أما بعد ذلك فالحالات المثيلة كانت نادرة جداً . وفى سنوات الديوان الختامية ، (١٧٨٠ — ١٨٢٠) حاكم الديوان الأسبانى نحو خمسة آلاف متهم ، لم يرم منهم باليهودية غير ستة عشر ، وكان عشرة منهم أجانب (١٢) . وظلت قوانين أسبانيا تحرم من المناصب المدنية أو الحربية جميع الأشخاص الذين لايستطيعون إثبات نقاء دمائهم من كل أثر علق به من أسلاف يهود . وقد شكا المصلحون من أن هذا الشرط حرم الجيش والحكومة الأسبانيين من خدمات الكثير من الرجال الأكفاء . وفى ١٧٨٣ خفف شارلى الثالث هذه القوانين (١٣) .

أما فى البرتغال فقد أحرق ديوان التفتيش سبعة وعشرين يهودياً لرفضهم الارتداد عن الديانة اليهودية (١٧١٧) (١٤) . وقد وفد على لشبونه فى ١٧١٢ قادماً من ريودجانيرو أنطونيو دا سيلفا ، الذى كان فى رأى سوذى أفضل كتاب المسرحيات البرتغال ؛ فقبض عليه هو وأمه فى ١٧٢٦ لأنهما يهوديان ، وأحرقت الأم ، واستعطف الإبن فأطلق سراحه ،

ويبدو أنه ارتد بعد ذلك ، لأنه أحرق فى ١٧٣٩ ولما يعد الخامسة والثلاثين [١٥] ثم أنهى المركيز دبومبال بإصلاح من اصلاحاته الكثيرة كل تفرقة بين المسيحيين القدامى والمحدثين (الذين اعتنقوا المسيحية) (١٧٧٤) [١٦] .

أما فى إيطاليا فقد سبقت البندقية غيرها إلى تحرير اليهود ، ففى ١٧٧٢ أعلن أن يهود الجمهورية أحرار متساوون مع سائر السكان . وتخلفت روما ، وكان الغيت (حى اليهود) هناك أسوأ أحيائهم فى أوربا . وزادت خصوبة الإنجاب الشديدة التى شجعها الأحبار من الفقر والقذارة ، وأتت على يهود روما فترة كان عشرة آلاف منهم يسكنون فى حيز لايزيد على كيلو متر مربع واحد [١٧] . وكان نهر تيبر يفيض على ضفافه كل عام فيغمر شوارع الحى الضيقة ويملأ الحجرات السفلى بالطين الموبوء . واحترف يهوديو روما الخياطة لحرمانهم من أكثر الحرف ؛ ففى ١٧٠٠ كان ثلاثة أرباع الذكور البالغين منهم خياطين [١٨] ، فبدأوا بذلك عادة تحدرت بينهم حتى أيامنا هذه . وفى ١٧٧٥ أصدر بيوس السادس مرسوماً بابوياً جدد فيه القديم من المحظورات على اليهود وأضاف إليها جديداً : فحرم عليهم ركوب العربات ، وترتيل المراثى فى الجنائز ، وإقامة الشواهد على قبور موتاهم [١٩] . وكان على يهود روما أن ينتظروا مجىء نابليون ليحررهم من هذه القيود .

وأما فى النمسا فقد أحست ماريا تريزا أن التقوى تلزمها بحبس اليهود فى أحياء ضيقة بعينها ، وبحرمانهم من الحرف والمناصب وتملك العقارات [٢٠] ، ولكن ابنها يوزف الذى مسه التنوير الفرنسى اقترح على مجلس الدولة فى ١٧٨١ مشروعاً « يفيد به المجتمع من طبقة الإسرائيليين الكبيرة فى أراضينا الوراثية » (النمسا والمجر وبوهيميا) وذلك بتشجيعهم على أن يتعلموا — وبعد ثلاثة أعوام يشترط عليهم أن يستعملوا — اللغة القومية فى جميع الشئون القانونية أو السياسية أو التجارية . ويجب ألا « يضايق اليهود على أى وجه فى ممارسة شعائرهم أو عقائدهم » . وينبغى دعوتهم للاشتغال بالزراعة ، ولدخول ميدان الصناعة والتجارة ، ولممارسة الفنون — على أن يظل محظوراً عليهم أن يصبحوا معلمى حرف فى النقابات الحرفية ، لأن هذا يتطلب حلف يمين الولاء للعقيدة المسيحية . ثم تلغى كل أسباب التفرقة المهنية ، وكل

القيود المفروضة إلى ذلك الحين على اليهود ، « وكذلك كل العلامات الظاهرة أيا كانت » . واعترض مجلس الدولة والمديرون الإقليميون على البرنامج لأنه فضفاض مفاجيء بحيث لايقبله الشعب . وقدم يوزف حلا وسطاً ، فأصدر فى ٢ يناير ١٧٨٢ « ترخيص تسامح » ليهود فيينا والنمسا السفلى : فنالوا بمقتضاه حق إدخال أبنائهم مدارس الدولة وكلياتها ، والتمتع بالحرية الاقتصادية إلا أن يتملكوا العقارات ؛ ولكن حرم عليهم التنظيم الطائفى المستقل ، وبناء المجامع فى العاصمة ، ومنعوا من سكنى مدن معينة — ربما لأن العداء لليهود فيها كان مستحكماً إلى درجة خطرة . ونصح يوزف رعاياه المسيحيين باحترام أشخاص اليهود وحقوقهم باعتبارهم اخواناً لهم ، وكل إهانة أو عنف يعامل به يهودى « سيعاقب مقترفه عقاباً صارماً » ، ويجب أن يمنع إدخالهم فى المسيحية بالإكراه . وما لبث الإمبراطور أن أصدر تراخيص مماثلة لبوهيميا ومورافيا وسيليزنا النمساوية . وقد قدر لليهود مساهماتهم فى خزانته ، فخلع النبالة على عدة يهود ، واستخدم عدداً منهم ما ليين للدولة[٢١] .

ولكن إصلاحاته — كما ذكر المبعوث الفرنسى إلى فيينا — « اثارت صيحة استنكار عامة . . . والتسهيلات الكبيرة الممنوحة لليهود يراها الناس مفضية بلا ريب إلى خراب الدولة »[٢٢] . وشكا التجار المسيحيون من المنافسة الجديدة ، وأدان القساوسة المراسيم لأنها تتسامح مع الهرطقة السافرة ، واعترض بعض الحاخامات على اختلاف الأطفال اليهود إلى مدارس الدولة مخافة أن تفتن الشباب عن اليهودية . ولكن يوزف أصر على موقفه ، وقبل أن يموت بسنة وسع « ترخيص التسامح » ليضم غاليسيا أيضاً ، وكانت إحدى مدنها ، وهى برودى ، تضم خلقاً كثيراً من اليهود (١٨,٠٠٠) حتى لقد لقبها الإمبراطور أورشليم الحديثة . وعند موت يوزف (١٧٩٠) كانت فيينا قد عودت نفسها على النظام الجديد ، ومهدت الأرض لثقافة فيينا اليهودية المسيحية الرائعة التى ازدهرت فى القرن التاسع عشر .

ويمكن القول عموماً إن حظ اليهود فى الأقطار الإسلامية كان خيراً من

حظهم فى الأقطار المسيحية . وقد وصفت الليدى مارى ورتلى مونتجيو ، ربما فى شيء من المبالغة حالهم فى تركيا عام ١٧١٧ فقالت :

« إن اليهود . . . يتمتعون بسلطان لا يصدق فى هذا البلد . فلهم امتيازات كثيرة يفوقون فيها جميع الأهالى الأتراك أنفسهم . . . لأنهم يحاكمون طبقاً لقوانينهم . وقد استقطبوا كل تجارة الإمبراطورية فى أيديهم ، وذلك بفضل ما يربطهم من وحدة وثيقة من جهة ومن جهة أخرى لبلادة الترك وافتقارهم إلى الجد والاجتهاد . ولكل باشا مساعده اليهودى الذى يدير أعماله . . . وهم الأطباء ، والوكلاء ، والمترجمون ، لأكابر القوم أجمعين . . . وكثير منهم ذوو ثراء عريض »[٢٣] .

والبون شاسع بين حظ هؤلاء وحظ اليهود القلائل الموجودين فى روسيا — لاسيما فى « أقاليم التخوم » المواجهة لبولنده — عند وفاة بطرس الأكبر . وفى ١٧٤٢ أمرت الإمبراطورة اليزابث بتروفنا بأن « يرحل فوراً من أمبراطوريتنا كلها . . . جميع اليهود . . . ولا يسمح لهم منذ الآن بدخول امبراطوريتنا بأية حجة . . . ما لم . . . يعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب الرومى» . وما حلت سنة ١٧٥٣ حتى كان قد طرد قرابة ٣٥,٠٠٠ يهودى[٢٤] وتشفع بعض رجال الأعمال الروس لدى الإمبراطورة لتخفف من صرامة المرسوم ، محتجين بأن طرد اليهود قد أحدث كساداً فى اقتصاد الأقاليم لأنه حول التجارة منها إلى بولنده وألمانيا ، ولكن اليزابث لم تلن لها قناة .

فلما أن تربعت العرش كاترين الثانية أرادت أن تسمح بدخول اليهود من جديد ، ولكنها أحست بأن هذا العرش يهتز من تحتها اهتزازاً لا تجرؤ معه على التصدى لمعارضة رجال الدين . غير أن التقسيم الأول لبولنده أوصل المشكلة إلى مرحلة جديدة . فما العمل فى ٢٧,٠٠٠ يهودى طال مقامهم فى ذلك الجزء من بولنده الذى ظفرت به روسيا الآن ؟ لذلك أعلنت كاترين (١٧٧٢) أن « الجماعات اليهودية المقيمة فى المدن والأقاليم التى أدمجت الآن فى الإمبراطورية الروسية تترك لتتمتع بجميع الحريات التى تملكها الآن »[٢٥] . وسمح لهؤلاء اليهود البولنديين بقسط كبير من الحكم الذاتى ، وأجيز لهم

شغل المناصب البلدية ، ولكن حرم عليهم الهجرة من « نطاق الاستيطان » (الأقاليم البولندية السابقة) إلى داخل روسيا . وفى ١٧٩١ أبيح لليهود أن يستوطنوا أقاليم خرسون وتاوريدا وإكاترينوسلاف سبيلا إلى التعمير السريع لهذه الأقاليم المفتوحة حديثاً وتيسير الدفاع عنها . وكان العداء الإقتصادى لليهود الذى يلقونه من معظم رجال الأعمال الروس ، والعداء الدينى الذى يلقونه من عامة الروس ، يجعلان الحياة أثناء ذلك شاقة خطرة على اليهود فى الإمبراطورية .

وفى ١٧٦٦ كان يسكن بولنده ٦٢١,٠٠٠ يهودى [٢٦] . وقد صدق أوغسطس الثانى وأغسطس الثالث على « امتيازات» الحماية التى منحها لهم الحكام السابقين ، ولكن هذين الحاكمين السكسونيين ، المشغولين بمملكتين ومذهبين دينيين (فضلا عن خليلاتهما) ، لم يتح لهما وقت يذكر للتصدى لذلك العداء العرقى الذى استشعرته الجماهير البولندية نحو اليهود . ففرضت الحكومة عليهم ضرائب إضافية ، وحاول الإقطاعيون الهبوط بهم إلى درك الإقنان ، وكلفهم الحكام المحليون ثمناً باهظاً لحمايتهم من عنف الغوغاء . ونددد القساوسة باليهود لأنهم « متشبثون بكفرهم » وطالب مجمع كنسى عقد فى ١٧٢٠ بأن تحظر الحكومة « بناء المجامع الجديدة لليهود وترميم القديمة منها» . وكرر مجمع عقد فى ١٧٣٣ مبدأ العصر الوسيط القائل بأن المبرر الوحيد للتسامح مع اليهود هو أنهم قد يصلحون « أداة للتذكير بعذابات المسيح ، ومثلا يضرب — بعبوديتهم وبؤسهم — للعقاب العادل الذى ينزله الله بالكافرين » [٢٧] .

وفى ١٧١٦ نشر عبرانى دخل فى المسيحية يدعى سيرافينوفتش كتاباً اسماه « فضح الشعائر اليهودية » اتهم فيه اليهود باستعمال دم المسيحيين لشتى الأغراض السحرية : لتلطيخ أبواب المسيحيين ، ولمزجه بالفطير الذى يأكلونه فى الفصح ، ولغمس قطعة قماش فيه محتوية على تعزيمة يقصد بها حماية بيت أو انجاح تجارة . . . وتحدى اليهود سيرافينوفتش أن يثبت صحة دعاواه ، وجمعوا مجلساً من الحاخامات والأساقفة ليستمعوا إليه ، ولكنه لم يمثل أمام المجلس ، بل أعاد نشر كتابه [٢٨] . وقد اتهم اليهود غير مرة بقتل

الأطفال للحصول على دم مسيحى ، واستدعى يهود بولنديون لمحاكمتهم على تهم كهذه فى ١٧١٠ و ١٧٢٤ و ١٧٣٦ و ١٧٤٧ و ١٧٤٨ و ١٧٥٣ و ١٧٥٦ و ١٧٥٩ و ١٧٦٠ ، وعذبوا فى حالات كثيرة ، حتى الموت أحياناً ، وسلخت جلود بعضهم أحياء ، ومات بعضهم بالخازوق موتاً بطيئاً . . . (٢٩) وفزع اليهود المروعون إلى البابا بندكت الرابع عشر ليكف عنهم هذه الاتهامات ، وعرضت أدلة الإثبات والنفى على الكردينال كامبانيللى ، وبعد أن تلقى تقريراً من القير البابوى فى وارسو ، أصدر مذكرة مؤداها أنه لم يثبت فى حالة من هذه الحالات أنهم مذنبون . وأيدت محكمة ديوان التفتيش بروما مذكرة الكردينال . وكتب السفير البابوى للحكومة البولندية (١٧٦٣) يقول « ان الحبر الأقدس ، بعد فحص كل الأسس التى قام عليها اتهامهم بهذا الشذوذ — وهو أن اليهود يحتاجون إلى الدم البشرى لتجهيز فطيرهم ، خلص إلى أنه ما من دليل يثبت صحة ذلك الاتهام المغرض » (٣٠) . وكان البابا انوسنت الرابع قد أصدر حكماً مماثلا فى ١٢٤٧ . ولكن الاتهام بالشذوذ لم يتوقف .

وكان الخوف من المذابح عنصراً يتردد فى حياة اليهود البولنديين . ففى ١٧٣٤ و ١٧٥٠ و ١٧٦٨ تألفت جماعات من القوزاق والفلاحين الأرثوذكس الروس الذين نظموا على شكل عصابات مثيرة للشغب ، وشنت الغارات على كثير من المدن والقرى فى أقاليم كييف وفولهينيا وبودوليا ، وينهبون الضياع ويقتلون اليهود . وفى ١٧٦٨ حمل المغيرون « مرسوماً ذهبياً » نسب زوراً وبهتاناً إلى كاترين الثانية ، ويدعوهم إلى « استئصال شأفة البولنديين واليهود ، الذين يدنسون ديانتنا المقدسة » ، وذبحوا فى مدينة واحدة هى أومان عشرين ألف بولندى ويهودى . وجردت كاترين جيشاً روسياً يتعاون مع القوات البولندية على قمع المغيرين (٣١) .

أما فى المانيا فإن اليهود كانوا يعيشون فى أمن ورخاء نسبيين وإن عانوا من شتى المعوقات فى الحياة الاقتصادية والسياسية . فقد فرضت عليهم ضرائب خاصة فى معظم الإمارات (٣٢) .ولم يسمح القانون إلا لعدد محدود من اليهود بالعيش فى برلين ، ولكن القانون لم ينفذ بدقة ، فزادت الجالية

البرلينية عدداً ومالا ، وقامت مستوطنات مماثلة فى همبورج وفرانكفورت. وبلغ عدد من اختلف من التجار اليهود إلى سوق ليبزج فى ١٧٨٩ نيفا وألف تاجر[٣٣] . واستخدم الحكام الألمان ، وحتى الأمراء — الأساقفة الكاثوليك منهم ، اليهود لإدارة شئونهم المالية أو لتموين جيوشهم . وقد أدى يوزف أوبنهايمر (١٦٩٢ — ١٧٣٨) المعروف باسم « اليهودى سوس » هذه المهام وغيرها لناخب بالاتين فى مانهايم ، ولكارل الكسندر دوق فورتمبرج . وكان لذكائه واجتهاده الفضل فى إثرائه وإثراء الدوق ، وفى اكتسابه الكثير من الأعداء . وقد اتهم بالغش فى دار ضرب النقود ، ولكن مجلساً من المحققين برأ ساحته ، فرقى عضواً فى مجلس الدوق الخاص ، حيث لم يلبث أن أصبح القوة المسيطرة . وقد ابتكر ضرائب جديدة ، وأنشأ احتكارات ملكية ، وقبل على ما يبدو الرشا — التى اقتسمها مع الدوق[٣٤] . فلما اقترح الدوق ايداع جميع أموال الكنيسة فى مصرف مركزى للدولة ، انضم رجال الدين البروتستنت مع الإشراف فى معارضة الدوق ووزيره . وفى ٣ مارس ١٧٣٧ مات الدوق فجأة ، فقبض قادة الجيش والزعماء المدنيون على أوبنهايمر وكل يهود شتوتجارت ، وحوكم أوبنهايمر وادين ، وفى ٣ فبراير ١٧٣٨ خنق وعلقت جثته فى قفص فى ميدان عام[٣٥] .

ذكرنا من قبل جولات جوته فى حى اليهود بفرانكفورت . وقد اشتقت أسرة من أقدم الأسرات هناك اسمها الأخير ، وهو روتشيلد ، من الدرع الحمراء التى ميزت مسكنها . وفى ١٧٥٥ أصبح ماير أمشيل صاحب الدرع الحمراء رب الأسرة بعد وفاة أبويه ، وكان فى الحادية عشرة من عمره . وكانت كثرة الدويلات الألمانية ، وكل لها عملتها المستقلة ، قد جعلت تغيير النقود ضرورة متكررة للمسافرين ؛ وتعلم ماير فى صباه معادلات النقود بين الدويلات ، فكان يتقاضى رسماً صغيراً على كل تحويل . ثم درس علم العملات هواية جانبية وجمع العملات النادرة ، وأرشد جماعاً آخر هو الأمير فلهلم الهاناوى وحصل منه على لقب « وكيل التاج » الذى ساعده فى عمله بفرانكفورت . ثم تزوج

فى ١٧٧٠ ، وأنجب خمسة أبناء ، أنشأوا فيما بعد فروعاً لشركة روتشيلد فى فيينا ونابلى وباريس ولندن . واكتسب ماير سمعة الحكم السديد والنزاهة والجدارة بالثقة . فلما ان خلف فلهلم أمير هاناو أباه حاكماً على هسى كاسل ، ازداد تعامل ماير أمشيل مع القصر ، فما وافى عام ١٧٩٠ حتى بلغ دخله السنوى ثلاثة آلاف جولدن — وهو ما يعادل دخل أبى جوته الثرى ستمائة مرة (٣٦) . ونمت ثروة الأسرة نمواً سريعاً خلال حروب الثورة الفرنسية ، وشغل ماير بتموين الجيوش ، وعهد إليه بإخفاء أموال الأمراء وأحياناً باستثمارها .

وواصل اليهود فى الأراضى الواطئة واسكندناوه تمتعهم بحرية نسبية . وازدهرت جماعة أمستردام اليهودية . ولم تعرف الأحياء المقصورة على اليهود فى الدنمرك ، فقد تنقل اليهود بحرية وسمح بالزيجات المختلطة . وفى ألتونا ، المدينة التجارية الواقعة وراء نهر ألب من همبورج ، والتى كانت أنئذ ملكاً للدنمرك ، عاشت جالية من أغنى الجاليات اليهودية فى أوربا . وفى السويد بسط جوستاف الثالث حمايته على اليهود فى ممارستهم السلمية لشعائرهم .

ووجد كثيرين من اليهود الهاربين من الاضطهاد فى بولنده وبوهيميا الملجأ فى انجلتره . وزاد عددهم من ٦,٠٠٠ فى ١٧٣٤ إلى ٢٦,٠٠٠ فى ١٨٠٠ ، وكان نصيب لندن منهم ٢٠,٠٠٠ . وكانوا يعيشون فى فقر مدقع ، ولكنهم رعوا فقراءهم وتكفلوا بنفقات مستشفياتهم (٣٧) . وكان تعقب اليهود ومطاردتهم رياضة محببة للناس ، اضمحلت حين تعلم اليهود الملاكمة وغدا أحدهم بطل الملاكمة القومى (٣٨) . وقد أقصى شرط حلف يمين الولاء للمسيحية اليهود عن الوظائف المدنية والحربية . وأصبح سامسون جدعون أحد محافظى بنك انجلتره بعد أن قبل الدخول فى المسيحية . وفى ١٧٤٥ ، حين كان الشاب المطالب بالعرش يزحف على لندن بجيش اسكتلندى أخذ على نفسه العهد بخلع جورج الثانى ورد آل ستيوارت إلى العرش ، فأصاب الذعر جماهير الشعب بعد أن فقدوا الثقة فى أمن الحكومة وسلامها وهددوا بالتزاحم على المصرف لاسترداد ودائعهم ، فى هذا الظرف قاد

جدعون التجار والأعيان اليهود لإنقاذ المصرف ، فتدفقت أموالهم الخاصة فيه ، وتعهدوا بقبول بنكنوت المصرف بالقيمة الإسمية فى معاملاتهم التجارية ووفى المصرف بالتزاماته ، وأعيدت الثقة ، ورد المطالب بالعرش على أعقابه (٣٩) .

وأعربت وزارة الأحرار (الهوجز) عن تقديرها لصنيع اليهود بتقديمها مشروع قانون إلى البرلمان (١٧٥٣) يبيح الجنسية والمواطنة لجميع اليهود المولودين فى الخارج والذين أقاموا فى انجلتره أو ارلنده ثلاثة أعوام ؛ (أما اليهود المولودين هناك فكانوا يكتسبون الجنسية بالمولد (٤٠) . ووافق اللوردات والأساقفة على المشروع ، ووافق عليه أعضاء مجلس العموم بأغلبية ستة وتسعين صوتاً مقابل خمسة وخمسين . ولكن الشعب البريطانى الذى لم يكن له كبير علم أو فهم للدور الذى لعبه اليهود فى إنقاذ المصرف هب معارضاً مشروع القانون معارضة ساحقة . وانهالت الاحتجاجات على البرلمان من كل مدينة فى بريطانيا تقريباً ، وأجمعت المنابر والحانات على إدانته ، وشكا التجار من أن منافسة اليهود لهم فى التجارة ستصبح أمر لا يحتمل . وكان الشتم والإهانة فى الشوارع نصيب الأساقفة الذين صوتوا للمشروع ؛ وبعثت الأساطير القديمة التى ادعت قتل اليهود للمسيحيين طبقاً لشعائرهم ، وأذيعت مئات النشرات والقصائد الشعبية والصور الكاريكاتورية والأهاجى الساخرة ، وزين النساء ثيابهن وصدورهن بالصلبان ولبسن أوشحة تحمل هذا الشعار « لا يهود ، المسيحية إلى الأبد » (٤١) . وخاف زعماء الأحرار الهزيمة فى الانتخاب القادم فحصلوا على إلغاء القانون (١٧٥٤) .

٢ — العزاء الصوفى

ولاذ كثير من اليهود ، لاسيما فى بولنده ، بأسباب العزاء فوق الطبيعى هرباً من معاناتهم الأرضية . وأتلف بعضهم بصرهم بإدمان قراءة التلمود ، وفقد بعضهم عقولهم فى القبلانية ، وظل بعض « الصسطائيين» يؤمنون بألوهية صبطاى زيفى رغم ارتداد هذا المسيح الكاذب وموته ، وانصرفوا عن اليهودية التلموذية إلى الآمال والطقوس المهرطقة . وأقنع يانكيف ليبوفتش ،

الذى أصبح معروفاً باسم يعقوب فرانك الذى أطلقه عليه الترك ، مئات من اليهود البولنديين بأن روح زيفى تقمصته ، وعلمهم عقيدة شبيهة بهرطقة مسيحية لطيفة تصورت الثالوث مؤلفاً من الله الآب ، ومريم اام ، والمسيح ابنهما ، وأخيراً قاد اتباعه إلى الكنيسة الكاثوليكية (١٧٥٩) .

وأنقذت الحركة « القاصدية » اليهود البولنديين بعض الإنقاذ من حالتهم الوضعية . وكان مؤسس « عقيدة التقوى» هذه اسرائيل بن ألعازر ، المعروف باسم بعل شم — توب (« السيد الصالح لاسم الله ») ، واختصاراً باسم «بشت» الجامع لأول حروف اسمه الكامل . وكان يجوب البلاد معلماً للأطفال ، وعاش فى فقر تجمله البهجة ، وكان يصلى بانتشاء ويشفى المرضى شفاء « معجزياً » بالأعشاب الجبلية . وقد طلب إلى اتباعه ألا يعيروا طقوس المجمع والمعرفة التلمودية كبير اهتمام ، وان يقتربوا إلى الله رأساً فى شركة متواضعة ولكنها حميمة ، وان يبصروا الله ويحبوه فى شتى صور الطبيعة ومظاهرها ، فى الصخور والأشجار ، وفى حالات اليسر والألم ؛ وأمرهم بأن يستمتعوا بالحياة فى الحاضر بدلا من البكاء على خطايا الماضى وآلامه . وكانت أقواله المأثورة البسيطة أحياناً تشبه أقوال المسيح . « شكا بشت أن ابنه ترك الله ، وسأله قائلا : يا معلم ، ماذا أصنع؟ وأجابه بشت : أحبه أكثر مما فعلت فى أى وقت»[٤٢] .

والحركة القاصدية فى بولنده تقابل من بعض الوجوه حركات الأخوان الموافيين . والتقويين الألمان ، والمثوديين الانجليز ؛ فقد اتفقت مع هذه الحركات على اخراج الدين من المعبد وإدخاله إلى القلب ، ولكنها رفضت النسك والاكتئاب ، وأمرت اتباعها بأن يرقصوا ، ويستمتعوا بعناق أزواجهم ، لا بل بالشراب بين الحين والحين إلى حد النشوة .

فلما مات بعل شم — توب (١٧٦٠) تولى رعاية قطيعه ، وأحياناً جز صوفه ، [٤٣] سلسلة من « الصديقين » . وحارب التلموديون السنيون بزعامة عالم متعصب من فلنا يدعى إيليا بن سليمان « القاصدين » بالنصح والحرم ، ولكن عددهم زاد بانهيار بولنده (١٧٧٢ — ٩٢) ، ولم يختتم القرن حتى كانوا يعدون ١٠٠,٠٠٠ نسمة[٤٤] .

وما كان لحياة مطاردة على الأرض على هذا النحو ، ونفوس مثبتة فى السماء إلى هذا الحد ، ان تسهم بقسط كبير فى الأدب الدنيوى أو العلم أو الفلسفة . وكان اليهود فى كل بلد تقريباً ممنوعين من الالتحاق بالجامعات بحكم القسم بالولاء للعقيدة المسيحية المشترط على جميع الطلاب . ثم ان ناموس موسى حرم عليهم ممارسة فن التصوير وبلد تذوقهم الفنى . وإذ كانوا يكتبون بالعبرية التى لاتفهمها غير قلة قليلة ، أو باليبيدية التى لم تكن بعد قد أصبحت لغة أدبية ، فقد افتقدوا الحافز لإنتاج أى أدب خلاف الشروح الدينية أو السفاسف الشعبية . وثمة اسهام بارز واحد أسهموا به فى الفنون العملية فى هذا العصر : فقد اخترع يعقوب رودريج بيرير ، وهو أحد يهود بوردو ، لغة إشارات للصم والبكم ، فأثنى عليه ديدرو ودالامبير وروسو وبوفون . ثم شاعر يهودى واحد أنار هذه الظلمة .

وقد ولد الشاعر موسى حايم لونساتوا فى إيطاليا (١٧٠٧) لوالدين أتاح لهما بعض اليسر أن يحسنا تعليمه . وقد أخذ عن الشعراء اللاتين ، وعن الشعراء الإيطاليين من أمثال جواريني ، براعة فى الأوزان الشعرية مكنته من أن يسبغ على شعره العبرى من الإيقاع المتدفق والسحر الرقيق ما لم يعرف فى تلك اللغة منذ أيام يهوذا هاليفى . وحين بلغ السابعة عشرة كتب مسرحية عن شمشون والفلسطينيين . ثم أقبل على دراسة « الزهر » ، وهو كتاب القبلانية المقدسة ، فافتتن خياله بأوهامه الصوفية ، فأدار بعضها شعراً ، وأدارت هى رأسه فخيل إليه انه ملهم من السماء . فكتب « زهرا » ثانيا ، وأذاع انه المسيح الذى وعد به اليهود . فحرمه حاخامات البندقية (١٧٣٤) . ففر إلى فرانكفورت — على المين ، حيث أجبره الحاخامات على الوعد بالإقلاع عن أوهامه بأنه المسيح المنتظر . وانتقل إلى أمستردام حيث رحبت به الجالية اليهودية ، وهناك كسب قوته كما كسبه سبينوزا بصقل العدسات ، ثم استأنف دراساته القبلانية . وفى ١٧٤٣ ألف مسرحية عبرية « لا — ى أشاريم تهيللا (مجداً للأبرار) كان حظها التقريظ ممن كانوا أكفاء للحكم عليها ، برغم التجريدات التى استخدمها شخوصاً للمسرحية .

ومؤدى المسرحية أن الجهل المستشرى بين العوام ، يدعمه المكر والخداع ، يولد الحماقة ، التى تحبط بالحكمة مراراً ، وتحرم الكفاية من تاجها ، حتى ينتصر العقل والصبر فى النهاية على الخداع بالكشف عن الحقيقة ، على أن « الحقيقة » كان يقصد بها القبلانية . وفى ١٧٤٤ ذهب إلى فلسطين ، أملا فى أن ينادى به المسيح المنتظر ، ولكنه مات فى عكا بالطاعون (١٧٤٧) وهو فى التاسعة والثلاثين . وكان آخر صوت فصيح لعصر اليهودية الوسيط ، كما كان أول صوت كبير ليهودية تنبعث من العزلة الواقية إلى الاحتكاك بالفكر الحديث .

٣ — موسى مندلسون

كان جد فيلكس مندلسون من أنبل شخصيات القرن الثامن عشر ، وكان صديقاً وخصماً لكانط ، وصديقاً وملهماً لليسنج . وكان أبوه مناحم مندل كاتباً ومعلماً بمدرسة يهودية فى دسو . وهناك ولد « موسى الثالث» فى ٦ سبتمبر ١٧٢٩ ، وشب مشغوفاً بالدرس حتى لقد أصابه شغفه هذا بتقوس مستديم فى العمود الفقرى . فلما بلغ الرابعة عشرة أوفد إلى برلين لمزيد من دراسة التلمود ، وهناك اتبع بحذافيره تقريباً أمر التلمود الذى نصه «كل الخبز بالملح ، واشرب الماء بمقدار ، ونم على الأرض اليابسة ، وعش عيشة الحرمان ، وليكن الناموس شغلك الشاغل »(٤٥) . وظل سبع سنين قانعاً بسكناه فى إحدى العليات يعلم رغيف خبزه الأسبوعى بخطوط تحدد جرايته اليومية (٤٦) ، ويكسب الرزق الضئيل بنسخ الوثائق بخطه الأنيق . وفى برلين أكب على آثار موسى بن ميمون ، ووجد الشجاعة فى حياة « موسى الثانى» ذاك وتعلم منه ومن الحياة أن ينزل بكبريائه إلى التواضع وبحدة طبعه إلى اللطف والمجاملة . وعلمه رفقاؤه البرلينيون اللاتينية والرياضيات والمنطق ، وقرأ لوك فى ترجمة لاتينية ، وانتقل إلى ليبنتس وفولف ، ولم يلبث أن عشق الفلسفة . ثم تعلم كتابة الألمانية فى نصاعة رقيقه ندر أن تجد لها نظيراً فى أدب وطنه فى جيله .

وانتهت أيام فقره حين أصبح فى الحادية والعشرين معلماً خاصاً فى أسرة صاحب مصنع حرير فى برلين يدعى إسحاق برنهارت ، وبعد أربع سنوات عين محاسباً بالشركة ثم مندوباً متجولا لها ، وأخيراً شريكاً فيها . وقد احتفظ بصلة العمل هذه بنشاط حتى نهاية عمره ، لأنه اعتزم ألا يعتمد فى رزقه على رواج كتبه وحصيلتها من المال . والراجح انه التقى بليسنج فى ١٧٥٤ ، على لعبة شطرنج فيما يبدو ، وهكذا بدأت صداقة اتصلت حتى موت ليسنج رغم ما بينهما من خلافات فلسفية . كتب ليسنج إلى صديق آخر فى ١٦ أكتوبر ١٧٥٤ يقول : « ان مندلسون رجل فى الخامسة والعشرين ، اكتسب دون أى تعليم جامعى معلومات كبيرة فى اللغات والرياضيات والفلسفة والشعر . وانى لأتطلع فيه إلى مفخرة لأمتنا إذا أتاح له اخوانه فى الدين أن يصل إلى درجة النضج . . . وأن صراحته وروحه الفلسفية ليجعلانى أعده سلفاً ، اسبينوزا ثانيا »[٤٧] . أما مندلسون فكان يقول ان كلمة ود أو نظرة محبة من ليسنج تطرد عنه كل حزن أو غم[٤٨] .

وفى ١٧٥٥ رتب ليسنج نشر كتاب مندلسون « أحاديث فلسفية » ، الذى شرح ودافع عن كلا من سبينوزا وليبنتس . وفى العام ذاته تعاون الصديقان على كتابة مقال « بوب ميتافيزيقيا ! » زعما فيه أن هذا الشاعر الانجليزى لم يكن له فلسفة من بنات أفكاره ، وكل ما فعله أنه نظم فلسفة ليبنتس شعراً . وفى ١٧٥٥ أيضاً نشر مندلسون « رسائل فى الوجدان » ، وقد سبق هذا كانط فى رأيه أن الإحساس بالجمال مستقل كل الاستقلال عن الشهوة . وقد اكسبت هذه الكتب المنشورة اليهودى الشاب الترحيب فى برلين بين « الإخوان الفلاسفة الذين لم يكونوا على تمام الصفاء والرزانة » . وعن طريق ليسنج التقى بفردريش نيقولاى ، ودرس هو ونيقولاى اليونانية معاً ، وما لبث أن بدأ يقرأ أفلاطون فى لغته الأصلية . ثم ساعد نيقولاى فى إنشاء مجلة سميت « مكتبة الآداب البحتة والفنون الجميلة » ، وأسهم فى هذه المجلة وغيرها من المجلات بمقالات كان لها تأثير قوى فى الأفكار السارية فى نقد الأدب والفن .

وأحس مندلسون الآن بقدر من الأمن والطمأنينة يتيح له أن يقيم بيتاً

خاصاً به . ففي ١٧٦٣ ، وهو في الثالثة والثلاثين ، تزوج فرومريت جوجنهايم البالغة خمسة وعشرين ربيعاً . وكان كلاهما قد بلغ سن النضج الفكري ، فأثمر اتحادهما الكثير من السعادة . وفي شهر العسل بدأ العمل في مسابقة قدمت فيها أكاديمية برلين جائزة لأفضل مقال يتناول هذا الموضوع « هل العلوم الميتافيزيقية تقبل الأدلة كالعلوم الرياضية » . وكان من المتسابقين إيمانويل كانط . وفاز مقال مندلسون (١٧٦٣) ، فأتاه بخمسين دوقاتية وبشهرة دولية .

وكان بين المتسابقين توماس آبت ، وهو أستاذ في فرانكفورت — على الأودر . وفي رسائل كثيرة تبادلها مع مندلسون أعرب عن شكوكه في خلود الروح ، وأسف على أن فقدان ذلك المعتقد قد يقوض الناموس الأخلاقي ويحرم التعساء من آخر عزاء لهم . وبعض الفضل راجع إلى هذه الرسائل في وضع مندلسون لأشهر كتبه قاطبة « فيدون » . وقد صاغه على مثال نموذجه الأفلاطوني في شكل حوار وفي أسلوب ميسر . فروح الإنسان (كما يزعم) متمايزة من المادة بشكل واضح ، إذن لنا أن نعتقد أنها لاتشارك الجسد مصيره ؛ وإذا كنا نؤمن بالله فإننا لانستطيع الافتراض بأنه يخدعنا إذ يغرس في عقولنا أملا دون أن يكون له أساس من الحقيقة . يضاف إلى هذا (وهو ما سيذهب إليه كانط) ان للروح حافزاً طبيعياً نحو كمال الذات ؛ وهذا لايمكن تحقيقه في حياتنا ؛ ولا بد أن الله يسمح للروح بأن تحيا بعد موت الجسد. وقد شعر منذ لسون بأنه « بدون الله ، والعناية الإلهية ، والخلود » تفقد كل طيبات الحياة قيمتها في نظري وتصبح حياتنا على الأرض . . . أشبه بالتيهان في الريح والمطر دون أمل يعزى التائه بالعثور على غطاء ووقاء في الليل »[٤٩]. وبراهين الكتاب هشة ، ولكن أسلوبه أبهج قراء كثيرين ، ولاح أن الكاتب ظفر باستعادة سحر محاورات أفلاطون ، والواقع أن لقب « أفلاطون الألماني» اسماً ثانياً لمندلسون. وطبعت من الكتيب خمس عشرة طبعة وترجم إلى جميع اللغات الأوربية تقريباً كما ترجم إلى العبرية ، وكان في جيله أوسع الكتب انتشاراً في ألمانيا باستثناء القصص . وشارك هردر وجوته في تقريظه .

وزار لافاتر مؤلفه ، وفحص رأسه ووجهه ، وأعلن أن كل نتوء وخط فيه يشي بروح سقراط[٥٠] .

وأشاد المسيحيون على اختلاف مذاهبهم باليهودى البليغ ، والتمس منه راهبان بندكتيان النصيحة الروحية . ولكن فى ١٧٦٩ أثار لافاتر ، الذى كان لاهوتياً غيوراً كما كان عالماً فى الفراسة ، ضجة بتوجيهه نداءا علنيا لمندلسون أن يدخل فى المسيحية . ورد مندلسون فى « (١٧٧٠) فسلم بعيوب الديانة اليهودية والحياة اليهودية ، ولكنه ذكر أن عيوباً كهذه تنشأ فى كل ديانة فى أثناء تاريخها ، وطلب إلى لافاتر أن يفكر فى الشدائد التى عاناها اليهود فى الأقطار المسيحية ، ثم أضاف : « أن الذى يلم بما نحن عليه الآن من حال ، ان كان له قلب رحيم ، سيفهم أكثر مما فى وسعى التعبير عنه » . واختتم بهذه العبارة « انني لوطيد الثقة بالعناصر الأساسية فى إيمانى . . . بحيث أشهد الله على انني سأثبت على عقيدتى الأصلية ما لم تتخذ روحى طبيعة أخرى »[٥١] وتأثر لافاتر ، واعتذر بتواضع عن توجيهه هذا النداء[٥٢] . ولكن نفراً كبيراً من المعلقين شهروا بمندلسون متهمينه بالكفر ، وأدانه بعض اليهود السنيين لتسليمه بأن هناك نقائض تسلك إلى الشعائر اليهودية[٥٣] . وظل الجدل حينا يثير من النقاش أكثر مما تثيره السياسة القومية أو تدهور صحة فردريك .

وعانت صحة مندلسون نفسه من هذه الضجة ، فاضطر طوال شهور من عام ١٧٧٢ أن يكف عن أى نشاط ذهنى . فلما استعاد عافيته كرس من وقته قدراً أكبر للتخفيف من آلام إخوانه فى الدين . وحين تهيأت بعض أقاليم سويسره لفرض مزيد من القيود على اليهود طلب إلى لافاتر أن يتدخل فى الأمر ، ففعل ، وكان موفقاً فى شفاعته . وحين وضعت سلطات درسدن خطة لطرد مئات من اليهود استعان مندلسون بصداقة تربطه بموظف محلى للحصول على الأمان لهم[٥٤] . وبدأ فى ١٧٧٨ نشر ترجمته للأسفار الموسوية الخمسة ، وأصدرها فى ١٧٨٣ ، فأثارت عاصفة جديدة . ولكى يكتب بعض الشروح على النص كلف هرتس هومبرج بالمهمة ، وكان مرتبطاً بيهود من برلين مبتوتى الصلة تماماً بالمجمع اليهودى . وحرم الترجمة أحبار عديدون ، ولكنها شقت طريقها إلى الجاليات اليهودية ، وتعلم شباب

اليهود الألمانية منها ، وتحرك جيل اليهود التالى للمشاركة النشيطة فى الحياة الفكرية لألمانيا . ونشر ليسنج خلال ذلك (١٧٧٩) مسرحيته « ناثان الحكيم » ، التى فسرها القراء على أنها تمجيد لصديقه اليهودى .

أما وقد بلغ مندلسون قمة الشهرة والنفوذ ، فإنه أقنع ماركوس هرتس بأن يترجم إلى الألمانية كتاب « الدفاع عن اليهود» الذى وجهه منسى بن اسرائيل إلى الشعب الانجليزى فى ١٦٥٦ . وأضاف إلى الترجمة مقدمة فى « خلاص اليهود »(١٧٨٢) ، ناشد فيها الأحبار أن يتخلوا عن حقهم فى الحرم . وأتبع هذا فى ١٧٨٣ بكتاب بليغ سماه « أورشليم ، أو فى السلطة الدينية والديانة اليهودية » ، أعاد فيه تأكيد إيمانه اليهودى ، وأهاب باليهود أن يخرجوا من عزلتهم وانطوائهم ويدلوا بدلوهم فى الثقافة الغربية ، وحث على الفصل بين الكنيسة والدولة ، وأدان أى إكراه فى الدين ، وذهب إلى أن الحكم على الدول يكون بقدر اعتمادها على الإقناع لا القوة . وكتب كانط ، الذى كان هو الآن أيضاً فى أوج شهرته ، إلى المؤلف رسالة تستحق أن يفرد لها مكان فى سجلات الصداقة . قال :

« انى أعد هذا الكتاب بشير إصلاح عظيم لن يؤثر فى شعبك فحسب بل فى الشعوب الأخرى . فلقد وفقت فى الجمع بين دينك وبين قدر من حرية الضمير لم يتصور أحد أنه ميسور . . . ثم انك فى الوقت نفسه أبنت فى كثير من الوضوح والدقة ضرورة حرية الضمير التى لاحدود لها فى كل دين ، بحيث أن كنيستنا (اللوثرية) ستضطر آخر الأمر إلى النظر فى أن تزيل من وسطها كل شىء من شأنه إقلاق الضمير أو إكراهه »(٥٥) .

وهاجم الكتاب الزعماء السلفيون مسيحيين كانوا أو يهوداً ، ولكنه أسهم إلى حد هائل فى تحرير اليهود وتغريبهم .

فى عام ١٧٨٣ لم يكن مندلسون قد تجاوز الرابع والخمسين ، ولكنه كان دائماً رقيق البنية معتل الصحة ، وقد أحس أنه لم يبق له من الأجل كثير . وفى أخريات سنية ألقى على أبنائه وعلى بعض أصحابه محاضرات حدد فيها عقيدته الدينية ، وقد نشرت فى عام ١٧٨٥ باسم « ساعات الصباح أو محاضرات فى وجود الله » . وفى آخر سنة من عمره صدمه أن يقرأ فى كتاب

ألفه ياكوبى أن صديقه العزيز ليسنج ، والذى كان قد فارق الحياة ، اتبع طويلا عقيدةسبينوزا فى وحدة الوجود ، فلم يستطع أن يصدق الخبر ، وكتب دفاعاً حاراًعن ليسنج عنوانه « إلى أصدقاء ليسنج» . وفيما هو حامل المخطوط إلى الناشر أصيب بنزلة برد؛ وأثناء مرضه ذاك أصيب بسكتة دماغية أودت بحياته فى ٤ يناير ١٧٨٦ . واشترك المسيحيون مع اليهود فى إقامة تمثال له فى مسقط رأسه دسو .

لقد كان واحداً من أكثر الشخصيات تأثيراً فى جيله . فقد خرج شباب اليهود من عزلتهم بعد أن الهمتهم كتاباته وعبوره الناجح للفواصل الدينية ، ولم يلبثوا أن تركوا بصماتهم على الأدب والعلم والفلسفة . فذهب ماركوس هرتس إلى جامعة كونجزبرج فى طلب الطب ؛ والتحق بعدة فصول دراسية لكانط ، وأصبح المساعد والصديق لفيلسوف المعرفة العظيم . وهو الذى توقف فى منتصف قراءته « نقد العقل الخالص » مخطوطاً مخافة أن يصاب بالجنون إذا مضى فى القراءة إلى النهاية . فلما نقل إلى برلين ، اشتغل بالطب وكثر زبائنه ، وألقى محاضرات فى الفيزياء والفلسفة على جمهور من المسيحيين واليهود . وافتتحت زوجته الجميلة المثقفة هنرييتا صالوناً كان فى نهاية القرن ملتقى هاماً لمفكرى برلين ؛ وإليه اختلف فلهلم فون همبولت ، وشلايرماخر ، وفريد ريش شليجل ، وميرابو الابن . . . ولعل اختلاط الأفكار الذى تمخضت عنه هذه اللقاءات ماكان ليسر مندلسون . فقد دخل عدد من أبنائه فى المسيحية . واشترك ابنتان من بناته مع هنرييتا هرتس وغيرها فى « رابطة للفضيلة » تحترم « الانجذابات العاطفية » أكثر من الولاء الزوجى . وكان لهنرييتا علاقة غرام بشلاير ماخر ؛ وهجرت دوروتيا مندلسون زوجها لتصبح خليلة فزوجة وفية لفريد ريش شليجل، وأخيراً تابعة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ؛ كذلك أعتنقت هينرييتا مندلسون العقيدة الرومانية ، وجعل أبراهام مندلسون أبناءه ، ومنهم فيلكس ، يعمدون فى الكنيسة اللوثرية ؛ وزعم الحاخامات السنيون أنهم كانوا على حق فى مخاوفهم . ولكن هذه كانت نتائج عارضة للحرية الجديدة ؛ أما النواحى الأبقى على الزمن فى تأثير مندلسون فقد ظهرت فى تحرير اليهود فكرياً واجتماعياً وسياسياً .

٤ — نحو الحرية

وفى هذه الحقبة اتخذ التحرير من الناحية الفكرية ، شكل « الهسقلة » — وهى كلمة كانت تعنى الحكمة ، ولكنها أصبحت فى هذا السياق ترمز إلى التنوير اليهودى ، أو تمرد عدد متزايد من اليهود على سيطرة الأحبار والتلمود ، وتصميمهم على أن يندمجوا اندماجاً نشيطاً فى تيار الفكر الحديث . وتعلم هؤلاء المتمردون الألمانية ، وتعلم بعضهم الفرنسية — لا سيما فى أسر التجار أو الماليين ؛ وقرأوا مؤلفات أحرار الفكر الألمان أمثال ليسنج ، وكانط ، وفيلاند ، وهردر ، وشيلر ، وجوته ؛ وكثيرون نقبوا فى أعمال فولتير ، وروسو ، وديدرو ، وهلفتيوس ، ودولباخ . ووقع انقسام بين اليهود المتحررين المقبلين على الحداثة ، واليهود المحافظين الذين شعروا بأن الولاء للتلمود والمجمع هو الطريق الأوحد للحفاظ على الوحدة الدينية والعرقية والأخلاقية للشعب اليهودى .

وانتشرت حركة الهسقلة من ألمانيا جنوباً إلى غاليسيا والنمسا ، وشرقاً إلى بوهيميا وبولنده وروسيا . وزاد من سرعتها فى النمسا ترخيص التسامح الذى أصدره يوزف الثانى ، والذى دعا اليهود إلى دخول المدارس غير اليهودية . فلما عارض الأحبار المحافظون ، ناشدهم شاعر يهودى هامبورجى يدعى نفتالى فيسيلى ، فى بيان يهودى بليغ ، أن يباركوا اشتراك اليهود فى التعليم العلمانى ؛ وحث الجيل الصاعد على أن يحلوا العبرية والألمانية محل اليدية ، وأن يدرسوا العلوم والفلسفة كما يدرسون التوراة والتلمود . وقد رفض أحبار النمسا آراءه ؛ ولكن قبلها زعماء اليهود فى تريسته والبندقية وفرارا وبراغ . ومنذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا أسهم اليهود فى العلم والفلسفة والأدب والموسيقى والقانون بقدر يفوق كثيراً نسبتهم إلى عدد السكان .

وأعانت التطورات الفكرية والاقتصادية على تحرير اليهود . فنشر الدارسون الكاثوليك من أمثال رتشرد سيمون المعارف الربانية بين طلاب الكتاب المقدس ؛ وألف لاهوتى بروتستنتى يدعى جاك باناج كتاباً مشرباً بروح الود يسمى « تاريخ ديانة اليهود » (١٧٠٧) . وجمع نمو التجارة

والمالية بين المسيحيين واليهود فى اتصالات أججت أحياناً نار الخصومة العرقية ، ولكنها كثيراً ما خففت منها . ولعب الماليون اليهود فى عدة حكومات أدواراً تجلت فيها روح العون والوطنية .

وارتفعت الآن أصوات مسيحية تقترح انهاء الاضطهاد الدينى ، ففى ١٧٨١ نشر كرستيان فاهلم دوم ، وكان صديقاً لمندلسون ، بناء على اقتراحه نبذة خطرة الأثر سماها « فى تحسين الأحوال المدنية لليهود فى ألمانيا » . وكانت المناسبة نداء وجهه يهود الالزاس إلى مندلسون يطلبون إليه كتابة احتجاج على القيود المفروضة عليهم . واضطلع دوم بالمهمة ، ووسعها إلى نداء عام لتحرير اليهود . . ووصف فى تفصيل مؤثر ، المعوقات التى يعانيها اليهود فى أوربا ، وأشار إلى فداحة الخسارة التى خسرتها الحضارة الغربية لأنها لم تفد فائدة تذكر من مواهب اليهود العقلية — « ان مبادىء التفرقة هذه ، المنافية للإنسانية والسياسية على حد سواء ، تحمل طابع العصور المظلمة ، وهى غير جديرة بتنوير عصرنا هذا »[٥٦] واقترح دوم السماح لليهود بحرية العبادة الكاملة وبالالتحاق بمعاهد التعليم ، وبممارسة جميع المهن والحرف ، وبإعطائهم جميع الحقوق المدنية ، ويستثنى منها مؤقتاً اختيارهم للمناصب وهو ما لم يكونوا بعد مهيئين له .

وأثارت الرسالة التعليق فى أقطار كثيرة ، فاتهمه بعض خصومه بأنه باع قلمه لليهود ، ولكن العديد من رجال الدين البروتستنت سارعوا إلى الدفاع عنه . وأيده المؤرخ السويسرى يوهان فون مولر ، وطلب ترجمة أعمال موسى بن ميمون إلى الألمانية أو الفرنسية . واكتسبت حركة التحرير دفعاً من براءة التسامح الصادرة فى ١٧٨٢ بالنمسا ومن تحرير اليهود السياسى فى الولايات المتحدة (١٧٨٣) . واستجابت الحكومة الفرنسية استجابة هزيلة برفع الضرائب الشخصية (١٧٨٤) التى أثقلت كواهل اليهود . واشترك المركيز ميرابو مع ماليرب فى تحقيق هذا التخفيف ، وساعد الحركة ابنه الكونت ميرابو بمقاله « عن مندلسون والإصلاح السياسى لليهود »

(١٧٨٧) ودفع الأب هنرى جريجوار الحركة بكتابته مقالا نال جائزة فى مسابقة عن «الأحياء المادى والخلقى والسياسى لليهود» (١٧٨٩) .

على أن التحرير السياسى النهائى لم يأت إلا مع الثورة . فقد احتواه ضمنا إعلان حقوق الإنسان الذى أذاعته الجمعية الوطنية (٢٧ أغسطس ١٧٨٩)، وفى ٢٧ سبتمبر ١٧٩١ وافقت الجمعية التأسيسية على إعطاء كامل الحقوق المدنية ليهود فرنسا . وجاءت جيوش الثورة أو جيوش نابليون بالحرية ليهود هولنده فى ١٧٩٦ ، وليهود البندقية فى ١٧٩٧ ، وما ينز فى ١٧٩٨ ، وروما فى ١٨١٠ ، وفرانكفورت فى ١٨١١ . وهكذا اختتمت حقبة العصور الوسطى بالنسبة لليهود .

الفصل السادس والعشرون

من جنيف إلى استوكهولم

١ – السويسريون : ١٧٥٤ – ١٧٩٨

ان الذين استمتعوا منا بالهدوء وسط جنة الطبيعة فى سويسرة ، وبالإلهام من شجاعة شعبها وأمانته ، يشق عليهم أن يدركوا أن من تحت الخلق الهادىء ، والفلاحة الصابرة ، والصناعة المستقرة التى أعجبت بها أوربا يومها وتعجب بها الآن ، كانت تكمن الصراعات الطبقية – صراعات بين الجنس والجنس . وبين اللغة واللغة ، وبين العقيدة والعقيدة ، وبين الأقليم والأقليم ، وبين الطبقة والطبقة . وكان السويسريون فى نطاقهم المتواضع قد اقتربوا جداً من تحقيق ذلك المثل الأعلى الذى صوره الأب سان – بيير وحلم به روسو وكانط : وهو الاتحاد الكونفدرالى يعقد بين دويلات مستقلة فى شئونها الداخلية ، ملتزمة بالعدل الموحد فى علاقاتها بالعالم المحيط بها . ففى ١٧٦٠ تكون الاتحاد الهلفيتى لدعم الولاء للأمة أكثر من الأقاليم . ولتوحيد الحركات المبعثرة للإصلاح السياسى .

وقد قدر فولتير – الذى كان يعيش عن كثب – سكان سويسرا فى ١٧٦٧ ب ٧٢٠,٠٠٠ نسمه [1] . وكان أكثرهم يفلح الأرض أو يزرع الكروم ، ويسطب المنحدرات إلى ما يقرب من قمم الجبال . وكانت صناعة النسيج فى نمو مطرد لا سيما فى اقليم سانت جال وكانتون زيوريخ ؛ وكانت مراكز صناعية أخرى بسبيلها إلى التشكل فى جلاروس ، وبرن ، وبازل ؛ أما جنيف ونويشاتل فكانتا المركزين العظيمين لصناعة الساعات . وأنشأ الوكلاء المنتشرون فى أرجاء أوربا من لندن إلى الآستانة (التى كان بها ثمانية وثمانون

منهم) لجنيف تجارة صادر حققت الثراء السريع للمدينة الواقعة على الرون . وكثرت المصارف لأن الماليين السويسريين كانوا قد اكتسبوا سمعة دولية بالأمانة .

وكانت أغلب الكفاءات ، كما هى الحال فى كل بلد ، مركزة فى أقلية من الرجال ، فأدى هذا إلى تركيز الثروة . وكانت الكانتونات بصفة عامة تحكمها أولجركيات تسلك مسلك أى طبقة حاكمة . فالإشراف رعاة أسخياء للآداب والعلوم والفنون ولكنهم يقاومون كل خطوة للتوسع فى حق الانتخاب . وقد اتهم جبون ، الذى كان يسكن لوزان ، أولجركية برن بأنها تثبط الصناعة فى الأقاليم التابعة لها ، وتبقى على هبوط مستوى المعيشة فيها عملاً بالمبدأ القائل « ان الرعايا الفقراء المطيعين خير من الأغنياء المتمردين »[٢]. وقد نظمت جماعات لإلغاء الامتيازات الاقتصادية أو السياسية غير مرة ، ولكنها صدت بقوة الدولة والكنيسة المتحالفتين[٣] . واضطربت أحوال جنيف آنا بعد آن نتيجة حرب الطبقات طوال القرن الثامن عشر . وساد فيها سلام نسبى من ١٧٣٧ إلى ١٧٦٢ ، ولكن احراق المجلس البلدى لكتاب إميل (١٧٦٢) فجر الدعوة لتوسيع حق التصويت . وعضد الحركة روسو وفولتير ، بعد جدل كثير نزلت طبقة الإشراف للطبقات الوسطى عن قسط صغير فى الحكم .

وقد خلف هذا ثلاثة أرباع السكان مجردين تماماً من حق التصويت — الوطنيون (أو الأهالى) وهم الأشخاص المولودون فى جنيف ولكن الأبوين من غير الوطنيين . وهؤلاء حرموا أيضاً من معظم المهن ، ومن المناصب الحربية ، ومن الارتقاء معلمين فى النقابات الحرفية ؛ وقد منعوا من توجيه الملتمسات إلى المجالس الأكبر والمجلس الأصغر اللذين يحكمان الجمهورية . غير أنهم أثقلوا بالضرائب . وفى ٤ أبريل ١٧٦٦ ذهب وفد من « الوطنيين » إلى فرنيه وطلبوا إلى فولتير أن يساعدهم فى نيل حق التصويت . فقال لهم : « يا أصدقائى ، انكم تؤلفون أكثر الطبقات عدداً فى مجتمع مستقل كادح ، وأنتم ترسفون فى العبودية ولاتطلبون إلا أن تتمتعوا بميزاتكم الطبيعية ، أى أن تمنحوا هذا الطلب المتواضع لا أكثر . وسأعينكم بكل ما أملك من نفوذ . . .

فإذا أكرهتم على الرحيل عن وطن يثرى على حساب كدكم ، فسأستطيع تقديم العون لكم وحمايتكم فى مكان آخر »[٤] .

ولكن الطبقتين الارستقراطية والبورجوازية اتحدتا فى مقاومة نداء « الوطنيين» ، وكل ما استطاعه فولتير هو أن يرحب فى مستعمرته الصناعية بكل من وفد عليه من الصناع الساخطين (١٧٦٨) . وفى ١٧٨٢ هب الوطنيين فى ثورة أطاحت بطبقة الإشراف وأقامت حكومة نيابية . ولكن النبلاء استنجدوا بفرنسا وبرن وسردينيا ؛ فتدخلت هذه الدول ، وأخمد التمرد ، وردت الأولجركية إلى الحكم . وكان على الوطنيين أن ينتظروا مجىء الثورة الفرنسية لتأتيهم بالحرية .

وأنجبت الكانتونات فى ثلث القرن الذى نحن بصدده بعض الشخصيات ذات الشهرة الدولية . فكان يوهان هاينريش بستالوتسى أحد الأفراد النادرين الذين يتخذون العهد الجديد مرشداً للسلوك . وقد اتفق مع روسو على أن المدنية أفسدت الإنسان ، ولكنه أحس أن الإصلاح يمكن أن يأتى لا عن طريق القوانين والنظم الجديدة ، ولكن بإعادة تكوين السلوك الإنسانى بالتربية . ومن ثم كان طوال حياته يرحب بالأطفال لاسيما الفقراء منهم ، وخصوصاً المشردين ؛ يؤويهم ويعلمهم ، ويطبق فى تعليمهم المبادىء التحررية التى احتواها كتاب روسو « إميل » ، مع أفكار من عنده . وقد بسط آراءه فى كتاب كان أكثر الكتب انتشاراً بين قراء ذلك الجيل . فالبطلة فى كتابه « ليونهارد وجرترود » (١٧٨١ — ٨٥) تصلح قرية بأسرها بمحاولة معاملة الناس كما لوكان المسيح يعاملهم ، وبتعليم أطفالها فى مراعاة صابرة لغرائزهم واستعداداتهم الفطرية . ومن رأى بستالوتسى أن يعطى الأطفال من الحرية القدر الذى تسمح به حقوق الآخرين . فينبغى أن يبدأ التعليم المبكر بالقدوة ، وأن يعلم الطفل بالأشياء والحواس ، والخبرة ، لا بالكلمات أو الأفكار أو الصم . وقد مارس بستالوتسى طرائقه فى مدارس سويسرية شتى ، ولا سيما فى ايفردون . وهناك زاره تاليران ، ومدام دستال ، وغيرهما ؛ ومنها انتشرت نظرياته فى طول أوربا وعرضها . على أن جوته شكا من أن

مدارس بستالوتسى تكون أشخاصاً فرديى النزعة . وقحاء . مغرورين ، متمردين [٥] .

وهناك انجليكا كاوفمان ، المولودة فى كانتون جريزون . والتى نافست مدام فيجيه لبرون بوصفها أشهر فنانة فى جيلهما . فكانت تجيد الرسم ، فضلا عن إتقانها العزف ، حتى وهى فى الثانية عشرة . إجادة حملت الأساقفة والنبلاء على أن يجلسوا إليها لتصورهم . وفى الثالثة عشرة (١٧٥٤) اصطحبها أبوها إلى إيطاليا حيث واصلت دراساتها . واحتفى بها القوم أينما ذهبت تقديراً لمهاراتها وإعجاباً بسحر شخصها . وحين دعيت إلى انجلتره عام ١٧٦٦ أثارت ضجة بتصويرها جاريك . وأغرم السير جوشوا رينولدز جداً بـ « الآنسة اينجل » ، وصورها ، فصورته بدورها . وقد شاركت فى إنشاء الأكاديمية الملكية للفنون . التى كلفتها هى وغيرها فى ١٧٧٣ بتزيين كتدرائية القديس بولس . وفى ١٧٨١ قفلت إلى روما . حيث (١٧٨٨) سلكت جوته فى عداد أصدقائها الأوفياء . وماتت هناك فى ١٨٠٧ ، وكان مأتمها الذى نظمه كانوفا حدثاً من أحداث العصر . وشيعها مجتمع الفنانين بأكمله إلى مثواها الأخير .

أما أبرز شخصيات الجيل السويسرية بعد روسو فهو يوهان كاسبار لافاتر . ولد فى زيورخ فى ١٧٤١ ، وأصبح راعياً بروتستنتياً . واحتفظ طوال حياته بأحر الولاء للمسيحية التقليدية . وقد رأينا محاولاته لهداية جوته ومندلسون . ولكنه لم يكن دجماطيقيا . فقد احتفظ بصداقاته عبر الحدود الدينية والقومية . واحترمه كل من عرفه ، وأحبه الكثيرون [٦] . وقد ألف كتباً فيها ورع صوفى . وشرح سفر الرؤيا شرحاً مغرباً فى الخبال . وآمن بالقوى المعجزية للصلاة ولكاليوسترو . وأعطى زوجته علاجات « تنويمية » عملا بإرشادات مزمير . وكان أخص دعاواه أن خلق الإنسان تمكن الحكم عليه من ملامح وجهه ومحيط دماغه . فأثار اهتمام جوته وهردر بآرائه . وقد أسهما بمقالات لكتابه « شذرات فى الفراسة » (١٧٧٥ — ٧٨) وقد درس نظرات الأفراد البارزين . وأدمغتهم . وأشكالهم . وربط بين ملامح الجمجمة والوجه وصفات نوعية للعقل والخلق . وقد قبلت

تحليلاته واستنتاجاته على نطاق واسع ، ولكنها الآن مرفوضة بوجه عام . على أن المبدأ العام الذى نادى به ، وهو أن الصفات السيكولوجية تشارك (مع الهواء والبيئة والغذاء والمهنة الخ . .) فى تشكيل الجسم والوجه ، مازال يحوى قدراً كبيراً من الحقيقة ، فكل وجه إنما هو ترجمة ذاتية .

وكان لافاتر جزءاً من حركة إزهار شملت روسو . والشاعر والعالم ألبرشت فون هالر ، والشاعر والمصور سلومون جسنر ، والمؤرخ يوهان فون مولر ، وهوراس دسوسير ، الذى بدأ رياضة تسلق الجبال بارتقائه جبل مون بلان فى ١٧٨٧ بعد محاولات اتصلت سبعة وعشرين عاماً . وأحست الكنتونات خلال ذلك برياح الثورة تهب عليها عبر الحدود من فرنسا . وفى ١٧٩٧ انضم فردريك سيزار ولا هارب ، الذى كان معلماً خاصاً لحفيدى كاترين الكبرى ، إلى بيتر أوخس عضو نقابة التجار فى بازل ، فى دعوة حكومة الثورة الفرنسية لتساعد هما على إنشاء جمهورية ديمقراطية فى سويسرة . وقد مهدت الطريق لهذه الخطوة ثورات محلية فى برن وفو (يناير ١٧٩٨) ؛ فعبر جيش فرنسى الحدود فى ٢٨ يناير ، ورحب به أكثر السكان السويسريين محرراً لهم من الأوبجركية . وفى ١٩ مارس أعلنت « جمهورية هلفيسية واحدة لاانقسام لها » . فأطاحت بكل امتيازات الكانتونات والطبقات والأشخاص ، وجعلت سويسره كلها سواء أمام القانون . وكانت زيورخ أطول الأقاليم مقاومة ، وفى الهياج الشديد الذى تلا ذلك أصيب بطلق نارى الشيخ الأمين لافاتر (١٧٩٩) ، فمات فى ١٨٠١ متأثراً بجرحه تأثراً بطيئاً .

٢ - الهولنديون : ١٧١٥ ١٧٩٥

اعجب الناس جميعاً بالهولنديين . وقد وصف المسرحى الدنمركى هولبرج ، الذى زار الأقاليم المتحدة (هولندة) و « بلجيكا » فى ١٧٠٤ ، هذه البلاد وصفاً تحمس فيه على الأخص لقنواتها التى كانت زوارقها كما قال « تنقلنى من مكان لآخر » فى هدوء عذب و « تمكننى من إنفاق كل ليلة فى مدينة كبيرة ، حتى أننى كنت أستطيع فى الأمسية ذاتها أن أذهب إلى

الأوبرا أو المسرح عقب وصولى رأساً »[٧]. وقد أعربت عن مثل هذا السرور الليدى مازى ورتلى مونتجيو بعد اثنى عشر عاماً فقالت :

« ان هذا البلد كله (هولنده) يبدو وكأنه حديقة فسيحة الأرجاء : فالطرق كلها حسنة الرصف ، تظللها على الجانبين صفوف الأشجار ، وتحفها قنوات واسعة غاصة بالزوارق الغادية الرائحة . . . وكل الشوارع (فى روتردام) . . . معتنى بنظافتها جداً . . . حتى أننى جلت بأرجاء المدينة كلها تقريباً أمس ، متنكرة ، فى خفى دون أن تنالنى لوثة قذرر واحدة ، وترى الخادمات الهولنديات يغسلن الطوار . . . بعناية تفوق عناية خادماتنا بغسل غرف نومنا . ومراكب التجار تصل (على القنوات) حتى أبواب البيوت . والدكاكين والمتاجر نظيفة بهية إلى حد مدهش ، غاصة بمقادير هائلة من السلع الجميلة »[٨] .

على أن هذه التقارير الوردية وصفت هولنده قبل أن تحس بالآثار الاقتصادية لانتصارها على لويس الرابع عشر فى حرب الوراثة الأسبانية . ففيها أراقت دمها ومالها إلى ما يقرب الانهاك ؛ فتضخم دينها العام ، وفقدت كثيراً من تجارة النقل التى ذهبت إلى حلفائها العسكريين الذين كانوا رغم تحالفهم العسكرى معها منافسين لها فى التجارة — وإلى ألمانيا . وهبطت أرباح شركة الهند الشرقية من أربعين فى المائة فى ١٧١٥ إلى اثنى عشر ونصف فى المائة فى ١٧٣٧ ، وأرباح شركة الهند الغربية الهولندية من خمسة فى المائة فى ١٧٠٠ إلى اثنين فى المائة فى ١٧٤٠[٩] . وجرت حرب السنين السبع مزيداً من الأذى . ذلك أن مصرفيي أمستردام أثروا بفضل القروض المرتفعة الفائدة التى أقرضوها للدول المتحاربة ، ولكن صلح ١٧٦٣ أنهى هذه النعمة الكبرى ، فأفلس كثير من المصارف الهولندية ، وتضرر نتيجة لذلك كل مشروع تجارى كبير . كتب بوزويل الذى كان فى هولنده فى ١٧٦٣ يقول « ان الكثير من كبريات المدن تضعضعت إلى حد محزن . . . وأنت تلتقى بجموع من القراء الذين يتضورون جوعاً وهم عاطلون[١٠] » . وزيدت الضرائب فأفضى ذلك إلى هجرة رأس المال والعناصر البشرية الصلبة ؛

وفى هذه الفترة امتزجت دماء المستعمرين الهولنديين والألمان فى جنوب أفريقيا وانبعث البوير ببطء نتيجة الامتزاج .

وجاء الانتعاش بفضل خلق الهولنديين وجدهم وأمانتهم . فقد عكف شعب هادىء قوى مدبر على فلاحة أرضه ، وتشحيم طواحين هوائه ، ورعى أبقاره ، وتنظيف معامل ألبانه ، وإنتاج ألوان لذيذة من الجبن الشهى الكريه الرائحة ؛ وكانت هولنده سباقة بين دول أوربا فى مضمار الزراعة العلمية [١١] . واستعادت دلفت سوق البرسلان الذى فقدته . واسترد مصرفيو أمستردام الهولنديون واليهود ما اشتهروا به من جدارة بالثقة وقدرة على التصرف ؛ فأقرضوا المال بقليل من الفائدة والمخاطرة ، وحصلوا على عقود رابحة بدفع رواتب الجند وتموينهم ؛ ولجأت الحكومات ورجال الأعمال إلى أمستردام طلباً للقروض ، وندر أن ردوا ثائرين ؛ وطوال ذلك القرن المضطرب كله تقريباً كانت بورصة أمستردام المركز المالى للعالم الغربى . كتب آدم سمث حوالى عام ١٧٧٥ يقول : « إن إقليم هولنده . . . بالنسبة إلى مساحة أرضه وعدد سكانه ، بلد أغنى من انجلترة » [١٢] .

وأكثر ما راع فولتير فى ١٧٢٥ [١٣] كان تعايش مختلف الأديان تعايشاً لم يكدر صفوه مكدر . فهنا كان كاثوليك سنيون وكاثوليك جانسنيون (ألم يكن جانسن نفسه هولندياً ؟) ، وبروتستنت أرمينيون من القائلين بحرية الإرادة ، وبروتستنت كلفنيون من القائلين بالقضاء والقدر ، ومعمدانيون من القائلين بتجديد العماد ، وسوسينيون ، وإخوان مورافيون ويهود ، ثم حفنة من أحرار الفكر يصطلون فى دفء التنوير الفرنسى [١٤] . وكان أكثر القضاة من البروتستنت ، ولكنهم «كانوا يأخذون النقود بانتظام من الكاثوليك » كما يقول مؤرخ هولندى « للأغضاء عن ممارستهم شعائر دينهم والسماح لهم بشغل مناصبهم » [١٥] . وكان الكاثوليك الآن ثلث السكان الذين بلغ عددهم ثلاثة ملايين . أما الطبقات العليا ، الملمة بأديان كثيرة بفضل اشتغالها بالتجارة ، فقد تشككت فى هذه الأديان كلها ، ولم تسمح لها بالتدخل فى القمار ، والشراب ، والشره فى الطعام ، وشىء من الفسق المتستر على الطريقة الفرنسية [١٦] .

وكانت الفرنسية لغة المثقفين . وكثرت المدارس ، واشتهرت جامعة ليدن بدراساتها فى الطب التى أحيت ذكر بويرهافى العظيم . وكان فى كل المدن جمعيات للفنون ، ومكتبات ، و « قاعات للخطابة » تعقد مباريات دورية فى الشعر . وكان تجار التحف الهولنديون يتمتعون بشهرة أوربية بكنوزهم وتزييفاتهم [١٧] . وكان عصر الفن الهولندى الذهبى قد ولى بموت هوبما (١٧٠٩) . ولكن كورنيلس تروست كان على الأقل صدى يردد عظمته . وربما كان أروع نتاج الفن الهولندى فى هذا العصر هو الزجاج الرقيق المنقط أو المحفور بأبر من الماس [١٨] . وكانت أمستردام عشاً للناشرين ، بعضهم شرفاء وبعضهم قراصنة . وهبط النشاط الخلاق فى الأدب إلى مستوى منحط النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ولكن حوالى ١٧٨٠ غذت حركة إحياء للأدب شاعراً مطبوعاً هو فلليم بلدرديك .

ويروى بوزويل أن صديقاً له أخبره أنه سيجد الهولنديين « سعداء فى غبائهم »[١٩] ؛ ولكن بوزويل كتب من أوترخت يقول « اننا نعقد اجتماعات متألقة مرتين فى الأسبوع ، وحفلات خاصة كل مساء تقريباً . . وفى زمرتنا سيدات جميلات محبوبات هن من الكثرة بحيث لاتستطيع الصحائف الكثيرة أن توفيهن حقهن من الثناء » [٢٠] وأروع الصفحات فى مذكرات بوزويل السريعة الموجزة عن هولنده تلك التى تصف غرامه المتردد بزيليده أو « حسناء زويلين » — وهى ايزابيللا فان تويل . وكانت تنتمى إلى أسرة عريقة مرموقة ؛ فأبوها « سيد زويلين وفستبروك » كان أحد حكام إقليم أوترخت . وقد تلقت من التعليم فوق ما تحتمل ، فباتت تجهر بهرطقتها فى فخر ، وهزأت بالتقاليد ، والأخلاق ، والدين ، ومراتب الشرف . ولكنها فتنت الناس جميعاً بحسنها ومرحها وصراحتها المثيرة . وقد أحجمت عن الزواج المهذب الوفى ، وكتبت تقول « لو لم يكن لى أب ولا أم لما تزوجت . . ولا غتبطت كل الاغتباط بزوج يتخذنى كخليلته ؛ ولقلت له « لاتنظر إلى الوفاء على أنه واجب . فما ينبغى أن يكون لك غير حقوق العاشق وغيرته » [٢١] . فأجاب بوزويل أشد الفاسقين إلحاحاً فى أوربا « يا للعار يا زيليدتى ، أى أوهام هذه » ولكنها أصرت على موقفها « إنى

لأوثر أن أكون غسالة لحبيبى ، وأن أسكن علية ، على حرية أسرنا الكبيرة الجرداء وآداب سلوكها المهذب»[٢٢] .

وجازت زيليدة سلسلة من العلاقات الغرامية التى خلفتها وحيدة مثخنة بجراح لاتبرحها . وراحت تهدىء أعصابها بالأفيون وهى بعد فى الرابعة والعشرين . وحين بلغت الثلاثين (١٧٧١) تزوجت سان — هياسنت دشاربير ، وهو معلم خاص سويسرى ، وذهبت لتعيش معه قرب لوزان . فلما وجدته قاصراً من الناحية الفكرية . وقعت فى أربعيناتها فى حب رجل يصغرها بعشر سنين ، فقضى وطره منها ثم هجرها . والتمست التنفيس فى كتابة قصة اسمها «كاليست» (١٧٨٥ — ٨٨) ، طرب لها سانت — بيف أى طرب . وحين بلغت السابعة والأربعين ، التقت فى باريس ببنجامن كونستان . وكان فتى فى العشرين ، فأغوته بفكرها (١٧٨٧) وكتب يقول « إن لمدام شاربير أسلوباً غاية فى الأصالة والحيوية فى النظر إلى الحياة ، واحتقاراً عميقاً جداً للتعصب ، وفكراً بالغ القوة ، وتفوقاً على أوساط الناس عارماً محتقراً . . . حتى أننى على غرابة أطوارى وتكبرى مثلها . . . وجدت فى حديثها لذة لاعهد لى بها قط . . وقد انتشينا باحتقارنا للنوع الإنسانى»[٢٣] . وسار الحال على هذا المنوال حتى عام ١٧٩٤ حين وجد بنجامن نشوة جديدة مع مدام دستال . واعتكفت زيليدة فى عزلة مرة ، وماتت فى الخامسة والستين ، بعد أن خلقت خواء الحياة الدنيا واستنفدته .

ولو شاءت لوجدت غذاء للتشاؤم فى التاريخ السياسى للأقاليم المتحدة فى القرن الثامن عشر . ذلك أن حكم البلاد بعد موت وليم الثالث (١٧٠٢) احتكرته أولجركية من كبار رجال الأعمال انصرفوا إلى فرض الضرائب على الشعب ومحاباة الأقرباء والدس والتآمر . كتب كاتب هولندى فى ١٧٣٧ يشكو هذه الحال فقال « ان المواطنين ممنوعون من المشاركة فى الحكومة . . . ولا يطلب منهم نصيحة ولا رأى فى إدارة شئون الدولة »[٢٤] . وقد تكشف العجز الحربى لهذا النظام حين دخلت هولنده حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٣) فغزاها جيش فرنسى ولم يلق مقاومة تذكر ، وسلمت

مدن كثيرة دون جدال . كتب المرشال دنواى يقول « علينا أن نتعامل مع شعب غاية فى اللطف والكرم » (٢٥) على أنهم لم يكونوا كلهم كذلك ، فقد ارتفعت أصوات معظم المواطنين مطالبة بزعيم حربى ينقذ البلاد على نحو ما فعل وليم الثالث فى ١٦٧٢ ، ونصب سليله غير المباشر ، وليم الرابع أمير أورانج ، حاكماً للأقاليم السبعة ، وقائداً للجيش ، وأميراً للبحرية (٣ مايو ١٧٤٧) ؛ وفى أكتوبر جعلت هذه المناصب وراثية فى أسرته ، ومعنى ذلك أن الملكية أعيدت فى واقع الأمر ، غير أن وليم الرابع كان فيه من التمسك بالخلق المسيحى مالا يجعله قائداً حربياً صالحاً ؛ فلم يستطع أن يعيد النظام إلى الجيوش ، وتوالت الهزائم يقفو بعضها بعضا ، وفى معاهدة إكس — لا — شابل (١٧٤٨) كانت هولنده محظوظة لاحتفاظها بأراضيها سليمة ، ولكنها عادت خربة من الناحية الاقتصادية ومات وليم بالحمرة وهو فى الأربعين (١٧٥١) ، وقامت أرملته الأميرة آن — بالوصاية على العرش إلى أن ماتت (١٧٥٩) ، ثم حكم لودفج إرنست أمير برنزويك — فولفنبوتل البلاد حكماً صارماً كفئاً حتى بلغ وليم الخامس سن الرشد (١٧٦٦) .

وفى الحرب الدائرة بين انجلتره والمستعمرات الأمريكية احتجت هولنده على عدوان البريطانيين على السفن الهولندية ، وانضمت إلى روسيا فى « الحياد المسلح» المبرم فى ١٧٨٠ ؛ وأعلنت انجلتره عليها الحرب ، واستولت على جميع السفن الهولندية تقريباً ، وفى معاهدة باريس (١٧٨٣) (١٨٧٣) كادت مصالح هولنده أن تغفل ، فنزلت عن نجاباتام (فى جنوبى الهند) لانجلترة ، وسمحت للانجليز بحرية الملاحة فى جزر الملقا . وهكذا لم تعد هولنده تلعب دوراً بين الدول .

ودمرت هذه الخطوب شعبية وليم الخامس . ثم ان نجاح الثورة فى أمريكا حفز الأفكار الديمقواطية فى الأراضى الواطئة ، وأفضى إلى قيام حزب « الوطنيين» المناهض للأسرة الحاكمة . وكانت القلة صاحبة المال تمتص ثروة الأمة المتناقصة خلال كل تغيير فى الحكومة امتصاصاً ألجأ رجالا كثيرين إلى التسول ونساء كثيرات إلى البغاء فى المدن التى كانت يوماً ما

مزدهرة يسودها النظام. وفى ١٧٨٣. تكونت سراً جماعات من « الرماة الأحرار » فى أمستردام ولاهاى للاعداد للثورة . وفى ١٧٨٧ استولى « الوطنيون » على السلطة ، ولكن وليم الخامس أعيد إلى عرشه بفضل تدخل بروسيا المسلح. ثم نفخت الثورة الفرنسية الحماسة من جديد فى أفئدة الوطنيين ، فدعوا فرنسا لتخف لنجدتهم . وعليه فنى ١٧٩٤ غزت الجيوش الفرنسية هولنده ، وبطشت بالجيش الهولندى ، وفر وليم الخامس إلى انجلتره ، وانضم أنصار الثورة الهولنديون إلى الفرنسيين فى تنظيم الجمهورية البتافية (١٧٩٥—١٨٠٦) . وفى ١٨١٥ أعاد ابن وليم الخامس بيت أورنج — نيساو إلى السلطة باسم الملك وليم الأول ، وأسلافه يتربعون على عرش هولنده اليوم (١٩٦٧) .

٣ — الدنمركيون : ١٧١٥ — ١٧٩٧

بلغ عدد سكان الدنمرك حسب أول تعداد رسمى للبلاد (١٧٦٩) ٨٢٥,٠٠٠ نسمة ، يضاف إليهم ٧٢٧,٦٠٠ فى النرويج التى ظلت خاضعة للملوك الدنمراكيين حتى ١٨١٤ . وكان كل الفلاحين تقريباً فى النرويج يملكون أراضيهم ، وفيهم كبرياء ككبرياء الفيكنج . أما الدنمرك فكان نصف فلاحيها أقناناً ، والنصف الآخر خاضعين للرسوم الإقطاعية . وجهد الملوك لكبح جماح هذا الإقطاع ، ولكنهم كانوا معتمدين مالياً على الإشراف ، واستمرت القنية حتى ١٧٨٧ . فى هذا النظام لم تلق التجارة ولا الصناعة تشجيعاً يذكر ، ولم تنم طبقة وسطى ذات شأن ؛ وأفاد فتح قناة كيل (١٧٨٣) الإنجليز والهولنديين أكثر مما أفاد الدنمركيين . وفى ١٧٩٢ كانت الدنمرك أول دولة أوربية تلغى النخاسة فى ممتلكاتها .

وكما سيطر النبلاء على الدولة كذلك سيطرت الكنيسة على المنابر والطباعة ، وأملت أن تسيطر على العقول أيضاً . فحرمت الرقابة الصارمة التى امتدت من ١٥٣٧ إلى ١٨٤٩ كل ما يطبع أو يقال مما لا يتفق والتعالم اللوثرية القويمة ؛ وصودر الكثير من الكتب غير اللاهوتية ، كقصة جوته « آلام فرتر » لأنها خطر يهدد الأخلاق العامة . وزاد من القيود المعطلة لنمو الأدب استعمال الألمانية فى البلاط ، واللاتينية فى الجامعات ، والفرنسية فى الآداب

البحتة — التى لم يكد يوجد منها شيء . وكان تدشين الأدب الدنمركى بالتأليف باللغة القومية . وإدخال بصيص من التنوير إلى الدنمرك . من مآثر ألمع دنمركى فى القرن الثامن عشر .

وتستطيع كل من النرويج والدنمرك أن تنسب إليها لودفج فون هولبرج ، لأنه ولد فى برجن (٣ ديسمبر ١٦٨٤) . وبعد أن تلقى العلم فى المدرسة اللاتينية المحلية . عبر الماء ليلتحق بجامعة كوبنهاجن . ولكن سرعان ما نضب ماله ، فتقفل إلى النرويج واشتغل مدرساً خصوصياً فى أسرة قسيس ريفى ، فلما أن ادخر ستين طالرا انطلق ليرى الدنيا من حوله . فنراه فى ١٧٠٤ فى هولنده ، وفى ١٧٠٦ — ١٧٠٨ كان يعلم نفسه فى مكتبات أكسفورد . فلما عاد إلى كوبنهاجن ألقى محاضرات لم تأته بأكثر كثيراً من تعليم الذات ، وعاش أثناء ذلك على التدريس الخصوصى ، واغتذى بالطموح . وفى ١٧١٤ عينته الجامعة أستاذاً دون راتب ، غير أن منحة خاصة أتاحت له الجولان عامين فى ربوع إيطاليا وفرنسا ، على قدميه أكثر الوقت . فلما آب من أروع رحلة بين الرحلات الرائعة كلها ، عين أستاذاً للميتافيزيقا ، وهى مادة أبغضها ، ثم للاتينية والبيان ، وأخيراً (١٧٣٠) للتاريخ والجغرافيا اللذين أحبهما .

ولقد خلق الأدب الدنمركى فى لحظات فراغه . فحتى زمنه لم يكن فى الدنمركية شيء سوى الأغانى الشعبية والفارصات والترانيم والكتب العقيدية الشعبية . وألف هولبرج مكتبة صغيرة من القصائد والهجاءات والقصص والأبحاث بالدنمركية فى السياسة والقانون والتاريخ والعلوم والفلسفة . ولم ينافسه غير فولتير فى تعدد جوانبه . وقد استعمل الهزل كما استعمله فولتير ليسوط به الأساتذة المزهوين من عباد الدراسات الكلاسيكية ، والمحامين الذين يقيدون حركة العدالة بأغلال الدقائق التقنية ، ورجال الدين المتزاحمين بالمناكب على المال والمنصب ، والأطباء الذين ييسرون دخول المرضى إلى الأبدية . وتناول كل أعمدة المجتمع هؤلاء تقريباً بالتشهير فى أول آثاره الأدبية الكبرى ، وهو ملحمة ساخرة سماها بيدر بارس (١٧١٩) . وأوجع بعض كبار الدنمركيين وخز هذا الهجاء ، فناشدوا الملك فردريك الرابع

أن يصادر الكتاب باعتباره ضاراً بالأخلاق مستهزئاً بالقساوسة ؛ وقرىء على الملك أول قسم فى الملحمة كطلبه ، فحكم بأنها « عمل برىء مسل » ، غير أن المجلس الملكى أحاط هولبرج بأنه كان خيراً لو أن القصيدة لم تكتب قط [٢٦] .

وعلى ذلك انصرف إلى المسرح . ففى ١٧٢٠ افتتح ممثل فرنسى اسمه إتيين كابيون فى كوبنهاجن أول مسرح دنمركى . فلما افتقد المسرحيات الدنمركية الجديرة بالإخراج استورد الدرامات من فرنسا وألمانيا . غير أنه استشف من «بيدر بارس» أن هولبرج يملك المواد والموهبة اللازمة للكوميديا ، فلجأ إليه ليمد المسرح الجديد بتمثيليات باللغة العامية ، ولم ينقض عام حتى كان هولبرج قد ألف خمس تمثيليات ، وفى ثمانية أعوام ألف عشرين ، كلها غنى فى صور الأعراف والعادات المحلية غنى حمل خلفه العظيم آدم أو هلنشليجر على أن يقول فيه « إنه عرف كيف يصور الحياة البورجوازية لمدينته كوبنهاجن بأمانة عظيمة بحيث لو انشقت الأرض وابتلعت هذه المدينة ، وبعد مائتى عام أميط اللثام عن كوميديات هولبرج ، لاستطاع المرء أن يعيد بناء العصر منها ، على نحو ما نعرف أيام روما القديمة من أطلال بومبيى وهركيولانيوم [٢٧] ».

ونقل هولبرج القوالب والأفكار عن بلوتوس وترنس وموليير والكوميديا ديللارتى التى شهدها فى إيطاليا . وبعض كوميدياته تمثيليات من فصل واحد ذات موضوعات تافهة فقدت قوة دفعها ، مثل « رحلة سجاناريل إلى أرض الفلاسفة » [٢٨] . وبعضها مازال يحتفظ بقوته ، مثل « يبى رجل التل » التى نعرف منها أن الفلاحين حين يظفرون بالسلطة يكونون أشد بغياً من سادتهم . وبعضها تمثيليات مكتملة الطول مثل « رازموس مونتانوس » ، وهى هجائية مرحة تسخر بتنطع العلماء ، وبغطرسة اللاهوتيين وبجهل العوام ، مع مسحه خبيثة من صراحة الريفيين وصدقهم ، مثل قول لسبيد لأبيها بعد أن سمعت بأن خطيبها عائد من الجامعة « إذن فقد صدق حلمى . لقد حلمت انى نمت معه البارحة » [٢٩] على أن مسرح كوبنهاجن

رغم هذه الكوميديات المرحة أغلق أبوابه فى ١٧٢٧ لافتقاره إلى الدعم الشعبى . وكان آخر ما مثل فوق خشبته مسرحية هولبرج « مأتم الكوميديا الدنمركية » .

لقد صدم زملاءه من أساتذة الجامعة بالكتابة للمسرح ؛ أما الآن فقد ألان جانبهم بمؤلفات تاريخية يسرت للقراء الدنمركيين ثمرات الدراسات الأوربية الغربية . وكانت كتبه « تاريخ للدنمرك » (١٧٣٢ — ١٧٣٥) ، تاريخ عام للكنيسة » (١٧٢٧ — ١٧٤٧) ، و « تاريخ لليهود » مصنفات ، ولكنها متقنة . والتمس هولبرج التخفف من هذه الجهود فى رائعته . « رحلة نيلس كليم السفلية » (١٧٤١) . وقد كتبها نثراً لاتينياً لتصل إلى القراء الأوربيين ، فوصلت ، ولكن بطريق الترجمة : ترجمها ينز باجيزين إلى الدنمركية فطبعت الترجمة ثلاث مرات ، وظهر منها بالألمانية عشر طبعات ، بالسويدية ، والهولندية ، والانجليزية ، ثلاث ، وبالفرنسية والروسية اثنتان ، وبالمجرية واحدة . هذه « الرحلة السفلية » هى التى جعلت هولبرج « سويفت الدنمرك » و « فولتيرها » معاً .

والقصة تروى أن الضوضاء المنبعثة من كهف تثير فضول نيلس ، فيصمم على استقصاء مصدرها ويدليه أصحابه بحبل ينقطع ، « وبسرعة مذهلة دفع بى إلى أعماق الهاوية »[٣٠] . ثم يعثر فى قشرة الأرض على مساحة مكشوفة أو قبة سماوية فيها شمس وكواكبها السيارة ، ونجوم كثيرة . ويسقط صوب أحد هذه الكواكب فيصبح قمراً تابعاً له ويدور حوله عاجزاً ، ولكنه يمسك بنسر يحمله حتى يهبط فى رفق على الكوكب بوتو (أى يوتو يا) مقلوبة) . هنا يجد الأشجار هى النوع السائد ، وهى غنية بعصاراتها العاقلة ، ولسوء الحظ « كانت الشجرة التى تسلقتها . . . هى زوجة العمدة » [٣١] . ولبوتو بعض القوانين الممتازة . فالناس الذين « يتجادلون علانيـــة حول صفات الكائن الأعظم وما هيته ينظر إليهم على أن بهم مساً من الجنون » ، فيعالجون بفصدهم لتهبط حماهم ، ثم يحبسون حتى « يفيقوا من هذا الهذيان »[٣٢] . والأمهات فى بوتو يرضعن أطفالهن — وهى فكرة سبقت بعشرين سنة دعوة روسو للأمهات لإرضاع أطفالهن من ثديهن . وفى إقليم كوكليكو

تحكم النساء الدولة ، ويعنى الرجال بشئون البيت أو يصبحون بغايا ، وللملكة « حريم » من ثلاثمائة شاب وسيم . وينفق الفلاسفة فى كوكليكو وقتهم فى محاولة الوصول إلى الشمس ، ولا يهتمون اهتماماً يذكر بشئون الدنيا . وفى إقليم ميكولاك تجد الناس كلهم ملحدين ، « يقارفون أى شر يستطيعون إخفاءه عن الشرطة »(٣٣) ويقع نيلس على كتاب بعنوان « رحلة تانيان إلى العالم السفلى » يصف أوربا وعاداتها الغريبة : الرءوس التى تكسوها البواريك الضخمة ، والقبعات المحمولة تحت الأذرع (كما كان يفعل نبلاء فرنسا) ، « والكعكات الصغيرة أو القرابين تحمل مروراً بالشوارع ويقول الكهان إنها آلهة ، والناس الذين خبزوها . . . يحلفون على الإيمان بأن هذه القرابين خلقت الدنيا »(٣٤) .

وقد اشتملت « الرحلة السفلية » على انتقادات للعقيدة المسيحية ، ودعت إلى إطلاق حرية العبادة لجميع المذاهب ، ولكنها أوصت بالإيمان بالله ، وبالجنة ، وبالنار ، باعتبارها ركائز ضرورية لناموس أخلاقى لاتفتأ تهاجمه مطالب النفس والجسد هجوماً شرساً(٣٥) . ورقى الملك فردريك الخامس المصلح الذى انصلح أمره بارونا فى ١٧٤٧ ؛ واستمتع هولبرج بلذة التمرد فى شبابه والرضى عنه فى شيخوخته التى اختتمت سنة ١٧٥٤ . ومازال إلى اليوم إمام الأدب الدنمركى .

على أن البعض قد يخصون بهذا المقام يوهان إيفالد الذى ضارعت حياته حياة بايرون وكيتس وشلى مغامرة ومعاناة وقصراً . وقد ولد فى كوبنهاجن فى ١٧٤٣ لقسيس لوثرى ، وتمرد على المتزمتين من الكبار ، ووقع فى غرام آرنسى هوليجارد وهو فى السادسة عشرة ، وهجر مهنة اللاهوت لأنه استبطأ ثمراتها ، وتطوع فى الجيش البروسى ثم النمساوى ، وصمم على الظفر بالثروة والمجد اللذين ينيلانه آرنسى عروساً . ولكن الحرمان والمرض أتلفا صحته ، فعاد إلى كوبنهاجن واللاهوت ، وتزوجت آرنسى ثروة أعجل ، وسكب إيفالد قلبه فى الشعر والنثر . فكتب أول مأساة دانمركية أصيلة

سماها « رولف كراجى »(١٧٧٠) ، وبلغ قمة الشعر الدنمركى فى القرن الثامن عشر بمسرحية « موت بالدر» (١٧٧٣) وهى دراما ملحمية بالشعر . على أن جهده لم يأته إلا بالكفاف ، فاعتكف فى عزلة ريفية ، وراح يجتر سلسلة من الأوصاب ، ثم أنعشه معاش من الحكومة آخر الأمر . وقد رد على الصنيع بتمثيلية « صيادى السمك » (١٧٧٦) التى احتوت أغنية شعبية وطنية مطلعها « وقف الملك كرستيان إلى جوار الصارى العالى » التى أصبحت أنشودة الدنمركيين القومية المفضلة [٣٦] . وكانت دعوة إيفالد إلى المجد ، ووداعه للحياة ، ومات فى ١٧٨١ إثر مرض طويل أليم غير متجاوز الثامنة والثلاثين . ويعده السكندنافيون « من أعظم شعراء الشمال الغنائيين ، بل ربما أعظمهم قاطبة » [٣٧] .

وبتقدم القرن الثامن عشر أصبح التاريخ السياسى للدنمرك جزءاً من الدراما الحديثة المتصلة ابدا بين التقاليد المتوارثة والتجربة . وقد مزج كرستيان السادس (حكم ١٧٣٠ — ٤٦) بين القوى المتعارضة . فدفع هو ووزراؤه التنمية الاقتصادية قدماً باستجلاب الغزالين والنساجين لإنشاء صناعة النسيج ، وبتكوين الشركات القومية للاتجار مع أسيا وأمريكا ، وبفتح مصرف كوبنهاجن (١٧٤٤) . ونشروا التعليمين الابتدائى والثانوى ، وأسسوا الأكاديميات لتشجيع الأدب والعلم . على أنهم جددوا قانوناً قديماً يلزم بحضور خدمات الصلاة اللوثرية ، وأغلقوا جميع المسارح وصالات الرقص ، ونفوا الممثلين ، ومنعوا الحفلات التنكرية .

وأبقى فردريك الخامس (حكم ١٧٤٦ — ٦٦) ابن كرستيان على هذه القوانين ولكنه خفف من وطأتها بروحه اللطيفة وحبه للذات الحسية . ففى ١٧٥١ استقدم من هانوفر يوهان هارتفج أرنست فون بيرنشتورف ، الذى وفق وهو رئيس للوزراء فى رفع مستوى الأمانة والكفاءة فى الإدارة ، وأصلح شأن الجيش والبحرية ، وأبعدهما عن حرب السنين السبع ، وحرك مياه الثقافة الدنمركية الراكدة بجلب الأساتذة والشعراء والفنانين والعلماء ؛ وقد رأينا كلوبشتوك يقبل هذه الدعوة . وفى ١٧٦٧ توج الكونت فون

برنشتورف سياسته الخارجية السلمية بإقناع كاترين الكبرى بتوقيع اتفاقية نزلت بمقتضاها للدنمرك عن هولشتين — جوتورب .

ومات فردريك الخامس فى الثالثة والأربعين (١٧٦٦) بعد أن أنهكته لذاته . وقد زوج ابنه كرستيان السابع (حكم ١٧٦٦ — ١٨٠٨) على عجل وهو بعد فى السابعة عشرة من كارولين ماتيلدا أخت جورج الثالث ملك انجلترة ، وقد أفاضت اشراقاً على حياة العاصمة الاجتماعية ، ولكن زوجها نصف المجنون أهملها إيثاراً لحياة الخلاعة ، وانزلقت كاترين إلى غرام مأساوى مع طبيب البلاط يوهان فريدريش شتروينزى . وكان ابنا لأستاذ لاهوت فى هاله ، فدرس فيها الطب ، وفقد إيمانه الدينى كما يفقده أكثر الأطباء . وقد دان بحظوته عند الملك لبراعته فى علاج العواقب الاكلينيكية لغراميات الملك ، وعند الملكة لتوفيقه فى الأتيان بكرستيان السابع إلى فراشها بما يكفى لإنجاب وريث للعرش . فلما تردى عقل الملك فى درك الاكتئاب وعدم المبالاة ، وزادت سلطة الملكة فى الحكومة ، وسمحت لطبيبها بإدارة سياستها كما سمحت له بالاستمتاع بحظوتها فغدا (١٧٧٠) حاكم الدولة الفعلى . وخرجت الأوامر من القصر الملكى ممهورة من شتروينزى باسم الملك « غير المتمالك قواه العقلية » . وطرد برنشتورف ، فاعتكف بهدوء فى ضياعه بألمانيا .

وكان شتروينزى قد قرأ مؤلفات جماعة « الفلاسفة » الفرنسيين ، وعلى مبادئهم نوى أن يشكل الحياة الدنمركية من جديد . فألغى استغلال النبلاء لامتيازاتهم ، وأنهى الرقابة على المطبوعات ، وأسس المدارس ، وطهر المصالح الحكومية من الرشوة والاستغلال . وأعتق الأقنان ، وحرم التعذيب القضائى . وأعلن التسامح لجميع الأديان ، وشجع الآداب والفنون ، وأصلح القانون والمحاكم والبوليس ، والجامعة ، والمالية ، ووسائل حفظ الصحة البلدية . . . ثم ألغى معاشات كثيرة تخفيفاً من الدين العام ، ورصد دخول المؤسسات الدينية للإنفاق على الأغراض العامة .

ولكن النبلاء تآمروا ليسقطوه ، واستغلوا حرية النشر لاستنزاف شعبيته .

وكره الأتقياء من الدنمركيين التسامح الديني لأنهم رأوه كفراً ، ورددت أحاديثهم عن شتروينزى أنه أجنبي دخيل ليس لسلطته سند غير فراش الملكة . وفى ١٧ يناير ١٧٧٢ اقنع لفيف من ضباط الجيش الملك بأن شترو ينزى والملكة يبيتان قتله فوقع أمراً بالقبض عليهما . ورحلت كارولين إلى كرونبورج قلعة هاملت . أما شترو ينزى فألقى فى السجن ، وبعد خمسة أسابيع من المعاناة اعترف بزناه مع الملكة . وفى ٢٨ أبريل ١٧٧٢ قطع إرباً على مقصلة على مرأى من جمهور محبذ لهذا العقاب . وسمح لكارولين بعد إلحاح جورج الثالث بالاعتكاف فى تسلليه بها نوفر ، حيث ماتت فى ١٠ مايو ١٧٧٥ وهى بعد فى الرابعة والعشرين .

وقلد المتآمرون الفائزون الحكم لأوفى جولد برج ، المعلم الخاص للأمير فردريك . و قد قاد جولد برج خلال اثنى عشر عاماً من الحكم حركة انتفاض وطنية على النفوذ الأجنبي فى الحكومة واللغة والتعليم ، وفتح باب المناصب للعامة ، وأعاد القنية ، والتعذيب القضائى ، وسيادة الكنيسة اللوثرية ، والتوجيه الديني للجامعة . ووكلت الشئون الخارجية لأندرياس بيتر فون برنشتورف ، ابن أخى الكونت فون برنشتورف ومحسوبه . فلما نصب الأمير فردريك نفسه وصياً (١٧٨٤) طرد جولد برج : وأصبح اندرياس فون برنشتورف رئيس الوزراء وظل كذلك إلى يوم مماته . وبإرشاده الحكيم ألغيت القنية ثانية (١٧٨٧) ، وأنهيت النخاسة فى الممتلكات الدنمركية ، وأطلقت حرية القيام بالمشروعات الاقتصادية . فلما مات برنشتورف (١٧٩٧) كانت الدنمرك قد ثبتت أقدامها على الطريق إلى ذلك الرخاء السلمى الذى جعلها محسودة من العالم كله .

٤ — السويديون

١ — السياسة : ١٧١٨ — ٧١

كانت حياة شارل الثانى عشر المثيرة مأساة للسويد . ذلك أن مراميه لم تسترشد بموارد وطنه بل بظمئه للمجد . وقد احتمله الشعب السويدى بشجاعة وهو يأتى على قوتهم البشرية وثروتهم ، ولكنهم كانوا يدركون قبل موته

بزمان أن مصيره الفشل المحقق . فقد نزلت السويد بمقتضى معاهدات ستوكهولم (١٧١٨ — ٢٠) عن دوقيتي بريمن وفردن لهانوفر ، وعن الجزء الأكبر من بومرانيا لبروسيا . وبمقتضى صلح نيستاد (١٧٢١) نزلت عن ليفونيا واستونيا وانجرمانلاند وكاريليا الشرقية لروسيا . وقضى على سلطة السويد على أرض القارة ، وأكرهت على التقهقر إلى شبه جزيرة غنية بالمعادن وصلابة الخلق القومى ، متطلبة الجهد الشاق والمهارة المثابرة ثمناً للحياة.

وقد أضعفت هزيمة شارل شوكة الملكية ، وأتاحت للنبلاء أن يستردوا سيطرتهم على الحكومة . فأعطى دستور ١٧٢٠ السلطة الغالبة لمجلس نيابى أو «دايت» مؤلف من أربع « طبقات» أو مجالس . مجلس نبلاء « ريدارهوس» قوامه رؤساء الأسر النبيلة كلها ؛ ومجلس قساوسة — من الأساقفة مضافاً إليهم نحو خمسين مندوباً ينتخبهم اكليروس الأبرشيات من بينهم ؛ ومجلس سكان المدن ، من نحو تسعين مندوباً يمثلون الموظفين الإداريين وأقطاب رجال الأعمال فى المدن ؛ ومجلس فلاحين ، من مائة مندوب تقريباً يختارون بواسطة المزارعين من ملاك الأرض الأحرار ومن بينهم . وكانت كل طبقة تجلس منفصلة عن غيرها ، ولا يمكن أن يصبح أى مشروع قانوناً ما لم توافق عليه ثلاث طبقات ؛ ولم يكن لطبقة الفلاحين فى حقيقة الأمر قوة تشريعية إلا بموافقة طبقتين أخريين . وخلال اجتماعات المجلس النيابى كانت «لجنة سرية » من خمسين نبيلا ، وخمسة وعشرين قسيساً ، وخمسة وعشرين نائباً عن المدن تحضر مشروعات القوانين جميعها ، وتختار الوزراء ، وتهيمن على السياسة الخارجية . وقد أعفى النبلاء من الضرائب ، واحتكروا حق شغل مناصب الدولة العليا [٣٨] . فإذا لم يكن المجلس منعقداً سير دفة الحكم «راد» (مجلس) من ستة عشر أو أربعة وعشرين رجلا يختارهم المجلس النيابى ويسألون أمامه . وكان الملك يرأس هذا المجلس وله صوتان ، وفيما عدا هذا لم يكن له سلطة التشريع . وتضافرت روسيا وبروسيا والدنمرك لتأييد هذا الدستور لأنه يحبذ سياسة السلام ويكبح النزعات الحربية للملوك الأقوياء .

ولم تعد الملكية وراثية بل أصبحت انتخابية . وبعد موت شارل الثانى

عشر (٣٠ نوفمبر ١٧١٨) كان مآل العرش بالوراثة إلى كارل فريدريش دوق هولشتين جوتورب ، وهو ابن لأخت شارل الكبرى ؛ ولكن المجلس النيابى المنعقد فى يناير ١٧١٩ لأول مرة فى عشرين سنة ، أعطى التاج لأولريكا اليانورا وهى أخت أخرى لشارل ، بعد أن وافقت على التخلى عن سياسة الاستبداد الملكى التى مارسها أخوها . ولكن حتى مع هذه الموفقة تبين أنها عسيرة القياد . وفى ١٧٢٠ اقنعت بالنزول عن العرش لزوجها الحاكم فردريك الأول أمير هسى — كاسل الذى أصبح الآن فردريك الأول ملك السويد . وبفضل الإرشاد الحكيم الذى بذله الكونت آرفيد برنهارد هورن — وكان مستشاراً للدولة — أتيح للسويد ثمانية عشر عاماً من السلام لتبرأ فيها من جراح الحرب .

غير أن الأباة من السويديين سخروا من سياسته السلمية ولقبوا أشياعه « الطواقى » وهم يعنون بهـذا اللقب انهم خرفون نيـام بينما تتراجع السويد إلى المؤخرة فى ركب الدول . وقام ضد هؤلاء حزب « القبعات » الذى كونه الكونت كارل جيلنبورج ، وكارل تسين ، وغيرهما . وتسلط هذا الحزب على المجلس النيابى فى ١٧٣٨ ، وحل جيلنبورج محل هورن . وإذ كان مصمماً على إعادة السويد إلى سابق مكانتها بين الدول ، فإنه جدد التحالف المتقادم مع فرنسا التى أرسلت معوناتها المالية للسويد لقاء معارضتها لمطامع روسيا ؛ وفى ١٧٤١ أعلنت الحكومة الحرب على روسيا ، أملا فى استرداد أقاليم البلطيق التى استولى عليها بطرس الأكبر ، ولكن لا الجيش ولا البحرية كانا معدين الأعداد الكافى ، وقد أعجز المرض رجال البحرية . وسلم الجيش فنلنده كلها أمام الزحف الروسى . على أن القيصرة اليزابث ، الحريصة على كسب تأييد السويد ، وافقت على رد معظم فنلنده إذا عين ابن عمها ادولفس فردريك أمير هولشتين — جوتوب للعرش السويدى . وبهذه الشروط أنهى صلح آبو الحرب (١٧٤٣) . فلما مات فردريك الأول (١٧٥١) ارتقى ادولفس فردريك العرش .

ولم يمض وقت طويل حتى علمه مجلس الطبقات انه ملك بالاسم

لا بالفعل . فقد نازعه حقه فى تعيين النبلاء الجديد، أو اختيار أعضاء بلاطه ، وهدد بالاستغناء عن توقيعه ان اعترض على التوقيع على قوانين أو وثائق معينة . وكان الملك رجلا لين العريكة ، ولكن كان له زوجة متكبرة آمرة هى لويزة أولريكا أخت فردريك الأكبر . وحاول الملك والملكة الثورة على سلطة المجلس . ولكن الثورة أخفقت ، وعذب عملاؤها وقطعت رءوسهم أما الملك فعفى عنه لأن الشعب كان يحبه . وأما لويزه فعزت نفسها بحب الأدب وبرزت فى مضاره . وقد صادقت لينايوس وجمعت من حولها لفيفاً من الشعراء والفنانين نشرت خلالهم أفكار التنوير الفرنسى . وعين المجلس النيابى معلماً جديداً لابنها ذى الأعوام العشرة ، وأصدر إليه تعليمات بأن يحيط ملك المستقبل جوستافس الثالث بأن الملوك فى الدول الحرة لا يحتفظون بعروشهم إلا إذا سمح لهم بشروط ، وأنهم إنما تخلع عليهم الأبهة والجلال « لتشريف المملكة لا لأجل الشخص الذى يتفق أن يشغل المكان الأول فى الموكب » وأنه » بما أن بريق البلاط ووهجه « قد يضللهم بأوهام العظمة ، فإنهم يحسنون صنعاً أن هم تفقدوا أكواخ الفلاحين بين الحين والحين ، ورأوا الفقر الذى يدفع تكاليف الأبهة الملكية »(٣٩) .

وفى ١٢ فبراير ١٧٧١ مات أدولفس فردريك ودعا المجلس جوستافس الثالث ليأتى من باريس ويمتثل لمراسم الملكية .

٢ — جوستافس الثالث

كان أكثر الملوك جاذبية بعد هنرى الرابع ملك فرنسا . وإذ كان وسيماً مرحاً ، عاشقاً للنساء والفنون والسلطة ، فقد لمع وتوهج خلال تاريخ السويد كأنه الشحنة الكهربية دافعاً إلى الحركة كل العناصر الحيوية فى حياة الأمة . وكان قد أحسن تعليمه على يد كارل تسين ، ودللته أمه المولعة به . وكان من حيث الفكر نابغاً مرهفاً ، ومن حيث الخيال والحس الجمالى موفور الحظ ، لا يستقر على حال لفرط طموحه وكبريائه ، فليس من اليسير أن يكون المرء أميراً متواضعاً . ونقلت إليه أمه عشقها للأدب الفرنسى ، فقرأ فولتير بنهم ، وبعث إليه بعبارات الاحترام ، وحفظ الهنرياذة عن ظهر

قلب . وكان السفير السويدى فى باريس يوافيه بكل مجلد من « الموسوعة » عند صدوره . ودرس التاريخ باهتمام وافتتان ، وأطربته سير جوستافس فازا ، وجوستافس أدولفس ، وشارل الثانى عشر ؛ وبعد أن قرأ عن هؤلاء الرجال لم يطق أن يكون ملكاً خاملا . وفى ١٧٦٦ ، زوجه المجلس للأميرة صوفيا مجدلينا ابنة فردريك الخامس ملك الدنمرك دون أن يؤخذ رأيه ، ولا رضى أبويه . وكانت خجولا دمثة الطبع تقية ترى المسرح مكاناً للإثم ؛ أما هو فكان شكاكاً ، يحب الدراما ، ولم يغتفر قط للمجلس إقحامه فى هذا الزواج المتنافر . وهدأ المجلس ثائرته مؤقتاً بمنحة طيبة تتيح له الرحلة إلى فرنسا (١٧٧٠ — ٧١) .

وتوقف فى كوبنهاجن ، وهمبورج ، وبرنزويك ، ولكن باريس كانت مقصده . وتحدى غضب لويس الخامس عشر بزيارة شوازيل المنفى ، وانتهك التقاليد بزيارة مدام دوبارى فى قصرها الريفى فى لوفيسيين . والتقى بروسو ، ود الامبير ، — وما رمونتيل ، وجريم ، ولكن ظنه فيهم خاب وكتب لأمه يقول « تعرفت إلى جميع الفلاسفة ، وإنى لأجد كتبهم ألطف كثيراً من أشخاصهم »(٤١) وسطع نجماً من نجوم الشمال فى صالونات السيدات جوفران ودودفان ود لسبيناس ودبينييه ونكير . وتلقى وسط انتصاراته نبأ يفيده انه أصبح ملك السويد . فلم يتعجل الرجوع ، بل أقام فى باريس ردحاً أتاح له الحصول على معونات مالية كبيرة للسويد من حكومة فرنسا المشرفة على الإفلاس ، و ٣٠٠,٠٠٠ جنيه لاستعماله الشخصى فى ترويض أعضاء مجلس الأمه . وفى الطريق إلى أرض الوطن توقف ليرى فردريك الأكبر الذى أنذره بأن بروسيا ستدافع — بالسلاح إن اقتضى الأمر — عن ذلك الدستور السويدى الذى قيد سلطات الملك تقييداً شديداً .

ووصل جوستافس إلى ستوكهلم فى ٦ يونيو . وفى الرابع عشر افتتح أول مجلس أمة فى عهده بكلام جميل أشبه بذلك الذى افتتح به ملك آخر معوق ، هو جورج الثالث ، برلمانه الأول فى ١٧٦٠ . قال « إننى وقد ولدت ونشأت بين ظهرانيكم تعلمت منذ نعومة أظفارى أن أحب وطنى ، وإنى لأعده أعظم امتياز أننى ولدت سويدياً ، وأكبر شرف أن أكون المواطن الأول

لشعب حر»[٤١] . وقد أكسبته بلاغته ووطنيته تجاوباً حاراً من الأمة ، ولكنهما لم تحركا قلوب رجال السياسة . وفاز حزب الطواقى — أصدقاء الدستور وروسيا — الذين تمولهم كاترين الثانية بأربعين ألف جنيه ، بأغلبية فى ثلاث من مجالس الطبقات الأربع . ورد جوستافس باقتراض ٢٠٠,٠٠٠ جنيه من المصرفيين الهولنديين ليشترى انتخاب مرشحه رئيساً للمجلس . ولكن كان عليه أن ينتظر تتويجه ، فراجعت مجالس الطبقات التى يسيطر عليها حزب الطواقى يمين التتويج ليربط الملك بتعهد يلتزم فيه بقرار «أغلبية مجالس الطبقات» وأن تكون الكفاية وحدها أساساً لجميع الترقيات . وقاوم جوستافس نصف عام هذه الخطوة نحو الديمقراطية ، وأخيراً وقع (مارس ١٧٧٢) ، ولكنه فى دخيلة نفسه اعتزم الإطاحة بهذا الدستور الكريه لأول بادرة تسنح له .

وقد مهد أرضه بتوطيد شعبيته . ففتح أبوابه للجميع ، و «أغدق الهبات كأنه يتلقاها» ، ولم يصرف أحداً غير راض . وقد وافقه نفر من قادة الجيش على أنه لايستطيع تخليص السويد من تسلط روسيا وبروسيا — اللتين كانتا فى هذا الوقت بالذات (٥ أغسطس ١٧٧٢) تقطعان أوصال بولنده — إلا حكومة مركزية قوية لايعوق حركتها مجلس أمة مرتش . وساهم فرجيين السفير الفرنسى بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ دوقاتيه فى نفقات الانقلاب . وفى ١٨ أغسطس رتب جوستافس أن يقابله ضباط الجيش فى الترسانة صباح الغد . وجاء مائتان منهم . فطلب إليهم أن ينضموا إليه فى الإطاحة بنظام حكم فاسد قلق يد عمه أعداء السويد ، فوافقوا كلهم على أن يتبعوه إلا واحداً . أما الخارج على الإجماع ، وهو رودبيك الحاكم العام ، فقد ركب مخترقاً شوارع ستوكهلم داعياً أفراد الشعب إلى حماية حريتهم ، ولكنهم ظلوا غير مكترثين ، لأنهم كانوا معجبين بجوستافس ، ولم يحبوا هذا المجلس الذى كان فى رأيهم يستر أوليجاركية من النبلاء ورجال الأعمال وراء أشكال دمقراطية . وقاد الملك الشاب (وقد بلغ السادسة والعشرين) الضباط إلى ثكنات حرس ستوكهلم فتحدث إليهم حديثاً بلغ من الإقناع مبلغاً جعلهم

يتعهدون بتأييده . وبدأ انه يكرر خطوة فخطوة الطريقة التى أوصلت كاترين الثانية إلى السلطة قبل عشر سنوات .

فلما التأم شمل مجلس الأمة فى ٢١ أغسطس وجد ساحته يحيط بها الرماة والقاعة نفسها قد احتلها الجنود . ووبخ جوستافس فى خطاب صنع التاريخ مجالس الطبقات لأنها لوثت نفسها بالتناحر الحزبى والرشوة الأجنبية ، وأمر بأن يقرأ عليها الدستور الجديد الذى أعده معاونوه . وقد احتفظ هذا الدستور بملكية مقيدة ، ولكنه وسع سلطات الملك ، فخول له الهيمنة على الجيش والبحرية والعلاقات الخارجية ، وله وحده حق تعيين الوزراء وإقالتهم ، ولا يجتمع مجلس الأمة إلا بدعوة منه ، وله أن يفضه متى شاء ، ولا يناقش المجلس إلا ما قدمه له الملك ، ولكن لا يصبح مشروع قانوناً دون موافقة المجلس ، ويحتفظ المجلس بالإشراف على المالية عن طريق مصرف السويد وحق فرض الضرائب . وليس للملك أن يخوض حرباً هجومية دون موافقة المجلس . والقضاة يعينهم الملك ثم يصبحون غير قابلين للعزل ، ويحمى حق « الهابياس كوريس » كل الأشخاص المعتقلين من تعطيلات القضاء . وطلب جوستافس إلى النواب أن يقبلوا هذا الدستور ، وأقنعتهم أسنة الحراب فقبلوه ، وأقسموا يمين الولاء . وشكر الملك المجلس وفضه واعداً بدعوته من جديد خلال ستة أعوام . واختفى حزبا الطواقى والقبعات . وقد تم الانقلاب فى سرعة لم يرق فيها دم ، ورضى الشعب على ما يلوح . « وقد هتفوا لجوستافس محرراً لهم وأغرقوه دعاء . . . وتعانق الناس وهم يذرفون دموع الفرح »[٤٢]. واغتبطت فرنسا ، أما روسيا وبروسيا فهددتا بالحرب لرد الدستور القديم . ولكن جوستافس لم يهتز ، وتراجعت كاترين وفردريك ، مخافة أن تعرض الحرب مغانمهما البولندية للخطر .

وسلك جوستافس فى العقد التالى مسلك الملك الدستورى — أى أنه خضع للقانون الموضوع . وقام بإصلاحات نافعة . وتبوأ له مكاناً بين حكام القرن « المستبدين المستنيرين » . وأشاد به فولتير باعتباره « الوريث الجدير باسم جوستافس العظيم »[٤٣] . وأما طورجو الذى كان يعانى الإحباط فى

فرنسا . فقد طاب نفساً حين رآى سياساته الاقتصارية تنجح فى السويد ، حيث أجيزت حرية التجارة فى الغلال ، وأطلق عقال الصناعة من نظم النقابات الحرفية التى شلت حركتها . وحفز التجارة تنظيم الموانى الحرة على البلطيق ومدن الأسواق الحرة فى الداخل . واستشير ميرابو الأب فى تحسين الزراعة ؛ وكلف لمرسييه ولا ريفيير بوضع خطة للتعليم العام (٤٤) . وأرسل جوستافس إلى فولتير نسخة من الأمر الذى كفل حرية النشر (١٧٧٤) ، وكتب يقول : « إنك أنت الذى يجب أن تسدى إليك الإنسانية الشكر على تحطيم تلك العقبات التى ألقاها الجهل والتعصب فى طريق تقدمها (٤٥) » وقد أصلح القانون والقضاء ، وألغى التعذيب ، وخفف العقوبات ، وثبت العملة . ثم خفف الضرائب على الفلاحين ، وأعاد تنظيم الجيش والأسطول ، ومنح التسامح لجميع المذاهب المسيحية ولليهود فى ثلاث مدن كبرى منهيا بذلك احتكار المذهب اللوثرى لتقوى السويديين ؛ فلما ان دعا مجلس الأمة للانعقاد فى ١٧٧٨ . وافق المجلس على سنوات حكمه الست الأولى دون أن يخرج صوت واحد على الإجماع وكتب جوستافس إلى صديق له « لقد بلغت أسعد مراحل حياتى العملية . فأفراد شعبى مقتنعون بأننى لا أبغى شيئاً غير زيادة رفاهيتهم وتوطيد دعائم حريتهم » (٤٦) .

٣ — التنوير السويدى

وفى زحمة هذا النشاط التشريعى والإدارى . أسهم الملك بكل قلبه فى ذلك التفجر الرائع للآداب والعلوم ، الذى أوقف السويد على قدم المساواة مع التطورات الفكرية الأوربية فى القرن الثامن عشر ؛ وكان هذا عصر لينايوس فى النبات ، وشيليه وبرجمان فى الكيمياء ، وقد أشدنا بذكرهما فى غير هذا الموضع — ولكن ربما كان من واجبنا أن ندرج فى قائمة العلم رجلا من ألمع السويديين فى زمانه ، وهو إمانويل سويدنبورج ، لأنه اشتهر أول ما اشتهر بوصفه عالماً . فقد أنجز عملا أصيلا فى الفيزياء والفلك والجيولوجيا والبليونتولوجيا وعلم المعادن والفسيولوجيا وعلم النفس . وحسن المضخة الهوائية باستعمال الزئبق ؛ وإجاد وصف المغنطيسية

والوميض الفوسفوري ؛ واقترح نظرية سديمية قبل كانط ولا بلاس بزمان ؛ وسبق البحث الحديث في الغدد الصماء . وبين قبل أي عالم آخر بمائة وخمسين عاماً أن حركة المخ متزامنة مع التنفس لامع النبض . وحدد مكان عمليات العقل الراقية في سحاء المخ ، وحدد لأجزاء معينة من المخ وظيفة التحكم في أعضاء معينة من الجسم (٤٧) . وخطب بمجلس النبلاء في النظام العشري ، وإصلاح العملة ، وموازنة التجارة . وبدا أن عبقريته كلها موجهة إلى العلم . ولكنه حين خلص إلى أن دراساته تقوده إلى نظرية ميكانيكية للعقل والحياة ، وأن هذه النظرية مفضية إلى الإلحاد ، انتقص على العلم بقوة وتحول إلى الدين . وفي ١٧٤٥ بدأ يرى رؤى للجنة والنار ، وانتهى به الأمر إلى تصديق هذه الرؤى حرفياً ، فوصفها في رسـالته « السماء وعجائبها والجحيم » وأخبر قراءه الذين يعدون بالألوف أنهم في الجنة لن يكونوا أرواحاً مجردة من جسومها بل رجالا ونساء حقيقيين من لحم ودم ، يستمتعون بمباهج الحب الجسدية والروحية . جميعاً . ولم يعظ ، ولا ألف مذهباً أو شيعة ، ولكن تأثيره انتشر في طول أوربا وعرضها ، فتأثر به ويسلي ، ووليم بليك ، وكولردج ، وكارليل ، وإمرسن ، وبراوننج ، وأخيراً (١٧٨٨) كون اتباعه «كنيسة أورشليم الجديدة» .

على أن السويد رغم معارضته أسلمت عقلها أكثر فأكثر للتنوير . وسرعان ما أسفر استيراد المؤلفات الفرنسية والانجليزية أو ترجمتها عن علمنة للثقافة وتهذيب للذوق والأشكال الأدبية . ووجدت النزعة التحررية الجديدة في عهد جوستافس الثالث وأمه قبولا واسعاً في الطبقتين الوسطى والعليا ، حتى بين كبار رجال الدين ، الذين بدأوا يبشرون بالتسامح وبعقيدة ربوبية بسيطة (٤٨) . وكانت الشعارات السائدة في كل مكان هي « العقل » ، و « التقدم » ، و « العلم » و « الحرية » و « الحياة الطيبة هنا على الأرض » . ونظم لينايوس وغيره الأكاديمية الملكية السويدية للعلوم في ١٧٣٩ ، وأسس كارل تسين الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة في ١٧٣٣ . وكانت الأكاديمية الملكية للآداب البحتة قد عاشت فترة قصيرة على عهد الملكة لويزة أولريكا ، فأحياها جوستافس (١٧٨٤) بوقف سخي ، ووجهها لمنح مدالية كل عام

قيمتها عشرون دوقاتية لأفضل إنتاج سويدى فى التاريخ أو الشعر أو الفلسفة ، وفاز هو نفسه بأول جائزة كوفىء بها على ثنائه على لنارت تورشتنسن ألمع قواد جوستافس أدولفس . وفى ١٧٨٦ أسس الملك ، (على حد قوله) «أكاديمية جديدة لتهذيب لغتنا وصقلها ، على غرار الأكاديمية الفرنسية ، ويطلق عليها اسم الأكاديمية السويدية ، وتتألف من ثمانية عشر عضواً. « وأمدت هذه الأكاديمية هى وأكاديمية الآداب البحتة بالمال اللازم لصرف المعاشات للدارسين والمؤلفين السويديين [٤٩] . وكان جوستافس يساعد شخصياً رجال الأدب أو العلم أو الموسيقى ؛ وقد أشعرهم بأن جوده حق لهم ، ورفعهم إلى مقام اجتماعى جديد بدعوتهم إلى بلاطه ، ثم حفزهم بمنافسته إياهم .

وكان فى السويد دراما قبل عهده ، لا سيما بتشجيع من أمه ، ولكنها كانت تزود بالممثلين الفرنسيين الذين يقدمون المسرحيات الفرنسية . فصرف جوستافس الفرقة الأجنبية ، واستنهض المواهب الوطنية لإخراج تمثيليات لمسرح سويدى حقاً . وتعاون هو نفسه مع يوهان فيلاندر فى تأليف أوبرا « تيطس وبيليه » ، وعرضت أول مرة فى ١٨ يناير ١٧٧٣ ، واستمر عرضها ثمانى وعشرين ليلة . ثم انصرف الملك إلى السياسة ثمانية أعوام . غير انه عاد إلى تناول القلم من جديد فى ١٧٨١ وألف سلسلة من التمثيليات مازالت تحتفظ بمكانة مرموقة فى الأدب السويدى . وأولى هذه التمثيليات — المسماة (أريحية جوستافس أدولفس ، ١٧٨٢) — كانت فاتحة الدراما السويدية . وكان الملك يستقى موضوعاته من سجلات التاريخ ، وقد علم شعبه تاريخ أمتهم كما علم شكسبير الانجليزى . وفى ١٧٨٢ بنى على حساب الدولة مسرح منيف للدراما والموسيقى . وكان جوستافس يكتب مسرحياته نثراً ، ثم يصوغها يوهان كلجرين شعراً ، ثم يدفعها إلى مؤلفين موسيقيين أجانب ليضعوا موسيقاها . وهكذا أصبحت تمثيلياته أوبرات . وكانت أشهى ثمرات هذا التعاون « جوستاف أدولف وإيبا براهى» التى أحيت ذكرى قصة غرام القائد العظيم ، وجوستاف فازا ، التى وصفت تحرير أول جوستاف للسويد من الحكم الدنمركى .

وبفضل هذه القيادة الملكية ، وبفضل ثلاث جامعات (أوبصالا ،

وآبو ، ولوند) دخلت السويد حركة تنويرها الخاصة . ومهد للحركة أولوف فون دالين بتمهيد أديسونى (أى على طريقة جوزف أديسون) بكتابته غفلا من التوقيع ، ونشره دوريا (١٧٣٣ — ٣٤) مجلة دنسفنسكا أرجوس » التى ناقش فيها كل شىء إلا السياسة ، بأسلوب صحيفة سبكتيتور المهذب ، وابتهج كل قارىء تقريباً بما كتب ، ووافق مجلس الأمة على إجازة الكاتب الذى طلع الآن من مخبئه . وعينته الملكة لويزه أولريكا شاعراً للبلاط ومعلماً لإبنها الذى أصبح جوستافس الثالث . فقيد المنصب شاعريته وبلدها ، ولكنه أتاح له من الوقت والمال ما أعانه على كتابة رائعته فى تاريخ السويد ، وهو أول تاريخ نقدى لمملكة السويد .

وكانت أطرف الشخصيات فى كوكبة الشعراء الجديدة امرأة تسمى هدفيج نوردنفليشت ، وهى للسويد قريع لسافو ، وأسباسيا ، وشارلوت برونتى فى أوطانهن . وقد أفزعت أبويها المتزمتين بقراءتها المسرحيات والشعر ، فعاقباها ، ولكنها لم تنته ، وكتبت شعراً فيه من الحلاوة والفتنة ما أكرههما على أن يروضا نفسيهما على هذه الفضيحة . ولكنهما أجبراها على الزواج من ناظر ضيعتهما ، وكان رجلا حكيماً دميم الوجه ، قالت « كنت أحب أن أصغى إليه فيلسوفاً ، ولكن منظره عاشقاً كان لا يحتمل »(٥٠). وتعلمت أن تحبه ، ولكنه لم يلبث أن مات بين ذراعيها بعد زواجهما بثلاث سنين . وأنهى قسيس وسيم حدادها بخطبتها ، فأصبحت زوجاً له ، واستمتعت « بأسعد حياة تتاح لإنسان فان فى هذا العالم الناقص » ، ولكنه مات بعد سنة ، وكادت هدفيج تجن حزناً عليه . فاعتكفت فى كوخ على جزيرة صغيرة ، وبثت حزنها فى قصائد حظيت بقبول حسن حملها على الانتقال إلى ستوكهولم حيث ظلت تصدر كل سنة (١٧٤٤ — ٥٠) « حكماً للنساء ، بقلم راعية من الشمال » وأصبح بيتها صالوناً يلتقى فيه صفوة المجتمع والفكر . وحذا حذوها الشعراء الشبان أمثال فردريك جليينبورج وجوستاف كروتز فى اتخاذ الأسلوب الفرنسى الكلاسيكى وفى اعتناق التنوير . وفى ١٧٥٨ ، حين بلغت الأربعين ، وقعت فى غرام يوهان فشرشتروم . وكان فى الثالثة والعشرين ، واعترف لها بأنه يحب امرأة غيرها ، ولكنه حين رأى

هيدفج وحيدة مبتئسة عرض عليها الزواج . فرفضت هذه التضحية ، وحاولت إغراق نفسها حلا للمشكلة، فأنقذت ، ولكنها ماتت بعد ثلاثة أيام. ومازالت « راعية الشمال » علماً من أعلام الأدب السويدى .

وحذا كروتز حذو خيالها الرومانسى المحلق بمجموعة رقيقة جداً من الأغانى سماها « أتيس وكاميللا» (١٧٦٢) ، ظلت سنين كثيرة أعظم ما يعجب به القراء من قصائد فى هذه اللغة . فكاميللا ، بوصفها كاهنة لديانا ، تنذر للعفة ، ولكن أتيس الصياد يراها فتهفو نفسه إليها ويضرب فى الغابات يائساً . وتتحرك عاطفة كاميللا أيضاً فتسأل ديانا « أليس ناموس الطبيعة مقدساً قداسة أمرك ؟ » ثم تصادف أيلا جريحاً فتعنى به وتخفف ألمه ، فيلعق يدها ، ويتوسل إليها أتيس أن تهبه امتيازات مماثلة ، فتوبخه ، فيقفز من جرف عال طلباً للموت ، ولكن كيوبيد يعترض سقطته ، وتحنو عليه كاميللا وترضى بعناقه ، غير أن ثعباناً ينشب نابه فى صدرها المرمرى ، فتموت بين ذراعى أتيس . ويمص أتيس السم من جرحها فيشرف على الموت . وتلين قناة ديانا ، فتردهما إلى الحياة ، وتحل كاميللا من نذورها العذرية . وينتهى كل شىء نهاية سعيدة . وقد أشاد بهذه القصيدة الرعوية المثقفون السويديون كما أشاد بها فولتير ، ولكن كروتز انصرف إلى السياسة وأصبح مستشاراً للسويد .

وإذا كانت هدفيج نورد نفليشت هى سافو السويد ، فإن كارل بلمان كان روبرت بيرنز السويد . نشأ فى أحضان العز والتقوى ، ولكنه تعلم أن يفضل أغانى الحانات المرحة على ترانيم بيته الكئيبة . فى الحانات كانت حقائق الحياة والوجدان تعلن دون اكتراث بالتقاليد واللياقة ؛ وفيها يعرى الخمر كل نفس فتتيح للحقيقة أن تتكشف بين الوهم والغضب . وكان أكثر الشخصيات بعثاً للأسى فى هذا الحطام البشرى يان فريدمان ، الذى كان يوماً ما صانع ساعات البلاط ، والذى حاول الآن أن ينسى فى الشراب فشل زواجه . وأكثرها مرحاً ماريا كيلشتروم ، ملكة الأعماق السفلى . وقد غنى بلمان أغانيهم معهم ، وألف الأغانى عنهم ، وأنشدها أمامهم على أنغام موسيقى من تأليفه . وقد شاب بعض أغانيه شىء من التحلل ، فوبخه

كيلجرين ، الأمير غير المتوج لشعراء العصر . ولكن حين أعد بلمان « رسائل فريدمان » للطبع (١٧٩٠) قدم كلجرين لهذه الرسائل الشعرية بمقدمة حماسية ، وحظى الكتاب بجائزة من الأكاديمية الملكية السويدية . واستمع جوستافس الثالث إلى بلمان فى سرور ، ولقبه « أناكريون الشمال » ومنحه وظيفة شرفية فى الحكومة . على أن اغتيال الملك (١٧٩٢) ترك الشاعر بغير مورد ، فتردى فى مهاوى الفقر ، وحبس للدين ، ثم أفرج عنه بمعونة أصدقائه . وبينما كان مشرفاً على الموت بالسل وهو فى الخامسة والخمسين أصر على زيارة حانته الأثيرة لآخر مرة ، وراح يغنى فيها حتى بح صوته . ولم يلبث أن وافته منيته فى ١١ فبراير ١٧٩٥ . ويعده البعض « أكثر الشعراء السويديين أصالة » و « بالإجماع أعظم شاعر فى زمرة الشعراء » الذين شرفوا هذا العهد [٥١] .

ولكن الرجل الذى أقر معاصروه بأنه لا يفضله سوى الملك فى حياة العصر الفكرية هو يوهان هنريك كيلجرين . كان ابنا لقسيس ، ولكنه تنكر للعقيدة المسيحية ، وسار فى ركاب التنوير الفرنسى ، ورحب بكل لذائذ الحياة ومتعها بأقل قدر من الندم . وكان أول كتبه « ضحكى » ، أغنية طويلة للفرح ، بما فيه أفراح العشق ؛ وقد أشاد كيلجرين بالضحك باعتباره « العلامة الوحيدة الإلهية المميزة للبشرية » وناشده أن يصحبه حتى آخر أيامه [٥٢] . وفى ١٧٧٨ ، وهو فى السابعة والعشرين ، اشترك مع كارل بيتر لنجرين فى تأسيس مجلة « بريد ستوكهولم » ، وقد جعل قلمه المرح هذه المجلة الصوت الغالب فى الحياة العقلية السويدية على مدى سبعة عشر عاماً ؛ وفى صفحاتها بسط التفوير الفرنسى سلطانه كاملا ، وشرف الأسلوب الكلاسيكى باعتباره اسمى معيار للتفوق . وسخرت المجلة من الرومانسية الألمانية ، وامتدحت خليلات كلجرين فى قصائد أفزعت المحافظين فى البقاع النائية . على أن اغتيال مليكه المحبوب انتزع من فلسفة اللذة التى دان بها الشاعر . وفى ١٧٩٥ أفلت منه زمام إحدى علاقاته الغرامية فعمقت حتى أصبحت حباً صادقاً . وبدأ كيلجرين يعترف بحقوق الرومانس ، والمثالية ، والدين ، وعدل عن إدانته لشيكسبير وجوته ، ورأى أن رأس الحكمة قد يكون مخافة

الله (رغم كل شيء) . على أنه حين مات (١٧٩٥) غير متجاوز الرابعة والأربعين . طلب ألا تقرع لموته نواقيس[٥٣] وهكذا عاد في النهاية ابنا لفولتير .

ومن النواحي الساحرة في خلقه استعداده لفتح أعمدة مجلته لمعارضي آرائه . وكان أعنفهم توماس توريلد ، الذي أعلن الحرب على التنوير باعتباره الإعجاب الفج بالفكر السطحي . وقد روع توريلد ستوكهولم وهو في الثانية والعشرين بكتابه « العواطف المشبوبة » الذي قال عنه إنه « يحوى القوة الكاملة لفلسفتي والبهاء كله لخيالي — طليقاً ، نشوان ، رائعاً » . وصرح بأن « حياته بأسرها مكرسة . . . للكشف عن الطبيعة وإصلاح العالم »[٥٤] . والتف حوله نفر من الأدباء المتمردين الذين أججوا نارهم بوقود الحركة الزوبعية وفضلوا كلوبشتوك على جوته ؛ وشكسبير على راسين . وروسو على فولتير . فلما أخفق توريلد في كسب جوستافس لصفه ، هاجر إلى انجلتره (١٧٨٨) ، وغذى روحه بجيمس طومسن ، وإدوارد يونج ، وصموئيل رتشردسن ، وانضم إلى المتطرفين الذين ناصروا الثورة الفرنسية . وفي ١٧٩٠ قفل إلى السويد ونشر دعوة سياسية حملت الحكومة على نفيه . وبعد أن قضى عامين في ألمانيا سمح له بالعودة إلى السويد حيث استكان إلى كرسي في الجامعة .

وقد لمع في سماء الأدب نجوم آخرون . منهم كارل جوستاف آف ليوبولد الذي سر الملك بما اتسم به شعره من شكل كلاسيكي وطابع مهذب . ومنهم بنجت ليدنر الذي آثر الرومانس كما آثره توريلد . وقد طرد من جامعة لوند لمغامراته الطائشة (١٧٧٦) ، ثم واصل دراساته وانخرط في روشتوك ، فوضع على ظهر سفينة مبحرة إلى جزر الهند الشرقية . ولكنه هرب منها ، وعاد إلى السويد ، وأثار انتباه جوستافس بديوان من القصص الخرافية الشعرية ؛ وقد عين سكرتيراً للكونت كرويتز في سفارة باريس وهناك درس النساء أكثر من السياسة ، فأرسل إلى وطنه ، حيث مات

فقيراً فى الخامسة والثلاثين (١٧٩٣) . وقد كفر عن حياته بثلاثة دواوين تضطرم بنار بايرونية . ثم هناك شاعرة متواضعة هى آنا ماريا لنجرين ، زوجة مساعد كيلجرين فى تحرير مجلة بريد ستوكهولم . فقد أسهمت فيها بشعر أكسبها ثناء خاصاً من الأكاديمية الملكية السويدية . ولكنها لم تسمح لربة شعرها أن تعوقها عن أداء واجباتها المنزلية ؛ وفى قصيدة موجهة إلى ابنة وهمية نصحتها بأن تتجنب السياسة والمجتمع وتقنع بواجبات البيت ومباهج الحياة البيتية .

ونسأل الآن : هل قامت فى الفن السويدى أى حركة تتجاوب مع الأدب والدراما ؟.. قليلا ما ... ومن أمثلتها أن كارل جوستاف التسينى زخرف بالروكوك (حوالى ١٧٥٠) القصر الملكى الذى بناه أبوه نيقودموس تسين فى ١٦٩٣ - ٩٧ . وجمع مجموعة وافرة من الصور والتماثيل هى الآن جزء من متحف ستوكهولم القومى . وحفر يوهان طوبياس زرجيل بالأسلوب الكلاسيكى تمثالا لفينوس وآخر لفون سكران (وهو إله الحقول والقطعان) ، وخلد فى الرخام ملامح يوهان باش الغليظة . وكان هناك أربعة مصورين فى أسرة باش : لورنتس الأكبر ، وأخوه يوهان ، وأخته أولريكا ، ولورنتس الأصغر ، وصور كل منهم الملكية والنبالة ، وكانوا جانباً متواضعاً فى التنوير الرائع الذى ازدان به هذا الحكم .

٤ - الاغتيـــال

كان الملك ذاته هو الذى ختم هذا الازدهار الرائع ختاماً حزيناً . ذلك أن الثورة الأمريكية التى عضدتها فرنسا أعظم تعضيد بدت له خطراً يتهدد كل الملكيات . فوصف المستعمرين بأنهم « رعايا متمردون » وأقسم أنه لن يعترف بهم أمة حتى يحلهم ملك انجلترة من يمين الولاء له (٥٥) . وراح فى العقد الأخير من عمره يحكم زمام السلطة الملكية أكثر فأكثر . ويحيطها بالاحتفالات والمراسم ، ويقصى معاونيه الأكفاء ذوى العقول المستقلة ليحل محلهم خداماً له يمتثلون لرغباته دون تردد أو معارضة . وبدأ يقيد الحرية التى منحها للمطبوعات . وحين وجد زوجته امرأة غبية خاملة إنغمس فى

مغازلات (٥٦) صدمت الرأى العام الذى كان يتوقع من ملوك السويد أن يكونوا للأمة قدوة فى المحبة والولاء الزوجيين . ثم نفر الشعب بتقريره احتكار الحكومة لتقطير المسكرات ، وتهرب الفلاحون الذين ألفوا أن يقطروا شرابهم بأنفسهم من هذا الاحتكار بعشرات الحيل . وقد أنفق مالا متزايداً على الجيش والبحرية ، وكان يتأهب بشكل ظاهر للحرب مع الروسيا . فلما جمع مجلس الأمة مرة ثانية (٦ مايو ١٧٨٦) افتقد فى طبقاته ذلك الإجماع الذى وافق به مجلس ١٧٧٨ على قوانينه ، ورفض المجلس مقترحاته كلها تقريباً ، أو عدلها تعديلا أفقدها قيمتها ، فاضطر الملك إلى إلغاء احتكار الحكومة لتقطير الخمور . وفى ٥ يوليو فض المجلس وقرر أن يحكم البلاد دون موافقته .

وكانت هذه الموافقة طبقاً لدستور ١٧٧٢ ضرورية فى أى حرب إلا الحرب الدفاعية . وكان جوستافس ينوى الهجوم على روسيا . فما السبب ؟ لقد علم أن روسيا والدنمرك قد وقعتا (١٢ أغسطس ١٧٧٤) معاهدة سرية للعمل الموحد ضد السويد . وزار كاترين الثانية فى سانت بطرسبرج فى ١٧٧٧ ، ولكن تظاهرهما بالصداقة لم يخدع المضيفة ولا ضيفها . فلما تكاثرت انتصارات روسيا على تركيا ، خشى جوستافس إذا لم يقم بعمل لإنهائها أن توجه الامبراطورية عاجلا جيوشها الضخمة غرباً بأمل إخضاع السويد لمشيئتها على نحو ما فعلت ببولنده ، فهل من سبيل لإحباط تلك الخطة ؟ لاسبيل فى رأى الملك إلا أن تعان تركيا بهجوم جناحى على سانت بطرسبرج . وساعده السلطان على اتخاذ هذا القرار بعرضه على السويد إعانة قدرها مليون قرش كل سنة على امتداد السنوات العشر التالية إذا انضمت إليه فى الجهد المبذول لكبح جماح كاترين . وعلل الملك نفسه بأن السويد قد تستطيع الآن أن تسترد ما أسلمته لبطرس الأكبر فى ١٧٢١ . وعليه ففى ١٧٨٥ بدأ جوستافس فى تجهيز جيشه وبحريته للحرب . وفى ١٧٨٨ أرسل إلى روسيا انذاراً نهائياً طالب فيه برد كاريليا وليفونيا للسويد ، وبرد القرم لتركيا . وفى ٢٤ يونيو أبحر قاصداً فنلنده . وفى ٢ يوليو ، تولى فى هلسنجفورس قيادة قواته المتجمعة ، وشرع فى الزحف على سانت بطرسبرج .

ولكن الحظ خانه في كل شيء فالأسطول أوقفه أسطول روسي صغير في معركة غير حاسمة تجاه جزيرة هوجلاند (١٧ يوليو). وتمرد في الجيش ١١٣ ضابطاً، متهمين الملك بأنه حنث بعهده بألا يشن حرباً هجومية دون موافقة مجلس الأمة، ووافدوا مبعوثاً إلى كاترين يعرضون عليها أن يضعوا أنفسهم تحت حمايتها وأن يتعاونوا معها في جعل فنلنده السويدية والروسية دولة مستقلة. وجردت الدنمرك على عجل خلال ذلك جيشاً يهاجم جوتبورج، أغنى مدينة في السويد. وتقبل جوستافس هذا الغزو باعتباره تحدياً يستنفر شعبه، ووجه نداءه إلى الأمة لاسيما الفلاحين الصلاب أهل مناطق التعدين المسمين «ديلز» ليعطوه جيشاً جديداً أكثر ولاء له، وذهب بشخصه مرتدياً الزى الذى يتميز به رجال الديلز ليخطبهم من فناء الكنيسة في قرية مورا وهو الفناء الذى التمس فيه جوستافس فازا معونتهم في ١٥٢١. واستجاب الشعب، وتألفت أفواج المتطوعين في مائة مدينة. وفي سبتمبر ركب الملك الذى كان يقاتل لأجل حياته السياسية ٢٥٠ ميلا في ثمان وأربعين ساعة، وشق طريقه إلى جوتبرج، واستنفز الحامية لتواصل دفاعها ضد اثنى عشر ألف من الدنمركيين الذين يحاصرونها. وتحول الحظ إلى جانبه. ذلك أن بروسيا التى كرهت أن تترك السويد تخضع لروسيا هددت بشن الحرب على الدنمرك، فانسحب الدنمركيون من الأرض السويدية. وعاد جوستافس ظافراً إلى عاصمته.

أما وقد اشتد ساعده بجيش جديد موال له فقد دعا مجلس الأمة للانعقاد في ٢٦ يناير ١٧٨٦. وأيد سبعمائة عضو من أعضاء مجلس النبلاء — وعددهم ٩٥٠ — الضباط المتمردين، ولكن المجالس الأخرى — القساوسة، وأهل المدن، والفلاحين — ناصروا الملك بأغلبية ساحقة. وأعلن جوستافس الحرب السياسية على النبلاء بتقديمه لمجلس الأمة «قانوناً للوحدة والأمن» ألغى كثيراً من امتيازات الطبقة الارستقراطية، وفتح باب المناصب كلها تقريباً [illegible]. وأعطى الملك سلطات ملكية مطلقة في التشريع والإدارة والحرب [illegible] الطبقات الثلاث الدنيا القانون، أما طبقة النبلاء فقد رفضته [illegible]. واعتقل جوستافس واحداً وعشرين نبيلا. [illegible]

الكونت فردريك آكسل فون فرسن والبارون كارل فردريك فون بكلين — وأحدهما رجل شريف الخلق غير فعال ، والآخر ذكي غادر . ولكن سلطة المال ظلت في يد مجلس الأمة ، وكانت موافقة المجالس الأربعة جميعها شرطاً لإقرار الاعتمادات المالية . ووافقت مجالس الطبقات الثلاث الدنيا على المال الذي طلبه الملك — للفترة التي يراها ضرورية — لمواصلة الحرب ضد روسيا ، أما مجلس النبلاء فرفض أن يوافق على الاعتمادات لأكثر من سنتين . وفي ١٧ أبريل دخل الملك مجلس النبلاء ، واتخذ مقعد الرئيس ، وطلب إلى النبلاء أن يوافقوا على قرار المجالس الثلاثة الأخرى . ورجحت كفة الرافضين، ولكن الملك أعلن أن اقتراحه فاز . وشكر النبلاء على تأييدهم الكريم ، ثم خرج بعد أن خاطر باغتياله بأيدي النبلاء الساخطين .

وأحس الآن أنه مطلق اليد في خوض الحرب . فأعاد فيما بقي من عام ١٧٨٩ بناء الجيش والأسطول . وفي ٩ يوليو ١٧٩٠ التقت بحريته بالبحرية الروسية في الجزء السفنسكوندي من خليج فنلنده ، وأحرز أعظم نصر حاسم في تاريخ السويد البحري ، وخسر الروس ثلاثاً وخمسين سفينة و ٩,٥٠٠ رجل . واستعدت كاترين الثانية لعقد الصلح وهي ما تزال مشغولة بالترك ، فوافقت بمقتضى معاهدة فارالا (١٥ أغسطس ١٧٩٠) على أنها جهودها للهيمنة على سياسة السويد ، وأعيدت الحدود إلى ماكانت عليه قبل الحرب . وفي ١٩ أكتوبر ١٧٩١ أقنعها جوستافس بأن تبرم معه حلفاً دفاعياً تعهدت فيه بأن ترسل للسويد كل عام ٣٠٠,٠٠٠ روبل .

ولا ريب في أن خوف العدوين القديمين المشترك من الثورة الفرنسية حولهما إلى هذه المشاركة الجديدة . وتذكر جوستافس في عرفان أن فرنسا كانت الصديق الوفي للسويد طوال ٢٥٠ عاماً ، وأن لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر أمداه بمعونة بلغت ٣٨,٣٠٠,٠٠٠ جنيه بين عامي ١٧٧٢ و ١٧٨٩ . واقترح تأليف عصبة من الأمراء والملوك تغزو فرنسا وتعيد الملكية إلى سابق قوتها ، وأوفد هانز آكسل فون فرسن (وهو ابن عدوه الكونت فون فرسن) ليدبر فرار لويس السادس عشر من باريس ،

وذهب بنفسه إلى إكس — لا — شابل ليقود جيش الحلفاء ، وسمح للمهاجرين الفرنسيين بالالتجاء إلى معسكرة . وقدمت كاترين المال دون الرجال . ورفض ليوبولد الثانى التعاون ، وقفل جوستافس إلى ستوكهولم ليحمى عرشه .

ذلك أن النبلاء الذين قضى على سيادتهم السياسية لم يرتضوا الهزيمة ، وكانوا يرون فى حكم جوستافس الاستبدادى انتهاكاً صريحاً للقانون الذى أقسم من قبل على مساندته . وأطال يعقوب انكارشتروم التفكير فى سقوط طبقته ، «لقد فكرت كثيراً فى أنه قد يكون هناك سبيل مشروع لجعل الملك يحكم وطنه وشعبه بمقتضى القانون ومحبة الخير ، ولكن كل الأدلة قامت ضدى . . . فخير أن يغامر إنسان بحياته فى سبيل المصلحة العامة » ، وفى ١٧٩٠ حوكم بتهمة التحريض «لقد عقدت هذه المحنة . . . عزمى على أن أموت خيراً من أن أحيا حياة تعسة ، حتى إن قلبي الذى طبع فى غير هذا على الحساسية والمحبة انقلب قاسياً أشد القسوة فيما يتصل بهذه الفعلة الشنيعة»(٥٧). وانضم بكلين — كونت كارل هورن — وغيره إلى المؤامرة التى بيتت قتل الملك .

وفى ١٦ مارس ١٧٩٢ ، وهو تاريخ يذكر بقيصر ذكرى مشئومة ، تلقى جوستافس رسالة تحذره من الذهاب إلى مرقص تنكرى حددت له تلك الليلة فى المسرح الفرنسى. وذهب الملك نصف مقنع ، ولكن الأوسمة التى حملها على صدره كانت تشى بمقامه . فتعرف عليه أنكارشتروم ، وأطلق عليه النار ، ثم فر هارباً . وحملوا جوستافس إلى مركبة مضوا بها إلى القصر الملكى مخترقين جمعاً هائجاً مضطرباً . وكان ينزف نزفاً خطراً ، ولكنه علق مداعباً بأنه أشبه ببابا يحمل فى موكب يخترق طرق روما . ولم يمض على الهجوم ثلاثة ساعات حتى قبض على أنكارشتروم ، ثم على رؤوس المؤامرة أجمعين بعد أيام . واعترف هورن بأن المؤامرة تضم مائة متآمر .

وطالبت الجماهير بإعدامهم ، وأوصى جوستافس بالترفق بهم . فجلد أنكارشتروم ، وقطع رأسه ، ومزق جسده أرباعاً ، وأفسح لجوستافس في الأجل عشرة أيام ، فلما أنبئ بأن لم يبق له في الحياة غير ساعات ، أملى وثائق بتعيين هيئة وصاية تحكم البلاد والعاصمة . ثم مات في ٢٦ مارس ١٧٩٢ بالغاً من العمر خمسة وأربعين عاماً . وبكته الأمة كلها تقريباً . لأنها تعلمت أن تحبه رغم أخطائه . وأدركت أن السويد تحت قيادته عاشت عصراً من أمجد العصور في تاريخها .

....

CHAPTER XVI

1. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 372; *cf.* Macdonald, Duncan, *The Religious Attitude to Life in Islam*, 126.
2. Lane, Edward W., *Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I, 148; Macdonald, Duncan, *Development of Muslim Theology*, 283; Wherry, E. M., *Commentary on the Quran*, I, 281.
3. Macdonald, D., *Religious Attitude*, 126.
4. Doughty, Charles M., *Travels in Arabia Deserta*, II, 99.
5. Halsband, Robert, *Life of Lady Mary Wortley Montagu*, 73.
6. Lane-Poole, Stanley, *Story of Turkey*, 319.
7. Burton, Sir Richard, *Personal Narrative of a Pilgrimage to Al-Madinah and Meccah*, II, 94.
8. Letter of Apr. 18, 1717, in Montagu, *Letters*, I, 318.
9. Letter of Apr. 1, 1717, in same, 286.
10. Friedländer, L., *Roman Life and Manners*, II, 201.
11. Frederick, *Mémoires*, I, 55.
12. Sir Wm. Petty, *Political Arithmetic* (1683).
13. Halsband, 74.
14. See *The Age of Louis XIV*, 425-26.
15. Lane, I, 272.
16. Lane-Poole, *Cairo*, 180.
17. Lane, I, 98.
18. *Ibid.*, 66.
19. *Enc. Brit.*, I, 618a.
20. *Ibid.*, XV, 816d.
21. Toynbee, *A Study of History*, I, 162.
22. Browne, Edward G., *Literary History of Persia*, IV, 135.
23. *Ibid.*, 136; Sykes, Sir Percy, *History of Persia*, II, 260.
24. *Ibid.*, 267.
25. *Enc. Brit.*, XII, 705b; Pope, Arthur U., *Survey of Persian Art*, IV, 470, 497-506.
26. Sykes, II, 201.
27. Pope, Arthur U., *Introduction to Persian Art*, 140.
28. Browne, E. G., IV, 282.
29. *Ibid.*, 292-96.

CHAPTER XVII

1. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 207.
2. Lyashchenko, Peter, *History of the National Economy of Russia*, 271-73.
3. *Ibid.*
4. Réau, Louis, *L'Art russe*, II, 88.
5. Florinsky, M. T., *Russia: A History and an Interpretation*, I, 575.
6. Mavor, James, *Economic History of Russia*, I, 477.
7. Réau, II, 88.
8. Mavor, I, 498-99.
9. Bernal, J. D., *Science in History*, 360.
10. Coxe, Wm., *Travels in Poland, Russia, Sweden, and Denmark*, I, 281-82.
11. Castéra, J., *History of Catherine II*, 174.
12. Dorn, *Competition for Empire*, 70.
13. Florinsky, I, 600; Brückner, A., *Literary History of Russia*, 113.
14. Coxe, *Travels*, I, 322.
15. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 250.
16. Pougin, Arthur, *Short History of Russian Music*, 10 f.
17. Réau, II, 55.
18. Brückner, 78.
19. Waliszewski, K., *History of Russian Literature*, I, 57.

20. Wiener, Leo, *Anthology of Russian Literature*, I, 224-29.
21. Rambaud, Alfred, *History of Russia*, II, 170.
22. Waliszewski, *Peter the Great*, 224.
23. Waliszewski, *Russian Literature*, 83.
24. *Ibid.*
25. 85.
26. Catherine the Great, *Memoirs*, 60.
27. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 47.
28. *Ibid.*
29. 25.
30. Kluchevsky, V. O., *History of Russia*, IV, 354.
31. Catherine, *Memoirs*, 58.
32. Gooch, G. P., *Catherine the Great*, 11.
33. *CMH*, VI, 317.
34. Carlyle, *History of Frederich the Second*, V, 294.
35. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 34.
36. Kluchevsky, IV, 358.
37. Casanova, *Memoirs*, I, 33-34.
38. *CMH*, VI, 658.
39. Catherine, *Memoirs*, 28.
40. *Ibid.*, 44-45.
41. 29-30.
42. 54.
43. 62.
44. 63.
45. 65.
46. *CMH*, VI, 659.
47. Waliszewski, *Romance*, 78.
48. *Ibid.*
49. Kluchevsky, IV, 360.
50. Castera, 122-23.
51. Waliszewski, *Romance*, 91.
52. Catherine, *Memoirs*, 203.
53. Castéra, 89.
54. Walpole, H., *Memoirs of the Reign of King George III*, I, 145.
55. Catherine, *Memoirs*, 208.
56. Gooch, *Catherine*, 8.
57. Catherine, 301.
58. *Ibid.*, 240.
59. 255 f.
60. Waliszewski, *Romance*, 102; Crocker, *The Embattled Philosopher*, 378.
61. Catherine, 271-74; Waliszewski, *Romance*, 119.
62. *Ibid.*, 125.
63. Catherine, 282.
64. Waliszewski, *Romance*, 145.
65. *Enc. Brit.*, XVII, 645b
66. Castéra, 153.
67. Rambaud, II, 175.
68. Kluchevsky, IV, 366.
69. Castéra, 147, 157.
70. *Ibid.*, 156; *CMH*, VI, 328.
71. Kluchevsky, IV, 362.
72. Castéra, 152.
73. Waliszewski, *Romance*, 166.
74. *Ibid.*, 166; Castéra, 158.
75. Waliszewski, 166.
76. *Ibid.*, 164.
77. Gooch, *Catherine*, 16.
78. Catherine, 343.
79. *Ibid.*
80. Waliszewski, *Romance*, 176.

CHAPTER XVIII

1. Letter of Catherine to Potemkin, Aug. 2, 1762, in Catherine, *Memoirs*, 347.
2. Kluchevsky, IV, 371.
3. Catherine, 345.
4. Kluchevsky, IV, 371.
5. Catherine, 345.
6. Florinsky, I, 502.
7. *CMH*, VI, 663.
8. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 199.
9. *Ibid.*
10. Catherine, 370.
11. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 303.
12. Rambaud, II, 207.
13. Florinsky, I, 504.
14. Brandes, *Voltaire*, 253.
15. Florinsky, I, 504.
16. Catherine, 263-72.
17. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 97.
18. Waliszewski, *Romance*, 383-88. Gooch, *Catherine*, 38.
19. Waliszewski, 4-6.
20. Masson, *Memoirs*, 98.
21. *Ibid.*
22. Catherine, 360.
23. *Ibid.*, 20.
24. Lewis, D. B. W., *Four Favorites*, 197.
25. Catherine, 376.
26. *Ibid.*, 48.
27. Gooch, *Catherine the Great*, 45.
28. Masson, *Memoirs*, 116.
29. Waliszewski, *Romance*, 448.
30. Masson, 118.
31. Parton, *Life of Voltaire*, II, 386; Gooch, 58.
32. Voltaire, letter of May 18, 1767, in Desnoiresterres, VI, 380.
33. Parton, II, 388.
34. Desnoiresterres, VI, 380.
35. Letter of Sept. 7, 1764.
36. Crocker, *Embattled Philosopher*, 373.
37. Diderot, *Oeuvres*, 28.
38. In Ellis, Havelock, *The New Spirit*, 47.
39. Morley, John, *Diderot*, II, 113.
40. *Ibid.*, 114.
41. In Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 242.
42. Crocker, 380.
43. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 215.

44. Padover, *Revolutionary Emperor*, 161.
45. Sainte-Beuve, II, 216.
46. Catherine, 365.
47. Castéra, 226; *cf.* Waliszewski, *Romance*, 371-82
48. Coxe, *Travels in Poland*, III, 156; Castéra, 385.
49. Quoted by Voltaire in *Philosophical Dictionary*, II, 102.
50. Florinsky, I, 511; *CMH*, VI, 686.
51. In Gooch, *Catherine*, 69.
52. Voltaire to Catherine, Feb. 26, 1769.
53. In Rambaud, II, 206.
54. Voltaire, *Phil. Dict.*, art. "Power."
55. Mavor, *Economic History of Russia*, I, 241; Rambaud, II, 211.
56. Waliszewski, *Romance*, 365.
57. Garrison, F., *History of Medicine*, 400.
58. Castéra, *Catherine*, 297; Rambaud, II, 212.
59. Mavor, I, 313-14.
60. *Ibid.*, 472.
61. *CMH*, VI, 690.
62. Waliszewski, *Romance*, 298.
63. Lyashchenko, 273.
64. Mavor, I, 204-08.
65. Gershoy, 125.
66. Catherine, *Memoirs*, 385.
67. Gershoy, 123.
68. Florinsky, I, 567-68.
69. Waliszewski, *Romance*, 321.
70. [illegible]
71. Rambaud, II, 192; *Cambridge History of Poland*, II, 103.
72. Gooch, *Catherine*, 63.
73. Rambaud, II, 192.
74. *CMH*, VI, 674.
75. Quoted by George Bancroft in *Literary and Historical Miscellanies*, 359.
76. Gooch, *Catherine*, 51.
77. Lewis, *Four Favorites*, 213.
78. *Ibid.*, 179.
79. 215; Bain, R. N., *The Last King of Poland*, 175.
80. Florinsky, I, 531.
81. Catherine, 15.
82. Gilbert, *Prince de Ligne*, 139; Waliszewski, *Romance*, 209.
83. Castéra, 575.
84. Gooch, *Catherine*, 96.
85. Reddaway, *Frederick the Great*, 340.
86. Waliszewski, *Romance*, 233, 287.
87. *Ibid.*, 388.
88. Catherine, 377.
89. *CMH*, VI, 696.
90. Waliszewski, *Romance*, 237.
91. Wiener, *Anthology of Russian Literature*, I, 272-76.
92. *Ibid.*, 385.
93. 390.
94. 381.
95. Waliszewski, *History of Russian Literature*, 103.
96. Brückner, *Literary History of Russia*, 102.
97. *Ibid.*, 115.
98. 116.
99. 105-07.
100. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 342.
101. Réau, *L'Art russe*, II, 111.
102. *Ibid.*, 68.
103. Waliszewski, *Romance*, 349.
104. *Enc. Brit.*, XIX, 747b.
105. Waliszewski, *Romance*, 346.
106. Réau, II, 76.
107. *Ibid.*
108. 79.
109. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 93.
110. Gilbert, *Prince de Ligne*, 143.
111. Brückner, 112.
112. Morley, John, *Diderot*, II, 128; Rambaud, II, 245.
113. *Ibid.*, 247.
114. Masson, *Memoirs*, 303-06.
115. Catherine, 20.
116. Masson, 66.
117. Gooch in introd. to Catherine, *Memoirs*, 10.
118. Otto Hötzsch in *CMH*, VI, 701.

CHAPTER XIX

1. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 37.
2. Goodwin, *The European Nobility*, 161.
3. Waliszewski, *Poland the Unknown*, 127.
4. Bain, R. Nisbet, *The Last King of Poland*, 22; Friedländer, L., *Roman Life and Manners*, II, 162.
5. Bain, 43.
6. *Cambridge History of Poland*, II, 75.
7. *Ibid.*, 76-77; Coxe, Wm., *Travels in Poland*, II, 125.
8. *New CMH*, VII, 374; Lewinski-Corwin, E. H., *Political History of Poland*, 286.
9. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 73.
10. Bain, *Last King of Poland*, 100.
11. *Ibid.*, 59.
12. 31-32.
13. See *The Age of Louis XIV*, 374, 385-87.
14. *CHP*, II, 24.
15. Lewinski-Corwin, 289.
16. Bain, *Last King*, 55.
17. *Ibid.*, 56.
18. Aldis, *Madame Geoffrin*, 248.
19. Florinsky, *Russia*, I, 517.
20. Aldis, 251.
21. *Ibid.*, 282.
22. *CHP*, II, 116; Bain, 161.
23. Bain, *Last King*, 121.
24. Rambaud, *History of Russia*, II, 188.
25. *CHP*, II, 118.
26. *CHP*, II, 97-98; Bain, 77-78.

27. Rambaud, II, 188.
28. Bain, *Last King*, 78.
29. *CHP*, II, 120.
30. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Superstition," Sec. III.
31. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 267.
32. *CHP*, II, 102.
33. *Ibid.*, 103.
34. *Ibid.*; Bain, 108.
35. Bain, *Last King*, 108.
36. *Ibid.*, 2.
37. *Enc. Brit.*, XVIII, 143d.
38. Treitschke, *Life of Frederick the Great*, 164.
39. *CMH*, VI, 670.
40. Lewis, D. B. W., *Four Favorites*, 202.
41. Gershoy, 180.
42. Morley, John, *Life of Voltaire*, in Voltaire, *Works*, XXIb, 346; Florinsky, I, 537.
43. Coxe, *Travels in Poland*, I, 159.
44. Bain, *Last King*, 121.
45. *CHP*, II, 181-82.
46. Bain, 102.
47. *CHP*, II, 181-83.
48. *Ibid.*, 135.
49. Bain, *Last King*, 249.
50. *Ibid.*, 278.
51. *CHP*, II, 155.

CHAPTER XX

1. In Gooch, *Frederick the Great*, 65.
2. MacLaurin, C., *Mere Mortals*, 105.
3. Mowat, R. B., *The Age of Reason*, 61.
4. Gooch, *Frederick*, 121.
5. Mann, Thos., *Three Essays*, 213.
6. Sir James Harrison in Gooch, *Frederick*, 149.
7. In Rolland, *Musical Tour*, 214.
8. *New York Times*, Mar. 10, 1929.
9. Frederick, letter of Oct. 30, 1770, in Voltaire and Frederick, *Letters*, 314.
10. Crocker, Lester, *Age of Crisis*, 133.
11. Gooch, *Frederick*, 138.
12. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 80.
13. Voltaire and Frederick, *Letters*, 249.
14. Frederick to Voltaire, July 2, 1759, and Oct. 31, 1760, in *Letters*, 256, 270.
15. Bertaut, J., *Napoleon in His Own Words*, 463.
16. Treitschke, *Life of Frederick*, 182.
17. In Hazard, Paul, *European Thought in the 18th Century*, 333.
18. *Sainte-Beuve*, *Portraits of the 18th Century*, II, 344.
19. *Ibid.*, 347.
20. In Mowat, 105.
21. Morley, in Voltaire, *Works*, XXIb, 195.
22. Sainte-Beuve, I, 220-21.
23. Voltaire and Frederick, *Letters*, 282.
24. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, IV, 179n.
25. Frederick to Voltaire, Feb. 10, 1767.
26. Chesterfield to his son, *Letter.*, June 23, 1752.
27. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 299.
28. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 106; Gershoy, 75.
29. Paulsen, *German Education*, 142.
30. Gershoy, 284.
31. Carlyle, *Friedrich*, VII, 201.
32. Gershoy, 76; Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 297.
33. *Ibid.*, 299.
34. Bruford, W. H., *Germany in the 18th Century*, 186.
35. *CMH*, VI, 718
36. Gershoy, 84.
37. Frederick, *Testament* (1768), in *CMH*, VI, 723.
38. Bruford, 22.
39. Casanova, *Memoirs*, I, 349.
40. Burke, *Thoughts on French Affairs*, in *Reflections on the French Revolution*, 296.
41. Pascal, Roy, *The German Sturm und Drang*, 75-76.
42. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 163.
43. Sime, James, *Lessing*, II, 131.
44. Schiller, *Poems*, 219-20, In *Works*.
45. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, 79.
46. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 44.
47. Bruford, 39.
48. *Enc. Brit.*, IX, 132b.
49. Padover, *Revolutionary Emperor*, 269. Campbell, Thos., *The Jesuits*, 611.
50. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 404
51. Smith, N. K., *Commentary to Kant's "Critique of Pure Reason,"* 6.
52. Eckermann, introduction.
53. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 118.
54. *Ibid.*, 116-17.
55. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 251. In *Works*.
56. F. C. Schlosser in Monroe, Paul, *Textbook in the History of Education*, 580.
57. Morley in Voltaire, *Works*, XXIb, 153.
58. Nettle, *Mozart and Masonry*, 9.
59. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 318.
60. *Ibid.*
61. 331.
62. Sime, *Lessing*, I, 27.
63. Garland, H. B., *Lessing*, 154.
64. *Ibid.*, 118.
65. Lessing, *Laocoön*, 190; Ch. xxvi, *ad. init.*
66. Bosanquet, *History of Aesthetic*, 221n.
67. Lessing, *Laocoön*, 56.
68. *Ibid.*, 57.

69. Sime, II, 4.
70. *Ibid.*, 55.
71. Lessing, *Hamburgische Dramaturgie*, No. 70, in Garland; 64.
72. Lessing, *Sämtliche Schriften*, X, 53, in Sime, II, 206.
73. Sime, II, 85.
74. Casanova, II, 271.
75. See *The Age of Voltaire*, 502.
76. Sime, II, 348.
77. Lessing, *Education of the Human Race*, No. 74 (Harvard Classics, Vol. XXXII, 212).
78. *Ibid.*, Nos. 85–86.
79. Brandes, *Goethe*, I, 434; Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 190.
80. Sime, II, 300; Brandes, *Goethe*, I, 434.
81. Sime, II, 346.
82. *Ibid.*, 330.
83. Klopstock, *The Messiah, ad finem.*
84. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 79; II, 5. In *Works.*
85. *Penguin Book of German Verse*, 175.
86. *Ibid.*, 178–90.
87. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 350. In *Works.*
88. Eckermann, 370 (Feb. 18, 1829).
89. Boehn, Max von, *Modes and Manners*, IV, 238.
90. Pascal, Roy, *The German Sturm und Drang*, 5.
91. *Ibid.*, 31.
92. Francke, Kuno, *History of German Literature*, 312.
93. *Ibid.*, 310.
94. Boehn, 124.
95. Schloss Tiefurt, near Weimar.
96. Schlossmuseum, Weimar.
97. Sanssouci Palace, Potsdam.
98. Winckelmann, II, 36.
99. Leipzig, Museum der Bildenden Künste.
100. Munich, Neue Pinakothek.
101. Dresden Gemäldegalerie.
102. Winterthur, Museum des Kunstvereins.
103. Schlossmuseum, Weimar.
104. Dresden Gemäldegalerie.
105. Weimar Museum.
106. Jahn, *Mozart*, III, 235.
107. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 589.
108. *Grove's Dictionary of Music*, I, 175.
109. Jahn, II, 65.
110. *Grove's*, I, 145–55, 177–81.
111. Gooch, *Frederick*, 298.
112. Frederick, *Mémoires*, I, 56 f.
113. Gooch, 309.
114. *Ibid.*, 305.
115. 319.
116. 323.
117. Frederick, *Mémoires*, I, 56.
118. Gooch, *Frederick*, 319.
119. *Ibid.*, 280.
120. 292.
121. 287.
122. 287.
123. 291.
124. 89.
125. 294.
126. In Hauser, Arnold, *Social History of Art*, II, 602.
127. Pascal, Roy, *Sturm und Drang*, 42.
128. MacLaurin, *Mere Mortals*, 201.
129. Gooch, *Frederick*, 110.

CHAPTER XXI

1. Paulsen, *Immanuel Kant*, 26n.
2. Überweg, F., *History of Philosophy*, II, 139.
3. T. M. Greene in introd. to Kant, *Religion within the Limits of Reason Alone*, *xxviii.*
4. *Ibid.*, *xxx.*
5. Paulsen, *Kant*, 37.
6. Wilson, E. C., *Immanuel Kant*, 3.
7. Herder, *Briefe zur Beförderung der Humanität*, in Paulsen, *Kant*, 40.
8. Williams, H. S., *History of Science*, III, 27–28.
9. Lovejoy, Arthur, *The Great Chain of Being*, 266.
10. Harlow Shapley in Wilson, *Immanuel Kant*, 51.
11. Kant, *Critique of Judgment*, II, 78; Paulsen, 272n.
12. Überweg, II, 150.
13. Paulsen, 272n.
14. In Smith, N. K., *Commentary*, *xix.*
15. Kant, *Critique of Pure Reason*, 1st ed., 13 (preface).
16. *Critique of Judgment*, I, 3.
17. *Pure Reason*, 1st German ed., 10 (preface).
18. *Pure Reason*, 2d German ed., *xliii.*
19. *Ibid.*, *xxx*, *xxxiv.*
20. *Prolegomena to Any Future Metaphysics*, 9 (preface).
21. In Paulsen, 96.
22. *Pure Reason*, 1st Germ. ed., 112.
23. *Ibid.*, 125; *Prolegomena*, No. 36.
24. *Pure Reason*, 42.
25. *Ibid.*, 307, 375.
26. *Pure Reason*, 2d Germ. ed., 131–33, 136, 139, 143.
27. *Ibid.*, 428.
28. First ed., 622–23.
29. *Ibid.*, 627.
30. 671–73, 675.
31. 468.
32. 683–92, 698.
33. 700.
34. Karl Reinhold in Paulsen, 114.
35. *Prolegomena*, 13 (preface).
36. *Pure Reason*, first ed., 298, 752.

37. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 337.
38. *Pure Reason*, 2d ed., *xxx*, *xxxiv*.
39. Kant, *Fundamental Principles of the Metaphysics of Ethics*, 35.
40. Kant, *Critique of Practical Reason*, 313.
41. *Ibid.*, 248, 259.
42. 142.
43. *Fundamental Principles*, 68.
44. *Ibid.*, 57.
45. *Practical Reason*, 108-9, 146.
46. *Pure Reason*, 2d ed., 571-73.
47. *Ibid.*, *xxviii*, 566-69, 580-81; *Practical Reason*, 164 f.
48. *Ibid.*, 259 f.
49. 260.
50. *Pure Reason*, 1st ed., 819.
51. Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 25.
52. Heine, H., *Religion and Philosophy in Germany*, in Paulsen, 8a.
53. *Critique of Judgment*, I, 18, 15.
54. *Ibid.* [illegible]
55. 46.
56. *Critique of Judgment*, II, 89.
57. *Ibid.*, 117.
58. Kant, *Werke*, VI, 129, in Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 39.
59. Überweg, II, 141.
60. Kant, *Religion within the Limits of Reason Alone*, 3.
61. *Ibid.*, 8.
62. 8.
63. 28.
64. 29.
65. Kant, *Education*, No. 19.
66. Kant, *Religion*, 35.
67. Kant, "Conjectural Beginning of the History of Man," in Überweg, II, 186.
68. Kant, *Religion*, 51.
69. *Ibid.*, 147, 159-61.
70. 142-43.
71. 91.
72. 63.
73. 117.
74. 57, 134.
75. 186.
76. 183-85.
77. 153, 164-65, 168, 112.
78. *Ibid.*, *xxxiv*.
79. Kant, *A Philosophical Treatise on Perpetual Peace*, 10.
80. *Ibid.*, 28.
81. 32.
82. *Practical Reason*, 341n.
83. *Perpetual Peace*, 78.
84. Paulsen, 351.
85. *Perpetual Peace*, 29-30; Smith, N. K., *Commentary*, *lvii*.
86. *Education*, No. 30.
87. *Ibid.*, No. 7.
88. Paulsen, 374.
89. *Practical Reason*, 326n.
90. *Ibid.*, introd. by T. G. Abbott, *xliii*.
91. *Ibid.*, *xliv*.
92. Paulsen, 45.
93. *Ibid.*, 47; Klinke, *Kant for Everyman*, 105.
94. Stuckenberg, *Life of Kant*, 340-54, in Robertson, J. M., *Freethought*, II, 343.
95. Robertson, II, 345.
96. Letter of Apr., 1766, in *Religion within the Limits of Reason Alone*, introd., *xxxvi*.
97. Paulsen, 52.
98. Vaihinger, *The Philosophy of "As if,"* 313.
99. *Ibid.*, 316-17.
100. Witte, *Schiller*, 46.
101. Schiller, *Poems*, 290.
102. Eckermann, 79 (Apr. 14, 1824).
103. Emerson, lecture of 1842 on "The Transcendentalist," in Wilson, E. C., *Immanuel Kant*, 23.

CHAPTER XXII

1. Eckermann, 138 (Apr. 27, 1825).
2. Lewisohn, L., *Goethe*, I, 134.
3. Schiller to Körner, Aug. 8 and Sept. 10, 1787, in Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 140-43.
4. Brandes, *Goethe*, I, 307.
5. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 101.
6. Francke, *History of German Literature*, 253.
7. Wieland, *History of Agathon*, I, *xxiv*.
8. Francke, 255.
9. *Agathon*, I, 123 (Book III, Ch. ii).
10. *Ibid.*, Book III, Ch. iii.
11. In Francke, 258.
12. Eckermann, 285 (Sept. 26, 1827).
13. Mann, Thos., *Three Essays*, 8.
14. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 385. In *Works*.
15. *Ibid.*, 155 f.
16. 209-30.
17. 178.
18. 175.
19. 233.
20. 318.
21. Goethe, *Works*, VII, 27.
22. *Truth and Fiction*, I, 306. In *Works*.
23. *Ibid.*, 367.
24. 368.
25. Brandes, *Goethe*, I, 71.
26. Autobiography of Heinrich Jung-Stilling in Lewisohn, I, 49.
27. In Ludwig, Emil, *Goethe*, 31.
28. *Truth and Fiction*, I, 407.
29. In Ludwig, 42.
30. Eckermann, 291 (Oct. 8, 1827).
31. E.g., *Truth and Fiction*, II, 43.
32. *Ibid.*, 75.
33. Letter of June, 1771, in Lewisohn, I, 57.

34. *Truth and Fiction*, II, 120.
35. *Ibid.*, 143.
36. Brandes, I, 140.
37. Ludwig, 57.
38. Goethe, *Götz von Berlichingen*, Act I, Sc. ii.
39. *Truth*, II, 167.
40. From Kestner's diary, in Lewisohn, I, 71.
41. *Truth*, II, 188.
42. *Ibid.*, 214
43. 214.
44. Brandes. I, 273.
45. In Ludwig, 87.
46. Lewisohn, I, 101.
47. *Truth*, II, 216-17.
48. Eckermann, 52 (Jan. 2, 1824).
49. Goethe, *Werther*, letters of July 19 and 21 and Aug. 30, 1771.
50. Goethe, letter to Kestner, Nov. 20, 1774, in Lewisohn, I, 105.
51. Sime, *Lessing*, II, 200.
52. Lewisohn, I, 101.
53. Kestner, letter to Hennings, Nov. 18, 1772, in Pascal, *German Sturm und Drang*, 108.
54. *Truth*, Book XII.
55. In Ludwig, 94.
56. Lavater's diary, June 28, 1774, in Lewisohn, I, 99.
57. Goethe's letter of Nov. 12, 1816, in Lewisohn, II, 262.
58. Le[illegible]sohn, I, 295.
5[illegible]. [illegible]uth, II, 261, 309.
60. Translation in Carus, Paul, *Goethe*, 245-47.
61. *Truth*, II, 318, 327.
62. *Ibid.*, 366.
63. Clark, Robert. *Herder*, 160.
64. *Truth*, II, 11.
65. *Ibid.*, 16.
66. In Pascal, *German Sturm und Drang*, 225.
67. Heiseler, B. von, *Schiller*, 49.
68. Schiller, *Poems*, 7. In *Works*.
69. *Ibid.*, 9.
70. Carlyle, *Life of Schiller*, 15. In *Works*.
71. Schiller. *The Robbers*, Act I. Sc. ii.
72. *Ibid.*, II, iii.
73. *Ibid.*
74. V, i.
75. Heiseler, 47.
76. Ungar, Frederick, *Friedrich Schiller*, 34.
77. Witte, *Schiller*, 131.
78. Heiseler, 83.
79. Schiller, *Philosophical Letters*, p. 376 (Letter I). In *Works*.
80. *Ibid.*, 385 (Letter IV).
81. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 12.
82. *Ibid.*, 13-16.
83. Heiseler, 85.
84. *Ibid.*
85. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 30-33.
86. Körner to Schiller, July 8, 1785, in *Correspondence*, I, 36.

CHAPTER XXIII

1. Einstein, *Mozart*, 19.
2. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 291. In *Works*.
3. Schiller to Körner, July 28 and Aug. 29, 1787.
4. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 85.
5. *Ibid.*, 90, 168.
6. Wieland, *Oberon*, introd.
7. Brandes, *Goethe*, II, 266-69.
8. Lewisohn, II, 209.
9. Schiller and Körner, I, 85.
10. Pascal, *German Sturm und Drang*, 17.
11. *Ibid.*, 18.
12. 17.
13. Goethe to Jacobi, Nov. 12, 1783.
14. Goethe to Lavater, December, 1783.
15. Schiller and Körner, I, 85.
16. Clark, *Herder*, 240.
17. Bancroft, Geo., *Literary and Historical Miscellanies*, 173.
18. Herder to Hamann, Jan. 13, 1777, in Pascal, 95.
19. Clark, *Herder*, 274-77.
20. Herder to Jacobi, Feb. 6 and Dec. 30, 1784, in Pascal, 104.
21. Pascal, 104.
22. Clark, 340.
23. Pascal, 106.
24. Clark, 303.
25. *Ibid.*, 322.
26. 357.
27. 368.
28. Lewisohn, I, 133.
29. *Ibid.*
30. 153.
31. Eckermann, 285 (Sept. 26, 1827).
32. Lewisohn, I, 134.
33. *Ibid.*, 135.
34. 137-40.
35. 141.
36. 146.
37. 150.
38. Goethe to Charlotte von Stein, May 24, 1776.
39. Lewisohn, I, 151.
40. *Ibid.*, 156.
41. 222.
42. Brandes, I, 335.
43. Lewisohn, I, 327.
44. *Ibid.*, 236.
45. 271.
46. 306.
47. Eckermann, 251 (Apr. 25, 1827).
48. Goethe's diary, in Lewisohn, I, 215.
49. Ludwig, 440.
50. Translation by Longfellow.
51. Lewisohn, I, 232.

52. See *The Age of Reason Begins*, 259-65.
53. Goethe, *Tasso*, Act I, Sc. ii.
54. *Ibid.*, II, i.
55. I, ii.
56. *Ibid.*
57. Letter of Apr. 24, 1783, in Lewisohn, I, 266.
58. Ludwig, 155.
59. Lewisohn, I, 309.
60. Ludwig, 217.
61. Letter of Oct. 8, 1786, in *Letters from Italy*, 177.
62. Ludwig, 222.
63. Städelsches Museum, Frankfurt.
64. Lewisohn, I, 320.
65. *Ibid.*, 322.
66. Eckermann, 133, 201 (Jan. 30, 1825, and Jan. 18, 1827).
67. *Letters from Italy*, Dec. 3, 1786, and Feb. 16, 1787.
68. *Ibid.*, Dec. 1 and 3, 1786.
69. Feb. 3, 1787, in Lewisohn, I, 327.
70. In McKinney and Anderson, *Music in History*, 511.
71. Eckermann, 213 (Jan. 29, 1827).
72. Taine, *Philosophy of Art*, in Brandes, *Goethe*, I, 457.
73. Letter of Dec. 13, 1786, in Lewisohn, I, 323.
74. Lewisohn, I, 353.
75. Brandes, I, 469.
76. Lewisohn, I, 257.
77. Goethe, *Poetical Works*, 34-42. In *Works*.
78. Lewisohn, I, 368.
79. Ludwig, 300.
80. Brandes, II, 50.
81. Letter of Jan. 3, 1781, in Lewisohn, I, 229.
82. Examples in Lewisohn, I, 101-2, 186-88, 196-97, 229, 379.
83. Ludwig, 246.
84. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 112.
85. *Ibid.*, 89 (Aug. 28, 1787).
86. Letters of July 28 and Aug. 18, 1787.
87. *Don Carlos*, Act III, Sc. x.
88. Schiller to Korner, Apr. 15, 1786.
89. Körner to Schiller, November, 1788.
90. Schiller to Körner, Sept. 12, 1788.
91. Schiller and Körner, *Correspondence*, II, 330.
92. Letter of May 28, 1789.
93. Carlyle, *Life of Schiller*, 103. In *Works*.
94. Letter of Dec. 7, 1787.
95. Heiseler, 114.
96. Letter of Mar. 1, 1790.
97. Heiseler, 119.
98. Schiller to Körner, Feb. 22, 1791.
99. Letter of May 24, 1791.
100. Schiller, *Essays*, 203. In *Works*.
101. *On the Aesthetic Education of Mankind*, Letters VII and X in *Essays*, 45, 53.
102. Letter of May 5, 1792.
103. Ludwig, 326.
104. Schiller, *Poems*, 272. In *Works*.
105. Schiller to Goethe, Aug. 17, 1795, in Schiller and Goethe, *Correspondence*, I, 88-89.
106. *On Naive and Sentimental Poetry.*
107. Eckermann, Oct. 7, 1827.
108. *Cf.* letter to Körner, Aug. 29, 1787.
109. Schiller to Goethe, Aug. 23, 1794.
110. Schiller to Goethe, Aug. 31, 1794.
111. Goethe, "Happy Incident," in Carlyle, *Life of Schiller*, 305. In *Works*.
112. Schiller and Goethe, *Correspondence*, I, 1.
113. *Ibid.*, 5.
114. 6.
115. Schiller to Körner, Feb. 1, 1796.
116. In Ungar, *Schiller*, 129.
117. *Ibid.*, 140.
118. Schiller, *Essays*, 286, 321. In *Works*.
119. *Wilhelm Meisters Lehrjahre*, I, 324.
120. Schiller to Körner, Dec. 9, 1794, Feb. 22, 1795, June 15, 1795, July 2, 1796.
121. Letters of July 2-9, Oct. 9, and Oct. 23, 1796.
122. Goethe to Schiller, July 7, 1796.
123. Eckermann, Mar. 23, 1829.
124. Ludwig, 385-86.
125. Eckermann, Mar. 22, 1825.
126. Lewes, G. H., *Life of Goethe*, II, 202.
127. Goethe to Schiller, Jan. 18, 1797.
128. *Hermann and Dorothea*, 56-57. In *Works*.
129. Brandes, II, 470.
130. Schiller to Körner, Jan. 5, 1800.
131. Eckermann, July 23, 1827.
132. Heiseler, 143.
133. Ludwig, 386.
134. Schiller to Charlotte Schimmelmann.
135. Goethe to Schiller, Feb. 28, 1801.
136. Eckermann, Oct. 7, 1827.
137. Lewisohn, I, 61.
138. Letter of Jan. 20, 1801.
139. Heiseler, 170.
140. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 182.
141. Schiller to Goethe, Dec. 21, 1803, in Lewisohn, II, 92.
142. *Ibid.*
143. Staël, 23-24.
144. Lewisohn, II, 293.
145. Heiseler, 189.
146. Eckermann, Jan. 18, 1827.
147. Witte, *Schiller*, 38.
148. Goethe to Zelter, June 1, 1805, in Lewisohn, II, 107.

CHAPTER XXIV

1. *Cf.* final lines of *Faust*, Part II.
2. Brandes, *Goethe*, II, 250.
3. Recollections of Friedrich von Müller, in Lewisohn, II, 161.
4. Brandes, 263-64.
5. *Ibid.*

6. Eckermann, Mar. 15, 1829.
7. For the historical background of the Faust legend see *The Reformation*, 852.
8. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 21-22. In *Works*.
9. Lewisohn, I, 123.
10. *Ibid.*
11. Eckermann, Feb. 10, 1829.
12. Brandes, 305.
13. In the *Gesamtausgabe* by Breitkopf and Härtel.
14. Translation by Albert Latham in Everyman's Library ed. of *Faust*.
15. Eckermann, Jan. 10, 1825.
16. Latham's translation, p. 52.
17. *Ibid.*, 117-19.
18. 116.
19. Brandes, 229.
20. Lewisohn, II, 174.
21. *Elective Affinities*, English tr., 335. In *Works*.
22. *Ibid.*, 180.
23. 218.
24. Ludwig, 427.
25. *Ibid.*, 429.
26. 453.
27. Lewisohn, II, 202-4.
28. Ludwig, 315
29. Lewisohn, II, 250.
30. *Ibid.*, 303.
31. 3[illegible]4.
32. 306-8.
33. Ungar, Frederick, *Goethe's World View*, 9.
34. Magnus, Rudolf, *Goethe as a Scientist*, 221.
35. *Ibid.*, *xvi-xviii*, 209.
36. 167.
37. 178.
38. Goethe's letter of May 17, 1787.
39. Magnus, 73.
40. *Ibid.*, 78; Brandes, 462.
41. *Ibid.*, 429.
42. Magnus, 42.
43. Ludwig, 188.
44. Magnus, 136.
45. Eckermann, Apr. 16, 1825.
46. Ungar, *Goethe's World View*, 31.
47. *Ibid.*, 77.
48. *Faust*, Part II, line 1754.
49. Ungar, *Goethe's World View*, 9, 105.
50. Letter of Jan. 6, 1798.
51. Ungar, 99.
52. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 108. In *Works*.
53. Quoted in Mann, *Three Essays*, 49.
54. *Truth and Fiction*, Part III, Book 11.
55. Ludwig, 3[illegible].
56. Ungar, *Goethe's World View*, 47.
57. *Ibid.*
58. *Truth and Fiction*, II, 272-73.
59. Lewisohn, I, 255.
60. *Truth and Fiction*, Book XIV.
61. Ungar, *Goethe's World View*, 47.
62. *Ibid.*, 41.
63. 37.
64. 37.
65. 43-45; Smith, Preserved, *Age of the Reformation*, 712.
66. *Truth and Fiction*, II, 311 f.
67. Ungar, *Goethe's World View*, 55.
68. Ludwig, 206.
69. *Ibid.*, 457.
70. Recollections of Johann Falk, in Lewisohn, II, 210.
71. Goethe to Zelter, May 11, 1820.
72. Brandes, I, 437.
73. Ungar, *Goethe's World View*, 81.
74. *Ibid.*, 6.
75. Eckermann, Apr. 2, 1829.
76. Ungar, 167.
77. *Ibid.*, 129.
78. 139.
79. 16.
80. 89.
81. *Truth and Fiction*, I, 421.
82. *Wilhelm Meisters Lehrjahre*, Book VII, Ch. iii.
83. *Ibid.*, Book V, Ch. iii.
84. Carus, *Goethe*, 168.
85. *Faust*, Part II, Act II.
86. Eckermann, Jan. 4, 1824.
87. Ungar, *Goethe's World View*, 50.
88. Eckermann, Feb. 13, 1829.
89. Ungar, 141.
90. *Ibid.*
91. 91.
92. Lewisohn, II, 438.
93. *Faust*, Part II, p. 341.
94. *Ibid.*, 207.
95. Friedrich von Müller, in Lewisohn, II, 370.
96. *Ibid.*, 371.
97. 376.
98. 430.
99. Goethe to Zelter, Dec. 14, 1830.
100. Lewisohn, II, 4[illegible]1.
101. Ungar, *Goethe's World View*, 131.
102. Mann, *Three Essays*, 63.
103. *Truth and Fiction*, II, 246.
104. Ludwig, 293.
105. *Ibid.*, 472.
106. In Mann, 47.
107. Lewisohn, II, 254.
108. In Friedell, Egon, *Cultural History of the Modern Age*, I, 272.
109. In Mann, 64.
110. We have followed the account given by K. W. Müller in 1832, in Lewisohn, II, 449 f.
111. Eckermann, 572.

CHAPTER XXV

1. In Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, II, 240.

2. See "Sermon of Rabbi Akib," and art. "Jews" in *Philosophical Dictionary*.
3. *Ibid.*, Sec. III.
4. Sec. IV.
5. See *The Age of Voltaire*, Ch. xiii, Sec. VII.
6. Cf. Black, J. B., *The Art of History*, 49-50.
7. Graetz, H., *History of the Jews*, V, 346.
8. Gay, *Voltaire's Politics*, 352.
9. Graetz, V, 347.
10. Rousseau, *Emile*, 267-68.
11. Sombart, W., *The Jews and Modern Capitalism*, 56.
12. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, III, 308-11.
13. Altamira, *History of Spain*, 462.
14. Parton, *Life of Voltaire*, I, 161.
15. Bell, Aubrey, *Portuguese Literature*, 280.
16. Lea, III, 310.
17. Abbott, G. F., *Israel in Europe*, 209.
18. Abrahams, I., *Jewish Life in the Middle Ages*, 224.
19. *Ibid.*
20. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 252.
21. *Jewish Encyclopedia*, XII, 434; Padover, 253 f; Graetz, V, 357.
22. Padover, 257.
23. Letter of May 17, 1717, in Montagu, Lady Mary W., *Letters and Works*, II, 321.
24. Dubnow, S. M., *History of the Jews in Rusia and Poland*, I, 255-58. Florinsky, *Russia*, I, 490
25. Dubnow, I, 307
26. *Ibid.*, 189.
27. 169-71
28. 173
29. 172-79.
30. 179-80.
31. 182-86.
32. Roth, Cecil, *The Jewish Contribution to Civilization*, 28.
33. Sombart, 23.
34. *Jew. Enc.*, XIX, 418a.
35. *Ibid.*, 415-18.
36. Corti, Egon C., *Rise of the House of Rothschild*, I, 19.
37. George, M. Dorothy, *London Life in the 18th Century*, 127.
38. Besant, Sir Walter, *London in the 18th Century*, 178.
39. Roth, 242.
40. Finkelstein, Louis, ed., *The Jews*, I, 260.
41. Besant, 180.
42. Browne, Lewis, *The Wisdom of Israel*, 551.
43. Dubnow, I, 233.
44. *Ibid.*, 222 f.; Baron, Salo, *Social and Religious History of the Jews*, II, 54 f.; Graetz, V, 374 f, Howe and Greenberg, *Treasury of Yiddish Stories*, 15 f.
45. Graetz, V, 294.
46. Hensel, S., *The Mendelssohn Family*, 4.
47. Sime, *Lessing*, I, 133.
48. Graetz, V, 298.
49. In Wolf, A., *History of Science . . . in the 18th Century*, 781.
50. Graetz, V, 309.
51. *Ibid.*, 311.
52. Hensel, 10.
53. Graetz, V, 317.
54. *Jew. Enc.*, VIII, 481d.
55. Graetz, V, 365.
56. *Ibid.*, 355.

CHAPTER XXVI

1. Voltaire, *Works*, 1b, 302.
2. In Herold, J., *The Swiss without Halos*, 106.
3. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 290.
4. Parton, *Life of Voltaire*, II, 458.
5. Lewisohn, II, 238-39.
6. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 240-46, 252, 375, 398-404. In *Works*.
7. Holberg, Ludwig, *Selected Essays*, p. 48 (Epistle 48).
8. Lady Mary Wortley Montagu, letters of Aug. 3 and 5, 1716, in *Letters and Works*, II, 226-27.
9. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, I, 237.
10. *Boswell in Holland*, 288.
11. Cumming, Ian, *Helvétius*, 50.
12. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 81.
13. Parton, *Life of Voltaire*, I, 152.
14. Blok, P. J., *History of the People of the Netherlands*, Part V, 174 f.; Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 353.
15. Blok, V, 183.
16. *Ibid.*, 92.
17. 86.
18. Dillon, Edw., *Glass*, 295 f.; Sitwell, S., *The Netherlands*, 147.
19. George Dempter to Boswell, Aug. 26, 1763.
20. *Boswell in Holland*, 93.
21. *Ibid.*, 317.
22. Herold, *Mistress to an Age*, 143.
23. *Ibid.*, 144.
24. Blok, V, 56.
25. *Ibid.*, 108
26. Horn, F. W., *History of the Literature of the Scandinavian North*, 187.
27. Freedley and Reeves, *History of the Theatre*, 268.
28. Holberg, *Seven One-Act Plays*, 165-87.
29. Matthews, Brander, *The Chief European Dramatists*, 705.
30. Holberg, *Journey of Niels Klim to the World Underground*, 10
31. *Ibid.*, 18.
32. 32.

33. 109.
34. 191.
35. 109.
36. Translation by Longfellow, in Van Doren, Mark, *Anthology of World Poetry*, 981.
37. Horn, *Scandinavian Literature*, 217.
38. Goodwin, A., *European Nobility*, 136.
39. *CMH*, VI, 762.
40. Bain, R. N., *Gustavus III*, I, 56.
41. *CMH*, VI, 768.
42. Bain, *Gustavus III*, I, 124.
43. Andersson, Ingvar, *History of Sweden*, 281.
44. Higgs, *The Physiocrats*, 87.
45. Bain, *Gustavus III*, I, 163.
46. *CMH*, VI, 776.
47. *Enc. Brit.*, XXI, 653d; Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 460, 108.
48. Gustafson, Alrik, *History of Swedish Literature*, 112, 136.
49. Bain, *Gustavus III*, I, 260; Horn, 355.
50. Bain, II, 239.
51. Horn, 359 f.
52. Gustafson, 139 f.
53. Bain, *Gustavus III*, II, 286-88; Gustafson, 139 f.
54. Horn, 369.
55. Bain, II, 210.
56. *Ibid.*, I, 38.
57. *Ibid.*, II, 157.

فهرس

الجزء الثالث

الكتاب الرابع

الصفحة

الفصل الثالث والعشرون :

الفصل الرابع والعشرون :

الفصل الخامس والعشرون :

الصفحة